الشريف العبقرى

دون كيخوتى دى لامانشا
الشهير بين العرب باسم "دون كيشوت"

القسم الثانى

تأليف
ميجيل دى ثربانتس سابيدرا

ترجمة: سليمان العطار



المركز القومى للترجمة

2084

يعرف دون كيخوت كل شيء عن ثقافة عصره والعصور الماضية، فيختلط فى عقله الخيال بالواقع، ويخرج من قريته بحثًا عن المغامرة ليعيش حياة الفرسان المشائين بكل ما فيها من خيال جامح قدمته كتب الفروسية.

إنه إنسان يريد أن يعيش الشعر فى الواقع فيعترضه الواقع، ويسقط عليه تحولات سحرية تزول بعد قليل لتكشف وجه الواقع، ولتصبح المغامرات الوهمية خطًا وهميًا بين الواقع والخيال، تستمد منها شخصية دون كيخوت أبعادها النفسية، وأدوات تعرفها على ذاتها وذوات الآخرين .

نقدم لكم إذن السيد الشريف العبقرى دون كيخوت الشهير بين العرب باسم دون كيشوت .

لوحة الغلاف: دون كيخوتى للفنان Jules David
تصميم الغلاف: نسرين كشك

الشريف العبقرى

دون كيخوتى دى لامانشا

الشهير بين العرب باسم "دون كيشوت"

(القسم الثانى)

المركز القومى للترجمة

تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2084
- الشريف العبقرى: دون كيخوتى دى لامانشا (ج٢)
- ميجيل دى ثربانتس سابيدرا
- سليمان العطار
- اللغة: الإسبانية
- الطبعة الأولى 2016

هذه ترجمة كتاب:

DON QUIJOTE DE LA MANCHA
Por: MIGUEL DE CERVANTES SAAVEDRA

شارع الجبلاية بالأوبرا– الجزيرة– القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

الشريف العبقرى
دون كيخوتى دى لامانشا
الشهير بين العرب باسم "دون كيشوت"
(القسم الثانى)

تـــــــــــأليف : ميجيل دى ثربانتس سابيدرا

تـرجمـــــــــــة : سـليـمــــان العـطـــار



2016

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

سابيدرا، ميجيل دى ثربانتس
الشريف العبقرى دون كيخوتى دى لامانشا الشهير بين العــرب باسم "دون كيشوت" (القسم الثانى) / تأليــف: ميجيل دى ثربانتس سابيدرا، ترجمة: سليمان العطار،
ط ٢ - القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٦
٨١٦ ص، ٢٤ سم
١ - القصص الإسبانية.
(أ) العطار، سليمان (مترجم)
(ب) العنوان ٨٦٣

رقم الإيداع: ٢٥٦٧٦ /٢٠١٥
الترقيم الدولى: I.S.B.N - 978 - 977 - 92 - 0493 - 2
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

تقديم المترجم

تأخر ثربانتس جدا فى إصدار القسم الثانى من روايته "دون كيخوتى"، وكان قد وعد بإصداره حتى يئس الناس من وفائه بوعده، ويستغل هذا التأخير مؤلف غير معروف ويصدر رواية أطلق عليها "القسم الثانى من دون كيخوتى".

عمل مستقبح أفسد الصورة الرائعة للعمل، هذا المؤلف اسمه ألونسو فرناندث دى أبيَّانيدا، وعلى غلاف المؤلف ذكر أنه من سكان قرية تورديسيَّاس، وأنه من مواليد ترَّاجونا، وفى هذه المدينة نشر هذا الكتاب الماسخ عام ١٦١٤. لكنه كان بركة كبيرة، فقد حفز ثربانتس على كتابة القسم الثانى تحت ضغط الجماهير التى خدعها هذا المؤلف السيئ، وتحت ضغط الرغبة فى الدفاع عن الذات، وفوق ذلك، فإن الكاتب دخل فى صلب الرواية فى القسم الثانى، حيث يغضب دون كيخوتى غضبًا شديدًا من مؤلف الكتاب، ويبتعد عن مدينة سرقسطة، حتى لا يعطى مصداقية للمؤلف الخبيث، بل إنه يحس عند موته بالذنب، لأنه دفع هذا الرجل لكتابة حماقاته السخيفة؛ قضية بديعة تكشف عن القمة التى وصل إليها ثربانتس فى معالجة الواقع الحى، والساخن جماليا.

ولم لا؟ أليس هو حفيد ابن شُهَيْد الذى كان وراء "التوابع والزوابع" إنها نفس الحوافز، كما أنها عالجت بنفس السخرية الواقع الساخن الذى يمس ذات المؤلف. وفى ظل هذا نفهم عبارات المؤلف التى تركز أيضًا على ذلك "الدون كيخوتى" الآخر. كاد ثربانتس يتحد ببطله دون كيخوتى، الذى يعيش فى بيته مع امرأتين، مشكلاً عائلة بائسة، هى عائلة ثربانتس نفسها. بين السلاح والأدب عاش ثربانتس

وكانت مشكلة دون كيخوتى، بل سانشو حاكمًا يرتدى حلة نصفها لأديب والنصف الآخر لقبطان عسكرى. نجح ثربانتس فى أن يسخر من كل شيء حتى الكنيسة والتفتيش فى سحر يضعف سلطان هذه المؤسسة الدينية الطاغية . إنها السخرية التى تحفر حدودًا بين الزيف والحقيقة، و يطلقون عليها المفارقة التى تحول السخرية دائمًا إلى نكتة فضحكة فسعادة. إليكم القسم الثانى من دون كيخوتى الذى استهلك آخر شمعات النور فى هذا المؤلف العظيم والتى بعد إصدار القسم الثانى هذا كانت بقاياها تتلألأ فيما يشير إليه من وعود إلى الكونت دى ليموس، حيث سيكون سيجسموندو آخر أعماله. يموت ثربانتس فى نفس العام الذى مات فيه شكسبير، فرسا رهان، ما زال كلاهما الأول يتصدر عالم الرواية والثانى عالم المسرح، وكلاهما بموته بدأت حياته، بل حياة الجمال فى فنين من أهم أقاليم مملكة ذلك الجمال الفنى.

إهداء إلى الكونت دى ليموس

عند إرسالى إلى فخامتكم فى الأيام الماضية مسرحياتى الكوميدية المطبوعة والممثلة، وإذا كنت حسن الذاكرة فإنى قلت إن دون كيخوتى يعد العدة للذهاب لتقبيل يدى فخامتكم، والآن أقول إنه قد أنهى استعداده، وأخذ الطريق، فإذا وصل إلى هناك، فمن الممكن أن أكون قد قمت ببعض الخدمة لفخامتكم، لأن السرعة الكبيرة التى حفزت إليها من كل اتجاه لإرساله، حتى أزيل التهديد والغثيان الذى سببه دون كيخوتى آخر، والذى تنكر تحت اسم القسم الثانى، وسار فى كل مسار بالفلك؛ ومَنْ أبدى رغبة أكبر فى إرساله إليه كان إمبراطور الصين، والذى أرسل إلىَّ خطابًا باللغة الصينية منذ شهر تقريبًا طالبًا منى، أو قل متوسلاً أن أرسله إليه، حيث يريد تأسيس مدرسة تقرأ فيها اللغة القشتالية، وأحب أن يكون دون كيخوتى هو الكتاب الذى يُقرأ، وبجانب ذلك طلب منى أن أكون مدير تلك المدرسة. سألت حامل الرسالة عما إذا كان جلالته قد أعطاه من أجلى مساعدة لتكاليف ذلك، أجابنى بألا يرد ذلك على تفكيرى. وهكذا أجبته: "إذن أيها الأخ يمكنك العودة إلى صين فخامتكم عشرات أو عشرينات (أى كل يوم عشر أو عشرين فرسخًا)، أو ما كان من خطوك عند القدوم، لأن صحتى لا تسمح لى بهذه الرحلة الطويلة، فضلاً عن أمر مرضى، فإنى خالى الوفاض جدا من النقود، وإمبراطور مقابل إمبراطور، وملك مقابل ملك، عندي في نابولى الكونت دى ليموس الأعظم، الذى دون لف ودوران حول مدارس ومدراء ليقيم أودى، ويقدم لى الملاذ، وينعم علىَّ بأكثر مما تصيب رغباتى. وبهذا صرفته، وبهذا أستودعكم الله، مقدمًا لفخامتكم أعمال لوس

برسيلس، وسيجسموندو، وهو كتاب سأنهيه فى أربعة أشهر. ذلك الكتــاب الــذى سوف يكون إما الأسوأ أو الأحسن مما أُلِّفَ فى لغتنا، أود القول بين كتب التــسلية، وأقول إنى أندم لقولى "الأسوأ"، لأنه طبقًا لرأى أصدقائى، ينبغى أن يكون قد بلــغ أطراف الحسن الممكن. متعكم الله بالصحة، حيث سيكون لوس برسيلس على وشك تقبيل يديكم، وأنا قدامكم، خادمًا لفخامتكم.

مدريد آخر أكتوبر ١٦١٥

خادم فخامتك

ميجيل دى ثربانتس سابيدرا

مقدمة للقارئ (كتبها ثربانتس)

ليرحمنى الله! كم ينبغى أن تكون منتظرًا بشوق كبير الآن، أيها القارئ النابه هذه المقدمة، أو لعلك تريدها مقدمة طويلة اللسان، معتقدًا أن تجد فيها ثارات ومشاحنات وإهانات لمؤلف دون كيخوتى الثانى، أعنى، ذلك الذى يقولون إنه قد نشأ فى توردِيسيَّاس، وولد فى تراجونا! مع ذلك، فلن أهبك هذا الرضا، على الرغم من أن الاعتداءات توقظ حمًّى الغضب فى أكثر الصدور حلمًا، فصدرى فى هذا يعد استثناء للقاعدة. هل تود أن أصفه بالجحش والمخبول والمتجرئ؟ لكن لا يمر بتفكيرى ذلك، ولتعاقبه جريرته، وليمضغها مع خبزه، وليجد ذاته هناك. لكن ما لم أستطع ألا أحزن له أن يصفنى بالعجوز والعاجز اليد، كما لو كان فى يدى إيقاف الزمن، حتى لا يمر تياره فى كينونتى، وكما لو كان عجزى قد ولد فى حانة، وليس فى أسمى مناسبة رأتها العصور الماضية والحاضرة، ولا تتوقع أن تشهد مثلها العصور القادمة. وإذا لم تشرق جروحى فى عيون من ينظر إليها، فعلى الأقل يقدرها من يعرفون أين أصبت بها، والجندى الذى ينجو بالهرب ميت وإن عاش، والآن لو اقترحوا علىَّ، وسهلوا لى بطريقة ما مستحيلاً هو النجاة، لاخترت مرة أخرى أن أوجد فى تلك الموقعة الحربية المعجزة، دون سلامتى الآن من جروحى المشروطة بألا أكون قد شهدتها محاربًا. والجروح يظهرها الجندى فى الوجه والصدر نجومًا تهدى إلى سماء الشرف والتشوُّف للثناء المستحق، وينبغى العلم أيضًا بأنهم لا يكتبون بشعراتهم البيضاء، وإنما بألمعيتهم التى اعتادت النمو والتحسن بمر السنين. واحفظنى أيضًا أن يطلق علىَّ الحسود، وباعتباره جاهلاً

يصف لى الحسد، وواقع الحقيقة، غير شيئين لا أعرف، هما حسن النية فى التقوى، وحسنها فى النبالة، وإذا كان الأمر كذلك فليس علىّ أن أطارد أىّ قسيس (للاعتراف بآثام لم تقع)، خاصة ممن ينتسبون للتفتيش الكنسىُ، وإذا كان قالها على لسان من يبدو أنه قالها، فقد خدع نفسه تمامًا، مع أننى أجل عبقريته وأعجب بأعماله، وانشغاله المستمر والحقيقى(*). لكن بالفعل، أشكر لهذا السيد المؤلف قوله إن رواياتى ساخرة أكثر منها مثالية، لكنها جيدة؛ ولا يمكن أن تكون كذلك إذا لم تضم كل شىء (يعطى الجودة).

يبدو أنك تقول لى إننى أسير فى محدودية، وإننى أنطوى على نفسى كثيرًا بألفاظ تواضعى، عارفا أنه لا ينبغى أن يضاف الضعف للضعيف، وما يجب أن ينال هذا السيد – دون شك – عظيم، فهو لا يجرؤ على الظهور فى ميدان مكشوف، وتحت سماء كاشفة، متسترًا على اسمه، مدعيًا موطنه، كما لو كان قد ارتكب خيانة عظمى ضد الوطن والإنسانية. وإذا بالصدفة توصلت لمعرفته، قل له من طرفى، بأننى لا أعد نفسى قد اعتُدى علىَّ، فأنا أعرف جيدًا إغراءات الشيطان، وواحدة من أكبر هذه الإغراءات تأليف كتاب وطبعه، يكسب من ورائه شهرة عظيمة ومثل ذلك من النقود، وكثرة المال توهم بقدرها شهرة، ولتدعيم ذلك أحب فى ملاحة وظرف أن أحكى هذه الحكاية:

كان فى إشبيلية مجنون، صنع واحدة من ألطف الترهات والمواضيع التى يمكن لمجنون فعلها فى العالم، حيث صنع أنبوبًا من الغاب حاد الطرف مجوفًا، وعند إمساكه بكلب فى الشارع أو فى أى مكان، يمسك بقدمه قدم الكلب ويرفع

(*) يشير إلى الكاتب المسرحى "لوبى دى بيقا"، ولقد تكررت إشارته إليه فى هجوم بكشف عن ملاحاة بينهما، ويبدو أن ذلك المؤلف المجهول قد انتقص من شأن ثربانتس مستعملا كلمات وربما شتائم قالها معاصره "دى بيقا" ضده.

الرجل الأخرى ويريح الأنبوب بإدخاله فى الثقب بينهما، وبالنفخ فى الأنبوب يـنفخ الكلب، فيتكور ويصير فى استدارة الكرة، ثم يضرب بكفـه مـرتين علـى بطنـه ويطلقه، قائلاً للمحيطين به، وكانوا دائمًا جمهرة من الناس غفيرة: هـل تعتقـدون فخامتكم الآن أن نفخ كلب يكلف من الجهد الكثير؟ والآن هل تعتقد فخامتك أن عمل كتاب يكلف من الجهد الكثير؟

وإذا لم يستوعب هذه القصة قل له أيها القارئ الصديق بنفسك هذه القـصة الأخرى عن مجنون وكلب أيضًا:

كان فى قرطبة مجنون آخر، وكان من عادته أن يحمل فوق رأسه (شـقفة) من المرمر، أو حصوة ليست من النوع الخفيف، وعندما يصادف كلبًا خالى البال، يقترب منه، ويلقى فوقه حمولته الحجرية، والكلب مطحونًا يطلق النباح والعـواء، ولا يتوقف عن الجرى قبل ثلاثة شوارع، وكان من بين الكلاب التى ألقـى عليهـا حمولته كلب صانع قبعات، وكان هذا يحب كلبه كثيرًا. ومرة ألقى بحصاته فـوق رأسه، وصرخ الكلب المطحون، ورآه صاحبه وأحس به، فأمسك بقضيب قيـاس، وخرج إلى المجنون ولم يترك به عظمة سليمة، وكلما أنزل به ضربة كان يقـول له: كلب، لص، أضد جروى؟ ألم تر أيها القاسى، أن كلبى كان جروا؟ وكرر عليه اسم الجرو مرات كثيرة، ثم تركه مضعضعًا. تأدب المجنون وانسحب، وأكثر مـن شهر لم يخرج إلى الشارع، وفى نهاية الشهر عاد باختراعه، وحمولـة حجريـة أكبر، واقترب من الكلب، وظل ينظر إليه خائفًا، دون رغبة فى التجرؤ على إلقـاء حجره قائلاً: "هو جرو؛ حاسب". وبالفعل كلما التقى بأى كلب آخر مهما كان نوعه كان يقول عنه إنه كان جروًا، وهكذا لم يطلق حجارته. وربما نفس المصير يحدث لهذا القصاص، الذى لن يجرؤ أكثر على إطلاق سدّ عبقريته فـى كتـب، لكونهـا رديئة، وهى أكثر صلابة من الحجارة.

قل له أيضًا إن تهديده لى بأنه سيحرمنى من مكاسَب (بيع كتابى) بكتابه، لا يعنينى قدر أنملة، ومعتمدًا على العمل القصير الهازل (انتريمس) المشهور "المبهرجة"، أجيبه: يحيا لى منصب نائب البلدية، والله مع الجميع. من ثم يحيا الكونت العظيم دى ليموس، الذى عرفت عنه تقواه وكرمه فهو أكسير ضد ضربات حظى القليل الذى أتعثر به. وعاش لى البر الأسمى لألمعى طليطلة العظيم دون برنادو دى ساندوبال إى روخاس، حتى لو لم تكن هناك مطابع فى العالم، وحتى لو طبعت ضدى كتب أكثر، تحوى كل حروف كوبليهات مينجو ريبالجو (الهجائية). هذان الأميران، دون أن يتغيَّاهما المدح من طرفى، أو أى نوع آخر من التهليل لهما، فقط لسماحهما، حملا على عاتقهما الإنعام علىَّ وإكرامى، ما أراه كل السعد والغنى أكثر مما لو كان أسعفنى الحظ بالطريق العادى لوضعى فى الذروة. والفقير يمكن أن يمتلك الشرف والكرامة لكن لا يمتلكهما الفاسد، ويمكن للفقر أن يضبب النبالة، لكن لا يلقى عليها بظلام كامل، ومثلما أن الحق يعطى بعض النور لذاته رغم كل الحواجز، وحاجات ضيق الحال، ومن هنا ينال تقدير الأرواح السامية والنبيلة، وبالتالى كرمها. لا تقل أكثر من ذلك، وأنا لا أود أن أقول لك شيئًا أكثر، غير أن تضع فى اعتبارك أن هذا القسم الثانى من دون كيخوتى قد تم قصه وتفصيله بنفس صنعة ونسيج القسم الأول، وفيها أقدم له دون كيخوتى مبسطًا ومبسوطًا، وأخيرًا ميتًا ودفينًا، حتى لا يجرؤ أحد أن يبعثه بشواهد جديدة، وقد كفى ما مضى منها، ويكفى أيضًا أن رجلاً شريفًا قد أخبر عن هذه الجنونيات العبقرية، دون أن يرغب فى العودة للدخول فيها من جديد، فإن الإسراف فى الأشياء (حتى لو كانت طيبة)، يفقدها اعتبارها، والندرة (حتى فى الأشياء القبيحة) قد تنال تقديرًا بطريقة ما. وقد نسيت أن أقول لك انتظر (البرسيلس)، فإنى على وشك الانتهاء منه، بجانب القسم الثانى من (جالاتيا).

الفصل الأول

حول ما قام به القسيس والحلاق مع دون كيخوتي فيما يتعلق بمرضه

يحكي سيدي حامدي بن إنجيلين في القسم الثاني من هذه القصة، والخروج الثالث لدون كيخوتي، أن القسيس والحلاق، قضيا شهرًا تقريبًا دون أن يرياه، حتى لا يجددا لذاكرته الأشياء الماضية، ومع ذلك لم يتجنبا من أجل هذا زيارة ابنة أخته، وأمَة بيته، بعد أن حملاهما مسئولية تدليله، وتقديم طعام منعش ومناسب للقلب والمخ، وهما مصدر سوء حظه طبقًا للرأي الراجح. وهما قالتا إنهما سوف تنفذان ذلك، بطيب خاطر، وبكل العناية الممكنة، لأنهما لاحظتا أن سيدهما يبدي للحظات دلائل على كمال قواه العقلية، وقد أسعد ذلك الرجلين، لما بدا لهما من أنهما أحسنا فعلاً بإحضاره مسحورًا في عربة الثيران، كما سبق حكايته في الفصل الأخير من القسم الأول من هذه القصة العظيمة والمفصّلة. وهكذا قررا زيارته وتجربة تحسنه، وإن استقر لديهما استحالة ذلك التحسن، وقد اتفقا ألا يشيرا بأي حال من الأحوال إلى الفروسية المشّاءة، حتى لا يعرضا غرز جرحه التي مازالت طرية للتمزق من جديد.

وفي النهاية، قاما بزيارته، ووجداه جالسًا على السرير مرتديًا قميصًا من الصوف الوبر، وعلى رأسه طاقية حمراء من صنع طليطلة، وكان مجففًا مقددًا، لا يظهر عليه إلا أنه مخلوق من لحم محنط. أحسن استقبالهما، سألاه عن صحته،

وهو تحدث عن نفسه وعن صحته في رجاحة عقل، وبكلمات بالغة الرشاقة، وخلال الدردشة عالجوا الموضوع الذى يطلق عليه المصالح العليا للدولة ونظم الحكم، مقوّمين ذلك الإفراط، وشارعين فى إدانة ذاك، مصلحين إحدى العادات، نافين أخرى، صانعًا كل واحد من ثلاثتهم من نفسه مشرعًا جديدًا، و(ليكورجو) آخر، أو (سولون) العصر، وبهذه الطريقة جددوا العالم، كما لو كانوا قد وضعوه فى فرن صهر، وأخرجوه خلقًا جديدًا من ذلك الفرن، وتكلم دون كيخوتى فى كل المسائل المثارة بكل ذكاء حتى إن الممتحنين الاثنين اعتقدا دون شك، أنه كان بكامله فى خير، وفى كامل قواه العقلية.

حضرت تلك الدردشة ابنة الأخت والأمة، ولم يشبعا من حمد الله وشكره لرؤية سيدهما بهذا التعقل الكامل؛ لكن القسيس غير اتفاقه الأول، فى عدم الإشارة بأى حال من الأحوال إلى الفروسية، راغبًا فى حسم التجربة بشكل قاطع، عما إذا كان شفاء دون كيخوتى كان زائفًا أو حقيقيا، وهكذا، فى استدراج غير مباشر، بدأ يحكى بعض الأخبار التى وردت من البلاط، ومن بينها قال إنه من المؤكد أن الأتراك قد هبطوا ببحرية جبارة، لا يعرف مقصدها، وأنها ستمطر وابل سحائبها، وأمام هذا الخطر الذى يهددنا تقريبا فى كل الأعوام، وهو خطر يتعرض له كل العالم المسيحى، أمر جلالة الملك بتحصين شواطئ نابولى وصقلية وجزيرة مالطة بالإمدادات، وعلى هذا أجاب دون كيخوتى:

– جلالة الملك قد فعل ما ينبغى أن يفعله المحارب كثير الحذر، بتحصين ولاياته فى الوقت المناسب، حتى لا يفاجئه العدو على غفلة، لكنه لو أخذ بنصيحتى لنصحته باتخاذ إجراء وقائى، بعيد فى اللحظة الراهنة تمامًا عن ذهن جلالته.

ما إن سمع ذلك القسيس حتى قال لنفسه: "وضعك الله بين يـــدى عنايتـــه، أيهـــا المسكين دون كيخوتى؛ فالظاهر لى أنك تتسنم ذروة جنونـــك حتـــى الهاويـــة العميقـــة لبلاهتك!" لكن الحلاق، الذى فكر فى نفس الشىء الذى فكر فيـــه القـــسيس، ســـأل دون كيخوتى عن ماهية نصيحته بذلك الإجراء الوقائى الذى قال إنه من الخير اتخاذه، والـــذى من الممكن إضافته إلى قائمة النصائح الكثيرة الصفيقة التى تعودوا تقديمها للأمراء.

قال دون كيخوتى:

– نصيحتى أيها السيد الحلاق، ليس من الصفاقة عرضها، إنما من اللياقة.

أجاب الحلاق:

– لا أقول ذلك مبالغًا، إنما لأن التجربة أظهرت أن كل أو معظم المـــشروعات التى تعرض على جلالته إما مستحيلة وإما مهاترات، أو تـــؤدى إلى إيقـــاع الضرر بالملك أو بالمملكة.

أجاب دون كيخوتى:

– نصيحتى ليست مستحيلة، ولا هى من المهاترات، وإنما هى الأسهل، والأكثر ضبطًا ويسرًا واختصارًا، مما لا يرد على بال أصحاب المشاريع.

قال القسيس:

– كم تتأخر فى قول فكرتك أيها السيد دون كيخوتى!

قال دون كيخوتى:

– لا أحب قولها الآن وهنا، – حتى لا يأتى عليها الغد وقد ذاعت بين أسمـــاع المستشارين، فينال آخرُ حمدَ جهدى وجائزته.

قال الحلاق:

- بالنسبة لى، أعطى كلمتى أمامكم، وأمام الله، ألا أقول ما ستقوله فخامتكم لصغير أو كبير، ولا لأى رجل على وجه الأرض، وهو قسم تعلمته من رومانث القسيس، الذى خلال الصلاة أبلغ الملك باسم اللص الذى سرق منه مائة دينار، وبغلته الجوّالة.

قال دون كيخوتى:

- لا أعرف هذه الحواديت، لكن هذا القسم مقبول، تحت إيمانى بأن السيد الحلاق رجل بر وصدق.

قال القسيس:

- وإذا لم يكنه، فإنى أضمنه وأشهد عليه، فى أنه لن يتكلم فى هذا الأمر مثل الأخرس، وتحت عقوبة دفع ما يحكم به عليه إن تكلم.

قال دون كيخوتى:

- وفخامتكم، من يضمنك؟

أجاب القسيس:

- مهنتى، وهى عبارة عن حفظ الأسرار.

عند هذا قال دون كيخوتى:

- عفوًا! هل يوجد أكثر من أن يرسل جلالته مناديًا عامًا يدعو كل الفرسان المشّائين الذين يتجولون فى إسبانيا إلى البلاط فى يوم محدد، حتى إنه لو لم يحضر منهم أكثر من نصف دسته، ولن يحضر أقل؛ فهم يكفون لتدمير

جبروت الأسطول التركى؟ ولينتبه فخامة كل منكما وتابعانى. وهل بالصدفة يعد جديدًا أن يقضى فارس مشّاء واحد على جيش مكون من مائتى ألف رجل، كما لو كانوا جميعًا لهم حنجرة واحدة، أو قضيب واحد من بلح الشام؟ وإذا لم يكن كذلك، قولوا لى: كم من القصص ملئ بهذه العجائب؟ كان من الواجب – فى هذه اللحظة الحرجة عندى ولا أحب أن أقول عند غيرى – أن يعيش الآن ذلك الشهير دون بليانس، أو أحد نسل أماديس دى جاولا ممن لا حصر لهم، حتى إنه لو كان واحد من هؤلاء يعيش اليوم، وواجه الأتراك، ما خاب فأل الملك! لكن الله سوف ينظر إلى شعبه بعين رعايته، وسيمن عليه ببعضهم، ممن إن لم يكونوا فى شجاعة من سبق من الفرسان المشّائين، فعلى الأقل لن يكونوا أقل حماسًا، والله وحده يعلم ما أقول، ولن أقول أكثر.

فى تلك اللحظة صاحت ابنة الأخت:

– آى! اقتلونى إذا لم يكن سيدى يحب أن يعود الفارس المشّاء من جديد!

وعلى هذا أجاب دون كيخوتى:

– لن أموت إلا فارسًا مشّاء، وليهبط أو يصعد الأتراك ماشاءوا، أو ما استطاع جبروهم، إلا أنى أقول مرة أخرى، الله وحده يعلم ما أقول.

وهنا قال الحلاق:

– أتوسل لفخامتكم أن تعطونى إذنًا بقصِّ حكاية مختصرة، قد وقعت فى إشبيلية، لمناسبتها للمقام أودُّ حكايتها.

أعطاه دون كيخوتى الإذن، ومعه القسيس، والباقون أعطوه آذانهم، وهو قد بدأ بهذه الطريقة:

- فى دار المجانين بإشبيلية، وجد رجل وضعه أقرباؤه هناك لجنونه، وكان قد تخرج من جامعة أسونا فى القانون اللاهوتى، ولكن حتى لو كان قد تخرج من جامعة سلمنقة نفسها، حسب رأى الكثيرين، فما كان ذلك سيغير من الأمر شيئًا. هذا الخريج، بعد عدة سنوات من إيداعه دار المجانين، أفهم الآخرين أنه عاقل، وفى كامل العقل، وبهذا التصور، كتب إلى القمص راجيًا له كثيرًا فى عبارات موفقة أن يرسل من يخرجه من البؤس الذى يعيشه فى تلك الدار، حيث إنه قد استعاد عقله بفضل الله ورحمته، لكن أقرباءه حتى يواصلوا التمتع بثروته، يستبقونه هناك، وضد ما عليه من عقل، يودون أن يظل مجنونًا حتى الموت. وقد اقتنع القسيس القمص مع كثرة رسائله العاقلة والموفقة، وأرسل القمص أحد مساعديه من القساوسة حتى يستعلم من مدير الدار، عما إذا كان ما كتب به الخريج إليه حقيقيا، ويتكلم فى نفس الوقت مع المجنون، وإذا بدا له أنه عاقل، عليه أن يخرجه من هناك، ويطلق سراحه. وهكذا فعل رسول القمص، فقال له المدير إن ذلك الرجل مازال مجنونًا، وعلى الرغم من أنه فى أحوال كثيرة يتكلم باعتباره إنسانًا عاقلاً، فإنه بعد ذلك يطلق الحماقات التى تساوى فى درجة حماقتها، ما سبق من درجة الجنون، وأنه يستطيع اختبار ذلك بالحديث معه. وبالفعل تكلم معه ساعة، أو بعض ساعة، وخلال كل ذلك الوقت لم يتفوه المجنون بعبارة واحدة بعيدة عن الصواب أو بها حماقة، بل تحدث فى يقظة، حتى إن القسيس اقتنع أنه عاقل، ومن بين أشياء كثيرة قالها المجنون، ما قاله من أن المدير سيئ النية نحوه، حتى لا يفقد الهدايا التى يقدمها له أقرباؤه، ولهذا يقول عنه إنه ما زال مجنونًا حتى الآن، وإن تعقله متقطع تشوبه فترات من الجنون، وإن عدوه

الأكبر فى نكبته عظم ثروته، ومن ثم فإن أعداءه للاستمتاع بها يغشون، ويشككون فى النعمة التى أنعم بها ربنا عليه من تحويله من دابة إلى إنسان. فى النهاية، تحدث بطريقة جعلت القسيس يشك فى المدير باعتباره إنسانًا طماعًا، وفى أهله باعتبارهم قومًا بلا رحمة، وفيه بأنه عاقل فطن، فقرر أن يحمله معه، حتى يراه القمص ويلمس بنفسه هذا الشأن. ومع هذا الاعتقاد الطيب، طلب القسيس من المدير أن يأمر بإعطائه الملابس التى دخل بها ذلك الخريج الجامعى الدار، والمدير من ناحيته طلب من القسيس التروى لأن الخريج ما زال مجنونًا.

لم تنفع فى شيء تحذيرات المدير ومخاوفه فى منع القسيس من حمله؛ فأطاع المدير ما دام ذلك أمر القمص، وارتدى الخريج ملابسه، وكانت جديدة ومهذبة، وما إن رأى نفسه مرتديًا ثياب العقلاء، وعاريًا من الجنون، رجا القسيس أن يعطيه إذنًا أن يذهب لتوديع زملائه المجانين من باب البر بهم. قال القسيس إنه يود صحبته فى ذلك، وصعدوا إليهم، وعندما اقترب الخريج من قفص كان به مجنون عنيف، وإن كان هادئًا فى تلك اللحظة ومطمئنًا، وقال له:

– أيها الأخ، انظر فيما لو توصينى بشيء، فأنا عائد إلى بيتى، فقد شاء الله تعالى بكرمه ورحمته أن يعيد إلىَّ عقلى، وإنْ لم أستحق منه كل هذا الكرم، إلا أنه تعالى لا يستحيل عليه شيء. املأ قلبك أملاً وثقة فيه، فكما أعادنى إلى حالتى الأولى سيعيدك أيضا. وأنا سأهتم بإرسال بعض الهدايا إليك، فكُلْها، كُلْها على أى حال، وأعلمك أننى أتصور – طبقًا لما مر بى – أن جنوننا بسبب المعدة الخالية من الطعام، والعقول المليئة بالهواء. فَتَقَوَّ، فإن هبوط الروح المعنوية فى النكبات، يهد الصحة، ويستجلب الموت.

استمع إلى كل هذه العبارات مجنون فى قفص آخر، ملتصق بقفص المجنون العنيف، ونهض من فوق حصير كان يستلقى عليه عاريًا تمامًا، وسأل من الذى كان يمضى صحيحًا، وعاقلاً. أجابه الخريج:

– إنه أنا أيها الأخ الذى أمضي من هنا، فلم تعد لى حاجة أكثر للبقاء هنا، الأمر الذى من أجله أحمد السموات وما حبتنى من نعمة كبيرة.

أجاب المجنون:

– انظر فيما تقول، أيها الخريج، ولا تترك الشيطان يضلك، رويدك، وابق هادئًا فى بيتك، مدخرًا العودة.

أجاب الخريج:

– أنا أعلم أننى بخير، ولن يوجد سبب كى أعود لأقضى مزيدًا من السنين هنا.

قال المجنون:

– أنت بخير؟ إذن، اذهب بسلامة الله، أسلمكم إلى المريخ إله الحرب، والذى أمثل عظمته فى الأرض، ومن أجل الإثم الذى ترتكبه إشبيلية اليوم بإخراجكم من هذه الدار، واعتباركم عاقلاً، سأوقع عقوبة عليها، وستبقى خالدة مخلدة لذكراها على مر دهر الدهور، آمين. ألا تعرف أيها الخريج الضئيل المنحوس، ما أستطيع عمله، وأنا ظل جوبيتر على الأرض، وبيدى الأشعة المحرقة، والتى أستطيع، بل أعتاد أن أهدد بها، وأدمر العالم؟ لكن بشىء واحد فقط أريد أن أعاقب هذه المدينة الجاهلة، وهو ألا أمطرها مع كل ما يتبعها من إقليم، لمدة ثلاثة أعوام كاملة، والتى يمكن حسابها من لحظة

إصدارى هذا التهديد فصاعدًا. أنت حر، أنت صحيح، أنت عاقل، وأنا مجنون، ومريض ومقيد؟...هكذا أفكر أن أمطر كما أفكر أن أشنق نفسي.

استمع الحضور لصرخات وعبارات المجنون، لكن خريجنا التفت إلى قسيسنا، وممسكًا له من يده، قال:

– لا تحزن نيافتكم، ياسيدى، ولا تُعِر ما قاله هذا المجنون التفاتًا، فإذا كان هو جوبيتر ولا يحب أن يمطر، فأنا نبتون، والد وإله المياه، سوف أمطر كلما اشتهيت، وكلما كان ضروريا.

وعلى هذا أجاب القسيس:

– ومع كل ذلك يا سيدى نبتون، ليس من الطيب إغضاب السيد جوبيتر، ففخامتكم ستبقى فى الدار، وفى يوم آخر، عندما تكون الظروف أطيب، سنعود فى طلبك.

ضحك المدير والحضور، وشاركهم فى ضحكهم القسيس، وعرّوا الخريج، وبقى فى الدار، وانتهت القصة.

قال دون كيخوتى:

– إذن، هذه هى القصة، أيها السيد الحلاق، التى تناسب المقام هنا، والتى لم تستطع تجنب حكايتها؟ آه، أيها السيد الحلاق! أيها السيد الحلاق، كم هو أعمى الذى لا يرى مع كثرة النوافذ! وهل من الممكن ألا تعرف فخامتكم أن تشبيه عبقرية بعبقرية، أو قيمة بقيمة، أو جمال بجمال، أو نسب بنسب، هو أمر حاقد وسيئ الاستقبال دائمًا؟ أنا، أيها السيد الحلاق، لست نبتون، إله المياه، ولا أسعى أن يعتبرنى أحد من الأذكياء العقلاء، إن لم أكن كذلك،

فقط يرهقنى إفهام العالم، الخطأ الذى يقع فيه، بعدم تجديده الزمن الأسعد حيث كان يبرز للقتال نظام الفروسية المشَّاءة. لكن لا يستحق عصرنا الفاسد التمتع بالخير العميم، الذى تمتعت به العصور التى شهدت الفرسان المشَّائين عندما أخذوا على عاتقهم، وألقوا على كواهلهم الدفاع عن الممالك، وتقديم الملاذ للصبايا، ونجدة اليتامى والتلاميذ، وعقاب المغرورين، ومكافأة المتواضعين. ومعظم الفرسان الموجودين حاليًا، قبل كل شىء، يرفلون فى الحرير الدمقسى، والإستبرق، وناعم الملبس الذى يرتدون، وهو الفخ الذى به يتسلحون؛ فلم يعد بعد من فارس ينام فى العراء، ملتصقًا بقسوة السماء، مسلحًا بكل نوع من السلاح من القدمين إلى الرأس، ولا يوجد من يبقى دون أن ينزع قدميه من ركاب فرسه، شاهرًا رمحه، وفقط يحاول أن يجتث من رأسه النوم، كما كان يفعل الفرسان المشَّاءون. لقد انتهى وجود ذلك الذى يخرج من هذه الغابة للدخول فى ذلك الجبل، ومن هناك يطأ شاطئًا قفرًا وعقيمًا يطل على البحر، الذى هو فى أغلب الأحيان عاصف وغاضب، ليجد هناك قاربًا صغيرًا دون مجاديف، ولا شراع ولا أى حبال، وبقلب لا يهاب يلقى نفسه فيه، مسلمًا نفسه إلى الأمواج العاتية للبحر العميق، التى تصعد به للسماء، ثم تهبط به إلى الهاوية، وهو يعرض نفسه للعاصفة التى لاتهزم، فى اللحظة التى لا يتوقعها فيها، ليجد نفسه على بعد ثلاثة آلاف وبضعة فراسخ بعيدًا عن مكان إبحاره، وواثبًا إلى أرض بعيدة وغير معروفة، تحدث له أشياء جديرة بأن تكتب وتسجل، ليس على رقاع وإنما على ألواح من البرونز. لكن الآن ينتصر الكسل على السعى والاجتهاد، وفضول العمل والسهاد، وإدمان الفضيلة والسداد، وفخار القوة والاعتداد، وممارسة السلاح والعتاد، التى عاشها وأضاء بها العصر الذهبى

الفرسان المشّاءون. وإذا لم يكن كذلك قولوا لى: من أكثر شرفًا وقوة من الشهير أماديس دى جاولا؟ أو من أكثر فطنة من بالميرين دى إنجلترا ؟ أو من أكثر وثوقًا وتآلفًا مع الأحداث من تيرانتى الأبيض؟ أو من أكثر شجاعة من ليسوارتى دى اليونان؟ أو من أكثر طعنًا واستقبالاً للطعنات من بليانس؟ أو من أكثر إقدامًا من بريون دى جاولا؟ أو من أكثر اقتحاما للأخطار من فيلكسمارتى دى أركانيا؟ أو من أكثر إخلاصا من إسبلنديان؟ أو من أكثر اندفاعًا من دون ثيرينخيليو دى تراثيا؟ أو من أكثر جسارة من رودا مونتى؟ أو من أكثر دهاء من الملك سوبرينو؟ ومن أكثر فتوة من رينالدو؟ أو من أكثر استحالة للهزيمة من رودان؟ أو من أكثر خيلاء أو أدبًا من روخيرو الذى ينحدر من نسله اليوم دوق ودوقة فيِّريرا، طبقًا لتوربين فى كتابه كوزموجرافيا؟ كل هؤلاء الفرسان، وآخرون غيرهم كثير، ممن يمكن ذكرهم، أيها السيد القسيس، كانوا فرسانًا مشّائين، ونورًا ومجدًا للفروسية. أحب أنا أن أنتمى إلى هؤلاء، أوماشابههم، وحين كونى كذلك، فإن جلالته سيجد نفسه وقد أحسنت خدمته، موفرًا نفقات كثيرة، وسيبقى الأتراك لنتف ذقونهم، وبهذا أحب أن أبقى فى بيتى، فلا يخرجنى منها القسيس رسول القمص، وإذا لم يمطر جوبيتر، كما قال الحلاق، فهأنذا هنا سوف أمطر عندما أهوى؛ أقول هذا حتى يعرف السيد الحلاق (بائيا) أننى أفهمه.

قال الحلاق:

– فى الحقيقة يا سيد دون كيخوتى، لم أقل ما قلته راميًا بعيدًا إلى هذا الحد، وليُعِنّى الله على كشف حسن نيتى، ولا ينبغى لفخامتكم أن تأخذ على خاطرك.

وعلى هذا علق القسيس:

– مع أننى لم أنطق بكلمة حتى الآن، لا أريد أن أبقى مع شك يـشك ويخدش ضميرى، تولّد عما قاله الآن السيد دون كيخوتى.

أجاب دون كيخوتى:

– السيد القسيس من أجل قول أشياء أخرى، أصرح له بالكلام، وهكذا بإمكانه أن يذكر شكوكه، لأنه ليس من الطيب أن يستمر الإنسان مع ضمير مثقل بالشكوك.

قال القسيس:

– إذن، مع هذه الموافقة، أقول إن شكى هو أننى لا أستطيع أن أقنع نفسى أن هذه الزمرة من الفرسان المشائين الذين أشرت إليهم يا سيد دون كيخوتى، كانوا حقا وفعلاً أشخاصًا من لحم وعظم عاشوا فوق هذا العالم، بل أتصور أن كل هذا خيال قصصى، وحواديت، وأكاذيب، وأحلام يحكيها رجال مستيقظون، أو بعبارة أدق: نصف نائمين.

أجاب دون كيخوتى:

– هذا خطأ آخر وقع فيه الكثيرون، بعدم الاعتقاد بأن هؤلاء الفرسان لم يوجدوا فى العالم؛ وأنا فى مرات كثيرة، مع أناس متعددة ومناسبات مختلفة، حاولت أن أبدد هذا الاعتقاد الخادع شبه العام بين الناس، على ضوء الحقيقة، لكن فى بعض الأحيان لم أنجح فى تحقيق قصدى، وفى أحيان أخرى أفلحت، مؤسسًا تلك الحقيقة على أكتاف الحق والصدق، فتلك الحقيقة يقينية، أى

أود القول إننى بعينىَّ هاتين رأيت أماديس دى جاولا، وكان رجلاً طويل القامة، أبيض الوجه، مهندم اللحية مع سوادها، وتراوح شعرها بين الصلابة واللين، حاسم العبارات، صبورًا قبل أن يغضب، ومتعجلاً فى كظم الغيظ إذا غضب، وبنفس الطريقة التى وصفت أماديس دى جاولا، أستطيع فيما أرى، رسم ووصف كل من كان فارسًا مشّاء، ممن يمشون فى الحكايات، وفى العالم، ومع فهمى بأنهم قد كانوا، كما تحكى عنهم القصص، وبنفس الأمجاد التى أقاموها، والظروف التى عاشوا فيها، يمكن استخراج ملامحهم وألوانهم وقاماتهم، بشىء من التفلسف الذكى.

سأل الحلاق:

- أى حد يبلغه عظم حجم المارد مورجانتى؟

قال دون كيخوتى:

- فيما يتعلق بالمردة توجد آراء متباينة، عما كانوا قد وجدوا من أساسه، أو لم يوجدوا فى العالم، لكن الكتاب المقدس الذى لا يمكن أن يأتيه الباطل من بين يديه، ولو ذرة واحدة، يثبت لنا أنهم وجدوا عندما حكى لنا عن ذلك المارد فيليستياثو دى جولياس، والذى كان طوله سبع أذرع ونصف، وذلك الطول هائل. أيضًا فى جزيرة صقلية عثروا على عظام سوق وظهر عظيمة الطول، والذى يعلن عظم طولها أن أصحابها كانوا مردة كبار الحجم، مثل أبراج؛ وهو أمر يحسمه علم الهندسة. لكن مع كل هذا، لا أستطيع القول بيقين، أى حجم كان لمورجانتى، مع أننى أتصور أنه ما كان ينبغى أن يعلو طوله كثيرًا، ويحفزنى على هذا الرأى ما ذكرته القصص فى أنه فى حديثهم

عن أفعاله، كان ينام مرات كثيرة تحت سقف، وهذا يعنى وجود بيت يتسع له، وبالتالى فعظم طوله لم يكن متجاوزًا الحد.

قال القسيس:

– هكذا كان بالفعل.

وعلى هذا الحال أعجبهم سماع تلك الترهات، فسأله القسيس عن أشكال وجوه رينالدوس دى مونتالبان ودون رودان، وباقى الاثنى عشر نظائر فرنسا، فكلهم كانوا فرسانًا مشائين.

أجاب دون كيخوتى:

– بالنسبة لرينالدوس، أجرؤ على القول إنه كان عريض الوجه، ولون خدوده أشقر ضارب للحمرة، وعيونه راقصة وثاقبة، وكان منضبطًا وذا حمية بشكل زائد، صديقًا للصوص وللناس الضائعة. وفيما يتعلق برودان أو (رونالدو) أو (أورلاندو)، وكلها أسماء تطلقها عليه القصص، رأيي، بل أؤكد أنه كان متوسط القامة، عريض الكتفين، معوج الساقين قليلاً، أسمر الوجه، أحمر اللحية، كث شعر الجسم، ومنظره مخوف مهدِّد، قصير العبارات، لكن شديد التهذيب، حسن التربية.

أجاب القسيس:

– إذا كان روذان رجلاً بكل هذا الأدب والكياسة كما تقول فخامتكم، أليس عجيبًا أن السيدة (إنخليكا الجميلة) تغضب عليه، وتتركه من أجل حسن الأسيمر وبريقه وملاحته ، ذلك الصبى الذى لم تنبت لحيته، والذى أسلمت

نفسها له، ومضت فطنة تعشق طراوة مدورو(*)، مولية ظهرها لخشونة رودان؟

أجاب دون كيخوتى:

– إنخليكا هذه، أيها السيد القسيس، كانت صبية ذاهلة عن نفسها، ومتجولة، وذات هوى ونزوات إلى حد ما، وتركت العالم يغص بصفاقاتها وبشهرة جمالها معًا؛ لقد ازدرت ألف سيد، واكتفت بغلام خادم، دون ثروة أخرى ولا اسم، يمكن أن تهبها تلك الصداقة التى حفظتها لهذا الغلام صديقها. والمغنى العظيم المتغنى بجمالها، الشهير أريوستو الذى لم يجرؤ، أو لعدم رغبته فى التغنى بالذى حدث لهذه السيدة بعد استسلامها البائس، (وهى أشياء لا ينبغى أن تكون شريفة جدا) تركها حيث قال:

وكما من (الكاتاى) تسلمت الصولجان

ربما يأتى شاعر آخر قد يتغنى بمضرب أفضل لقيثارته

ودون شك كان ذلك مثل نبوءة، لأن الشعراء أيضًا يسمّى الواحد منهم (متنبى)، أى صاحب نبوءات.

وتأمل هذه الحقيقة الواضحة، لأنه بعد هذا، جاء هنا شاعر أندلسى، تغنى بدموعها، وشاعر آخر قشتالى(**) تغنى بجمالها.

فى هذه اللحظة قال الحلاق:

– قل لى، يا سيد دون كيخوتى، ألم يوجد شاعر كان قد هجا هذه السيدة إنخليكا، بين كثير ممن أثنوا عليها؟

(*) مدورو، اسم الصبى المعشوق.

(**) لويس باراووما مؤلف إنخليكا ١٥٨٦.

أجاب دون كيخوتى:

- أعتقد أنا، أنه إذا كان ساكريبانتى أو رودان شاعرين، لكانا قد تملقا لنا الصبية، لأن ذلك خصيصة للشعراء المهجورين والمطرودين من سيداتهم، فى تصنع أو فى جد، وبالفعل، فإن عمل قصائد هجاء أو تقريع ضد سيداتهم اللاتى اختاروهن سيدات لأفكارهم وتفكيرهم، نوع من الانتقام غير جدير بهذه الصدور الكريمة، لكن حتى الآن لم يصل أى خبر أو شعر هجائى ضد السيدة إنخليكا، قلب الدنيا أو أثار انتباه العالم.

قال القسيس:

- معجزة!

وبينما هم فى هذا، سمعوا الأمة وابنة الأخت، اللتين كانتا قد هجرتا هذا الحوار، تصرخان فى الفناء بصرخات عالية، جعلت الجميع يهرعون نحو ذلك الضجيج.

الفصل الثانى

عبارة عن المشاجرة العظيمة التى أقامها سانشو بانثا مع أمَة دون كيخوتى وابنة أخته، مع أمور أخرى مليحة

تحكى القصة أن الصرخات التى سمعها دون كيخوتى والقسيس والحلاق، كانت صادرة عن ابنة الأخت والأمة اللتين كانتا تصرخان فى وجه سانشو بانثا، الذى يقاتل من أجل الدخول لدون كيخوتى، وهما كانتا تسدان الباب:

– ماذا يريد هذا الغبى من هذا البيت؟ اذهب أيها الأخ، إلى بيتك، وليس إلى مكان آخر، فأنت الذى تذهل سيدى، وتحمله إلى تلك القفار.

وعلى هذا أجاب سانشو:

– أمة الشيطان! المذهول والمحمول إلى تلك القفار هو أنا، وليس سيدك. هو حملنى إلى تلك العوالم، وأنتما تخدعان نفسيكما عند نصف الثمن العادل، هو أخرجنى من بيتى بأوهام، واعدًا لى بجزيرة، أنتظرها حتى الآن.

أجابت ابنة الأخت:

– أغرقتك الجزائر الشريرة، سانشو اللعين. وما تكون الجزر تلك؟ هل هى شىء يؤكل، أيها النهم للحلوى، الأكول؟

أجاب سانشو:

– ليست شيئًا يؤكل، بل هى شىء يحكم ويعلو على أربع بلديات، وأربعة قضاة لمحكمة.

قالت الأمة:

- ومع كل هذا، لن تدخل هنا، ياجوال الشرور، وكيس (البلاوى). اذهب لحكم بيتك، وزراعة أرضك، واترك الجزر إناثها وذكورها.

امتلأ القسيس والحلاق بالطرب من سماع شجار الثلاثة، لكن دون كيخوتى خوفًا من أن يفتق سانشو ويكشف كومًا من السخافات السيئة، التى لن تكون فى صالح مصداقيته، نادى عليه، وأسكت الاثنتين، آمرًا لهما بأن يتركاه يدخل. ودخل سانشو، وودع القسيس والحلاق دون كيخوتى، وقد يئسا من صلاح صحته عند رؤيتهما كيف كان منغمسًا فى أفكاره الثابتة، وكم هو غارق فى سذاجة فروسيته المنحرفة، وهكذا قال القسيس للحلاق:

- ترون، أيها الصديق، أنه من حيث لا نتوقع سوف يخرج مرة أخرى شريفنا مهوِّمًا على الشواطئ.

أجاب الحلاق:

- لا أشك فى ذلك، لكن لا أعجب كثيرًا من جنون الفارس ولا سذاجة خادمه، الذى يمتلئ يقينًا من أمر الجزيرة، حتى إنى أظن أنه مهما تعددت الإحباطات فلن ينزعوها مطلقًا من رأسه.

قال القسيس:

- فليشفهما الله، وها نحن نراقب، ولننظر فى مجرى ترهات هذا الفارس والخادم ومرساها، ويبدو أنهم صهروهما الاثنين من نفس الفص، وأن جنون السيد دون حماقات الخادم ما كانت تساوى قيد أنملة.

قال الحلاق:

– هذا هو الشأن، وإن كان يطرب كثيرًا معرفة ما سيدور بين الاثنين الآن.

أجاب القسيس:

– إنى واثق أن ابنة الأخت أو الأمة سوف تحكيه لنا بعد ذلك، فإن ظروفهما لا تسمح لهما بعدم الإنصات إليهما.

وخلال ذلك أغلق دون كيخوتى عليه وعلى سانشو الغرفة، وعندما بقيا وحدهما، قال له:

– يثقل علىَّ، سانشو، كثيرًا أنك تقول بأنى أخرجتك من بيتك، وأنت تعرف أننى لم أبق فى بيتى، فقد خرجنا معًا، وذهبنا معًا، وتجولنا معًا، حظ واحد وقسمة واحدة نالتنا نحن الاثنين، وإذا كانوا قد تقاذفوك بالبطانية مرة واحدة، فقد طحنونى مائة مرة، وهذا ما أتفوق عليك به من سبق.

أجاب سانشو:

– هذا له منطقه،حسب قول فخامتكم، فإن الفرسان المشَّائين ألصق بالنكبات من خدم دروعهم.

قال دون كيخوتى:

– تخدع نفسك سانشو، فطبقًا للمثل(*) quando caput dolet...,etcetera.

أجاب سانشو:

– لا أفهم لغة أخرى غير لغتى.

(*) مثل لاتينى سوف يترجمه دون كيخوتى فى الفقرة التالية.

قال دون كيخوتى:

- أود القول "عندما تحس الرأس بألم، تتداعى لها سائر الأعضاء بالسهر والحمى"، وهكذا كونى مالك أمرك وسيدك، وأنت جزء منى، حيث إنك خادمى، فكل سوء يلم بى أو يحتمل أن يلم بى، لابد أن يؤلمك، كما يؤلمنى ألمك.

قال سانشو:

- هكذا كان ينبغى أن يكون، لكن عندما تقاذفونى بالبطانية باعتبارى عضوًا منك، كانت رأسك خارج الأسوار تنظر إلىّ وأنا أطير فى الهواء، دون الإحساس بأى ألم، فإذا كانت الأعضاء ملزمة بالتألم لألم الرأس، كان على الرأس أن تكون ملزمة بالتألم لألم الأعضاء.

أجاب دون كيخوتى:

- هل تحب القول الآن، سانشو، إنه لم يكن يؤلمنى رؤيتك وهم يتقاذفونك بالبطانية؟ وإذا تقول بذلك، فلا تعد لقوله أو حتى التفكير فيه، فقد كنت فى ألم روحى أكثر من ألمك الجسمى. لكن لندع ذلك الآن جانبًا، فسيأتى وقت حسابه، ووضعه فى موضعه، وقل لى، سانشو أيها الصديق، عما يقولون عنى بهذه القرية. ما رأى العامة فىّ، والأعيان والفرسان؟ ماذا يقولون عن شجاعتى وعن أمجادى وعن خلقى المهذب؟ وماذا يتحدثون عن شروعى فى إحياء نظام الفروسية المشّاءة، وإعادتها إلى العالم؟ أخيرًا أود، سانشو، أن تخبرنى حول كل ما وصل إلى مسامعك، وهذا عليك بقوله لى دون أن تترك شرًّا أو تضيف إلىّ خيرًا، فالأتباع ذوو الولاء، من طبعهم قول الصدق إلى سادتهم فيما يدور حول كينونتهم وشخصهم، دون أن يتكاثر الثناء، أو يتضاءل الاحترام المفقود، وأحب أن تعرف، سانشو، أنه إذا كانت الحقيقة

تصل إلى آذان الأمراء عارية، دون ثياب المداهنة والتملق، لجرت أزمـــان، وقامت عصور كانت ستعتبر أقوى من عصرنا، الذى يطلقون عليه حـــسبما أفهم العصر الذهبى، فلتستفد من هذا التحذير، سانشو، حتى تـــضع فى أذنى الحقيقة التى تعرفها عما سألتك عنه، فى كياسة، وعن قصد لا يميل.

أجاب سانشو:

– هذا ما سأفعله عن طيب خاطر، بشرط ألا تغضب فخامتكم مما أقول، مادمت ترغب فى أن أقوله عاريًا على اللحم، دون إلباسه ملابس تخالف ما وصل إلى علمى من إخباريات.

أجاب دون كيخوتى:

– لن أغضب بأى حال من الأحوال. إذن، تستطيع، سانشو، أن تتكلم بحريـــة، دون لف أو دوران.

قال سانشو:

– إذا أول ما أقول، إن العامة تعد فخامتكم مجنونًا أكبر، وأنا لا أقل عنك خبلاً. والأعيان يقولون إنك لا تقصر نفسك داخل دائرة (الأعيانيـــة)، بوضـــعك لقب (دون) قبل اسمك، والهجوم على الفروسية بأربع عرائش كروم، وبضع عشرات من الهكتارات، مع يد وراء، مع يد قدام. ويقول الفرسان إنهم لا يودون أن يقرن الأعيان أنفسهم بهم، أولئك الأعيان ذوو مظهر الخدم، ممن تدخن أحذيتهم ويرقعون جواربهم السوداء بحرير أخضر(*) .

(*) طبقة الفرسان أعلى من طبقة الأعيان وأغنى، أما الحديث عن المظهر، فهو إشارة إلى فقـــر الأعيان ومحاولتهم إخفاء هذا الفقر دون جدوى.

قال دون كيخوتى:

– هذا لا علاقة له بى، حيث أتحرك دائمًا حسن الملبس، ولم أرقع ملبسًا ممزقًا قط، ما عدا الممزق بفعل السلاح، وليس بفعل الزمن.

قال سانشو:

– وفيما يتعلق بالشجاعة، والأدب، والأمجاد، وشئون فخامتك، توجد آراء مختلفة. البعض يقول "مجنون لكن ظريف"؛ وآخرون "شجاع لكن منكوب"؛ وفريق ثالث "مؤدب لكن صفيق"، ومن هنا يمضون مستأنفين قول أشياء كثيرة، حتى إنهم لا يتركون فى فخامتكم ولا فى شخصى عظمة واحدة سليمة.

قال دون كيخوتى:

– انظر، سانشو، حيث توجد الفضيلة بدرجة رفيعة تكون مطاردة. ولم يفلت بجلده من الإصابة بقول السوء إلا قليل بل لا أحد من المشهورين. يوليوس قيصر كثير الحميَّة والذكاء والشجاعة بوصفه قائدًا، أطلق عليه مناقب الطموح، وعدم النظافة كثيرًا فى ملابسه وعاداته. والإسكندر، الذى أعطته أمجاده لقب (الأكبر)، قالوا عنه بأنه كانت تبدو عليه مخايل السكير. وعن هرقل، صاحب الإنجازات الكثيرة والجهد، قالوا إنه شبق ولين العود، وعن دون جالوار، شقيق أماديس دى جاولا، يشيعون أنه كان عربيدًا فوق الحد، وعن أخيه بأنه كثير البكاء. أوه سانشو! هكذا بين كثير من المصائب الغزيرة لهؤلاء الأمجاد، يمكن التجاوز عن مصائبى، إذا لم تكن أكثر مما قالوا.

أجاب سانشو:

– هنا تكمن النكتة، وليرحم الله أبى!

سأل دون كيخوتى:

- وهل هناك أكثر؟

قال سانشو:

- حتى الآن بقى سلخ الذيل، ما قيل حتى هذا فهو "تورتة"، وكعك منقوش، لكن إذا كان فخامتكم تريد أن تعرف كل شيء حول (المصايب)، التى وضعوها لك، أنا أحضر لك وهنا فى الحال من يقولها لك جميعًا، دون أن ينقص منها ذرة، فقد وصل بالأمس ابن بارتولوميه كارًّاسكو، والذى يأتى من دراسته فى سلمنقة، بعد أن نال البكالوريا، وعندما ذهبت إليه للترحيب بمقدمه، قال لى إنه انغمس فى كتاب عن تاريخ فخامتكم، يحمل عنوان "الشريف العبقرى دون كيخوتى دى لامانشا"، ويقول إنهم يذكروننى فيه بنفس اسمى سانشو بانثا، ويذكرون السيدة دولثينيا دل توبوسو، مع أشياء أخرى عشناها وحدنا، لدرجة أنى صلَّبت مفزوعًا؛ كيف تمكن المؤرخ الذى كتبها من معرفتها؟

قال دون كيخوتى:

- أؤكد لك، سانشو، أنه يجب أن يكون حكيمًا ساحرًا ذلك المؤلف لقصتنا، فعلى هؤلاء لا يخفى شيء مما يودون كتابته.

قال سانشو:

- كيف يكون حكيمًا وساحرًا؟ فطبقًا لما يقول حامل البكالوريا شمشون كارًّاسكو، (الذى يسمى هكذا) مؤلف التاريخ يسمى سيدى حامدى باذنجان!

أجاب دون كيخوتى:

- **هذا الاسم لعربى.**

أجاب سانشو:

- **قد يكون كذلك، لأنه معظم الوقت كنت أسمع أن العرب أصدقاء للباذنجان.**

قال دون كيخوتى:

- **لابد أنك، سانشو، قد أخطأت فى اللقب،أما معنى (سيدى)، بالعربية (السيد).**

أجاب سانشو:

- **من الممكن ذلك، لكن إذا رغبت فخامتكم أن أجعله يحضر، فسوف أذهب إليه على أجنحة الطير.**

قال دون كيخوتى:

- **سوف يلذ لى كثيرًا، أيها الصديق، فما قلته لى يتركنى مبهوتًا، ولن آكل لقمة واحدة، وأنت تعرفنى جيدًا، حتى أراني وقد أعلمنى بكل شيء.**

أجاب سانشو:

- **إذا سأذهب لإحضاره.**

وعندما ترك سيده ذهب للبحث عن حامل البكالوريا، والذى عاد معه بعد مرور قليل من الوقت لخروج سانشو فى طلبه، وبين الثلاثة دار حديث عامر بالظرف والطرافة.

الفصل الثالث

عن الحديث المضحك الذى جرى بين دون كيخوتى وسانشو بانثا وحامل البكالوريا شمشون كارّاسكو

بقى دون كيخوتى متفكرًا أكثر من اللازم فـــى انتظـــار حامـــل البكالوريـــا (كارّاسكو)، والذى كان يتوقع أن يسمع منه أخبارًا عن نفسه، قد سطرت فى كتاب؛ كما قال سانشو. لم يستطع أن يقنع نفسه بوجود مثل هذه القصة، إذ يودون أن تذيع مطبوعة بين الناس فروسيته العظيمة بينما لم يجف بعد على صفحة سيفه دم مـــن قتل من أعدائه. ومع كل هذا، تصور أن أحد الحكماء، إما صديق أو عدو كان قـــد قدمها إلى المطبعة مستخدمًا فن السحر، وإذا كان صديقًا فيكون قد فعل ذلك لتعظيم فروسيته، وإعلائها فوق الفروسية الأكثر ذكرًا لفارس مـــشّاء؛ وإذا كـــان عـــدوًا، فلتصفيتها، ووضعها دون أتفه أعمال خادم دارع مغمور ممن ظهروا فى الكتـــب، رغم أنه (كان يقول لنفسه) لم يحدث قط أن كتبت أعمال خادم دارع، ومن ثـــم، إذا كـــان مثل هذه القصة يوجد حقا، فلكونه فـــارسًا مشّاء بالقوة، ينبغى أن تكـــون (القصة) فصيحة وسامية ومشهورة وعظيمة وحقيقية. وبهذا تعزى بعض الوقـــت، لكن أفقده هذا العزاء كون مؤلفها عربيا، طبقًا لهذا الاسم (سيدى)، ومن العـــرب لا يمكن أن ينتظر أى حقائق،لأنهم كلهم أصحاب مقالب، ويهذون ويغترون بـــالوهم. وخاف ألا يكون قد عالج غرامياته بتهذيب، مما يشيع ويشهر بشرف سيدته دولثينيا دل توبوسو، وقد ود لو كان قد تحدث عن إخلاصه، وما يكنه لها دائمًا من تبجيل، فمن أجلها ازدرى ملكات وإمبراطورات، وصبايا من كل نوع بهيج، كابحًـــا كـــل حافز لدوافعه الطبيعية وغرائزه. وهكذا، ملفوفًا ومضطربًا فى هذا، وغيـــره مـــن

التخيلات الأخرى الكثيرة، ظهر سانشو وكاراسكو، الذى استقبله دون كيخوتى بأدب جم.

ومع أن حامل البكالوريا كان يسمى شمشون، فلم يكن كبير الجسم، وإن كان كبير الخبث والسخرية؛ شاحب اللون؛ لكن فى ذكاء فائق، ويدور عمره حول الرابعة والعشرين، مستدير الوجه، أفطس الأنف، واسع الفم، وكلها إشارات على شقاوته، وعلى أنه صاحب ملاحة ومزاح، كما أثبت ذلك عند رؤيته لدون كيخوتى، إذ ركع أمامه على ركبتيه قائلاً:

– أعطنى يديك، عظمتكم أيها السيد دون كيخوتى دى لامانشا؛ فبحق رداء سان بدرو؛ الذى أرتديه، (مع أننى لم أتلق تعليمات كنسية أخرى أكثر من الأربعة الأولى للتعميد)، لأنت أشهر الفرسان المشائين الذين وجدوا فى كل استدارة الأرض، ويوجدون أو سوف يوجدون. وأقر الله عين سيدى حامدى ابن إنجيلين، الذى ترك لنا قصتك مكتوبة، ومرة أخرى أقر الله عين الفضولى الذى اعتنى بترجمتها إلى عاميتنا القشتالية للتسلية العمومية لعموم الناس.

أنهضه دون كيخوتى، و قال:

– بهذا الكلام إذن، حقيقى أن هناك تأريخًا لى، وكان عربيا وحكيمًا الذى كتبه؟

قال شمشون:

– إنه حقيقى جدا، يا سيدى، وأنا أعرف أنه اليوم يوجد مطبوعًا أكثر من اثنى عشر ألف نسخة من هذا التأريخ؛ وإذا لم تصدق سوف تؤكده لك البرتغال، وبرشلونة، وبلنسية، حيث تم الطبع، وأيضًا هناك أخبار أن القصة تطبع فى أميريس، وإنى أتوقع أنه لن تبقى أمة أو لغة دون أن تترجمها.

قال دون كيخوتى:

– واحدة من الأشياء التى تعطى سرورًا أكثر لرجل فاضل وشهير، أن يرى نفسه فى حياته يمشى باسم طيب عبر لغات مختلف الناس، مطبوعًا ومعلمًا. وأقول (باسم طيب)، لأنه لو كان العكس، فلا موت يعدل ذلك.

قال حامل البكالوريا:

– نعم إنك تمضى باسم طيب، وشهرة عطرة، وفقط فخامتكم تحرز قصب السبق على كل الفرسان المشائين؛ لأن العربى فى لغته، والمسيحى فى لغته، حرصا على أن يرسموا لنا رسمًا حيا شجاعة فخامتكم، والروح العظيمة فى خوض الأخطار، والصبر على الأعداء، والشرف والحيطة فى الغراميات شديدة الأفلاطونية، بينك وبين سيدتى دونيا دولثينيا دل توبوسو.

عند هذه النقطه سانشوبانثا:

– لم أسمع قط أحدًا يطلق لقب (دونيا) على سيدتى دولثينيا، فقط يقولون السيدة دولثينيا دل توبوسو، وفى هذا تخطئ القصة.

أجاب كارّاسكو:

– هذا اعتراض لا أهمية له.

أجاب دون كيخوتى:

– لا، حقيقة لا أهمية له، لكن قل لى فخامتكم، أىّ أمجاد لى تطريها القصة أكثر؟

أجاب حامل البكالوريا:

– فى هذا تتعدد الآراء والأذواق، البعض يفضل مغامرة طواحين الرياح، الـتى بدت لفخامتكم (برياريوس) ومردة، وآخرون مغامرة مطـارق النـسيج، وفريق ثالث، أعجبهم وصف الجيشين، اللذين ظهر بعد ذلك أنهما قطيعـان من الغنم؛ وفريق رابع، يعلى شأن مغامرة الميت الذى كانوا يحملونه للـدفن فى سقوبية، وغير هؤلاء يقولون إن المغامرة التى تفوق الجميع هـى تحريـر أشقياء سخرة الأسطول، وآخرون غير هؤلاء وهؤلاء ، يقولون لا توجـد مغامرة تعادل مغامرة العملاقين المسافرين فى ملابس الرهبان، مـع مبـارزة البيثكاوى الشجاع.

قال عند هذا سانشو:

– قل لى أيها السيد بكالوريا، تدخل هنا مغامرة (اليانجويسيين)، عندما شـاء جوادنا الطيب روثينانتى طلب المستحيل عند نساء خيلهم

أجاب شمشون:

– لم يبق للحكيم من حبر فى محبرته، فهو يقول كل شىء، ويسجل كل شـىء، حتى أولئك الأشقياء الذين أرجحوا سانشو الطيب فى البطانية فى حركـات بهلوانية.

أجاب سانشو:

– لم أقم بحركات بهلوانية فى البطانية، قفز فى الهواء نعم حدث، بل حدث أكثـر مما كنت أود أن أقفز.

قال دون كيخوتى:

– ما أتخيله، لا توجد قصة إنسانية دون صعود وهبوط، وبصفة خاصة قصص الفروسية، التى لا يمكن أن تكون عامرة بأحداث رفاهة.

– ومع كل هذا، يقول بعض من قرأ القصة، بأنه كان سيسعدهم أن ينسى مؤلفوها بعض ضربات العكاكيز والنبابيت اللانهائية التى أنزلوها فى منازلات مختلفة بالسيد دون كيخوتى.

قال سانشو:

– بها تدخل القصة إلى حيز الصدق والحقيقة.

قال دون كيخوتى:

– وأيضًا كان يمكنهم الصمت عنها بتحكيم الضمير قبل العدل، فالأحداث التى لاتعدل، ولا تغير القصة لا داعى لكتابتها، إذا كانت ستدور حول الزراية ببطل القصة. وأقسم أن إينياس لم يكن بكل هذا البر الذى رسمه فيرجيل، كما أن أوليسيس لم يكن بكل هذه الفطنة التى وصفها هوميروس.

أجاب شمشون:

– هذا حق؛ لكن أحدهم يكتب باعتباره شاعرًا والآخر باعتباره مؤرخًا، والشاعر يستطيع أن يحكى الأشياء ويتغنى بها، لا كما كانت ولكن كما ينبغى أن تكون، بينما المؤرخ، يكتبها ليس كما ينبغى أن تكون، وإنما كما كانت؛ دون أن يضيف أو يحذف من الحقيقة أى شىء.

قال سانشو:

- إذا كان هذا السيد العربى يسير فى طريق قول الحقيقة، فمن المؤكد أن ضربات النبابيت ضد سيدى، هى ضربات ضدى؛ لأنه قط لم يحدث أن قاسوا أكتاف أو ظهر فخامته بها، دون أن يقيسوا كل جسمى، ولكن ليس فى ذلك ما يدعو للعجب، فطبقًا لما يقول سيدى،إن ألم الرأس ينبغى أن تشاركه فيه الأعضاء.

أجاب دون كيخوتى:

- سانشو، أيها الخبيث، قسمًا أنه لا تنقصك الذاكرة كلما أحببت أن تستخدمها.

قال سانشو:

- كلما رغبت فى نسيان ضربات النبابيت، التى أنزلوها علىَّ، لا يوافق على ذلك أثرها، الذى مازال حتى الآن طازجًا فى ضلوعى.

قال دون كيخوتى:

- اصمت، سانشو، ولا تقاطع السيد بكالوريا، الذى أرجوه أن يواصل حديثه لى، عما يقال عنى فى القصة المذكورة.

قال سانشو:

- وأيضًا عنى؛ حيث يقولون عنى إننى أحد شخصياتها الرئيسية.

قال شمشون:

– شصخيات لا، بل شخصيات، سانشو أيها الصديق.

قال سانشو:

– هل لدينا لوّامة آخر لطريقة كلامى؟ فلتمضوا فى هذا، ولن ننتهى طول الحياة.

أجاب السيد بكالوريا:

– لعننى الله، سانشو، إذا لم تكن الشخصية الثانية فى القصة، ويوجد من يقــدر قيمة سماعكم تتحدثون عن أنفسكم أكثر من كل ما أحسنوا رسمه فيها، رغم أنه يوجد أيضًا من يقول عنكم أنكم قد تجاوزتم الحد فى اعتقاد إمكانيـــة أن يصير حقًا لكم حكم تلك الجزيرة التى عرضها عليكم السيد دون كيخوتى، الحاضر معنا الآن.

قال دون كيخوتى:

– حتى الآن مازال فى الوقت متسع،فكلما أدلج فى العمر سانشو أكثر، واكتسب تجربة السنين، سيصير أكثر ألفة وقدرة ليصير حاكمًا، عما هو عليه الآن.

قال سانشو:

– بحق الله، فالجزيرة التى لا أستطيع حكمها مع مالى من عمر الآن، لن أحكمها حتى مع بلوغ عمر(ماتوسالين). والعيب أن هذه الجزيـــرة الآن تلـــهو، لا أدرى أين، رغم أنه لا تنقصنى الموهبَة لحكمها.

قال دون كيخوتى:

- اترك أمرها لله؛ فسيخرج كل شيء على أطيب ما يكون، وربما أفضل مما تتصور؛ فلا تتحرك ورقة على غصن شجرة دون إرادة الله.

قال شمشون:

- هكذا يكون الحق؛ فإن شاء الله، لن يفوت سانشو ألف جزيرة ليحكمها، فما بالنا بجزيرة واحدة.

قال سانشو:

- لقد رأيت هناك بعض الحكام، وحسب رأيي، لا يصلون إلى كعب حذائى، ومع ذلك ينادونهم (صاحب السعادة)، ويخدمونهم على أطباق من فضة.

أجاب شمشون:

- هؤلاء ليسوا بحكام جزر، إنما حكام حكومات أكثر بدائية، ومن يحكم الجزر، فعلى الأقل عليه معرفة النحو.

قال سانشو:

- مع النَّح أتنحنح جيدًا، فالأمر يمضى لصالحى، أما واو هذه الكلمة (النحو)، فلا أحشر نفسى فى ذلك الأمر، لأننى لا أفهم معناها. لكن تاركين موضوع الحكومة بين يدى الله، أعود إلى ما يخصنى، وأقول أيها السيد بكالوريا شمشون كارَّاسكو، إننى طربت بلا حدود من أن مؤلف القصة قد تكلم عنى بطريقه تجعل ما حُكى عنى من أشياء لا يغضب، لكن قسمًا من خادم دروع

ذى شأن، إذا لم يكن قد تكلم عنى بما يليق بمسيحى قديم مثلى، كانت سوف تسمعنا الصم(*).

أجاب شمشون:

– لو حدث هذا يكون من المعجزات.

– معجزات أو لا معجزات ليس الشأن، إنما كل واحد عليه أن يتـــروى فيمـــا يقول أو فى كيف يكتب عن غيره من الأشخاص، فلا يضع (خبط لـــزق) أول مايرد على باله.

قال السيد بكالوريا:

– واحدة من العيوب التى يلصقونها بالقصة، أن مؤلفها وضع بداخلـــها روايـــة عنوانها " الفضولى الصفيق". وليست تلك الرواية سيئة أو ضعيفة التعـــبير، وإنما لأنها لا علاقة لها بقصة فخامته السيد دون كيخوتى.

أجاب سانشو:

– أنا أراهن أن ابن الكلب قد خلط (الشامى بالمغربى).

قال دون كيخوتى:

– الآن أقول إن مؤلف قصتى لم يكن حكيمًا، إنما أحد الجهال الثرثارين، شـــرع فى كتابتها تخمينًا ودون روية، وليخرج ما يخرج، كما كان يفعل أوربانيخـــا رسّام (أبيدا)، الذى كان عند سؤاله ماذا يرسم، كان يجيب: "ما يخـــرج". وربما يرسم ديكًا بهذا الشكل، وضعيف الشبه بالديك، حتى صار ضروريا أن

(*) يقصد أنه كان سيتشاجر معه حتى ترتفع أصوات الشجار لتسمع الصم، ورد شمشون يتجاهل المعنى المجازى، لأنه يرى فى سماع "الصم" معجزاة!

يكتب بحروف كبيرة بجوار الرسم "هذا ديك". ومثل هذا لابد أن يكون من ثم، حتى إنها تحتاج لتعليق عليها لفهمها.

أجاب شمشون:

– هذا لا؛ لأنها شديدة الوضوح لدرجة ألا عائق بها لفهمها، فالأطفال يتحسسونها، والصبيان يقرأونها، والكبار يفهمونها، والعواجيز يحتفلون بها، وأخيرًا، فهي شائعة على الألسن، ومقروءة من الكثرة، ويعرفها كل جنس من الناس، فعند رؤيتهم لحصان نحيف، قصير القوائم، صغير الجسم يقولون "ها هو روثينانتي". والذين تفرغوا لقراءتها هم الغلمان، ولا توجد قاعة استقبال لأحد السادة دون نسخة من (دون كيخوتي)، بعضهم يستلمها إذا تركها البعض الآخر، وهؤلاء يتسولونها، والآخرون يطلبونها. وفي الآخر، هذه القصة هي الأكثر إطرابًا، والتسلية الأقل ضررًا التي رآها الناس حتى الآن، لأنه في كل ثناياها لا توجد كلمة رذيلة أو فكرة غير تقية، ولو على سبيل التلميح.

قال دون كيخوتي:

– الكتابة بأية طريقة أخرى لن تكون كتابة للحقائق بل الأكاذيب، والمؤرخون الكذابون ينبغي حرقهم،مثل من يزيفون النقود، وأنا لا أدرى ماذا دفع الكاتب إلى إقحام قصص وروايات غريبة بينما لديه الكثير ليكتبه عن شئوني، ومما لا شك فيه فإن هذا يصدق عليه المثل (التبن جنب الدريس، في معدة التيس). فالحقيقة، هي أن التعبير فحسب عن أفكاري، وتنهداتي، ودموعي، ورغائبي الطموحة، ومعاركي يمكن أن يصنع مجلدًا كبيرًا، يمكن أن

يعادل جميع أعمال (التوستادو)(*). وبالفعل، أيها السيد بكالوريا، لتأليف قصص وكتب، مهما كان نوعها، من الضرورى، توافر عقل راجح، وفهم ناضج. قول اللطائف، وكتابة الطرائف من العبقرية بمكان مكين: فالشخصية الأكثر فطنة فى الكوميديا هى "العبيط" لأنه لا ينبغى أن يكون المرغوب هو الإفهام بأنه بسيط وساذج. والتاريخ كما لو كان شيئًا مقدسًا، لأنه يجب أن يكون حقيقيا، وفيما يتعلق بالحقيقة، فهى ترى الله حيث وجدت؛ لكن هناك من لا يعوقهم ذلك، ويؤلفون الكتب من عقولهم كما لو كانت عجائن يلقونها فى زيت القلى.

قال السيد بكالوريا:

– لا يوجد كتاب بهذا السوء، إلا وبه شيء مفيد.

أجاب دون كيخوتى:

– لاشك فى ذلك؛ لكن فى أحيان كثيرة، الذين بلغوا شهرة كبيرة مكتسبة عن جدارة كتاباتهم، يحدث عند تسليمها للمطبعة، أن يفقدوها جملة، أو تهبط قيمتها فى أحد جوانبها.

قال شمشون:

– السبب فى ذلك، هو أنه حيث تقرأ الكتب المطبوعة ببطء، ترى أخطاؤها بسهولة، وعلى الأخص عندما يكون مؤلفوها ذوى شهرة كبرى حيث يتم فحصها أكثر. والرجال المشهورون بعبقرياتهم، والشعراء الكبار، والمؤرخون اللامعون دائمًا، أو فى أغلب الأحيان، يكونون منفوسًا عليهم من هؤلاء

(*) ألونسو دى مادريجال، قمص أبيلا الذى عاش فى القرن الخامس عشر، كتب أعمالاً كثيرة فى خصوبة صارت مثلاً، وحتى الآن يقال لمن يكتب كثيرًا، إنه يكتب أكثر من التوستادو.

الذين يحكمون، للمزاج الخاص أو للتسلية، على الكتابات الخاصة بالآخرين، دون أن يكوِّنوا كتابًا أو قدموا للعالم شيئًا مكتوبًا.

قال دون كيخوتى:

- هذا لا يثير الدهشة، لأن كثيرًا من رجال الدين ليسوا صالحين للمنابر، لكنهم فى غاية الصلاحية لمعرفة أخطاء من يعظون أو سقط قولهم.

قال كارَّاسكو:

- كل هذا صحيح، لكنى أود أنا لهؤلاء الرقباء، أن يكونوا أكثر رحمة، وأقل شكًا، وألا يعيبوا من الورد الأحمر حمار لونه، وعندما يجدون غفلة للكاتب، عليهم أن يضعوا فى اعتبارهم كما تيقظ الكاتب حتى يخرج أضواء عمله بأقل ظلال ممكنة، فربما ما بدا لهم ظلاً يقلل من إشراقة العمل ليس إلا خالاً يزيد حسن الوجه الذى يحتويه مرات؛ وهكذا أقول إن المخاطرة التى يتعرض لها من يطبع كتابًا كبيرًا، للاستحالة المستحيلة تأليفه بشكل يرضى ويسر كل من يقرأه.

قال دون كيخوتى:

- والكاتب الذى يعالجنى، قد يكون سر القليل.

- على العكس، فكما أن عدد المغفلين لا حصر له، فإنه لا حصر لهم، من سرهم القصة. والبعض شوه ذكرى المؤلف بوضع أخطاء له وشىء من التدليس، فقد نسى أن يذكر اسم اللص الذى سطا على حمار سانشو، فلا يعلن هذا الاسم فى قصته، ولم يمض على السرقة القليل حتى رأينا سانشو على حماره،

مع أن الحمار المسروق لم يكن قد ظهر بعد(*). أيضًا يقولون إنـــه نـــسى أن يحكى ماذا فعل سانشو بالمائة دينار التى وجدها فى الحقيبة بسييرا مورينا، فلم يعد لذكرها بعد ذلك قط، وهناك الكثير الذى يود أن يعرف ماذا فعل بها، أو فى أى شيء صرفها، وتلك نقطة جوهرية مما تفتقد الرواية.

أجاب سانشو:

– أنا، أيها السيد شمشون، لست الآن بقصد تقديم حسابات ولا حواديت، فقد ماعت معدتى مرة لإصلاح لها بعدها ولو حتى بجرعتين من معتـــق النبيـــذ، فاعترانى الهزال والضعف. وفى بيتى أعانى، وزوجتى ترعانى؛ وفى كل مرة انتهى من الأكل أتقيأ ما أكلت، وهذا قد يرضى فضولك، وفضول كل العالم حول كل ما يرغبون فى السؤال عنه، تمامًا مثل ضياع الحمار، ومصير المائة دينار.

ودون انتظار إجابة أو فتح فمه بكلمة انصرف إلى بيته.

دون كيخوتى طلب من السيد بكالوريا ورجاه أن يبقـــى كـــى يكفّـــرا عـــن جوعهما معًا، قبل البكالوريا الدعوة. أضاف دون كيخوتى لمائدته المعتادة فـــرخين من الحمام، وتحدثا على المائدة عن الفروسية، وواصل كارّاسكو مزاحه وسخريته. انتهت المائدة، وناما قيلولتهما، وعاد سانشو، ليتجدد ما مضى من حديث.

(*) حسب محققى النص فإن ثربانتس قد سها، ونسى أن الحمار قد سُرق، قبل أن يظهر اللـــص والحمار، وهنا ثربانتس نفسه يتنبه لذلك، وكأنه يقول إنه فعل ذلك عمدًا، وعمومًا تم تـــدارك هذا السهو فى القسم الأول من ترجمتنا، اعتمادًا على اجتهاد الدكتور الأهوانى فـــى ترجمـــة للفصول الستة والعشرين الأولى من ذلك القسم.

الفصل الرابع

حيث يُرضى سانشو بانثا فضول حامل البكالوريا شمشون كارّاسكو حول شكوكه وأسئلته، مع وقائع أخرى جديرة بأن تعرف وتحكى

عاد سانشو إلى بيت دون كيخوتى، وعاد ما انقطع من حديث، قال:

- بالنسبة لما يريد أن يعرفه السيد شمشون (حسب ما قال) حول من أو كيف أو متى سرق حمارى، مجيبًا أقول، فى نفس ليلة هربنا من الأخوّة المقدسة، دخلنا فى جبال سييرا مورينا، بعد المغامرة غير المحظوظة للأشقياء المتوجهين للسخرة فى الأسطول، والمغامرة الأخرى الخاصة بالميت الذى كانوا يحملونه إلى سقوبية، وهناك أنا وسيدى توغلنا فى وعر الجبال، حيث مضى سيدى محتضنًا رمحه وأنا فوق حمارى، مطحونين ومتعبين من المشاجرات التى مررنا بها، وهكذا شرعنا فى النوم كما لو كان تحت كل واحد منا أربع (مراتب) من ريش النعام، وخاصة أنا حيث اعترانى نوم عميق، حتى إنه لو جاء أحدهم وعلقنى فوق أربعة صوارٍ، غرزها من النقاط الأربع لبردعة، ليتركنى معلقًا فوقها ويسحب الحمار من تحتى، ما أحسست بما يحدث.

- هذا سهل جدا، وليس حدثًا جديدًا، فقد وقع نفس الأمر لساكريبانتى، عندما كان فى سيرك البرقة، وبنفس هذه الحيلة سحب اللص المشهور برونيلو الجواد من بين رجليه.

واصل سانشو:

– وأصبح الصباح، وبمجرد أن تحركت، فى اهتزاز بسيط، خالى الذهن عن الصوارى، وقعت فى سقطة مفاجئة على الأرض، ونظرت باحثًا عن الحمار، ولم أره، فانهالت دموع عينى، وبدأت فى الندب، وإذا لم يكن قد وضع ذلك الندب المؤلف لقصتنا، فليعلم أنه قد فاته شيء جيد وفى نهاية لا أدرى كم من الأيام، وخلال صحبتنا للأميرة ميكوميكونا، تعرفت على حمارى، قادمًا فوقه فى ثياب غجرى، ذلك الشقى، والشرير الكبير، المدعو خينس باسامونتى الذى حررناه من قيود السلسلة، أنا وسيدى.

– خطأ المؤلف ليس فى هذا، وإنما فى قوله إن سانشو كان يمضى راكبًا الحمار المسروق، قبل عثور سانشو عليه.

قال سانشو:

– على هذا لا أدرى بما أجيب، فإما المؤلف يخدع نفسه سهوًا، أو هو إهمال من الناشر.

قال شمشون:

– لابد أن الأمر كذلك، ولاشك؛ لكن ماذا وقع لمائة الدينار؟ هل تم صرفها؟

– لقد صرفتها على نفسى، وعلى زوجتى وأولادى، وكان ذلك سببًا فى صبر امرأتى على تفرقى فى الطرق والسبل التى سلكتها فى خدمة سيدى دون كيخوتى؛ فإنه إذا عدت بعد غياب وقت طويل خالى الوفاض، حارمًا بيتى طول ذلك الوقت من الحمار وكرايته، لكان سيكون فى انتظارى نهار أسود، وإذا كان هناك المزيد الذى تود معرفته عنى، فهأنذا هناك، وسوف أجيب

على الملك نفسه شخصيا، ولا أحد له الحق أن يقحم نفسه فيما حملت معى أو ما لم أحمل، وفيما صرفت أو ما لم أصرف؛ لأن ضرب النبابيت التى أنزلوها على جسمى خلال هذه السفريات، لو تم دفع نقود مقابلها، حتى لو كانت التعريفة أربعة دراهم مرابطيه مقابل كل ضربة نبوت، فما كان مع مائة دينار أخرى التعويض الكافى عن نصف ما أصابنى، وعلى كل واحد أن يقصر يده عنى، ويترك الحكم على الأبيض بالأسود، وعلى الأسود بالأبيض؛ فكل واحد منا على الهيئة التى خلقه الله عليها بل أسوأ.

قال كارّاسكو:

- سوف أهتم بإبلاغ المؤلف، أنه فى إعادة طبعه للقصة، عليه ألا ينسى ذلك الذى قاله سانشو الطيب، على أن يبرزه أكثر من الحقيقة ولو ببعض (شبر).

سأل دون كيخوتى:

- هل هناك المزيد فى قصتك مما يحتاج إلى إصلاح، أيها السيد بكالوريا؟

أجاب هو:

- نعم لابد من وجود ما يحتاج إلى إصلاح، لكن لا شىء من ذلك فى مثل أهمية ما سبق ذكره.

قال دون كيخوتى:

- وبالصدفة، هل يعد المؤلف بتقديم جزء ثان من القصة؟

أجاب شمشون:

- نعم يعد، لكنه يقول إنه لا يعرف من عنده القصة، وإنه لم يعثر على هذا الجزء حتى الآن، وهكذا فنحن فى شك، هل سيظهر الجزء الثانى أم لا. ويعلق

البعض على الأمر: "لم يحدث قط أن تكون الأجزاء الثانية طريفة"، وآخرون: "فيما يتعلق بأشياء دون كيخوتي يكفى ما كتب". ويشك فى جدوى جزء ثان، لكن المتفائلين المرحين "فلتأت كيخوتات أكثر، وليهاجم دون كيخوتي ويثرثر سانشو بانثا، وليحدث ما يكون، فبهذا نطرب".

- وماذا يعطل المؤلف؟

أجاب شمشون:

- عندما يجد ما يجده من القصة سينشره، وها هو يبحث عنها فى مسعى غير عادى الجهد، محمولاً بمصلحته، غير منتظر لثناء على عمله.

وعلى هذا علق سانشو:

- إنها النقود والمصلحة ما يحرك المؤلف؟ ستكون معجزة أن يصيب؛ فلن يكون سوى سلقها، وسلقها مثل الخياط فى عشية العيد، فالأشياء التى تعمل على عجل لا تبلغ الكمال قط. فليهتم هذا السيد العربى أو أيًا كان، بالتروى فيما يصنع؛ فأنا وسيدى سوف نضع بين يديه ما يفيض عن حاجته من مادة المغامرات، والأحداث المتعددة؛ مما لا يصلح فحسب لتأليف جزء ثان بل مائة جزء. ذلك الرجل الطيب لابد أنه يفكر الآن – ودون شك– فى أننا نائمون فى التبن هنا، بينما نحن لنا قدم دربة، وسوف يرى عما إليه نحن عارجون. والذى أعرف قوله،إذا أخذ سيدى بنصيحتى، أننا الآن يجب أن نكون فى تلك الحملات لمحو إساءات من أسئ إليهم، وصد العدوان عمن اعتدى عليه، كما هو المعتاد والمألوف من الفرسان المشائين الأصلاء.

لم يكد سانشو ينتهى من هذه العبارات، حتى وصلت إلى أسماعهم أصوات صهيل روثينانتى، وهذا الصهيل أخذه دون كيخوتى كفأل حسن، وقرر إنجاز خروج جديد بعد ثلاثة أو أربعة أيام تبدأ من تلك اللحظة، وأعلن عن نيته إلى حامل البكالوريا، وطلب منه النصح عن أى مكان يبدأ منه موسم نشاطه الجديد، وهذا أجابه بأن رأيه أن يذهب إلى مملكة أراجوان، وبالذات لمدينة سرقسطة، فهم بعد مضى أيام قليلة سوف يقيمون بعض المسابقات الفروسية احتفالاً بسان خورخى، وفيها يمكنه أن يكسب فرسان أراجون جميعًا، محققًا شهرة عليهم، وبهذا تفوق شهرته كل فرسان العالم. وأثنى على قراره لما يتسم به من الشرف والقوة، ورجاه أن يسير فى المخاطر بكل حذر؛ لأن حياته ليست ملكه، وإنما هى ملك كل أولئك الذين يحتاجونه كى يجيرهم وينقذهم فى نكباتهم.

وعلى هذه النقطة الأخيرة قال سانشو:

– هذا ما أستنكره، يا سيد شمشون؛ فسيدى يهاجم مائة رجل مسلحين، مثلما يفعل صبى منهم مع نصف دستة من البطيخ. يا للهول، أيها السيد بكالوريا! نعم، هناك أوقات للكر، وأوقات للفر، إذا ينبغى ألا يكون الكر والفر فى آن، ولينصر سانتياجو إسبانيا(*)! وأكثر من ذلك، فقد سمعت، وأظن، من سيدى نفسه، إذا لم تخنى الذاكرة، إن نصف الشجاعة هى أقصى درجات الجبن والخوف؛ وإذا كان الأمر كذلك فلا أحب مثل هذا الموقف لسيدى، إذا لم يوجد سبب قوى، ولا أحب أن يهاجم عندما تحتاج مواجهة الكثرة إلى أسلوب آخر. لكنى أعلم سيدى، قبل كل شيء إذا كان عليه أن يحملنى

(*) صيحة لقديس إسبانيا سانتياجو، وسانشو يريد بها صعوبة الكر والفر، حتى يحتاج الأمر لعون القديسين.

معه، فلي شرط هو ألا أجبر على أى شيء سوى النظر فى أمور خدمته من نظافة وتدليل لشخصيته، وهذا سأفعله على خير وجه، لكن التفكير فى أن أضع يدى على السيف، حتى لو كان ضد السفلة من رعاع القلنسوة والفأس، هو تفكير خارج اللعبة. فأنا، أيها السيد شمشون، لا أفكر فى اكتساب شهرة الشجاع، إنما شهرة أخلص وأفضل حامل دروع لسيده، مثلما لم يحدث قط لحامل دروع فارس مشاء؛ وإذا كان سيدى دون كيخوتى، مضطرًا أمام خدماتى الكثيرة والطيبة، قد أحب أن يعطينى جزيرة من الجزر الكثيرة التى يقول فخامته إنه سوف يصادفها هناك، سوف أستقبل ذلك منه باعتبارى فضلاً كبيرًا، وإذا لم يحدث، فالتعيس تعيس بحكم ميلاده، والرجل لا ينبغى أن يعيش على الثقة فى آخر، وإنما عليه أن يثق فى الله وحده، وفوق ذلك سوف أعيش بخير وربما أفضل، وسيكون للخبز طعم ألذ، فى حال عدم قيامى بالحكم من قيامى به؛ وأنا أعرف بالصدفة أن الشيطان فى هذه الحكومة يعد لى فخًا يسبب لى (المقص)، حيث أتعثر وأسقط على وجهى فاقدًا أسنانى؟ لقد ولدت سانشو، وأفكر أن أموت سانشو، لكن مع كل هذا بين النعمة والنعمة، ودون إسراف فى الطلب، ودون مخاطرة، إذا وهبتنى السماء جزيرة أو شيئًا آخر مشابهًا، لست أبله إلى حد رفضها، فأيضًا يقولون: "إن قدّموك، تقدم"، "وإن رزقت نعمة، فاحفظها فى بيتك".

قال كارّاسكو:

– أنت، أيها الأخ سانشو، قد تحدثت بوصفك إنسانًا جامعيا، لكن مع كل هذا، ثق فى الله، وفى السيد دون كيخوتى، الذى لابد وأن يعطيك مملكة، وليس فقط جزيرة.

أجاب سانشو:

– تتساوى السراء والضراء؛ مع أننى كفيل بالقول إلى السيد كارّاسكو بأن سيدى حين يعطينى مملكة فلن يلقيها فى جوال مثقوب، فقد حفزت نفسى، وأجدنى فى صحة لأقوم على ممالك، وأحكم جزرًا وحكومات، وهذا فى مرات سابقة رددته على مسامع سيدى.

قال شمشون:

– انظر سانشو، المناصب تغير العادات، ومن الممكن حال رؤيتك حاكمًا، ألا تعرف نفس الأم التى ولدتك.

أجاب سانشو:

– حينذاك، عليك فهم هذا مع الذين لم يعرفوا لأنفسهم أصلاً، وليس مع الذين تنقت أرواحهم بأصالة المسيحى القديم، مثلى. فلست بجاحد للجميل، اللهم إلا إذا لم تعرف معدنى!

قال دون كيخوتى:

– الله أعلم، وسيكتشف كل شىء عندما تأتى الحكومة، وأكاد أراها على مرمى البصر.

وعند قوله هذا، رجا حامل البكالوريا، إذا كان شاعرًا، فليتفضل عليه، بتأليف بعض الأبيات، التى يفكر أن يجعلها فى وداعة من سيدته دولثينيا دل توبوسو، وأن يحرص أن يضع فى أول كل بيت حرفًا من حروف اسمها حتى يقرأ فى آخر الأبيات عند جمع حروفها الأولى: دولثينيا دل توبوسو. حامل البكالوريا

قال له، رغم أنه ليس من شعراء إسبانيا المشهورين، والذين يقولون إنهم ليسوا إلا ثلاثة شعراء ونصف، فهو لن يتجنب نظم الأبيات المطلوبة مهما لاقى من عقبات في نظمها بسبب أن الحروف التي تكون الاسم سبعة عشر حرفًا، فإذا نظم أربع رباعيات طبقًا للوزن القشتالي الثماني المقاطع زادت حروف الاسم على عدد الأبيات حرفًا، وإن صنعه على عشري المقاطع نقصت الأبيات في عددها عن عدد حروف الاسم ثلاثة حروف، لكنه مع كل ذلك سيحاول تقليص أحد الحروف حتى يستوعب كلما أمكن النظم القشتالي الثماني اسم دولثينيا ديل توبوسو.

قال دون كيخوتي:

– هكذا ينبغي أن يكون على أي حال، لأن أي امرأة إذا انتقص منها جزء، فلن تظن أن الأبيات نظمت من أجلها.

واتفقوا على هذا، وعلى أن الخروج سيكون بعد ثمانية أيام. وحمل دون كيخوتي حامل البكالوريا مسئولية كتم السر خصوصًا عنَ القسيس والأسطى نيكولاس، وعن ابنة أخته والأمة، حتى لا يفسدوا عزمه الشريف والجسور. وعد كارّاسكو بهذا. وهنا انصرف كارّاسكو طالبًا من دون كيخوتي إبلاغه بكل شيء، كان خيرًا أو شرًا فيما يقع له من أحداث، وذلك كلما أمكنه، وودع الجميع بعضهم بعضًا، وذهب سانشو كي ينظم أمر الموسم الجديد للخروج.

الفصل الخامس

عن الدردشة الذكية والظريفة التى دارت بين سانشو بانثا وزوجته تيريزا بانثا، ووقائع أخرى جديرة بالذكرى السعيدة

عندما وصل مترجم هذه القصة إلى كتابة الفصل الخامس، يقول إنه ينظر إليه باعتباره شيئًا مختلفًا، ففيه يتحدث سانشو بأسلوب آخر يتجاوز ما يعد به ذكاؤه المحدود، ويقول أشياء دقيقة الفطنة ليس من الممكن معرفته بها، لكنه لم يحب ترك ترجمته، حتى ينجز ما عليه إنجازه بحكم المهنة، وهكذا واصل القول:

وصل سانشو إلى بيته متهللاً، ومبتهجًا، حتى إن زوجته اكتشفت بهجته بنظرة خاطفة كالسهم مما أرغمها ذلك على سؤاله فى الحال:

– ماذا تحمل، سانشو صديقى، حتى تقدم بكل هذا الابتهاج؟

وعلى هذا أجابها:

– يا امرأتى، إذا شاء الله، كان يبهجنى ألا أكون مبتهجًا كما يبدو علىَّ.

أجابت هى:

– لا أفهمك، ولا أدرى ماذا تريد القول بهذا إنه يبهجك، حسب علم الله، ألا تكون مبتهجًا، ومع أننى بلهاء لكن لا أدرى عمن يطرب ألا يطرب.

أجاب سانشو:

- أنا مبتهج لأنني عزمت على العودة إلى خدمة سيدى دون كيخــوتى، الـــذى يريد الخروج للمرة الثالثة، بحثًا عن المغامرات؛ وأنا سأعود للخروج معـــه؛ لأن حاجتى تتطلب ذلك، بجانب الأمل، فى أن أسر بالعثور على مائة دينـــار أخرى، مثل تلك التى صرفناها، رغم أنه يحزننى البعاد عنك، وعن أولادى، وإذا شاء الله أن يرزقنى لقمة العيش دون عبور البحر، وأنا مقيم فى بـــيتى، دون حملى إلى الوعورة ومفارق الطرق، لكان خروجى بأقل ثمـــن، حيـــث يكون لا أكثر من مجرد أننى أحب فعله، بالطبع كانت بهجتى ستكون أكثـــر تماسكًا وصدقًا من تلك البهجة المختلطة بأحزان تركـــك وحيدة،وهكـــذا أحسنت القول حين قلت: "إذا شاء الله، كان يبهجنى ألا أكون مبتهجًا".

أجابت تيريزا:

- انظر، سانشو، بعد أن صرت عضوًا من فارس مشاء، وأنت تلف وتـــدور فى الكلام، حتى لا يوجد من يفهمك.

أجاب سانشو:

- يكفى أن الله يعلم ما بنفسى، وهو العالم بكل شىء، ولنقف بهذا الأمر عنـــد هذا الحد، واحرصى، أيتها الأخت، أنه يناسبك العلم فى هذه الأيام الثلاثـــة ضرورة الاهتمام بالحمار، فإنه على وشك الدخول فى الحرب، ضاعفى لـــه الوجبات، وقومى بإصلاح بردعته، لأننا لن نذهب لحفلات زفـــاف، وإنمـــا لمنافحة العالم، والكر والفر مع المردة، والجنيات والجن فى الـــبر و البحـــر، والاستماع إلى صفير، وخرير، وزئير، وكل صوت مرعب نكير، وكل هذا يهون، إذا لم يكن علينا التفاهم مع الرعاة اليانجويـــسيين، ومـــع العـــرب المسحورين.

أجابت تيريزا:

- وأنا اعتقد جيدًا أن حملة الدروع المشائين لا يأكلون عيشهم عبثًا، وهكذا سأبقى فى ضراعة إلى ربنا، أن يخرجك سريعًا من هذا البلاء المبين.

أجاب سانشو:

- أقول لك يا امرأة، إذا لم تفكرى فى رؤيتى حاكمًا لجزيرة قبل مضى وقت طويل، قد أقع هنا ميتًا من الحسرة.

قالت تيريزا:

- هذا لا، يا زوجى، فلتحيا الدجاجة ولو حاملة لطاعونها، ولتحيا أنت، ولتذهب كل الحكومات الموجودة فى العالم إلى الشيطان فقد خرجت من بطن أمك دون حكومة، كما عشت حتى الآن دونها، وستعيش فى القابل دون حكومة، ودونها ستدخل قبرك، عندما يشاء الله. وكل هؤلاء دون حكومة، ولا يتركون العيش، ويحسبون فى عداد الناس. وأحسن صلصة فى العالم هى الجوع؛ ولأن هذا لا ينقص الفقراء أبدًا، فهم يأكلون دائمًا بشهية مفتوحة. لكن انظر، سانشو، إذا رأيت نفسك يومًا مع حكومة فلا تنسانى أنا والأولاد. ولتعلم أن سانشو الصغير قد بلغ خمسة عشر عامًا كاملاً، وهذا سبب كاف لإرساله إلى المدرسة، إذا سمح له عمه رئيس الدير. وانظر أيضًا فى أن مارى سانشا، ابنتك، قد تموت إذا لم نزوجها، فها هى تهذى لى عن رغبتها العارمة للحصول على زوج مثلما ترغب أنت فى رؤيتك حاكمًا لحكومة، وفى نهاية النهايات، ابنة سيئة الحظ فى الزواج، خير منها بائرة من رجل لرجال فى معزاج.

قال سانشو:

- قسمًا، إذا وهبنى الله بعض حكومة، لأزوجن، ياامرأتى، مارى سانشا خير زواج، حتى لا تسمع فى أذنها إلا مناداتها بصاحبة السعادة.

أجابت تيريزا:

- هذا لا، سانشو، لأن تتزوج بمن يساويها أكثر صوابًا، فإخراجها من الخف الفلاحى إلى الكعب العالى، ومن الخيش إلى الحرير، ومن مخاطبتها بأنت يا مارى كالعادة، إلى صاحبة السعادة، ستقع فى ألف خطأ يكشف حقيقتها على الملأ.

قال سانشو:

- اخرسى أيتها البلهاء، لسوف تتعود فى سنتين أو ثلاث سنوات، وبعدها يأتى السمو والجدية داخل القالب، وإذا لم يحدث، ماذا هم؟ لتكن صاحبة السعادة، وليحدث ما يحدث.

أجابت تيريزا:

- قس الأمور، سانشو؛ لا تتطلع لفوق، وتعلم من المثل "نظف أنف ابن جارك، وضعه فى دارك". من المؤكد، أنه سيكون طريفًا أن تزوج ابنتنا ماريا إلى كونت شاب أو فارس، وحينما يحلو له، يعاملها باعتبارها مستجدة، مطلقًا عليها، فلاحة، ابنة فلاحين أجراء، وبؤساء! ليس وأنا على قيد الحياة، أيها الرجل! هل ربيت أنا ابنتى من أجل هذا؟! احضر أنت نقودًا، سانشو، واترك الزواج على كاهلى؛ فهناك لوبى توتشو، ابن خوان توتشو، فتى ممتلئ، وصحيح البدن، ونعرفه، ولا ينظر إلى الصبية بغير احترام، وبهذا، وهو مساوٍ

لنا، ستكون موفقة الزواج، وستكون تحت أعيننا دائمًا، وسنكون جميعًا، آباء، وأبناء، وأحفادًا، وأصهارًا، في (لمّة)، وسيجرى بيننا السلام والبركة من الله، من ثمَّ، فلن تأتي الآن وتزوجها في هذه البلاطات، وفي تلك القصور الضخمة، حيث لا يفهمونها، ولا تفهمهم.

أجاب سانشو:

– تعالى هنا، أيتها الدابة، زوجه بارّاباس: لماذا الآن، دون سبب أو مبرر، تودين إعاقتي عن تزويج ابنتي مع من يعطيني أحفادًا يطلق عليهم أصحاب السعادة؟ انظرى تيريزا: دائمًا سمعت ممن يكبرني قولهم "من لم يستمتع بالحظ حينما يأتيه، فإن ما فاته لا ينبغي أن يبكيه". وليس من الخير الآن، والحظ يطرق بابنا، أن نغلق هنا الباب في وجهه: دعينا نسير مع تلك الريح المواتية التي تهب علينا رخاء.

لهذه الطريقة في الكلام، ولما سيأتي تحت هذا الكلام مما يقول سانشو، قال المترجم لهذه القصة بأنه يرى أن هذا الفصل مختلق.

واصل سانشو:

– ألا يبدو لك، أيتها الحيوانة، أنه من الخير أن أنغمس في حكومة مثمرة، تستخرج القدم من الوحل؟ وأزوج ماري سانشا لمن أحب أنا تزويجها له، وسوف ترين كيف ينادونك مع اللقب "دونيا تيريزا بانثا"، وسوف تجلسين في الكنيسة على القطيفة، والحشايا والطنافس، على الرغم من سيدات أعيان القرية، وغيظهن، ولاتبقي العمر كله في كينونة واحدة، دون زيادة أو نقصان، مثل دمية أطفال. وحول هذا فلنغلق الكلام، فإن سانشا الصغيرة يجب أن تكون كونتيسة، مهما أفضت في القول والحجاج.

أجابت تيريزا:

- هل ترى (يا زوجى) مدى قولك؟ فمع كل هذا أخاف أن يكـون فى لقـب الكونتيسة لابنتى الضياع لها. افعل ما شئت، واجعل منها دوقة أو أميـرة؛ لكن أعرف أن أقول لك ذلك، لن يكون بإرادتى وموافقتى. فيا أيها الأخ، لقد كنت دائمًا نصيرة للمساواة، وحينذاك لن أتمكن من رؤية الأمور دون الأسس التى عليها أكون. فعند تعميدى سموني تيريزا، اسم مقشور ومـوجز دون كسور، ودون إضافات مـن زينـة الكـساء او ألقـاب الـدونات والدونيات، وسموا أبى كاسكاخو، وأنا لكونى زوجتك صرت تيريـزا بانثـا (وكان عليهم لأسباب وجيهة مناداتى تيريزا كاسكاخو، لكن هناك ملوكًـا حيثما شاءوا سنوا قوانين للسلوك)، وبهذا الاسم أنا راضية، دون أن يضعوا لقبًا فوقه، مما يثقل علىَّ كثيرًا، حتى لا أستطيع حملـه، ولا أحـب إعطـاء الفرصة للقول (لمن يرانى أسير فى ثوب كونتيسة أو حاكمة): انظروا كيـف تسير فى الخز والحرير تلك المرأة التى كانت فى نظافة الخنزير! بالأمس لم أكن أشبع من مط الأسمال، وأنا أذهب للكنيسة مغطية رأسى بذيل قميصى، بدلاً من الدثار والخمار، واليوم أذهب فى أفخر الثياب والحلى، وفى سمو، كما لو كنا لا نعرف بعضنا جميعًا. وإذا حفظ الله لى حواسى السبع أو الخمس أو أى عدد منها لى، لا أفكر فى إعطاء الفرصة لأن أرانى فى هذا الضيق. وأنـت، أخى، اذهب واعمل حكومتك أو جزيرتك، وترفه ماشاء مزاجك، أما أنـا وابنتى، بحق شيخوخة أمى، لسنا بصدد الانتقال خطوة بعيدًا عـن قريتنـا: فالمرأة الشريفة رجلها مكسورة، عن الشارع مقصورة، إنها لبيتها؛ والصبية الأمينة، شغل البيت، وطبخ العجينة. اذهب مع صاحبك دون كيخوتى إلى

مغامراتكما، واتركانا مع حظنا السيئ، والله سيصلحه لنا بقدر تقوانا، وأنا لا أدرى من وضع له لقب (دون) وهو مالم يحمله آباؤه ولا أجداده.

أجاب سانشو:

– الآن أقول إن جسمك يسكنه عفريت تألفينه. فليغفر لك الله، آه من المرأة، فكم نظمت من أشياء بعضها فى بعض، وهى لا أقدام لها ولا رأس! فما علاقة الكاسكاخو والحلى، والأمثال والترف بما أقول؟ تعالى هنا، أيتها المخبولة والجاهلة، فهكذا يمكننى أن أناديك، حيث لا تفهمين ما أقول وتسعين هربًا من السعادة: إذا كنت أقول أن تلقى ابنتى بنفسها من أعلى برج إلى أسفل، أو تضل فى الأرض على غير هدى، كما أحبت أن تفعل ولية العهد الأميرة أورّاكا(*)، فمعك الحق أن تعارضينى، لكن إذا كنت فى هبة ريح، وفى أقل من طرفة عين، أضع لك لقب "دونيا "، وصاحبة السعادة معه، وأخرجه لك من هشام الحصاد، مع السلطة والجاه، وعلى مخفة موحدية من مراكش، لا تحملين نفسك على الموافقة، وحب ما أحب؟

أجابت تيريزا:

– تعرف لماذا، يا زوجى؟ بسبب المثل الذى يقول: "من يتغطى مصيره إلى انكشاف". الكل ينظر للفقير دون اهتمام، وعيناه على الغنى تقفان، فإذا كان هذا الغنى من قبل فقيرًا، فهناك الهمز واللمز، والأسوأ ديمومة اللاعنين الذين توجد أكوام منهم بهذه الشوارع مثل أسراب النحل.

(*) فى رومانث إسبانيا يتحدث عن هذه الأميرة التى تركت وراثة العرش وسارت بوصفها امرأة ضالة على غير هدى، وهى ابنة فرناندو الأول، ويلاحظ فى هذا الفصل أن ثربانتس غير اسم زوجة سانشو من خوانا إلى تيريزا.

أجاب سانشو:

- اسمعى، تيريزا، انصتى لما أود قوله لك الآن، فربما لم تسمعيه طوال أيام حياتك، والآن لا أتحدث من عندى، وإنما كل ما أفكر فى قوله لك، هو من أقــوال الأب الواعظ، الذى وعظ فى صوم الأربعين الكبير الماضى فى هذه القريــة، والذى إذا لم تخنى الذاكرة، قال إن كل الأشياء الحاضرة التى تتمثل للعــين حين النظر إليها، توجد، وتستحضر فى ذاكرتنا أفضل بكثير، وأكثر تماسكًا من الأشياء الماضية.

كل هذه الأقاويل التى يرددها سانشو هى ثانى الأدلة التى من أجلهــا يقــول المترجم بأنه يرى أن هذا الفصل مختلق؛ لأنها تتجاوز مقدرة سانشو، الذى مــضى يقول:

- عندما نرى شخصًا حسن الهيئة، بملابس ثرية المظهر، وفى وسط فخامة موكب خدمه، يولد ذلك الشخص من حيث يظهر، وبالقوة يحركنا ويدعونا أن نكن له الاحترام، على الرغم مما يتمثل للذاكرة فى تلك اللحظة من تواضع حاله، الذى رأيناه عليه، ذلك التواضع الذى يفقد اسمه كان ما كان من نسب أو فقر، فقد فات، ولم يعد كائنًا، وفقط يكون ما نراه حاضرًا. وإذا كان هذا، الذى أخرجه الحظ من مسوّدة تواضعه (استعمل نفس عبــارات الأب) إلى علياء رخائه، حسن التربية، كريمًا، ومؤدبًا مــع الجميــع، ولا يــدخل فى حواديت مع هؤلاء الذين هم نبلاء قدماء، خذيها كلمة ثقة، تيريــزا، لــن يوجد من يتذكر ماذا كان، وإنما يبجلون ما هو عليه، إذا لم يكونــوا مــن الحاسدين، الذين لاينجوا منهم كل ذى حظ مزدهر.

أجابت تيريزا:

- أنا لا أفهمك، يازوجي، افعل ما تحب، ولا تكسِّر رأسي أكثر بخطبك الحربية، وبلاغتك. وإذا كنت احترت أن تفعل ما تقول...

قال سانشو:

- اخترت، هذا ما ينبغي قوله، وليس احترت.

أجابت تيريزا:

- زوجي، لا تتجادل معي. أنا أتكلم كما يحب الله، ولا أحشر نفسي في هـذه الرسومات، وأقول إنك معاند في الحصول على حكومة، من ثمّ احمل ابنـك سانشو معك حتى تعلمه من الآن كيف يحكم؛ لأن الأبناء يرثـون الآبـاء، ويتعلمون منهم.

قال سانشو:

- حال قيامي بالحكم، سوف أرسل في طلبه بالبريد، وسوف أرسل لك نقـودًا، حيث لن تنقصني؛ لأن الذين يحكمون لا ينقصهم قـط مـن يقرضـهم إذا نقصتهم النقود، وألبسه حتى يخفي حقيقته، ويبدو في الصورة التي ينبغي أن يأخذها ابن حاكم.

قالت تيريزا:

- أرسل أنت النقود، ولسوف ألبسه أنظف الملابس.

قال سانشو:

– بالفعل، لنتفق على أن تكون ابنتنا كونتيسة.

أجابت تيريزا:

– اليوم الذى أراها فيه كونتيسة، سأقوم بما يلزم لدفنها، لكن مرة أخرى أقـــول لك، افعل ما تشاء، فقد ولدنا نحن النساء لحمل مسئولية طاعة الأزواج حتى لو كانوا أبلد الخلق.

وعند هذا بدأت فى البكاء بكل صدق، كما لو كانت قد رأت سانشا الصغيرة ميتة، وتم دفنها. سرّى عنها سانشو قائلاً لها إذا كان عليـــه أن يعملهـــا كونتيـــسة، فسوف يؤخر ذلك ما أمكنه. وعند هذا انتهت الدردشة بينهما، وعاد سانشو لرؤيـــة دون كيخوتى حتى يتم تنظيم الرحيل.

الفصل السادس

عما حدث لدون كيخوتى مع ابنة أخته، وأمه،
وهذا الفصل واحد من الفصول المهمة فى كل الرواية

بينما كان سانشو وزوجته تيريزا كاسكاخو ينهيان دردشتهما الصفيقة التى سبق ذكرها، لم تكن فى بطالة ابنة أخت دون كيخوتى وأمته، اللتين بألف إشارة أحستا أن سيدهما يود الانطلاق للمرة الثالثة، والعودة لممارسة ما كانتا تسميانه الفروسية السيئة السير والسلوك، وكانتا تحاولان بكل السبل الممكنة إبعاده عن مثل هذا التفكير، لكن كان كل ذلك وعظًا فى الصحراء، وسبكًا لحديد بارد. مع كل هذا، وبين أحاديث كثيرة دارت معه، قالت له الأمة:

– إذا لم تثبت قدميك باستواء الأرض، وتبقى فى بيتك، وتترك المسير فى الجبال وعبر الوديان، مثل الأرواح الهائمة، بحثًا عن تلك الأشياء التى يقولون إنها تسمى مغامرات، والتى أسميها نكبات، ففى الحقيقة يا سيدى ليس أمامى إلا الشكوى فى جهورية وصراخ إلى الله، وإلى الملك، كى يضعا علاجًا للأمر.

وعلى هذا أجاب دون كيخوتى:

– أيتها الأمة ما سوف يجيبك به الله على شكواك لا أعرفه، ولا ينبغى على الملك أن يجيبك، وأعرف فحسب أننى لو كنت ملكًا لاستمحت لنفسى عذرًا بعدم إجابة ما لا يحصى بكثرة من طلبات صفيقة تقدم إلى جلالته كل يوم، حتى إن أحد الأعمال الكبرى للملوك بين أعمال أخرى كثيرة، هو اضطرارهم الاستماع للجميع، وإجابة الجميع، وهكذا، فلا أود أنا أن تثقل بعض أشيائى على الملك.

وعلى هذا قالت الأمة:

– أخبرنا، يا سيدى: ألا يوجد فى بلاط الملك فرسان؟

أجاب دون كيخوتى:

– نعم، وكثيرون، وسبب وجودهم هو تزيين أبهة الأمراء، وفخار الجلالة الملكية.

أجابت هى:

– ألا تكون فخامتك واحدًا من الفرسان الثابتين الذين يخدمون ملكهم وسيدهم، لو وُجدت فى البلاط؟

أجاب دون كيخوتى:

– انظرى أيتها الصديقة، لا يستطيع كل الفرسان أن يخدموا البلاط، وليس كل فرسان البلاط يمكنهم أو يجب عليهم أن يكونوا فرسانًا مشائين، ينبغى أن يوجد فى العالم فرسان من كل صنف، ومع أننا جميعًا فرسان، هناك فرق كبير بين كل صنف وصنف، لأن فرسان البلاط دون أن يخرجوا من مخادعهم، أو يتجاوزوا عتبات البلاط، يتنزهون بكل أنحاء العالم ناظرين إلى خريطة، دون أن يكلفهم ذلك فلسًا واحدًا، ودون معاناة الحر والبرد، أو البقاء تحت قسوة السماء، ليلاً ونهارًا، راجلين أو ركبانًا، ولسنا فقط،نحن المشّائين نعرف العدو مرسومًا، وإنما نلتقى بشخصه، وفى كل الأوقات والظروف نهاجمه، دون التروى فى تلك الصبيانيات، ولا القوانين الخاصة بالمبارزة، كأن يحمل أو لا يحمل رمحًا أقل طولاً أو سيفًا غير موافق، أو يرتدى تحت ملابسه بعض الدروع المخفية، وعما إذا كان لابد من قسمة أرض المعركة شطرين

متساويين فى استقبال نور الشمس، أو عدم قسمتها، مع شعائر أخرى مـــن هذا النمط، والتى تستعمل فى المبارزات الفردية بين شخصين، مما لا تعرفين، وأعرف أنا. وعليك أن تعرفى أكثر أن الفارس المشاء الشجاع لا يخاف بأى شكل لو رأى مردة لا تلمس رءوسهم السحاب فحسب، بل تعلو عليـــه، ولكل منهم برجان كرجلين، وذراعان يشبهان دوحتين أوسفينتين جبارتين، وكل عين مثل عجلة عظيمة لطاحونة، أكثر تضرمًا من فرن من زجاج، ومع كل هذا يهاجمهم ويلتحم بهم فى هيئة أنيقة، وقلب جسور، ولو أمكن يتغلب عليهم ويدمرهم فى لحظة قصيرة، حتى لو كانوا قد جاءوا مسلحين بمحـــار نوع من السمك، يقولون عنه إنه فى صلابة الماس، وبدلاً مـــن الـــسيوف، يحملون سكاكين قاطعة من الصلب المرصع، وهراوات مغطـــاة بالحديـــد، وسنها أيضًا من الصلب، مثلما رأيتها أكثر من مرتين، كل هذا قلته — يـــا أمتى — حتى ترى الفرق بين فريق من الفرسان وفريق آخر منهم، وليكـــون سببًا لئلا يوجد أمير لا يقدر الفريق الثانى حق قدره، أو فى عبـــارة أخـــرى النوع الأصلى من الفرسان المشائين، الذين طبقًا لما نقرأه فى قصصهم، كان يقع على عاتق الواحد ليس فحسب سلامة مملكة واحدة بل ممالك.

فى هذه اللحظة دخلت ابنة أخته:

– آه ، يا سيدى! اعلم أن كل ما تقوله عن الفرسان المشائين ليس إلا (حدوتة خرافية)، وأكذوبة، وقصصهم، التى لم ينتهوا من حرقها، عليهم أن يلقـــوا عليها رداء التفتيش للتائبين، أو أية شارة يتعرف عليها باعتبارها وصـــمة، وللتعريف بأنها تمحو كل عادة طيبة.

قال دون كيخوتى:

- بحق الله الذى يرزقنى، لو لم تكونى حقًا ابنة أختى، التى كانت ستعاقبك بما لم أعاقبك به، للإفك الذى ذكرت، ليكون فضيحة عالمية. كيف يمكن لصبية فى المهد مثلك لا تكاد تختال بتحريك دستة من إبر التطريز، أن تجرؤ على إطالة لسانها، وفرض رقابة على قصص الفرسان المشائين؟ ماذا كان سيقول السيد أماديس لو سمعك؟ لكن تأكيدًا، كان سيعفو عنك؛ لأنه كان أكثر الفرسان تواضعًا وأدبًا فى عصره، وفوق ذلك، المأوى العظيم للصبايا، لكن إذا سمعك آخر، لما حدث لك ما يرضيك منه، لأن الجميع ليسوا مهذبين، ولا يحسن الناس فيهم الرأى، فالبعض أشرار وغير مهذبين. وليس كل من يسمون فرساناهم فرسانًا مكملين متممين، فالبعض من ذهب والبعض الآخر من معادن زائفة البريق، والجميع يظهرون فرسانًا، لكن الجميع لا يمكنهم أن يكونوا على الحد الصارم للحقيقة. رجال منحطون عليهم الاستقتال ليظهروا فرسانًا، ورجال فى سمو عليهم التظاهر عمدًا فى استقتال للظهور متواضعين؛ فهؤلاء ينهضون إما بالطموح أو الجدارة، وأولئك يهبطون إما بالضعف أو انعدام الجدارة. ومن الضرورى أن نستفيد من المعرفة الحقيقية لنميز هاتين الطريقتين للفرسان، شديدى الشبه تسمية، وشديدى البعد فى أفعالهم.

قالت ابنة الأخت:

- الله لى! كم تعرف الكثير يا خال، حتى لو كان ضروريًا عند الاحتياج، يمكنك صعود المنبر، والذهاب للوعظ فى الشوارع، ومع كل هذا، تدخل فى عمًى

عظيم، وسفه صار مشهورًا، حتى تحاول الظهور بأنك قوى، وأنت شيخ هرم، وان لديك من القوة ما ينفيه مرضك، وإنك ترد العدوان، وأنت فى عمر استهلك سنواته، وعلى الأخص، تقول إنك فارس، وأنت لست بفارس، مع أنه من حق الأعيان أن يكونوا فرسانًا، لكن ليس الفقراء منهم (أمثالك).

أجاب دون كيخوتى:

– معك أكثر الحق يا ابنة أختى، فيما تقولين، وأنا أقول لك أشياء حول الأنساب، مما يدهشك، لكن حتى لا أخلط الإلهى بالإنسانى لن أقولها. انظرا، صديقتىَّ، إلى أربعة حظوظ من الأنساب (وكونا لى منتبهتين) يمكنها تلخيص كل ما يوجد فى العالم، وهى تلك: آحاد كانت لهم بدايات متواضعة، ومضوا يتسعون ويصابرون حتى يصلوا إلى عظمة كاملة، وآحاد أخرون، كانت لهم بدايات عظيمة، ومضوا يحافظون عليها، ويحفظوها ويبقون عليها بالشكل الذى بدأوا به، وفريق ثالث، مع أنهم كانت لهم بدايات عظيمة انتهوا إلى سنٍّ ضئيل مثل سن الهرم، لتضاؤلهم، وتصفية بداياتهم حتى يقفوا عند العدم، أو سن الهرم الذى ليس بشىء عند مقارنته بقاعدته وعند اتخاذه قاعدة، وفريق رابع (وهو الغالب)، لم تكن لهم بدايات طيبة ولا متوسطة، وهكذا ستكون نهايتهم، دون اسم أو نسب من العامة والخاصة. وعن الأولين، الذين كان لهم أصل متواضع، وارتقوا إلى العظمة التى يحتفظون بها الآن، ويصلح بوصفه مثالاً لكما البيت العثمانى، الذى كان بيت رعاة متواضعًا ومنحطًّا، ها هو فى القمة التى نراها. وعن النسب الثانى كانت بداياته عظيمة، وحافظ عليها دون زيادة، سيكون المثل عددًا كبيرًا

من الأمراء بالوراثة، ويبقون حيث هم دون زيادة أو نقصان، مكتفين بإقطاعاتهم أو دوبهم عند حدودها فى سلام. وعن الذين بدأوا عظامًا وانتهوا بسن الهرم، هناك آلاف الأمثلة، لأن كل فراعنة مصر وبطالمتها، وقياصر روما، مع كل عشيرتهم (إذا صح على أتباعهم) من الأمراء الذين لا حصر لهم، والملوك، والسادة، والميديين، والفرس، واليونانيين، والبربر، وكل هذه الانساب والسيادة، انتهت بالسن، وبالعدم، هم ومن أعطوا لهم تلك البدايات، فليس ممكنًا الآن العثور على أحد من نسلهم، وإن وجدناه سيكون فى حال من التواضع والانحطاط بمكان. وعن نسب الغوغاء والعامة أقول إنه مجرد زيادة عدد للأحياء؛ دون شهرة أو فخار. من كل ما قلت أحب أن تستدلا، ياحمقاوى(*)، أن الخلط فى الأنساب عظيم، ومن يبدو عظيمًا أو لامعًا، فقط تظهره فضيلته، وثروته وكرمه. قلت فضيلة وثروة وكرم لأن العظيم الفاسد، هو فاسد عظيم والثرى غير الكريم هو بخيل شحاذ، وأن مالك الثروات، لايسعده امتلاكها، إلا بصرفها، وليس صرفها كيفما كان، وإنما عليه أن يعرف أين مصارفها. أما الفارس الفقير، فلم يبق له طريق كى يسلكه سوى طريق الفضيلة، بأن يكون بشوشًا حسن التربية، مهذبًا، مؤدبًا، ومحترمًا لفروسيته، ليس مغرورًا، ولا متكبرًا، ولاثرثارًا، وفوق كل شيء، بارًّا؛ بقليل ماله وبروحه الباش فى وجه الفقير، وسيكون فى نفس كرم من يعطى صدقة مجلجلاً جرسًا، جريح الجرْس، ولن يعدم من يراه متزينًا بالفضائل التى ذكرتها، وحتى إن لم يعرفه، يتجنب الحكم عليه أو اعتباره طيب الأصل، وإن لم يكن كذلك فتلك معجزة، ودائمًا فى المقابل الثناء هو جائزة الفضيلة، والفضلاء لا يستطيعون تجنب الثناء عليهم. هناك طريقان، يا

(*) مثنى حمقاء، مضاف إلى ياء المتكلم.

ابنتى، حيث يستطيع الناس السلوك للوصول للثروة والشرف: الأول هو طريق الآداب. والآخر، طريق السلاح. وأنا لدى السلاح أكثر من الآداب، تحت راية مارس إله الحرب، وهكذا، فأنا تقريبًا مضطر لسلوك هذا الطريق، وفيه أصمم على السير رغم أنف العالم كله، وسيصير دون جدوى إتعاب أنفسكما فى إقناعى بألا أحب ما أرادته السماء، وما أمر به الحظ، ويتطلبه المنطق، وفوق كل ذلك، ما ترغبه إرادتى، وكما أعرف الجهود التى لا حصر لها، الملتصقة بالفروسية المشاءة. أعرف أيضًا الثروات الطائلة الممكن بلوغها عن طريقها؛ وأعرف أن شِعب الفضيلة ضيق جدًّا، وطريق الانحراف عريض وواسع الفضاء، وأعرف أن نهاياته ومواقفه مختلفة، لأن مصير الانحراف المؤجل والمتسع ينتهى بالموت، ومصير الفضيلة الضيق، والجهد ينتهى بالحياة، وليست تلك الحياة الفانية، وإنما الحياة التى لانهاية لها، وأعرف، كما يقول الشاعر العظيم، شاعرنا القشتالى(*) أن:

فى هذه الوعورة يسلكون

من الخلود مقعد صدق

عنه هناك لا انحدار قط

قالت ابنة الأخت:

- آى، ما أتعسنى؛ فسيدى أيضًا شاعر ! يعرف كل شيء، ويدرك كل شيء؛ وأنا أراهن أنه لو شاء أن يكون (بَنَّا) يعرف بناء بيت فى دقة القفص (لفعل).

(*) جارثيلاسو دى لا بيجا فى المرثية الأولى.

قال دون كيخوتى:

– أعدك يا ابنة أختى، أنه لولم تكن أفكارى الفروسية قد حملتنى وراءها بكل حواسي، ما تركت شيئًا دون أن أمارسه، ولا فضول يخرج عن ملك يمينى، خاصة الأقفاص ومساويك الأسنان.

فى هذا الوقت طرقوا الباب، وسائلين من كان، أجاب الطارق أنه سانشو بانثا، وبمجرد أن عرفته الأمة، جرت للاختباء حتى لا تراه؛ لفرط كراهيتها له. فتحت له ابنة الأخت، وخرج للقائه سيده دون كيخوتى بذراعين مفتوحتين، وأغلق الاثنان عليهما المخدع، حيث دار بينهما حوار لا يفوقه فى الحسن ما سبق بينهما من حديث.

الفصل السابع
ما حدث لدون كيخوتى مع خادمه
فضلاً عن وقائع ذائعة الشهرة

مجرد أن رأت الأمة إغلاق الغرفة على سانشو بانثا مع سيدها أدركت اتفاقهما، متخيلة أن تشاورهما سيؤدى إلى قرار الخروج الثالث، فارتدت ملاءتها مليئة بالغيظ والحزن، وذهبت للبحث عن حامل البكالوريا شمشون كاراسكو، حيث بدا لها أنه لبلاغته ولأنه صديق طازج لسيدها، فى إمكانه إقناعه بترك هذا الهدف الذى لا يتحول عنه. ووجدته يتمشى فى فناء بيته، وعندما رأته ركعت تحت قدميه يسيل عرقها وغيظها، وعندما رآها كاراسكو مع دلائل الألم والفزع، قال لها:

– ما هذا أيتها السيدة الأمة؟ ماذا حدث لك حتى يكاد يخرج الروح من جسدك؟

أجابت هى:

– لا يخرج إلا من باب جنونه. أريد القول يا سيد بكالوريا، وسيدى، أنه يريد الخروج مرة ثانية، وبها يصير الخروج الثالث، للبحث فى ذلك العالم عما يسميه هو (غامرات)، ولا أفهم كيف يعطونها هذا الاسم. فى المرة الأولى أحضروه لنا ملقى على حمار دون حس، مطحونًا بالنبابيت. فى المرة الثانية جاء فى عربة ثيران، موضوعًا فى قفص مغلق عليه، حيث كان يظن أنه مسحور، وكان المسكين قد جاء فى هذه الهيئة الحزينة، حتى تعجز أمه التى ولدته عن التعرف عليه؛ أصفر ناحل، والعيون غائرة فى أعماق تجويف المخ، وحتى أعيده إلى بعض كيانه أنفقت ستمائة بيضة، كما يعلم الله، وكل العالم، ودجاجاتى التى لا تدع لى فرصة للكذب.

أجاب حامل البكالوريا:

- هذا أصدقه تمامًا، فدجاجاتك طيبة، وفارهة وحسنة التربية، ولا يمكن أن تقول شيئًا مكان شيء، حتى لو سقطت (فطيسة). بالفعل، أيتها السيدة الأمة، لا يوجد شيء آخر، أو أى إشارة، أكثر من الخوف مما يسود السيد دون كيخوتى فعله ؟

أجابت هي:

- لا يا سيدى.

أجاب حامل البكالوريا:

- إذا لا تحملى همًّا. فقط اذهبى مع الحظ السعيد إلى بيتك، وجهزى لىَ الغداء أكلة ساخنة، وفى الطريق إلى هناك امضى مرددة صلاة القديسة أبولونيا، إذا كنت تعرفينها، وفى الحال سألحق بك، وسوف ترين العجائب.

قالت الأمة:

- ما أكثر اكتئابى! تقول لى فخامتك أن أصلى لسانتا أبولونيا؟ هذه الصلاة مخصصة لوجع الضروس، وسيدى لا تؤلمه ضروسه، وإنما مرضه فى مخه.

أجاب كارّاسكو:

- أنا أعرف ما أقول، أيتها السيدة الأمة؛ عودى إلى بيتك ولاتجادلينى، فأنت تعرفين أننى بكالوريا من سلمنقة، ولا توجد بكالوريا أفضل.

وعند هذا ذهبت الأمة، ومضى حامل البكالوريا فى الحال للبحث عن القسيس، ليبلغه بما سيقال فى وقته المناسب.

وفيما كان داخل الغرفة المغلقة على دون كيخوتى وسانشو، وقعت بينهمـــا العبارات التى ترويها الحكاية فى دقة وصدق. قال سانشو لسيده:

- لقد أنرت زوجتى على منعى من الذهاب مع فخامتك إن شئت أن تحملنى .

قال دون كيخوتى:

- عليك أن تقول سانشو (أصرَّت)، وليس أنرت.

أجاب سانشو:

- مرة أو مرتين، إذا لم تخنى الذاكرة، قد التمست من فخامتك ألا تعدل مفردات كلامى، إذا كنت تفهم ما أحب قوله بها. وإذا لم تفهم قل لى " سانـــشو أو الشيطـــان، لا أفهمـــك "، فإذا لم أفصح، عندها يمكنك التعديل، حيث إنني (وهل)....

قاطعه دون كيخوتى

- لا أفهمك سانشو، ولا أدرى عما إذا كنت تريد القول إننى (سهل).

قال سانشو:

- وهل، هذا ما أحب قوله، فأنا هكذا جدًّا.

أجاب دون كيخوتى:

- الآن أفهمك أقل.

أجاب سانشو:

- إذن، إن لم تستطع فهمى، لا أدرى كما أقولها، لا أدرى أكثـــر، ولـــيكن الله معى.

أجاب دون كيخوتى:

- لا تحزن، لقد وقعت على ما تريد قوله: أنت تريد القول أنك (كسهل) سلس القياد، طيِّع، سوف تأخذ بما أقوله لك، وستخرج بما أعلمك إياه.

قال سانشو:

- أراهن على أنك منذ الابتداء قد صفيتنى، وفهمتنى، لكنك فقط أردت تعكير صفوى بسماعى أقول مائتين من الترهات الأخرى.

أجاب دون كيخوتى:

- قد يكون. لكن بالفعل ماذا تقول تيريزا؟

قال سانشو:

- تيريزا تقول أن أملأ يدى جيدًا من فخامتك، وأن نتكلم بالأوراق وليس بالبقاق(*)، وأن الاتفاق يمنع الخناق، وعصفور فى اليد خير من عشرة على الشجر، وأن نصيحة المرأة خائبة، ومن يأخذ بها تأخذه نائبة.

أجاب دون كيخوتى:

- وأنا أقول بما تقول سانشو، قل أيها الصديق، واستمر فى الكلام، فأنت اليوم تقولِ لآلئ.

أجاب سانشو:

- وذلك هو الحل، فكما تعرف فخامتك كلنا معرضون للموت، وقد نكون اليوم، وفى الغد لا نكون، وحالاً يختفى الخروف ولا يبقى الكبش، ولا أحد

(*) جمع بق، فم. وسانشو يتحدث بالأمثال.

يضمن حياته ساعات أكثر مما يشاء الله أن يبقيه، لأن الموت أصم، وعندما يطرق أبواب حياتنا يسرع دائمًا فى عمله، ولا توقفه توسلات أو سلطان أو صولجان أو تيجان، طبقًا لما هو معروف بين العموم ومشهور، وما فوق المنابر يدور.

قال دون كيخوتى:

- كل هذا صدق، لكنى لا أعرف أين تريد الوصول.

قال سانشو:

- أريد أن أصل إلى أن تشير فخامتكم لى بمرتب محدد، تدفعه لى كل شهر على مدى الوقت الذى أخدمك فيه، وأن ذلك المرتب يدفع من أملاكك، ولا أريد البقاء تحت رحمة نعم، قد تصل متأخرة، أو دون المستحق، أو لا تصل أبدًا، وبحقى ومستحقى فليعنّى الله. فى النهاية، أريد أن أعرف ما أكسبه، كثيرًا أو قليلاً، وتزيد عن الحاجة بيضة واحدة تضعها الدجاجة، والقليل بعد القليل إذا كثر تردده يصير الكثير، وبينما الواحد يكسب شيئًا، فلا يخسر شيئًا. وليكن إذا حدث (مما لا أظنه ولا أنتظره) أن فخامتكم أعطانى الجزيرة الموعودة من طرفكم لى، فلست بجاحد، ولا آخذ الأشياء من أطرافها حتى أستولى على كل دخلى من الجزيرة قبل خصمه من مرتبى، فلا أقبض إلا (الفار) بينهما.

- سانشو أيها الصديق، أحيانًا يكون من الطيب أن يعتاد أن يكون القط مثل الفار!

قال سانشو:

- هأنذا أفهم، أراهن أننى كان يجب أن أقول (الفارق) بينهما، لكن لا يهـــم، ففخامتكم قد فهمتنى.

أجاب دون كيخوتى:

- جدًّا، حتى إنى فهمت قعر تفكيرك، وأعلم الهدف الذى تصوِّب عليه، بسهام أمثالك. انظر، سانشو، كنت سأعلن لك مرتبًا، لو كنت قد وجدت فى قصة من قصص الفرسان المشائين أى مثال يفتح لى ويبرز عبر أى نافذة صـــغيرة أنهم تعودوا إعطاء مرتب شهرى أو سنوى، لكنى قـــرأت كـــل التـــواريخ والقصص أو معظمها، ولا يوجد أى فارس مشاء كان قد عين مرتبًا لخـــادم دروعه، فقط أعرف أن جميعهم كانوا يخدمون فى انتظار إنعام، قد يـــصلهم عندما لا يخطر ببالهم نواله، وإذا سادهم حالفهم الحظ، يجـــازونهم بجـــائزة الجزيرة أو أى شيء يساويها، أو على الأقل يحظـــون بالألقـــاب ومراتـــب السيادة. وإذا كنت أنت سانشو تعجبك هذه الآمـــال ولوازمهـــا عـــد إلى خدمتى، محمودًا مشكورًا، إما أن تفكر فى خروجى على مألوف الفروســـية المشاءة، فهو تفكير باطل. وهكذا، صديقى سانشو عد إلى بيتـــك، وأعلـــن تيريزا مستشارتك بنواياى، فإذا أعجبك وأعجبها أن تبقى فى انتظار إنعامى كان خيرًا، وإلا، سنبقى بنفس صداقتنا السابقة، ومادامت مصيدة الحمام لا تخلو من الطعم، فلن نعدم الحمامات. واعلم، يا بنى، أن أملاً طموحًا خير من شيء فانٍ تملكه فى يدك، و"شكوى صادقة خير من أجر ضيئل". وأقول هذا بتلك الطريقة حتى تعرف، سانشو، أننى قادر على إلقاء الأمثـــال كـــالمطر،

وأخيرًا، أود القول، إذا لم ترد أن تأتى معى فى انتظار الإنعام، يجرى علـيكم ما يجرى لى من حظ، فليبق معك الله، وليصنع منك قديسًا، وبالنسبة لى لن ينقصنى خدم لدروعى أكثر طاعة، وأكثر طموحًا، دون أن يكونوا فى قلة حذقك، وكثرة ثرثرتك.

عندما سمع سانشو قرار سيده الصارم، غامت في وجهه السماء، وسقطت عن قلبه الأجنحة، لأنه ظن أن سيده لن يخرج دونه ولو مقابل كل أملاك الدنيا، وهكذا بقى مبهوتًا، متفكرًا، وفى نفس اللحظة دخل شمشون كارّاسكو، وابنة الأخت، فى رغبة لسماع أية عبارات سوف يلجأ إليها لإقناع سيدهم بعدم العودة للبحث عن المغامرات. وصل شمشون، المنقذ المشهور، حيث احتضنه مثل المرة الأولى، وبصوت مرتفع قال له:

– أوه يا زهرة الفروسية المشاعة! أوه، أيها الضوء المنير للسلاح! أوه، يا شرف الأمة الإسبانية ومرآتها. تضرع إلى الله أحكم الحاكمين، أن يطيش سهم (كل من يضع عقبة أو يحول بينك وبين الخروج الثالث) فى نحره وألا يتحقق لـه قصده.

ثم التفت إلى الأمة، وقال لها:

– أيتها السيدة الأمة، لم يعد هناك ضرورة لصلاة القديسة أبولونيا بعد ذلك، فأنا أعلم أنه قرار حاسم للأفلاك، أن يعود السيد دون كيخوتى إلى وضع أفكاره السامية موضوع التنفيذ، وأنا سوف يثقل على ضميرى جدًا ألا أتقرب إلى هذا الفارس وأقنعه ألا يبقى وقتًا أكثر فى تعطيل وحبس لقوة ذراعه الشجاعة، وبر نفسه الباسلة، لأنه إن فعل فذلك غش وخذلان، بالتأخر فى

رد حق المظلوم، وإجارة اليتيم، والمحافظة على شرف الصبايا، وحماية المتزوجات، وأشياء أخرى من هذا القبيل، تتصل وتتعلق وتلتصق بنظام الفروسية المشاءة. إيه، يا سيدى دون كيخوتى، أيها الجميل والباسل، اليوم قبل الغد، فخامة عظمتكم، اشرع فى اتخاذ الطريق، وإذا ينقصك شيء لوضع هذا موضع التنفيذ، هأنذا لإمدادات ما ينقصك بشخصى ومالى، وإذا كان من الضرورى أن أخدم باعتبارى خادمًا للدروعك، سأفعل ذلك وأكون به محظوظًا.

وفى هذه اللحظة، التفت دون كيخوتى إلى سانشو، وقال:

– ألم أقل لك، سانشو، إننى سوف يفيض عن حاجتى الخدم؟ انظر من يتطوع أن يصيرخادمًا لى، إنه ليس أقل من حامل البكالوريا الذى لا نظير له، شمشون كارّاسكو، التحفة الخالدة، وبهجة أفنية مدارس سلمنقة، صحيح فى شخصه، خفيف فى حركته، يتحمل الحر مثل البرد، كما يتحمل الجوع والعطش، وبكل تلك المزايا التى تجعل منه حامل دروع فارس مشاء. لكن لن تسمح السماء أن ينهار وينشرخ عمود الآداب، وكوب العلم، وجذع النخلة الباسقة، للفنون الكريمة والسمحاء، بسبب متابعة أهوائى وإرضائى. ليبق شمشون الجديد فى وطنه، مشرفًا له، وبتشريفه يشرّف معه الشعيرات البيضاء لوالديه الهرمين، فأنا سأكون راضيًا مع أى خادم آخر، لأن سانشو لا يشرف بالذهاب معى.

– نعم أشرف!

كانت إجابة سانشو، وقد رق قلبه وامتلأت عيونه بالدموع، وواصل:

– هذا لا يقال عنى يا سيدى، الخبز مأكول، والود منسول؛ نعم، فأنا لم أنحدر من أصل جحود، وكل العالم يعرف، وخاصة أهل قريتى، من هم آل بانثا، وعمن أنحدر، وأكثر من ذلك فأنا أرى أن إنعامك الموعــود موضــوع اعتــراف وتصديقى من كلامك الطيب وأفعالك البارَّة، وإذا كنت قد وضعت أمــر مرتبى موضع الاعتبار، فقد كان لإسعاد زوجتى، التى عندما تضع فى رأسها إقناعى بشىء، فلا توجد مطرقة تشد الطوق على برميل، مثلما تفعل هــى للضغط علىَّ لأفعل ما تحب. لكن بالفعل، على الرجل أن يكــون رجــلاً، والمرأة امرأة، وعليه، فأنا رجل حيثما كنت، الأمر الذى لا أستطيع تجاهله، وأيضًا أحب أن أكون كذلك فى بيتى، فلا شىء ينبغى عمله الآن، غــير أن فخامتكم تعمل وصيتك وملحقاتها، بطريقة لا يمكن (اكتساحها)، وفى الحال فلنبدأ الطريق، حتى لا يعانى السيد شمشون، الذى يقول إن ضميره (يملــى) عليه، بأن يقنع فخامتكم بالخروج للمرة الثالثة إلى ذلك العالم، وأنا من جديد أتطوع لخدمة فخامتكم بإخلاص وشرعية، وبأفضل ما فعل خدم فى خدمــة الفرسان المشائين فى كل الأزمان الماضية والحاضرة.

وبقى حامل البكالوريا متعجبًا من سماع لغة سانشو وطريقته فــى الكــلام، ومع أنه قرأ القصة الأولى لسيده، فلم يعتقد قط أنه بمثل ذلك الظرف الذى يرسمون عليه شخصيته هناك، لكن مستمعًا إلى قوله الآن: (وصيتك ... بطريقــة لا يمكــن اكتساحها) بدلاً من (وصيتك ... بطريقة لا يمكن إبطالها)، أعتقد فى كل ما قــرأه، وثبت له فى شخصه صورة أحد أكثر المخبولين تفردًا فى عصرنا. وقال لنفسه: إن هذين المجنونين سيدًا وخادمًا لا نظيرلهما فــى العــالم. وأخيــرًا، دون كيخــوتى وسانشو تعانقا، وبقيا صديقين، وأمام انبساط كارَّاسكو الهائل، الذى كــان حينــذاك

هاتف الوحى لهما، اتفقا على أن يكون الرحيل بعد ثلاثة أيام منذ تلـك اللحظـة؛ خلالها يتم إعداد العدة للرحلة، من البحث عن خوذة ذات غطاء مطرز للوجه، التى قال دون كيخوتى إنه عليه بحملها بأية حال من الأحوال. وقـد عـرض شمـشون تقديمها له، حيث إن صديقًا له يملكها، ولن يبخل عليه بها، وإنهـا كانـت داكنـة بالصدأ وآثار القدم أكثر منها نظيفة لصلبها الصقيل. اللعنات التـى أنزلتهـا ابنـة الأخت والأمة على حامل البكالوريا ليس لها حـد، شـدَّتا شـعريهما، وخربـشتا وجهيهما، وبطريقة النذّابات ندبتا الرحيل كما لو كان موت سيدهما. وقصد شمشون من إقناعه بالخروج مرة أخرى، كان ما سوف تحكيه القصة بعد قليل، وكان طبقًـا لنصيحة القسيس والحلاق، اللذين أبلغهما من قبل عن كل شيء.

باختصار، فى تلك الأيام الثلاثة تزود دون كيخوتى وسانشو بما بـدا لهمـا مناسبًا؛ وعندما انتهى سانشو من إخماد غضب زوجته، ودون كيخوتى من تهدئـة ابنة أخته وأمته، عند حلول المساء، دون أن يراهما أحد غير حامـل البكالوريـا، الذى أحب أن يصاحبهما نصف فرسخ بعد الخروج من القريـة، طرقـا الـسبيل المؤدى إلى التوبوسو، دون كيخوتى فوق روثينانتى الطيب، وسانشو فوق حماره القـديم، وقد تزود الخرج بالزوَّادة، والكيس بالنقود التى أعطاها له دون كيخوتى لـصرفها فيمـا يعرض من شئون. احتضنه شمشون، ورجاه أن يمده بما يقع له من حظ سيئ أو طيـب، حتى يفرح بهذا ويأسى لذاك طبقًا لقوانين الصداقة. وعده دون كيخـوتى بـذلك، وعـاد شمشون إلى القرية، واتجه الاثنان إلى طريق المدينة العظيمة التوبوسو.

الفصل الثامن

حيث يحكى ما حدث لدون كيخوتى فى ذهابه لرؤية سيدته دولثينيا دل توبوسو

تبارك الله العزيز!– قال حامدى بن إنجيلين فى بداية هذا الفصل الثامن – تبارك الله! تبارك الله! مضى يكررها ثلاث مرات، وهو يقول إنه يطلق تلك التسبيحات لرؤية الحملة التى يقوم بها دون كيخوتى وسانشو، وإن قراء قصته الطريفة، يمكنهم إدراك أنه منذ هذه اللحظة تبدأ أمجاد دون كيخوتى وخادمه سانشو مع طرائفها المليحة، وعليهم أن يقنعوا أنفسهم بنسيان ما مضى من فروسيات الشريف عين الأعيان العبقرى، وأن يضعوا أعينهم على فروسياته القادمة، فمنذ الآن فى الطريق إلى التوبوسو سوف تبدأ كما بدأت فى مروج مونتييل، وليس ما يطلبه بالكثير مقابل ما يعد به، وهكذا يواصل حكايته:

بقى دون كيخوتى وسانشو وحدهما، ومجرد أن انفصل عنهما شمشون بدأ روثينانتى فى الصهيل، والحمار فى الشهيق والنهيق، وفيما بينهما، فارس وخادم، أخذا ذلك باعتبارها إشارة حسنة، وفأل خير عميم، وإذا كان ينبغى أن يحكى الحق، فإن شهيق الحمار الأعلى من صهيل روثينانتى المسكين، هو الذى دفع سانشو أن يخمن أن حظه سوف يغطى على حظ سيده ويعلوه، بانيا ذلك على تنجيم قدرى كان يعرفه، مع أن القصة لا توضحه؛ فقط سمعوه يقول إنه عندما يتعثر أو يسقط، يبهجه أن ذلك يحول بينه وبين الخروج من البيت، حيث لن ينال منه غير حذاء ممزق، او ضلوع مهشمة، ومهما كان (عبيطًا)، فلن يخرج مع هذه الإشارة إلى الطريق خارج بيته. قال دون كيخوتى:

- سانشو، أيها الصديق، الليل يدخل علينا مع حث السير، ومع ظلام أكثف، لن يتاح رؤية التوبوسو على ضوء النهار إلا مرورًا بهذا الليل، فتلك المدينة هي وجهتي المقررة قبل الدخول في أي مغامرة، وهناك سأحصل على مباركة وإذن التي لا نظير لها دولثينيا، و بهذا الإذن الميمون أفكر وأثق في إنجاز وتحقيق ذروة سعيدة لكل مغامرة خطيرة، لأنه لا شيء في الحياة يقوى الفارس المشاء أكثر من رؤية نفسه يتلقى إنعامات سيدته عليه.

أجاب سانشو:

- هذا ما أعتقده؛ لكني أرى صعوبة أن تستطيع فخامتكم التكلم معها، أو رؤيتها، أو حتى تستطيع جزئيًا، على الأقل استقبال إنعاماتها، إذا لم تلقها إليك عبر سور الحظيرة، حيث رأيتها أول مرة، عندما حملت إليها الخطاب الذي كان يحمل أخبار الحماقات والأفعال المجنونة التي بقيت فخامتكم تقوم بها في قلب جبال سييرا مورينا.

قال دون كيخوتي:

- هل كانت تلك حسب وهمك أسوار حظيرة حيث رأيت تلك التي لا يستوفيها مطلقًا أي مديح لظرفها وحسنها؟ ما كان ينبغي أن تكون إلا قاعات أو ممرات أو أروقة أو كما تسميها، لقصور منيفة وملكية.

أجاب سانشو:

- كل شيء في إمكان أن كان ، لكن بدت لي أسوار حظيرة، إذا لم تخني الذاكرة.

رد على ذلك دون كيخوتي:

- ومع كل هذا، فلنذهب إلى هناك، فحيث أراها تتساوى عندي الأسوار أو النوافذ، أو فجوات في الجدار، أو قضبان سياج حديقة، فأي شعاع من شمس

جمالها يصل إلى عينى، سوف يضىء فؤادى، ويقوِّى قلبى، حتى أصبح الأوحد إلهامًا وقوة.

أجاب سانشو:

– فى الحقيقة ياسيدى، عندما رأيت شمس السيدة دولثينيا دل توبوسو تلك، لم تكن مشرقة إلى حد بث أى شعاع، ولابد أنه كان بسبب أن سعادهًا كانت تغربل القمح، ذاك الذى سبق وذكرته لك، حتى إن السحابات التى أخرجتها من غباره الكثيف غطت على وجهها، وأظلمته.

قال دون كيخوتى:

– حتى الآن تصر، سانشو، فى القول والفكر والاعتقاد والعناد أن سيدتى دولثينيا كانت تغربل القمح، مع كون ذلك من فعل وضرورات تضل عما يجب أن يفعله الأشخاص أولاد العز والجاه، الذين تم تكوينهم وادخارهم لأفعال وتسال تكشف على مرمى البصر عن عزهم وجاههم. إنك تسىء تذكر، أوه سانشو! تلك الأشعار لشاعرنا(*) حيث يرسم لنا الأعمال التى تمارسنها فى منازلهن الزجاجية العرائس الأربع، اللائى أخرجن رءوسهن من نهر التاخو المحبوب، وجلسن يعملن فى المرج الأخضر تلك الأنسجة البديعة، التى يصفها لنا هناك الشاعر العبقرى، والتى كانت كلها من الذهب والإستبرق، ولآلئ منضودة ومنسوجة. وبهذه الطريقة كان ينبغى أن يكون ما رأيت من عمل سيدتى حين رأيتها، لكنما الحسد الذى يوغر صدر أحد السحرة الشريرين لابد وأن بدَّل وحوَّر كل أشيائى التى تسرنى إلى صور

(*) غارثيلاسو دى لابيقا.

أخرى مخالفة؛ وهكذا، أخشى عما إذا كان مؤلف قصة أمجادى (المطبوعة والمتداولة بين الناس) ساحرًا من أعدائى، وقد وضع الأشياء بعضها مكان بعضها، خالطًا الحقيقة بألف أكذوبة، متسليًا بحكى أحداث أخرى خارجة عما يتطلبه سياق قصة حقيقية. أوه، أيها الحسد أصل الشرور اللانهائية العدد، وقراضة الفضائل! كل الشهوات الضارة تجلب معها مما لا أدرى من اللذة، إلا شهوة الحسد، فهى لا تجلب إلا انقباض النفس، والأحقاد، والغيظ تلو الغيظ.

أجاب سانشو:

– هذا ما أقوله أنا أيضًا، وأظن أنه فى تلك الأسطورة أو القصة (التى حدثنا عنها كارّاسكو حامل البكالوريا، والتى رآها تدور حولنا) يسير شرفى ملطخًا فى وحل الخنزير أو مكنوسًا به الشوارع هنا وهناك، لا يقر له قرار. مع أننى بصدق لم أقل أى سوء عن أى ساحر، وليس لدىَّ ممتلكات حتى أصبح موضعًا للحسد، وإن كنت شريرًا بعض الشىء، وأعيش على حدود كينونة الخبيث، لكن كل ذلك تستره سذاجتى، حيث أُومن دائمًا فى يقين ورسوخ بالله، وفى كل ما تراه الكنيسة الكاثوليكية الرومانية وتؤمن به، كما أنى عدو فتّاك لليهود، ولذا على المؤرخين أن يكونوا رحماء معى، مع حسن معاملتى فيما يكتبون. لكن ليقولوا ما يقولون، فقد ولدت عاريًا، وأعيش عاريًا، ولن أخسر أو أكسب، حتى لو وجدت نفسى موضوعًا فى كتب تجول فى العالم من يد إلى يد، ولن يهمنى أبدًا أن يقولوا عنى ما يحبون.

قال دون كيخوتى:

– هذا يبدو لى، سانشو، شبيهًا بما حدث لشاعر مشهور فى عصر من تلك العصور، والذى عند انتهائه من نظم قصيدة هجاء خبيثة ضد كل السيدات

الأرستقراطيات، ولم يضع فيها أو يسمى إحدى السيدات اللائـــى يتـــردد الإنسان فى هجائهن، هذه شكت للشاعر، قائلة له ماذا رأى فيها حـــتى لا يضعها فى عداد الأخريات المهجوّات، وأن عليه أن يوسّع قصيدته لتـــشملها إذا أراد أن يتجنب شرًّا مستطيرًا. وهكذا فعل الشاعر، ووضعها فى أســـفل سافلين، وبقيت راضية لرؤية نفسها مشهورة، ولو بسوء السمعة. ويتفق مع هذا أيضًا ما يحكونه عن ذلك الراعي الذي أشعل نارًا وأحرق معبد ديانـــا المشهور، والذى يعد إحدى عجائب الدنيا السبع، وفقط حتى يبقى اسمه فى العصور الآتية محفورًا، مع أنه أوصى ألا يذكر أحد هذا الاســـم لفظًـــا أو كتابة، حتى لا يحقق رغبته، ومع ذلك عرف أنه كان يسمى أروســـطراط. وفوق ذلك، يشير إلى نفس القضية، ما حدث للإمبراطور العظـــيم شـــارل الخامس مع أحد الفرسان فى روما. لقد أحب الإمبراطور أن يرى ذلك المعبد المشهور الخاص بكل الآلهة، والآن يسمى معبد كل القديسين (وهو لقـــب أفضل فى القداسة)، وهو المبنى الذى بقى كاملاً مما شيدته قوة روما، وهـــو الذى يحتفظ أكثر بشهرة عظمة وسمو من شيده، ويأخذ شكل نصف برتقالة بالغة الضخامة حتى المدى، وهو كثير الإضاءة دون دخول نور إليه إلا عـــبر نافذة، أو بالأحرى، طاقة مستديرة فى ذروته حيـــث كـــان ينظـــر منـــها الإمبراطور إلى المبنى، وبجانبه الفارس الرومانى المذكور، وكان يـــشرح لـــه تفاصيل وأسرار هذه العمارة الخالدة، وبمجرد أن أداروا ظهرهم للطاقة قال للإمبراطور: "ألف مرة، يا صاحب الجلالة المقدسة، مرت . لى الرغبة فى أن أحتضنكم، ثم ألقى بنفسى من هذه الطاقة إلى أسفل، حتى أترك شهرتى بين يدى الخلود". أجاب الإمبراطور: "أشكرك لعدم وضعك هذه الفكرة موضع التنفيذ، ومن الآن فصاعدًا، لن أعطيك الفرصة للعودة لتجربـــة ولائـــك؛

وهكذا آمرك ألا تكلمنى أبدًا، وألا توجد حيث أوجد". وبعد انتهائه من هذه الكلمات غمره بإنعامه. أحب أن أقول، سانشو، إن الرغبة فى اكتساب الشهرة ذات حمية نشيطة بطريقة عظيمة. ماذا تفكر أنت فيما ألقى بهوراسيو من القنطرة إلى القاع، مسلحًا بكل الأسلحة ليستقر فى أعماق نهر التيبرى؟ و من أحرق ذراع ويد موثيو؟ ومن دفع كورثيو إلى إلقاء نفسه فى الهاوية العميقة الملتهبة التى ظهرت فى وسط روما؟ ومن الذى جعل الروبيكون يعبر إلى يوليوس قيصر رغم كل النبوءات التى أظهروها له ضده؟ وبأمثلة أكثر حداثة، من ثقب السفن، وترك عطاشى ومعزولين أولئك الإسبان الشجعان الذين كان يقودهم شديد التهذيب (كورتس)[*] فى العالم الجديد؟ كل هذه الأعمال البارزة، وغيرها أكبر وأكثر اختلافًا، كانت وتكون وستكون من أفعال الشهرة، التى يبحث عنها الفانون باعتبارها جائزة، وباعتبارها شطرًا من الخلود الذى تستحقه أعمالهم المشهورة، على الرغم من أن المسيحيين، كاثوليكًا أو فرسانًا مشائين علينا أكثر البحث عن المجد فى العصور القادمة، ذلك المجد الأبدى فى ملكوت الأثير والسماء، وذلك دون زهو الشهرة فى هذا الدهر الحاضر والفانى، فتلك الشهرة مهما عمرت سوف تنتهى بنهاية العالم نفسه، الذى يحمل شارة نهايته، وهكذا، سانشو! فإن أعمالنا لا ينبغى أن تخرج عن حدود الدين المسيحى الذى به نتدين. علينا أن نقتل فى المردة الغرورَ والحسدَ، وفى الكرم والصدر الرحب الغضبَ، وفى الهيئة المطمئنة وراحة البال الشراهةَ والنومَ، وفى الأكل القليل الذى نأكل والسهر الكثير

(*) الكاتب يلعب بالكلمات على طريقة البديع دون مبرر حقيقى سوى الزينة، ولإبراز خطابية دون كيخوتى لأن اسم (كورتس) معناه مهذب cortesismo cortes

الذى نسهر الشهوةَ والغلمةَ، وفى الولاء الذى نحفظه لمن جعلناهن سـيدات لأفكارنا الكسلَ، وبالمشى فى كل أنحاء العالم بحثًا عن الفرص الـتى تجعلنـا بالإضافة إلى كوننا مسيحيين، فرسانًا مشهورين. انظر فى هـذا، سانـشو، الوسائل التى بها يدرك أقصى الثناء، والذى يجلب معه الشهرة الطيبة.

قال سانشو:

– كل ما قلته لى، حتى هنا، قد فهمته جيدًا، لكن مع كل هذا أرجو أن تبلد لى شكًّا، قد ورد على ذاكرتى الآن.

قال دون كيخوتى:

– (تبدد) هذا ما تريد قوله سانشو، قل موفقًا؛ فسوف أجيبك بما أعرف.

واصل سانشو:

– قل لى سيدى: هؤلاء اليوليوسات، والأغسطسات، وكل هـؤلاء الفرسـان الأمجاد الذين ذكرتهم، هل هم أموات؟ وأين هم الآن؟

أجاب دون كيخوتى:

– الوثنيون دون شك فى النار، والمسيحيون إذا كانوا مسيحيين أتقياء، إمـا فى الأعراف أو فى الجنة.

قال سانشو:

– هذا طيب، لكن هل يمكن أن نعرف الآن قبور أجساد هؤلاء الأمجاد؟ وهـل أمامها مصباح من الفضة، أو أن مصلى كل منهم حليت جدرانه بالصولجان

والأكفان، والشعر المستعار، وبأرجل وعيون من الشمع؟ وإذا لم تكن محلاة بهذا، فبأى شيء زينت؟

وعلى هذا أجاب دون كيخوتى:

– مقابر الوثنيين كانت فى أغلب الأحيان معابد هائلة، ورماد جسم يوليوس قيصر وضع فوق هرم من الأحجار فى حجم هائل، ويسمى اليوم فى روما "مسلة سان بدرو"، وبالنسبة للإمبراطور أدريانو، استخدمت قلعة كبيرة فى مساحة قرية كبيرة قبرًا له والتى أطلقوا عليها (موليس هادريانى)، وهى الآن قلعة القديس الملاك بروما، والملكة أرتيميسيا دفنت زوجها فى مقام به قبر يعد من عجائب الدنيا السبع. لكن أى من هذه القبور لم تزود بأكفان أو قرابين أخرى أو أى دليل على أن المدفون بها قديس حيث إن كلهم من الوثنيين.

رد سانشو:

– والآن أريد أن أعرف الآن: أيهما أصعب بعث ميت أو قتل مارد؟

قال دون كيخوتى:

– الإجابة واضحة: بعث ميت.

قال سانشو:

– والآن أغلب بنقطة. إذن شهرة من يبعث الموتى، ويرد بصر الأعمى، ويصلح رجل الأعرج، ويشفى المرضى، وتلتهب أمام مدفنه مصابيح من فضة، ومصلاة مليئة بأناس ورعين راكعين يقدسون رفاته، ستكون شهرته أفضل فى

هذا العصر وكل عصر من شهرة كل إمبراطور شجاع وفارس مشاء ممن وجدوا على ظهر الأرض.

أجاب دون كيخوتي:

– وأيضًا أعترف بهذه الحقيقة.

أجاب سانشو:

– إذن هذه الشهرة والفضل فى تجدد، كما يحدث لأجسام وبقايا القديسين، مع موافقة وإذن كنيستنا الأم المقدسة، ولها مصابيح، وشموع، وأكفان، وصولجان، وصور، وشعر مستعار، وعيون، وأرجل، وبها تزداد التقوى وتعظم الشهرة المسيحية. وأجسام القديسين ورفاتهم، تحملها الملوك على أكتافهم، ويقبلون رميم عظامها، ويزينون ويثرون بهم مصلاهم، ومذابح كنائسهم الثمينة.

قال دون كيخوتي:

– ماذا تريد الوصول إليه، سانشو، بكل ما قلت؟

قال سانشو:

– أحب القول إن علينا التوجه لنكون قديسين، وسنحصل وقريبًا أكثر على الشهرة الطيبة التى نسعى إليها، ولتعلم يا سيدى أنه بالأمس، أو أول أمس، وطبقًا لما قل مما بقي قوله عن هذه الطريقة، لقد قننوا تقنينًا مقدسًا أو توجوا اثنين من الرهبان الحفاة قديسين، ويقبلون ويلمسون تبركًا سلسلتى الحديد اللتين بهما كانا يحزمان ويعذبان جسميهما، وهما الآن – حسبما قلت – يلقيان احترامًا أكثر من سيف روادان الذى يوجد فى مخزن أسلحة الملك،

سيدنا، حفظه الله. وهكذا ياسيدى: أن يكون الإنسان راهبًا صغيرًا متواضعًا أفضل من أى نظام كان من شجاعة أو فروسية مشّاءة، والأفضل الخضوع لله فى دستة اجتهادات من ألف ضربة رمح، سواء وجهت لمردة أو عفاريت غابات أو بحار.

أجاب دون كيخوتى:

– كل هذا كما تقول، لكننا لن نستطيع جميعًا أن نكون رهبانًا، وكثيرة الطرق التى يحمل بها الله أتباعه إلى الجنة: الدين هو الفروسية، وفى الأمجاد السماوية هناك فرسان قديسون.

أجاب سانشو:

– نعم، لكنى سمعتهم يقولون بأن هناك فى الجنة رهبانًا أكثر من الفرسان المشائين.

أجاب دون كيخوتى:

– هذا صحيح، لأن عدد الرهبان أكبر من عدد الفرسان المشائين.

قال سانشو:

– كثيرون هم المشاءون ؟

قال دون كيخوتى:

– كثيرون، لكن قليلاً منهم يستحق لقب الفارس.

مضت ليلتهما فى هذه المحاورات وفى غيرها، وفى اليوم التالى لم يحدث لهما شيء يحكى، وقد أثقل هذا على دون كيخوتى ليس بالقليل. فى النهاية، يوم

جديد، وعند دخول ليله اكتشفوا المدينة الكبيرة التوبوسو، وعند رؤيتها ابتهجت روح دون كيخوتي، واكتأبت روح سانشو؛ لأنه لم يكن يعرف بيت دولثينيا، بل لم يره طوال حياته، كما لم يره سيده؛ حتى إن أحدهما من أجل أن يراه، والآخر من أجل ألا يراه أصابهما الاضطراب، ولم يعرف سانشو ماذا عليه أن يفعل عندما يرسله سيده للتوبوسو. أخيرًا، أمر دون كيخوتي بدخول المدينة عند الليل، وحتى وصول هذه الساعة بقيا داخل غابة من الحور قريبة من التوبوسو، وعند اللحظة المحددة دخلا المدينة، وحدثت لهما أشياء تحمل إلى أشياء.

الفصل التاسع

حيث يحكى فيه ما فيه سوف يُرى

كان منتصف الليل عند السيف(*) أكثر أو أقل قليلاً، عندما ترك دون كيخوتى وسانشو الغابة، ودخلا إلى التوبوسو. كانت المدينة فى صمت هادئ؛ لأن كل سكانها كانوا نائمين، ومستريحين بتمديد أرجلهم، كعاداتهم فى القول. كان الليل فاتح الظلام، رغم أن سانشو كان يتمنى أن يكون قاتم السواد، حتى يغطى بظلامه حماقته. لم يسمع فى أنحاء المدينة سوى نباح الكلاب الذى كان يتوج قلب دون كيخوتى ويعكر صفو قلب سانشو. ومن وقت لآخر كان ينهق حمار أو يدمدم خنزير أو تموء قطة، هذه وتلك بأصواتها المختلفة التى كانت تزداد علواً مع صمت الليل، فسرها الفارس العاشق بأنه فأل سوء، ومع كل هذا قال لسانشو:

– سانشو أيها الابن، قدنى إلى قصر دولثينيا، ربما أمكن أن نجدها مستيقظة.

قال سانشو:

– إلى أى قصر ينبغى علىَّ أن أقودك، فبحق الشمس إننى لم أر عظمتها إلا فى بيت صغير جدا.

أجاب دون كيخوتى:

– ينبغى أن يكون أحد أقسام قصرها، حيث كانت تتمالح وحدها فى صحبة وصيفاتها، كما هو شائع ومعتاد بين السيدات ذوات المقام الرفيع والأميرات.

(*) بيت شعر من رومانث.

قال سانشو:

- سيدى، فخامتكم تريد على الرغم منى أن يكون بيت سيدتى دولثينيا قلعة، فهل هذه الساعة، بالصدفة، ساعة وجود الباب مفتوحًا؟ وهل من المستحسن طرق الباب الآن فيسمعونا ويفتحوا لنا، واضعين كل الناس فى جلبة واضطراب؟ وهل يصلون ويطرقون ويدخلون فى أى ساعة مهما تأخرت تلك الساعة؟

أجاب دون كيخوتى:

- فلتعثر أولاً فى هدوء على القصر، وساعتها سأقول لك، سانشو، ما يحسن أن نعمله. واعلم، سانشو، إما أننى قليل الرؤية أو أن ذلك الطيف والظل الذى يكشف عن نفسه من هنا يجب أن يشكل قصر دولثينيا.

أجاب سانشو:

- إذن، قدنا فخامتك، فربما يكون كذلك؛ مع أننى حتى لو رأيته بعينَىَّ، ولمسته بيدى، سوف أعتقد بوجوده اعتقادى أننا الآن بالنهار.

وقاد دون كيخوتى، وبعد السير حوالى مائتى خطوة اصطدم بالشبح الذى كان ينشر الظل، ورأى برجًا عظيمًا، وعندها عرف أن ذلك المبنى ليس بالقصر وإنما الكنيسة الرئيسية للبلدة. وقال:

- لقد تعثَرنا بالكنيسة، سانشو.

أجاب سانشو:

- أنا أيضًا أراها، واضرع إلى الله ألا نتعثر بقبرنا؛ وليس السير فى المقابر دليل خير فى مثل هذه الساعات، وأكثر، فقد قلت لفخامتكم، إذا لم تخنى الذاكرة، إن بيت السيدة ينبغى أن يكون فى زقاق سد.

قال دون كيخوتى:

- لعنك الله أيها الأحمق! متى كانت عندك القصور والقلاع الملكية تشيد فى أزقة مسدودة؟

أجاب سانشو:

- سيدى لكل أرض عاداتها، فربما عادة التوبوسو تشييد القصور والمبانى العظيمة فى أزقة، وهكذا أتوسل إلى فخامتكم أن تتركنى أبحث فى تلك الشوارع أو الأزقة التى تقابلنى، ومن الممكن فى أحد الأركان أن نصادف هذا القصر الذى أراه أنا قد نهشته الكلاب، وهكذا يجذبنا منهكين و مطاردين.

قال دون كيخوتى:

- تكلم، سانشو، باحترام عن أشياء سيدتى، وليمر حفلنا فى سلام، ولا نلقى بكل شىء إذا ضاع منا شىء واحد.

أجاب سانشو:

- سأكبح جموح نفسى، لكن كيف أصبر على إرادة فخامتكم فى أن أعثر على بيت سيدتنا لمجرد أننى رأيته مرة واحدة، مع أن فخامتكم لم تعثروا عليه، ومن المفروض أنكم رأيتموه آلاف المرات؟

قال دون كيخوتى:

- أنت سوف تصيبنى باليأس، تعال هنا أيها الضال عن سبيل الله، ألم أقل لك ألف مرة، إنه فى كل أيام حياتى لم أر التى لا نظير لها دولثينيا، ولم أعبر قط عتبات قصرها، وأننى فحسب عشقتها بالسماع، وبالشهرة العظيمة لحسنها وفطنتها؟

أجاب سانشو:

- الآن أسمعك، وأقول إن فخامتكم لم ترها ولا أنا.

رد دون كيخوتى:

- هذا غير ممكن، فأنت على الأقل قلت لى إنك رأيتها تغربل القمـــح، عنـــدما أحضرت إجابة الخطاب الذى أرسلته إليها معك.

أجاب سانشو:

- لا تقف عند هذا ياسيدى، لأننى أحيطك علمًا أنه أيضًا كان بالسماع الرؤية والإجابة التى أحضرتها لك، لأننى أعرف من تكون السيدة دولثينيا، مثلمـــا تلمس كفى السماء.

أجاب دون كيخوتى:

- سانشو، سانشو، هناك أوقات للمزاح، وهناك أوقات أخرى يصير فيها سيئًا، ومن سقط القول؛ فليس لقولى بأننى لم أر ولم أكلم سيدة الروح منى، تقول أنت أيضًا إنك لم تكلمها ولم ترها، مع أن الأمر عكس ذلك كما تعرف.

وبينما الاثنان على هذا الحال من الجدل، رأيا أنه فى سبيله للمرور بهما أحد الناس مع بغلتين، وبسبب الضجة التى يحدثها المحراث مجـــرورًا علـــى الأرض، حكما عليه بأنه لا بد أن يكون فلاحًا، قد بكر فى الخروج قبل طلوع النهار للذهاب إلى عمله، وكانت تلك هى الحقيقة، وكان الفلاح قادمًا يغنى ذلك الرومانـــث الـــذى يرددونه:

لقد كان سوء مآل لكم أيها الفرنسيون

في وقعة رونسفال تلك.

وعند سماع هذا قال دون كيخوتي:

- فليقتلوني لو يحدث لنا شيء طيب هذه الليلة، ألا تسمع ما يغنيه هذا القروي قادمًا نحونا؟

أجاب سانشو:

- نعم أسمع، لكن ماذا تصنع لهدفنا عملية صيد رونسفال؟ وهكذا يمكن غناء رومانث كاليينوس، الأمر واحد بالنسبة لنا، خيرًا تقع الأمور أو شرًا.

هنا وصل الفلاح، والذي سأله دون كيخوتي:

- هل تعرف أن تقول لي، منحكم الله السعد، أين تكون في هذه النواحي قصور الأميرة غير ذات النظير دونيا دولثينيا دل توبوسو؟

أجاب الفتى:

- سيدي، أنا غريب، ومنذ أيام قليلة أنا موجود في هذه البلدة في خدمة مزارع غني في شغل الحقل، وفي ذلك البيت المتطرف يعيش القسيس والشماس لهذه البلدة، وكلاهما سيعرف أن يعطيك ما تريده عن تلك السيدة الأميرة، لأنهما لديهما قائمة كل سكان المدينة، مع أنني أرى أن في كل أنحاء هذا المكان لا تعيش أية أميرة، سيدات كثيرات نعم، مهمات، وكل واحدة منهن في بيتها أميرة.

قال دون كيخوتي:

- إذن، بين هؤلاء السيدات، يا صديقي، هل توجد من سألتك عنها؟

أجاب الصبى:

- من الممكن، ووداعًا، فالفجر قادم.

ودافعا إلى الأمام بغلتيه لم يرد على أسئلة أكثر. سانشو، الذى رأى سيده حائرًا وغير راضٍ، قال له:

- سيدى، مع مزيد من السير يطلع النهار، وليس من الصواب أن تعثر علينا الشمس فى الشارع، والأفضل أن نخرج من المدينة، وفخامتكم تكمن فى الغابة القريبة من هنا، وأنا أعود بالنهار، ولن أترك ركنًا فى هذه البلدة دون أن أبحث عن البيت أو القلعة أو القصر الذى تعيش فيه سيدتى، وسأكون تعيسًا بما يكفى إن لم أجده، وعندما أجده سأتكلم مع فخامتها، وسأقول لها أين وكيف تبقى فخامتكم فى انتظارها، حتى تصدر لك أمرًا وحيلة لرؤيتها، دون المساس بشرفها وسمعتها.

قال دون كيخوتى:

- لقد قلت ألف حكم اختصرت فى دائرة كلمات قليلة، والنصيحة التى أعطيتنيها الآن تعجبنى، وأستقبلها فى تشوق كبير. تعال، أيها الابن، لنبحث عن مكان أكمن فيه، وأنت ستعود كما تقول، للبحث عن سيدتى ورؤيتها والتكلم إليها، والتى أنتظر من كياستها ودماثتها أكثر من إنعام معجز.

كان سانشو يستشيط شوقًا لإخراج سيده من المدينة، حتى لا يتحرى عن حقيقة كذبة الإجابة التى حملها من طرف دولثينيا إليه فى جبال سييرا مورينا، وهكذا استعجل الخروج، والذى تم فى الحال، وقد وجدا غابة صغيرة على ميلين من المدينة، حيث كمن دون كيخوتى خلال عودة سانشو إلى المدينة للتكلم مع دولثينيا، وفى سفارته هذه حدثت أشياء تتطلب عناية جديدة، ومصداقية مستحدثة.

الفصل العاشر

حيث تحكى الحيلة التى حاكها سانشو لسحر السيدة دولثينيا وأحداث أخرى، مثل ما هى حقيقية هى سخيفة

عندما وصل مؤلف هذه القصة إلى حكى ما يحكيه فى هذا الفصل، يقول إنه وَدَّ أن تمر أحداثه فى صمت دون أن يحكيها، خوفًا من ألا تصدق، لأن جنون دون كيخوتى تجاوز نهاية الجنون الأكبر الذى يمكن تخيله بشرطة، بل مرتين قدر مدى السهم فيما وراء الجنون الأكبر. وأخيرًا، رغم هذا الخوف وذلك المحظور، كتب ذلك الجنون بنفس الطريقة التى ارتكبه بها، دون أن يضيف إلى القصة أو يحذف ولو ذرة واحدة من الحقيقة، و دون أن يهتم بأن ينظر إليه مثل الكذاب، وكان معه حق، لأن الحقيقة قد تنقص الوزن، لكنها لا تهشم العظم، ودائمًا تمضى فوق الكذب كما يطفو الزيت فوق الماء. وهكذا، واصل قصته ويقول:

–وهكذا كمن دون كيخوتى فى غابة البلوط قرب توبوسو الكبرى، وأمر سانشو أن يعود للمدينة، وألا يرجع إليه حتى يكون تكلم على لسانه لسيدته، طالبًا منها –حفظها الله– أن تترك فارسها الأسير يراها، حتى تباركه فينتظر وقائع عظيمة السعادة لكل أحداث حياته، ومهامِّها الصعبة، وتعهد سانشو أن يفعل ما أمره به، وأن يحضر له إجابة طيبة للغاية كما أحضر له الإجابة الأولى.

وعلق على ذلك دون كيخوتى:

- اذهب، أيها الابن، ولا تنـزعج عندما ترى نفسك أمام نور شمس الجمـال، التى سوف تمضى للبحث عنه. وما أسعدك أكثر من كل خدم فرسان العالم! و اشحذ ذاكرتك، ولا يفوتك شيء عن كيفية استقبالها لـك، وعمـا إذا كانت سفارتك لى عندها تغير الألوان، وعما إذا كانت يفارقهـا الهـدوء، ويلازمها الانزعاج عند سماع اسمى، وعما إذا كان لا ينساب إبداء الرضـا، وعما إذا كنت ستجدها جالسة على عرش سلطتها، وعما إذا كانت واقفة على قدم، هل تريح رِجْلاً وتثنى الأخرى، وعما إذا كانت تكرر لك إجابـة مرتين أو ثلاثًا، و إذا كانت تتغير من اللين إلى الشدة، أو من الجفاء إلى الود، وعما إذا كانت ترفع يدها إلى شعرها لتنسيقه، حتى لو كان منسقًا؛ أخيرًا، أيها الابن، تأمل فى كل أفعالها وحركاتها، لأنك لو رسمتها لى كما وقعـت، سوف أستخرج منها ما هو مخبأ فى مكنون أسرار قلبها، فيما يتعلق بواقـع غرامياتى لها. وعليك أن تعرف، سانشو، إذا لم تكن تعرف، أنه بين المحـبين الأفعال والحركات الخارجية التى يظهرون، عندما تكون متعلقة بعشقهم، هى بريد أكيد يستجلب أخبار ما هو أبعد مما يمر بالخاطر. اذهب، أيها الصديق، وليرشدك حظ أسعد من حظى، ولتعد بوقائع أفضل مما أبقى خـائفًا مـن انتظاره، مترقبًا فى هذه الوحدة المريرة التى تتركنى فيها.

قال سانشو:

- سأذهب، وأعود حالاً، وفخامتكم كن فى بحبوحة بعيدًا عن هذه الهاجسة التى تمر بك الآن، وهى ليست أكبر من بندقة، واعتبر مما اعتادوا قوله من أن قلبًا منبسطًا يكسر سوء الحظ، وحيث لا يوجد شحم الخنـزير لا يوجد سواك، وأيضًا يقال: ومن حيث لا يخطر على البال، يظهر الأرنب البرى قافزًا (أمام الصياد). أقول هذا لأننا فى الليلة المنقضية إذا كنا لم نجد قصور سـيدتى أو

قلاعها، فالآن نحن بالنهار، وأفكر فى العثور عليها من حيث لا أدرى، وعند ذلك دعونى وشأنها.

قال دون كيخوتى:

- **من الأكيد، سانشو، أنك دائمًا تستحضر أمثالك غير ذات البال فيما نعالجه من أن يعطينى الله حظًا أوفر حول تحقيق رغباتى.**

وعند قوله هذا، أدار سانشو ظهره، وألهب حماره بعصاه، وبقى دون كيخوتى راكبًا مستريحًا فى الركاب متكئًا على رمحه، مليئًا بالأحزان والخيالات الحائرة، حيث سوف نتركه، ذاهبين مع سانشو بانثا، والذى لم يكن أقل حيرة وفكرًا من سيده؛ وبمجرد خروجه من الغابة، أدار رأسه ورأى دون كيخوتى قد اختفى عن ناظره، نزل عن حماره، وجلس عند جذع شجرة، وبدأ يكلم نفسه ويقول لها:

- **نعرف الآن، أيها الأخ سانشو، أين تتجه فخامتك. هل تذهب للبحث عن حمار فقدته؟**
- **لا، بالتأكيد.**
- **إذن، تذهب للبحث عن ماذا؟**
- **أذهب للبحث، كما لم يقل أحد شيئًا، عن أميرة، وتبحث فيها عن شمس الجمال، والسموات السبع.**
- **وأين ستجد كل هذا الذى تقوله سانشو؟**
- **إلى أين؟ فى المدينة الكبرى دل توبوسو.**
- **هذا طيب، من طرف من أنت ذاهب للبحث؟**
- **من طرف الفارس المشهور دون كيخوتى دى لامانشا، الذى يزيل العنت، ويعطى الطعام للعطاشى، والشراب للجوعى.**

- كل هذا طيب جدا وهل تعرف بيتها، سانشو؟

- سيدى يقول يجب أن تكون قصورًا ملكية، أو بعض القلاع الشامخة.

- وهل رأيتها فى أحد الأيام، ولو بالصدفة؟

- لا أنا، ولا سيدى، قد رأيناها قط.

- وهل يبدو لكما مصيبًا، ومن حسن الفعل إذا عرف أهل التوبوسو أنكما تمضيان بنية مرافقة أميراتها ومخالتهن، ومضايقة سيداتها، وجاءوا، وطحنوكما طحنًا يهشم العضلات، بعصى نقية، ولم يتركوا بكما عظمة سليمة؟

- فى الحقيقة سيكون عندهم الحق، عندما لا يعتبروننى مجرد رسول وأن:

أنت رسول أيها الصديق

فلا تستحق الذنب والضيق

- لا تثق فى هذا، سانشو، لأن أهل لامانشا عندهم حمية شديدة بنفس قدر ما عندهم من شرف، ولا تسامح فى أن يلمسهم أحد ولو على سبيل الدغدغة أو المزاح. وليحيا الله إذا اشتموا رائحة شيء، ثق فى سوء الحظ.

- بخ بخ، أيها المومس! أبعد الله عنك الشر وأصاب به عدوك! وليس الأمر إلا البحث عن ثلاثة أرجل للقط من أجل عيون الغير! وأكثر، فالبحث عن دولثينيا فى التوبوسو مثل البحث عن مأفون فى رابينا أو جامعى فى سلمنقة(*). الشيطان هو الذى ورطنى فى هذا، وليس غيره.

(*) رابينا Rabena مشهورة بكثرة المأفونين واللواط، وسلمنقة بكثرة الجامعيين، ويعنى أن هناك ألف امرأة يمكن أن تصدق عليها خصائص الاسم المخترع (دولثينيا). أما وصف لامانشا بالغيرة والشرف فلأن مدينة التوبوسو من بلاد لامانشا.

هذا الحوار مع النفس قام به سانشو مع ذاته، والذى استخرجه منه جعله يعود للقول لنفسه:

- والآن هذا طيب، كل الأشياء لها علاج، إلا الموت، الذى سوف نخضع لنيره جميعًا، وما أسوأ أن يثقل علينا انتهاء الحياة. هذا الذى هو، سيدى، وبألف دليل وإشارة، قد رأيت أنه مجنون العقل، وحتى أنا أيضًا لست متأخرًا عنه فى هذا، حيث أنا أكثر اختلالاً منه، مادمت أتبعه وأخدمه، وإذا كان صحيحًا المثل الذى يقول: " قل لى عمن تصحب، أقل لك من أنت". والآخر: "لست مع من ولد معك، لكن مع من ترعى معه". وحال كونه مجنونًا، وهو بالفعل مجنون يأخذ أحيانًا بعض الأشياء على أنها أشياء أخرى، ويحكم على الأبيض أنه أسود، وعلى الأسود أنه أبيض، كما حدث له وقال إن طواحين الرياح عبارة عن مردة، وعلى بغال رجال الدين بأنها خيول، وعلى قطعان الغنم بأنها جيوش متعادية، وأشياء كثيرة على هذه النغمة سارت، من ثَم فلن يكون صعبًا للغاية جعله يعتقد أن إحدى الفلاحات، والأولى التى سوف يتصادف مرورها من هنا، هى السيدة دولثينيا، وعندما لا يصدق سوف أحلف له، وإذا حلف هو سأعود أنا لأحلف من جديد، وإن عاند فسوف أعانده أكثر، بطريقة تجعلنى أتشبث برأيى دون تراجع طول الوقت، وليحدث ما يحدث. وربما بهذا العناد أصل إلى أن أحول بينه وبين عودته لإرسالى فى مثل هذه المهام، رائيًا الجواب السيئ الذى تنتهى به، وربما يفكر، كما أتصور، فى أن أحد السحرة الشريرين (الذين يقول عنهم إنهم يحبون إيقاع الأذى به) قد حول صورتها ومسخها حتى يسبب له حزنًا وألمًا.

عندما فكر سانشو فى هذا بقى هادئًا هدوءًا شمل كل جوانب نفسه، واعتبر أن مهمته قد انتهت أفضل نهاية، متوقفا مترقبًا هناك حتى المساء، كى يقنع دون كيخوتى أنه ذهب إلى التوبوسو وعاد خلال ذلك الوقت، ووقعت له الأمور موقعًا طيبًا، حتى إنه عندما نهض لركوب الحمار، رأى ثلاث فلاحات يقدمن من التوبوسو فى اتجاهه يمتطين ثلاثة حمير أو ثلاث حمارات (حيث لم يوضح المؤلف الجنس، مع احتمال أكبر للظن أنها كانت إناثًا، لكون الركوبة المعتادة للفلاحة هى الحمارة، ولأن الأمر لا علاقة له كبيرة مع سير القصة، فلن نتوقف للتحرى عنه بدقة). وباختصار، كما أن سانشو رأى الفلاحات فى مرورهن العابر عاد للبحث عن سيده دون كيخوتي، ووجده يتنهد، وقائلاً ألف بكائية غرامية، ومجرد أن رآه دون كيخوتى قال له:

– ماذا لديك، سانشو، أيها الصديق؟ هل نُعَلِّم هذا اليوم بصخرة بيضاء أو سوداء؟

قال سانشو:

– بل الأمر أفضل، ففخامتك يمكن أن تُعلِّمه بألوان البهجة ولافتات النصر، حيث يشتقن كثيرًا إليك من سوف يرينك.

أجاب دون كيخوتى:

– بهذا تأتى إلىَّ بأخبار طيبة.

أجاب سانشو:

– طيبة إلى حد أنْ ليس على فخامتك أن تفعل أكثر من حث روثينانتى، والخروج إلى فضاء الطريق لترى السيدة دولثينيا دل توبوسو، والتى تقدم لرؤية فخامتكم مع صبيتين وصيفتين.

قال دون كيخوتى:

- يا إلهى القدوس! ماذا تقول، سانشو، أيها الصديق؟ لا تخدعنى، إن لم تكن فحسب تحب إبهاج أحزانى الحقيقية ببهجة مزيفة.

أجاب سانشو:

- ماذا يعود علىَّ بالفائدة من خداع فخامتكم، وخاصة أنك أقرب ما تكون لكشف ما أتيتك به من حقيقة. انخز روثينانتى، وتعال، سوف ترى قدوم الأميرة سيدتنا فى أبهى الملابس والزينة، فى النهاية، تَقَدُم بما ينبغى أن تكون عليه الأميرات. وصيفتاها وهى معهما ثلاثتهن مثل هالة مضيئة من الذهب، وكلهن أكؤس من اللؤلؤ، وكلهن من الماس، وكلهن من اليواقيت، وكلهن من الدمقس والإستبرق، وقد أثقلهن بريق خيوط الذهب والفضة، والشعر ينساب على ظهورهن، وهو من شعاع الشمس مغزول، ويمضى ملاعبًا الريح، وفوق كل هذا يأتين فوق أمهرات نبيلات مزينات بما يليق بمطايا الأميرات، وليس هناك ما هو أجمل لمرأى البصر.

قال دون كيخوتى:

- تريد أن تقول، سانشو (مهرات)، وليس أمهرات.

قال سانشو:

- ما أقل الفرق بين (مهرات) و(أمهرات)، لكنهن يأتين ممتطيات ما يمتطين، ويأتين كأرشق ما ترغب العين من سيدات، وخاصة الأميرة دولثينيا، سيدتى، التى تذهل كل الحواس.

أجاب دون كيخوتى:

- هيا، سانشو، أيها الابن، ومع هذه البشرى، غير المتوقعة من الأخبار الطيبة سآمر لك بأفضل غنيمة سوف أكسبها فى أول مغامرة أقع عليها، وإذا كان

هذا لا يرضيك، سآمر لك بالثلاث مهرات التى سوف تلدها الأفراس الثلاث هذا العام، والتى تعرف أننى قد تركتها للولادة فى مرج مجلس قريتنا.

قال سانشو:

– أكتفى بالمهرات الثلاث، لأنه ليس من المؤكد كثيرًا أن تكون طيبة غنائم أول مغامرة.

وبينما هما فى هذا خرجا من الغابة قريبًا من القرويات، مدّ دون كيخوتى بصره على مدى الطريق نحو التوبوسو، وكما لم يـر سوى القرويات الثلاث قرويات، تعكر صفو كل شيء عنده، وسأل سانشو عما إذا كان قد تـركهن وراءه وقد خرجن من المدينة؛ أجاب سانشو:

– كيف خارج المدينة؟ وهل بالصدفة لا توجد عيونك فى محاجرها، حتى لا ترى أنهن هؤلاء اللائى يقدمن نحونا هنا، فى بريق مثل الشمس نفسها فى رابعة النهار؟

قال دون كيخوتى:

– أنا لا أرى، سانشو، سوى ثلاث قرويات يركبن ثلاثة حمير.

أجاب سانشو:

– الآن، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم! كيف يمكن أن تبدو ثلاث مهرات، أو لا أدرى كما تسمى، فى نصاعة الثلج، لفخامتكم وكأنها ثلاثة حمير؟ وليحيا الرب، ولأنتف شعرات تلك اللحية إذا ما كان ذلك غير الحقيقة!

قال دون كيخوتى:

– ومع ذلك، أقول لك، سانشو صديقى، إن ما أرى ثلاثة حمير أو ثلاث حمارات وأن ذلك حقيقى مثلما أنا دون كيخوتى، وأنت سانشو بانثا، أو على الأقل هكذا تبدو لى الحمير.

قال سانشو:

– تفضل بالسكوت، سيدى لا تقل مثل هذا الكلام، فقط بربش عيونك، وهيا لتقديم فروض التبجيل لسيدة أفكارك، والتى تقترب.

وعند قوله هذا، تقدم لاستقبال القرويات الثلاث، وهبط عن حماره، وأمسك بشكيمة حمار واحدة من الفلاحات، وراكعًا على ركبتيه فوق الأرض، قال:

– يا ملكة الجمال وأميرته ودوقته، بوركت سموك وعظمتك لاستقبال فارسك الأسير بفيض ظرفك وبهائك، ذلك الفارس الذى صار هناك حجرًا من المرمر، كامل الاضطراب ومتوقف النبض، حين رأى نفسه أمام حضورك الفخيم. وأنا سانشو بانثا خادمه، وهو الفارس المحنك دون كيخوتى دى لامانشا، ويطلقون عليه اسمًا آخر هو الفارس صاحب الصورة الحزينة.

فى هذه اللحظة وضع دون كيخوتى نفسه راكعًا بجوار سانشو، وكان ينظر بعيون ممزقة ونظرات مضطربة، إلى من كان يسميها سانشو ملكة وأميرة، ولم يكن يرى فيها إلا صبية قروية، وبوجه ليس طيب المرأى، لأنه كان مستديرًا بأنف مفلطحة، وهكذا ظل حائرًا ومنذهلاً، دون أن يجرؤ على فتح شفتيه. والفلاحات كن مبهوتات عند رؤية هذين الرجلين الشاذين فى مظهرهما راكعين على الأرض، ويحولان دون تقدم ثالثتهن فى الطريق، لكن هذه فجرت الصمت فى ثقل دم وغضب، وقالت:

– ابتعدا، بئس الساعة مرآكما، ودعانى أمر فنحن على عجل.

وعلى هذا أجاب سانشو:

– أوه، أيتها الأميرة، والسيدة الأولى فى التوبوسو! كيف لا يرق قلبكم العظيم عند رؤية عمود الفروسية المشّاءة وسندها راكعًا أمام حضرتكم الفخيمة؟

وعند سماع واحدة من الاثنتين الأخريين لهذا قالت:

- لكن، أى نعيم يدغدغك، (ياحمارة حمايا!). انظروا بماذا يأتى هؤلاء السادة فتيان العلا للسخرية من القرويات، كما لو كنا هنا لانعرف أيضًا المسخرة مثلهم! اذهبا فى طريقكما واتركانا لشأننا، وهذا سيكون الأفضل لكما.

قال دون كيخوتى عند هذا:

- انهض، سانشو؛ فإننى أرى أن إلهة الحظ لا تشبع من إيذائى، وتسد كل الطرق التى قد يأتى منها السرور لهذه النفس المسكينة التى أودعت بين جنبىَّ. وأنت، أوه، قمة النعيم المرغوب، ونهاية الرقة الإنسانية، والعلاج الوحيد لهذا القلب الضعيف الذى يعبدك!، لقد انتهى، فإن الساحر الشرير يطاردنى، ويضع سحابات من المياه القاطرة تغشى بصرى، الذى فقط هو، دون كل البصر، يراك وقد تغير وتحول جمالك الفريد ووجهك إلى وجه فلاحة فقيرة، إذا لم يكن وجهى أيضًا قد تحول بالنسبة إليك إلى وجه عفريت حتى يصير كريهًا أمام بصرك، وحتى لا تنظرى إلىَّ فى رقة وحب، بينما استوحش بهذا الخضوع والركوع صورتك الأخرى للحسن، مقدمًا لها ذلتى مع روحى التى تعبدك.

أجابت القروية:

- يا أبتاه، النجدة! النجدة! يا صاحبتى إنى أسمع غزلاً! ابتعدا، ودعانا نمر، وسنكون لكما شاكرات.

ابتعد سانشو وتركها تذهب، وقد بلغ به السرور مداه لنجاح خدعته وتدبيره. وما إن رأت القروية التى مثلت صورة دولثينيا نفسها حرة، حتى غمزت (أمهرتها) بإبرة فى سن عصا تحملها، فانطلقت ترمح فى المرج أمامها. وكما أن الحمارة كانت تحس بسن الإبرة، والذى كان يزعجها أكثر من المعتاد، فإنها بدأت تتوثب

حتى ألقت بالسيدة دولثينيا على الأرض. وهذا عندما رآه دون كيخـوتى، هـرع لإنهاضها، وسانشو لوضع البردعة وعدلها، والتى كانت قد سقطت علـى كـرش الحمارة. وعندما تم تعديل وضع البردعة، وأراد دون كيخـوتى إنهـاض سـيدته المسحورة بين ذراعيه لوضعها على الحمارة، حررته السيدة من هذا الجهـد عنـد وقوفها، حيث تحركت مسافة إلى الخلف، وقفزت فى الهواء واضعة يـديها علـى فخذى الحمارة وألقت بجسمها، أخف من صقر، فوق البردعة، مفرشحة رجليهـا، كما لو كانت رجلاً، وهنا قال سانشو:

– فليحيا روكى، فإن سيدتنا أخف من طائر القطا، وتستطيع تعليم أقوى فارس قرطبى أو مكسيكى الوثوب على الجواد الطائر؛ لقد صارت فوق مـؤخرة السرج بوثبة واحدة، وجعلت المهرة ترمح دون مهاميز كمـا لـو كانـت حمارًا وحشيًّا، ومثلها وصيفتاها فهما لم يتأخرا عنها، وجميـعهن يجـرين فى سرعة الريح.

وكان هذا هو عين الحقيقة، فالقرويتان الأخريان بمجرد أن رأتا دولثينيا وقد ركبت حمارتها غمزا حمارتيهما خلفها، واندفعن فى الرَّمح، دون أن يدرن الـرأس للخلف إلا بعد أن قطعن نصف فرسخ. تابعهن دون كيخوتى ببصره، وعندما رأى اختفاءهن عن نظره، التفت إلى سانشو، وقال:

– سانشو، ماذا يبدو لك مدى ما يلحق بى من السحرة؟ وانظر إلى أى حد تبلغ شرورهم، وحسدهم علىَّ، فقد أحبوا حرمانى من السرور الذى يمكـن أن تمنحه لى سيدتى. وبالفعل فقد ولدت لأكون مثلاً للمنكوبين، ولكى أكـون هدفًا ومسرحًا حيث ينظرون ويصوبون نحوى سهام الحظ السيئ. وعليـك أيضا أن تعلم، سانشو، أن هؤلاء الخونة لم يكتفوا بتحويل سيدتى دولثينيـا

وتغييرها، وإنما فى صورة شديدة الانحطاط والقبح، مثل تلك القروية، وعلى وجه التحديد سحبوا منها ما هو ملك لها من خصائص السيدات العظيمات، وهو الرائحة الحلوة بسبب أنها تعيش فى جو من العنبر والزهور. لأنى أود أن أعرفك، سانشو، أنه عندما اقتربت لإنهاض السيدة دولثينيا ووضعها علـــى مهرها (طبقًا لما تقول أنت، فبالنسبة لى كانت حمارة) هبت علىَّ رائحة الثوم النيئ، مما حز فى نفسى وأغاظها.

وفى هذه اللحظة صاح سانشو:

- يا للسفالة! يا للسحرة الملاعين سيئى النية، والذين أدعـــو أن أراهـــم وقـــد انتظموا من خياشيمهم فى حبل من الخوص مثل مـــشكاك ســـردين. أنـــتم تعرفون الكثير، وتستطيعون الكثير، وتعلمون الكثير. ينبغى أن تتوقفوا، أيها الأشرار، لقد حولتم لآلئ عيون سيدتى إلى خياشيم فلينيـــة، وشـــعرها ذا الذهب الخالص إلى شعرات ذيل عجل غليظة ذات لون أحمر طوبى، وأخيرًا، كل ملامحها من الحسن إلى القبح، دون أن تنسوا حتى الرائحة، التى كان من الممكن أن نستنتج من عطرها ما تحت تلك القشرة القبيحة مغطى من حسن؛ مع أننا حتى نقول الحق، أنا لم أر قبحها قط، اللهم إلا حسنها، الذى ارتفع به إلى الذروة. خال كان يأخذ على يمين شفتها العليا شكل الشنب، بـــسبع شعرات أو ثمان شقر، كخيوط من ذهب، وبطول يتجاوز الشبر.

قال دون كيخوتى:

- بالنسبة لهذا الخال، فإن التناسب بين الوجه والجسم ينبغى أن يفرض على دولثينيا خالاً آخر على صفحة الفخذ فى نفس جانب خال الوجه، لكن تلك الشعرات طويلة بالنسبة لخال، من ثَم، هى شعرات العظمة، هذا ما عنيت بقولك.

أجاب سانشو:

– **أنا أعرف أن أقول لفخامتكم إن تلك الشعرات قد بدت كما لو كانت وليدة.**

رد على هذا دون كيخوتى:

– **هذا ما أظنه، لأن لا شيء لم تضعه الطبيعة فى دولثينيا دون أن يكون كاملاً، وجيد التشطيب، وهكذا لو كان لها مئة خال، فلن تكون إلا أقمارًا ونجومًا مشرقة، لكن قل لى، سانشو، ذلك الشيء الذى بدا لى بردعة كان سرج فارس أم مقعد هودج؟**

أجاب سانشو:

– **لم يكن إلا سرج فارس، غطاؤه يساوى نصف مملكة، متناسبًا مع ثرائها.**

قال دون كيخوتى:

– **لأى سبب لم أر كل هذا، سانشو! والآن أعود للقول، وسأقول ألف مرة، إنى أكثر الرجال تعاسة.**

كان سانشو الداهية يبذل مجهودًا متخمًا حتى يتجنب الضحك، مستمعًا إلى سفاسف سيده، التى كانت تحت خداع دقيق، وأخيرًا، بعد عبارات أخرى كثيرة مرت بين الاثنين، عادا لامتطاء دابتيهما، وواصلا الطريق نحو سرقسطة، حيث فكرا فى الوصول فى الوقت المناسب، كى يستطيعا الحضور فى بعض حفلات الفروسية التى تعوّدا على إقامتها بهذه المدينة المقصودة. لكن قبل وصولهما إلى هناك حدثت لهما أشياء، كثيرة وجليلة وجديدة، تستحق أن تكتب وتقرأ، كما سنرى فى الفصل التالى.

الفصل الحادى عشر

عن المغامرة الغريبة التى حدثت لدون كيخوتى الشجيع مع قفص أو عربة بلاط الموت

متفكرًا أكثر من اللازم مضى دون كيخوتى فى طريقه إلى الأمام متأملاً المزحة الشريرة التى لعبها معه السحرة، محولين سيدته دولثينيا إلى الصورة القبيحة للقروية، ولم يكن يتصور أى طريقة يتبع لإعادتها إلى كينونتها الأولى، وهذه الأفكار أخرجته من نفسه إلى فراغ، حتى إنه ودون أن يحس، أطلق عنان روثينانتى، والذى عندما أحس بالحرية، كان يتوقف فى كل خطوة ليرتعى الحشائش الخضراء لهذه المروج المزدهرة. وقد أخرجه من فتنة عقله سانشو بانثا قائلاً:

– سيدى، الأحزان لم تخلق للدواب، وإنما للرجال، لكن الرجال إذا أحسوا بها أكثر من اللازم، يتحولون إلى دواب، فاكبح جماح نفسك، وتنبه، وأمسك بعنان روثينانتى، وعد إلى حيويتك واستيقظ، وأظهر تلك الشجاعة المناسبة التى يمتلكها الفرسان المشاءون. أى شياطين ذاك؟ وأى انهيار هذا؟ أنحن هنا أم بفرنسا؟ ليحمل الشيطان كل دولثينيا فى هذا العالم، حيث تساوى صحة فارس مشاء واحد أكثر مما يساوى كل تحول وسحر على وجه الأرض.

أجاب دون كيخوتى فلم يكن بالغ الإغماء:

– اسكت، سانشو، أقول اسكت، لا تنطق بإهانات ضد تلك السيدة المسحورة؛ فأنا وحدى مسئول عن نكبتها وسوء حظها، فبسبب الحسد الذى يكنه لى الشريرون ولد مصيرها السيئ.

أجاب سانشو:

- هذا ما أقوله أنا، فمن رآها ثم يراها الآن، أى قلب لا يبكى؟

رد دون كيخوتى:

- هذا، سانشو، ما تحسن عن غيرك قوله، فلقد رأيتها فى كمال حسنها، حتى إن السحر لم يمتد إلى تعكير بصرك، أو تغطية جمالها دونك، فقط دونى ودون عينى تكتمل فى عملها قوة سمومه. لكن، مع كل هذا، وقعت، سانشو، على شيء، وهو أنك رسمت لى جمالها بشكل سيئ، حيث، إن لم تخنى الذاكرة، قد قلت لى بأن عيونها من لؤلؤ، والعيون التى تشبه اللؤلؤ هى لأسماك المرجان وليس للسيدات، وعلى حسب اعتقادى، فإن عيون دولثينيا يجب أن تكون من زمرد أخضر، متسعة، مع قوسين سماويين يعملان كحاجبين، أما هذه اللآلئ فاسحبها من العينين، وحولها إلى الأسنان، فدون شك قد اختلط عليك القول، سانشو، مستبدلاً بالأسنان العينين.

قال سانشو:

- كل شيء ممكن، لأنه أيضًا عكر نظرى جمالها كما عكر نظرك قبحها، لكن فلنترك الأمر كله لله؛ فهو العالم بالأشياء المكتوب حدوثها فى وادى الدموع هذا، وفى هذا العالم السيئ الذى نعيش فيه، حيث لا يوجد شيء دون أن يختلط به الشر، والخبث، والخديعة. وشيء يثقل علىَّ، يا سيدى، أكثر من أى شيء آخر: هو التفكير فى أى إجراء ستتخذ عندما تهزم فخامتكم ماردًا أو فارسًا آخر، وترسله للذهاب للمثول أمام حسن السيدة دولثينيا، أين عليه أن يجدها ذلك المارد المسكين أو هذا الفارس البائس المهزوم؟ يبدو لى

كأنى أراهم وقد تحولوا إلى دمى رجال مسلحين، يبحثون عن سيدتى دولثينيا، لا يتعرفون عليها حتى لو رأوها فى منتصف الشارع أكثر من تعرفهم على المرحوم أبى.

أجاب دون كيخوتى:

– ربما، سانشو، لن يمتد السحر إلى الحرمان من التعرف على دولثينيا من جانب الفرسان والمردة المهزومين الماثلين أمامها، ومع واحد أو اثنين من أول المهزومين، نجرى تجربة بإرسال المهزوم إليها، وإصدار أمر إليه بالعودة وتقديم تقرير لى عما يكون قد حدث له.

رد سانشو:

– وأنا أقول بأنه يبدو لى أمر طيب ما قلته فخامتكم، وبهذه الحيلة سوف نعرف ما نرغب فى معرفته، فإذا كانت تخفى فقط رؤيتها على فخامتكم ستكون النكبة أكبر لفخامتكم منها للسيدة، لكن مادامت السيدة دولثينيا بصحة وسرور، نحن هنا نتصالح مع أنفسنا ونمضى الوقت بأفضل ما نستطيع، باحثين عن مغامراتنا، تاركين للزمن أن يقوم بعمله، فهو خير طبيب لهذه ولغيرها من أعظم الأمراض.

أراد دون كيخوتى أن يجيب سانشو بانثا، لكن منعه ظهور عربة قادمة من الاتجاه المضاد للطريق، ومشحونة بشخوص وتصاوير بأكثر ما يمكن تخيله من التعدد والغرابة، أما الذى كان يقود البغال ويعمل حوذيًا فقد كان شيطانًا رجيمًا. كانت العربة تأتى بدون سقف. أول صورة شخص ظهرت لدون كيخوتى كانت للموت نفسه، بوجه آدمى، وبجوارها كان يوجد ملاك بأجنحة كبيرة ومطلية

بالألوان، وفى جانب كان هناك إمبراطور بتاج، يبدو من الذهب، فوق رأسه، وتحت قدمى الموت كان الإله الذى يسمونه كيوبيد، دون ضمادات على عينيه، لكن بقوسه وسهامه، وأيضًا ظهر فارس مسلّح مشهرًا أسلحته دون غطاء للرأس حربى أو خوذة، وإنما بقبعة ينبعث منها ريش متعدد الألوان، ومع هذه التصاوير ظهر شخوص بملابس ووجوه مختلفة. عندما رأى دون كيخوتى كل هذا فجأة، بطريقة ما أصيب بالاضطراب، وملئ قلب سانشو بالخوف، لكن بسرعة ابتهج دون كيخوتى، لأنه اعتقد بأن مغامرة جديدة وخطيرة كانت تعترضه، وبهذا التفكير، ومع روح عالية لاقتحام أى خطر، اعترض طريق العربة، وبصوت عالٍ ومهدد قال:

– حوذى أو سائق العربة أو الشيطان، أو ما كنت، لا تتأخر فى أن تقول لى من أنت، وإلى أين تذهب، ومن تحمل من الناس فى عربتك، والتى تشبه سفينة قارون أكثر منها عربة عادية.

وعلى هذا أجاب بخضوع الشيطان موقفًا العربة بقوله:

– نحن ممثلو الفرقة المسرحية (الزاوية الشريرة)؛ وقد أقمنا فى تلك القرية التى خلف ذلك التل، هذا الصباح، العمل الثامن لفرقتنا: وهو المسرحية الدينية (بلاط الموت)، وعلينا أن نمثله هذا المساء فى القرية التى تظهر مبانيها هناك من هذه البقعة، ولأنها قريبة جدا من القرية التى كنا فيها، أردنا أن نعفى أنفسنا من التعرى من ملابس المسرحية وإعادة لبسها، وهكذا نمضى بنفس الملابس التى سنمثل بها. ذلك الصبى يمثل دور الموت، والآخر الملاك، وتلك المرأة، وهى زوجة المؤلف، تمثل دور الملكة، والآخر جندى، والبعيد الإمبراطور، وأنا الشيطان، وأعد من الشخصيات الرئيسية للمسرحية الدينية، لأنى أقوم فى هذه الفرقة بالأدوار الأولى. وإذا أراد فخامتكم معرفة

شيء آخر عنا اسألني عنه، وسأعرف أن أجيبك بكل دقة، فلأني شيطان أستطيع إدراك كل شيء.

أجاب دون كيخوتي:

- بقسم الفارس المشّاء، فقد تصورت عندما رأيت هذه العربة أنني أعترض مغامرة عظيمة، والآن أقول إنه من الضروري دائمًا لمس الأمور عيانًا باليد حتى نعرف خداع البصر. سيروا بسلامة الله، أيها الناس الطيبون، وأقيموا حفلكم، وانظروا عما إذا كنتم تأمرون بشيء في إمكاني، وسأقوم به من أجلكم عن طيب خاطر، ونفس رضيَّة، لأنني كنت أهوى منذ صباي الوجوه التنكرية للممثلين، وكانت عيوني تطارد دائمًا الفرقة المسرحية المشهورة في الكوميديا "فاراندولا".

وبينما هم في هذا الحوار، شاء الحظ أن يقترب أحد أفراد الفرقة في ملابس كوميدية لمهرج، مليئة بأجراس صغيرة وفي سن عكاز علق ثلاث حويصلات بقربة منفوخة. وعندما اقترب هذا الكوميدي من دون كيخوتي بدأ بإشهار العكاز نحوه، وهز الحويصلات على الأرض، داقا الأجراس، وقد اضطرب روثينانتي من شكله الغريب، ودون أن يمتلك دون كيخوتي القدرة على إيقافه، شد العنان بين أسنانه، وانطلق يجري في المرج أسرع مما يسمح به هيكله العظمي، وسانشو، الذي وضع في اعتباره الخطر الذي يتعرض له سيده من السقوط من فوق الحصان، أطلق الحمار بأقصى سرعة، واتجه لمعاونته، لكن عندما أدركه كان قد انتهى الأمر وصار سيده ملقى فوق الأرض، وبجانبه روثينانتي، الذي وصل مع سيده إلى الأرض في نفس الوقت. نهاية عادية، ومصير طراوة روثينانتي وجسارته.

لكن مجرد أن هبط سانشو من على حماره كي يهرع إلى دون كيخوتي،

الشيطان الراقص صاحب الحويصلات قفز فوق الحمار، ضـــاربًا لـــه بهـــا، وأدى الخوف والضجة بجانب ألم الضربات، بالحمار إلى الانطلاق نحـــو القريـــة التـــى يقيمون بها الحفل. وعندما رأى سانشو السباق الذى انطلق فيه حمـــاره، وســـقطة سيده لم يعرف إلى أى الأمرين يهرع أولاً، لكن بالفعل، ولأنه خادم مخلص، سيطر عليه حب سيده أكثر من غرامه بحماره، حتى إنه فى كـــل مـــرة يـــرى ارتفـــاع الحويصلات وسقوطها مع العكاز على فخذتى الحمار، أحس بخيبة وفزع المـــوت، وود لو كانت هذه الضربات تنزل على إنسان عينه، ولا تمس أصغر شـــعرة مـــن ذيل حماره. وبهذا الوضع الحائر اقترب من دون كيخوتى الذى كان أكثر دغدغـــة مما كان راغبًا فيه، وعندما ساعده على امتطاء روثينانتى، قال له:

– سيدى الشيطان حمل الحمار.

سأل دون كيخوتى:

– أى شيطان ؟

أجاب سانشو :

– شيطان الحويصلات.

رد دون كيخوتى:

– إذن سأجعله يدفع ثمن ذلك، حتى لو حبست معه فى الزنزانة الأكثر ظـــلامًا وعمقًا فى الجحيم. اتبعنى، سانشو، فالعربة تسير بـــبطء، وببغـــال العربـــة سأعوض فقدان الحمار.

أجاب سانشو:

– لا يوجد سبب للقيام بهذا المسعى، اكبح غضب فخامتكم، فعلى ما يبدو فإن الشيطان ترك الحمار، وها هو يعود.

وكان ذلك صحيحًا، لأن الشيطان مجرد أن سقط ومعه الحمار إلى الأرض محاكيًا دون كيخوتى وروثينانتى، ذهب الشيطان على قدميه إلى القرية، وعاد الحمار إلى صاحبه.

قال دون كيخوتى:

– ومع هذا، سيصير من الخير معاقبة هذا الشيطان على قلة أدبه، ولو كان الإمبراطور نفسه.

أجاب سانشو:

– انزع هذا من مخك، وخذ بنصيحتى، فلم يحدث قط أن تقاتل أحد مع كوميديين، لأنهم أناس محظيون؛ فقد رأيت ممثلاً أسره اثنان من الموتى وخرج حرا دون أى ضرر. واعرف فخامتكم لأنهم قوم مرحون، ويقدمون للناس السرور، فإن الجميع يناصرهم، والكل يجيرهم، ويساعدهم، ويقدرهم، وهذا يكون أكثر لأنهم فرقة ملكية مرخصة، وكلهم أو أغلبهم فى حللهم وهيئتهم يشبهون الأمراء.

أجاب دون كيخوتى:

– ومع هذا، فلن أذهب للشيطان المسخرة مادحًا حتى لو ناصره كل بنى البشر.

وعند قوله هذا، عاد نحو العربة، والتى كادت تصل إلى القرية، وانطلق يصرخ قائلاً:

– توقفوا، أيتها الزمرة المبتهجة السعيدة، أحب أن أفهمكم كيف تكون معاملة الحمير والوحوش، التى تستخدم مطايا لخدم الفرسان المشائين!

كانت صيحات دون كيخوتى مدوية حتى سـمعها وفهمهـا أهـل العربـة، وحاكمين من كلماته على نواياه، قفز فى لحظـة مـن العربـة المـوت، وخلفـه الإمبراطور والشيطان الحوذى، والملاك، ولم يبق ولا حتى الملكة والإله كيوبيـد، والجميع شحنوا أيديهم بالحجارة، وشكلوا من أنفسهم صفا فى انتظار اسـتقبال دون كيخوتى فى تحفز. أما دون كيخوتى فعندما وجدهم فى تنظـيم كتيبـة عـسكرية، وأذرعهم مرفوعة على استعداد لإطلاق الحجارة، أوقف روثينانتى، وتوقف يتأمـل كيف يهاجم مع تعرض شخصه لخطر أقل. وعند توقفه، وصل سانشو، ووجده فى هيئة المهاجم ضد هذه الكتيبة جيدة الإعداد، قال له:

– سيكون من الجنون الزائد محاولة تنفيذ هذه المهمة، ولتعتبر فخامتكم فى أن من يرجمونه بالحجارة ليس أمامه أى سلاح وقائى فى العالم، سوى أن يحشر نفسه داخل فراغ جرس من البرونز، وأيضًا يجب أن يكون موضـع اعتبـار أن مهاجمة رجل وحيد لجيش حيث يوجد الموت، ويقاتل بشخصه إمبراطوريات، ويساعدهم ملائكة شريرون وطيبون لهو تهوُّر أكثر منه شجاعة، وإذا كـان هذا الاعتبار لا يدفعه إلى التوقف، لا بد أن يدفعه لذلك المعرفة الأكيدة أنه مع ظهورهم أمراء وإمبراطورات لا يوجد بينهم فارس مشاء واحد .

قال دون كيخوتى:

– الآن نعم، لقد أصبت الهدف، سانشو، مما يمكن ويجب أن يغير موقفى الـذى كان قد تقرر بقوة، فأنا لا أستطيع ولا يجوز أن أشهر سيفى، كما قلت لك مرات كثيرة فى السابق، ضد من لم ينصب فارسًا. والدور عليك، سانـشو، إذا أردت الثأر ضد العدوان الذى وقع على حمارك، وأنا من هنـا سـوف أساعدك بالهتافات والتشجيع.

أجاب سانشو:

- لا يوجد سبب للانتقام من أحد، فليس من عمل المسيحيين الورعين الانتقام ضد الأذى من جانب أى شخص كان، وسوف أتفق مع حمارى على أن يضع ثأره بين يدى إرادتى، وهى العيش مسالما مادامت متعتنى السماء بالحياة.

رد دون كيخوتى:

- إذن، ذلك عزمك، سانشو، أيها الطيب، سانشو، أيها الفطن، وسانشو، المسيحى، وسانشو المخلص، فلنترك تلك الأشباح، ولنعد للبحث عن مغامرات أفضل وأكثر جودة، حيث أرى أن هذه الأرض غنية ولن تنقصها مغامرات كثيرة، بل ومعجزة.

وفى الحال أدار عنان الفرس، ومضى سانشو لأخذ حماره، والموت مع كتيبته المتفجرة عادوا إلى العربة، وواصلوا رحلتهم، وهكذا أخذت هذه المغامرة المخوفة لعربة الموت نهاية سعيدة، بفضل النصيحة الصحيحة التى أعطاها سانشو بانثا لسيده، والذى وقعت له فى اليوم التالى مغامرة مع فارس مشاء وعاشق، وليست أقل إدهاشًا من سابقتها.

الفصل الثانى عشر

عن المغامرة الغريبة التى وقعت لدون كيخوتى الجسور مع فارس المرايا الشجاع

الليلة التالية التى أعقبت معركة الموت قضاها دون كيخوتى وخادمه تحت أشجار عالية ذات ظلال، وكان دون كيخوتى قد أكل تحت إغراء من سانشو، وذلك من (الزوادة) التى يحملها الحمار، وخلال العشاء قال سانشو:

- كنت، يا سيدى سأكون عبيطًا إذا اخترت عندما جئتك بالبشرى غنائم أول مغامرة تخوضها فخامتكم دون المهرات الثلاث! وبالفعل (فعلاً)، عصفور فى اليد خير من نسر يطير فى السماء.

أجاب دون كيخوتى :

- لكن إذا كنت، سانشو، قد تركتنى أهاجم، كما كنت أحب، لنالك، على الأقل، هناك التاج الذهبى للإمبراطورة، والأجنحة المطلية لكيوبيد، والتى كنت سأنزعها عن جنبيه وأضعها بين يديك.

أجاب سانشو بانثا:

- لم يحدث قط أن صولجانات وتيجان الإمبراطورات الكوميديات كانت من الذهب الخالص، وإنما من صفيح نحاس أصفر أو من صفيح خالص.

أجاب دون كيخوتى:

– هذا حق، لأنه لم تكن زينة الكوميديا ثمينة قط، وإنما مصطنعة وصناعية، مثل العمل الكوميدى نفسه، ومع هذا أحب، سانشو، أن تأخذ الكوميديا مأخذًا جميلاً، ونفس الأمر مع ممثليها ومؤلفيها، لأنهم جميعًا أدوات لصنع الخير للبلاد، واضعين لكل واحد منا مرآة فى مواجهته مع كل خطوة، حيث تتم رؤية أحداث الحياة الإنسانية حية، ولا يوجد تشبيه أفضل من التشبيه الحى، والذى يمثل كينونتنا كما هى، وكما ينبغى أن تكون، مثل الكوميديا والكوميديين. وإذا لم يكن كذلك، قل لى، ألم تر أنت تمثيل إحدى الكوميديات حيث يدخلون ملوكًا، وإمبراطورات، وباباوات، وفرسانًا، وسيدات، وشخوصًا أخرى عديدة؟ واحد يأخذ دور القواد، وآخر الكذاب، وهذا التاجر، وذاك الجندى، وواحد غيرهم الفطن الساذج، وثانٍ العاشق البسيط، وعندما تنتهى الكوميديا ويتعرى الممثلون من ملابسهم، يصيرون جميعًا سواسية .

أجاب سانشو:

– نعم رأيت.

قال دون كيخوتى:

– إذن يتطابق ما يحدث فى الكوميديا وما يحدث فى هذا العالم، حيث يقوم أفراد بدور الإمبراطورات، وآخرون بدور البابوات، أخيرًا، كل الصور والأدوار التى يمكن إدخالها فى إحدى الكوميديات، لكن عند وصول النهاية، لحظة انتهاء الحياة، ينزع الموت عن الجميع ملابس التمايزات، ويبقون سواسية فى القبر.

قال سانشو:

– تشبيه جسور، وإن لم يكن جديدًا تمامًا؛ إذ سمعته مرات عديدة وكثيرة، مثل تشبيه الشطرنج، فبينما يدور اللعب كل قطعة لها مهنة خاصة، وعندما ينتهى اللعب، تخلط كل القطع متجاورة متساوية، وتلقى فى علبة كما تلقى الحياة المنتهية فى القبر.

قال دون كيخوتى:

– كل يوم، سانشو، تصبح أقل سذاجة، وأكثر ذكاء.

أجاب سانشو:

– نعم، حيث يصيبنى شىء من ذكاء فخامتكم، فأرض ذكائى العقيمة والجافة، عند تسميدها وزراعتها، تتقدم فى إعطاء ثمار طيبة، أود القول بأن الحديث مع فخامتكم هو السماد البلدى الذى أضيف للأرض العقيمة لعبقريتى الجافة، وبزراعتها، ومع مرور الوقت الذى أخدمها فيه، وأتصل بها ؛ أتوقع أن أثمر منى ثمارًا مباركة، لا تنحرف ولا تضل عن التربية الطيبة، التى صنعها فخامتكم لذكائى الضيق.

ضحك دون كيخوتى من عبارات سانشو المؤثرة، وبدا له ما يقول حقيقيا عن تغيره، لأنه من وقت لآخر كان يتكلم بطريقة تدهشه، على الرغم من أنه فى كل المرات أو فى معظمها، عندما كان يحاول أن يتعالم، أو يتحدث مثل رجال البلاط، كان ينتهى منطقه بإعمال جبل سذاجته إلى عمق جهله، وبما كان يظهره لبقًا وجيد الذاكرة باجترار أمثال، وافقت أو لم توافق فى شىء موضوع حديثه، كما شوهد ولوحظ خلال خطاب هذه القصة.

وبينما هما فى هذا الحديث، مضى عنهما الشطر الأكبر من الليل، وسانشو أراد أن يترك ستائر العين تنزل، كما كان يقول عندما يحب أن ينام، وأهمل حماره تاركًا له حرية الحركة مع الحشائش الغزيرة. ولم ينزل عن روثينانتى السرج طبقًا لتوصية صريحة من سيده، ماداما هما فى حملة أو لا ينامان تحت سقف، أيضًا لم يحرر روثينانتى، عادة قديمة يحافظ عليها الفرسان المشاءون، بنزع العنان وتعليقه على قربوس السرج، لكن بنزع سرج الجواد، ياالله!! وهكذا فعل سانشو، وأعطاه نفس الحرية التى أعطاها لحماره، الذى صارت صداقته مع روثينانتى وحيدة فى نوعها، شديدة الميثاق، لها شهرة علاقة الأب بالابن طبقًا لتراث هذه العلاقة، حتى إن مؤلف هذه القصة الحقيقية أفرد فصولاً خاصة حولها، لكن للمحافظة على الخلق المهذب والاحترام الذى ينتمى لهذه القصة البطولية، لم يضمنها هذه الفصول، رغم أنه فى بعض الأحيان فى غفلة عن هذا الهدف، يكتب كيف أن هاتين الدابتين تلتصقان، وتهرع إحداهما لحك جلد الأخرى، وبعد ذلك، من الإرهاق والرضا يضع روثينانتى رقبتها على رقبة الحمار فى هيئة صليب (حتى إن عنق روثينانتى يعبر بحوالى نصف قصبة رقبة الحمار)، بينما تنظر الاثنتان باهتمام إلى الأرض، وقد كان من عادتهما البقاء على هذا الحال ثلاثة أيام، أو على الأقل طوال الوقت الذى يتركانهما فيه معًا، أو مادام لا يجبرهما الجوع على البحث عما يقيم الأود. وأقول إنهم يقولون بأن المؤلف فيما ترك مكتوبًا شابه بين صداقتهما وصداقة كل من (نيسو) و(أوريالو) وكل من (بيلادس) و(أوريستس)؛ ولو كان ذلك كذلك، يمكن ملاحظة (لدهشة العالم كله) كم كانت وطيدة ينبغى أن تكون قد كانت صداقة هذين الحيوانين المسالمين، ولحيرة البشر الذين يعرفون بشكل سيئ المحافظة على الصداقة بين بعضهم بعضا؛ لهذا قيل:

لا يوجد صديق لصديقه

الشعرات البيض تعود رماحًا

والآخر الذى غنى:

من صديق لصديق إبر ودبابيس ...

ولا يبدو للبعض أن المؤلف خرج عن الطريق المستقيم عندما قارن بين صداقة هذين الحيوانين وصداقة بنى البشر، إن الإنسان من صداقة الدواب يستقبل العلم الغزير، ويدرس أشياء مهمة كما هى بالضبط: من اللقلاق الحقنة الشرجية، من الكلاب، الاستنطاق والشكر ومن الكركى المراقبة والسهر، ومن النمل العناية ومن الأفيال الشرف والأمانة والولاء من الجواد. أخيرًا، سقط سانشو نائمًا تحت سفح شجرة فلين، ودون كيخوتى ينعوس تحت شجيرة بلوط، لكن لم يمر وقت طويل حتى أيقظه ضجيج أحسه خلفه، وناهضًا فى قفزة، شرع فى النظر والتصنت عن مكان قدوم الضجة، فرأى رجلين راكبين، وأن أحدهما تاركًا نفسه يسقط عن السرج، قال للآخر:

– انزل، صديقى، وانزع عن الجوادين عنانهما، حيث يبدو لى أن هذا المكان يغص بالحشائش لهما، وبالصمت والوحشة الضروريين لتأملاتى الغرامية.

تم قول ذلك والتمدد على الأرض فى وقت واحد، وعند الاستلقاء على الأرض أحدثت الأسلحة ضجيجًا، إشارة واضحة إلى أنه يأتى مسلحًا، مما جعل دون كيخوتى يدرك أنه ينبغى أن يكون فارسًا مشاء، فاقترب من سانشو، وشد ذراعه، ولم يكن بالجهد القليل الذى بذله سانشو لإعادة ذراعه حيث كان، وبصوت خفيض قال له:

– سانشو، أيها الشقيق، لدينا مغامرة.

أجاب سانشو:

– فليبارك لنا الله فيها، لكن أين فخامتكم من هذه السيدة المغامرة!

رد دون كيخوتى:

– أين، سانشو؟ أدر عينيك وانظر، وسوف ترى هناك فارسًا مشاء ممددًا على الأرض، وعلى ما أتوقع أنه ليس مبتهجًا بما يكفى، لأننى رأيته يلقى بنفسه من على الجواد، ويستلقى على الأرض مع بعض علامات الغضب، وعندما سقط صلصلت أسلحته.

قال سانشو :

– وكيف يجد فخامتكم فى ذلك المغامرة المنتظرة؟

أجاب دون كيخوتى:

– لا أود القول بأن هذه مغامرة من مجاميعه، وإنما هو بداية للمغامرة، لأنه من هنا تبدأ المغامرات. لكن أنصت، فعلى ما يبدو، هاهو يدندن عودا أو قيثارة، كما أنه يبصق وينظف صدره، وهذا يعنى أنه يعد نفسه لغناء شىء.

أجاب سانشو:

– قسمًا إن الأمر لكذلك، لابد أنه فارس عاشق.

قال دون كيخوتى:

– لا يوجد فارس مشاء دون أن يكون عاشقًا، فلننصت إليه، فإنه بتتبع الخيط سنصل إلى بكرة أفكاره، فإذا كان يغنى، فإن فيضان القلب ينطق اللسان.

أراد سانشو أن يعلق على قول سيده، لكن صوت فارس الغابة الذى لم يكـن بالغ السوء ولا بالغ الحسن، عاقه، وهنا بقى الاثنان فى غاية الانتباه، وســمعا مـا غنى فيما يلى:

سونيتا

أعطينى، سيدتى، طريقًا أتبعه

وليكن حكم إرادتكم الصارمة

وسيصير هكذا موضع تقديرى

ولن أخالفه أبدًا أصغر مخالفة

*

وإذا أردت أن أُصمت قلقى

اعتبرينى منتهيًا، ولأمت

وإذا أردت الاستماع سمعت خوارق

الحب نفسه سوف أنطقه فيقول عنى

*

فأنا معدٌّ لاستقبال الشيء ونقيضه

لأن من يعجمنى يرانى من شمع وألماس

*

على قوانين الحب أضبط نفسى

لينًا كنت أو صلبًا، أهدى صدرى

وعليه خُطىَّ أو اطبعى ما يروق لك

ولك القسم، أن أحتفظ بهذا الأثر

إلى الأبد

ومع آهة انتزعت من القلب أنهى فارس الغابة غناءه، وبعد قليل قال بصوت متألم وحزين:

– أوه، أيتها المرأة الأجمل والأكثر جحودًا على وجـه الأرض! كيف يصير ممكنًا بكل هذا الهدوء، كاسيلديا باندليا، أن توافقى على أن تستهلك الأسـفار وتقضى على فارسك الأسير فى مجاهدات خشنة وقاسية؟ ألا يكفى أن جعلت كل الفرسان يعترفون بين يدى أجمل نساء العالم، كل فرسان نابارة، وكـل فرسان ليون، وكل فرسان الأندلس، وأخيرًا كل فرسان لا مانشا.

هنا قال دون كيخوتى:

– هذا لا، فأنا من فرسان لامانشا، لم أعترف قط، ولا أقدر على الاعتراف، ولا ينبغى أن أعترف بأمر يلحق ضررًا بليغًا بجمال سيدتى؛ وهذا الفارس كمـا ترى أنت، سانشو، يخرَف، لكن لنسمع، فلعله يعلن شيئًا آخر.

رد سانشو:

– نعم سيفعل، فأى نهاية لشكوى شهر متواصل!

لكن لم يكن الأمر كذلك، لأن فارس الغابة عندما سمعهما يتكلمان قريبًا منه، قال بصوت جهورى ومهذب، قاطعًا ندبه وشكواه بعد أن نهض واقفًا:

- من هناك؟ من أنتم؟ وهل بالصدفة أنتم من أهل السرور أو أهل الأحزان؟

أجاب دون كيخوتى:

- من أهل الأحزان.

قال فارس الغابة:

- إذن، اقترب منى، وستدرك أنك تقترب من نفس الأحزان، أو من المعاناة نفسها.

وعندما سمع دون كيخوتى إجابته شديدة الود والتهذيب اقترب منه وسانشو، حذو القدم بالقدم.

الفارس الندّابة أمسك دون كيخوتى من ذراعه، قائلاً له:

- اجلس أيها الفارس المشاء، ويكفى لفهم أنكم فارس مشاء، ممن يمارسون الفروسية المشاءة، أن توجد بهذا المكان فى صحبة الوحدة والهدوء، وهما المهد الطبيعى، والمقام المميز للفرسان المشائين.

وعلى هذا أجاب دون كيخوتى:

- أنا فارس، وأنتمى للممارسة التى عنها تتكلم، ومع أن الأحزان والنكبات وسوء الحظ تتخذ من قلبى منزلاً فإنه لم تهرب من هذا القلب الشفقة نحو نكبات غيرى. ومن غنائك القليل أحسب أن نكبات غرامية، أريد القول، بسبب حب تلك الحسناء الجاحدة، التى ذكرت اسمها فى تأوهاتك.

وعندما كان يحدث كل هذا، كانوا قد جلسوا معًا على الأرض الخشنة، في طيب صحبة وسلام، كما لو كان انفجار شمس يوم جديد، لا ينبغى أن تتفجر لها الرعوس.

قال فارس الغابة لدون كيخوتى:

– بالصدفة، أيها السيد الفارس، هل أنت عاشق؟

– لسوء حظى، نعم! مع أن الآلام التى تولد من الأفكار الراسخة فى الفؤاد ينبغى أن تجلب السرور قبل سوء الحظ.

رد فارس الغابة

– حقيقى، هو كذلك، إذا لم يعكر صفونا العقل، وفهم غطرسة المحبوبة، التى تشبه الانتقام للمبالغة فيها.

أجاب دون كيخوتى:

– لم تتغطرس علىَّ سيدتى قط.

قال سانشو، وكان قريبًا منهما هناك:

– لا، يقينًا لم يحدث، لأن سيدتى مثل الحمل الوديع، وهى أكثر طراوة من الزبدة.

سأل فارس الغابة:

– هل هذا تابعكم؟

أجاب دون كيخوتى:

- نعم، إنه هو.

قال فارس الغابة:

- لم أر تابعًا قط يجرؤ على أن يتكلم بينما يتكلم سيده، على الأقل، يوجد هناك تابعى، ضخم فى حجم أبيه، وليس مسموحًا أن يفتح شفتيه بينما أنا أتكلم.

قال سانشو:

- إذن، قسمًا، لقد تكلمت، وأستطيع الكلام أمام أى آخر مهما... وأكثر، قف عند هذا، فالأسوأ تجاوزه.

تابع فارس الغابة، أمسك ذراع سانشو قائلاً:

- فلنذهب نحن الاثنان معا حيث نستطيع الحديث حيث إننا خدم معًا حول كل ما نحب، تاركين هذين السيدين يتصارحان بحكاية قصص غرامهما، فمن المؤكد أن يومهما سينقضى فيها، دون أن تنقضى تلك القصص.

قال سانشو:

- على الرحب والسعة، وسوف أقول لفخامتكم من أنا، حتى تعرف أننى أستطيع مناظرة دستة من الخدم الأكثر ثرثرة.

وعلى هذا ابتعد الخادمان، حيث دار بينهما حوار شديد الظرف واللطافة، كما كان حوار سيديهما بالغ الخطورة والجدية.

الفصل الثالث عشر
حيث نواصل مغامرة فارس الغابة مع الحوار الذكى والجديد والناعم الذى دار بين الخادمين

وهكذا انقسم القوم إلى فريقين، الخادمان يحكيان قصة حياة كل منهما، والسيدان يحكى كل منهما للآخر غرامياته. لكن القصة تروى أولاً حديث الصبيين ويتلوه حديث السادة، وبانفصال الخادمين، قال خادم فارس الغابة لسانشو:

– ما نمر به ونعيشه نحن خدم الفرسان المشائين هو حياة قاسية، نأكل العيش بعرق الوجه، إنها لعنات صبها الله على آبائنا الأولين.

أضاف سانشو:

– أيضًا يمكن القول بأننا نأكل بثلج أجسامنا، فمن يعانى حرًا أكثر وبردًا أكثر من خدم المشّائين الفرسان؟ ويكون أقل سوءًا لو أكلنا، فالمبارزات مع الخبز أقل ألمًا، لكن ربما يمر علينا اليوم أو اليومان دون أن نفطر، اللهم إلا من الرياح التى تهب.

قال خادم فارس الغابة:

– كل هذا يمكن تحمله ومعاناته، على أمل الجائزة، لأنه إن لم يكن الفارس المشاء منكوبًا أكثر من اللازم، فإنه على الأقل سيرى خادمه نفسه وقد كوفئ بعد قليل بحكومة جميلة لأية جزيرة أو بمقاطعة مع لقب كونت، وحسن مظهر.

رد سانشو:

- لقد سبق لى القول لسيدى بأنى أكتفى بحكومة أية جزيرة، وهو نبيل وكـــريم جدا، حتى إنه وعدنى بها مرات كثيرة ومتعددة.

قال الآخر:

- أنا مع وظيفة فى الكنيسة سأصير راضيًا نظير خدماتى، وقد أوصـــى لى بهـــا سيدى، فما ترى؟!

قال سانشو:

- لابد أن سيد فخامتكم فارس كنسي، وهكذا يمكنه تقديم هـــذه الإنعامـــات لخدمة الطيبين، لكن سيدى مجرد فارس علمانى، مع أننى أتذكر، عندما أحب أن ينصحه بعض الأشخاص ذوو الفطنة، وإن كانوا على ما يبدو لى ســـيئى النية، بأن يصير مطرانًا، استقرت إرادته على أن يصير إمبراطورًا، وقد كنت أرتعد من أن تميل إرادته لخدمة الكنيسة، حتى لا أجدنى مستفيدًا بما يكفـــى منها، لأننى على الرغم من كونى إنسانًا، فإننى دابة لو خدمت الكنيسة.

قال خادم فارس الغابة:

- إذن أنت تضر فخامتكم، مع أن كل الحكومات الجزائرية ليست بعامـــة ذات جدوى طيبة، يوجد بعضها صعب المراس، وبعضها فقيرًا، وبعضها الآخـــر محزنًا، وأخيرًا، أفضلها يجلب معه حملاً ثقيلاً من الفكر والقلق الذى يـــضع على عاتقكم الشقاء مما يناسب حظك. والأفضل كثيرًا لنا، نحن من نمـــارس هذه الخدمة، أن ننسحب إلى بيوتنا، وهناك نكرس جهدنا لممارسات أكثـــر نعومة، ويمكن القول عن صيد الحيوان أو السمك، وأى خادم مهما بلغ فقره

لا ينقصه حصان عمل، أو زوج من كلاب الصيد، أو صنّارة لصيد السمك، مما نتسلى به فى قرانا؟

أجاب سانشو:

- بالنسبة لى لا ينقصنى شيء من هذا مع أنه فى الحقيقة ليس لى جواد عمل، لكن عندى حمارًا يساوى مرتين جواد سيدى، وليمنحنى الله عيدًا من الحزن، وليكن أول عيد قادم، إذا قايضته به، حتى لو أعطونى فوقه أربعة أجولة من الشعير. وقد تأخذ ما أقول عن قيمة البنى، والبنى هو لون حمارى، على سبيل المزاح. أما كلاب الصيد، فلن تنقصنى، لزيادتها عن الحاجة فى قريتى، وأكثر، سيصير الصيد الأكثر لذة، مادام يتم على حساب الكلاب.

أجاب الآخر:

- حقيقى وواقعى، أيها السيد التابع، فأنا عازم على ترك حياة السكر هذه لهؤلاء الفرسان المشائين، والانسحاب إلى قريتى، وتربية أولادى، حيث عندى ثلاثة مثل اللؤلؤ الشرقى.

قال سانشو:

- وأنا عندى اثنان، يمكن تقديمهما للبابا شخصيا، وخاصة التى أربيها لتكون كونتيسة، وتبارك الله فيما خلق، حتى لو كان ذلك ضد إرادة أمها.

سأل الآخر:

- وكم عمر هذه الصبية التى تربى لتصير كونتيسة؟

- خمس عشرة سنة، عامان أكثر أو أقل، لكنها مستقيمة العود مثل الرمح، وفى طراوة الصباح فى شهر أبريل، وفى قوة حمالى الأثقال.

قال خادم فارس الغابة:

- وإنها لسمات طيبة، لا تصلح فحسب لكونتيسة، وإنما لعروسة الغابات الخضراء. ابنة الداعرة ! أى قوة تملكها هذه الملعونة!

أجاب سانشو بشيء من الغضب:

- لا هى داعرة، ولم تكن أمها من قبل داعرة، ولن تكون أيا منهما، بمشيئة الله، مادمت أنا حيًّا، وتكلم أكثر تهذيبًا، فكونك نشأت بين فرسان مشائين، وهم الأدب نفسه، لا يبدو لى شيء من التوفيق فى كلماتك.

أجاب خادم فارس الغابة:

- أوه، كم فهمت خطأ ما قلت من طريقة فى المدح، فخامتكم أيها التابع المشاء، كيف لا تعرف أنه عندما يحقق مصارع الثيران هجمة جميلة على الثور، أو عندما يقوم أحدهم بعمل جيد، فإن العامى يقول: "يا ابن الداعرة الداعر، كم هو جميل ما فعل!"؟ وذلك الذى يبدو سبابًا، بهذه الصيغة، هو ثناء هائل، وهل تنكر، يا سيدي، حق الأبناء والبنات، الذين لا يقومون إلا بأعمال تتوج آباءهم بغار مماثل؟

أجاب سانشو:

- نعم أنكر، وبهذه الطريقة، وبتلك العبارة، التى أمكن لفخامتكم توجيهها إلىّ، وإلى أبنائى وإلى زوجتى، ملقيًا فوقنا كل الدعارة، فكل ما يفعلون هو فى قمة ما يستحق الثناء بغير هذا، وحتى أعود لمرآهم، أدعو الله أن ينقذنى من كبائر الذنوب، ومن هذه المهنة الخطرة التى تورطت فيها للمرة الثانية، مأسورًا

ومخدوعًا بكيس به مئة دينار ذهبًا، وجدته فى جبال سييراموزينا، والشيطان يضع أمام عيونى هنا وهناك، هنا لا، إنه فيما وراء هناك، جوالاً مليئًا بالدنانير الذهبية، يبدو لى أننى ألمسه مع كل خطوة بيدى هاتين، وأحتضنه ويحتضننى، وأحمله إلى بيتى، وأجلس أحصى ما فيه، واستثمره بأجل الفوائد، وأعيش مثل أمير؛ والوقت الذى أقضيه مع هذه الفكرة يجعل كل ما أقوم به وأعانيه من أعمال مع هذا الجنون لسيد، والذى أعلم أنه مجنون أكثر منه فارسًا، أقول يجعل كل ما أقوم به فى غاية السهولة والإمكان.

أجاب تابع فارس الغابة:

– ولهذا يقولون إن الطمع أقل ما جمع، وإذا تحدثنا عن جنون الفرسان، لا يوجد أكثر جنونًا فى العالم من سيدى، لأنه من هؤلاء الذين يقال عنهم: "حرص الآخرين صرع الحمار"؛ حيث إن فارسًا آخر يقبض ثمن عقله الذى فقده، ويصير هو المجنون، ويمضى باحثًا عما لا أدرى إذا كان بعد أن يجده، لابد أن يخرج من حلقومه.

– وهل بالصدفة هو عاشق؟

قال تابع فارس الغابة:

– نعم لواحدة اسمها كاسيلديا دى بانداليا، وهى السيدة النيئة والمشوية الأعظم على سطح الأرض، لكنه لا تعرج قدمه من عدم نضجها، مثل ما يدمدم فى أحشائه من أكاذيب كبرى، وقبل مضى ساعات كثيرة سيكشف ذلك عن نفسه.

رد سانشو:

– لا يوجد طريق بمثل هذا الاستواء دون عثرة كبرى أو حفرة عميقة، وفى بيوت أخرى يطبخون الفول، وفى بيتى أيضًا، والجميع تغص به أوانيهم، فصحبة الفرسان وخدمتهم جنون أكثر منها عقلاً. لكن إذا كان حقيقيًّا ما يقولون من أن الحصول على رفقاء فى العمل يخفف عن الإنسان، فمع فخامتكم يمكننى أن أتسلى، حيث تخدم سيدًا فى مثل بلاهة سيدى.

أجاب خادم فارس الغابة:

– أبله، لكن قوى، إلا أنه سافل أكثر منه أبله أو قويًا.

أجاب سانشو:

– هذا لا ينطبق على سيدى، فليس به ذرة من سفالة، فهو نقى النفس، لا يعرف عمل السوء ضد أحد، وإنما الخير لكل الناس، فليس به أدنى خبث، والطفل يستطيع إقناعه بأن الليل هو رابعة النهار، ولهذه البساطة أحبه، لا أنزع لتركه مهما ارتكب من ترهات.

قال خادم فارس الغابة:

– مع كل هذا، أيها الأخ والسيد، إذا قاد الأعمى أعمى آخر، سيعانى كلاهما خطر السقوط فى الحفرة. الأفضل أن ننسحب بالخطوة السريعة للقدم، ونعود إلى شئوننا؛ فإن من يبحثون عن المغامرة لا يجدونها دائمًا مثمرة.

كان سانشو يبصق كثيرًا، وفيما يبدو أنه كان بصاقًا للعاب لاصق، وجاف إلى حد ما، الأمر الذى لاحظه خادم الغابة العطوف، فقال:

– فيما يبدو لى أن ما قلناه يجعل لساننا يلصق بالحلق، إلا إننى معى دواء مهدئ فى خرج جوادى، وهو جيد.

ونهض ليعود بكيس جلدى كبير من النبيذ، وفطيرة محشوة كبيرة، وليس هذا بالثناء، لأنها بالفعل محشوة بأرنب أبيض كبير، حتى إن سانشو عندما لمسها، فهم أنها جدى كبير وليس حملاً صغيرًا، مما جعله عند رؤية هذا يقول:

– وهذا تحمله معكم يا سيدى؟

أجاب الآخر:

– وماذا تفكر؟ هل أنا بالصدفة خادم ماء وصوف(*)؟ إننى أحمل معى أفضل زوّادة فوق فخذى جوادى، مما تعود على حمله أى جنرال كلما بدأ طريق سفر.

أكل سانشو دون استئذان، وكان يلتهم فى الظلام مثلما تلتهم المواشى البرسيم عند إطلاق قيودها فيه. قال:

– فخامتكم،نعم إنك خادم مخلص وقانونى، وقوى وعادى، وعظيم وفخيم، كما تظهر هذه الوليمة، التى تبدو وكأنها إن لم تأت من فعل السحر فكأنها كذلك. لست مثلى، فأنا مسكين سيئ الحظ، وفقط فى خرجى قليل من الجبن الجاف، يمكن بها شجُّ رأس مارد، ومعها بضعة أصابع من الخروب، وبعض المكسرات، بفضل ضيق يد سيدى، وطبقًا لما يرى من رأى فى أن الفرسان المشائين عليهم ألا يقيموا أودهم أو يتغذوا إلا بالفاكهة الجافة أو حشائش الأرض.

(*) يقصد: هل أنا خادم قليل الأهمية؟

أجاب خادم فارس الغابة:

- حسبما أعتقد فإن معدتى ليست معدة للأشواك أو لعنب الـــديب، ولا قلقـــاس الجبال البرى، وعليهم أن يجدوا ذلك هناك فى آراء وقوانين فروســـيتهم مـــن نسميهم سادتنا، وليأكلوا ما يوصون به، فأنا أحضر طعامى البارد وهذا الكيس من النبيذ معلقًا فى سرج حصانى، ولا يعنينى نعم أو لا، إنما الكيس مخلـــص لى وأحبه، ولا أمضى وقتًا طويلاً دون أن أهرع لتقبيله، مع ألف حضن.

وعندما انتهى من قول ذلك، وضع الكيس فى يد سانشو، الذى عندما اجتهـــد فى وضعه بفمه، كان ينظر للنجوم حوالى ربع ساعة، وعندما انتهى من الـــشرب سقط رأسه جانبًا، وأطلق تنهيدة عظيمة وقال:

- يا ابن الداعرة يا سافل، وأكثر من هذا أنت كاثوليكى!

هنا قال الآخر مستمعًا إلى (ابن الداعرة) من فم سانشو:

- هل ترى كيف مدحت النبيذ بوصفه بابن الداعرة؟

أجاب سانشو:

- أقول بأننى أعترف بأن القول لأى شخص بأنه ابن داعرة ليس سبابا، عنـــدما تفهم على سبيل المدح، لكن قل لى يا سيدى بحق الله، هل هذا النبيذ من لا ثيوداد ريال؟

أجاب الخادم الآخر:

- برافو، أيها الذوَّاقة، ففى الحقيقة هو لا ينتمى لأى مكان آخر، وقد مضى عليه عدة سنوات من التعتيق.

قال سانشو:

– ألست لهذا ؟لا تتناول شيئًا إلا جئتنى أعطيك أصله وفصله. ألن يكون طيبًا، أيها السيد التابع، أن تكون عندى غريزة التعرف على الأنبـــذة، حـــتى إنى بمجرد شمها أعطى موطنها، ونسبها، وطعمها، ودرجـــة قـــدمها وتعتيقهـــا، ودرجة تقليبها، مع كل الظروف التى تتعلق بالنبيذ؟ لكن لا يجوز التعجـــب إذا كان فى نسبى من ناحية أبى أكبر اثنين من الذوّاقـــة الـــذين عرفتـــهم، لامانشا، عبر أزمان متطاولة، ولإثبات ما حدث لهما سأذكر لك شيئًا عـــن اختبار لهما. أعطوهما نبيذ برميل لتذوقه، طالبين منهما رأيهما حول حالـــة النبيذ، أو جودته، طعمه، أو انحطاط جودته وذوقه. الأول ذاقه على طرف لسانه وقال إن له طعم الحديد، والآخر جعله يقترب من أنفه فحسب، وقال إن له طعم فروة الماعز. صاحب النبيذ قال إن البرميل كان نظيفًا، وليس به أى شائبة تعطيه طعم الحديد أو فرو الماعز. ومع هذا أصر الاثنان الذوّاقـــة على تأكيد ما قالا، ومضى الوقت، واكتمل بيع النبيذ، وعند غسل البرميل وجد به مسمار صغير متعلق بخصلة من فرو الماعز. وانظر، من ينحدر مـــن هذا العرق سيقدر على إبداء الرأى فى مثل هذه القضايا.

قال خادم فارس الغابة:

– من أجل هذا، لنترك البحث عن المغامرات، أليس لدينا بعض الخبز، لم نبحث عن "تورتات" ؟لنعد إلى أكواخنا، وهنا يرعانا الله، إن شاء.

– حتى يصل سيدي إلى سرقسطة سأخدمه، وبعدها نتفاهم.

أخيرًا، لقد تكلما كثيرًا، وشربا كثيرًا، هذان التابعان الطيبان، حتى إن النـــوم احتاج لربط لسانيهما، وبعض التروية لعطشهما، الذي يـــستحيل تخلـــصهما منـــه؛ وهكذا ممسكًا كل منهما بالآخر عبر كيس النبيذ الفارغ الآن تقريبًا، وبالجرعات مع بعض المضغ فى الفم، انبعثا فى نوم عميق، حيث سنتركهما فى الوقـــت الـــراهن حتى نحكى عما حدث بين فارس الغابة، والفارس ذى الصورة الحزينة.

الفصل الرابع عشر
حيث تستمر مغامرة فارس الغابة

بين عبارات كثيرة دارت بين دون كيخوتى وفارس الغابة، تقول الحكاية إن فارس الغابة قال لدون كيخوتى:

- وأخيرًا، أيها السيد الفارس، أحب أن تعرف أن مصيرى، أو بكلمة أدق اختيارى، حملنى إلى عشق التى لا نظير لها كاسيلديا دى بانداليا، وأطلق عليها "لا نظير لها" لأنها ليس لها نظير، هكذا فى امتشاق الجسد، تمامًا كما فى كل شيء، حتى وصلت الغاية فى أحوالها وحسنها. كاسيلديا هذه، التى أحكى عنها، دفعت مقابل نواياى الطيبة ورغباتى المهذبة، مثلما فعلت زوجة أب هيركلوس بهيركلوس، شغلتنى بأخطار كثيرة وعديدة، واعدة لى فى نهاية كل خطر أنه فى نهاية الخطر التالى سأصل إلى أملى، لكن هكذا مضت جهودى متسلسلة ، التى لا تحصر، دون أن أعرف أيها سيكون الأخير الذى سوف يعطى بداية لإنجاز رغباتى الطيبة. مرة أرسلتنى لتحدى المماردة المشهورة لأشبيلية المسماة خيرالدا(*)، والتى هى من الشجاعة، والقوة بمكان

(*) دوارة الريح (فى أعلى المنارة الضخمة التى شيدها المعتمد بن عباد) من البرونز، ولها أربعة عشرة قدمًا، وتديرها الريح لبيان اتجاه تلك الريح، هذا الفارس المزعوم يريد أن يقارن ذلك بمغامرات دون كيخوتى مع طواحين الرياح. والرياح الشمالية هو اتجاه الخيرالدا المعتاد. أما صخور غيساندو، فهى أشباح ضخمة من النحت البدائى، لايعرف على وجه الدقة تاريخها.

فهى مصنوعة من النحاس البرونز، وهى التى دون أن تغادر مكانها تعد الأكثر حركة واضطرابًا بين نساء العالم، وصلت إليها، ورأيتها، وتغلبت عليها، وجعلتها تقف فيما وراء الوقوف، لأنه فى أكثر من أسبوع لم تهب سوى الرياح الشمالية. ومرة أخرى حدث أن أرسلتنى لوزن وحملها الصخور القديمة للثيران الضخمة فى غيساندو، وتلك مهمة أقرب إلى عمل الحمّالين منها إلى عمل الفرسان. ومرة أخرى أرسلتنى إلى هوة قمة حتى أعجل بها وأخضعها، وأن أحضر لها علامة عما يوجد بذلك العمق المظلم لهذه القمة. أوقفت حركة الخيرالدا، وحملت ثيران غيساندو، وتفرغت للهوة حتى أخرجت للنور ما هو مخبأ فى هاويتها، ومع ذلك ظلت آمالى تسير من موت إلى موت بينما أوامرها وغطرستها من حياة إلى حياة. باختصار أخيرًا أمرتنى أن أتجول فى كل أنحاء إسبانيا، وأجبر كل الفرسان المشائين الذين يضلون فى شعابها على الاعتراف بأنها هى فحسب الأكثر تميزًا فى الحسن عن كل النساء الأحياء، وأننى الأقوى، والأكثر عشقًا بين فرسان كوكبنا. ولتلبية طلبها مشيت فى معظم أنحاء إسبانيا، ومن أجلها تغلبت على فرسان كثيرين ممن تجرأوا على معارضتى .لكن الذى أعتز به وأفخر هو أننى تغلبت فى معركة فريدة على الفارس المشهور دون كيخوتى دى لامانشا، وجعلته يعترف أن سيدتى كاسيلديا أكثر حسنًا من سيدته دولثينيا، وبهذا الانتصار فقط أعلم أننى أنتصر على كل فرسان العالم، لأن دون كيخوتى هذا قد انتصر على الجميع، وهزيمتى له، تحول مجده وشهرته وشرفه لى، وتجعلها من حقى شخصيا:

فالمنتصر أكثر تشريفًا

بقدر علو سمعة المهزوم

وهكذا صارت من ممتلكاتي الأمجاد التي لا حصر لها لدون كيخوتي المشار إليه.

بقي دون كيخوتي مبهوتًا مما سمع من فارس الغابة، وكان على وشك أن يقول له ألف مرة إنه يكذب، وقد صار تكذيبه على طرف لسانه، لكنه ضبط نفسه بأفضل ما يستطيع، حتى يجعله يعترف بنفس الفم واللسان بكذبته، وهكذا قال له بهدوء:

- فيما يتعلق بهزيمتك لكل فرسان إسبانيا أو العالم لا أقول شيئًا، يا سيدي الفارس، لكن ما يتعلق بهزيمتك لدون كيخوتي دى لامانشا هو أمر أشك فيه، ربما كان فارسًا آخر يشبهه، رغم قلة من يشبهونه.

أجاب فارس الغابة:

- كيف لا؟ بحق السماء التي تظلنا إنني تغلبت على دون كيخوتي في معركة، انتهت باستسلامه، وهو رجل طويل ذو جسم جاف الوجه، متوتر الأعضاء، مقفع، أشهب، بأنف لصقر، وبعض الشيء محدبة، بشوارب كثّة، وسوداء، ومتهدلة. يبارز تحت اسم (الفارس صاحب الصورة الحزينة)، ويرافق حاملاً لدروعه عامل زراعي اسمه سانشو بانثا، ويمتطي صهوة جواد اسمه روثينانتي، وأخيرًا، سيدة إرادته هي دولثينيا دل توبوسو، التي كانت تسمى بعض الوقت الدونثا لورنثو، مثل سيدتي والتي لأن اسمها كاسيلدا، وهي من الأندلس، أطلق عليها كاسيلديا دى باندليا. وإذا كانت كل هذه العلامات لا تكفي لتدعيم صدقي، هنا يوجد سيفي، وسوف يعطي مصداقية لهذه الحقيقة غير المصدقة.

قال دون كيخوتى:

– اهدأ، أيها السيد الفارس، وأنصت لما أحب قوله لك. عليك أن تعرف أن دون كيخوتى هذا الذى تذكره هو أكبر صديق لى فى العالم؛ حتى إنى أستطيع أن أحله محل نفسى، وبالعلامات التى أعطيتها لى بكل دقتها ويقينيتها، لا أستطيع التفكير إلا أنه نفس الفارس الذى هزمته. من ناحية أخرى، أرى بالعينين، وألمس باليدين عدم إمكانية أن يكون نفس الفارس، وإذا سلمنا أنه لم يكن، فلأنه له أعداء كثيرون من السحرة (وخاصة واحد منهم اعتاد مطاردته)، ومن الممكن أن يكون قد أخذ أحدهم صورته، وترك نفسه ينهزم، حتى يحرمه بالغش من شهرته التى أحرزها بفروسيته الرفيعة، واكتسبها على سطح الأرض المكتشف (حتى الآن) جميعه. ولتأكيد هذا، أحب أيضًا أن تعرفوا أن هؤلاء السحرة أعداءه، منذ ما لا يزيد على يومين، قد مسخوا صورة الحسناء دولثينيا دل توبوسو وشخصيتها إلى قروية فظة ومتدنية؛ وبهذه الطريقة من المحتمل أن يكونوا قد مسخوا صورة لدون كيخوتى. وإذا لم يكف كل هذا حتى تدرك تلك الحقيقة، فإنى أقول، هاهو ذا هنا دون كيخوتى نفسه، وعليك أن تدركها بسلاحك، على القدم أو راكبًا أو بالطريقة التى تعجبك.

وعند قوله هذا نهض وأشهر سيفه، منتظرًا قرار فارس الغابة، الذى أجاب بصوت هادئ فى نفس الوقت، وقال:

– من يحسن الدفع لا يؤلمه أن يقدم هدايا، والذى فى إحدى المرات، أيها السيد دون كيخوتى، استطاع هزيمتك ممسوخًا، لديه أمل طيب ممكن فى إخضاعكم

فى كينونة شخصكم نفسها. لكن لأن الفرسان لـيس طيـبًا أن يقومـوا بمعاركهم فى الظلام، مثل اللصوص وقطاع الطرق، لننتظر النهار، حتى ترى الشمس أعمالنا. ولابد من شرط لمعركتنا، وهو أن يخضع المهـزوم لإرادة المنتصر، كى يصنع معه كل ما يريد، ويطيعه فى تهذيب الفرسان.

أجاب دون كيخوتى:

- إننى بالغ الرضا لهذا الشرط، وتلك الموافقة.

وعند الانتهاء من قول هذا، ذهبا إلى حيث وجد الخادمان، ووجـداهما فـى شخير، وفى نفس الوضع الذى فاجأهما عليه النوم. أيقظاهمـا، وأمراهمـا أن يعـدا الخيل لتكون جاهزة للركوب، لأنهما عند طلوع الشمس عليهمـا أن يخوضـا معًـا كلاهما معركة دامية، وفريدة، لا تعادلها معركة أخرى، وعند هذه الأخبار الجديـدة بقى سانشو حائرًا، ومنذهلاً، ومتشككًا فى صحة سيده خائفًا عليهـا، بـسبب عنـف فارس الغابة طبقًا لما سمعه من خادمه، ودون نطق كلمة واحـدة ذهـب الخادمـان للبحث عن الحيوانات، حيث كانت الخيول الثلاثة قد اشتمت الخبر مع الحمـار، فـى تجمعها معًا.

فى الطريق قال خادم فارس الغابة لسانشو:

- عليك أن تعرف أن مبارزى الأندلس لديهم عادة، أنهم عندما يكون الواحـد منهم إشبينا لمشاجرة، لا يجلس عاطلاً يدًا فوق يد، بينما يبارز الفارس الذى يتبناه، أقول ذلك لأنه بينما يتبارز سيدانا، نحن الاثنين أيضًا علينا أن نتبارز، لنخرج بمحصول.

أجاب سانشو:

– هذه العادة أيها السيد التابع، يمكن أن تجرى هناك بين قوادين ومبارزين كما تقول، لكن مع خدم الفرسان المشّائين، ولا حتى أفكر فيها. على الأقل لم أسمع من سيدى عن مثل هذه العادة، وهو يحفظ عن ظهر قلب كل عادات الفروسية المشّاءة. وأكثر من ذلك فإنى أتعهد لو كان هذا حقًا وفعلاً من تشاجر الخدم أثناء تصارع السادة، بأننى لن أفى بهذا الواجب، مقابل دفع الغرامة التى قد تفرض على التابع المسالم ، والتى أؤكد أنها لن تزيد على رطلين من الشمع، وأنا أحب دفع هذه الغرامة، وأعلم أنها قد تكلفنى أقل من الضمانات التى يمكن أن أستعملها لعلاج رأسى، التى أراها وقد انشطرت نصفين. وهناك ما هو أكثر؛ يستحيل علىَّ المبارزة لعدم امتلاكى سيفًا، حيث لم أحمله قط فى حياتى.

قال تابع فارس الغابة:

– لهذه عندى دواء ناجح؛ فمعى كيسان من الكتان من نفس الحجم، تأخذ أنت كيسًا، وأنا آخذ الآخر، ونتبارز ونتكيس بأسلحة متعادلة.

أجاب سانشو:

– بهذه الطريقة، على الرحب والسعة، لأن مثل هذه المشاجرة سوف تؤدى إلى تنفيض ملابسنا من الغبار أكثر من إحداث الجروح.

أجاب الآخر:

– لا ينبغى أن تكون هكذا لأنه يجب حشو الأكياس بنصف دستة من الحصى الجميل والأحجار، حتى لا يطير الهواء تلك الأكياس، والتى بهذا تصبح ثقيلة لكن ثقلاً متساويًا، وبهذه الطريقة نتكيس فى المعركة دون جروح.

أجاب سانشو:

– انظر، اللعنة! نحشوها بفرو أو قطن محلوج، حتى لا تطحن رءوسنا، وتتحول عظامنا إلى ذرات متناثرة! لكن حتى لو حشوناها بحرير، فأنا لن أتشاجر. ليتشاجر ويتقاتل سيدانا، وهناك يلقيان بعضهما، ونحن نشرب ونعيش، فإن الزمن يسرق منا الحياة والدنيا فانية، وليس من واجبنا تقديم مشهيات للموت، حتى يقضى علينا قبل الأوان، ولنترك أنفسنا ثمارًا تسقط عند نضجها.

أجاب الآخر:

– ومع ذلك، علينا القتال، ولو لنصف ساعة.

أجاب سانشو:

– هذا لا، لن أكون أنا بهذه الوقاحة والجحود حتى أقاتل من أكلت معه وشربت، مهما كان الحد الأدنى من القتال، وخاصة أننا لا تعترينا حمى الغضب أو التناحر، أى شياطين تدفعنا للقتال على الناشف؟

قال خادم فارس الغابة:

– من أجل ذلك سأقدم علاجًا شافيًا، فقبل بدء القتال أقترب أنا منك برشاقة وأصفعك ثلاث أو أربع، حتى تسقط على أثرها تحت قدمى، مما يوقظ فيك الغضب، حتى لو كان نائمًا نوم الفأرة النوَّامة.

قال سانشو:

– ضد هذا النظام، لدىَّ نظام آخر، ولن أكون فى المؤخرة. فسوف ألتقط نبوتًا، وقبل اقترابك منى لإيقاظ الغضب، سأجعلك تنام بضربات النبوت، نومة لن

تستيقظ منها قبل وصولك للعالم الآخر، ليعرف أننى رجل لا أمس خـــدود أحد أو مصافع أحد. وعلى كل منا أن يرتب شئونه بما يملك من سهام، مع أن الأصوب أن يحاول كلانا تنويم غضب الآخر، فلا يعلم أحد مـــا بـــنفس الآخر، وقد "تأتى من أجل الصوف فتعود وبرك منتوف"، وقـــد بـــارك الله السلام، ولعن القتال؛ لأن قطًا مقيدًا، محبوسًا، مضغوطًا عليه، قد يتحول إلى أسد. وأنا رجل، الله وحده يعلم إلى أى شيء قد أتحول. وهكذا، ومنذ الآن، أسر إليك، أيها السيد الخادم، أنك تتحمل تكاليف كل الشر والأذى الذى قد ينتج عن تشاجرنا.

أجاب خادم فارس الغابة:

– هذا طيب، فليصبح الله الصباح، والأمور سوف نسوّيها.

وخلال هذا بدأ ألف عصفور حسن الطلا فى التغريد فوق الأشجار، وفى غنائها البهيج ظهر أنها ترحب وتحيى الفجر المنعش، والذى مضى يكشف عن وجهـــه أمـــام الأبواب والبلكونات الشرقية، هازا شعره لتتناثر لآلئ سائلة بأعداد لا نهائية، اســـتحمت الحشائش فى عطرها الناعم، والتى بدت وكأنها فى نفس الوقت تنبثق وتمطر الأبـــيض والغزير من الجوهر، والصفصافات كانت تقطر ما لذّ من المن والسلوى، بينما تضحك الينابيع ، وتتمتم مسايل الوديان، وتبتهج الغابات، وتتوهج سرورًا بمقدمها المروج. لكن مجرد ما تبدى وضوح النهار حتى ظهرت الأشياء للعيان وتميزت، وكان أول شـــيء تميز أمام عيون سانشو أنف خادم فارس الغابة، وكانت طويلة جـــدا، حتـــى إن ظلهـــا انحدر على كل جسمه. ويحكى بالفعل أنها كانت أطول من اللازم، ذات ألوان وزوائـــد وانحناءات تقبّح وجهه، وما إن رآها سانشو حتى بدأ يرتعد من قدميه ومن يديه، مثـــل

طفل محموم، وخطر على فؤاده أن يتحمل منتى صفعة قبل أن يقاتل هذا الجنى. نظر دون كيخوتى إلى خصمه فوجده مرتديًا خوذته، فلم يتمكن من أن يرى وجهه، لكنه لاحظ أنه رجل ممتلئ، وليس بالغ الطول، وكان بجانب أسلحته يرتدى قميصًا من نسيج يبدو من الذهب الخالص، مزروعًا به كسر المرايا، مما جعله بطريقة فائقة بالغ الأناقة ووسيمًا، وكانت تهفهف فوق خوذته مزرعة من الريش الأخضر والأصفر والأبيض، وكان رمحه مستندًا على شجرة، وكان طويلاً جدا وغليظًا، وحافته من حديد صلب يتجاوز الشبر.

نظر دون كيخوتى إلى كل هذا ولاحظه، وحكم على ما رأى بالقوة المتينة، لكن لم يخف من هذا مثل سانشو بانثا، بالعكس قال لفارس المرايا:

– إذا كانت رغبتك الشديدة فى القتال لم تستهلك أدبك وتهذيبك، أطلب منك زحزحة غطاء وجهك قليلاً، لأرى عما إذا كانت وسامة الوجه توافق وسامة اللباس.

أجاب فارس المرايا:

– سواء كنت غالبًا أو مغلوبًا، أيها السيد الفارس، فسيكون لديك وقت فائض لرؤيتى، وإذا كنت لا أشجع رغبتكم الآن، فلأنه يبدو لى أننى أعادى كاسيلديا دى بانداليا الحسناء، بتأخير اعترافك بما أدعيه، خلال الوقت الذى أزيل فيه غطاء الوجه.

قال دون كيخوتى:

– إذن خلال ركوبنا الخيل، تستطيع أن تقول لى بشكل نهائى إذا كنت دون كيخوتى الذى تكلمت عنه أم لا.

قال فارس المرايا:

– سأجيب عليك فى هذا، حيث تشبه الآخر كما تشبه البيضة نظيرها، لكن طبقًا لما تقول حول مطاردة السحرة لك، لا أستطيع تأكيد إذا كنت نفس محتوى الشكل الذى رأيت.

أجاب دون كيخوتى:

– هذا يكفينى حتى أعتقد فى خديعتهم لك، وحتى نحسم الأمر بالفعل، هيا إلى خيلنا، فلن يمر إلا وقت قليل قبل كشف غطاء وجهك، وإن شاء الله وسيدتى وقوة ذراعى سوف أرى وجهك، وسترى أنت أننى لم أكن دون كيخوتى المغلوب الذى تظنون.

وبهذا، ولتوفير الكلمات، صعد كل منهما على جواده، وحوّل دون كيخوتى عنان روثينانتى للسيطرة على ميدان المعركة ثم العودة لملاقاة خصمه، وصنع نفس الشىء فارس المرايا، لكن لم يكد دون كيخوتى يبتعد عشرين خطوة، حتى سمع فارس المرايا ينادى عليه، وعند تقاسمهما المسافة بينهما، قال له:

– اعلم، سيدى الفارس، أن شرط معركتنا، أن المغلوب، كما ذكرت لك من قبل ، ينبغى أن يبقى تحت أمر وتوجيه الآخر.

أجاب دون كيخوتى:

– أعلم ذلك، لكن على شرط أن ما يؤمر به المغلوب لا يتجاوز حدود تعاليم الفروسية.

أجاب فارس المرايا:

– هذا مفهوم.

هنا ظهرت لعيون دون كيخوتى أنف تابع خصمه الغريبة، ولم تـدهش دون كيخوتى أقل من سانشو، حتى إنه تصوره مسخا، أو نوعًا جديدًا من البشر، من تلك السلالة التى لم نعتد على رؤيتها فى العالم. وسانشو الذى رأى سيده يتراجع كى يبدأ انطلاقته نحو خصمه، لم يحب أن يبقى وحده مع ذى الأنف المأنوف، خشية تلقى أنفه ضربة قاصمة من أنف هذا التابع الغريب فى مبارزة للعبة الأنوف، قد تحسم المعركة لصالح خصمه، حتى إن سانشو تصور نفسه وقد سقط ممددًا على الأرض بفعل ضربة الأنف أو الخوف، ومن ثَم، جرى مع سيده بمحاذاة روثينانتى، وعندما رأى سيده يعيد الكر إلى الخلف، قال له:

– أتوسل لفخامتكم، سيدى، قبل أن تعود للقاء الفارس الآخر ساعدنى على صعود شجرة الفلين هذه، حيث أستطيع أن أرى أكثر من رؤيتى الأرضية لسيدى فى اللقاء الشجاع الذى ينبغى على فخامتكم القيام به مع هذا الفارس.

قال دون كيخوتى:

– على العكس، سانشو، أنت تحب الهرب، والصعود على منصة لرؤية مصارعة الثيران دون خطر.

أجاب سانشو:

– الحقيقة ما تقول، فإن الأنف الهائلة لهذا الخادم، تتركنى حائرًا ومليئًا بالفزع، ولا أجرؤ على البقاء بجواره.

قال دون كيخوتى:

– هى كذلك تلك الأنف، وإذا لم أكن أنا من أكون، للأتنى بالرعب، وهكذا، تعال، أساعدك على الصعود حيث تقول.

وخلال اللحظات التى توقف فيها دون كيخوتى كى يصعد سانشو شجرة الفلين، استولى فارس المرايا على المكان المناسب من ميدان المعركة طبقًا لما بدا له ضروريا، معتقدًا أن نفس الشىء يفعله دون كيخوتى، ودون انتظار دقات الطبول أو أى إشارة أخرى، شد عنان فرسه (والذى لم يكن أخف من روثينانتى، ولا ذا مظهر أفضل)، ورمحه بأقصى سرعة، وكان رمحًا متوسطًا، ومضى لملاقاة عدوه، لكن عندما رآه مشغولاً برفع سانشو لصعود الشجرة، أوقف الجواد فى منتصف السباق، مما حدا بالجواد إلى أن يصبح له من الشاكرين، بسبب أنه لم يكن قادرًا بعد على الحركة. دون كيخوتى، الذى بدا له أن عدوه قادم فى طيران، ربت بمهاميزه على جانبى روثينانتى ومضى ينخزه بها نخزًا بطريقة، تحكيها القصة، حتى إن هذه كانت المرة الوحيدة التى لا بد أن قد حدث شىء، إذ جرى بشىء من السرعة، ففى كل المرات كان يرمح رمحًا بطيئًا، هكذا بهذا الحماس لروثينانتى الذى لم يسبق أن رؤى مثله اقترب من فارس المرايا الذى كان يطعن جواده بالمهاميز حتى الأزرار، دون أن يستطيع الحركة ولو مسافة إصبع، وبقى حيث أوقفه من قبل فارسه. فى هذا الوقت السانح، والقيد الذى وقع فيه العدو قابل دون كيخوتى خصمه مهمومًا بجواده، ومشغولاً برمحه، الذى لم يصب قط أن يشرعه. دون كيخوتى، الذى لم يلاحظ هذه العقبات، ودون أى خطر، التحم بفارس المرايا بقوة عارمة، حتى جعله يسقط على الأرض من فوق فخذى جواده، حيث فى هذه السقطة دون أن يحرك يدًا، أعطى دلائل على أنه ميت.

ومجرد أن رآه سانشو قد سقط، انزلق من فوق شجرة الفلين، وبكل السرعة لحق بسيده، الذى نزل من على روثينانتى، وانحنى على فارس المرايا، وكشف عن وجهه، ليرى عما إذا كان حيًا أو ميتًا، وحتى يعطيه هواء للتنفس إذا كان

حيًّا. وهنا رأى... من يستطيع أن يقول ماذا رأى، دون أن يسبب تعجبًا وذهولاً وفزعًا لمن يسمعه؟ رأى، كما تقول القصة، الوجه نفسه، نفس الصورة، نفس الشكل، نفس الملامح، نفس المثال، نفس المنظور لنفس حامل البكالوريا كارَّاسكو، هكذا عندما رأى ما رأى قال في صرخات:

– تعال، سانشو، وانظر لما ينبغي أن تنظر إليه، ولن تصدق ما ترى، أيقظ نفسك، أيها الابن، واعلم بما يمكن للسحر، وما يستطيع السحرة الشريرون، وأصحاب الأعمال.

وصل سانشو، وكما كان الوجه لحامل البكالوريا كارَّاسكو، بدأ في التصليب مصليًا ألف مرة، وخلال كل هذا لم يعط المهزوم أى دليل على أنه حى . قال سانشو لدون كيخوتى:

– أنا من رأيي، بين نعم،و(لا)، أن تنجز فخامتكم سن السيف فى فم هذا الذى يشبه حامل البكالوريا شمشون كارَّاسكو، فلعلكم تقتلون فى شخصه ساحرًا من أعدائكم.

قال دون كيخوتى :

– لم تجانب فى قولك الصواب حتى نقلل من الأعداء.

واستخرج من الغمد سيفه حتى يضع نصيحة سانشو موضع التنفيذ، وهنا وصل تابع فارس المرايا، والآن دون الأنف، التى كانت تضفي عليه قبحًا شديدًا، وفى صرخات عالية قال:

– انظر، فخامتكم فيم تفعل، أيها السيد دون كيخوتى، فهذا الذى يتمدد تحت أقدامكم هو حامل البكالوريا شمشون كارَّاسكو، صديقك، وأنا خادمه.

وعندما رآه سانشو دون ذلك القبح الأول، قال له:

– والأنف؟

– إنها معي فى جيبى هنا.

أدخل سانشو يده فى يمين التابع، والتقط الأنف المعمولة من العجين والورنيش، وناظرًا إليه سانشو وبصوت متعجب وعال، قال له:

– يا للعذراء مريم ! يالله! أليس هذا تومى ثيثيال، جارى وصديقى؟

أجاب الخادم الذى غدا منزوع الأنف:

– يقينًا نعم، إنه أنا! إنَّه تومى ثيثيال، أيها الصديق والجار سانشو بانثا، وفى الحال أقول لك عن المقالب، والأكاذيب، والحيل التى حملتنى إلى هنا، وبناء عليه، أطلب، وأتضرع للسيد دون كيخوتى سيدك ألا يلمس، أو يسيء معاملة أو يجرح ملك الشطرنج الميت فارس المرايا، الذى هو تحت قدميه ، لأنه دون شك هو الجسور، وسيئ الرأى حامل البكالوريا شمشون كارَّاسكو، بلدياتنا.

وهم على هذا الحال، أفاق فارس المرايا، وما إن رأى ذلك دون كيخوتى، وضع فوق وجهه السن العارى لسيفه وقال له:

– ستكون الميت، أيها الفارس، إذا لم تعترف أن دولثينيا دل توبوسو، التى لا نظير لها، تتفوق على كاسيلديا دى بانداليا، وفوق هذا عليك أن تعد (إذا أبقتك تلك المعركة، وتلك السقطة حيًّا) بالذهاب إلى مدينة ألتوبوسو، وامثل بين يديها من طرفى، كى تفعل ما ينبغى بإرادتك، وفى نفس الوقت عليك

بالعودة والبحث عنى (وأثر أمجادى سوف يخدمك كدليل، وسوف يحملك حيث أكون) والقول لى عما حدث طبقًا لما بيننا من شروط قبل معركتنا، لا تخرج عن حدود الفروسية المشّاءة.

قال الفارس الصريع:

– اعترف أن الحذاء المفكك الخياطة القذر للسيدة دولثينيا، يساوى أكثر من اللحية سيئة التمشيط وإن كانت نظيفة لكاسيلديا، وأعد بالذهاب والعودة من لدنها إليك، وإعطائك حسابًا كاملاً وخاصًا حول كل ما تطلب.

أضاف دون كيخوتى:

– أيضًا عليك بالاعتراف والاعتقاد أن ذلك الفارس الذى هزمته، لم يكن، وما كان ممكنًا أن يكون دون كيخوتى دى لامانشا، وإنما كان آخر يشبهه، كما أعترف أنا وأعتقد، مع أنك تشبه البكالوريا شمشون كارّاسكو، فأنت لست هو، وإنما آخر يشبهه، وأنهم وضعوك أمامى فى صورته من هم أعدائى، حتى أتوقف ويعتدل غضبى، وحتى أستعمل فى لين قدرة انتصارى.

قال الفارس الصريع:

– أعترف بكل شيء، وأحكم وأحس بما تعتقد وتحكم وتحس، ودعنى أنهض، إذا كانت تسمح بذلك الضربة التى أحدثها سقوطى، حيث قصم ظهرى فعلاً.

ساعده دون كيخوتى على النهوض، لم يسقط سانشو عينيه عن تابعه، سائلاً له عن أشياء تخصه، حتى تصبح الإجابات علامات على أنه حقيقة هو تومى ثيثيال الذى يدعى، لكن الاعتقاد الذى أودعه فى سانشو سيده عن أن السحرة غيرت

صورة فارس المرايا إلى صورة حامل البكالوريا كارّاسكو، لم يدعه يصدق الحقيقة التى يراها بالعين. وأخيرًا بقيا مع هذه الخدعة سيدًا وخادمًا، أما فـــارس المرايـــا وتابعه، ففى حزن وكآبة تركا دون كيخوتى وسانشو، مع نية البحث عـــن مكـــان، حيث تدهن ضلوعه بالمراهم، وتجبر. دون كيخوتى وسانشو عادا لمواصلة الطريق نحو سرقسطة، حيث تتركهما القصة، حتى تكشف من كان فارس المرايـــا، وذلـــك الخادم المأنوف.

الفصل الخامس عشر

حيث ينكشف الغطاء وتحكى الأنباء عن فارس المرايا وخادمه صاحب الأنف الأنفاء

في رضا بلغ دون كيخوتي، الغاية فخورًا وممجدًا لبلوغه الانتصار على الفارس القوى كما كان يتخيل، فارس المرايا، وانتظر، بناء على كلمته الفروسية الإنجاز، وهكذا يعرف، ما إذا كان سحر سيدته مستمرًا، حيث كان إجباريًا أن يعود ذلك الفارس المهزوم، خشية عقوبة ألا يفعل، وذلك حتى يحكى عما حدث له معها. لكن كان تفكير دون كيخوتي في وادٍ، وتفكير فارس المرايا في وادٍ آخر، حيث لم يكن يفكر في تلك اللحظة في شيء سوى في مرهم لدهان ظهره، كما قيل. من ثَم، تقول الحكاية إنه عندما نصح حاملُ البكالوريا (شمشون كارّاسكو) دون كيخوتي بأن يواصل فروسيته المهجورة، كان لأنه توصل إلى شيء آخر مع القسيس والحلاق، حول أي سبيل يتخذ لقصر دون كيخوتي عما هو فيه، ليبقى هادئًا مطمئنًا في بيته، دون أن تزعجه مغامراته التي يضل سبيله في البحث عنها. وطبقًا لنصيحته تلك خرج بموافقة الجميع، وبرأى خاص من كارّاسكو، أن يتركوا دون كيخوتي يخرج، فقد كان من الواضح أن إيقافه مستحيل، وأن يخرج عليه كارّاسكو في الطريق كفارس مشّاء، ويفتعل معركة معه، حيث لم يكن تنقص الأسباب لمثل هذه المعركة، ثُم يهزمه فيها، باعتبار تصوره أنه صيد سهل، على أن يتعاهد معه، أنه في حالة هزيمة دون كيخوتي (المؤكدة حسب تصوره) عليه أن يبقى تحت أوامر وتعليمات المنتصر، وهنا يأمره الفارس (حامل البكالوريا) بالعودة إلى بيته وقريته، وألا يخرج منها في عامين، أو حتى أجل مضروب بينهما يأمره به، وما

كان واضحًا أن دون كيخوتى سوف ينجز فى حالة هزيمتـه، لا ريـب، حتـى لا يعارض ويتجاوز قوانين الفروسية، ومن الممكن خلال زمن حبسه عن الخروج أن ينسى أوهامه، أو يتم العثور على دواء مناسب لجنونه.

قبل المهمة كارًاسكو، وتطوع تومى ثيثيال ليلعب دور التابع، وهو صـديق وجار سانشو بانثا، وكان رجلاً مرحًا، فضوليًا. تسلح شمشون كما أشير إليه مـن قبل، وغطى تومى ثيثيال أنفه الطبيعى بأنف مصطنع وقناع على الوجه، كما سبق القول، حتى لا يعرفه صديقه سانشو عندما يراه، وهكذا واصلا نفس الرحلة التـى كان دون كيخوتى يقوم بها ، واقتربوا من أن يعثر أحدهما على الآخر عند مغامرة عربة الموت، وأخيرًا أدرك شمشون وتابعه دون كيخوتى فى الغابة، وحدث لهم ما قرأته فطنة القارئ. ولولا الأفكار غير العادية لدون كيخوتى، والتـى أفهمتـه أن حامل البكالوريا ليس هو حامل البكالوريا، لما استطاع السيد حامل البكالوريا قـط الحصول على الليسانس، بسبب أنه لم يجد عشًا واحدًا، حيث ظن أنه سوف يعثـر على عصافير. تومى ثيثيال، الذى رأى قبح ما انتهت إليه أمانيه، والغايـة الـسيئة التى حمله إليها الطريق، قال للسيد بكالوريا:

– **يقينًا لقد نلنا ما نستحق أيها السيد كارًاسكو؛ من السهولة بمكان التفكير فى أى مهمة والقيام بها، لكن كم هو صعب فى أغلب الأحوال الخروج منها بسلام. دون كيخوتى المجنون ونحن العاقلان، لكنه انصرف سليمًا يـضحك علينـا، وفخامتكم قد بقيت مطحونًا، وحزينًا. من ثَم، فلنعرف الآن من هو الأكثـر جنونًا، الذى هو مجنون لأنه لا يستطيع أن يكون غير ذلك، أم المجنون بإرادته؟**

وأجاب شمشون على هذا:

– **الفرق بين هذين المجنونين، هو أن المجنـون بالقوة سيظل مجنونـًا إلى الأبـد، والمجنون بمزاجه سيغادر الجنون عندما يحلو له.**

قال تومى ثيثيال:

- **فعلاً، الأمر كما تقول، وأنا كنت مجنونًا بإرادتى عندما رغبت أن أكون تابعًا لفخامتكم، وبنفس الإرادة أود ترك الجنون والعودة إلى بيتى.**

أجاب شمشون:

- **يمكنك فعل ذلك، لأن التفكير فى أن أعود لبيتى دون أن أطحن دون كيخوتى هو تفكير فى المستحيل، ولن تحملنى للبحث عنه الرغبة فى أن يستعيد عقله، إنما الرغبة فى الانتقام، فإن الألم الكبير لضلوعى لا يمكننى من رحمة التعقل.**

فى هذا سار الاثنان يتحادثان، حتى وصلا إلى قرية، حيث كان من الحظ الطيب العثور على (مجبراتى) للعظام؛ وبفضله شفى شمشون المنكود، وعاد تومى ثيثيال إلى قريته تاركًا إياه، وبقى يحلم بالثأر، والقصة سوف تعود للحديث عنه عندما يحين وقت الكلام عنه.

الفصل السادس عشر

عما حدث لدون كيخوتى مع فارس لامانشا الفطن

بكل فخار وسرور، كما سبق القول، واصل دون كيخـوتى يومـه، مفكـرًا بفضل النصر الذى حازه، أنه الفارس المشّاء الأقوى فى العالم فى ذلـك العـصر، واعتبر أن كل المغامرات التى يمكن أن تمر به منذ تلك اللحظة وما يليها سـوف تأخذ نهايات سعيدة وكان أمرًا مقضيًا. ولم يعر السحر والسحرة كبيراهتمـام كمـا كان يفعل، ولم يعد يتذكر ضربات النبابيت التى لا حصر لها، والتى أوقعوها بـه خلال مجريات فروسيته، ولا الرجم بالحجارة الذى أفقده نصف أسنانه، ولا جحود أشقياء سخرة الأسطول الملكى، ولا جرأة اليانجسيين ومطر العصى التى أنزلوهـا عليه، وأخيرًا، كان يقول لنفسه، إنه إذا عثر على الفن أو الطريق أو الحيلـة التـى يفض بها سحر سيدته دولثينيا، فلن يحسد أكثر فرسان العصور الماضية المـشائين على ما نال من حظ أكبر، ومضى كامل الانشغال بهذه الأفكار حين قال له سانشو:

– أليس طيبًا أننى أحتفظ حتى الآن فى مثول لعينىَّ بالأنف الهائل، والأكبر مـن نوعه لبلدياتى تومى ثيثيال؟

– وهل تعتقد، سانشو، بالصدفة، أن فارس المرايا هو شمشون كارّاسـكو، وأن تابعه هو صديقك تومى ثيثيال؟

أجاب سانشو:

– لا أدرى عما أقول بهذا الخصوص، فقط أقول إن كل الأمارات التى أعطانى إياها عن بيتى، وزوجتى وأولادى، لا يستطيع غيره معرفتها، والوجه بعد نزع الأنف، هو نفس وجه تومى ثيثيال، كما رأيته مرات غزيرة فى قريتى، فما يفصل بيتينا مجرد جدار، ونغمة صوته هى هى.

قال دون كيخوتى:

– فلنتكلم عن ذلك، سانشو، تعال هنا؛ أى اعتبار يحمل حامل البكالوريا شمشون كارّاسكو على أن يأتى فى هيئة فارس مشاء، مسلحًا بأسلحة هجومية ودفاعية للقتال معى؟ هل كنت بالصدفة عدوًا له؟ هل أعطيته مرة فرصة كى ينظر لى شزرًا؟ هل أنا خصمه المنافس؟ أو هو يمارس مهنة القتال حتى ينفس علىَّ الشهرة التى نلتها عبر ممارسة القتال؟

أجاب سانشو:

– ماذا نقول يا سيدى حول الشبه الأكبر بين هذا الفارس، كائنًا من كان، وبين حامل البكالوريا كارّاسكو، مثل شبه خادمه لتومى ثيثيال، صديقى؟ وإذا كان الأمر أمر السحر، كما قال فخامتكم، ألا يوجد غيرهما فى العالم حتى يمسخا فحسب على صورتيهما؟

أجاب دون كيخوتى:

– كله صنعة وغش من السحرة المشعوذين، الذين يطاردوننى، والذين عندما توقعوا أننى لا بد أن أكون الغالب فى الموقعة، احتاطوا بأن الفارس المهزوم

سوف يكشف عن وجه صديقي السيد بكالوريا، لأن الصداقة التى أكنها له سوف تعترض حدَّ سيفى، وصلابة ذراعى، وسوف تهدئ من غضب فؤادى، وبهذه الطريقة يبقون على حياة من جاء بالحيلة والتزييف لنــزع حياتى منى، وكدليل على ما تعرف من هذا، أوه سانشو! فإنه بالتجربة التى لا تــدعك تنخدع أو يكذبون عليك، ما أسهل بالنسبة للسحرة تحويل صورة وجه إلى صورة وجه آخر، صانعين من الحسن قبيحًا، ومن القبيح حسنًا، ومنذ يومين قد رأيت بعينيك هاتين حسن التى لا نظير لها دولثينيا ورشاقتها وهى فى حالة كمالها، واتساقها الطبيعى، وأنا رأيت القبح والضعة لفلاحة فظة، بماء أبيض على عينها، ورائحة عفنة من فمها. والآن، فإن الساحر المعادى الذى تجاسر على صنع هذا التحول البشع، أليس قادرًا على إعطــاء الوجــه صــورة كارّاسكو أو صورة صديقك، حتى ينــزع من يدى مجد الانتصار؟ لكن مع كل هذا، يعزينى انتصارى على عدو لى، مهما أخذ من صور.

أجاب سانشو:

– الله يعلم حقيقة كل شيء.

وكما كان يعرف هو أن مسخ دولثينيا كان حيلة منه وخدعــة، لــم ترضــه أوهام سيده، لكنه لم يحب أن يرد عليه، حتى لا تفلت منه كلمة تكشف خداعه له.

وبينما يتبادلان هذه العبارات أدركهم رجل كان خلفهم فى نفس الطريق، يــأتى على فرس بالغة الجمال زرزورية اللون، وكان يرتدى معطفًا مــن نــسيج أخــضر مطرز بالقطيفة الشقراء الداكنة، وقبعة من نفس القطيفــة، وعــدة الفــرس ريفيــة، والسرج بين البنى والأخضر، ويحمل خنجرًا موريسكيًا فى غمد عريض يتحزم بــه، لونه أخضر وذهبى، أما نعاله فهى من نفس جلد الحزام الغمدى، والمهاميز لم تكــن مذهبة، لكنها مطلية بطلاء أخضر، مصقولة ولامعة، ولتفاعلها مع باقى ألوان الملبس

بدت كما لو كانت من الذهب الخالص. وعندما حاذاهم، حياهم ذلك الفارس بأدب، ونخز الفرس، فتجاوزهم بمسافة، لكن دون كيخوتى قال له:

– أيها السيد الباسل، إذا كان فخامتكم تأخذ نفس طريقنا، ولا يهمك أن تسرع، فأنعم علينا بصحبتك.

أجاب راكب الفرس:

– فى الحقيقة ما كنت لأسبقكما لولا خوفى من اضطراب حصان فخامتكم من مرافقة فرسى.

أجاب سانشو على هذا:

– من الممكن جيدًا أن تطلق عنان فرسك، لأن حصاننا هو أشرف ذكر، طيب السمعة فى نظر كل الناس، ولم يرتكب قط أية حماقة فى مثل هذه المناسبات، ومرة تجاوز حدوده كي يفعلها، فدفعنا ثمن فعلته، سيدى وأنا سبع مرات أكثر من المطلوب. أقول مرة أخرى أن فخامتكم يمكنه التوقف لصحبتنا إذا أحببت، فإنهم حتى لو قدموها له على طبق لقاومها.

شد العابر العنان، متعجبًا من هيئة دون كيخوتى ووجهه، والذى كان يسير دون الخوذة (مكشوف الوجه)، التى يحملها سانشو على السن الأمامى للبردعة مثل حقيبة، وإذا كان رجل الأخضر ينظر كثيرًا لدون كيخوتى، فإن دون كيخوتى لم يترك النظر إلى فارس الأخضر، وقد بدا له رجلاً بحق وحقيق. وعمره يكشف عن خمسين عامًا، الشعيرات البيضاء لا تزال قليلة، والوجه لنسر، ونظرته بين المرحة والجادة، وأخيرًا مظهره يدل على الثراء، وما تصوره رجل الأخضر عن دون كيخوتى دى لامانشا، أنه لم ير قط رجلاً من قبل يماثله؛ أدهشه طول رقبته،

وجسامة جسمه، مع نحافة وجهه واصفراره، بجانب أسلحته، وإشـــاراته وهيئتـــه. صورة وشخص لم ير قط مثله أزمانًا طويلة فى تلك البلاد. لاحـــظ دون كيخـــوتى جيدًا الاهتمام الذى يوليه إياه العابر فى نظراته إليه، وقرأ فى دهشته رغبته، وكيف كان فى غاية الأدب والود الذى يعجب الجميع، وقبل أن يسأل عن شىء برز أمامه على الطريق قائلاً له:

– هذه الصورة التى رآها فخامتكم فى شخصى، لكونها جديدة جدا، وخارجـــة عن الشائع لصور الناس، فلن يدهشنى أنها أدهشتك، لكنك ستخرج مـــن دهشتك إذا قلت لك ما أقول الآن، فأنا فارس من هؤلاء الفرســـان، ممـــن تتحدث عنهم الركبان، فارس ممن إلى مغامراتهم يغدون دون توان.

خرجت من موطنى، ورهنت ممتلكاتى، وودعت دعة الحياة، وأسلمت نفسى لأحضان إلهة الحظ، حتى تحملنى إلى أبعد مراتب خدمتها. وددت إحياء الفروســـية المشاعة التى اندثرت، ومنذ أيام طويلة، متعثرًا هنا، وساقطًا هناك، ومكرسًا جهدى فى مكان، وناهضًا فى مكان أبعد، أنجزت شطرًا عظيمًا من أمنيتى، هارعًا لنجـــدة الأرامل، مسعفًا المتزوجات، واليتامى، والتلاميذ، ذلك العمل الأصـــيل والطبيعـــى للفارس المشاء، وهكذا استحققت المشى بهذه الصورة فى كل أو بين أغلـــب أمـــم العالم، محققًا أمجادى الباسلة الغزيرة النقية. وطبع من قصتى ثلاثين مجلدًا، وهـــى فى طريقها لأن تُطبع بالآلاف ثلاثين ألف مرة إن لم يرحم الله. وأخيرًا، حتى أقول كل شىء فى كلمات قليلة، أو حتى فى كلمة واحدة، أقول أنـــا دون كيخـــوتى دى لامانشا، الذى يحمل اسمًا آخر هو الفارس صاحب الصورة الحزينة، وحيث إنه لا يمدح نفسه إلا الشيطان، إلا أننى مضطر أحيانًا لمدح نفسى، عندما لا يوجـــد مـــن يحل محلى فى مدحى. وهكذا أيها السيد المقدام لعلمك مـــن أنـــا، والمهنـــة التـــى أمتهنها، لن تستطيع أن تندهش من الآن فصاعدًا بهذا الحصان، أو بذلك الرمح، أو بهذا الدرع أو حامله، ولا بكل هذه الأسلحة جميعًا، أو بصفار وجهى أو نحافته.

سكت دون كيخوتى منتهيًا من قول ذلك، أما رجل الرداء الأخضر فقد تأخر فى الرد عليه كما لو كان لا يملك ردًا، إلا أنه بعد فسحة من الوقت قال له:

– لقد أصبت، يا سيدى الفارس، فى كشف رغبتى من دهشتى، لكنك لم تصب نزع عجب أن رأيتكم، كما قلتم عن أنه بمعرفة فخامتكم لن أعجب ، ولم يحدث الأمر هكذا، فقد بقيت مندهشًا ومتعجبًا. كيف يكون ممكنًا أن يوجد الآن فى العالم فرسان مشاءون، وأنه توجد قصص مطبوعة لفرسان مشائين حقيقيين؟ لا أستطيع إقناع نفسى أنه فى العالم يوجد الآن من ينجد الأرامل، ويحمى الصبايا، ويكرِّم المتزوجات، ويؤوى اليتامى. لم يكن ممكنًا أن أصدق ذلك لولا أن رأيتك بعينى. بوركت السماء، حيث توجد تلك القصة، التى تتحدث عنها فخامتك، ومطبوعة، عن فروسيتك الرفيعة والحقيقية، التى مسحت القصص التى لا تحصى عن فرسان مخترعين، كان العالم مليئًا بهم، حيث صارت تلك القصص ضد العادات الطيبة، وضد صالح القصص الطيبة وتصديقها.

أجاب دون كيخوتى:

– هناك الكثير مما يقال فى صالح أن تلك القصص مخترعة أو أنها ليست بتاريخ للفرسان المشائين.

قال الأخضر:

– إذن، هل يوجد من يشك فى أن تلك القصص غير مزيفة؟

أجاب دون كيخوتى:

– أنا أشك، ولنترك الأمر عند هذا، وإذا طالت صحبتنا اليوم، آمل فى توفيق الله أن أفهم فخامتكم، بأنك قد أسأت عندما سرت مع التيار الذى يأخذ هذه القصص مأخذ العمل الخيالى، وكأن ذلك الأمر الأكيد.

عند تلك العبارة الأخيرة لدون كيخوتى، أصابت العابر الهـواجس مـن أن دون كيخوتى مخبول العقل، وانتظر ما يصدر عنه بعد ذلـك حتـى يؤكـد تلـك الهواجس. لكن قبل التسلى بحوار آخر، رجاه دون كيخوتى أن يحدثه عـن نفسه وعمن يكون، حيث قد سبق وعرفه بنفسه، حاكيًا له شطرًا من فروسيته وحياتـه، وعلى هذا أجاب صاحب الرداء الأخضر :

– أنا، أيها الفارس صاحب الصورة الحزينة، أحد أعيان قرية نحن فى الطريق إليها لنأكل معًا اليوم، إذا شاء الله. وأنا ثرى أكثر من المتوسـط، واسمـى دون دييجو دى ميراندا، أقضى حياتى مع زوجتى وأبنائى وأصدقائى، وأمـارس الصيد فى البر والبحر، لكنى لا أقتنى صقرًا ولا كلب صيد، وإنما الأليف من الطير، أو الشقى من الحيوان الأليف. عندى حوالى ست دستات من الكتب، بعضها لقصص الرومانث، والآخر باللاتينية، مع بعض كتـب التـاريخ أو الدين، أما كتب الفروسية فلم تعبر حتى الآن عتبات دارى؛ أتصفح كتـب الدنيا أكثر من كتب الدين، فهى تسلية شريفة، تلذ بلغتها، وتعجب وتدهش بإبداعها، مع أن مثل تلك الكتب قليلة فى إسبانيا. أحيانًا آكل مع أصدقائى وجيرانى، ومرات كثيرة أدعوهم لطعامى؛ فهم ضيوف النظاف الطـاهرين، وليسوا بالمعدمين، فأنا لا أحب النميمة، أو تفحص حياة الآخرين، ولـست بالبصير بأعمالهم، وأحضر صلاة كل يوم، وأتقاسم ثروتى مع الفقراء، دون التفاخر بالبر، حتى لا أفتح بابًا للنفاق والتباهى فى صدرى، وهمـا عـدوان يسيطران فى يسر على أكثر القلوب احتراسًا، وأحاول أن أقيم السلام بـين من أعرف من المتنازعين، وأنا مخلص لسيدتنا العذراء، وأثق دائمًا فى الرحمـة اللانهائية لله ربنا.

كان سانشو فى غاية الانتباه لحكاية حياة وتسلية الأخضر، وبدت لـــه طيبـــة وقدسية، ومن يحياها لابد أن تكون له كرامات، وهكذا قفـــز مـــن فـــوق حمـــاره، وسريعًا أمسك بركابه الأيمن، وبقلب مخلص، وتقريبًا بدموع تطفر من عينيه، قبل قدمه مرة بل مرات. وعندما رأى ذلك فارس الأخضر سأله:

– ماذا تفعل أيها الأخ؟ ما هذه القبل؟

أجاب سانشو:

– دعنى أقبل الأقدام، لأنه يبدو لى أن فخامتكم أول قديس أراه على فـــرس فى كل أيام حياتى(*).

قال الرجل الأخضر:

– لست قديسًا، إنما أنا آثم كبير، أما أنت، أيها الأخ، نعم، لابد أن تكون طيب القلب، كما توحى بذلك بساطتك.

عاد سانشو ليستقر فوق بردعة حماره، وكان يود أن تجلجل ضحكته لمشهد التأثر الشديد على وجه سيده، والذى سبب عجبًا جديدًا لـــدون دييجـــو. ســـأله دون كيخوتى عن عدد أولاده، وقال له إن واحدة من الأشياء التى تحدث عنها الفلاســـفة القدماء، الذين كانت تنقصهم المعرفة الحقيقية بالله، أن زينة الحياة الدنيا فى الصحة الجيدة والمال، والبنين الطيبين، والأصدقاء الكثيرين.

(*) لا يوجد قديس حى، حيث يتم تنصيب القديسين بعد موتهم بزمن، وكل ما يحتاج رؤيته من القديسين تماثيلهم فى الكنائس، دون أن يكون هناك قط أى تمثال لقديس على جواد. ومن هنا نفهم بساطة سانشو، فالقديس سواء كان تمثالاً أو حيًا، هو حى بالنسبة إليه، ولذا، فهذا أول قديس على حصان. وهنا نكتة!

أجاب القروى الأخضر الرداء:

- أنا أيها السيد دون كيخوتى، عندى ولد، لو لم أرزق به، ربما حكمت علىَّ بأننى أسعد مما أنا عليه، وليس لأنه شرير، بل لأنه ليس بالجودة التى أحبها. عمره حوالى ثمانية عشر عامًا؛ قضى ستة منها فى سلمنقة، فى دراسة اللغة اللاتينية واليونانية؛ وعندما أحببت أن يدرس علومًا أخرى، وجدته منغمسا فى الشعر (إذا كنا يمكن أن نسميه علمًا)، الذى لا يمكن مقارنته بعلم القانون، الذى كنت أود أن يدرسه، كما لا يمكن أن يقارن بملك العلوم، وهو علم اللاهوت. كنت أود أن يكون تاج سلالة أسرته، حيث إننا نعيش فى زمن يقدم فيه ملوكنا بسخاء جوائز للآداب الفاضلة والجيدة، لأن آدابًا دون فضل هى لآلئ فى مزبلة. وطول اليوم، يقضى وقته فى التحرى عن بيت قاله هوميروس فى الإلياذة، وهل مارسيال كان أمينًا؟ أو لا فى ذلك الهجاء؟ وهل تفهم تلك الأبيات لفرجيل بهذه الطريقة؟ أو بالأخرى؟ فى النهاية، كل حواراته حول تلك الكتب لهؤلاء الشعراء، وحول كتب هوراسيو، وبرسيو، وجوفنال، وتيبولو، ولا يعير شعراء الرومانث المحدثون أى انتباه، ومع كل الود المفقود الذى يبرزه نحو الرومانث، يكاد يستهلك فكره الآن توشيح أربعة أبيات أرسلوها له من سلمنقة، وأظن أنها من ذلك الأدب الخالص(*).

(*) فعل glosar واسم glosa بالإسبانية يعنى نوعًا من الفن الشعرى، لا شك أن له أصولا أندلسية، ويشبه فن الإجازة عند العرب، وفن الإجازة يبدأ الشاعر بشطر أو بيت ويكمل عليه، بينما فن الـ glosa يبدأ الشاعر بعدد من الأبيات ذات الوزن الواحد، ويؤلف قصيدة مقطوعية تنتهى كل مقطوعة منها بأحد هذه الأبيات متبعة وزنه، وبهذا يعد هذا البيت خرجة أو قفلًا=

على هذا أجاب دون كيخوتى:

- الأبناء، أيها السيد، هم قطع من أحشاء آبائهم، وهكذا يجب حبهم، سواء أكانوا طيبين أم أشرارًا، مثل حبنا للروح التى تهبنا الحياة. ودور الآباء دفعهم منذ الطفولة فى طريق الفضيلة، والتنشئة الطيبة، والعادات الصالحة والتقية، حتى يصيروا عكاز الأبوين فى شيخوختهما، ومجدًا طريفًا يمتد بعد المجد التليد، أما إجبارهم على دراسة هذا العلم أو ذاك لا أراه مصيبًا، مع أن إقناعهم لن يكون ضارًا، وعندما لا تكون الدراسة واجبة عليهم من أجل أكل العيش، لكون الدارس محظوظًا، لأن السماء أعطته آباء يتركونه يفعل ذلك، سيكون، طبقًا لرأيى، عليهم تركه أن يمضى فى دراسة العلم الذى يرونه يميل إليه أكثر، ومع أن الشعر أكثر لذة وأقل جدوى، إلا أنه ليس من الأسباب التى اعتادوا رؤيتها ضد المروءة والشرف لمن يمتهنه. والشعر، أيها السيد الشريف، حسب رأيى، مثل فتاة رقيقة، صبية وجميلة إلى أقصى أطراف الجمال، عند من يهتمون بإغناء الفتيات الأخريات وجلوهن وتزيينهن، اللائى هن العلوم الأخرى، وهى عليها أن تخدم جميع الفتيات، وجميعهن عليهن أن يفرضن سلطانهن عليها، لكن هذه الفتاة لا تحب أن يتلفوها، ويجرجروها إلى الشارع، ولا أن يشهروها على النواصى بالميادين أو أركان القصور. إنها مصنوعة من الكيميا ذات هذه الفضيلة، حتى إن من يعرفها يحولها إلى ذهب بالغ النقاء ذى ثمن لا يقدر بمال، وعلى من يمتلكها أن

= من فن توشيحى. وسوف يأتى مثال لذلك فى الفصل الثامن عشر، المهم أن ذلك سبب ترجمتى له بتوشيح.

يتركها تبرق، ولا يدعها تجرى فى الهجاء الأحمق، أو السونيتات الخالية من الروح، وألا تكون قابلة للبيع بأى شكل، إذا لم تأخذ شكل القصائد البطولية، أو التراجيديا الحزينة، أو الكوميديا المرحة ذات الحيل الفنية، كما لا يجوز أن تترك للتعامل مع الأوغاد والجهلة من العامة الخشنين، غير القادرين على فهم الكنوز المرصودة فى داخلها. ولا تفكر، يا سيدى، أننى هنا أسمى عامة من هم متدنون أو أسافل الناس المتواضعون الحال، إنما أطلقها على من لا يعرف حتى لو كان سيدًا أو أميرًا، فهذا يمكن أن يدخل فى عداد العامة الخشنين بل يجب أن يكون أحدهم. وهكذا، الذى يتعامل مع الشعر أو يمتلكه بتلك الشروط التى ذكرتها سيكون مشهورًا فى كل أمم العالم المتحضرة ومقدرًا . وبالنسبة لما تقول، يا سيدى، عن أن ابنك لا يقدر كثيرًا شعر الرومانث، فإننى أفهم أنه لم يصب كثيرًا فى ذلك، والسبب هو أن هوميروس العظيم لم يكتب باللاتينية، لأنه كان إغريقيًا، وفيرجيل لم يكتب بالإغريقية، لأنه كان لاتينيًا. باختصار، كل الشعراء القدماء كتبوا باللغة التى رضعوا لبنها، ولم يذهبوا للبحث عن لغات أجنبية كى يكشفوا عن سمو مفاهيمهم، ولكون ذلك كذلك، فهمت كل الأمم تلك العادة، فلا يفقد التقدير الشاعر الألمانى لأنه يكتب بلغته، ومثله الإسبانى، بل والبيثكايينى إذ يكتب بلغته. لكن ابنك(حسبما أتصور أنا يا سيدى) لا بد أنه ليس مفتقدًا للتقدير نحو شعر الرومانث، بل نحو شعرائه، دون امتلاك لغات أخرى، أو علوم أخرى تزين وتوقظ وتساعد مواهبهم الطبيعية، ومع ذلك فمن الممكن أن يكون فى ذلك خطأ، لأنه طبقًا للرأى الصحيح، الشاعر يولد، أى أنه يخرج من بطن أمه، شاعرًا بالطبيعة، وبذلك الميل الذى وهبته له السماء،

دون علم أكثر، أو حرفية فنية، فهو يؤلف أشياء تجعل ما قالـه (أوفيـديو) حقيقيًا: إنه يسير فى السحاب...إلخ أيضًا، أقول إن الشاعر الطبيعى الـذى يعين نفسه بالصنعة قد يكون أفضل بكثير من الشاعر الذى لمعرفته أصـول الصنعة أحب أن يمارسها، لأن الصنعة لا تتفوق على الطبيعة، وإنما تمنحهـا الكمال، وهكذا إذا خلطت الصنعة بالطبيعة، والطبيعة بالصنعة، سـيخرج عنهما الشاعر الأكمل. ومن ثَم، ختام حديثى، أيها السيد العين، عليك ترك ابنك يسير إلى حيث يناديه نجمه، ولكونه طالبًا مجتهدًا، وقد انتهى من معرفة أول حلقة فى العلوم لحسن الحظ، وهى حلقة معرفة اللغات، فإنـه سـوف يصعد بنفسه إلى قمة الآداب الإنسانية، والتى ستبرز سيماها عليه فى صورة الفارس الكامل المكمَّل، وهكذا سوف تزينه، وتكرمه وتعظم مـن شـأنه، وكأنها التاج على رأس الأسقف عند تنصيبه، أو إهاب القاضى علـى رأس محكمته. وفخامتك تناهض ابنك إذا نظم قصائد هجاء قد تلـوث شـرف الآخرين، وذلك بعقابه وتمزيقها له، أما إذا كتب قصائد جليلة على طريقـة هوراسيو، حيث يستنكر النقائص فى عمومها بشكل أنيق، فلتمنحه الثنـاء، لأنه مشروع أن يكتب الشاعر ضد الحسد، وأن يكيل الهجـاء فى أشـعاره للحاسدين، وهكذا لكل النقائص الأخرى، دون الإشارة إلى شخص بعينه، لكن يوجد شعراء، مقابل قولة شر، يتعرضون للنفى إلى جزر بونتو(*). وإذا كان الشاعر طاهرًا فى عاداته سيكون كذلك فى شعره، والقلم لسان النفس، مهما كانت المفاهيم التى تتولد فيها، ستكون كتابته مثلها، وعنـدما يـرى

(*) يشير إلى أوفيديو.

الملوك والأمراء علوم الشعر المعجزة فى أشخاص حصيفة، وفاضلة، وجادة، يكرموهم، ويقدروهم، ويثروهم، وأيضًا يتوجوهم بأوراق الغـار الـتى لا تطولها الصواعق، إشارة إلى أن من يتوج بها لن يطوله أذى أحد.

بقي فارس الرداء الأخضر مذهولاً من منطق دون كيخوتى، وملقيًا برأيـه عنه بأنه مخبول. لكن فى منتصف هذا الحديث، سانشو الذى لم يكن ما يقال داخلاً فى مزاجه، انحرف عن الطريق ليطلب قليلاً من اللبن من الرعاة الذين كانوا هناك يحلبون فى هذه اللحظة بعض الغنمات، وخلال ذلك كان الرجل العين يحاول تجديد الحديث، راضيًا إلى أقصى حد عن خطاب دون كيخوتى اللبق وحـسن التوجيـه، عندما رفع دون كيخوتى رأسه ليرى فى الاتجاه المعاكس لطريقهم عربـة قادمـة تغص بالأعلام الملكية، واعتقد أنها ينبغى أن تكون مغامرة جديدة؛ من ثَـم، نـادى على سانشو بأعلى صوته ليناوله الخوذة. وعند سماعه، غـادر سانـشو الرعـاة، وبكل السرعة التقط حماره، ووصل إلى سيده الذى وقعت له مغامرة مخيفة خاليـة من الصواب.

الفصل السابع عشر

حيث انكشفت النقطة الأخيرة والحدود القصوى لما وصلت واستطاعت الوصول إليه شجاعة دون كيخوتى فى مغامرة الأسود ذات النهاية السعيدة

تحكى القصة أنه عندما نادى دون كيخوتى على سانشو بصوت عـــال بـــأن يحضر له الخوذة، كان هذا يشترى بعض اللبن السرسوب من الرعاة، ومطـــاردًا بعجلة سيده الصارخة، لم يعرف ماذا يفعل باللبن وكيف يحمله، وحتى لايفقده بعــد أن دفع ثمنه، تذكر أن يصبه فى خوذة سيده، وبهذا الحل السعيد عاد ليـــرى مـــاذا يريد سيده، الذى بادره حال وصوله بقوله:

– أعطنى، يا صاحبى، هذه الخوذة، فأنا أدرى القليل عن القادم من المغـــامرات حيث أكتشف هناك واحدة منها قد تجبرنى على الدخول فيها، وعلى وضع أسلحتى على أهبة الاستعداد.

صاحب الرداء الأخضر، عندما سمع ذلك، مد بصره إلى كـــل الاتجاهـــات، ولم يكتشف شيئًا سوى عربة قادمة نحوهم، بعلمين أو ثلاثة أعلام صغيرة، أوحـــت له أن مثل هذه العربة لابد أن تكون حاملة أموالاً لجلالة الملك، وهكذا قال ما يظنه لدون كيخوتى، لكنه لم يصدقه، ظانًا ومعتقدًا دائمًا أن كل ما يحدث يجب أن يكون مغامرات، ومغامرات وراء مغامرات، وهكذا أجاب الفارس العين:

– الرجل اليقظ المتنبئ يكسب نصف المعركة قبل أن تبدأ المعركـــة، ولا تخيـــب لى نبوءة، فأنا أعرف بالتجربة أن لى أعداء مرئيين، وآخرين غير مرئيين، ولا أدرى متى أو أين، ولا فى أى وقت، أو فى أى صورة متقمصة، سوف يهاجموننى.

والتفت إلى سانشو، وطلب الخوذة، والذى لم يجد وسيلة لتفريغ اللبن منهـــا مضطرًا أن يسلمها له على حالها. تناولها دون كيخوتى، ودون أن ينظر لما كـــان داخلها، وضعها على رأسه فى غاية السرعة فانضغط السرسوب وانعـــصر وبـــدأ يجرى الشرش السائل على كل وجه دون كيخوتى ولحيته، مما أصـــابه بـــالفزع، وقال لسانشو:

– ماذا يمكن أن يكون هذا، الذى يبدو وكأن رأسى تذوب أو مخى يراق، أو أننى أتصبب عرقًا من القدمين إلى الرأس؟ وإذا كنت أعرق، فالحقيقة أنه ليس من الخوف، وإنما دون شك لا بد أن تكون المغامرة التى تريد الوقـــوع لى الآن مرعبة. أعطنى– إذا كان معك– شيئًا أنظف نفسى به، فإن العرق المغـــرق يعمى بصرى.

أعطاه سانشو منديلاً فى صمت، وأعطى معه إلى الله كل الحمد، لأن ســـيده لم يدرك الأمر. جفف دون كيخوتى نفسه، وخلع الخوذة، ليرى أى شىء ذلك الذى -حسبما رأى - كان يبرد رأسه، وعندما رأى تلـــك التخثـــرات البيـــضاء داخـــل الخوذة، قربها من أنفه، وعندما شمها، قال:

– وحياة سيدتى دولثينيا دل توبوسو إنها بقايا لبن سرسوب قد وضعتها هنا، أيها الخائن، الشقى، حامل الدروع سيئ المرأى.

وعلى هذا أجاب سانشو بفتور وانزواء:

– نعم إنه لبن سرسوب، أعطه لى فخامتكم لآكله، لكن ليأكله الشيطان الذى لا بد أنه هو الذى وضعه هنا. وهل كنت أجـــرؤ علـــى أن أصـــيب خـــوذة

فخامتكم بقذارة ؟ أوتراني أجرؤ! أقسم، يا سيدى، حسبما وصـــل علمـــى بإذن الله، أننى ينبغى أن يكون لى سحرة يطاردوننى باعتبارى من صـــنعكم وعضوًا من فخامتكم، وقد وضعوا فى الخوذة ذلك الشيء حـــتى يـــستفزوا غضبكم عن صبره، فتطحن ضلوعي كعادتك. حقًّا، لقد ضربوا فى الهـــواء هذه المرة، لأنى أثق فى رجاحة عقل سيدى، الذى كان لا بـــد أن يـــضع فى اعتباره أننى لا أحمل سرسوبًا أو لبنًا، أو أى شيء آخر نظيرهما، وإذا كـــان لدى مثل ذلك لوضعته فى معدتى بدلا من الخوذة.

أجاب دون كيخوتى:

– كل شيء ممكن.

كان العابر العين يتعجب من كل هذا، وخاصة بعد أن نظف دون كيخـــوتى رأسه ووجهه ولحيته والخوذة، ثم وضعها على رأسه، وثبت نفـــسه فـــى الركـــاب وطلب السيف وأمسك بالرمح، وقال:

– الآن فليأت ما يأتى، فأنا الآن بروح عالية للقتال مع الشيطان شخصيًّا.

وهنا وصلت عربة الأعلام، ولم يكن بها أحد غير الحوذى علـــى البغـــال، ورجل آخر فى مقدمتها. اعترضها دون كيخوتى، وقال:

– إلى أين تتجهان أيها الأخوان؟ وأى عربة هذه؟ وماذا تحملون بها؟ وأى أعلام تلك؟

وعلى هذا أجاب الحوذى:

– العربة ملكى، وما تحمله أسدان متوحشان فى أقفاص، يرسلهما الجنـــرال دى أوران إلى البلاط، هدية إلى صاحب الجلالة الملك، أما الأعلام فهى لمولانـــا الملك، علامة على أن العربة تحمل شيئًا يخصه.

سأل دون كيخوتى:

– وهل الأسدان كبيران؟

أجاب الرجل الذى يجلس فى المقدمة على باب العربة:

– كبيران جدًّا، فلم يرد إلى إسبانيا من إفريقيا آساد أكبر منهما قط، وأنا مروض الأسود، وقد روضت غيرهما، لكن مثلهما لم يقابلنى مطلقًا. وهما أنثى وذكر، والذكر فى هذا القفص الأول، والأنثى فى القفص الذى خلفه، والآن هما جائعان لأنهما لم يأكلا اليوم، وهكذا تنحَّ فخامتكم عن الطريق، فإنه من الضرورى أن نسرع إلى حيث نقدم لهما الطعام

وعلى هذا أجاب دون كيخوتى، مبتسمًا قليلاً:

– أسدان ضدى؟ ضدى أسدان، وفى هذه الساعات؟ إذن، بالله، ينبغى أن يرى هؤلاء السادة الذين أرسلوهما، إذا كنت ذلك الرجل الذى يفزع من الأسود. ترجل، أيها الرجل الطيب، حيث إنك مروض الأسود، وافتح هذين القفصين، وادفع هذين الوحشين إلى الخارج، وفى وسط هذه الحملة سوف أعرفهم من هو دون كيخوتى دى لامانشا، على الرغم من السحرة الذين أرسلوهما إلى.

قال فى هذه اللحظة العابر العين ذو الرداء الأخضر:

– يا الله، إن البشائر تقول من هو فارسنا الطيب؛ إن السرسوب سرسب رأسه وأنضج مخه.

اقترب منه سانشو عند ذلك، وقال له:

- سيدى، بحق الله، لتجد فخامتكم طريقة تجعل سيدى لا يقاتل هذين الأسدين، فلو فعل سوف يمزقاننا إربًا إربًا.

أجاب العين:

- إذن، سيدك مجنون إلى هذا الحد، حتى تخشى وتظن أنه سوف يقاتل هذين الحيوانين المتوحشين؟

قال سانشو:

- ليس مجنونًا، بل جسورًا.

أجاب العين:

- سأعمل على ألا يقع هذا.

واقترب من دون كيخوتى وهو يستعجل المروض أن يفتح القفصين، وقال له:

- أيها السيد الفارس، الفرسان المشّاءون يدخلون المغامرات التى تعدهم بالخروج منها منتصرين، وليست تلك التى تنزع منهم تمامًا أى أمل فى الانتصار، لأن الشجاعة التى تدخل فى عداد التهور، تتسم بالجنون أكثر من اتسامها بالقوة. وبالأخص فإن هذين الأسدين لم يأتيا ضد فخامتكم، ولا يحلمان بذلك، فهما هدية لجلالة الملك، وليس من الطيب إيقافهما أو إعاقة رحلتهما.

أجاب دون كيخوتى:

- فلتذهب أيها السيد الشريف إلى طيورك الأليفة وحيواناتك الشقية، ودع كل واحد يمارس ما يخصه. تلك معركتى، وأنا أعرف إذا كانا يأتيان ضدى أو لا. هذان السيدان الأسدان.

والتفت إلى المروض، وقال له:

- أقسم أيها السيد السافل، إذا لم تفتح فى الحال القفصين، فإنى سأزرعك بهذا الرمح فى العربة.

عندما رأى الحوذى عزم هذا الشبح المسلح، قال له:

- سيدى، بوركت، ومن باب البر، اتركنى أحل البغلتين، وأنجو بنفسى معهما قبل إطلاق الأسدين،لأنهما لو قتلاهما لى أضعت كل حياتى، فليس لى من ثروة غيرهما وغير هذه العربة.

أجاب دون كيخوتى :

- أيها الرجل قليل الثقة! اهبط وفك بغلتيك، وافعل ما شئت، وبسرعة سترى أنك فعلت ذلك عبثًا، وكان يمكنك توفير جهدك.

هبط الحوذى، وفك البغلتين بأسرع ما استطاع، وقال مروض الأسود بصوت مرتفع:

- لتكونوا جميعًا شهودًا، يا من أنتم هنا، إننى أفتح القفصين ضد إرادتى، ومجبرًا أطلق الأسدين، وعلى ذلك أحتج على هذا السيد، وإن كل شر أو ضرر ترتكبه هاتان الدابتان سيجرى ويكون على مسئوليته، وفوق ذلك مرتباتى وحقوقى. فخامتكم، أيها السادة، فلتحتاطوا قبل أن أفتح، لأنهما لن يسببا لى ضررًا شخصيًّا كما أنا واثق.

ومرة أخرى أغراه العابر العين ألا يرتكب مثل هذا الجنون، وأن فعل هذا الهراء ضلال لطريق الله، وعلى هذا أجاب دون كيخوتى أنه يعرف ما يفعل، وأجاب العين أن عليه أن يتروى جيدًا، فهو يدرك أنه يخدع نفسه. رد دون كيخوتى:

– والآن، يا سيدى، إذا كان فخامتكم لا تريد أن تكون شاهدًا على هذا الذى حسب رأيكم لابد أن ينتهى إلى مأساة، التقط فرسكم، وإلى النجاة.

عند سماع سانشو هذا، رجاه، والدموع فى عينيه، التنازل عن هذه المهمة، والتى بالمقارنة معها تعد مغامرة طواحين الرياح، ومغامرة مطارق النسيج حلوى وفطائر، وأخيرًا كل ما ارتكب من أمجاد لا شىء أمام هذا الخطر. ردد سانشو:

– انظر، سيدى، هنا لا يوجد سحر أو ما يناظره، فقد رأيت من بين قضبان القفص ظفر أسد حقيقى، وأستنتج منها أن مثل هذا الأسد هو صاحب هذا الظفر، وهو أكبر من جبل.

أجاب دون كيخوتى:

– الخوف سوف يظهره لك، على الأقل، أكبر من نصف العالم. انسحب، سانشو، واتركنى، وإذا مت فأنت تعلم اتفاقنا القديم، فسوف تهرع إلى دولثينيا، ولن أقول لك ما هو أكثر.

ولهذا أضاف عبارات أخرى، بها نزع الأمل فى أن يترك الاستمرار فى هذا العزم الأكيد. أحب صاحب الرداء الأخضر أن يوقفه بالقوة، لكنه وجد نفسه لا يعادله فى السلاح، ولم يجد من الذكاء مقاتلة مجنون، كما بدا له دون كيخوتى بكل سبيل. وهذا عاد لاستعجال المروض مكررًا تهديده له، والعابر خلال ذلك نال فرصة امتطاء فرسه، وامتطى سانشو حماره، والحوذى سحب بغلتيه، محاولين جميعًا الابتعاد عن العربة بأقصى ما تبلغ بهم السرعة، قبل أن تنطلق الأسود. كان سانشو يبكى موت سيده، الذى كان يعتقده دون شك أمرًا أكيدًا فى مخالب الأسدين، ومضى يلعن حظه، ورأى أنها ساعة نحس تلك التى قرر فيها العودة لخدمته، لكن

ليس الندب أو البكاء كانا سببًا يمنعه من حث حماره على الإسراع بالابتعاد عن العربة. وعندما رأى المروض أن من كانوا يهربون قد ابتعدوا تمامًا، عاد ليعلن دون كيخوتى ويطلب منه ما سبق أن أعلنه وطلبه، والذى أجاب بأنه يسمعه، وأن ذلك لن يثنيه، فكل شيء سيكون مكسبًا محضًا، وليس عليه إلا أن يسرع.

وخلال الفترة التى استغرقها المروض فى فتح القفص الأول فكر دون كيخوتى أنه من الأفضل خوض المعركة راجلا من خوضها راكبًا، وأخيرًا قرر خوضها على قدمه، خوفًا من فزع روثينانتى من مشهد الأسدين. ولهذا أطلق الحصان، وأشهر الرمح، واحتمى بالدرع، وأخرج السيف من غمده، وخطوة وراء خطوة، فى رشاقة وزهو، وقلب قوى، راح ليضع نفسه أمام العربة، متوكلاً على الله من أعماق القلب ثم على سيدته. وعند معرفة وصوله إلى هذه الخطوة، مضى مؤلف هذه القصة الحقيقية يصيح عجبًا ويقول: "دون كيخوتى دى لامانشا، أيها القوى، والشجاع الغالى، أيها المرآة حيث يمكن أن يروا أنفسهم كل شجعان العالم، أيها الدون مانويل دى ليون الثانى والجديد، والذى كان فخارًا لكل الفرسان الإسبان! بأى كلمات سوف أحكى هذا المجد المخيف، وبأى عبارات أصوغها حتى تصدقها العصور القادمة، وأى ثناء يناسب أو يتسع لهذا، حتى لو صار مبالغة المبالغات؟ أنت على قدمك، أنت وحدك، أنت الجسور، أنت الأمجد، بسيف واحد فقط، وليس من السيوف القاطعات الكلبية،(*) وبدرع ليس شديد اللمعان أو جيد صقل الصلب، ها أنت تنتظر لتعالج الأسدين المتوحشين، اللذين لم تنشئ الغابات الإفريقية مثلهما قط. أفعالك نفسها هى التى تثنى عليك، أيها المانشاوى الشجاع، وأتركها عند هذه النقطة حيث تنقصنى الكلمات التى بها أغلى من قيمتها".

(*) سيوف عريضة تحمل ماركة على صورة كلب.

هنا وقفت صيحة تعجب المؤلف، ومضى إلى الأمام مستأنفًا خيط القص قائلاً: وعندما رأى مروض الأسود دون كيخوتى، وقد أخذ وضع القتال، لم يستطع تجنب إطلاق الأسد الذكر، تحت احتمال وقوع الفارس الغاضب الجسور فى نكبة، ففتح باب القفص الأول على مصراعيه، حيث كان، كما سبق القول، الأسد الذكر، والذى بدا فى حجم عظيم غير عادى وهيئة مخيفة وقبيحة. أول ما فعل هو الاضطراب داخل القفص، حيث كان مخلبه مشهرًا وممتدًا، ثم تمطى بكلِّيَّتِه، وفتح فمه بعدها وتثاءب ببطء شديد، وتقريبًا بشبرين من لسانه أخرجهما من فمه ومسح عينيه، وغسل وجهه، وعندما انتهى من ذلك أخرج رأسه من القفص، ونظر فى كل اتجاه بعينين صارتا جمرتين، مرأى وإشارة كى يبث الخوف فى الشجاعة نفسها. فقط دون كيخوتى، كان ينظر إليه فى تيقظ، راغبًا فى أن يقفز من العربة، حتى يقع بين يديه ليمزقه إربًا.

حتى هنا، وصل إلى الطرف النهائى لجنونه الذى لم يُر مثله قط. لكن الأسد الكريم، المهذب أكثر منه المتغطرس، والذى لا يعير الصبيانيات ولا الشطحات أى انتباه، بعد أن نظر هنا وهناك، كما سبق القول، أعطى ظهره، وأبرز عجيزته لدون كيخوتى، وبفتور عظيم ووداعة ألقى بنفسه فى القفص، وعندما رأى ذلك دون كيخوتى، نادى على المروض حتى يضربه بسوطه، كى يستفزه للخروج.

أجاب المروض:

– هذا لن أفعله أنا، لأننى لو استفززته، الأول الذى سوف يمزقه هو أنا نفسى. وفخامتكم، أيها السيد الفارس، يجب أن ترضى بما وقع، فهذا كل ما يمكن أن يقال عن جنس الشجاعة، ولا حاجة لإغراء الحظ من جديد. الأسد أمامه الباب مفتوح، وفى يده الخروج أو عدم الخروج، وهو لم يخرج حتى الآن مع ذلك، ولن يخرج طول اليوم. وجسارة قلبكم العظيمة تم إظهارها، ولا يوجد

أى مقاتل باسل (حسب علمى) مضطر إلى أكثر من تحدى عدوه، وانتظاره فى حملة، وإذا العدو لم يهرع للقتال، فعليه يبقى العار، والمنتظر يكسب تاج الانتصار.

أجاب دون كيخوتى:

– هذا حق، أغلق، أيها الصديق، الباب، واشهد بأفضل ما تستطيع عما رأيتنى أفعله هنا، فمن المناسب أن يعرفوا كيف فتحت أنت الباب، وأنا انتظرته، وهو لم يخرج، وعدت لانتظاره، وعاود عدم الخروج، ثم اتكأ على أرض قفصه. ليس علىَّ أكثر من ذلك، وكل السحر أخذه الشر وطار، والله المستعان على الحق والصدق، وعلى الفروسية الحقيقية، وأغلق الباب كما قلت لك، وخلال ذلك أرسل إشارات إلى الهاربين، كى يعرفوا من فمك هذا الفعل الماجد لى.

وهكذا كان من المروض ومنه، الأول أغلق الباب، ودون كيخوتى رفع المنديل(الذى مسح به الوجه من مطر السرسوب) فوق رمحه، وبدأ فى مناداة الذين لم يتركوا طريق الهرب، ولم يتركوا أيضًا الالتفات خلفهم فى كل خطوة، وكل فى فريق يقوده العين الأخضر؛ لكن سانشو رأى فى المنديل الأبيض فوق الرمح إشارة سيده، فقال:

– فلتقتلونى، إذا لم يكن سيدى قد تغلب على الدابتين المتوحشتين، فها هو ينادينا.

توقف الجميع، وعرفوا أن من يرسل الإشارات هو دون كيخوتى الذى كان ينادى عليهم. وأخيرًا، عادوا إلى العربة، وعند عودتهم قال دون كيخوتى للحوذى:

– عد أيها الأخ لربط بغلتيك بالعربة، ولمواصلة رحلتك، وأنت سانشو أعطه دينارين من الذهب، من أجله، ومن أجل المروض، تعويضًا عن إيقافى لهما.

أجاب سانشو:

– سأدفع ذلك بكل رضا، لكن، ماذا فعل الأسدان؟ هل هما ميتان أو حيان؟

وهنا، قص مروض الأسود بتفصيل ووقفات نهاية الموقعة، مبالغا بأفضل ما استطاع، وبأفضل ما عرف من شجاعة دون كيخوتى، الذى جبن الأسد عندما رآه، ولم يحب ولم يجرؤ على الخروج من القفص، على الرغم من إعطائه فسحة كبيرة من الوقت مع باب القفص المفتوح، ولأنه قال لهذا الفارس، إنه إغضاب لله استفزاز الأسد حتى يخرج بالقوة، كما أراد هو أن يستفزه رغم أنفه، وضد كامل إرادته، وهنا سمح له أن يغلق الباب.

قال دون كيخوتى:

– كيف يبدو لك ذلك سانشو؟ هل هناك سحر له قيمة ضد الشجاعة الحقيقية؟ يمكن للسحرة أن ينزعوا عنى الحظ، لكن الجهد والشجاعة أمر مستحيل.

أعطى سانشو الدينارين، وربط الحوذى البغلتين، وقبل المروض يدَىْ دون كيخوتى لما أنعم عليه، ووعد أن يحكى هذا العمل الماجد للملك نفسه، عندما يراه فى البلاط.

– إذن، إذا سأل جلالة الملك كما يحتمل عمن فعل ذلك، قل له "فارس الأسود"، فمن الآن فصاعدًا، أحب أن أغير وأقايض وأبادل بهذا اللقب، ذلك اللقب الذى احتفظت به حتى الآن وهو "الفارس صاحب الصورة

الحزينة"، وبهذا أتبع العادة القديمة للفرسان المشّائين، الذين كـانوا يغـيرون أسماءهم عندما يريدون، أو عندما يطابق الاسم الجديد من أعمالهم.

واصلت العربة طريقها، ودون كيخوتى وسانشو وصاحب الرداء الأخـضر واصلوا هم أيضًا طريقهم.

فى كل هذا الفراغ من الزمان، لم ينطق دون دييجـو دى ميرانـدا بكلمـة واحدة، مع يقظة كاملة وملاحظة لأقوال دون كيخوتى وكلماته، وبدا له أنه ذكـى مجنون. أو مجنون ينشد التعقل. لم يكن وصل إلى علمه حتى تلك اللحظـة القـسم الأول من قصته، الذى لو كان قد قرأه لتوقف تعجبه من أفعاله وكلماته، من ثَم كان سيعرف نوع جنونه؛ ولكن حيث إنه لا يعرفه، أخـذه مأخـذ العـاقلين، ومأخـذ المجانين، لأن كلامه كان مصيبًا، وأنيقًا، وحسن المنطق، وما كان يعمل يدخل فى مجال الترّهات الجريئة والبلهاء. وكان يقول لنفسه:" أى جنون أكثـر مـن لـبس الخوذة مليئة بالسرسوب، مع تصور أن السحرة قد ألانوا أو أذابـوا رأسـه؟ وأى جسارة وبلاهة أكبر من الرغبة فى قتال الآساد عنوة؟

من هذه التصورات والحوار الداخلى مع الذات أخرجه دون كيخوتى، قائلاً له:

– من يشك، أيها السيد دون دييجو دى ميراندا، أن فخامتكم لا ترانى إلا رجل ترهات مجنون؟ وليس كثيرًا أن يصدق ذلك لأن أعمالى لا يمكن أن تـشهد بغير ذلك. ومع كل هذا، أحب أن تعلم فخامتكم أننى لست بهذا الجنون أو ذلك السفه، الذى لا بد أنه قد بدا لك. قد يبدو رائعًا أمام عيون مليكـه، فارس شجاع فى وسط حلبة كبيرة، يغرز فى حفل سـعيد رمحـه فى ثـور مصارعة، وها هو مسلح بأسلحة متلألئة، يهفهف بمنديله فى مبارزة بهيجـة

أمام السيدات، وقد يبدو منظر كل أولئك الفرسان رائعًا فى تمارينهم الحربية أو فى مظهرهم البادى، يسلون ويبهجون، وإذا أمكن القول، فهم يشرفون بلاطات أمرائهم، لكن فوق هؤلاء جميعًا يبدو الفارس المشاء، أفضل الذى عبر الصحارى، وعبر الوحدة والوحشة، وعبر معابر الطرق، وعبر الغابات، وعبر الجبال، يمشى باحثًا عن مغامرات خطيرة، بنية أن يصل بها إلى ذروة سعيدة وطيبة، فقط لنيل شهرة مجيدة وخالدة، وأقول يبدو أفضل، فارس مشاء ينجد أرملة فى قفر، من فارس بلاط يغازل صبية فى المدينة. وكل الفرسان لهم ممارستهم الخاصة، يخدم فارس البلاط السيدات، يحرس أبواب قصر مليكه، ويعين الفرسان الفقراء بالطبق الفضة على مائدته، وينظم المبارزات، ويعقد حلبات الألعاب، ويظهر العظمة والكرم والرفعة، تقى طيب قبل أى شىء، وبهذه الطريقة ينجز واجباته الدقيقة، لكن الفارس المشَّاء يبحث عن أركان الدنيا، ويدخل فى أكثر مناطق التيه تيهًا، يهاجم فى كل خطوة المستحيل، ويقاوم فى القفار غير المعمورة أشعة الشمس فى ذروة الصيف، والقسوة الصارخة للرياح فى الشتاء، مع الجليد، لا تخيفه الآساد، ولا ترعبه العفاريت أو الجن، وهكذا البحث عن هذا، ومهاجمة ذاك، والانتصار على الجميع بممارسته المبدئية والحقيقية. فأنا، إذن، كما ناسب حظى أن أكون فى عداد الفروسية المشَّاءة، لا أستطيع ترك خوض ذلك الذى يبدو لى داخلاً فى قانون مهنتى، وهكذا حدثت مهاجمة الآساد التى قمت بها الآن يحق لى وعلىَّ، رغم معرفتى أنه جسارة طائشة، لأنى أعلم جيدًا أن الشجاعة فضيلة موضوعة بين طرفين فاسدين هما الجبن والجسارة، لكنه أقل سوءًا أن الشجاع يلمس ويصعد ذروة الجسور، ولا يهبط أو يمس ذروة

الجبان، وهكذا فإن المبذر يمكن أن يصير كريمًا، لكن البخيل لا، ومثله الأسهل أن يكون الجسور شجاعًا حقيقيًّا، لكن الجبان لا يرقى إلى الشجاعة. وحول خوض المغامرات، صدقنى، دون دييجو، أنه أفضل أن تفقد أكثر من أن تفقد أقل، حيث يرن أفضل فى الأذن قولهم" هذا الفارس جسور ومقدام" من قولهم" ذلك الفارس هيَّاب وجبان".

أجاب الأخضر:

– أقول، أيها السيد دون كيخوتى، إن كل ما فعله أو قاله فخامتكم يمضى مستويًا مع صدق المنطق نفسه، وأنا أفهم أن كل تعليمات الفروسية المشاءة ومبالغاها، التى ضاعت، توجد فى صدر فخامتكم، كما لو كان نفس مستودعها وأرشيفها. وهيا نسرع، حيث يتأخر الوقت، ولنصل إلى قريتى وبيتى، حيث تستريح فخامتكم من العمل المنصرم، والذى إن لم يكن أرهق الجسم، فقد أرهق الروح، وهذا أمر تعود على الانعكاس على الجسم.

أجاب دون كيخوتى:

– أقبل العرض بكل امتنان للجميل، أيها السيد دون دييجو.

وحثوا الدواب ،أكثر مما فعلوا حتى تلك اللحظة، فوصلوا عند الثانية مساء إلى قرية وبيت دون دييجو، الذى أطلق عليه دون كيخوتى اسم الفارس ذى الثوب الأخضر.

الفصل الثامن عشر

ما حدث لدون كيخوتى فى بيت فارس الرداء الأخضر أو قلعته مع أشياء مما يستغرب

وجد دون كيخوتى بيت دون دييجو دى ميراندا واسعًا مثـل قريـة كاملـة، الأسلحة على باب الشارع، حتى لو كانت من الحجر الجيرى، ومستودع النبيذ فـى الفناء، والكهف عند البوابة، ودنان كثيرة فى صفوف دائرية، ولكونها مستوردة من التوبوسو، جددت ذكريات سيدته دولثينيا المسحورة فى تحول للصورة، وهكذا تنهد ودون أن يتأمل ما يقول، ولا أمام من كان، قال:

أوه، أيتها الدنان الحلوة، لقد وجدت لآلامى

حلوة، ومبهجة، عندما يشاء الله، أنت!

أوه، أيتها الدنان التوبوسية، التى استحضرت لذاكرتى الدرة الحلوة لمرارتى الكبرى.

سمعه يقول ذلك الدارس الشاعرابن دون دييجو، الـذى خـرج مـع أمـه لاستقباله، والأم والابن بقيا متعجبين من صورة دون كيخوتى، الذى عندما ترجـل عن روثينانتى مضى طالبًا يديها ليقبلها بأدب جم، وهنا قال دون دييجو:

– استقبلى، سيدتى، بترحيبك المعتاد، السيد دون كيخوتى دى لامانشا، والذى تحظين بمرآه أمامك، فارس مشّاء، وهو أشجع وأذكى من على وجه الأرض.

السيدة، والتى كانت تسمى دونيا كريستينا، استقبلته بدلائل حب كبير، وأدب كثير، ودون كيخوتى قدم لها فيضًا من الحكمة وعبارات المجاملة. ونفس العبارات تقريبًا استخدمها مع الدارس، الذى عند سماعه له رأى فيه ذكاء وحدة فطنة.

وهنا رسم لنا المؤلف كل ظروف بيت دون دييجو، مصورًا لنا فـي تلـك الظروف ما يحتويه بيت فارس مزارع، وثرى، لكن مترجم القصة بدا له تجاهـل هذه وتلك من التفاصيل الشبيهة، وصمت عنها لأنها لم تناسـب غـرض القـصة الرئيسى، تلك القصة التى تستمد قوتها من الحقيقة، أكثر من الاستطرادات الباردة.

أدخلوا دون كيخوتى فى إحدى الصالات، وخلع سانشو عنه سلاحه ، وبقـى فى سراويل فلمنكية، وصديرى من الجلد، فى غاية القذارة والتدهن بـسبب وسـخ السلاح، أما ياقاته التى انسدلت على كتفه من قميصه، فكانت طلابية غير مُنَـشَّاة، ودون تطريز، أما الحذاء فقد كان بلحى اللون، يلمع بغشاء من الشمع. تحزم بسيفه الصقيل، الذى كان ذا حمالة من جلد ذئب بحرى، يرون أنه بقى سـنوات كثيـرة مريضًا بالكليتين، وألقى على نفسه عباءة برقبة دون طرطور يغطى الـرأس مـن نسيج جيد بنى اللون. لكن قبل كل شىء، بخمس أباريق أو ست من الماء (هنـاك اختلاف فى حجم الأباريق) غسل رأسه ووجهه، وحتى انتهى ظل ماء الغسيل بلون الشرش، بفضل أطعمة سانشو الشهية وسرسوبه الذى طلى سيده باللون الأبـيض. وبالملابس المذكورة، وبكل ملاحة مستظرفة ورشاقة، خرج دون كيخـوتى إلـى صالة أخرى، حيث كان ينتظره الابن الدارس ليخبره أن المائـدة معـدة، وبـسبب وصول الضيف عظيم النبالة، السيدة دونيا كريستينا أحبت أن تظهر أنهـا تعـرف وتستطيع أن تدلل من يحلون على بيتها ضيوفًا.

وخلال فسحة الوقت التى كان يخلع فيها دون كيخوتى سلاحه، تمكـن دون لورنثو، وهكذا كان يسمى ابن دون دييجو، من أن يقول لوالده:

– ما تقول عن هوية هذا الفارس الذى أحضرته فخامتكم إلى البيت؟ فالاسـم والشكل والقول أنه فارس مشّاء، يذهلنى ويذهل والدتى.

أجاب دون دييجو:

- لا أدرى يا بنى ما أقول لك، فقط أستطيع القول إننى رأيته يقوم بأعمال أعظم مجنون فى العالم، وينطق بعبارات فى غاية الفطنة، تمسح وتزيل أثـــر أفعالــه. كلمه أنت، وقس نبض معرفته، فأنت ماهر الذكاء، واحكم عليه بين الفطنة أو البلاهة طبقًا للمنطق، ومع ذلك، كى أقـــول الحق، فأنا أراه مجنونًا قبـــل رؤيتى لعقله.

وبهذا ذهب دون لورنثو لتسلية دون كيخوتى، كما اســـتقر القـــول، وبـــين مسامرات أخرى، تبادلها كلاهما، قال دون كيخوتى لدون لورنثو:

- السيد دون دييجو دى ميراندا، والد فخامتكم، حدثنى عـــن المقـــدرة النـــادرة، والعبقرية التى تتمتع بها فخامتكم، وفوق كل شىء أن فخامتكم شاعر عظيم.

أجاب دون لورنثو:

- شاعر، من الممكن، لكن عظيم، ولا يرد على تفكيرك. والحقيقة أنـــى مغـــرم بالشعر كثيرا، وأقرأ الشعراء العظام، لكن ليس بالطريقـــة الـــتى يمكـــن أن تعطينى لقب "عظيم" الذى أطلقه علىَّ والدى.

أجاب دون كيخوتى:

- لا يبدو لى هذا التواضع سيئًا، لأنه لا يوجد شاعر دون أن يكـــون متغطرسًا، ويظن نفسه أعظم شاعر فى العالم.

أجاب دون لورنثو:

- لا توجد قاعدة دون استثناء، وقد يوجد الشاعر العظيم، دون أن يظن نفسه كذلك.

أجاب دون كيخوتى:

– قليل، لكن فخامتكم، أى أشعار بين يديكم الآن، كما قال لى والد فخامتكم، تتركك قلقًا ومتأملاً؟ فإذا كانت توشيحًا، فإننى أمتلك شيئًا من علل التوشيح، ويسعدنى معرفته، أما إذا كانت مسابقة أدبية، فحاول فخامتكم الحصول على الجائزة الثانية، لأن الجائزة الأولى هى فضل وامتياز شخص الإنسان نفسه، أما الثانية فهى مجرد العدل فى التحكيم، وهكذا فالجائزة الثالثة تكون الثانية، والأولى على هذا الحساب تكون الثالثة(*)، على الطريقة التى تمنح بها الشهادات الجامعية، لكن مع كل هذا إنه شخص عظيم من يحمل اسم الأول.

قال دون لورنثو لنفسه:

– حتى الآن، لا أستطيع أن أحكم عليه بالجنون، فلنواصل!

وهكذا قال له:

– يبدو لى أن فخامتكم قد درست بالمدارس، فأى علوم درست؟

أجاب دون كيخوتى:

– علم الفروسية المشّاءة، وهو علم فى جودة الشعر، بل أكثر جودة من الشعر بمسافة.

رد دون لورنثو:

– لا أدرى أى علم سيكون ذاك، فحتى الآن لم يصل إلى مسامعى ذكره.

(*) التعليم الجامعى ثلاث حلقات، ثالثتها الدكتوراه، وعلى هذا تميز الإنسان وهو الجائزة الأولى فى رأيه – يعادل الدكتوراه (والأولى على هذا الحساب تكون الثالثة)، حيث إن الثالثة تحل محل الأولى، فتصير الثالثة الثانية(تعادل أيضا الدكتوراه)... إلخ.

رد عليه دون كيخوتى:

- إنه علم يضم بداخله كل أو معظمها علوم العالم، حتى إن الذى يمارسه لا بد أن يكون فقيهًا فى القانون؛ وعالما بقوانين عدالة التوزيع والاجتماع، لكى يعطى لكل واحد ما يخصه وما يناسبه، كما ينبغى أن يكون عالم لاهوت، حتى يستطيع أن يرضى قانون التقوى الذى يمارسه بشكل واضح ومتميز، حيثما طلب منه ذلك، وعليه أن يكون طبيبًا، حتى يعرف وسط القفار والصحارى الأعشاب، التى لها ميزة شفاء الجروح، فليس له أن يسعى كل لحظة باحثًا عمن يعالجه، وينبغى أن يكون فلكيًا، حتى يعرف عن طريق النجوم كم ساعة مرت من الليل، وفى أى جزء أو مناخ من العالم يوجد، كما يجب عليه معرفة الرياضيات، لأنه فى كل خطوة ستنبثق حاجته إليها، وتاركين جانبًا ضرورة أن يتزين بكل فضائل الدين والأخلاق، هابطين إلى تفاصيل دقيقة أخرى، أقول إن عليه أن يعرف العوم، ويقولون إن نيكولاس أو نيكولاو(*) الإنسان السمكة كان يعوم، كما يجب أن يعرف تركيب حدوة حصانه، وترتيب سرجه وعنانه وعدته. وعائدين فى الصعود إلى ما سبق، عليه أن يحافظ على إيمانه بالله، وعلى وفائه لسيده، وعليه أن يكون طاهر التفكير، عفَّ اللسان، كريم الأعمال، شجاع الأفعال، يتحمل الجهد، يبر المضطرين، وأخيرًا، ألاَّ تأخذه فى الحق لومة لائم، حتى لو كلفه الدفاع عنه حياته. من كل هذه العناصر الكبرى والصغرى يتشكل الفارس المشَّاء، حتى ترى، فخامتكم دون لورنثو، عما إذا كان علمًا هينًا، ذلك الذى

(*) إنسان أسطورى نصفه سمكة، ينتمى لأساطير القرن الرابع، كان يعيش فى البحر أكثر من البر.

يدرسه الفارس ويمارسه، وعما إذا كان يمكن مساواته بما يدرس فى العلم والمدارس من علوم ذات اتساع.

أجاب دون لورنثو:

- إذا كان كذلك، فإنى أقول إنه يكسب كل العلوم الأخرى.

أجاب دون كيخوتى:

- كيف تقول إذا كان كذلك؟

قال دون لورنثو:

- ما أحب قوله إننى أشك أنه وجد أو يوجد فرسان مشّاءون بكل هذه الفضائل الغزيرة.

أجاب دون كيخوتى:

- مرات كثيرة قلت ما أعود لقوله الآن: إن معظم الناس فى العالم يقفون مع الرأى أنه لم يسبق وجود فرسان مشّائين فى ذلك العالم. وحسبما أرى إذا السماء لم توقع فى وعيهم بمعجزة معرفة حقيقة أنه وجد ويوجد، فإقناعهم يضيع سدى (كما أظهرته تجربتى مرات عديدة)، ولا أريد التوقف الآن لإخراج فخامتكم من الخطأ الذى تقع فيه مثل كثيرين، وما أفكر فى فعله هو التوسل للسماء أن تخرج منه، وتجعلك تعى كم هم كانوا مفيدين وضروريين للعالم هؤلاء الفرسان المشاءون فى العصور الماضية، وكم هم مفيدون فى الحاضر إذا مارسوا فروسيتهم، لكن ينتصر الآن بسبب آثام الناس الكسل والبطالة والشراهة والتدلل.

قال فى هذه اللحظة دون لورنثو لنفسه:

- **لقد هرب ضيفنا، لكن مع كل ذلك، هو مجنون باسل، وسأكون أنا مخبولاً ضعيفًا إذا لم أعتقد ذلك.**

وهنا أنهيا حوارهما، لأنهم نادوهما للطعام. سأل دون دييجوابنه عما استنتج بنظافة من عبقرية الضيف. وعليه أجاب:

- **لن يخرجه من مستنقع جنونه أفضل ما يحتوى العالم من أطباء وحكماء، إنه مجنون مختلط العقل مع لحظات متقطعة مضيئة.**

ذهبوا للطعام، وكان الطعام كما ذكر دون كيخوتى فى الطريق مما تعود تقديمه لضيوفه: طعام نظيف، وافر، شهى، لكن ما أسعد دون كيخوتى أكثر كان الصمت العجيب الذى يغمر كل البيت، حتى إنه كان يشبه دير رهبان كرتوزيين. وعند رفع المائدة، وحمد الله كل الحمد، الماء وانصاب يغسل اليدين، طلب دون كيخوتى بإلحاح من دون لورنثو أن يذكر الأشعار الأدبية له، فأجابه بأنه ليس من الشعراء الذين إذا رجوهم ترتيل أشعارهم رفضوا، وعندما لا يطلبونها يستفرغونها، سوف أذكر قصيدتى فى التوشيح، ولا أنتظر عليها جائزة، وفقط نظمتها لممارسة هواى الشعرى.

أجاب دون كيخوتى:

- **صديق لى ورجل ثقافة، كان رأيه أنه لا ينبغى إرهاق أحد فى نظم توشيح شعرى، والسبب، كما كان يقول هو، أن البيت الموشح لا يصل إلى الانسجام مع النص أو المقطوعة السابقة عليه أبدًا، وفى مرات كثيرة، بل فى أغلب المرات تخرج عملية التوشيح عن القصد الذى طلب من الوشاح الوصول إليه، وأكثر من ذلك فإن قوانين التوشيح كانت شديدة الصرامة،**

لا تحتمل المساءلة أو ترديد قال أو سأقول، ولا استعمال أسماء من الأفعـــال، ولا تغيير المعنى، مع قيود أخرى وتضييق، حتى إن من يوشـــحون يمـــضون مقيدين، كما تعرف فخامتكم.

قال دون لورنثو:

– حقيقة، أيها السيد دون كيخوتى، إنى لا أرغب أن أحمل فخامتكم إلى لاتينية ملحونة، ولا أستطيع، لأنها تنـــزلق من يدى مثل ثعبان الماء.

أجاب دون كيخوتى:

– لا أفهم ما تود فخامتكم قوله من (انزلاق) من يديك.

أجاب دون لورنثو:

– سوف أفهمك، والآن انتبه فخامتكم للأبيات التى سأوشـــحها ثم للتوشـــيح. الأبيات تقول:

(١) ويصير بذاتى "كان" إلى "يكون"

(٢) دون أن يكون هنا انتظار لـــ"يكون"

(٣) وإما أن الزمن يجىء

(٤) من القادم فيما بعد

التوشيح

فى النهاية، كل شىء يزول

وهكذا راح عنى الطيب الذى أعطانيه

الحظ وقتًا لم يكن بالقليل

فقط بعدها ما أعادنيه

ليس بوفرة وليس بقليل

عصورًا عصرًا بعد عصر تراني به

أيها الحظ أركع تحت قدميك (ذليل)

زمن المحظوظ أعدني له

فأصير إلى السعد والقبول

(١) ويصير بذاتي "كان" إلى "يكون"

*

لا أريد سرورًا آخر أو مجدًا

أو تصفيقًا أو غلبة

أو عزًا أو نصرًا

فقط أعد السعد والقبول

فلا يبقيان فحسب أثقال الذكرى

إذا أعدتني هناك

أيها الحظ، كم هو معتدل

كل صارم من نيراني

إذا عاد الطيب في الحال أكثر

(٢) دون أن يكون هنا انتظار"يكون"

*

أطلب أشياء مستحيلة

أن يعود الزمن"يكون"

بعد أن صار" كان"

لا يوجد فى الأرض سلطة

تمتد يداها إلى هذا البعيد

يجرى الوقت، يطير، يروح

فى خفة ولن يعود

وسوف يخطئ من يطلب

إما أن يذهب الزمن

(٣) وإما أن الزمن يجىء

*

الحياة فى حياة مترددة

بين انتظار وترقب

هو موت معروفٌ

والأفضل الموت

بحثًا عن مخرج للألم

تلك أشواقى أن

أنتهى لكن لا يكون

إذن مع تعقل الحياة تمبنى الخوف

(٤) من القادم فيما بعد

*

وعند انتهاء دون لورنثو من ترتيل توشيحه نهض دون كيخوتى على قدميه، وبصوت مرتفع، مثل الصياح، ممسكًا بيده يد دون لورنثو اليمين، وقال:

- لتحيا السماوات حيث هى فى علاها، أيها الفتى الكريم، إنما أنت أفضل شاعر فى كوكبنا، وإنك لتستحق أن تتوج بالغار، ليس على يد قبرص أو غايتا، كما قال أحد الشعراء (عفا الله عنه)، إنما على يد أكاديميات أثينا لو كانت توجد اليوم، وعلى يد الأكاديميات التى توجد اليوم مثل أكاديميات باريس وبولونيا وسلمنقة! لتكن صلاتك لله ألا ينزع عنك المحكمون الجائزة الأولى، وإلا فإن "فيبو" سوف يرشقهم بسهامه، ولن تعبر عرائس الشعر عتبات منازلهم، أسمعنى يا سيدى بعض أشعار أعلى، حيث أحب أن أقيس حتى الأعماق نبض عبقريتك المعجبة.

أليس طريفًا أن يغتبط دون لورنثو أن رأى نفسه يستقبل ثناء دون كيخوتى مع أنه يراه مجنونًا؟ أوه، أيتها القوة العارمة للثناء، على من تمتدين إليه، وكم هى حدودك البعيدة هى حدود التشريع البهيج! هذه الحقيقة أعطاها مصداقية دون لورنثو، حيث تنازل أمام طلب دون كيخوتى ورغبته، مرتلاً سونيتا حول حكاية أو قصة بيرامو وتسبى:

السور يحطم الصبية الحسناء

التى فتحت لبيرامو صدرها البهى

يغادر الحب قبرص، ويمضى إلى الأمام

حتى يرى الشرخ الضيق والمعجز

*

يتحدث الصمت هناك، لأنه لا يجرؤ

وال...صوت يدخل فى ذلك المضيق الضيق

أما الأرواح فنعم، فالحب يعتاد الفعل:

يسهِّل أصعب الأشياء

*

خرجت الرغبة فى توافق، والخطى

للعذراء المندفعة العاشقة

وموتها سرورها، فلتروا كم هى حكاية!

*

ومعًا فى انطباق النقطة على نفسها، أى حال عجيب!

أماتهما، وسترهما، وبعثهما

سيف، وقبر، وذكرى

* * *

– تبارك الله! (كانت صرخة دون كيخوتى عند سماعه سونيتا دون لورنشـو، ثم واصل القول)، بين الشعراء اللانهائيين المستهلكين الموجودين، قـد رأيـت شاعرًا ارتقى للكمال، وهذا فخامتكم، سيدى أنا، هكـذا أسـتنبط مـن حرفيتكم الفنية!

بقى دون كيخوتى أربعة أيام مع التدليل الشديد فى بيت دون دييجـو، وفـى نهايتها طلب إذنًا للرحيل قائلاً له إنه شاكر للنعمة وحسن المعاملة التى استقبلها فى بيته، ولأنه لا يبدو طيبًا أن الفرسان المشّائين يقضون الساعات الطويلة فى البطالة والتدليل، فهو يود الذهاب حتى يمارس مهمته، باحثًا عن المغامرات التى لديه خبر أنها تكثر بهذه البلاد، حيث يفكر فى إزجاء الوقت حتى يصل يوم المبارزات فـى سرقسطة، الذى كان يوم غلبته الشريفة. لكن عليه أولاً دخول كهف مونتيـسينوس، الذى كانوا يحكون عنه أشياء عجيبة وكثيرة، فى هذه المناطق، عـالمًا وطالبًا فـى نفس الوقت المنبع، والعيون الحقيقية للبحيرات السبع، المسماة عند العامة "رويديرا" دون دييجو وابنه امتدحا عزمه الشريف، وقالا له أن يأخذ من بيتهما ومن مالهمـا كل ما يطيب له، وأنهما سوف يخدمانه بكل إرادة ممكنة، مما يدفعهما إليه شجاعة شخصه، ومهنته الشريفة.

وفى النهاية وصل يوم رحيله، السعيد بالنسبة لدون كيخوتى، وكثير الأحزان بالنسبة لسانشو بانثا، الذى كان فى خير حال مع وفرة بيـت دون دييجـو، وكـان حرونا ضد العودة للجوع المعتاد فى المروج والقفار، ولضيق زوادة خرجه السيئ؛ ومع كل هذا ملأ الخُرج حتى فاض من كل ما هو أكثر ضرورة حسب رأيه، وعند الوداع، قال دون كيخوتى لدون لورنثو:

– لا أدرى إذا كنت قلت لفخامتك مرة أخرى، وإن أكن قلته، سأعود لقولـــه، عندما تود تقصير الطرق والجهد، للوصـــول إلى الـــذروة المحرمـــة لمعبـــد "الشهرة"، ليس عليك فعل شيء آخر غير ترك طريق الشعر، وهو ضيق إلى حد ما، واسلك الطريق الأكثر ضيقًا للفروسية المشَّاءة، لكنه كاف لتنصيبك إمبراطورًا فى هذه المعمعة للحياة.

بهذه العبارات انتهى دون كيخوتى من إغلاق عمليـــة جنونـــه، لكنـــه زاد عندما أضاف قائلاً:

– الله يعلم أننى أود أن أحمل معى السيد لورنثو، كى أعلمه كيـــف ينبغـــى غفران النقص عند الناقصين، ومطامنة غرور المغرورين، فضائل لصيقة للمهنة التى امتهن، لكن لا يوافق ذلك عمره الفتى، ولاتوده أن يكـــون ممارســـاته المحمودة، وفقط أرضى بإعلامك أن كون فخامتكم شاعرًا، من الممكـــن أن تكون مشهورًا، إذا وجهت نفسك برأى الآخر أكثر من رأيـــك، لأنـــه لا يوجد أب أو أم يبدو لهما قبح أبنائهما، وفى بنات العقل تحدث نفس الخدع.

ومن جديد تعجب الأب والابن من العبارات المتقاطعة لدون كيخوتى، فمرة عاقلة وأخرى سفيهة، ومن إلحاحه على أن يهرع إلى مغامراتـــه غيـــر الـــسعيدة، والتى وضعها هدفًا ونيشانًا للتصويب والرغبة، كرروا العرض والمجاملات، ومع التصريح الكريم لسيدة القلعة، رحل دون كيخوتى وسانشو، فوق روثينانتى الـــسيد، وفوق الحمار التابع.

الفصل التاسع عشر
حيث يحكى مغامرة الراعى العاشق مع أحداث أخرى فى الحقيقة طريفة

لم يكن دون كيخوتي قد ابتعد كثيرًا عن قرية دون دييجو، عندما التقى اثنين من رجال الكنيسة أو من طلاب الكهنوت، أحدهما كان يحمل صرة مـن القمـاش الكتانى الخشن وقد تكورت، وعلى ما يبدو حوت بـداخلها بعـض الأزواج مـن الجوارب الغالية، أما الآخر فلم يكن يحمل شيئًا أكثر من سيفين جديـدين لونهمـا أسود، كل منهما فى جرابه الذى تعودوا على حفظ سيوف لعب الشيش به. وكـان مع الدارسين اثنان من الفلاحين يحملان من الأشياء ما يشير إلى أنهما قادمان مـن مدينة كبيرة، بعد القيام بعدة مشتروات لحملها إلى قريتهما. والأربعة على صهوات حميرهم وقعوا فى دهشة يقع فيها كل من يـرى دون كيخـوتى للمـرة الأولـى، وصارت رغبتهم لمعرفة هذا الرجل الخارق لمعتاد الرجال تحملهم إلى حد الموت شوقًا لذلك. حياهم دون كيخوتى، وبعد أن عرف أنهم يتخذون نفس طريقه عـرض عليهم أن يصحبهم على أن يخفضوا من إيقاع خطى دوابهم التى كانت أسرع مـن جواده، وحتى يجبرهم على ذلك، ذكر لهم مهنته، وأنه فارس مـشاء يبحـث عـن المغامرات فى كل أنحاء العالم. وقد أعلمهم أن اسمه دون كيخـوتى دى لامانـشا، وأن لقبه هو فارس الأسود، وكان هذا بالنسبة للفلاحين مثل الكلام باللغة الإغريقية أو فى عجمة الطير، لكن بالنسبة للدارسَيْن لم يكن الأمر كذلك، من ثَم فهما ضعف عقل دون كيخوتى، ومع ذلك نظرا إليه فى إعجاب واحترام، وقال له أحدهما:

– إذا كان فخامتكم لا تتخذ طريقًا محددًا مثلما اعتاد كل من يبحث عن المغامرات فلتأت معنا، لترى واحدًا من أفضل أنواع الزفاف وأكثرها ثراء مما لم يشهد مثله حتى يومنا هذا فى كل أنحاء لامانشا وفى كل ما يحيط بها من جوار.

سأله دون كيخوتى عما إذا كان زفاف أمير من الأمراء حتى يستحق كل هذا الإطراء.

أجاب الدارس:

– لا، ليس لأمير، وإنما لفلاح وفلاحة، وهو أغنى أهل هذه المنطقة، وهى أجمل ما رأته عيون الرجال. ومسرح الزفاف غير عادى وجديد، لأنهم سيقيمونه فى مرج مترامى الأطراف بالقرب من قرية العروس، والتى يسمونها عن جدارة "كيتيريا الحسناء" أما العريس فاسمه "كاماتشو الثرى" وعمرها ثمانية عشر عامًا، وعمره اثنان وعشرون، فكل منهما خلق من أجل الآخر، ومع أن بعض الفضوليين ممن يعرفون بالذاكرة أنساب كل الناس يقولون بأن نسب "كيتيريا الحسناء " أعرق من نسب "كاماتشو" فإن أحدًا لا يضع هذا فى اعتباره الآن، حيث إن الثروات لها من الجبروت ما يجبر كثيرًا من الكسور. وبالفعل، فإن "كاماتشو" هذا كريم، وقد قرر تغطية كل المرج وتزيينه حتى إن الشمس ستجد نفسها فى مشقة إذا رغبت فى زيارة الحشائش الخضراء التى تغطى الأرض. وقد أعد العدة لرقصة السيف ورقصة شخللة الأجراس المعلقة بأرجل الراقصين، تلك الرقصات التى يوجد فى قريته من يجيدها بإحسان، بجانب المدعوين لرقصات الدق على وجه القدم بالأكف ممن لا أملك القول عنهم إلا أنهم على أهبة الاستعداد، لكن ليس لأى شىء مما

أشرت إليه أو لم أشر قيمة فى جعل هذا الزفاف تذكاريًا إلا ما أتخيل ما سوف يفعله باسيليو الموتور. وإن هذا الباسيليو هو جار لكيتيريا الحسناء من نفس قريتها، وجدار بيته مشترك مع جدار بيت والديها، حيث أخذ العشق الفرصة لتجديد ذكرى حب بيرامو وتيسبى، فقد عشق باسيليو كيتيريا منذ سنوات طفولته، وهى كانت تستجيب لرغبته بآلاف من النعم الشريفة، حتى إن كل القرية كانت تتسلى بحكاية غراميات الطفلين باسيليو وكيتيريا. ومضى العمر يتقدم حتى تذكر والد كيتيريا ضرورة إعاقة تردد باسيليو على منزله، الأمر الذى كان مسموحًا به فى الطفولة، وحتى يتجنب حياة الغيرة، وامتلاء قلبه بالشكوك أمر بزواج ابنته من "كاماتشو، الثرى"، حيث لم يظهر له الخير فى زواج ابنته من باسيليو الذى لا يملك من الثروة شيئًا، ومع ذلك فلقول الحق دون حسد، هو الفتى الأكثر رشاقة فى القرية، فهو من رماة الرمح، ومصارع لا يضارع، ولاعب عظيم بالكرة والصولجان، وإذا جرى يسبق الريح، وإذا قفز فالماعز تتقافز، وإذا تلقف الكرة الخشبية بعد إطلاقها فذلك هو السحر، أما الغناء فيغنى تغريد العصافير، ويعزف القيثار حتى يجعله يتكلم، ويلعب بالسيف كأمرِّ اللاعبين.

وفى هذه اللحظة، قال دون كيخوتى:

- ولهذا السبب وحده يستحق ذلك الفتى ليس فقط الزواج من كيتيريا الحسناء، بل من نفس الملكة خنيبرا، لو كانت حية هذه الأيام، حتى لو كان سيجابه باعتراض لانثاروتى، وكل أولئك الذين كانوا يودون اعتراض طريقه.

قال سانشو بانثا الذى ظل صامتًا حتى تلك اللحظة ومنصتًا:

– بالنسبة لزوجتى فى هذا الأمر كان سيكون ما يقوله المثل عن زواج المتكافئين "كل غنمة مع كبشها"، لكن بالنسبة إلىّ فإن باسيليو الطيب ذاك بدأ يدخل قلبى، ويجب أن يتزوج من السيدة كيتيريا بالرفاء والبنين (كنت سأقول: "مع الأمجاد السماوية")(*)، وليتزوج المتحابون.

قال دون كيخوتى:

– إذا تزوج كل من يتحابون حبًا جمًّا، فإن هذا سيسلب الآباء حق تزويج أبنائهم فى الوقت المناسب ومن الزوج المناسب، وإذا كان الزواج طبقًا لإرادة البنات، فربما يخترن خدم آبائهن، وربما أول من يظهر لهن عابرًا الشارع طبقًا لمظهره الوسيم والبراق، حتى لو كان تافهًا فى استعمال السيف، فالحب والهوى يعميان البصيرة بسهولة، والبصيرة ضرورية جدًا لاختيار طريق المستقبل، والزواج وهو أمر خطر، الخطأ فيه محدق، من الحتمى يقظة شديدة وتوفيق عظيم من السماء للوصول فيه إلى الصواب. ومن يرغب فى القيام برحلة طويلة، فمن الفطنة قبل أن يشرع فيها أن يختار صحبة آمنة العريكة، إذن فلماذا لا يفعل نفس الشيء، ذلك الذى كتب عليه السير حتى الموت، وخاصة فى صحبة ترافقه على السرير وعلى المائدة وفى كل مكان مثلما يحدث للزوجة مع الزوج؟ والأمر بالنسبة للزوجة ليست بضاعة يمكن أن تسترد إذا ما بيعت كما أنها ليست مقايضة أو مبادلة، فالزواج حدث غير قابل للنقض، يستمر طوال الحياة، وهو رباط إذا

(*) دعاء للموتى.

أحاط مرة بالعنق يتحول إلى عقدة غليظة، إذا لم يجتثها منجل الموت لا يمكن فكها. وفى هذا الموضوع يمكن قول أشياء أخرى كثيرة، ما لم يعقنى أن أسأل حامل الليسانس هل بقى شيء لم يحكه عن قصة باسيليو؟

وعلى هذا أجاب الدارس حامل البكالوريا، أو حامل الليسانس كما سماه دون كيخوتى:

– ما بقى من كل القصة هو أن باسيليو منذ عرف أن كيتيريا الحسناء سوف تتزوج من كاماتشو الثرى لم يره أحد قط يضحك أو يتكلم كلامًا واضحًا، ودائمًا يمضى متفكرًا وحزينًا يكلم نفسه، مما يعطى إشارات أكيدة وواضحة أنه فقد عقله، وهو يأكل القليل وينام القليل، وما يأكله هو بعض الفواكه، أما حين ينام، إذا نام، فهو ينام فى الحقل على أرض خشنة مثل حيوان برى، وينظر بين الحين والحين إلى السماء، ومرات أخرى يدقق نظراته فى الأرض، مع الجمود حتى يبدو وكأنه تمثال يرتدى ملابس يحركها الهواء. وفى النهاية، هو يعطى دلائل على أن قلبه بالغ الحزن والكآبة، ونحن من نعرفه نعرف أنه من المسلَّم به أن إجابة كيتيريا الحسناء بنعم غدا حين تسأل عن موافقتها على الزواج من كاماتشو هى حكم الإعدام بالنسبة لباسيليو.

قال سانشو:

– ربنا يلطف، فالله كما يعطى المرض يهب الدواء، ولا أحد يعرف ما فى الغيب، ومن هنا حتى الغد بقى من الساعات الكثير، وقد يلغى هذا الزواج فى ساعة من تلك الساعات بل فى لحظة، ولقد رأيت الدنيا تمطر فى عِزِّ الشمس، والعكس قد ينام الإنسان فى عِزِّ صحته، ويستيقظ مشلولاً. وقولوا

لى: هل يمكن أن يفخر من يكسب باختيار رقم علـــى عجلـــة الحـــظ؟ لا، بالتأكيد، وبين ال (نعم) وال (لا) من فم امرأة، لا أجرؤ أنا على غرز سن دبوس، حيث لا مكان له. أعطونى يقينًا بأن كيتيريا تحب باسيليو من أعماق قلبها وبحر إرادتها، ولسوف أعطيه جوالاً من الحظ السعيد؛ فالحب، حسبما سمعتهم يقولون، يرى بنظارات تجعل من النحاس ذهبًا، ومن الفقر غنى، ومن الزلط لؤلؤًا.

قال دون كيخوتى:

– أين سوف تتوقف، سانشو، لعنك الله؟ فعندما تبدأ فى نظم الأمثال والحكاوى لا يرجى منك خلاص إلا إذا اختطفك يهوذا بنفسه. قل لى أيها الحيـــوان، ماذا تعرف أنت عن الأرقام أو عجلة الحظ أو أى شىء آخر؟

أجاب سانشو:

– إذا لم تفهمنى، فليس من الغريب أن تصير أحكامى ترهات، لكن لا يهم؛ فأنا أفهم نفسى، وأعرف أننى لم أتفوه بتفاهات كثيرة فيما قلت، اللـــهم إلا أن فخامتكم مدرعى عام ضد كل أقوالى بل أفعالى.

قال دون كيخوتى:

– مدعى، هذا ما يجب أن تقول وليس (مدرعى)، أيها المفسد لصحة اللغـــة، أصابك الله بالخلط!!

أجاب سانشو:

– لا تغضب فخامتكم منى، فأنت تعرف أننى لم أنشأ فى الـــبلاط، ولم أدرس فى سلمنقة، حتى أعرف أنه علىّ أن أزيد أو أنقص حرفًا من مفرداتـــى. نعـــم،

وليغفر لى الله، فلن يتكلم أهل الريف مثل أهل المدن، تمامًا كما لو قارنا كلام أهل ساياجو بكلام أهل طليطلة، وبالتالى فإن أهل طليطلة لن يحتقروهم لعدم الكلام المشذّب.

قال حامل الليسانس:

– هذا صحيح، بل إن أهل الضواحى فى طليطلة لن يستطيعوا لنشأهم، أن يتكلموا مثل أولئك الذين عاشوا طول عمرهم فى وسط المدينة، وكلهم من طليطلة، فاللغة النقية والأصيلة والرشيقة والواضحة توجد بين الأرستقراط الأذكياء، حتى لو ولدوا فى قعر الريف. وأقول أذكياء لأن الذكاء عندى فى هذه الحالة هو نحو اللغة الجيدة الذى يصحب استعمالها. وأنا، أيها السادة، غفر لى الله، قد درست القوانين الكنسية فى سلمنقة، وبالتالى استفززت لقول رأيى بكلمات واضحة سهلة وذات مغزى.

قال الدارس الآخر:

– انظر أيها الخريج الجامعى، إذا كنت إستفززتَ نفسك أكثر لمعرفة هز السيف أفضل من معرفتك هز لسانك، لكنت الأول على الخريجين، وليس الأخير.

رد الدارس حامل الليسانس:

– اسمع يا حامل البكالوريا، أنت واقع فى أكثر الآراء خطأً فى العالم فيما تعلق بمهارتى فى اللعب بالسيف، ولست مثلك تحمل السيوف عبثًا.

أجابه كورتشويلو:

– بالنسبة إلىَّ هذا ليس رأيًا، ولكنها حقيقة مؤكدة، وإذا أردت إثباتها لك بالتجربة، فها أنت تحمل سيوفًا، وفى حالة من الراحة تناسب ذلك، وأنا لدىَّ الدوافع والقوة اللذان يرافقان روحى المعنوية العالية، وهذا ليس بالقليل

لدفعك للاعتراف بأن ما أقوله ليس خداعًا لنفسي. ترجل عن دابتك، واستعمل خفة حركة قدميك، وكرك وفرك، واتخاذ أوضاعك القتالية وعملك، حيث إننى أتوقع أن أجعلك ترى النجوم فى الظهر بمهارتى الحديثة وخشونتى، وعليهما آمل بعد الله أنه لم يولد إنسان بعد يجعلنى أغمد سيفى، ولا يوجد فى العالم من لا أجعله يفقد الأرض التى يقف عليها.

أجاب الآخر:

– إغماد السيف أو إشهاره أمر لا يخصنى، مع أنه مع أول حركة لقدميك سوف تحفر قبرك بنفسك، أود القول إنك سوف تصبح ميتًا فى تلك اللحظة بغمطك مهارتى.

أجاب كورتشويلو:

– الآن سوف نرى.

وقفز فى رشاقة من على حماره، وجذب أحد السيفين اللذين يحملهما الخريج الجامعى من جرابه.

قال دون كيخوتى فى تلك اللحظة:

– الأمور لا ينبغى أن تسير هكذا، فأنا أحب إدارة هذه المبارزة، والقيام بدور الحكم لمثل هذا الأمر الذى لا يتم تحريه جيدًا فى أحيان كثيرة.

وهكذا نزل عن روثينانتى، وأمسك برمحه، ووضع نفسه فى منتصف الطريق، وفى اللحظة المناسبة قام خريج الجامعة فى رشاقة جسم بديعة وتوافق إيقاعى لقدميه بمهاجمة كورتشويلو، الذى قام بدوره بهجوم مضاد مطلقًا – كما تعودوا القول – الشرر من عينيه. والفلاحان دون أن ينزلا عن دابتيهما مثلًا دور

المشاهدين فى التراجيديا الأخلاقية. ضربات السيف، وطعناته، هـــابطًا صـــاعدًا، متقلبًا على وجهيه، ممسكًا به بكلتا اليدين، كان ينزلها كورتشويلو بلا حساب، أكثر كثافة من الكبد، وأغزر اندفاعًا من البَرَد. كان يهاجم مثل أسد مستفَز، لكــن كــل ضرباته كان يتلقاها الجامعى بسيفه، ويجعله يقبلها كما لو كانت رفات قديس، ولكن ليس بكل الإخلاص الذى تعودوا تقبيل رفات القديس به. أخيرًا الجــامعى حامــل الليسانس عدَّ أزرار إهاب كورتشويلو الكنسى الذى كان يرتديه حتى وسطه بنزعها بسيفه، كما حول الثوب من أطرافه إلى شرائح تشبه أقدام الأخطبوط الذيلية الشكل، وأطار قبعته مرتين وأرهقه بطريقة جعلته من فرط الغضب والغيظ والسخط يمسك بسيفه من مقبضه ويلقى به فى الهواء بقوة هائلة حتى إن واحــدًا مــن الفلاحــين الاثنين المشاهدين، وكان كاتبًا عموميًا، بعد أن ذهب لإحضاره أعطى شهادة بأنــه وجده على بعد ثلاثة أرباع فرسخ، وهى شهادة تفيد وأفادت المعــــرفة والرؤيــة عيانًا كيف أن القوة تهزمها المهارة والحرفية والخيال.

جلس كورتشويلو تعبًا، واقترب منه سانشو، وقال له:

– بكل إخلاص أيها السيد حامل البكالوريا، إذا أخذت فخامتكم بنصيحتى من الآن فصاعدًا يجب ألا تتحدى أحدًا فى مبارزة، لكن يمكن التحدى فى المــصارعة أو رمى الرمح، حيث إن لك من الشباب والقوة ما يعينك على ذلك، فأنا أعــرف أن الماهر فى لعب السيف يستطيع أن يضع سنَّ سيفه فى فتحة الإبرة.

أجاب كورتشويلو:

– يرضينى أننى سقطت من فوق حمارتى، وأظهرت لى التجربة الحقيقة التى كنت عنها فى غاية البعد.

ثم نهض واحتضن حامل الليسانس، وأصبحا صديقين أكثر مما مضى، ولم ينتظرا الكاتب العمومي حتى يحضر السيف، حيث بدا لهما أنه كان سيتأخر كثيرًا، وهكذا قرروا مواصلة السير حتى يصلوا إلى قرية كيتيريا مبكرًا، وهي قريتهم جميعًا أيضًا.

وفيما تبقى من الطريق كان حامل الليسانس يحكي لهم ميزات السيف الفخيمة، وبأدلة كثيرة قاطعة حتى بقوا مدركين فضل العلم، أما كورتشويلو فقد انكمشت حدة عناده ومكابرته.

وحل المساء، لكن قبل الوصول إلى القرية بدت لعيون الجميع سماء قد رصعتها النجوم بوفرة. وسمعوا في نفس الوقت أصوات عزف من آلات متفرقة مثل الناي والرق والقانون والمزمار والشخاليل والصنج، وعندما اقتربوا رأوا الأشجار عند مدخل القرية قد امتلأت بالشعلات التي لا تغضبها الرياح فتغض من ضوئها، حيث كانت الرياح هادئة لا تجرؤ على تحريك ورق الشجر. وكان الموسيقيون هم مثيرو بهجة الزفاف وحماسه، حيث كانوا يسيرون في تلك الأنحاء الجميلة في مجموعات بعضها يغني والبعض الآخر يرقص، أما الباقي فكان يعزف الآلات على تعددها المذكور. بالفعل، لم يظهر شيء في ذلك المرج سوى البهجة تتحرك لتملأ المكان، وليتقافز به الرضا والحبور مع الكثير من الأفراد الذين كانوا يقيمون المنصات والمقاعد، والتي يمكن منها في اليوم التالي رؤية التمثيل والرقص، مما يدفع بالملاحة في زفاف كوماتشو والحفيظة في قلب باسيليو. لم يحب دون كيخوتي دخول القرية رغم أن الفلاح وحامل البكالوريا قد طلبا منه ذلك، إلا أنه أعطى عذرًا قويًا من وجهة نظره، وهو أن الفرسان المشّائين لا بد أن يناموا في العراء والغابات قبل أن يناموا في المعمور، حتى لو كانت تحت سقوف من الذهب، وبهذا انحرف بعض الشيء عن الاستقامة بمفهوم سانشو الذي ترددت في ذاكرته استضافة دون دييجو لهما في قلعته (أو بيته).

الفصل العشرون

حيث يحكى زفاف كاماتشو الثرى مع قصة باسيليو الفقير

لم يكد الإله "فيبو" المتلألئ النور- وقد أفسح الفجر له المكان- يغسل اللآلئ السائلة لشعره بضرام أشعته الساخنة، حتى كان دون كيخوتى ينفض الكسل عن أعضاء جسمه، لينهض على قدميه، وينادى على حامل دروعه سانشو، الذى مازال يتعالى الشخير من أنفيه، وقد شاهده دون كيخوتى على هذا الحال قبل أن يوقظه ويقول له :

- أوه، إنك السعيد المنعم دون كل خلق الله الذين يعيشون على سطح الأرض، فها أنت تنام دون حمل أحقاد على أحد، ودون أن يحقد عليك أحد، بل نفسك هادئة ويسود السلام روحك، لا يطاردك السحرة، ولا تفزعك آلاعيب السحر. تنام، وأقولها مرة أخرى بل مائة مرة، دون أن يأخذك السهر مفكرًا فى غضب سيدتك عليك، ولا ينزع عنك الأرقُ النومَ مفكرًا فى دفع ديون عليك دفعها، أو مفكرًا فى تدبير لقمة العيش فى الغد لك ولأسرتك الصغيرة. فلا الطموح يقلقك، ولا الزهو العبثى للحياة الدنيا يرهقك، ولا تتجاوز رغباتك رغبات حمارك، وكلها تلقى على عاتقى بسبب ما ألقته الطبيعة والعادة من أثقال وأعباء على كل سيد. ينام الخادم ويبقى السهر للسيد، مفكرًا كيف يعوله ويُحسِّن أحواله، ويتفضل عليه بالنعم والأفضال، والهم عند رؤية السماء وقد اكتست ببرونز الشمس دون مد الأرض بحاجتها من الندى لا يثقل على الخادم، وإنما على السيد، الذى يلتزم بإعالته فى الأيام العجاف وزمن الجوع، كما خدمه فى أيام الخصوبة، وزمن النعيم.

لم يجب سانشو على كل هذا لأنه كان نائمًا، وما كان ليستيقظ سريعًا ما لم ينقره دون كيخوتى بسن الرمح حتى يعود إلى وعيه. استيقظ فى النهاية منعوسًا كسولاً، وبعد أن قلب وجهه فى كل اتجاه، قال:

– إذا لم أكن مخدوعًا، فإنه يخرج من ناحية تلك الأيكة روائح الشواء والشحم واللحم، وليست روائح الأسل والزعتر والخشب، وإن زفافًا يبدأ بهذه الروائح حسب حدسى لابد أن يكون وافر الطعام والشراب.

قال دون كيخوتى:

– أغلق فمك أيها النهم الشره، ودعنا نذهب لنرى هذا الزفاف حتى نرى ماذا سيفعل باسيليو المتمرد.

أجاب سانشو:

– ليفعل ما يشاء إذا لم يكن فقيرًا وغير قادر على الزواج من كيتيريا، وهل من لا يملك غرفة من حقه أن يرغب فى الزواج من السحاب؟ حسب اعتقادى يا سيدى، إن الفقير عليه الرضا بما يجد والاقتصار عليه، ولا يبحث عن السمك البلطى فى المياه المالحة، وإنى أراهن بكل ما أملك أن كاماتشو يستطيع أن يكفّن باسيليو بالريالات. وإذا كان ذلك كذلك، وينبغى أن يكون كذلك، فإن كيتيريا ستكون بلهاء إذا فرطت فى الهدايا والحلى التى لابد أن يكون كاماتشو قد أغرقها بها، ويستطيع الاستمرار فى إغراقها بها. أما رمية رمح أو هزة سيف فى لعبة شيش فلا تشترى كأسًا واحدًا من النبيذ فى حانة. إنها مقدرات وفضائل غير قابلة للبيع، حتى لو امتلكها الكونت ديرلوس. لكن عندما تكون تلك الفضائل لمن يملك مالاً وفيرًا، فهى الفضائل، فعلى أساس متين يقام البناء، وأحسن أساس وعمد النقود.

هنا قال دون كيخوتى:

- بحق الله، ضع نهاية لخطبتك الحماسية، فإنهم لو تركوك مستمرًا فيما بدأت من حديث، لما وجدت وقتًا للنوم أو لتناول الطعام، ولاستهلكت كل الوقت فى الكلام.

رد على هذا سانشو:

- لو كان عند فخامتكم ذاكرة قوية، عليك تذكر بعض بنـــود اتفاقنـــا قبـــل خروجنا فى هذه المرة الأخيرة، وأحد هذه البنود أن تتـــركنى أتكلـــم كـــل الوقت الذى أحب، ما لم يكن كلامى غيبة لأحد أو ضد سلطة فخـــامتكم، وحتى الآن يبدو لى أننى لم أخالف هذا البند.

أجاب دون كيخوتى:

- أتذكر سانشو جيدًا هذا البند، ورغم ذلك، أحب أن تسكت وتأتى، فها هى الآلات التى سمعناها بالأمس قد بدأت تملأ هذه الوديان بالبهجة، ومما لا شك فيه أن الزفاف سيتم فى طراوة الصباح، وليس فى حر المساء.

فعل سانشو ما أمره به سيده، وبعد وضع السرج على روثينانتى، والبردعةَ على حماره، وخطوة وراء خطوة مضوا فى اختراق الأيكة. وأول ما بـــدا لنـــاظر سانشو كانت حمالة لشوّاية تحترق تحتها شجرة دردار كاملة، وفوقها عجل كامـــل يتضرم حوله تل من الخشب الملظى، وفوق اللظى ست "حلل طبيخ"، ليـــست مـــن طراز كل "حلل طبيخ العالم"، لأن كل واحدة منها فى حجم برميـــل ضـــخم يتـــسع للحوم مجزر كامل، وهكذا كانت متشربة ومحتوية بداخلها على كباش كاملة، تبدو لضخامة الإناء وكأنها ذكور حمام. أما الأرانب البرية المسلوخة والديكة المنتوفـــة الريش، والتى كانت معلقة فى الأشجار فى انتظار قبرها فى الحلل، فكان عـــددها

غير قابل للإحصاء، كذلك الطيور وحيوانات الصيد فكانت لانهائية الأعداد، وكلها معلقة فى الأشجار حتى تتعرض للتبريد بالهواء، وعد سانشو أكثر من ستين زقًا ضخمًا، وكلها مليئة بنبيذ اتضح بعد ذلك أنه من أنبل الأنبذة، وبنفس الطريقة ظهر الخبز شديد البياض فى أكوام، كل كوم كأنه عرمة قمح فى جرنها، والجبن مثل قوالب الطوب المتراصة التى تشكل حائطًا، وهناك غلايتان مملوءتان زيتًا، كل واحدة فى حجم حوض صباغة، وذلك لقلى الفطائر التى يجرى إخراجها مقلية بمعلقتين، عملاقتين حيث تُلقى فى غلاية أخرى مجاورة مليئة بعسل النحل. الطباخون والطباخات جاوزوا الخمسين، مظهرهم جميعًا نظيف، وكلهم دؤوب الحركة سمح الوجه. ومعدة العجل المنظفة حشيت باثنى عشر حملاً صغيرًا طرى اللحم، ولكونها مسلوقة فإنها كانت تعطى العجل نكهة ونعومة لحم، أما البهارات متعددة الأنواع فإنه قد بدا أنه لم يكن شراؤها بالرطل إنما بالكيلة، وكانت معروضة فى صندوق ضخم. وفى كلمة، كل جهاز الزفاف اتسم بالخشونة الريفية، وإن كان يتسم بالوفرة، حتى إنه يمكن أن يقيم أود جيش بأكمله.

سانشو بانثا كان يحملق فى كل هذا، ويتأمله، و يقع فى هواه. فى الأول أسرت حلل الطبيخ كل قلبه فى استسلام لفكرة أن ينتشل منها فى رضا وسعادة صدر عجل متوسط الحجم، ثم وقع فى غرام زقاق النبيذ، وأخيرًا انهار أمام الحلوى وفاكهة القلى وهى تغط فى العسل، وهكذا دون مقدرة على معاناة كل هذا الهوى، ودون أن يملك فعل أى شىء آخر، اقترب من أحد الطباخين العاملين، وبعبارات مهذبة تتضور جوعًا رجاه أن يتركه يغمس قطعة خبز فى واحدة من تلك الحلل، وعلى هذا أجابه الطباخ:

– أخى، هذا اليوم ليس لهؤلاء الذين شرع لهم الجوع بفضل كاماتشو الغنى، ترجل عن حمارك وابحث عن مغرفة واستخراج دجاجة أو دجاجتين، وبالهنا والشفا.

أجاب سانشو:

- لا أرى هنا أى مغرفة.

قال الطباخ:

- انتظر، ويل لى، وأى وغد أنا، والمسألة أهون من ذلك!

وبعد قوله هذا أمسك بطاسة وأدخلها فى إحدى الحلل وأخـــرج بهـــا ثـــلاث دجاجات وإوزتين. وقال سانشو:

- ليس لدى إناء لحملها.

قال الطباخ:

- إذن اذهب بهذه الطاسة وما حوت، فثروة كاماتشو وسعادته تهب كل شىء.

وخلال حدوث ذلك لسانشو، كان دون كيخوتى يتأمل ظهور ما يقرب مـــن اثنى عشر مزارعًا فوق أفراس بالغة الجمال، قد بزغت من إحدى نـــواحى غابـــة الأشجار. غطت الأفراس أطقم من السروج والعدد الريفية الثرية المظهر، وقد علق بها أجراس عديدة، وقد ارتدى المزارعون ثياب الأفراح والأعياد، ومضوا فى جلبة وزعيق يتسابقون المرة بعد المرة فى براح المرج وهم يهللون ويتصايحون قائلين:

- يحيا كاماتشو وكيتيريا، فهو فى قمة غناه مثلما هى فى قمة جمالها، بل هى أجمل نساء العالمين.

وعندما سمع ذلك دون كيخوتى قال لنفسه:

- هذا طيب! فهؤلاء معهم حق لأنهم لم يروا سيدتى دولثينيا دل توبوسو، فلـــو كانوا رأوها لما تمادوا فى التغزل ومدح كيتيرياهم هذه.

ومنذ تلك اللحظة وما تلاها من لحظات بدأت الرقصات المتعددة تخرج من الغابة براقصيها، ومن بينها رقصة السيف، التى قام بها ما يقرب من أربعة وعشرين شابًا فى أحسن مظهر وأجمل بريق، وكلهم يرتدون ملابس كتانية بالغة الرقة والبياض، وعلى رءوسهم ربطوا مناديل متعددة الألوان من حرير وإستبرق، وقد قادهم فى الرقص فتى شديد الخفة، سأله أحد راكبى الأفراس عما إذا كان قد جرح حتى الآن أحدًا من الراقصين، فأجابه:

– حتى الآن، ببركة الرب، لم يجرح أحد، وكلنا سالمون.

وبعد ذلك بدأ هذا الفتى فى الاشتباك مع رفقائه فى كر وفر ومهارة فائقة، حتى إن دون كيخوتى، رغم رؤيته مرارًا هذه الرقصة، لم يشهد لها مثيلاً فيما رأى.

أيضًا بدت له رقصة أخرى هكذا، إنها تتكون من صبايا فائقات الحسن والجمال بجانب الفتوة والدلال، وكما ظهر، فإن كل واحدة منهن لا تقل فى عمرها عن الأربعة عشر ولاتصل إلى الثمانية عشر، وكلهن يرتدين القطيفة الخضراء، وشعرهن مضفر فى جانب، وسائب طليق فى جانب آخر، وكل صبية حملت إكليل غار من الياسمين والورد وأجمل الأزاهير، وكانت شقرة الصبايا تؤهلهن للدخول فى منافسة مع الشمس. كان يقود الصبايا شيخ مبجل، وعجوز مهيبة، لكنهما يرقصان فى خفة وانسياب لا تنتمى لسنوات عمرهما، أما العزف فكانت تحرك الراقصين زامرة من ثامورا، وقد تبدى الشرف فى الوجه والعينين لكل صبية، بينما تبدت فى قدميها الشيطنة؛ لقد اثبتن أنهن أفضل راقصات فى العالم.

وبعد هذه الرقصة دخلت رقصة جديدة للألعاب النارية، من الرقصات التى يطلقون عليها "الجنيات". كانت تتكون من ثمان جنيات بريات وبحريات، يتحركن فى صفين، ويقود الصف الأول إله الحب كيوبيد، ويقود الصف الثانى الإله إنترس

(الغاية)؛ وقد ارتدى كيوبيد أجنحته متزينًا بها، وحمل قوسه وجعبة سهامه، أما إنترس فقد ارتدى ملابس متعددة الألوان من الذهب والحرير. الجنيات التى تتبع إله الحب وضعن على ظهورهن رقعة مكتوب عليها أسماءهن. كان اسم الأولى: الشعر، والثانية: الفطنة، والثالثة: الأصل، والرابعة: الشجاعة. وبنفس الطريقة كُتبت أسماء راقصات الإله إنترس، الأولى: الكرم، والثانية: النعمة، والثالثة: كنز، والرابعة: الامتلاك السلمى. وأمام الجميع كانت تتحرك قلعة من الخشب يجرها أربعة رجال متوحشون، يرتدون ثوبًا من الليف والتيل المصبوغ بالأخضر، حتى بدا وكأنهم تغطيهم أوراق الشجر، ومن ثَم لم يعدم سانشو السبب عندما أثاروا فزعه، وعلى حواف القلعة وواجهاتها المربعة الأربعة كتب: قلعة الصون والعفاف. وكانت الرقصة على أنغام يعزفها أربعة عازفين حاذقون، يدقون الطبول والناى. بدأ كيوبيد الرقصة، ولم يلبث بعد حركتين أن رفع عينيه إلى صبية كانت فى شرفة القلعة، وصوَّب نحوها من قوسه أحد سهامه، وقال لها:

أنا الإله الجبار

فى السموات والأرض

وفى عرض يضم البحر المائج

وعندما يضم الجحيم المفزع الهاوية

لن أعرف لحظتها ما هو الخوف

وكل ما أهواه أحصل عليه

وبكل إمكانية:

آمر، أحرم، أقرر، أمنع

وانتهى من الكوبليه مطلقًا سهمًا من فوق القلعة، وعاد إلى وضعه الـــسابق.

وهنا خرج الإله إنترس، وصنع حركتين أخريين، وسكت الطبالون ليقول:

أنا الذى أستطيع أكثر من استطاعة الحب

والحب هو الذى يقودنى

فأنا من خير أصل

ربته السماء على الأرض

فأصلى الأشهر والأفضل

وأنا "الغاية"

التى اعتاد القليل على تحقيقها

وأنا الذى سوف يكرس نفسه لك

دائمًا أبدًا، آمين!

وعاد إلى وضعه الأول، وتقدم الشعر إلى الأمام بعد حركتين راقصتين مثل سابقيه، وركز عينيه على فتاة القلعة:

الشعر الألذ

فى ألذ مفاهيم ...

مفاهيم سامية وجادة ولماحة

يرسل إليك، أيتها السيدة، الروح

ملفوفة فى ألف قصيدة مطربة

فإذا لم يزعجك

فإن إصرارى

على الصعود بك

فوق هالة القمر

سيصير مثار حسد حسناوات كثيرات.

وأفسح الشعر المكان، ومن جهة إنترس (الغاية) خرج الكرم، وبعد أن أدى رقصته، قال:

يسمون الكرم

للعطاء الذى هرب

الحدود القصوى من أمامه

لفرط الندى والتبذير

دون ندم أو جدال

لكننى حتى أسمو بمكانتك وتعظيمك

فإننى منذ اليوم سأصير أكثر تبذيرًا

ومع أن ذلك عيب، فإنه عيب شريف

ومن فرط العشق فى صدرى

سوف يكون العطاء ملحوظًا

وبهذه الطريقة تقدمت ثم انسحبت كل شخوص اللوحتين الراقصتين، وكل واحد أدى حركاته الراقصة، وألقى بأشعاره، التى كان بعضها معجبًا والبعض الآخر مثيرًا للسخرية، وفقط سجل دون كيخوتى فى ذاكرته (وكانت له ذاكرة عظيمة) كل ما سلف من أشعار، وما حدث بعد ذلك من اختلاط الراقصين فى وصلات وفصلات بملاحة ورشاقة. وعندما مر الحب على القلعة أطلق من فوقها سهامه، لكن انترس (الغاية) حطم كراته الطينية المذهبة(*)، وأخيرًا بعد أن واصلوا الرقص فترة متسعة من الوقت، أخرج الإنترس كيسًا ضخمًا مصنوعًا من فروة قط رومانى، يبدو وكأنه ملىء بالنقود، ثم ألقاه على القلعة؛ فتداعت ألواحها تاركة الصبية هدفًا مكشوفًا بلا دفاع. اقترب إنترس مع فريقه ووضع فى عنقها سلسلة من الذهب، ومثلوا دور القبض عليها وإجبارها على الاستسلام وأسرها، وعندما رأى الحب وفريقه ذلك قاموا بحركات راقصة تمثل عملية إنقاذها على أنغام دقات الطبول. واجه ذلك المتوحشون بروح مسالمة، حيث قاموا بسرعة بإعادة تركيب القلعة وأغلقوها على الصبية من جديد، وهنا انتهت الرقصة في جو من الرضا ساد جميع المشاهدين.

سأل دون كيخوتى إحدى الجنيات عمن قام بتصميم الرقصة وإخراجها، أجابته أنه أحد المحترفين بتلك القرية، يتميز بموهبة خاصة فى مثل هذه المخترعات.

قال دون كيخوتى:

- أنا أراهن أنه صديق لكاماتشو أكثر من باسيليو، وأنه موهوب فى السخرية أكثر من موهبته فى التقوى؛ لقد أدخل فى الرقصة مقدرات باسيليو، وثروة وممتلكات كاماتشو!

(*) كانوا يصنعون كورًا من الطوب النيئ، يلعبون بها فى مسابقات الفروسية، حيث يلقيها الفرسان فى تبادل كل واحد ضد الآخر، وعلى الفارس أن يستقبلها بدرعه أو ترسه، والفوز لمن تتحطم كرته تمامًا من شدة الرمية والاصطدام بالدرع والترس.

- سانشو بانثا الذى كان يسمع كل هذا، قال:

- أراهن على فوز الديك الملك، إننى أنضم لكاماتشو.

قال دون كيخوتى:

- فى النهاية، سانشو، من الواضح المفضوح أنك "واطى"، ممن يهتفون: يحيا المنتصر.

أجاب سانشو:

- لا أعرف من أى فريق أنا، لكنى أعرف جيدًا أننى لن أستخرج من مطبخ باسيليو أبدًا مثل هذا (المرق) الأنيق، الذى أخرجته من أوانى كاماتشو.

وهنا أراه طاسة المرق بما فيها من إوزات ودجاجات، وقابضًا على إحداها بدأ يأكل باستمتاع مليح، وقال:

- مقدرات باسيليو ضحك على الذقون؛ فأنت تساوى بقدر ما تملك، وأنت تملك قدر ما تساوى! هناك سلسلتا نسب وحيدتان فى العالم، كما كانت تقول إحدى دداتى(*)، نسب من يملك، ونسب المعدم، مع أنها كانت مضربة عن التملك، وهذا اليوم، فإن سيدى هو دون كيخوتى، لما سيدفع وليس لما يعرف، فحمار عليه سرج من ذهب خير من حصان عليه بردعة. وهكذا أعود للقول بأننى أنضم لكاماتشو، والذى تمتلئ أوانيه بالدجاجات والإوزات والأرانب البرية والأليفة داخل بحر من المرق، أما أوانى باسيليو، إذا وقعت تحت اليد، مع أنها لاتقع إلا تحت القدم (!)، فليس بها إلا الماء المائع.

(*) طريقة سانشو المضحكة فى الكلام عند نطق "جداتى".

قال دون كيخوتى :

- هل انتهيت، سانشو، من خطبتك الحماسية؟

قال سانشو:

- عليَّ أن أنهيها، لأننى أرى استثقال فخامتكم لها، ولولا ذلك لاحتجت لثلاثة أيام لإنهائها.

رد دون كيخوتى:

- أدعو الله، سانشو، أن أراك أخرس قبل أن أموت من الغيظ.

أجاب سانشو:

- فيما نحياه معًا، قبل أن تموت فخامتكم، فإننى سأكون أمضغ الطين دفين الأرض، وهذا قد يعنى أننى سأكون أخرس حتى نهاية العالم، أو إلى يوم الحساب.

علق دون كيخوتى:

- حتى لو كان ذلك كذلك، أوه سانشو! لن يصل صمتك مطلقًا حيث وصفت، فلا تملك إلا الثرثرة فى حياتك، وأكثر، فإنه من الطبيعى أن موتى سيصل أولاً قبل يومك؛ وهكذا، فإننى لن أراك أخرس مطلقًا، ولا حتى عندما تكون سكران أو نائمًا، وهو الأمر الذى أعتز به.

أجاب سانشو:

- بكل صدق، ياسيدى، لاينبغى التحدى فى موعد الموت، هذا ما أقول، وبنفس الطريقة فإن الموت حق على الحمل أو الكبش، وقد سمعت راعى كنيستنا

يقول: "بنفس القدمين يطأ قصور الملوك كما يطأ أكواخ الفقراء"(*). والموت هو هذه السيدة التى لديها سلطة أكثر من الدلال والجمال، ولـــيس عليهـــا بالمنـــزل أشغال: تأكل ما تشاء وتحرك من تشاء، ومـــن صـــنوف النـــاس والأعمار والرفعة تتورم أكياس نقودها وثرائها، ومن يتمتع بنـــوم القيلولـــة ليس حصادًا إنما الحصاد من يحصد فى كل الساعات، يقطع بمنجله الجـــاف والأخضر من الحشائش، ولا يبدو أنه يمضغ إذ يأكل، بل يبتلع ويلتهم كـــل ما يوضع أمامه لأنه كَلِب الجوع، ولا يشبع من طعام مطلقًا، ومع أنه لـــيس له كرش إلا أنه يوقع فى الفهم أنه " شرِّيب " وعطش لشرب حياة كل مـــن له حياة كما لو كانت الماء القراح(**)

هنا قال دون كيخوتى:

– كفى، سانشو، كن لطيفًا، ولا تترك نفسك تقع فى سقط الكلام. إن ما قلتـــه عن الموت صحيح، ومع كلماتك الخشنة فإن واعظًا ممتازًا لا يستطيع القول أفضل، وأقول لك سانشو، إنك بما لك من فطرة طيبة وفطنة، تـــستطيع أن تحمل منبرًا فى يدك، وتذهب به فى أنحاء العالم واعظًا الوعظ الجميل.

أجاب سانشو:

– مدرستي الحياة، ولست بعالم كهنوت.

(*) عبارة هوراسيو.

(**) يريد القول أن الموت لا يفرق بين الشاب(الحمل) أو الشيخ (الكبش)، وأنه مثل سـيدة ذات جبروت تفعل ما تشاء، أو مثل الحصاد الذى يحصد الأخضر واليابس، ويأكل كل شىء فى التهامه، وشرابه الحياة.

قال دون كيخوتي:

- وأنت لست فى حاجة إلى كهنوت، وإن كنت لا أفهم كيف تعرف الكثير رغم أن أصل المعرفة هو مخافة الله وأنت تخاف من سحلية أكثر من خوفك لله.

رد سانشو:

- سيدى، احكم فخامتكم على فروسيتك، ولا تقحم نفسك فى الحكم على مخاوف الآخرين أو شجاعتهم؛ فإنني أخاف الله تمامًا مثل كل أبناء قريتنا، ودعنى فخامتكم أستمتع بزحلقة هذا "البهريز" فى معدتى، فكل ما عدا ذلك كلمات باطلة، سيحاسبنا عليها الله فى الحياة الأخرى.

ومنتهيًا من هذا الكلام بدأ من جديد السطو على محتويات الطاسة بنفس مفتوحة، حتى إنه أيقظ شهية دون كيخوتى من ثَم، فمما لاشك فيه أنه سيهرع لمعاونته فى السطو، ما لم تمنعه القوة القاهرة، مما سيقال فيما يلى.

الفصل الحادى والعشرون
حيث تتواصل إجراءات زفاف كاماتشو مع أحداث أخرى طريفة

عندما كان الحوار المشار إليه فى الفصل السابق يدور بين سانشو ودون كيخوتى سمعت أصوات عظيمة وضجة هائلة، وكانت لأفراس فى سباق طويل وتهليل، عند قيامها باستقبال العروسين، المحاطين بألف نوع من آلات واختراعات. وكانا يقدمان بصحبة القسيس، وأسرتيهما، وكل أعيان القرى المحيطة، وكلهم بملابس احتفالية. وعندما رأى سانشو العروس قال:

- بصدق، وبكل الحقيقة، فإنها لم تأت بملابس فلاحة، وإنما فى هيئة جميلات القصور. بحق الإله فحسبما ألمح فإن شعار الصدر من الحرير الأخضر المزين بالمرجان و صورة العذراء، أما أسفل الفستان فمن القطيفة ذات الثلاثين زغبة(*)، والحزام تتدلى منه أشرطة من تيل كوينكا الأبيض، لا، إنه أطلس. يا للهول، يداها مزينتان بحلى من الكهرمان الأسود! ولن أكون شيئًا إذا لم تكن الخواتم من الذهب، بل من الذهب جدا، وبها فصوص من اللؤلؤ الأبيض مثل اللبن المتخثر، وكل فص لابد أن يثمن بعين من عيون الوجه. أوه، يا ابن الداعرة، أى شعر، إذا لم يكن مستعارًا، فأنا فى حياتى لم أر شعرًا أكثر طولاً

(*) يعنى أن كل وبرة ثلاثون زغبة (أو شعرة)، وهى مبالغة شديدة للكشف عن جودة نسيج مدينة كوينكا.

وشقرة! من يستطيع أن يرى فيها عيبًا فى البهاء أو فى القوام؟ ولا تقارنوها بنخلة تهتز محملة بعناقيد البلح، حتى لو بدت دقائق حليها فى الشعر وحول مهوى القرط مثل تلك العناقيد فوق القوام الفاره. أقسم من كل أعماقى أنها صبية فتانة الحسن؛ لو نامت على سرير لصار خشبه خشب الورد!

ضحك دون كيخوتى من الغزل الخشن لسانشو بانثا، وبدا له كأنه يتغزل بسيدته دولثينيا دل توبوسو، فلم ير امرأة أجمل منها قط. وكانت كيتيريا الحسناء تبدو مخطوفة اللون قليلاً، وينبغى أن يكون ذلك بسبب قضاء ليلة سيئة تعودت العرائس على قضائها فى تجهيز أنفسهن لليوم التالى حيث يقام الزفاف. ومضى الموكب يقترب من مسرح كان فى أحد جوانب المرج، قد زين بالسجاجيد والزهور والغار، وذلك لإقامة شعائر الزواج، وللفرجة من فوقه على الرقصات والصنائع، وفى لحظة وصولهما إلى المسرح، سمع من ورائهما أصوات عظيمة، أحدها كان يقول:

– انتظروا قليلاً أيها الناس عديمة الاعتبار كبشر.

وعلى الصوت والكلمات استدارت الرءوس، فرأوها تصدر عن رجل يرتدى على ما يبدو قميصًا أسود مزينًا بتطريز من الحرير الأحمر، وقد أتى متوجًا (كما لاحظوا ساعتها) بتاج جنائزى من السرو، وفى يده حمل عكازًا طويلاً، وعند اقترابه تعرف عليه الجميع، إنه باسيليو الرشيق. بهت الجميع فى انتظار توقف صرخاته وكلماته، وكلهم خشية من وقوع سوء لحضوره فى تلك اللحظة الحساسة.

اقترب فى النهاية متعبًا خامد الأنفاس، ووقف أمام العروسين، غارزا العكاز فى الأرض، حيث كانت نهايته مدببة لها غطاء من الصلب، وقد تغير لون وجهه، واضعًا عينيه على كيتيريا، وبصوت هائل ومتحشرج قال:

– تعرفين جيدًا، أيتها الجاحدة كيتيريا، أنه طبقًا لقانون الكنيسة المقدس الـذى نمارسه، أنه مادام أنا حي، فليس من حقك أن تتزوجى بآخر، وفوق ذلك لا تتجاهلى أنه مع مرور الوقت ومع براعتى وسعيى سوف تتحسن أحوالى الماليـة، ولم أرغب فى أن أترك الانتظار لتحقيق ما يناسب عزتك، لكنك، وقد ألقيـت وراء ظهرك كل واجب فرضه عليك حسن نيتى تجاهك، ها أنت ترغبين فى منح سيد آخر ما هو حق لى، من أجل ثروته التى لا تجعله غنيًا فحسب، بل تجعلـه أيضًا سعيد الحظ. وحتى يبلغ حظه آخر مداه (وليس حسب ظنى لأنه يستحقه بل لأن السماء أعطته له) فإننى بيدى سوف أحطم المستحيل وأرتكب الصعب للمحافظة على هذا الحظ بأن أخرج نفسى من الوقوف بينهما(*). يحيا كاماتشو الثرى مع الجاحدة كيتيريا دهورًا طويلة وسعيدة، وليمت باسيليو الفقير، ليمت ففقره قد قصّ أجنحة سعادته وحمله إلى القبر.

وبعد أن انفض من كلامه أمسك بالعكاز المغروز فى الأرض، مبقيًا نـصفه الأسفل مغروزًا فى الأرض، منتزعًا نصفه الأعلى الذى كان قصبة تستعمل غمـدًا لخنجر متوسط الحجم كان يخفيه بداخلها، وفى غضب طائش وعمد صارم، غـرز الخنجر فى صدره ليخرج من ظهره، وهكذا بقى باسيليو الحزين مستحمًا فى دمه، ممددًا على الأرض، وقد اخترق جسمه نفس سلاحه.

هرع أصدقاؤه لمعونته، يعصرهم ألم بؤسه ونكبتـه. تـرك دون كيخـوتى روثينانتى وهرع أيضًا لنجدته، وأخذه بين ذراعيه، ليجده لم يسلم الروح بعد. أحبوا نزع الخنجر، لكن القسيس الذى هرع هو الآخر إليه، بدا له ألا ينزعـوه قبـل أن

(*) أى بين كاماتشو وحظه.

يتلقى اعترافه، لأن نزع الخنجر يصاحبه فى الحال إسلام الروح. أفاق باسيليو قليلاً، وقال بصوت متألم خافت:

– **إذا أحببت، كيتيريا أيتها القاسية، منحى فى هذه اللحظة الحرجة والأخيرة يدك كزوجة، فإننى، رغم كل شيء، سوف أومن أن مجازفتى مبررة، فبها نلت نعيم أن أصير ملكك.**

وعند سماع القسيس ذلك قال له، إن عليه أن يهتم بصحة الروح قبل لذائذ الجسد، وأن يطلب بكل صدق غفران الله لذنوبه، ولفعلته البائسة. وأجابه باسيليو على هذا أنه لن يعترف بأى حال من الأحوال إذا لم تعطه كيتيريا يدها كزوجة أولاً؛ فإن هذه السعادة سوف تعطى حلاوة لإرادة الاعتراف بجانب رفع روحه المعنوية لذلك.

عند سماع دون كيخوتى طلب الجريح قال بصوت جهورى إن باسيليو يطلب مطلبًا عادلاً ومعقولاً، وفوق ذلك ممكنًا، وأن السيد كاماتشو سوف ينال شرف استقبال السيدة كيتيريا باعتبارها أرملة لباسيليو الشجاع، كما لو كان يتزوجها من يد والدها:

– **وفى هذا المقام لا شيء آخر غير قولة نعم، ولا سبيل غير نطقها، فإن مخدع هذا الزفاف لا يمكن أن يكون إلا القبر.**

كان كاماتشو يسمع كل ذلك، وكل شيء كان يصيبه بالحيرة والاضطراب، دون أن يدرى ماذا يفعل أو ماذا يقول، بينما يطلب منه الموافقة على أن تعطى كيتيريا يدها كزوجة لباسيليو حتى لا تهلك روحه دون الاعتراف، مغادرة الحياة يائسة منها، حتى إنهم حفزوه وأجبروه على القول:

- ليكن إذا أحبت كيتيريا أن تفعل ذلك، مادام أن الأمر لن يؤجل زفافه عليها سوى لحظات.

من ثَم، هرع الجميع إلى كيتيريا، بعضهم بالرجاءات، والآخرون بالدموع، وفريق آخر بمنطق بارع، يطلبون منها أن تعطى يدها للمسكين باسيليو، وهى ظلت أكثر صلابة من الرخام، وأكثر سكونًا من تمثال، مبرهنة على أنها لا تعرف ولا تستطيع ولا تود، وما كانت ستجيب ولو بكلمة، ولن تجيب أبدًا إذا لم يطلب منها القسيس إجابة سريعة حول ما يجب عليها فعله، حيث إن باسيليو، كانت روحه قد تجاوزت الحلقوم إلى الأسنان، ولا يوجد وقت لقرار متردد. وهنا، دون النطق بكلمة، متعكرة الصفو، حزينة، اقتربت كيتيريا الحسناء من مكان باسيليو وهذا بعيون زائغة، وأنفاس متقطعة، نطق مسرعًا باسمها: كيتيريا. معطيًا الدلائل على أنه يحتضر كافرًا، وليس كمسيحى مؤمن. وأخيرًا، طلبت منه كيتيريا راكعة بجانبه يده كزوج بالإشارات، وليس بالكلمات. فتح باسيليو عينيه، ونظر إليها فى تحديق، وقال لها:

- أوه كيتيريا، لقد صرت رحيمة فى الوقت المناسب، عندما صارت رحمتك مثل السكين الذى لم يلبث أن انتزع منى الحياة، فأنا لا أملك القوة للاحتفال بالمجد الذى تهبيننى إياه باختيارى زوجًا لك، أو تعليق الألم الذى يتسارع فى حجب بصرى مع الظل المفزع للموت! وما أتوسل إليك أن تفعليه، نجمتى المهلكة! أن تكون يدى التى تطلبين، ويدك التى ترغبين وهبى لها، ليس لمجرد الواجب أو لخداعى من جديد، وإنما عليك بالاعتراف والقول، بكامل إرادتك دون ضغط، أنك تعطينها وتسلمينها لى كزوج كامل الشرعية؛ فلا يوجد سبب أن تخدعينى فى مثل تلك اللحظة الحرجة، أو تلجئين للتصنع مع من كان له معك كثير من الصدق.

وخلال نطقه هذه العبارات كان يفقد الوعى، حتى إن الحضور مع كل إغماءة كانوا يظنون أنها سوف تحمل روحه معها. كيتيريا بكل الشرف والحياء، ممسكة باليد اليمنى لباسيليو، قالت له:

- لم تكن توجد قوة على الأرض قادرة على لوى إرادتى، وهكذا بكل حرية الاختيار التى أملكها أعطيك يدى زوجة كاملة الشرعية لك، وأستقبل يدك، إذا كنت تقدمها لى بكامل اختيارك، دون أن يصيبها التشوش أو التناقض بسبب الكارثة التى دار حديثك السريع خلالها.

أجاب باسيليو:

- نعم، أعطيك يدى دون تشوش أو اضطراب بكل الوعى المضىء، الذى شاءت السماء أن تمدنى به، هكذا أقدم نفسى وأسلمها لك زوجًا.

أجابت كيتيريا:

- وأنا زوجة لك، والآن لتعيش سنوات طويلة، والآن أيضًا يأخذونك من بين ذراعى إلى قبرك.

قال سانشو بانثا عند ذلك:

- مع أن هذا الفتى شنيع الجرح، يتكلم كثيرًا، دعوه يغادر هذا العبث، وليهتم بخلاص روحه ويعترف للقسيس، فإنه يبدو لى أن روحه قد جاوزت أسنانه إلى لسانه.

وفى حال إمساك باسيليو وكيتيريا بعضهما بعضًا يدًا بيد، ألقى عليهما القسيس فى حنان ودموع بركاته، وهنا نهض باسيليو فى خفة فائقة، ووقف على قدميه، وفى هدوء لا نظير له سحب الخنجر الذى كان جسمه غمدًا له. ذهل كل من كان يحيط به، وبعضهم كانوا بسطاء أكثر منهم فضوليين، وقد صاحوا بأصوات عالية:

– معجزة، معجزة!

لكن باسيليو علق قائلاً:

– لا توجد "معجزة، معجزة!" بل هى "حيلة، حيلة! ".

القسيس غير مصدق ومذهول، مضى يجس الجرح بكلتا يديه، ورأى أن حد الخنجر لم يمر بلحم وضلوع باسيليو، وإنما فى ماسورة مجوفة من الحديد، مليئة بالدم، وكانت مستقرة جيدًا فى المكان الذى أغمد فيه الخنجر، وقد وضع بها دمًا طازجًا حتى لا يتجمد، كما عرف بعد ذلك. أخيرًا، نظر القسيس وكاماتشو وكل الحضور إلى الأمر على أنهم قد تم استغفالهم والسخرية منهم. أما الزوجة فلم يظهر عليها أنها قد ضايقتها الخدعة، وعلى الرغم من سماعها أن هذا الزواج باطل لقيامه على خدعة، قالت إنها تؤكد الزواج وتقبله من جديد، حتى إن الجميع استنتج من ذلك أنه باتفاق الاثنين وتحايلهما تم تدبير كل هذه الخدعة، مما أصاب كاماتشو وصحبه بالعار، فقرروا أن يأخذوا بثأرهم بيدهم، واستلوا السيوف الغزيرة العدد، واتجهوا لمهاجمة باسيليو، الذى استلت للدفاع عنه سيوف كثيرة، تقدمها دون كيخوتى على جواده ممسكًا برمحه ومحكمًا درعه، ومفسحًا مكانًا للمعركة. أما سانشو الذى لا تعجبه ولا تلذ له هذه المهازل فقد اتجه إلى دنان النبيذ، بجوار أوانى الطبخ التى أخذ منها "بهريزه"، وقد بدت له تلك البقعة مكانًا مقدسًا، يستحق احترام الجميع. بينما صاح دون كيخوتى بصوت عال:

– توقفوا عن هذا، أيها السادة، فليس من العقل الثأر من إهانة يصنعها الحب، واعلموا أن الحب والحرب سيان، وهكذا كما أنه من المشروع والمعتاد استعمال الحيل والاستراتيجية للتغلب على العدو، هكذا تكون الوقائع والمنافسات الغرامية، حيث تؤخذ بالحسنى الأكاذيب والخدع التى تهدف إلى

تحقيق نهاية سعيدة للرغائب، مادامت تلك الحيل لا تحط أو لا تدنس شرف الشيء المحبوب. كيتيريا كانت لباسيليو، وهو لها، عبر إرادة وإعداد عـــادل ومحبوب من السماء، وكاماتشو غني يستطيع شراء رغباته عندما وحيثمـــا وكيفما يشاء، وباسيليو ليس له إلا تلك الغنمة، ولا ينبغي أن يحرمه منـــها أحد مهما كان جبروته، فالاثنان قد جمعهما الرب، مما لا يجعل أحدًا يستطيع تفريقهما، ومن يحاول أن يفعل ذلك عليه أولاً أن يمر بسن هذا الرمح.

وخلال ذلك أشهر رمحه بقوة وبراعة، فبث الرعب في قلب كـــل مـــن لا يعرفه، وقد حفر في خيال كاماتشو تمرد كيتيريا حتى محاها من ذاكرته في هنيهـــة خاطفة، وهكذا نجحت معه إغراءات القسيس، وكان رجلاً فطنًا وحسن النية، حتـــى جنح كاماتشو وأنصاره إلى السلم والهدوء، ولتأكيد ذلك أعادوا سيوفهم إلى أغمادهـــا، منحين باللوم على سهولة كيتيريا أكثر من خدعة باسيليو، وقد تحدث كاماتشو قـــائلاً إذا كانت كيتيريا قد أحبت باسيليو كثيرًا وهي فتاة، فإنها كانت ستظل تحبه متزوجـــة، وأن عليه أن يحمد الله أن نزعها منه أكثر من حمده لو كان قد أعطاها له.

وبهذا العزاء والإحساس السلمي، فإن كل أصحاب كاماتشو وأنصار باسيليو ركنوا للهدوء، وكاماتشو الثري كي يظهر أنه لا يحس بخدعة وسخرية، بل لا يعير ما حدث انتباهًا، أحب أن تستمر الاحتفالات كما لو كان سيتزوج بالفعل، لكـــن لـــم يحب باسيليو ولا زوجته ولا أتباعهما متابعتها، وهكذا انصرفوا إلى قرية باســـيليو، فأيضًا الفقراء ذوو المعدن الطيب والفطنة، يوجد من يتبعهم، ويكرمهم، ويـــؤويهم، كما يجد الأغنياء من يجاملهم ويصحبهم.

حملوا معهم دون كيخوتي، مقدرين له أنه رجل جسارة وإقدام. فقط سانـــشو انفطرت نفسه حينما رأى استحالة انتظاره للمائدة العظيمـــة، ومتابعـــة احتفـــالات كاماتشو، والتي استمرت حتى الليل، وهكذا سار خلـــف ســـيده حزينًـــا مـــضطهدًا

لانضمامه لكتيبة باسيليو، هكذا ترك وراءه أوانى مصر(*)، مع أنه يحملها في أعماق الروح، مع طاسته التى أتى على كل ما كان فيها من "بهريز"، لكنها مازالت رمزًا للمجد والوفرة التى فقدها؛ وهكذا مقهورًا ومتفكرًا، مع أنه لا يعانى الجوع، لم يترجل عن حماره متابعًا أثر روثينانتى.

(*) مصطلح كثير الاستعمال فى القرن السادس عشر والسابع عشر، بمعنى "الحياة الوثيرة الطيبة".

الفصل الثانى والعشرون

حيث تحكى المغامرة المهولة لكهف مونتيسينوس الذى يقع فى قلب دى لامانشا، تلك المغامرة التى وصل بها إلى القمة الهمام دون كيخوتى دى لامانشا

كان التدليل الذى تلقاه دون كيخوتى من الزوجين غزيرًا وعظيمًا، مجبرين على ذلك للبراهين التى قدمها دفاعًا عن قضيتهما، فبجانب الشجاعة، امتنًا له فطنته، متخذين منه بطلهما مثلما اتخذت إسبانيا "السِّيد"، لبراعته فى استعمال السلاح، ولكونه فى بلاغة شيشيرون. أما سانشو الطيب فقد لاقى السلوى ثلاثة أيام على حساب الزوجين، اللذين علم منهما أن الجرح المدعى لم يكن مؤامرة مشتركة بينهما، وإنما حيلة من باسيليو، على أمل أن تحقق ما تحقق، مع أن الحقيقة أنه قد اعترف بجانب من تلك الحيلة لبعض أصدقائه، حتى يقوموا فى الوقت المناسب بموافقة هدفه، وتدعيم خدعته. قال دون كيخوتى:

– لا يمكن، بل لا يجوز تسميتها خدعة، مادام هدفها نبيلاً كان. وزواج العاشقين كان الهدف الأسمى، مع الاعتراف بأن النقيض الأكبر للحب هو الجوع، والحاجة الملحة، لأن الحب كله بهجة وفرحة ورضا، ويزداد ذلك عندما يمتلك المحب محبوبه ضد من هم أعداء معترضون وعلنيون: الحاجة والفقر.

وكان يردد كل هذا لعل السيد باسيليو يترك ممارسة مقدراته التى يجيدها، حتى لو كانت مصدر شهرة له، لأنها باختصار ليست مصدرًا للنقود، ويقوم بتنمية

ثروة عبر طرق مشروعة وذكية، وهذه الطرق لا يعدمها أبـدًا مـن كـان فطنًـا وعمليًا. والفقير الشريف (إذا كان من الممكن وصف الفقير بالشرف) يملك ثـروة بامتلاك امرأة حسناء، عندما يحرمونه منها فإنهم يحرمونه من الكرامة ويقتلونـه. والمرأة الحسناء الشريفة ذات الزوج الفقير تستحق التتويج بالغار والتصفيق لغلبتها ونصرها؛ فالحسناء لذاتها تجذب كل من ينظر إليها ويعرفها، وكطعم لذيذ تنطلـق وراءها النسور الملكية والصقور المحلقة، فإذا أضيف للحـسن الحاجـة وضـيق الحال، أطلقوا بجانب ذلك عليها الغربان، وكل نوع من الحدأة والطيور الجارحـة، والتى تقف أمام كل هذه المطاردة ثابتة الجنان تستحق أن يطلق عليها تاج زوجها.

أضاف دون كيخوتى:

– انظر، باسيليو أيها الفطن، هناك رأى لحكيم لا أذكر من كان، أنه لا توجد فى العالم إلا امرأة واحدة فاضلة، ثم أعطى نصيحة أن يعتقد كل زوج أن تلـك المرأة الواحدة هى زوجته، وبهذا يعيش راضيًا مرضيًّا. وأنا لست متزوجًـا، وحتى الآن لم يرد إلى ذهنى أن أكونه، وعلى الرغم من كل ذلك فإننى أجرؤ على تقديم النصيحة لمن يطلبها منى، والنصيحة أن الإنسان عليه أن يبحـث عن المرأة التى يتزوج منها. وأول نقطة فى البحث هى النظر إلى السمعة قبل المال، لأن المرأة الفاضلة لم تحقق السمعة فقط بالفضيلة، لكن بتجسيمها لها، فكثيرًا ما يضر بسمعة المرأة انعدام الحياء والحريات العامة أكثر مـن فعـل السوء فى السر والظلام. وإذا أحضرت امرأة فاضلة إلى بيتك، فإنـه مـن السهل المحافظة عليها، بل زيادة فضلها وفضيلتها، لكن إذا أحضرتها خضراء الدمن تحتاج لجهد جهيد لإصلاحها، فمن الصعب العبور من طرف أقـصى إلى الطرف الأقصى الآخر، وأنا أقول بأن ذلك ليس مستحيلاً، لكنه صعب.

سانشو هناك يسمع ويخاطب نفسه قائلاً:

- كلما قلت شيئًا يصيب نخاع الأشياء ودسمها، تعود سيدى على القول بأننى أستطيع حمل منبر، والسير فى الدنيا أعظ الناس الوعظ الجميل، وأنا أقول عنه إنه عندما يبدأ فى غزل الأحكام وإعطاء النصائح، فهو لا يستطيع فقط حمل منبر فى يده، بل منبرين فى كل إصبع من تلك اليد، وبهما يسير فى الساحات والميادين. ماذا وراء هذا الفم البليغ؟ ليذهب الفارس المشّاء إلى الشيطان، فما أكثر ما تعرف! لقد كنت أظن أنه يعرف فقط ما يتعلق بالفروسية المشّاءة، لكن لا يوجد شيء دون أن ينقر فيه، ولا يترك وضع مغرفته فى إنائه.

عندما كان سانشو يهمس بذلك سمعه سيده فسأله:

- بماذا تتمتم سانشو؟

أجاب سانشو:

- أنا لا أقول شيئًا، ولا أتمتم بشيء، فقط أقول لنفسى كنت أود سماع ما قلته فخامتكم هنا قبل زواجى، فلعلى كنت أستطيع لو حدث ذلك، القول الآن: إن الفحل الطلوقة ماهر الجس.

قال دون كيخوتى:

- وهل تيريزا زوجتك سيئة إلى هذا الحد؟

أجاب سانشو:

- ليست سيئة جدا، وليست جيدة جدا، على الأقل إنها ليست بالجودة التى كنت أرغبها.

قال دون كيخوتى:

- **إنك تسيء الفعل، سانشو، بإساءة القول عن زوجتك، فهى أم أولادك.**

أجاب سانشو:

- **أنا لا أدين لها بشيء، فهى أيضًا تسيء القول عنى فى نزواتها، وخاصة عند شعورها بالغيرة، حيث لا يستطيع الشيطان بنفسه تحملها.**

فى النهاية، قضيا ثلاثة أيام مع العروسين، حيث حظيا بكل تدليل وخدمة كما لو كانا أميرين. طلب دون كيخوتى من حامل الليسانس المبارز البارع أن يرشده عن كيفية الذهاب إلى كهف مونتيسينوس، لأنه لديه رغبة عظيمة لدخوله ورؤيته عيانًا للتحقق عما إذا كانت المعجزات التى يتحدثون عنها فى هذه المنطقة صحيحة. الجامعى أخبره أنه سوف يجعل ابن عم له يرافقه، وهو تلميذ نابه ومغرم جدًا بقراءة كتب الفروسية، من ثَم فإنه بنفس رضية سوف يحمله إلى فوهة الكهف، وسوف يريه "بحيرات رويديرا"، المشهورة جدا فى لامانشا نفس شهرتها فى كل إسبانيا، وأضاف الجامعى أن ابن العم سلوى للعليل، فهو فتى يؤلف كتبًا للنشر يهديها للأمراء. أخيرًا، حضر ابن العم على حمارة حامل، لها بردعة مغطاة بمفرش أخضر لمائدة أو ما شابه ذلك. أسرج سانشو روثينانتى وأعد حمارته، وملأ خرجه بالزوادة، مثل خرج ابن العم حسن الزوادة، وهكذا توكلوا على الله، وودعوا الجميع، وأخذوا طريقهم، فى منحدر يحملهم نحو كهف مونتيسينوس المشهور.

فى الطريق سأل دون كيخوتى ابن العم عن أى جنس تنتمى إليه ممارساته ومهنته ودراسته، فأجابه بأنه دارس للإنسانيات، وأن مهنته تأليف كتب ودفعها للطبع، وكلها مفيدة جدا، وليست أقل تسلية للعباد، أحدها اسمه كتاب الحلل، حيث رسم به سبعمائة وثلاث حلل بألوانها وشعاراتها وأسرار صنعتها، حيث يستطيع كل من شاء صنعها لنفسه وقت الأعياد وحفلات فرسان البلاط، دون السعى لاقتراضها شحاذة من كل من هب ودب، أو قل استجداؤها حسب قولهم، والعقل أن يصنعوها طبقًا لرغباتهم ومقاصدهم.

وواصل ابن العم:

– لأننى أقدم للغيور وللمتكبر وللمنسى وللغائب ... كل حسب ما يناسبه، حتى تخرج الحلة أكثر مناسبة وضبطًا دون عيوب، ولى كتاب آخر علىَّ أن أعطيه عنوان "المسخ أو أوفيديو الإسبانى"، وهو إبداع جديد وغريب، حيث أحاكى أوفيديو بطريقة ساخرة، وأرسم فيه ماهية لاخيرالدا بإشبلية وملاك مادالينا بكنيسة سلمنقة، وبركة بيسنغرًا بقرطبة، وماهية ثيران غيساندو، ولاسييرا مورينا، وينابيع ليجانيتوس، ومغسل القدمين بمدريد، دون أن أنسى مغسل القدمين فى بيوخو والآخر فى البركة المذهبة، ثم مغسل القدمين فى بريورا، وكل هذا مع كناياته واستعاراته وتورياته، وكل ذلك يبهج ويحير ويعلم فى نفس الوقت. ولى كتاب ثالث أطلق عليه ملحق " فيرخيليو بوليدورو"(*)، وهذا الكتاب يعالج موضوع اختراع الأشياء التى لم يذكرها "بوليدورو"، حيث أتحرى جوهرها وما وراءها من عبقرية، بأسلوب يعتمد على الطرافة. فقد نسى فيرخيليو ذكر أول من أصيب بالإنفلونزا فى العالم، وأول من استخدم المرهم لعلاج السفلس، وكل هذا أوضحه بدقة مستخدمًا خمسة وعشرين مصدرًا لكل موضوع، حتى ترى فخامتكم كم من الجهد بذلت، وحتى يصبح الكتاب مفيدًا لجميع الناس.

سانشو الذى بقى ملقيًا اهتمامه لحكايات ابن العم، قال له:

– قل لى يا سيدى، أفسح الله لك فى حظ طبع الكتب! هل تعرف أن تقول لى، وأنت قطعًا ستعرف، فأنت تعرف كل شىء، من كان أول من هرش رأسه، فحسب رأيى أظن أنه ينبغى أن يكون أبونا آدم؟

(*) مؤرخ إيطالى عاش فى أول القرن السادس عشر، له مؤلفات كثيرة.

أجاب ابن العم:

– أظن أن هذا صحيح، لأنه مما لاشك فيه أن آدم كانت له رأس وشعر، ولكونه كذلك سيكون أول رجل قد هرش رأسه على الأرجح.

رد سانشو:

– وهذا ما أعتقده، لكن قل لى الآن من هو أول بهلوان فى العالم؟

أجاب ابن العم:

– فى الحقيقة لن أعرف تقرير ذلك الآن حتى أدرس الأمر، وسوف أدرسه عند عودتى حيث تكون كتبى بين يدى، وسوف أشبع فضولك عندما نرى بعضنا فى المستقبل، فلا ينبغى أن يكون لقاؤنا هذا هو الأخير.

أجاب سانشو:

– انظر سيدى، لا تجهد نفسك فى هذا، فالآن وقع فى خاطرى إجابة سؤالى، فلتعلم أن أول بهلوان هو إبليس فعندما طردوه رموه من السماء نحو الأرض فأتى متشقلبًا حتى هاوية الهاوية.

قال ابن العم:

– معك حق.

وهنا قال دون كيخوتى:

– هذا السؤال وإجابته ليست لك، فلعلك سمعته من أحد.

علق سانشو:

– اسكت يا سيدى، فأنا أقسم أننى إذا انطلقت فى طرح أسئلة وإجابتها فلن أنتهى من ذلك حتى الغد، إذا كان الأمر طرح أسئلة بلهاء ثم إجابتها بترهات لا توجد حاجة للسعى طلبًا لعون الجيران.

قال دون كيخوتى:

– لقد نطقت بأكثر مما تعرف، مع أن هناك كثيرين يجتهدون لمعرفة الأشياء وتحريكها، ثم بعد أن يتم التحرى وتصبح الأشياء معروفة، فإنها لا تفيد الفهم أو الذاكرة قلامة ظفر.

فى هذه وغيرها من الدردشة الممتعة مر عليهم اليوم، وقد قضوا ليلتهم فى قرية صغيرة، حيث قال ابن العم لدون كيخوتى بأنه من تلك القرية حتى كهف مونتيسينوس لا تزيد المسافة عن فرسخين، وأنه إذا كان عاقدًا العزم على دخوله فلابد من التزود بحبال كى يربط نفسه بها للتعلق فى أعماق الكهف. قال دون كيخوتى إنه لو وصل إلى الهاوية فهو يعرف أين يتوقف. وهكذا، اشتروا مائة قامة(*) من الحبال، وفى اليوم التالى فى الثانية مساء وصلوا إلى الكهف، وكانت فوهته واسعة وعريضة لكنها كانت مليئة بنباتات إهليجية، وشجيرات تين برى وعليق، بجانب الحشائش البرية الكثيفة المتشابكة، التى تغطى الفوهة وتغطى النظر، وعند رؤيتها ربطوه بقوة محكمة فى الحبال، وخلال ذلك قال له سانشو:

– انظر فخامتكم، سيدى، ليكن ما تفعله ليس الدفن بالحياة، ولا تضع نفسك فى موضع تبدو فيه إناء مما يضعون للتبريد فى الآبار. نعم، فأنت لا يخصك ولست مسئولاً عن فحص هذا البئر، لأنه يجب أن يكون أسوأ من ظلام سجن مطبق.

(*) القامة = ١,٦٧ متر.

أجاب دون كيخوتي:

– اربطني وأنت ساكت، فمثل هذه المهمة مثل غيرها مكتوبة لي وكانت في انتظار قدومي.

من ثَم قال المرشد:

– أرجوك، سيدي دون كيخوتي، أن تنظر جيدًا، وأن تتروى بمائة عين فيما يوجد هناك بالداخل، فلعلك تجد أشياء أضعها في كتابي "التحولات".

أجاب سانشو بانثا:

– إن الدف في يد من يجيد العزف.

عند الانتهاء من قول ذلك وربط دون كيخوتي من الأمام وليس من الخلف حسب طلبه، قال:

– لم ندرك ضرورة تزودنا بجرس صغير يربط في الحبل الذي يحزمني، حتى تفهموا من صوته أنني مازلت أهبط وأنني حي، ولكن هذا غير ممكن الآن، فعناية الله سوف ترشدني.

وهنا ركع على ركبتيه، وأدى صلاة هامسة للسماء، طالبًا من الله العون، وأن يجعل ما يقع له سعيدًا في هذه المغامرة الجديدة الخطرة، وفي صوت مرتفع قال:

– أوه، سيدة أفعالي وتحركاتي، أيتها الشفافة عديمة النظير، دولثينيا دل توبوسو! إذا كان ممكنًا أن تصل إلى مسامعك هذه التوسلات والرجاءات من عاشقك المحظوظ بحبك، وبحياة جمالك غير المسبوق، أرجوك أن تسمعيها، وهي ليست إلا التوسل إليك بألا تنكري عليَّ عونك وحمايتك مما أنا في أشد الحاجة إليه.

إننى سوف أندفع فى تركيز مبئرًا نفسى وغائصًا فى هذه الهاوية التى تمثل أمام ناظرى، ويعرف العالم أنه إذا أنعمت علىَّ فلن يكون مستحيلاً علىَّ القتال والإنجاز.

عند قوله هذا اقترب من الذروة، ورأى أنه ليس من الممكن التدلى، أو الدخول إذا لم يكن بقوة عضلات الذراعين أو بالسيف لإزالة الحشائش من الطريق، وهكذا قبض على السيف، وبدأ يسقط ويقطع تلك الحشائش البرية التى كانت تسد فوهة الكهف، وفجأة أحدثت ضجة ودويًا، وخرج منها عدد لا حصر له من الغربان العظيمة الحجم، فى كثافة وسرعة فائقة، فألقت بدون كيخوتى على الأرض، وهو إذا كان متشائمًا كمسيحى كاثوليكى يؤمن بالفأل، لأخذ ذلك على أنه نذير سوء، وتراجع عن سجن نفسه فى مكان كهذا.

أخيرًا نهض عندما رأى عدم خروج مزيد من الغربان، ولا غيرها من طيور تفضل الظلام، مثل الخفافيش التى خرج منها الكثير فى نفس الوقت مع الغربان، ومد له الحبل ابن العم، وتركه يتقدم فى تطهير الطريق حتى آخره فى الكهف، وعند دخوله باركه سانشو، راسمًا فوق صدره ألف صليب، وقال:

– هدى الله لك الطريق وعذراء فرنسا(*)، وبركات ثالوث جايتا(**)، يا زهرة وزبدة الفرسان المشّائين، بل زبَدَها. أنت ذاهب إلى هناك يا أشجع رجل فى الدنيا، وصاحب القلب الحديدى الصلب، والذراعين البرونزيتين. مرة أخرى هدى الله لك طريقك، وأعادك حرًا، سليمًا، دون أذى، إلى نور هذه الحياة التى تتركها لتحبس نفسك فى هذه الظلمة التى عنها تبحث.

تقريبًا أدى نفس الصلوات والابتهالات ابن العم.

(*) إحدى القديسات المعظمات فى جنوب سلمنقة.

(**) والثالوث اسم دير بجايتا.

ومضى دون كيخوتى يصرخ بأن يمدوا له الحبل، ثم المزيد من الحبل، وهم كانوا يمدونه شيئًا فشيئًا، وعندما توقفوا عن سماع الأصوات التى كانت تخرج مخرفشة من الكهف، كانوا بالفعل قد انتهوا من إلقاء المائة قامة من الحبل، وصار رأيهم شد الحبل ليرفعوا به دون كيخوتى إلى الخارج، حيث ما عاد هناك مزيد من الحبل لتدليته. ومع كل هذا توقفوا عن فعل شيء حوالى نصف ساعة تقريبًا، وفى نهايتها بدأوا يشدون الحبل بسهولة شديدة ودون الإحساس بأى ثقل، فاعتراهم الإحساس بأن دون كيخوتى بقى بالداخل، وعند استقرار ذلك فى يقين سانشو بكى فى مرارة، ومضى يشد الحبل فى سرعة متزايدة حتى يتحقق من إحباطه، لكن عند شدهم أكثر من ثمانين قامة بقليل على ما يبدو، عادوا يحسون ثقلاً، مما أبهجهم كثيرًا. أخيرًا رأوا دون كيخوتى على مسافة عشر قامات من الحبل رأى العين، وصاح به سانشو:

– اللهم اجعله عودًا حميدًا لفخامتكم، لقد ظننا أنك ستبقى هناك أبدًا.

لم يجب دون كيخوتى بأى كلمة، وكانت عيناه مغلقتين، إشارة إلى نومه. مددوه على الأرض، وحلوا الحبل عن خصره، ومع كل هذا لم يستيقظ، وقد هزوه، وأعادوا الهز والرج والوخز، وفى نهاية برهة طويلة عاد إلى وعيه كما لو كان يستيقظ بعد حلم جاد وعميق، ونظر يسرة ويمنة كما لو كان فزعًا، وقال:

– سامحكم الله يا صديقيَّ، لقد انتزعتمانى من الحياة والمناظر الأكثر لذة ورفاهية مما لم يسبق لإنسى أن رأى أو مر بمثل هذا الفعل، الآن وشيكًا أعرف أن كل ملذات هذه الحياة تمضى مثل خيال وحلم، أو تذبل مثل زهرة الحقل. أوه مونتيسينوس التعيس! أوه، دوراندارتى، خطير الجروح! أوه، بيليرما عديمة

الحظ! أوه، جوادیانا المنتحب! وأنتن دون سعد یا بنات رویـــدیرا، اللائـــی تظهرن فی میاهکن التی تذرفها عیونکن الجمیلة!

أنصت ابن العم وسانشو إلی الکلمات التی کان یقولها دون کیخوتی، کما لو کانت تصدر عن ألم مکثف من أعماق أحشائه. رجوه أن یفهمهما مـــا یقـــول، وأن یذکر لهما ما رأی فی جهنم تلك.

قال دون کیخوتی:

– إذن، لا تسمیاها بهذا الاسم، لأنها لا تستحق ذلك کما ستریان بعد.

طلب أن یعطیاه شیئًا یأکله فهو یعود بجوع أعظم، ففرشوا مفرش ابن العـــم علی الحشیش الأخضر، وهرعوا إلی الزوادة فی خرجی سانشو وابن العم، وجلس الثلاثة جمیعًا فی حب ووئام، جامعین بین أکلة العصاری والعشاء، وعندما انتهـــوا رفعوا المفرش، وعندها قال دون کیخوتی دی لامانشا:

– لا ینهض أحد منکما، وکونا، أیها الابنان، کلکما آذانًا صاغیة لی.

الفصل الثالث والعشرون

عن الأشياء العجيبة التى حكاها دون كيخوتى (الصلب العود) عما رآه فى الكهف العميق مونتيسينوس من أشياء مستحيلة ومهولة تجعلنا نأخذ هذه المغامرة على أنها مختلفة

كانت الرابعة مساء عندما أتاحت الشمس بأشعتها الضعيفة والسحب التى تغطيها لدون كيخوتى دون حر أو مضايقة أن يحكى إلى مستمعيه الاثنين النقيين ما رآه فى كهف مونتيسينوس، وبدأ بهذه الطريقة:

– على مسافة اثنتى عشرة قامة أو أربع عشرة من عمق هذا السجن المطبق تكون تجويف على الجانب الأيمن يتسع لعربة ببغالها، وبه شروخ أو فتحات تؤدى إلى سطح الأرض، وتدخل له بصيصًا من النور هذا التجويف أو الفضاء رأيته فى الوقت المناسب، عندما كنت أمضى متعبًا كئيبًا من رؤيتى معلقًا مشعلقًا فى الحبل، متحركًا فى هذه البقعة المظلمة السحيقة، دون أخذ طريق يقينى أو محدد، وهكذا قررت البقاء فيها للاستراحة بعض الوقت، صرخت فيكما ألا تلقيا الحبل أكثر حتى أقول لكما. لكن من المؤكد أنكما لم تسمعانى، وهكذا مضيت التقط الحبل الذى كنتما تدليانه، صانعًا منه لفة أو حزمة جلست عليها متفكرًا فى عمق، معتبرًا ومتأملاً فيما يجب عمله حتى أصل إلى العمق، دون وجود من يشدنى دافعًا الحبل، وخلال ذلك التفكير وتلك الحيرة، فجأة هجم على النوم العميق دون أن أحاول النوم، بل

وعندما كان آخر شيء يخطر على بالى، وحدث ذلك دون أن أعرف كيف حدث وكيف لم يحدث، واستيقظت من هذا النوم ووجدتنى فى وسط مـــرج هو الأجمل والأهدأ والألذ بين المروج التى يمكن للطبيعة تنشئتها، ويتجـــاوز خيال أصحاب الخيال، فركت عينى منظفًا لهما، ورأيت أننى لم أكن نائمًا إنما حقيقة كنت مستيقظًا، ومع كل هذا لمست رأسى وصدرى لأشهد نفـــسى عما إذا كنت أنا نفس نفسى من يكون هناك فى تلك اللحظة، أو أنه مجـــرد شبح زائل مزوَّر، لكن اللمس والشعور والحديث الذى كنت أحـــدث بـــه نفسى شهد أننى من أنا معكم هنا هو من كان هناك لحظتها. وظهر لبصرى بعد ذلك قصر مهول أو تحصينات قلعة، بدت جدرانها شفافة، ومصنوعة من كريستال صاف، ومفتوح فيها بابان عظيمان، يخرج منهما ويتجه إلى شـــيخ هرم جليل المظهر، يرتدى إهابًا فضفاضًا من صوف خشن بنى اللون، مضى يجر أطرافه وراءه على الأرض، وعلى كتفيه تمنطق مثل طـــلاب الجامعـــات بنطاق امتد إلى الصدر من قماش بيكه من الأطلس الأخضر، وقـــد غطـــت رأسه قبعة سوداء على طراز قبعات ميلانو، ولحيته شديدة البياض تتدلى تحت خصره، ولم يكن يحمل أى سلاح، وإنما مسبحة من الخرز فى يده، كل خرزة فيها أكبر من البندق متوسط الحجم، أما خرز الفواصل العـــشرية(*) فمثـــل بيض النعام المتوسط الحجم. وأما الهيئة والخطوة والجدية، والحضور القوى، فكل صفة من هذه الصفات وجميعها معًا جعلتنى حائرًا مندهشًا. اقترب منى، وأول ما فعل احتضننى بقوة ثم قال لى:

(*) كما هو معروف أن هناك خرزة كبيرة تفصل بين كل عشر خرزات صغيرة.

- "أزمان طويلة، أيها الفارس الهمام دون كيخوتي دى لامانشا، ونحن هنا فى تلك الوحشة والوحدة ننتظر مسحورين رؤيتك، حتى تعطى أخبارًا للعالم حول ما يوجد فى ظلمات الكهف العميق الذى دخلته، والمسمى كهف مونتيسينوس؛ وهو مجد كان فى انتظار أن يقتحمه قلبك الذى لا يهزم، وروحك العظيمة. تعال معى، أيها السيد التقى، فأنا أحب أن أريك العجائب التى يخفيها هذا القصر الشفاف، وهو قصر نفس مونتيسينوس، ومونتيسينوس هو أنا الذى أعطى الكهف اسمه.

- ومجرد أن ذكر لى أنه مونتيسينوس سألته عما إذا كان صحيحًا ما يحكونه فى العالم العلوى خارج الكهف، أنه قد أخرج بسكين صغير قلب صديقة الكبير "دوراندارتى"، وحمله إلى السيدة بيليرما، مثلما أمره الصديق نفسه فى لحظة موته. أجاب أن كل ما يقولونه حقيقى ما عدا موضوع السكين، لأنها لم تكن سكينًا ولا صغيرًا، إنما كان خنجرًا مثلث الطرف، أحدَّ من سن المخرز.

قال عند ذلك سانشو:

- ينبغى أن يكون ذلك الخنجر هو خنجر رامون دى أوثيس الإشبيلى.

واصل دون كيخوتى:

- لا أدرى؛ لكن قد لا يكون، لأن هذا الإشبيلى ابن الأمس، بينما خنجر "رونثيسبايِّس" مكان وقوع هذه النكبة ينتمى إلى أعوام طويلة من قبل، عمومًا تحرى هذا الأمر لا أهمية له ولا يعوق أو يغير حقيقة سياق القصة.

أجاب ابن العم:

- هو كذلك، واصل فخامتكم أيها السيد دون كيخوتى، فأنا أسمعك بأعلى تلذذ فى العالم.

أجاب دون كيخوتى:

- وحاكيًا له لا أشعر بأقل مما تشعر من تلـــذذ، وهكـــذا أقـــول أن المبجـــل مونتيسينوس أدخلنى فى القصر الكريستالى، حيثِ فى صالة أرضية، شـــديدة الطراوة وكلها من الرخام، كان يوجد قبر من المرمر، مقام فى إبداع أستاذىٍّ فوقه رأيت فارسًا ممددًا من رأس القبر لآخره، وليس تمثالاً (كالمعتاد) للميت من المرمر أو من البرونز أو من اليصب، وإنما عظم ولحم حقيقيين. وكانـــت يده اليمنى (والتى، حسب رأيى، مشعرة بعض الشيء ومتوترة، إشارة للقوة التى كان يتمتع بها صاحبها) موضوعة على جانب القلب، وقبل أن أســـأل مونتيسينوس عن أى شيء، ناظرًا إلى نفسى فى حيرة وأنا أرى القبر، قال لى: هذا صديقى دوراندارتى، مرآة وزهرة الفرسان العـــشّاق والـــشجعان فى عصره، مأسور هنا تحت قيد السحر، كمـــا يأســـرنى ويأســـر الكـــثيرين والكثيرات، ميرلين، ذلك الساحر الفرنسى الذى يقولون عنه أنَّهُ كان ابـــنًا للشيطان؛ وما أعتقده أنا أنه لم يكن ابن الشيطان، إنما عرف، كما يقولون، أنه كان له مقدرة شريرة أبعد بنقطة من مقدرة الشيطان. لا أحـــد يعـــرف كيف ولأى سبب يسحرنا، لكن الأمر سوف يذاع مع مضى الزمن القادم، وحسبما أتخيل فقد اقترب ذلك الزمان، وأنه ليس ببعيد. لكن ما يدهـــشنى هو أننى أعرف، يقينًا مثل يقين أننا الآن بالنهار، أن أمر حياة دوراندارتى قد انتهى، فقد أسلم الروح بين ذراعىَّ، وبعد موته أخرجت قلبه بيدىَّ هـــاتين، وفى الحقيقة أننى أتذكر أنه كان لا يزن أقل من رطلين، لأنه طبقًا لخـــصائص الجسم، أن من يملك قلبًا أكبر يوهب شجاعة أكثر من صغار القلوب. إذن مادام الأمر كذلك، وأن هذا الفارس قد مات موتًا حقيقيًا، كيـــف يتنهـــد

ويشكو الآن بين الفينة والفينة؟ وعند قول هذا دورانـــدارتى المـــسكين فى صوت مرتفع، قال:

آه، مونتيسينوس يا ابن العم

آخر ما أطلبه منك بل أتوسل

أنه عندما أكون ميتًا

وتم نزع روحى من بين جنبىَّ

احمل قلبى

حيث تكون بيليرما

سواء أخرجته بسكين أو خنجر

عند سماعه، المبجل مونتيسينوس ركع على ركبتيه أمام الفارس المنتحـــب، وبدموع فى عينه، قال له:

- " لقد تم كل شىء يا ابن العم الغالى، ولقد نفذت ما طلبته منى فى ذلك اليوم القديم لهلاكنا، لقد استخرجت قلبك بأفضل ما استطعت دون أن أترك منه ذرة فى صدرك، ونظفته بمنديل بكل عناية، وغادرتَ حاملاً له أسبق الطريق إلى فرنسا بعد أن أودعتكم حجر الأرض بكثير من الدموع التى كانت كافية لغسل يدى، وتنظيفى من الدم الذى أغرقنى لاختراقى لأحـــشائك، وحـــتى أعطيك علامات أكثر، يا ابن العم، الروح فى المقام الأول، وأنـــا مـــسرع للذهاب إلى رونسفال ألقيت بعض الملح على قلبك حتى لا يخرج منه رائحة قبيحة، وحتى إن لم يصل طازجًا يصل مملحًا فى حضرة الآنسة بيليرما، والتى

هى معكم ومعى ومع جوادیانا حامل دروعكم، ومع القهرمانة رويديرا وبناهما السبع وابنتى أخيها الاثنتين، ومع كثيرين آخرين من معارفكم وأصدقائكم، تحت سطوة سحر الساحر ميرلين منذ سنين طويلة، ومع أن تلك السنين تجاوزت الخمسمائة فإن أحدًا منا لم يمت، ماعدا رويديرا وبناهما وبنات أخيها، واللاتى لبكائهن لابد أن ميرلين شفقة عليهن قد حولهن إلى بحيرات عديدة، موجودة فى دنيا الأحياء، وفى إقليم لامانشا يطلقون عليها اسم بحيرات رويديرا، سبع منها للملك إسبانيا أما ابنتا الأخ فهما لنظام دينى من الفرسان اسمه دون خوان. (وجوادیانا) تابعكم ونائح نكبتكم، تحول إلى نهر يحمل اسمه، والذى وصل إلى سطح الأرض، ورأى شمس السماء الأخرى، فقد كان حزنه عظيمًا لفراقكم، حتى إنه انغمس فى أحشاء الأرض، ولأنه ليس ممكنًا أن يهجر طبيعته المألوفة، فإنه بين الحين والحين يخرج ويظهر حيث يراه الناس وتراه الشمس. وتمضى مديرة لمياهه البحيرات الآنفة الذكر، وبها وبغيرها من الكثير من البحيرات يدخل البرتغال مزهوًا وعظيمًا. ولكن، مع كل هذا، حيثما سار يظهر حزنه وآلام نفسه، ولا يرغب فى تنشئة أسماك مدللة وذات قدر، إنما هى الأسماك الخشنة عديمة القدر، على خلاف أسماك نهر تاخو الذهبى. وهذا الذى أقوله لكم الآن، أوه يا ابن عمى! قد قلته لكم مرارا وتكرارا، وكما أنكم لا تجيبنى، أتصور أنكم لاتصدقنى، أو لا تسمعنى، مما يملأنى أسى يعلم الله مداه. وأخبار جديدة أحب أن أبلغك بها الآن، إذا لم تخفف ألمك فإنها لن تزيده، اعلم أنك تحظى الآن فى حضرتكم، وافتح عينيك لتراه، بذلك الفارس العظيم، والذى تنبأ بأشياء كثيرة بشأنه الساحر ميرلين، ذلك هو دون كيخوتى دى لامانشا، الذى أحيا الفروسية المنسَّاة المندثرة منذ قرون متفوقًا كثيرًا على فرسانها القدماء، وعلى

يديه وبفضله قد يتم فك سحرنا، فإن الأمجاد العظيمة تنتظر حتى يأتى لإنجازها الرجال العظماء"..

أجاب المنكوب دوراندارتى بصوت خافت لإغماءة:

- "وإذا لم يحدث، يا ابن العم! وإذا لم يحدث فصبر جميل وانتظار للحظ، بترتيب ورق اللعب"(*) ومتحركًا قليلاً متخذًا جانبًا، عاد إلى صمته المعتاد، دون أن ينطق بأى كلمة أخرى. وخلال ذلك استمعت إلى نحيب عظيم ونشيج، مصحوب بآهات حزينة وحشرجات، فأدرت رأسى عبر الجدران الكريستال نحو صالة أخرى لأرى صفين من الوصيفات بعيدات الجمال، كلهن فى موكبهن بملابس الحداد، وعلى رأس كل وصيفة عمامة على الطريقة التركية، وفى نهاية الصفين ظهرت سيدة، تبدو فى جدية وجلال، ومثل الباقيات فى ثياب سوداء، وعلى رأسها خمار أبيض يتدلى حتى يقبل الأرض، وعمامتها كانت أكبر مرتين من أكبر عمامة للوصيفات. كانت قرناء الحاجبين، خنساء الأنفين قليلاً، وفمها عظيم، وردى الشفتين، والأسنان التى كادت تبين، مفصلة تظهر غير جيدة النظام مع أنها فى بياض اللوز المقشر، وعلى يديها انفرد نسيج من التيل يعلوه - على ما استطعت لمحه - قلب من لحم مومياتى، جاف ومملح.

قال لى مونتيسينوس:

- "إن كل هؤلاء كُنَّ فى خدمة دوراندارتى وبيليرما، وقد سُحرن مع سيديهن، وإن تلك الأخيرة التى تحمل القلب فوق النسيج التيلى هى السيدة بيليرما، التى تقوم بهذا الموكب مع وصيفاتها أربع مرات فى الأسبوع، وخلاله يتغنين

(*) ستستخدم هذه العبارة فى الفصل التالى لإثبات قدم لعب الورق (الكوتشينة).

أو قل يبكين مرثيات حول جسم ابن عمى المنكوب وقلبه، وإذا كانت بيليرما تبدو لك بعض الشيء قبيحة أو ليست بذلك الجمال الذى اشتهرت به، فذلك بسبب الليالى طويلة الحزن والأيام الأسوأ التى قضتها فى أسر السحر، كما يمكن أن ترى فى الهالات التى تحيط بعينيها، والشحوب الذى يغطى لونها وتلك الهالات مع صفار الوجه ليست نتيجة العادة الشهرية التى تعتاد النساء، لأنه منذ شهور طويلة وسنين متطاولة لم تطل تلك العادة بابها، وإنما كانت للألم الذى يغمر قلبها بسبب القلب الذى تحمله دائمًا فى يديها، والذى به تستعيد وتجدد ذكرى نكبة عاشقها المنحوس الحظ، وإذا لم يكن ذلك قد أصابها، فما كانت تعادلها فى الحسن والجمال والبهاء الحسناء دولثينيا دل توبوسو، عظيمة الشهرة فى كل هذه الأنحاء".

تمتمت أنا حينذاك محدثًا مونتيسينوس:

- "عفوًا، أيها السيد مونتيسينوس، قص حكايتك كما يجب عليك قصها، فأنت تعرف أن أى مقارنة فيها شيء من الحقد، من ثَم لا يوجد سبب لمقارنة أحد بأحد، فإن عديمة النظير دولثينيا دل توبوسو هى ما كانت عليه، والسيدة بيليرما هى ما كانت عليه، وما تكون عليه الآن، وقف عند ذلك".

أجاب على هذا مونتيسينوس:

- "أيها السيد دون كيخوتى، فلتسامحنى فخامتكم، وأعترف بأننى أخطأت الطريق، ولم أحسن القول حين قلت أن تكاد تتساوى السيدة دولثينيا مع السيدة بيليرما، وكان حسبى مع فهمى، ولا أدرى كيف وبأى تخمين، أن فخامتكم هو فارس السيدة دولثينيا، أن أعض لسانى قبل مقارنتها بأحد إلا بجمال السماء نفسها".

وبهذه الترضية التى قدمها لى مونتيسينوس الجليل هدأ قلبى من الفزعة التى أصابتنى عند سماعى أنهم يقارنون سيدتى مع بيليرما.

قال سانشو:

– إننى أعجب من أن فخامتكم لم تصعد فوق هذا العجوز وتطحنه بالركلات حتى دشدشة العظام منه، ونتف لحيته حتى لا تبقى بها شعرة.

أجاب دون كيخوتى:

– لا، سانشو أيها الصديق، لم يكن يحسن بى صنع ذلك، لأننا جميعًا مجبرون على حفظ الاحترام لكبار السن، حتى لو لم يكونوا فرسانًا، وخاصة من كان منهم مسحورًا، وأنا أعلم جيدًا أنه لم يبق فيما حدث بينى وبينه ديون فى دعاوى كثيرةٍ وردود.

وهنا قال ابن العم:

– أنا لا أدرى، أيها السيد دون كيخوتى، كيف فخامتكم فى مثل ذلك الوقت الضيق، هناك تحت، قد رأيت أشياء كثيرة، وتكلمت وأجبت على الكثير.

سأل دون كيخوتى:

– كم من الوقت قضيت تحت؟

أجاب سانشو:

– أكثر من ساعة بقليل.

أجاب دون كيخوتى:

– هذا لا يمكن أن يكون، لأنى هناك أصبحت وأَلْيَلْت، ومر علىَّ الإصباح والإليال ثلاث مرات، بمعنى أنه طبقًا لحسابى فإنى قضيت ثلاثة أيام بلياليها فى تلك الأنحاء البعيدة والخفية عن أنظارنا.

قال سانشو:

– إن ما يقوله سيدى ينبغى أن يكون صحيحًا، كما أن كل ما حدث له واقع فى ظل السحر، فإنه ربما الساعة عندنا ثلاثة أيام هناك.

أجاب دون كيخوتى:

– لعله كذلك.

أجاب ابن العم:

– وهل أكلت فخامتكم خلال تلك الأيام.

أجاب دون كيخوتى:

– لم آكل ولو لقمة، كما لم أحس بالجوع بل حتى لم يخطر على بالى.

قال ابن العم:

– وهل المسحورون يأكلون؟

أجاب دون كيخوتى:

– لا يأكلون، ولا ينمو سوى الأظافر واللحية والشعر، حيث يحدث فيها نمو.

سأل سانشو:

– وبالصدفة، هل ينامون؟

أجاب دون كيخوتى:

– يقينًا لا، على الأقل فى تلك الأيام الثلاثة التى قضيتها هناك لم يغمض أحد جفنيه، وأنا أيضًا.

قال سانشو:

– عليَ هذا يصدق جيدًا المثل: "قل مع من تسير، أقول لك من أنت" مرحى مع هذا الصوم المسحور لفخامتكم وذلك السهر، انظر فخامتكم كم هو مكلف ذلك الجوع والسهر مادامت تصاحب هؤلاء. لكن سامحنى فخـــامتكم، يـــا سيدى، إذا قلت لكم وليأخذنى الله (كنت على وشك أن أقول الشيطان) إن صدقت شيئًا من كل هذا.

قال ابن العم:

– كيف لا تصدق؟ إذن، هل كان السيد دون كيخوتى يكذب، الذى حتى لـــو أحب الكذب، فلم يكن لديه وقت لتأليف وتخيل عدة ملايين من الأكاذيب؟

أجاب سانشو:

– أنا لا أعتقد أن سيدى يكذب.

سأله دون كيخوتى:

– وماذا تعتقد؟

أجاب سانشو:

– أعتقد أن ذلك الميرلين أو هؤلاء السحرة الذين سحروا كل تلك الزمرة، التى تحكى عنها فخامتكم وحدث أن رأيتها واتصلت بها هناك تحت، قد وضع فى خيالك أو فى ذاكرتك كل تلك الأحداث التى حكيتها لنا، وكل ما بقى ولم تحكه.

أجاب دون كيخوتى:

– كل ذلك ممكن أن يكون سانشو، لكن الأمر ليس كذلك، لأن ما حكيته رأيته بعينيَّ هاتين، ولمسته بهاتين اليدين، لكن ماذا يمكن أن تقول الآن؟ كيف، بين

الأشياء والعجائب دون إحصاء التى أرانى إياها مونتيسينوس (والتى بالتدريج وكل فى وقته سأوالى حكايته خلال رحلتنا، لعدم كونها كلها مرتبطة بهـــذا المكان)، عرض لى ثلاث فلاحات، كن فى هذه الحقول المبهجـــة يتقـــافزن ويلعبن كما لو كن نعاج ماعز، وبمجرد أن وقع بصرى عليهن، تعرفت على التى لا نظير لها دولثينيا دل توبوسو، وعلى الفلاحتين الاثنتين اللتين كانتـــا تصاحبانها، الثلاث اللائى تكلمنا معهن عند خروجنا من التوبوسو؟ ســـألت مونتيسينوس هل يعرفهن، فأجابنى أن لا، لكنه كان يتصور أنهن ينبغـــى أن يكن سيدات رفيعات الشأن مسحورات، ظهرن فى المرج من أيام قليلة، وهو لا يستغرب ذلك؛ فهناك أخريات كثيرات أعطاهن السحر صــــورًا متعـــددة وغريبة، ومن بين من تعرف هو عليهن الملكة خنيبرا، وصـــديقتها القهرمانـــة كينتانيونا يسقيان لانثاروتى النبيذ "عند عودته من بريتانيا".

وعندما سمع ذلك سانشو بانثا من سيده، كاد يفقد العقل، وإلا عليه أن يموت على روحه من الضحك، حيث إنه يعرف حقيقة السحر المزيف لدولثينيا، والذى قام فيه هو بدور الساحر، وعند ظهور هذه القرينة لديه، لم يلبث أن عـــرف أن ســـيده دون شك خارج الوعى، وأنه مجنون كامل الجنون، وهكذا، قال:

– فى لحظة سيئة بل فى أسوأ وقت وأنحس يوم هبطت فخامتكم، يا معلمى العزيز، إلى العالم الآخر، وفى وقت مشئوم قابلت السيد مونتيسينوس، الذى أعادك لنا فى هذا الحال. لقد كنت هنا فوق فى أحسن حال، كامل العقل، دون نقص أو زيادة كما وهبه الله إياك، وكنت تصدر الأحكام، وتعطى النـــصائح فى كـــل خطوة، وليس كما الآن حاكيًا لنا أعظم الترهات التى يمكن تخيلها.

أجاب دون كيخوتى:

– لأنى أعرفك، سانشو، فإنى لن أعير كلماتك التفاتًا.

أجاب سانشو:

- وسأفعل أنا نفس الشيء مع كلمات فخامتك، حتى لو جرحتنى، وحتى لو قتلتنى، وذلك مقابل ما قلته لك، أو مقابل ما أفكر فى قوله (ولن أفعل) فى حالة حاجة ما تقول لتصحيح أو تعديل. لكن قل لى، فخامتك، والآن وقد أصبحنا فى سلام مشترك، كيف وبأى طريق تعرفت على سيدتنا؟ وإذا كنت كلمتها، ماذا قالت؟

أجاب دون كيخوتى:

- عرفتها، لأنها كانت ترتدى نفس الملابس التى كانت ترتديها يوم أريتنى إياها، كلمتها فلم تجبنى بكلمة، بل أدارت لى ظهرها، وأسرعت بالانصراف هاربة بسرعة لا تدركها النبلة. أحببت أن أتبعها، وكنت سأفعل ما لم ينصحنى مونتيسينوس بألا أتعب نفسى فى ذلك، لأنه سيكون دون فائدة، وأيضًا اقتربت الساعة التى يناسبنى فيها الصعود إلى أعلى الأرض. وقال لى أنه بمضى الوقت أنه سوف يخطرنى كيف تم فك سحرهم هو وبيليرما ودوراندارتى، مع جميع من كانوا هناك. لكن ما آلمنى أكثر، هو أنه أثناء سماعى تلك العبارات من مونتيسينوس، اقتربت منى على جانب، دون أن أراها خلال قدومها، واحدة من صاحبتى التى لا نظير لسوء حظها دولثينيا، وعيناها تغمرهما الدموع، بصوت متعكر وخفيض قالت لى: "سيدتى دولثينيا دل توبوسو تقبل يدى فخامتكم، وتتوسل إلى فخامتكم أن تعلمها كيف حالك، ولأنها فى حاجة ماسة، فهى أيضًا تتوسل إلى فخامتكم حفظك الله أن تقرضها مقابل هذه التنورة التى أحملها نصف دستة ريالات، أو ما تحمله من

نقود، وهى تعطيك كلمة بأها سوف تردها فى أقــرب فرصـــة". حـــيرنى وأدهشنى ذلك الطلب، وملتفتًا إلى السيد مونتيسينوس، سألته: "هــل مـــن الممكن أن يعانى المسحورون رفيعو الشأن الحاجة؟" وعلـــى هـــذا أجـــابنى: "صدقنى فخامتكم أيها السيد دون كيخوتى، أن ما يسمونه حاجة فى كـــل مكان موجود، ويغطى الجميع، ويلحق بالجميع، بما فـــيهم المـــسحورون لا تعفيهم الحاجة من معاناها؛ من ثَم، فإن السيدة دولثينيا دل توبوسو ترسل فى طلب هذه الريالات الستة، والتنورة غالية، وفيما يبدو لى ليس أمامـــك إلا إعطاؤها ما تطلب، فبدون شك لابد أها فى ضيق عظيم". أجبـــت: "هـــذه القطعة من الملابس لن آخذها، أيضًا لن أعطى ما تطلب، حيث لا أملك غير أربعة ريالات". وقد أعطيتها لها (وكانت تلك الريالات التى أعطيتها أنـــت، سانشو، لى لإعطائها صدقة لمن نصادفهم فى الطريق)، وقلت لهـــا: "قـــولى، صديقتى، لسيدتك، بأنه يثقل على نفسى ما تعانيه، وأننى كنت أود أن أكون أحد أفراد أسرة فوكر البنكية حتى أعالج معاناها، وأعلميها أننى لا أستطيع، بل لا يجوز أن يكون، بل لا يجوز، بخير مادامت تنقصنى مشاهدها اللطيفـــة، ومحادثتها الذكية، وأتوسل إليها حفظها الله، أن تترك أســـيرها وخادمهـــا، وفارسها المجد يراها ويتعامل معها، وقولى لها أيضًا، أها سوف تسمع بفـــك سحرها عندما يكون ذلك أقل ما يمكن أن يرد على بالها، فقـــد أقـــسمت وتعهدت بنفس طريقة الماركيز دى مانتوا حينما أقسم وتعهد بالثـــأر لابـــن أخيه بالدوبينوس، حينما وجده يحتضر وسط الجبال، وكان قسمه ألا يأكل على مائدة وألا يمارس ترف الحياة حتى يثأر له، وهكذا سأفعل أنا بألا أهدأ، وأن أطوف بأقاليم العالم السبعة بأكثر من انضباط الأمير دون بدرو ولى عهد

البرتغال الذى طاف بأركان العالم الأربعة، حتى أفك سحرها". أجابت الوصيفة:" أنت تدين لسيدتى بكل هذا وأكثر". وعندما أخذت الريالات الأربعة، بدلاً من التعبير عن احترامها، قامت بحركة واثبة أبانت عن عصوين أعجفين فى الهواء لساقيها.

قال سانشو عند ذلك الوقت مطلقًا صرخة عظيمة:

- إلهى العظيم! هل من الممكن أن يوجد مثل هذا فى العالم، وأن السحرة والسحر يملكون فيه مثل تلك القوى الهائلة التى قايضت بعقل سيدى الراجح، هذا الجنون الجامح الترهات. أوه، سيدى، سيدى، بحق الله أن تتأمل فخامتكم فى داخلك، وعد إلى زهوك، ولا تصدق هذه التخاريف التى انتقصت من قدرات حواسك وعقلك!

قال دون كيخوتى:

- كما أنك تحبنى كثيرًا، فإنك، سانشو، تتكلم بهذه الطريقة، وكما أنك لست مجربًا فى شئون الدنيا، فكل شيء يعترض فهمه صعوبة يبدو لك مستحيلاً. لكن الوقت سوف يمضى، كما قلت لك فى مرة أخرى، وهناك سأحكى لك عن بعض الأشياء التى رأيتها فى العالم التحتى، ستجعلك تعتقد فيما حكيته الآن من حقائق، مصداقيتها لا تقبل الرد أو الجدال.

الفصل الرابع والعشرون

حيث يحكى ألف تفاهة سفيهة باعتبارها ضرورية لفهم هذه القصة العظيمة

يقول من ترجم هذه القصة العظيمة عن الأصل الذى كتبه مؤلفها الأول سيدى حامدى بن إنجيلين، بأنه عند الوصول إلى مغامرة كهف مونتيسينوس، كان مكتوبًا فى الهامش بيد نفس حامدى هذه العبارات:

- "لا أستطيع أن أفهم أو أقتنع أن دون كيخوتى الهمام قد حدث له بالضبط كل ما كتب فى الفصل السابق، والسبب أن كل المغامرات حتى تلك المغامرة كانت معقولة ومحتملة الوقوع، لكن هذه الخاصة بذلك الكهف لا أرى لها مدخلاً نحو الحقيقة، لذهابها بعيدًا عن صنيع المعقول. من ثَم التفكير فى أن دون كيخوتى يكذب، وهو أصدق الأعيان، وأنبل الفرسان فى عصره، ليس ممكنًا، لن ينطق بكذبة إلا إذا رشقوه بها. من ناحية أخرى، أعتبر أنه حكاها وقالها بكل ملابساتها المذكورة، وأنه لم يستطع أن يختلق فى هذه البرهة القصيرة كل هذه المنظومة من الترهات. وإذا كانت هذه المغامرة مختلفة، فأنا لست مسئولاً عن ذلك، وهكذا دون إثبات زيفها أو صدقها، قمت بتسجيلها. وأنت، أيها القارئ، احكم بما يعنُّ لك، فأنا لا يمكننى ولا أستطيع أكثر مما فعلت، على الرغم من أنه من المؤكد أنه عند زمن نهايته وموته، تراجع عنها، وقال إنها من رسمه ومن اختراعه، عندما بدا له أن ذلك يناسب وينسجم جيدًا مع المغامرات التى قرأها فى كتبه".

وبعد ذلك واصل القص قائلاً:

- "فزع ابن العم، من جرأة سانشو بانثا على سيده ومن صبر هذا السيد، وتصور أن سبب الصبر هو سعادته لرؤية سيدته دولثينيا دل توبوسو، حتى لو كانت مسحورة، من ثَم ولدت فيه هذه الدفقة من الرقة، التي بدرت عنه عند سماعه سانشو، لأنه إذا لم يكن الأمر كذلك، فإن ما قاله سانشو يستحق أن يعاقب عليه بطحنه وبقرع العصا".

فى الحقيقة بدا له سانشو متجرئًا أكثر من اللازم على سيده، فقال له:

- أنا، أيها السيد دون كيخوتى دى لامانشا، أعد اليوم الذى قضيته مع فخامتكم يومًا جيد المحصول، لأننى اكتسبت فيه أربعة أشياء. الشيء الأول، أننى تعرفت على فخامتكم، وهذا مصدر سعادة عظيمة لى. والشيء الثانى، معرفتى بالمخبوء داخل هذا الكهف الذى يحمل اسم مونتيسينوس، مع تحولات واختلاف نهر جوادیانا وسر بحيرات رويديرا، مما سوف يخدمنى فى تأليف كتاب أوفيديو الإسبانى الذى أقوم بكتابته الآن. الشيء الثالث، معرفة قدم لعبة الورق، على الأقل كانت موجودة فى عصر كارلو ماجنو، حسب ما يمكن تخمينه من كلماتك التى قلت فخامتكم أن دوراندارتى قالها، عندما ختم كلماته فى تلك البرهة الطويلة لحديثه إلى مونتيسينوس قائلاً: "... وترتيب ورق اللعب". وهذه العبارة وطريقة الكلام لم يكن قادرًا على تعلمها رجل مسحور، إنما تعلمها عندما لم يكن مسحورًا، وكان ذلك زمن كارلو ماجنو المذكور. هذا التحرى سوف أحفظه من أجل كتابى القادم الذى أنا فى الطريق لتأليفه وهو "ملحق فيرخيليو بوليدورو" حول اختراعات قديمة، وأعتقد أن كتاب فيرخيليو لم يتحدث عن اختراع لعبة الورق،

وسيكون وضعى لها الآن ذا أهمية كبرى، وأكثر من ذلك ربطها بمخترع فى خطورة وتاريخية رجل مثل دوراندارتى. والشيء الرابع، هو معرفتى عن يقين منبع نهر جواديانا الذى هو مجهول حتى الآن من الناس.

قال دون كيخوتى:

– فخامتكم معك كل الحق، لكنى أود أن أعرف، ولينعم عليك الله بالتصريح بطبع كتبك تلك (وهو ما أشك فيه)، لمن سوف تهديها؟

قال ابن العم:

– إسبانيا بها من العظماء الكثير ممن يمكن إهداء الكتب إليهم.

أجاب دون كيخوتى:

– لا، ليس بها الكثير، وليس ذلك لأنهم ليس لهم استحقاق الإهداء، وإنما لأنهم لا يسمحون للمؤلفين به حتى لا يجبروا على إشباع حاجتهم لتقدير الشيء الذى يبدو أن عملهم وأدبهم جدير به. لكن أنا أعرف أميرًا(*) يغنى عن النقص فيمن يقدرون، بل يزيد بإنعامات كثيرة، وإذا جرؤت على ذكرها ربما أثير الحسد فى أكثر من أربعة صدور كريمة، لكن لنقف عند ذلك، ونؤجله لوقت آخر قادم، والآن علينا أن نبحث عن مكان يؤوينا هذه الليلة.

أجاب ابن العم:

– ليس بعيدًا عن هنا صومعة، حيث يتخذ أحد النساك مأوى له، ويقولون إنه كان جنديًا، وفى رأيى أنه مسيحى تقى وفى غاية الذكاء، وفوق هذا فهو

(*) أحيانًا يشير ثربانتس إلى حياته الخاصة فى الرواية، فهو يشير هنا للكونت دى ليموس راعيه.

محسن عطوف، وبجوار صومعة العبادة يوجد بيت صغير قد بناه على حسابه بيديه، لكن مع كل ذلك فهو يتسع لاستقبال الضيوف مع صغره.

سأل سانشو:

– بالمصادفة، عند هذا الناسك بعض الدجاجات؟

أجاب دون كيخوتى:

– قليل من النساك من يعدمون الدجاج، لأن من يمارسون النسك الآن ليسوا كأولئك النساك من نساك صحراء مصر، الذين كانوا يسترون أجسامهم بسعف النخل ويأكلون جذور الأرض. ولا يفهم من مدحى لهؤلاء عدم ثنائى على أولئك، لكنى أحب القول إن صرامة وزهد ذلك الزمان لا يصل إليه معاناة نساك اليوم، لكن ليس لهذا السبب تقل تقواهم، وعلى الأقل من ناحيتى أراهم أتقياء، وعندما تسوء الأمور، فإن الله يقدر ويلطف، لأن المنافق منهم سيتصنع التقوى دون الجمهور الآثم.

وبينما هم فى ذلك، رأوا رجلاً راجلاً يتجه إلى حيث كانوا، سريع الخطو، يلهب بعصاه بغلاً محملاً بالرماح والسنج، وعندما مرَّ بهم حياهم، وتجاوزهم سريعًا. قال له دون كيخوتى:

– أيها الرجل الطيب توقف، حيث يبدو لى أنك تمضى بأسرع من اللازم، مما لا يحتمله هذا البغل.

أجاب الرجل:

– لا أستطيع التوقف، يا سيدى، لأن الأسلحة التى ترونها فوق البغل سوف يحتاجونها غدًا؛ وهكذا فأنا مجبر على عدم التوقف، وداعًا. لكن إذا أحببتم أن تعرفوا لماذا أحملها، فإننى أفكر فى قضاء الليلة فى النزل الواقع بعد

صومعة الناسك بقليل، فإذا كنتم تأخذون نفس الطريق فستجدوننى هناك، حيث أحكى لكم عجائب، ووداعًا مرة ثانية.

وهكذا استحث بغله بنغزة بعصاه، فلم يترك لدون كيخوتى فرصة لسؤاله عن العجائب التى يفكر فى ذكرها لهم، وكما كان فضوليًا بعض الشىء، وترهقه الرغبة فى معرفة أشياء جديدة، أمر بأن يتحركوا فى التو واللحظة، ليقضوا الليلة فى النزل، دون البيات فى منزل الناسك، كما أحب ابن العم لهم أن يفعلوا.

وهكذا كان، فقد ركب كل منهم دابته، وواصلوا ثلاثتهم الطريق الذى يحمل إلى النزل، فوصلوا قبل حلول الليل بقليل إلى صومعة الناسك. قال ابن العم لدون كيخوتى لنمر لتناول بعض النبيذ. مجرد أن سمع ذلك سانشو لوى عنق حماره نحوها، وفعل نفس الشىء دون كيخوتى وابن العم. لكن سوء حظ سانشو شاء ألا يوجد الناسك فى بيته، كما ذكر لهم صبى الناسك الذى وجدوه فى الصومعة. طلبوا منه شرب نبيذهم العزيز الغالى، أجاب بأن سيده ليس لديه منه، لكن إذا أرادوا ماء رخيصًا، فإنه سوف ينفحهم به بكل سرور.

أجاب سانشو:

– إذا كنت ظمآنا للماء، فالطريق يغص بآبار الماء، حيث روّت عطشى. آه، حفل زفاف كاماتشو، ووفرة بيت دون دييجو، كم من المرات أكرر أننى أشتاق إليكم، قد أوحشتمانى!

وبهذا تركوا الصومعة، واتجهوا إلى النزل، وبعد وقت قصير صادفوا صبيًا كان يسير أمامهم ليس مسرعًا كثيرًا، وهكذا لحقوا به. كان يحمل سيفًا على عاتقه، وعلق فيه كيسًا أو صرة، فيما يبدو، كانت لملابسه، التى لا بد أن تكون بنطلونات أو سراويل، ونصف معطف، وشيئًا من القمصان، لأنه كان يرتدى ملابس خفيفة

داخلية من القطيفة عليها علامات من النسيج الأطلس، وفوقها قميص، أما الجوارب فكانت من الحرير، والحذاء مربع الشكل، مما يستعمل فى البلاط، والعمر بين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، مبتهج الوجه، وفيما يبدو أنه خفيف الحركة نشيط. مضى يغنى أدوارًا خفيفة حتى يسلى جهد الطريق، وعندما وصلوه كان قد انفض من غناء دور حفظه ابن العم عن ظهر قلب، يقولون إنه كان يقول:

يحملنى شظف الفقر إلى الحرب

وفى الحقيقة، لو كان فى جيبى نقود ما صرت محاربًا

أول من تكلم كان دون كيخوتى. قال له:

- إنك تسير على مدى هواك فخامتكم، أيها السيد الرشيق. إلى أى قصد طيب؟ فلنعرف إذا رغبت فى ذلك.

أجاب الصبى:

- السير على مدى هواى بسبب الحر والفقر، أما إلى أين أذهب، فللحرب.

سأل دون كيخوتى:

- كيف الفقر؟ فموضوع الحر مفهوم.

أجاب الصبى:

- سيدى، أنا أحمل فى هذه الصرة معطفًا قصيرًا من القطيفة، يكمل هذا الصديرى الذى أرتديه، فإذا استهلكته فى الطريق، لن أستطيع أن أظهر به فى المظهر المشرف فى المدينة، وليس معى ما أشترى به معطفًا آخر، وهكذا لهذا السبب ولتهوية جسمى أسير بهذه الطريقة، حتى ألحق ببعض حملات المشاة،

ليست على أكثر من اثنى عشر فرسخًا من هنا، حيث أحتل مكانًا فيها، ولن ينقصنى أى متاع أحمله معى حتى أصل إلى مكان إقلاعها بحرًا، الذى يقال إنه سيكون قرطاجنة، وأكثر فأنا أحب أن أتخذ من الملك سيدًا لى أفضل من اتخاذ سيد (فقايرى) فى البلاط.

سأل ابن العم:

– وهل لديك عمل آخر بالصدفة؟

أجاب الصبى:

– نعم كان من الممكن أن أخدم أحد عظماء إسبانيا أو أحد حكامها، فهذا تأمين لمن يعمل، يحصل عليه من يخدمون عِلْيَة القوم، فهم يخرجون من غرفة طعام الخدم ليصيروا ملازمين ونقباء، أو بمعاش طيب، لكن أنا سيئ الحظ، كنت أخدم باليومية عارضًا نفسى على فقايرية البلاط، فقد خدمت دائمًا الدخلاء على البلاط، بطعامى، ومرتب ضئيل مسكين، فعند دفع قيمة تنشية ياقة يستهلك نصف المرتب، ومع ذلك فيعد معجزة أن يجد خادم مثلى هذا الحظ غير الخارق للعادة.

سأل دون كيخوتى:

– قل لى بحياتك، أيها الصديق، هل من الممكن طوال الأعوام التى خدمتها لم تحصل على "حُلَّة "؟

أجاب الخادم:

– أعطونى حلتين، وهكذا مثل من يخرج من مدرسة الكهنوت قبل التخرج يسحبون منه زى القسيس، ويعيدون إليه ملابسه الأولى المدنية، هكذا أعاد

إلىّ أسيادى ملابسى بانتهاء مهمتهم فى البلاط، وحملوا أشـــياءهم ومعهـــا الحلتين اللتين أعطياهما لى فقط من باب التفاخر.

قال دون كيخوتى:

– أبيلورشيريا (بخل)(*) هائلة كما يقول الرجل الإيطالى، لكن مع كل هذا، اعتبر خروجك من البلاط حظا سعيدًا، وخاصة مع قصدك الطيب الذى تحملـــه، لأنه لا يوجد شيء فى هذه الأرض أكثر شرفًا وفائدة من خدمة الله أولاً، ثم خدمة الملك وسيدك الطبيعى، ولاسيما فى القتال بالسلاح، فـإن لم تحـــصل عبرها على ثروة أكثر، فعلى الأقل شرفًا أكثر من شرف الاشتغال بالأدب، كما أكرر كثيرًا، رغم أن أغلبية تفضل الأدب على السلاح، متسائلين عن أى ميزة يمكن أن يحملها أصحاب السلاح على أصحاب الأدب؟ أمـــا أنـــا فنعم، أعلم أى ميزة، إنه بريق العظمة الذى يشع منهم، فيميـــزهم علـــى الجميع. وما أود قوله لك احمله فى ذاكرتك، فسوف يكون ذا فائدة عظيمة لك وسلوى فى عملك، وهو: أبعد خيالك عن الوقائع المضادة والمعادية التى يمكن أن تقع لك؛ فأسوأ شيء هو الموت، وكما أن موت الجندى عظيم، فإن أفضل شيء هو الموت. سألوا يوليوس قيصر، وهو الإمبراطـــور الرومـــانى الشجاع، ما هو أفضل موت؟ أجاب: "إنه الموت غير المنتظر، موت الفجاءة، أو الموت غير المتوقع وقوعه. ومع أنه أجاب باعتباره كافرًا وبعيدًا عن معرفة الله الحق، فإنه أحسن القول، فذلك رصد للشعور الإنسانى، وهذا حالـــك، فإن قتلوك بأول رصاصة طائشة أو فى أول اشتباك تشارك فيـــه أو بطلقـــة مدفع أو بانفجار لغم، فماذا يهم؟ فكله موت (تعددت الأســـباب والمـــوت واحد)، وانتهى العمل؛ وطبقًا لتيرينسيو، يبدو الجندى الميت فى المعركة حيًّا مثل الجندى الحى، إلا إذا كان هذا فى حالة هرب، وأيضًا الجنـــدى ينـــال

(*) هذه كلمة إيطالية، استعمالها يكشف عن كراهية الإيطالى الشديدة للبخل.

شرف الشهرة إذا أطاع قادته ومن يمكن أن يكون لهم الأمر. واعلم، أيها الابن، أن الجندى أفضل له أن تفوح منه رائحة البارود وليس رائحة العطر، وإذا نلت الشيخوخة وأنت فى مقارعة السلاح المشرفة، وحتى لو كنت مليئًا بالجروح أو مشوهًا أو أعرج، فعلى الأقل لن تنالك قبل أن تنال الشرف، ولن يهوّن من شأنك الفقر، وبصفة خاصة حيث ينشأ الآن نظام لمواساة الجنود الهرمين، ومشوهى الحرب، لأنه ليس من اللائق أن يفعلوا معهم ما تعود على فعله البعض، حين يحررون عبيدهم السود عندما يشيخون ولا يستطيعون خدمتهم، فيطردونهم من البيت تحت لقب "أحرار"، ويحولونهم إلى عبيد للجوع، الذى لن يقيهم منه إلا الموت. والآن، لا أود أن أقول لك شيئًا أكثر، فاصعد خلفى على الجواد حتى النزل، وسوف تتناول العشاء معى، وفى الصباح تواصل طريقك، سهَّله الله لك حسب نواياك.

لم يقبل الخادم الركوب خلفه، مع أنه نعم قبل العشاء فى النزل، وفى هذه اللحظة يقولون إن سانشو قال لنفسه:

- "يالله منك سيدا! هل من الممكن أن رجلاً يستطيع قول مثل هذا من أشياء جميلة كما فعل الآن، يقول بأنه رأى الترهات المستحيلة التى حكاها عن كهف مونتيسينوس؟ نعم سيدى هو ذلك الرجل! "

وهم فى ذلك وصلوا إلى النزل فى الوقت المناسب، حيث كانت السماء تتجه للإظلام، وبكثير من السرور لسانشو أخذ سيده النزل على أنه نزل وليس على أنه قلعة كما تعود. عندما سأل دون كيخوتى الفندقى صاحب النزل عن رجل يحمل رماحًا وسنجًا، ولم يكونوا بعد قد أكملوا دخول النزل، وهذا أجابه بأنه فى الحظيرة لرعاية بغلة. نفس الشىء مع دوابهم قام به ابن العم وسانشو تاركين لروثينانتى أفضل معلف وأفضل مكان فى الحظيرة.

الفصل الخامس والعشرون

حيث تسجل مغامرة النهيق وطرافة لاعب العرائس مع التنبؤات الخالدة الذكر للقرد العرّاف

لم يترك دون كيخوتي الخبز ينضج في الفرن كما تعودوا القول، قبل أن يسمع ويعرف العجائب الموعودة من سائق الأسلحة. ذهب للبحث عنه حيث قال له الفندقي إنه موجود، فوجده وقال له إن عليه أن يقول له في الحال ما كان عليه قوله بعد، حول ما سأله عنه في الطريق. أجابه الرجل:

– بالراحة قليلاً، دعني فخامتكم، أيها السيد الطيب، من الانتهاء من بث رسالة إلى دابتي، من ثَم سأقول لك أشياء تدهشك.

قال دون كيخوتي:

– لا تتأخر. من أجل ذلك، سأساعدك في كل شيء.

وهكذا جعله يضع الشعير للبغل، وينظف له المعلف، وهذا التواضع أجبر الرجل على أن يحكي له بكل سرور ما كان يطلبه منه، وجالسًا على مصطبة، ودون كيخوتي بجواره، والرجل متخذًا منه ومن ابن العم والخادم وسانشو بانثا والفندقي جلسة استماع ومستمعين، بدأ القول بهذه الطريقة:

– قد تعرفون فخامتكم عن وجود قرية على بعد أربعة فراسخ ونصف فرسخ من هذا النزل، قد حدث أن أحد نواب بلديتها، بالحيلة والخداع من خادمة

عنده، وهكذا تطول حكايته، قد نقص من حظيرته حمار، ومع أن هذا النائب بذل كل المساعى للعثور عليه، لم يكن ممكنًا. مضت خمسة عشر يومًا، طبقًا لما شاع وانتشر، والحمار غـائب، وبينمـا كان النائب حسيرًا فى ميـدان القرية قال له نائب آخر من نفس القرية: " أعطنى البشارة، أيها الزميل، فإن حمارك قد ظهر". قال الأول: "سأرسل لك البشارة، أيها الزميل بل زيـادة لكن فلنعرف أين ظهر". أجاب الآخر الذى عثر على الحمار: "فى الجبـل، رأيته هذا الصباح، دون بردعة أو أى قطعة من عدته، نحيفًا جدًا، فـأحزنتنى رؤيته. حاولت التحليق عليه أمامى، وإحضاره لك، لكنـه كـان شـديد التوحش والاستيحاش، حتى إنى عندما اقتربت منه مضى هاربًا، ودخـل فى أكثر المخابئ تعقدًا فى الجبل. وإذا أحببت أن نعود للبحث عنه، دعنى أحمل حمارتى إلى بيتى ثم أعود فى الحال. قال صاحب الحمار: "إنك تقدم لى مسرة عظيمة، وسأحاول رد هذا الجميل بنفس العملة". خلال كل هذا الملابسات، وبنفس الطريقة التى أحكيها بها يحكيها كل أولئك العـارفين بهـذا الأمـر. باختصار، النائبان، على أقدامهما، ويدًا بيد، ذهبا إلى الجبـل، ووصـلا إلى المكان والموقع الذى اعتقدا العثور على الحمار به، لكنه لم يظهر فى المكـان وكل ما حوله، مهما بالغا فى البحث عنه. وعند رؤيتهما أنه لا يظهر، قـال النائب – الذى سبق له رؤيته – للنائب الآخر: "انظر، أيها الزميـل، لقـد وردت فكرة على بالى، وبها دون أدنى شك، سنكتشف هذا الحيوان، حتى لو كان موجودًا فى أحشاء الأرض، وليس الجبل فحسب، فأنا أعرف أن أنهـق بشكل عجيب، وإذا فخامتكم تعرف التهيق بعض الشيء، فلنسمع غناءك". قال الآخر: "أعرف النهيق تقول أيها الزميل؟ بحق الله، فإننى لا أسمح لأحـد بالتفوق علىَّ فى هذا ولو للحمير نفسها". أجاب الثانى: "الآن سوف نـرى،

لأننى عزمت على أن تذهب لناحية من الجبل، وأنـــا أذهـــب إلى الناحيـــة الأخرى، حتى نحاصره ونسعى إليه معًا، ومن لحظة لأخرى تنهق فخـــامتكم، وسأنهق أنا، ولا سبيل أمام الحمار إلا الاستماع إلينا، والجواب على نهيقنــا، هذا إذا كان فى هذا الجبل". وعلى هذا أجاب صاحب الحمار: "أقول يا أبا الزمل إن الفكرة حيلة ممتازة، تليق بعبقريتك". وهكـــذا افتـــرق الاثنـــان وانقسما، طبقًا للاتفاق، وحدث تقريبًا أن أخذا فى النهيق فى نفس الوقـــت، وكل واحد تحت خداع نهيق الآخر، هرع يبحث عن زميله ظانًا أنه الحمـــار وقد ظهر، وعندما اصطدم أحدهما بالآخر قال فاقد الحمار: "هل من الممكن، أبا الزُمل، أن من كان ينهق لم يكن حمارى؟" أجاب الآخر: "لم يكن إلا أنا". قال صاحب الحمار: "والآن أقول يا أبا الزمل، إنه لا يوجد بينـــك وبـــين الحمار أى فرق، فيما يتعلق بالنهيق، لأننى طوال حياتى لم أر شـــيئًا بهـــذه الأصالة." أجاب صاحب الحيلة: "هذا الثناء والإعلاء من شأنى ينطبق عليك أكثر منى، يا أبا الزمل، فبحق الله آمنت أنكم قادرون على تسجيل نهقـــتين أكثر من أى ناهق خبير فى العالم، بهما تكسب المباراة، لأنك تمتلك صـــوتًا عاليًا، وقرار الصوت، فى توافق وإيقاع، ودقات اللهجة غزيرة ومتسارعة. وباختصار أعلن هزيمتى واستسلامى، وأسلمكم علم هذه المقـــدرة النـــادرة والكفاءة". أجاب صاحب الحمار: "الآن، أقول بأنى سوف آخـــذ نفـــسى وأضعها فى أعلى مقام من هذه اللحظة فصاعدًا، وسوف أفكر فى أننى أتقن شيئًا، ومن ثَم فإنى أتمتع ببعض الظرف، فرغم أننى ظننت دائمًا أنـــنى أنهـــق جيدًا، لكن لم أدرك قط وصولى إلى تلك الذروة التى تقولها عـــنى. أجـــاب الثانى": وقد أقول أنا الآن أيضًا، بأنه توجد مقدرات ومواهب مفقـــودة فى العالم، وأنها سيئة الاستخدام بين أولئك الذين لا يعرفون الاستفادة منـــها".

أجاب صاحب الحمار: "مواهبنا، إذا لم تكن فى حالات مماثلة كتلك التى نعيشها الآن، لا يمكن أن تنفعنا فى حالات أخرى، وحتى فى هذه ادعُ الله أن تكون نافعة". وعندما انتهيا من ذلك عادا إلى الافتراق، واحتل كل منهما موقعه واستأنفا النهيق، وفى كل مرة يعودان إلى الانخداع ويعودان للاجتماع معًا، إلى أن وصلا للاتفاق على علامة حتى يميزا بعضهما من الحمار، بأن ينهق كل واحد فيهما كل مرة نهقتين واحدة وراء الأخرى. وهذا ازدوج كل مرة نهيقهما فى حركة دارت حول كل الجبل، دون أن يجيب الحمار المفقود ولا حتى بإشارات. لكن كيف يتسنى له أن يجيب المسكين منحوس الحظ إذا كانا قد وجداه فى أعمق مخابئ الجبل، وقد أكلته الذئاب؟ وعند رؤيته قال صاحبه: "لقد كان يدهشنى ألا يرد إلا إذا كان ميتًا، فقد كان لابد أن يرد لو سمعنا، وإلا ما كان يكون حمارًا، لكن فى مقابل سماعى لكم تنهقون فى غاية الظرف، فإننى أعتبر أن بحثى عن الحمار جهد مشكور مع أننى وجدته ميتًا". أجاب الآخر: "وإنكم مع الصديق الخبير، فإن لم ينشد رئيس الدير جيدًا، فلن يردد وراءه الرهبان". وهذا عادا بلا عزاء بصوت أجش قد بح من النهيق، وفى القرية حكيا لأصدقائهما وجيرانهما ومعارفهما كل ما حدث لهما أثناء البحث عن الحمار، وقد بالغ كل منهما فى ظرف نهيق الآخر، وقد ذاع الأمر وعرف فى كل القرى المحيطة، والشيطان الذى لا ينام، صديق زراعة الخلافات والمشاحنات فى أى زمان ومكان، نافخًا فى ألف ناى مع هبوب الرياح، ومشعلاً ألف حريق دون سبيل لحريق أو سبب، أمر أهالى القرى الأخرى، عند رؤيتهم بعض أبناء قريتنا ينهقون، معايرين هكذا القرية وجهًا لوجه بنهيق نوابها. خاض في ذلك الصبيان من يد ليد، ومن فم لفم، بين كل شياطين جهنم، وشاع أمر النهيق من قرية إلى أخرى، حتى صار

أهل قرية النهيق ينظر إليهم بالنسبة للآخرين فى تميز، كما ينظر للعبيد السود بالنسبة للسادة البيض، وقد تجاوزت المدى نكبة تلك السخرية، لدرجة خروج المسخور منه فى كتائب مسلحة ضد الساخرين لحسم المعركة، دون أن يتدخل أحد من العقلاء أو السفهاء لعلاج الأمر، ودون أن يخشى أحد عاقبة أو يخجل من فعلة. وغدًا أو بعد غد سوف تخرج قريتى، قرية النهيق، فى حملة ضد قرية على بعد فرسخين فى الجوار، وهى من أكثر القرى معايرة لنا، وحتى يخرجوا فى أفضل عدة، أحمل أيها الأصدقاء هذه الرماح والسنج التى رأيتموها. وتلك هى العجائب التى وعدتكم بحكايتها، وإذا لم تظهر لكم عجيبة فإنى ليس لدىَّ غيرها.

بهذا أنهى هذا لرجل الطيب حديثه، وهنا دخل رجل من باب النزل يرتدى ملابس كاملة من الشمواة، وجوربين وسروالين، ومعطفًا وبصوت مرتفع:

– أيها الفندقى المضيف، هل لديك مأوى؟ لأنه قادم إلى هنا القرد العرَّاف، وصندوق الدنيا لقصة حرية ميليسندرا.

– لعمر الله! الأسطى بدرو عندنا؟ يا مرحبًا بليلتنا!

ولقد أنسيت أن أقول كيف أن الأسطى بدرو ذاك كان يغطى عينه اليسرى وتقريبًا نصف خده بقطعة من الحرير التفتة الأخضر، دلالة على أن الجانب الأيسر من خده لابد أن يكون مريضًا، وواصل الفندقى الكلام قائلاً:

– على الرحب والسعة فخامتكم أيها السيد الأسطى بدرو، أين القرد وأين صندوق الدنيا؟ فأنا لا أراهما.

أجاب مغطى العين:

– شكرًا، وأنا سوف أخفض السعر، وإذا قبضت التكلفة فقط سأعد ذلك مكافأة طيبة لى، والآن سوف أعود بعد دفع العربة التى بها القرد والصندوق.

وفى الحال خرج من النزل. سأل عندها دون كيخوتى صاحب النزل عمن يكون الأسطى بدرو، وأى صندوق وأى قرد يحملهما معه، وعلى هذا أجابه الفندقى:

– هذا لاعب عرائس مشهور، وهو منذ أيام طويلة يتجول فى أنحاء لامانشا دى أراجون عارضًا صورًا لتحرير ميليسندرا على يد الشهير (دون جايفيروس)، وهى واحدة من أفضل وأجمل القصص الممثلة التى رآها الناس فى هذه المملكة منذ أعوام طويلة. ويحمل معه أيضًا قردًا ذا مقدرة نادرة، لا يمكن تخيلها عند بنى الإنسان، فما بالك إذا ظهرت بين القرود، لأنه إذا سألوه شيئًا فإنه يستمع بانتباه، ثم يقفز على كتف صاحبه ويسر الإجابة، التى يعلنها الأسطى فى الحال. وهو يعرف عن الأشياء الماضية أكثر بكثير عما يعرف عن المستقبل، ومع أنه لا يصيب فى كل ما يقول، لكنه لا يخطئ فى الأغلبية، لدرجة أنه يجعلنا نعتقد أن الشيطان نفسه يسكن فى جسمه. وهو يأخذ ريالين مقابل كل سؤال، إذا أجاب عليه القرد، أود القول، إذا أجاب صاحب القرد بالنيابة عن القرد، بعد أن يسر هذا الإجابة فى أذنه، وهكذا يظنون أن هذا الأسطى ثرى، وأنه زير نساء (كما يقولون فى إيطاليا)، ونديم كريم، ويحيا مستمتعًا بالحياة، له أكثر من ستة ألسنة عند الكلام ودستة أفواه عند الشرب، وكل هذا على حساب لسانه، وقرده، وصندوق دنياه.

وهنا عاد الأسطى بدرو، وفى عربة يد جاء الصندوق والقرد، ضـــخم، دون ذيل، بشعر متلبد حول استه، لكن لم يكـــن ســـيئ الهيئـــة، وبمجـــرد أن رآه دون كيخوتى سأله:

- قل لى فخامتكم أيها السيد العراف، أى صيد سنقع عليه؟ وما مصيرنا؟ وانظر لما ستأخذه من ريالين.

وأمر سانشو إعطاء ريالين إلى الأسطى بدرو، والذى أجاب نيابة عن القرد، وقال:

- أيها السيد، هذا القرد لا يجيب ولا يعطى أنباء عن الأشياء القادمة، أما الأشياء الماضية فهو يعرف بعض الشيء، وعن الأشياء الحاضرة لا بأس بما يعرف.

قال سانشو:

- أقسم بالعزيز الجبار، أنى لا أدفع فلسًا نظير أن يقولا لى عما مضى من حياتى، لأنه من يعرفها أفضل منى شخصيًّا؟ وأدفع أنا نظير أن يقولا لى ما أعـــرف، سيصبح خيبة أمل كبيرة، لكن إن يعرف الأشياء الحاضرة ها هما الريـــالان. وليقل لى هذا القرد شديد الطرافة ماذا تفعل الآن زوجتى تيريزا بانثا، وبأى شيء تتسلى.

لم يرغب الأسطى بدرو فى أخذ الريالين، قائلاً:

- لا أحب قبض المكافأة مقدمًا، وليس إلا بعد تقديم الخدمة.

ورابتًا بيده اليمنى ضربتين على كتف القرد الأيسر، وضع القرد نفسه فـــى قفزة واحدة على كتفه، وعند وصول فمه إلى أذنه، أخذت أسنان القرد تلتقـــى ثـــم

تتفصل فى تسارع واضح، ومنتهيًا القرد من ذلك فى طقس شعائرى ، أصبح القرد على الأرض فى قفزة أخرى، وفى الحال مضى الأسطى بدرو ليركع أمام دون كيخوتى محتضنًا رجليه، وقال:

– هاتين الرجلين أحتضن، كما لو كنت أحتضن عمودى هرقل. أوه، أيها الباعث النبيه للفروسية المشآءة بعد أن سقطت فى طى النسيان! أوه، دون كيخوتى دى لامانشا الفارس الذى لا نظير لما يستحق من ثناء، يا باعث الروح فى المنهارين، والصعود لمن فى سبيلهم للسقوط، وذراع المستضعفين، ويا عكاز وعزاء كل التعساء.

بهت دون كيخوتى، وأسقط فى يد سانشو، وتحيَّر ابن العم، وذهل الصبى الخادم، واتسعت بلاهة راوى النهيق، واضطرب الفندقى، وفى النهاية فزع كل من كانوا يسمعون لاعب العرائس، والذى استمر يقول:

– وأنت سانشو بانثا الطيب، يا أفضل حامل دروع لأفضل فارس فى العالم، ابتهج؛ فإن زوجتك الطيبة تيريزا بخير، وتلك هى الساعة التى تندف فيها الكتان، ومن أجل إشارات أكثر، يوجد على جانبها الأيسر إبريق متسع الفوهة يتسع لقدر طيب من النبيذ، تتسلى به أثناء عملها.

أجاب سانشو:

– هذا ما أعتقده تمامًا، لأنها صاحبة مزاج، ولأنها ليست غيورة لا أقايضها ولا حتى بالعملاقة أندااندونا، والتى طبقًا لما يقول سيدى فى قصة أماديس، إنها كانت سيدة كاملة المعانى ذات فضل، وامرأتى تيريزا ممن لا يسمحن بالأوقات السيئة، حتى لو كان ذلك على حساب أبنائها أولياء عهدها.

فى هذه اللحظة قال دون كيخوتى:

- الآن أقول إن من يقرأ كثيرًا، ويمشى كثيرًا، يرى كثيرًا ويعرف كثيرًا. أقول هذا لأنه، أى حجج كانت تكفى لإقناعى أن هناك قرودًا فى العالم يتنبأون، كما رأيت الآن بأم عينى؟ لأننى ذلك الدون كيخوتى دى لامانشا الذى تحدث عنه الحيوان الطيب، رغم أنه جاوز الحد قليلاً فى الثناء علىَّ، ولكن كيفما كنت، أشكر السماء التى وهبتنى نفسًا رقيقة وعطوفة، تميل دائمًا لفعل الخير للجميع ولا تفعل سوءًا بأحد.

قال الصبى للخادم :

- لو كان معى نقود لسألت السيد القرد ماذا سيحدث لى فى المسعى الذى أقوم بالرحلة إليه.

وعلى هذا أجاب الأسطى بدرو، الذى كان قد نهض من ركوعه بين قدمى دون كيخوتى:

- لقد سبق لى القول إن هذه الدابة لا تجيب على أسئلة المستقبل، وإذا أجابت فلا تهم النقود، فمن أجل خدمة السيد دون كيخوتى، الحاضر معنا، أترك كل مكاسب الدنيا. والآن مادمت قلت ذلك، فحتى أسُرَّه، سوف أركب صندوقى، وأسلى كل من فى النزل، دون قبض أى نقود. وعند سماع الفندقى ذلك ابتهج كثيرًا، وأشار عليه بالمكان الذى يمكن أن يركّب فيه الصندوق، الذى تم تركيبه فى لحظات.

دون كيخوتى لم يكن كثير السرور بنبوءات القرد، لما بدا له أنه ليس مناسبًا نبوءات قرد، حتى لو كانت للمستقبل أو الماضى، وهكذا أثناء تركيب الأسطى

بدرو للصندوق، انسحب دون كيخوتى مع سانشو إلى ركن فى الحظيرة، وبعيدًا عن آذان الجميع، قال له:

– انظر سانشو، لقد تأملت جيدًا فى مقدرة القرد، صاحب القرد، لابد أنه أقام (عهدًا)(*) مضمرًا أو (معلنًا) مع الشيطان.

أجاب سانشو:

– إذا كان (العبد ملعنًا) ومع الشيطان، فمما لاشك فيه أنه (عبد شديد السواد)؛ لكن ما فائدة هذا العبد للأسطى بدرو؟

– أنت لا تفهمنى سانشو لا أريد قول أكثر من أنه ينبغى أن يكون قد أقام شيئًا من علاقة انسجام مع الشيطان، تتأسس عليها مقدرة هذا القرد، الذى يكسب من ورائه عيشه، وعندما يصير غنيًّا سوف يهب الشيطان روحه، وهذا ما يسعى إليه الشيطان عدو العالمين. وقد جعلنى أعتقد ذلك كون القرد لا يجيب إلا على الأشياء الماضية والحاضرة، وبراعة الشيطان لا تتجاوز ذلك، أما معرفة المستقبل فلا يمكن التوصل إليها إلا بالتخمين فى كل المراد، لأن الله انفرد بالعلم بها، لأنه رب الزمان ولا يوجد ماض عنده أو مستقبل ، فكل الزمان عند حضرة الله حاضر، وإذا كان الأمر كذلك، فإن القرد يتكلم بأسلوب الشيطان، وأنا مندهش كيف لم يبلغوا عنه محاكم التفتيش الكنسية لفحصه، ومعرفة سر تخمينه، لأنه من المؤكد أن هذا القرد ليس عالم فلك ولا سيده ولا...، ولا يعرفون حساب النجم، والذى يسمونه التنجيم، كثير

(*) ينطق سانشو بطريقته اللغة خطأ مع خطأ فى الفهم؛ فالعهد صار عبدًا، وما ترتب على ذلك من هراء.

الشيوع الآن فى إسبانيا، ولا توجد امرأة شابة أو عاطل أو صرماتي عجوز دون أن يدعى قراءة النجم، كما لو كانت السبعة الطيبة على الأرضية فى لعب الورق، مبددين بأكاذيبهم وجهلهم الحقيقة الرائعة للعلم. وأنا أعرف سيدة سألت أحد هؤلاء المنجمين عما إذا كانت كلبتها الصغيرة ستحمل وستلد، وكم كلبًا ستلد ومن أى الألوان. وما كان من السيد المنجم بعد أن قرأ النجم إلا أن قال لها إن الكلبة ستحمل وستلد ثلاثة كلاب صغيرة،الأول أخضر، والثانى أحمر، والثالث متعدد الألوان، وتم سفاد الكلبة بين الحادية عشرة والثانية عشرة ليلاً وربما نهارًا، وكان ذلك يوم الاثنين وربما كان السبت، وما حدث أنه لم يمض على السفاد يومين حتى ماتت الكلبة من التخمة، ومع ذلك فإن السيد المنجم الكذاب بقى موثوقًا فيه فى القرية باعتباره منجمًا صادقًا، كما يحدث للجميع أو قل لكل النصابين.

قال سانشو:

- ومع كل هذا أود أن تسأل فخامتكم الأسطى بدرو أن يسأل قرده، هل كان حقيقة ما مر على فخامتكم فى كهف مونتيسينوس، لأننى، وسامحنى يا سيدى، أظن أنه كله كان وهمًا وكذبًا، أو على الأقل، أشياء حلم ومنام.

أجاب دون كيخوتى:

- كل شيء ممكن؛ لكنى سأفعل ما تنصح به، رغم أننى لابد أن يبقى لدى شيء من الشك (فى جدوى ذلك).

وبينما هم على هذا الحال وصل الأسطى بدرو، وذلك للبحث عن دون كيخوتى ليبلغه أن الصندوق جاهز للعمل، وأن على فخامته التفضل لرؤيته، لأنه

يستحق أن يرى. أبلغه دون كيخوتى عما يفكر فيه، ورجاه أن يسأل فى الحال قرده كى يقول إذا كانت الأشياء التى وقعت له فى كهف مونتيسينوس حقيقة أو حلمًا، لأنه بدا له أنها تمزج بين الحقيقة والحلم؛ الأسطى بدرو دون أن يجيب بكلمة، عاد لإحضار القرد، وواقفًا أمام سانشو ودون كيخوتى، قال:

– انظر أيها السيد القرد، هذا الفارس يريد أن يعرف عن أشياء معينة، وقعت له فى الكهف المسمى مونتيسينوس، عما إذا كانت زائفة أو حقيقية.

وصانعًا معه الإشارة المعتادة، صعد القرد على كتفه الأيسر مكلمًا له على ما يبدو فى أذنه، بعدها قال الأسطى بدرو:

– القرد يقول إن شطرًا من أشياء فخامتكم التى رآها أو مرت بك، فى الكهف المذكور زائفة، وشطرًا آخر حقيقي، وأن هذا ما يعرفه، ولا شيء آخر يتعلق بهذا السؤال يمكن معرفته الآن، وإذا رغبت فخامتكم فى معرفة شيء أكثر، فهو سوف يجيب الجمعة القادمة على كل سؤال تسأله، لأنه الآن نفدت قدرته، ولن تعود إليه حتى الجمعة، حسب ما قاله.

قال سانشو:

– لا أقول بنفس الشيء، فلا يستقر فى يقينى أن كل ما قلته فخامتكم عن الكهف كان حقيقة، ولا حتى نصفه.

أجاب دون كيخوتى :

– ستكشف الأحداث عن كل شيء، لأن الزمان يكشف غطاء كل شيء، ولا يترك أمرًا حتى يستخرجه ليرى ضوء الشمس، حتى لو كان مختبئًا فى أحشاء الأرض. والآن يكفى هذا، وهيا بنا لنرى عرض الأسطى بدرو الطيب، الذى سيحمل بالنسبة لى شيئًا من الجِدَّة.

أجاب الأسطى بدرو:

- كيف شيئًا؟ صندوقي يحوى بداخله ستين ألفًا (من الجديــد)، وأقــول هــذا لفخامتكم، سيدى دون كيخوتى، إنه واحدة من الأشياء التى تستحق الرؤية فى العالم أكثر من غيرها، ولتعتقد فى الأعمال وليس فى الأقوال، فإلى العمل، فالوقت يتأخر، ولدينا الكثير لنعمله، ولنقوله ونعرضه.

أطاع دون كيخوتى وسانشو، وحضرا حيــث كــان الــصندوق موضــوعًا ومكشوفًا، ومملوءًا من كل الجهات بشمعدانات، جعلتــه براقًــا وســاطعًا. وعنــد وصولهم وضع الأسطى بدرو نفسه بداخله، فهو الذى كان عليه أن يحرك صــور العرائس، وفى الخارج وقف فتى هو خادم الأسطى بــدرو، حتــى يقــوم بــدور الترجمان الراوى، يعلن أسرار العرض، وكان فى يده قضيب، يشاور بــه علــى الصور التى ستخرج.

أخَذ الجميع مكانه، كل من كان فى النزل بعضهم على قدميه على أطــراف الصندوق، واستقر دون كيخوتى مستريحًا وسانشو والصبى الخادم وابن العم فــى أفضل المقاعد، وبدأ الترجمان الراوى يقول ما يسمعه ويراه، ما كان يسمع ويــرى فى الفصل القادم.

الفصل السادس والعشرون

حيث تتواصل المغامرة اللذيذة للاعب العرائس مع أشياء أخرى فى الحقيقة شديدة الطرافة

وسكت الجميع، أهل صور وأهل طروادة(*)، أود القـــول بأنهم جميعًـــا قـــد تعلقت أنظارهم بالصندوق، وبفم الترجمان وعجائبه، أثنـــاء ذلـــك ســـمعوا داخـــل الصندوق دوى طبل وأبواق، وإطلاق مدفعية كثيفة، اختفى هديرها ســـريعًا، وفـــى الحال ارتفع صوت الفتى، وقال:

ـــ هذه القصة الحقيقية التى تُمثَّل أمام فخامتكم مستخرجة حرفيًّا من التقـــارير التاريخية الفرنسية، ومن قصص الرومانث الإسبانية، التى تـــشيع فى أفـــواه الناس والفتيان فى تلك الشوارع. وتعالج الحرية التى أحرزها جايفيروس لزوجته ميليسندرا، والتى كانت أسيرة فى إسبانيا، فى يد العرب فى مدينـــة سانـــسوينيا، والتى كانت تسمى هكذا حينذاك، وهى الآن تـــسمى سرقـــسطة، وانظـــروا فخامتكم هناك حيث يلعب دون جايفيروس النرد، طبقًا للرومانث المغنَّى:

لأن دون جايفيروس قد نسى

أمر ميليسندرا فإنه يلعب النرد

وتلك الشخصية التى تطل هناك بتاج على الرأس وصولجان فى اليدين هـــى الإمبراطور كارلو ماجنو، الأب المفترض لميليسندرا، والذى يغطيه الحزن لرؤيته البطالة والتناسى عند صهره، فيخرج لتحديه، وتنبهوا للحَمِيَّة والحماسة التى يتحداه

(*) عبارة منقولة من الترجمة الإسبانية لإنيادة هوارسيو.

بها، فيبدو أنه لن يفعل إلا قرع رأسه بالصولجان دستة دقات، وفوق ذلك فإن بعض المؤلفين يزعمون أنه فعلها، وأنها كانت ضربات محكمة موجعة، وبعد أن ذكر له أشياء كثيرة عن الخطر الذى يتهدد شرفه لعدم سعيه لتحرير زوجته، يقولون إنه قال له:

– " أكثر من الكثير قلت لك أنظر فى الأمر"

انظروا أيضًا كيف أدار الإمبراطور ظهره، تاركًا دون جايفيروس مع حفيظته، وها هو يلقى نافد الصبر من الغضب بلوحة النرد وبقوالبه بعيدًا عنه، ويطلب مسرعا السلاح، وحضور دون رودان ابن عمه، وها هو يطلب من دوريندادا سيفه، وكيف أن دون رودان لا يرغب فى إقراضه له، عارضًا صحبته فى المهمة الصعبة التى يقتحمها، لكن الشجاع الغاضب لا يقبل العرض، بل يقول بأنه وحده كاف لإخراج زوجته مما هى فيه، حتى لو كانت مخبأة فى أعمق مركز للأرض؛ وبهذا يدخل للتسلح كى يبدأ طريقه نحوها. أديروا فخامتكم عيونكم للبرج الذى يبدو هناك، حيث نتوقع أنه أحد أبراج قلعة القصر فى سرقسطة، والتى يطلق عليها الآن الجعفرية، ولتلك السيدة التى تطل من البلكون، مرتدية زيًّا عربيًّا، إنها التى لا نظير لها ميليسندرا، التى تطل من هناك مرارًا مراقبة الطريق إلى فرنسا، واضعة خيالها فى باريس، وفى زوجها، معزية بذلك أسرها. وانظروا أمرًا جديدًا يحدث الآن، ربما لم ير مثله مطلقًا. ألا ترون ذلك العربى الصامت بطىء الخطوة، واضعًا إصبعه فى فمه، يقترب من ظهر ميليسندرا، انظروا كيف أعطاها قبلة فى قلب شفتيها، والسرعة التى تقوم فيها ببصق القبلة، وتنظيف شفتيها بكمِّ قميصها الأبيض، والانتحاب، وتنزع شعرها الجميل كما لو كان مسئولاً عن الفعلة السيئة. انظروا أيضًا كيف أن هذا العربى الخطير هو مارسيليو ملك سانسوينيا، الذى، لرؤيته سفاهة العربى الذى قبل ميليسندرا، رغم أنه قريب له، أو أحد رجاله الكبار، قد أمر بالقبض عليه وجلده مائتى جلدة، حاملين إياه (فى زفَّه) فى الشوارع المعتادة للمدينة:

مع منادين من الأمام

والمحتسبين من الخلف

وترون هنا حيث يخرجون لتنفيذ الحكم، لأنه عند العرب لا توجد العدالة والإجراءات القضائية مثل ما يحدث بيننا، قال دون كيخوتى عند هذا بصوت عال:

- أيها الطفل، أيها الطفل، واصل قصتك فى خط مستقيم، ولا تضع نفسك فى المنحنيات والمفارق، لأنه لإطلاق الحقائق لابد من البراهين بعد البراهين.

وأيضًا قال الأسطى بدرو من الداخل:

- أيها الصبى لا تغمس نفسك فى الأصباغ، فقط افعل ما يأمرك به هذا السيد، فهذا الأصوب، واصل غناءك السهل، ولا تضع نفسك فى أكثر من مقام موسيقى، فالمعتاد لمن يفعل ذلك تمزيق حباله الصوتية.

أجاب الصبى:

- سأفعل ما تأمرون،

وواصل قائلاً:

- وهذه الشخصية التى تظهر هنا راكبة، ومرتدية إهابًا غسكونيا(*)، هى نفس شخصية دون جايفيروس، الذى تم أخذ الثأر لزوجته من تجرؤ العربى العاشق، وها هى بهيئة أفضل وأكثر سكينة نفس، وقد وقفت فى شرفات البرج، وتتكلم مع زوجها ظنًا منها أنه أحد المسافرين، لتقول له كل تلك العبارات والأحاديث الواردة فى قصة الرومانث التى تقول:

(*) ينتمى إلى غسكونيا جنوب فرنسا.

أيها الفارس إذا كنت مسافرًا

إلى فرنسا، فعن جايفيروس اسأل

– ولن أذكر باقي أقوالها الآن، لأن الناس تمل من الإطناب والتطويل؛ ويكفي ذكر أن دون جايفيروس يكشف عن شخصيته، وباللمحات المبتهجة التي تبديها ميليسندرا تجعلنا ندرك أنها تعرفت عليه، وأكثر؛ فإنها الآن تتدلى من البلكون، لتستقر على مؤخرة جواد زوجها. لكن، آه، يا لسوء الحظ، لقد تعلق ذيل ثوبها بحديد البلكون، وها هي معلقة بالهواء، دون قدرة على الوصول إلى الأرض. لكن، انظروا، كما أن السماء الرحيمة تنجد المضطر عند الضيق الأعظم، حيث يقترب دون جايفيروس ويمسكها دون الالتفات لإمكانية تمزق الثوب الثمين، ورغم صعوبة الموقف، ينجح في إنزالها إلى الأرض، ويضعها فوق فخذى جواده، برفعها وإلقائها فجأة وبسرعة خاطفة خلفه كما لو كانت رجلاً يهبط على ظهر الحصان برجلين مفتوحتين، ويأمرها أن تمسك بقوة، وهكذا تحيط ظهره بذراعيها ليعبرا ويلتقيا مشدودين على صدره، حتى لا تسقط، بسبب أن السيدة ميليسندرا لم تكن متعودة على مثل هذه الطريقة في ركوب الخيل. وانظروا أيضًا إلى رَمْح الحصان الذى يكشف عن ابتهاجه للحمولة الثمينة التي يمضى بها؛ سيده وسيدته. وانظروا كيف يستديرون ويخرجون من المدينة، وفى بهجة وحبور يسلكون الطريق المؤدى لباريس، فلتصلا فى سلام أيها الزوجان الفريدان العاشقان الحقيقيان، ولتصلا فى سلام إلى وطنكما المحبوب، دون أن يعرقل الحظ خطواتكما فى رحلتكما السعيدة، ولتلحظكما عيون أصدقائكما

وأقربائكما، تستمتعان فى سلام هادئ بالأيام (ولتكن أيام نسطور[*]) التى تبقت من حياتكما.

وهنا تعالى مرة أخرى صوت الأسطى بدرو، وقال:

ــ اهدأ أيها الصبى، ولا تبالغ فى العواطف، فكل انفعال سيئ.

لم يعلق الفتى الترجمان بكلمة، إنما واصل حديثه، قائلاً:

– ولم يعدم وجود العيون الفضولية التى تعودت أن ترى كل شىء، والتى لن ينقصها رؤية نزول ميليسندرا من البلكون وصعودها على جواد زوجها، فأبلغوا الملك مارسيليو، الذى أمر بحمل السلاح، والمطاردة فى أسرع ما يمكن، وها هى المدينة تغرق تحت صليل الأجراس التى دقت فى كل أبراج المساجد.

قال فى هذه اللحظة دون كيخوتى:

– هذا لا، فيما يتعلق بموضوع الأجراس فإن الأمر يبتعد عن المناسبة والحقيقة كثيرًا يا سيد الأسطى بدرو،لأنه بين العرب لا يستخدم أجراس، وإنما الطبل وبعض أنواع الأبواق، التى تشبه بعض آلات النفخ الإسبانية، أما صليل الأجراس فى سانسوينيا فهو محض لغو.

وعند سماع الأسطى بدرو لذلك أوقف دق الأجراس، وقال:

– لا تنظر أيها السيد دون كيخوتى إلى هذه الصبيانيات، ولا تفكر فى إيصال الأشياء إلى الكمال، حيث لا وجود للكمال، ألا يمثلون هنا ألف كوميديا، فى العادة مليئة بألف شىء غير مناسب أو غير حقيقى، بجانب اللغو، ومع

(*) نسطور شخصية عاشت أيامها سعيدة فى الإنيادة.

ذلك ينهون جولاتهم دون تعكير أو اعتراض، ويستمعون إليهم ليس بالتصفيق فحسب بل بكل إعجاب وما يفوق الإعجاب؟ واصل أيها الفتى، ودعه يقول؛ فما دمت أملأ كيس نقودى سأمثل سقط قول أكثر، فأشعة الشمس تعترضها ألف ذرة من الغبار.

أجاب دون كيخوتى:

– ما قلته هو الحق.

وقال الفتى:

– انظروا كم من الفرسان اللامعين يخرجون من المدينة فى مطاردة العاشقين الكاثوليكيين، وكم من الطبول تدق ومن الأبواق تنفر، وكم صور ينفخ. وأخشى أن يلحقوا بهما، وسوف يعودون بهما مقيدين مربوطين بنفس ذيل جوادهما، وسوف يكون المنظر فظيعًا.

مستمعين ومشاهدين لغطًا بالعربية كثيرًا، وضجيجًا عظيمًا لفرسان العرب، بدا لدون كيخوتى أن يهرع لمساعدة الهاربين، وهكذا نهض على قدميه وصاح بأعلى صوته:

– لن أوافق أنا، وفى أيامى وحضورى، على أن يؤذى مثل هذا الفارس المشهور، والمتأجج العشق دون جايفيروس، توقفوا أيها الأوغاد، ولا تطاردوه أو تتبعوه، وإذا لم تفعلوا فأنتم فى حرب معى!

ووافق القول العمل، واستل سيفه من غمده، وفى قفزة اتخذ مكانه بجوار الصندوق، وفى فوران غاضب سريع وليس له نظير، بدأ يمطر ضربات بالسيف

على عرائس العرب، مسقطًا بعضها، وقاطعًا رأس البعض الآخر، مفسدًا هذا، ومدشدشًا ذاك، ثم هبط بضربة سيف من أعلى إلى أسفل، حتى إن الأسطى بدرو إذا لم يلق بنفسه إلى أسفل، ويتقوقع ويقبع كانت سوف تطيح برأسه بسهولة أكثر من الإطاحة برأس عروسة حلاوة. أطلق بدرو صرخات، قائلاً:

– توقف فخامتكم، أيها السيد دون كيخوتى، واعلم أن هؤلاء الذين تقتلهم، وتمزقهم، وتسقطهم من على خيولهم، ليسوا عربًا حقيقيين، وإنما عرائس من العجين. انظر، ويلى! إنك تحطم مالى وتقضى على كل ثروتى.

لكن مع هذا، لم يترك دون كيخوتى مضاعفة ضرباته صاعدة هابطة كالمطر. أخيرًا وفى أقل من لحظتين ألقى بكل الصندوق على الأرض وقد تحولت كل حباله وعرائسه إلى نتف وشظايا، مع جرح بليغ للملك مارسيليو، والإمبراطور كارلو ماجنو انشطر تاجه ورأسه إلى شطرين. واضطرب جمع المشاهدين، وهرب القرد معتليًا قرميد مبنى النزل، وامتلأ ابن العم بالخوف، وكسى الجبن الصبى الخادم، وحتى سانشو بانثا أصابه رعب مهول، لأنه كما أقسم بعد هذه العاصفة بأنه لم ير سيده قط بمثل هذا الغضب المنفلت السراح. وهكذا بعد إنجاز الدشدشة العامة للصندوق، هدأ قليلاً دون كيخوتى، وقال:

– أود أن أحصل الآن أمامى فى هذه اللحظة على كل أولئك الذى لا يعتقدون أو لا يحبون أن يعتقدوا فى الفرسان المشّائين، انظروا فيما إذا لم أكن موجودًا هنا، ماذا كان سيجرى لدون جايفيروس الطيب وللجميلة ميليسندرا، فمن المؤكد أنه فى هذه اللحظة نفسها، كان كلاب الصيد هؤلاء سيكونون قد لحقوا بهما، وألحقوا بهما بعض الأذى. باختصار، تحيا الفروسية المشّاءة قبل أشياء كثيرة تحيا هذه الأيام على سطح الأرض.

قال فى تلك اللحظة الأسطى بدرو بصوت به رنَّة المرض:

ـ تحيا وتحيا! مبروك! ويموت أنا! لأننى فى درجة من التعاسة، تجعلنى أستطيع أن أردد مع الملك لذريق:

بالأمس لإسبانيا كنت سيدًا

واليوم لا أملك برجًا مشيدًا

بل لا أستطيع القول عن شىء إنه ليا

– فمنذ ما لا يزيد على نصف ساعة بلحظة قصيرة كنت سيِّدًا لملوك وأباطرة، مملوءة حظائرى وصناديقى وأجولتى بخيول لا نهاية لعددها، وبأمجاد لا حصر لطولها، والآن أرانى بلا عزاء مهزومًا فقيرًا وشحاذًا، وفوق كل شىء بدون قردى، ويقينًا قبل إعادته لأحضانى سوف تعرق حتى أسنانى، وكل هذا بسبب الثورة خاطئة الاعتبار لهذا السيد الفارس، والذى يقال عنه إنه يجير الضعفاء، ويزيل العدوان، ويقوم بأفعال أخرى من البر، ومعى فقط اختفت مقاصده الطيبة، وتبارك الله وتعالى، الذى استوى على العرش. فى النهاية، الفارس صاحب الصورة الحزينة، كان المقدر لتحطيم صور ما أملك.

رق قلب سانشو مع عبارات الأسطى بدرو:

– لا تبك، يا أسطى بدرو، ولا تنتحب، لأنك تكسر قلبى، لأننى أخبرك أن سيدى دون كيخوتى كاثوليكى طيب، ومسيحى تقى، فإذا وقع فى يقينه أنه قد أوقع لك أى أذى، سيعترف لك به، وسيرغب فى دفع قيمته لك، وترضيتك وزيادة، بل أكثر من الزيادة.

- إذا دفع لى السيد دون كيخوتى شطرًا من ثمن العرائس التى حطمها لى سأبقى راضيًا، وسيرضى ضمير فخامته عن نفسه، لأنه لا يمكن استنقاذ ما بيد الغير ضد إرادة صاحبه إن لم يعوضه.

قال دون كيخوتى:

- هو كذلك، لكنى لا أعرف حتى الآن أننى اغتصبت شيئًا لك، يا أسطى بدرو.

أجاب الأسطى بدرو :

- كيف لا؟ وهذا الحطام للعرائس فوق هذه الأرض القاسية العقيمة، من بددها وصفاها جسديًّا سوى القوة التى لا تغلب لهذا الساعد الجبار؟ ولمن كانت أجسام هذا الحطام إلا لى؟ وبأى شىء أرتزق إلا بها؟

قال عند ذلك دون كيخوتى :

- الآن وقع فى اعتقادى ما اعتقدته من قبل مرارًا، أن هؤلاء السحرة الذين يطاردوننى يضعون فى طريقى صورًا وشخوصًا تبدو حقيقية أمام عينى ثم يبدلونها ويضعون مكانها مايحبون. وأقول لك واقعيًا وبكل حق، لقد بدا لى أن كل ما كان يمثل هنا، واقعًا حرفيًّا يحدث، وأن عروسة ميليسندرا هى ميليسندرا نفسها، ودون جايفيروس دون جايفيروس، ومارسيليو مارسيليو، وكارلو ماجنو كارلو ماجنو، ولهذا تغيرت واعترانى الغضب، وحتى أنجز واجب مهنتى باعتبارى فارسًا مشَّاءً أحببت تقديم العون والتفوق لمن كان يهرب، وبهذا الغرض النبيل قمت بما رأيتم، وإذا كان قد انعكس الأمر بالنسبة لى، ليس ذنبى، وإنما هو ذنب الأشرار الذين يطاردوننى، ورغم ذلك، فهذا الضرر، وإن لم يقع بسوء نية، أحب أنا شخصيًّا تحميله علىَّ، وانظر أيها

الأسطى بدرو كم تريد نظير عرائسك، وأنا أعرض عليك دفعه فى الحـــال، فى نقد إسبانى صحيح وقانونى!

مال عليه الأسطى بدرو وقال له :

– ما كنت أتوقع أقل من هذا الورع الفريد للهمام دون كيخوتى دى لا مانشا، المنقذ الحقيقى لكل المضطرين والمحتاجين من الجائلين فى أرض الله، وفى هــذا سيكون الفندقى والسيد سانشو وسيطين ومثمنين بين فخامتكم وبينى حول ما تساويه العرائس المحطمة، أو ما يمكن أن كانت تساويه.

الفندقى وسانشو ذكرا أنهما سيقومان بذلك، وفى الحال نهض الأسطى بدرو من الأرض نحو الملك مارسيليو بدون رأس، وقال:

– هكذا يبدو استحالة إعادة هذا الملك إلى حالته الأولى، ويبدو لى إذا لم يكن هنـــاك رأى أفضل أن يدفع لى نظير موته أربعة ريالات ونصف الريال تعويضًا نهائيًا.

قال دون كيخوتى :

– استمر!

واصل الأسطى بدرو ممسكًا بين يديه الإمبراطور كارلو ماجنو المشطور:

– ونظير شطره من أعلى إلى أسفل شطرين، فليس كثيرًا أن أطلب خمسة ريالات وربع الريال.

قال سانشو:

– ليس بالقليل.

قال الفندقى:

– وليس بالكثير، ولتكن خمسة ريالات فقط.

قال دون كيخوتى:

– أعطوه ما يطلبه خمسة وربع؛ فإن أمر ربع ريال أكثر أو أقل لا قيمة له فى مجموع هذه النكبة الكبيرة، وأسرع، أسطى بدرو، فتلك ساعة العشاء، وعندى عواصف من الجوع تجتاحنى.

قال الأسطى بدرو:

– ونظير هذه العروسة التى طارت أنفها وعين من عينيها، وهى الجميلة ميليسندرا أطلب، وبكل عدل، ريالين واثنى عشر مرابطيا.

قال دون كيخوتى:

– حتى لو اعترض الشيطان طريقهما لن تكون ميليسندرا وزوجها الآن إلا على حدود فرنسا على الأقل، لأن الجواد الذى كان يقلهما بدالى وكأنه يطير أكثر من أنه يجرى، ولهذا لن تبيع لى القطة على أنها أرنب برى، مقدمًا لى الآن ميليسندرا مشطوفة الأنف، بينما هى، إذا أتيح رؤيتها، فسترى مستريحة فى فرنسا مع زوجها، وممددة رجلها. ساعد الله الجميع على أمرهم، أيها السيد الأسطى بدرو، ولنسر جميعًا فى الطريق المستقيم، بقلب سليم.

الأسطى بدرو الذى رأى أن دون كيخوتى عاد إلى خيالاته راجعًا إلى معركته التى لم تكد تنقضى، لم يحب له أن يهرب من دفع النقود له، وهكذا قال:

– هذه لا يمكن أن تكون ميليسندرا، وإنما هى وصيفة من خدمها، وهكذا أطلب فيها ستين مرابطيًا، وبهذا أكون راضيًا.

بهذه الطريقة مضى يضع أسعارًا لعرائس كثيرة محطمة، وبعد أن خفض منها بعض الشيء الحكمان، وبرضا الطرفين وصلت النقود المطلوبة إلى أربعين ريالاً وثلاثة أرباع الريال، وبعد أن دفعها له سانشو، طلب الأسطى بدرو ريالين نظير عمل القرد.

قال دون كيخوتى:

- **ليس عمل القرد، ولكن نظير سكر صاحبه، ومع ذلك فأنا أدفع الآن مائتى ريال لمن يقول لى ببرهان أن السيدة دونيا ميليسندرا، والسيد جايفيروس قد وصلا فرنسا، وأنهما بين أهليهما.**

قال الأسطى بدرو:

- **لن يستطيع أن يقول ذلك لنا أحد أفضل من قردى، لكن ولا الشيطان نفسه الآن يمكنه العثور عليه، مع أننى أتصور أن الحب والجوع سيرغمانه على البحث عنى فى آخر الليل، وصبحنا الله على خير، وهناك سوف نرى.**

باختصار انتهت عاصفة الصندوق، وتعشى الجميع فى سلام وفى أحسن صحبة، على حساب دون كيخوتى الذى كان كريمًا إلى آخر المدى.

قبل الفجر انصرف حامل الرماح والسنج، وبعد استيقاظهما ذهب ابن العم والصبى الخادم لتوديع دون كيخوتى، الأول ليعود إلى قريته، والثانى ليواصل طريقه مع معونة من دون كيخوتى قدرها دستة ريالات. الأسطى بدرو لا يحب أن يدخل فى هزل أو جد أكثر مع دون كيخوتى، حيث كان يعرفه معرفة جيدة، وهكذا بكّر حاملاً حطام صندوقه وقرده، وانصرف أيضًا للبحث عن مغامراته. الفندقى الذى لم يكن يعرف دون كيخوتى، كان معجبًا بجنونه مثل كرمه. أخيرًا، سانشو دفع له ما عليهما بكرم، بأمر من سيده، وعند وداعه، تقريبًا عند الثامنة، تركا النزل، وأخذا الطريق، حيث سوف نسمح لهما بالانصراف والذهاب، فهكذا يكون أنسب لإتاحة الفرصة لحكى أشياء أخرى، تنتمى لكشف فصول هذه القصة المشهورة.

الفصل السابع والعشرون

حيث سندرك من كان الأسطى بدرو وقرده، مع الواقعة الحزينة التى حدثت لدون كيخوتى فى مغامرة النهيق، والتى لم تأخذ النهاية التى أحبها

يدخل سيدى حامدى، كاتب هذه القصة العظيمة، هذا الفصل بتلك الكلمات: "أقسم كمسيحى كاثوليكى... " وهذا حدا بمترجمه إلى القول إن قسم سيدى حامدى كمسيحى كاثوليكى، مع أنه مسلم، وهو، مما لاشك فيه؛ لم يرغب فى قول شىء أكثر من أنه هكذا، كما أن المسيحى الكاثوليكى حين يقسم يقسم بحق أو ينبغى عليه أن يقسم بحق، فيقولها ضمن ما يقول كما لو كان يقسم كمسيحى كاثوليكى، حول ما أحب أن يكتب عن دون كيخوتى، بصفة خاصة، عن قوله عمن كان الأسطى بدرو ومن القرد العراف الذى أدهش تلك القرى بنبوءاته. يقول إذن، إن من قرأ جيدًا القسم الأول من هذه القصة سيتذكر جيدًا خينيس باسامونتى، الذى كان أحد مسخرى الأسطول الذين أطلق سراحهم دون كيخوتى فى سييرا مورينا، واستفاد من ذلك جحودهم، وأسوأ ثمن من هؤلاء الأناس الأشرار، ومعتادة الإجرام، ذلك الخينيس دى باسامونتى، والذى كان يسميه دون كيخوتى خينيسيُو دى باربيوُ، كان الذى سطا على حمار سانشو بانثا، وكما أنه لم يوضع فى القسم الأول متى أو كيف خطفه، بسبب أخطاء الطبَّاعين، مما حدا بالكثير إلى إرجاع هذا النقص الطباعى لذاكرة المؤلف. لكن باختصار، سطا عليه خينيس عندما كان سانشو نائمًا فوقه، مستخدمًا فكرة برونيلو عندما كان ساكريبانتى فوق جواده البراق، وسحب الجواد

من بين رجليه، ثم بعد ذلك استعاده سانشو كما حكينا من قبل. وخينيس هذا، خوفًا من أن تعثر عليه العدالة، والتى كانت تبحث عنه لمعاقبته على جرائمه التى لاحصر لها، والتى كانت كثيرة، وجرائم جرائم، حتى إنه نفسه ألف مجلدًا كبيرًا يحكيها فيه، قرر أن يدخل مملكة أراجون ويغطى عينه اليسرى، مستقرًا فى مهنة لاعب العرائس، لأن هذه مع خفة اللعب باليد، كانت مما يجيده أفضل إجادة.

وقد حدث أن اشترى هذا القرد من أحد الإسبان المحررين بعد عودتهم من بلاد البربر، وقد علمه بعد إشارة معينة أن يقفز على كتفه، ويتمتم فى أذنه، أو يبدو للرائى أنه يتمتم. وبجانب هذا، قبل دخوله أى قرية بصندوق دنياه وقرده، كان يتقصى أخبارها من القرية الأكثر قربًا منها، أو من أى أحد يستطيع أن يتحرى منه تلك الأخبار التى تتعلق بالأشياء الخاصة، التى قد تكون قد وقعت فى حياة أهل تلك القرية، ثم ينقش تلك الأخبار فى ذاكرته، وهكذا ظل يفعل كلما دخل قرية يعرف أبناءها من القرية السابقة لها، وكل القرى رغم ذلك يستقبلونه مبتهجين فرحين قد تعرت أسرارهم، يبدأ بعرض عرائسه مرة هذه القصة ومرة أخرى قصة مخالفة ثم يتلو ذلك عرض مقدرات قرده، ذاكرًا للقرية أنه يتنبأ فقط بالماضى والحاضر، أما عن المستقبل فلا حذق له به. ونظير إجابة كل سؤال يطلب ريالين، وأحيانًا يخفض السعر طبقًا لقياسه لنبض السائل، وربما يقول أحداثًا لأناس من سكان القرية رغم عدم سؤالهم له لاستعراض قدرات القرد المزعومة، فلعدم استعدادهم للدفع والسؤال، يعمل إشارته للقرد، ثم يقول إن القرد قال له كذا وكذا، فتخرج تلك الأقوال مطابقة لتفاصيل ما حدث بالفعل. وبهذا كان ينال مصداقية فوق الوصف، ومضى الجميع يجرى وراءه ويتبعه. وفى مرات أخرى، لكونه فطنًا جدًا كان يجيب بطريقة تجعل الإجابة على قدر السؤال، وكما أن أحدًا لا يضعه فى مأزق أو يضغط عليه حتى يقول كيف يصل قرده إلى النبوءات، فإنه مضى يخدع، مالئًا كيس نقوده. وهكذا عند دخوله النزل تعرف على دون كيخوتى وسانشو بانثا،

ولمعرفته بهما، أصبح سهلاً عنده استثارة إعجاب ودهشة دون كيخـوتى وسانـشو بانثا، وكل من كان حاضرًا هناك، لكن كان سيكلفه غاليًا إذا كان دون كيخوتى قـد خفض يده قليلاً أثناء قطع رأس الملك مارسيليو وتدمير الصندوق (كما حكى فـى الفصل السابق) لأنه كان سيزيل قطعة الحرير التى تغطى عينه ووجهه، ويكـشف عن شخصيته، وربما كان سيزيل حياته نفسها.

هذا كل ما ينبغى قوله عن الأسطى بدرو وعن قرده، ونعود الآن إلـى دون كيخوتى دى لامانشا، وأقول: إنه بعد أن خرج من النزل، قرر أولاً رؤية شـواطئ نهر إيرو، حيث بقى لديه وقت طويل لفعـل الكثيـر قبـل مـسابقات الفروسـية بسرقسطة. واصل طريقه وقد وطن النفس على ذلك القصد، وقد مضى عليه يومان فى الطريق دون حدوث شىء له يستحق الكتابة، وفى اليوم الثالث عنـد صـعوده فوق صخرة، سمع هدير طبل وأبواق وأصوات طلقات نارية. فى البداية ظن أنهـا وحدة عسكرية مارة فى ذلك المكان، وعند رؤية ذلك غمز روثينانتى، وصعد إلـى ذروة الصخرة، وهناك رأى تحت سفحها، على ما بداله، أكثر من مـائتى رجـل مسلحين بأنواع مختلفة من الأسلحة، كما لو كانت رماحًا طويلة، وأقواسًا، وبلطًـا أيديها رماح، ورماحًا عادية، وبعض البنادق، وكثيرًا من التروس. هبط من عليـاء صخرته واقترب من الكتيبة، وكان ما رآه من أعلام غزيرًا ومتنوعًا. ميز الألوان، ومنها عَلَمَ هوَية المقاتلين، وخاصة علم من نسيج أطلس مرسوم عليه حمار يأخـذ هيئة جحش صغير، رأسه مرفوع، وفمه مفتوح، ولسانه خارج الفم، فى وضع من ينهق، وحوله كان مكتوبًا بحروف كبيرة هذان البيتان:

لم ينهقا دون إدراك

هذا العمدة أو ذاك

وبهذا الشعار استنتج دون كيخوتى أن هذا الحشد هم أهل قرية النهيـق، وهكـذا أخبر سانشو مفصلاً له كل ما هو مكتوب على العلم، قال له أيضًا إن من أخبرهم عـن النهيق أخطأ فلم يكن الناهقان نائبين وإنما عمدتين، وعلى هذا أجاب سانشو:

– سيدى، هذا لا يصح تصحيحه، فمن الممكن جدا أن النائبين اللذين هُقا ترقيا مع الوقت إلى عمدتين لقريتهما، وهكذا يمكن أن يطلق عليهمـا اللقبـان، ولكن ماذا يهم أن يكون من هُق عمدة أو نائبًا بالنسبة للحقيقـة التاريخيـة مادام قد تم النهيق فعلاً، فالخطر واحد بالنسبة لعمدة أو لنائب.

وفى النهاية، عرفا أن القرية موضع السخرية تخرج لقتال قريـة أخـرى، سخرت منها بما تجاوز الحد، وبما تجاوز أصول حق الجوار.

كان دون كيخوتى يقترب منهم مع تثاقل وضيق ليس بالقليـل مـن جانـب سانشو، الذى لم يحب قط أن يوجد في مثل هذه الوقائع العسكرية. حـشد الكتيبـة حاصرهما فى وسطهم ظنًا منهم أنهما من الأعداء. دون كيخوتى، وقد رفع حافـة الخوذة ليظهر وجهه، فى بريق وجمال هيئة، اقترب من علم الحمار، وهناك أحاط به كل قادة الجيش وأشجع مقاتليه لرؤيته، مندهشين ذلك الانـدهاش الـذى كـان يصيب دائمًا من يرى دون كيخوتى لأول مـرة. وعنـدما رآهـم دون كيخـوتى مستغرقين فى النظر إليه، دون أن يكلمه أحد بكلمة أو يوجه إليه سؤالاً، أحـب أن يستفيد من هذا الصمت، فمزق صمته هو بصوت عال، وقال:

– أيها السادة الأخيار، بكل غالٍ أتوسل إليكم ألا تقاطعوا الحديث الـذى أود مخاطبتكم به، حتى إذا ظهر لكم أنه لا يسركم أو يغضبكم فبـأدنى إشـارة منكم فإنى سأقفل فمى بخاتم وسأوقف لسانى بكمامة.

قال له الجميع أن يقول ما يحب، فإنهم سوف يسمعونه بتشوق، وبهذا التصريح واصل دون كيخوتى الكلام قائلاً:

– أنا يا سادتى فارس مشّاء، ومهنته ممارسة السلاح، ووظيفته مساعدة المضطرين بمد اليد إليهم والإسراع بنجدة من هو فى ضيق. وقد عرفت نكبتكم منذ أيام، مع السبب الذى دفعكم لحمل السلاح فى كل خطوة، وهو الثأر لأنفسكم من أعدائكم، وحيث إنى قد تأملت قضيتكم فى ذهنى مرة ومرات، فإننى أرى أنه طبقًا لقوانين المبارزة، أنكم مخدوعون بالحكم على أنفسكم بأنكم قد سخر منكم، لأنه لا يمكن لأحد أن يهين قرية كاملة، إذا لم يكن متحديًا لها من أجل صدور خيانة من أحد أبنائها دون معرفة فاعل هذه الخيانة لتحديه شخصيا. ومثال ذلك لدينا دون دييجو أوردنيث دى لارا، الذى تحدى جميع أهل القرية الثامورية لأنه جهل أن بيدو دويفوس وحده هو الذى ارتكب خيانة قتل مليكه، وهكذا تحدى الجميع، ووقع على الجميع الثأر وضرورة مواجهته، مع أنه للحقيقة قد تجاوز الحد المقبول لأى تحدٍّ، لأنه لم يكن ملزمًا بتحدى الموتى، والمياه، والخبز، ولا تحدى من هم فى طريقهم لأن يولدوا، ولا تلك الترهات التى لا تحصى فى قصته وتحداها، لكن، يا للهول! إذا أنجب من أم الغضب، فإن اللسان لن يكون له أب، ولا جامح يصححه أو أدب. وإذا كان الأمر كذلك فإن فردًا واحدًا لا يستطيع أن يهين مملكة أو إقليمًا أو مدينة أو بلدًا بأكمله، كما لا يستطيع إهانة قرية بجميع أهلها. وبهذا يبقى واضحًا عدم وجود سبب للخروج للثأر المتحدى للإهانة المزعومة، فالحقيقة، الإهانة لم تقع، لأنه، على أهل قرية الساعاتية أن يقتلوا فى كل خطوة من يطلقون عليهم هذا الاسم ومثلهم الأوانجية

والباذنجانية، والحوتنجية والصابونجية(*)، أو غيرهم ممن ينابزونهم بالألقاب من المدن والقرى التى تحمل أسماء وألقابًا تطير هنا وهناك من لسان إلى لسان بين الناس والصبيان. طيب! هل بالفعل على هذه البلاد المشهَّر بها أن تتحدى وتثأر وتسير شاهرة سيوفها مثلما يشهر آلته الموسيقية دائمًا الموسيقى الجوَّال، وذلك لأدنى مشاجرة!؟ لا، ولا حتى هذا يسمح به الله أو يقبله؟ فالرجولة الفطنة، والبلد ذو اليقين لا يحمل السلاح إلا لأربعة أشياء، تستحق إشهار السيف والمغامرة بالنفس والحياة والمال. الشىء الأول الدفاع عن العقيدة، والشىء الثانى الدفاع عن الحياة طبقًا للقانون الطبيعى والسماوى، والشىء الثالث دفاعًا عن شرف الأسرة وممتلكاتها، والشىء الرابع دفاعًا عن الملك فى حرب عادلة، وإذا أردنا إضافة شىء خامس (ويمكن عده الثانى)، فإنه الدفاع عن الوطن. وإلى هذه الأسباب الخمسة الكبرى يمكن إضافة أسباب أخرى على أن تكون عادلة ومنطقية، وأن ترغم المرء على حمل السلاح، لكن حمل السلاح من أجل صبيانيات، ومن أجل أشياء هى قبل كل شىء ليست إلا للإضحاك وتزجية وقت الفراغ أكثر منها للتشهير، من ثَمّ يبدو لى أن من يفعل ذلك فإنه يعدم أى منطق معقول، وخاصة عندما يكون ذلك لثأر غير عادل (ولا يوجد ثأر عادل مطلقًا). إن ذلك يسير مباشرة ضد القوانين السماوية التى ندين بها، والتى تأمرنا بالإحسان إلى أعدائنا، وأن نحب من يسىء إلينا، بل يسير مشيرًا إلى عبوديتنا للدنيا أكثر

(*) الساعاتية لقب ساخر لأهل قرية إسبرطينا، والأوانجية (صانعى الأوانى) لقب وادى سوليتا، والباذنجانية لقب طليطلة، والحوتنجية (أبناء الحوت) لقب مدريد، والصابونجية لقب إشبيلية، وكلها ألقاب للسخرية.

من عبوديتنا لله، وللمادة أكثر من الروح، لأن المسيح الإله والإنسان الحقيقي، والذى لم يكذب قط، ولم يستطع ولا يستطيع الكذب، لكونه مشرِّعنا، قال إن قيده يسر وأن ما يُحمِّلنا سهل؛ وهكذا لا يأمرنا بشيء يكون مستحيلاً لا نستطيع إنجازه. وهكذا سادتى أصحاب الفخامة، ترون أنكم مجبرون على الهدوء طبقًا للقوانين السماوية والإنسانية.

قال سانشو لنفسه فى تلك اللحظة:

– ليركبنى الشيطان إذا لم يكن سيدى هذا من الفقهاء المتكلمين، وإذا لم يكن كذلك فهو يشبههم شبه البيضة نظيرتها.

أخذ دون كيخوتى أنفاسه قليلاً، وعندما رأى أنهم حتى تلك اللحظة يعطونه أذنًا صاغية أحب أن يواصل الكلام، لولا أن حال بينه وبين ذلك ذكاء سانشو، والذى عندما رأى أن سيده قد توقف، أخذ الكلمة قائلاً:

– سيدى دون كيخوتى دى لامانشا، والذى أطلق عليه بعض الوقت الفارس صاحب الصورة الحزينة، والآن يطلق عليه فارس الأسود، هو من الأعيان الفطناء جدًّا، وهو يعرف اللاتينية(*) والرومانثية مثل حاملى البكالوريا، وفى كل ما يعالجه أو ينصح به يفعل ذلك مثل جندى، وهو يعلم كل لوائح وقوانين ما يسمونه المبارزة الصحيحة، وهكذا ليس عليكم إلا أن تسيروا وراء ما يقول، وعلىَّ يقع الخطأ، وخاصة كما قيل فإنه من التفاهة التحدى لمجرد سماع نهيق، فإننى على ما أتذكر، عندما كنت غلامًا، كنت أنهق كل مرة وفى كل وقت يحلو لى دون أن أعمل حسابًا لأحد، بل كنت أنهق فى ظرف وأصالة عريقة، فعند كل نهيق كانت تجاوبنى ناهقة كل حمير القرية، ولم

(*) لغة الثقافة حتى عصر كتابة هذه الرواية، أما عامية اللاتينية فهى الرومانثية.

يتبرأ منى أبواى بسبب هذا، وكانا والدين شريفين جدًا، وفوق ذلك كـان يحسدنى أكثر من أربعة من شيوخ القرية، دون أن آبه لذلك. وحتى تـرون أننى أقول الحقيقة، انتظروا، أنصتوا، فإن علم النهيق مثل علم السباحة، ومن يتعلمها مرة لا ينساها بالمرة!

وفى الحال، وضع يده على فتحتى أنفه وبدأ ينهق بـشدة حتـى إن صـدى النهيق رددته كل الوديان القريبة. لكن واحدًا ممن كانوا بالقرب منـه، ظانـا أنـه يسخر منهم، رفع عصا طويلة كانت فى يده، وأسقطها عليه فى قوة ضربة لا يملك أن يضرب بأقوى منها، فألقت سانـشو بانثـا علـى الأرض. وعنـدما رأى دون كيخوتى سوء مآل سانشو، هاجم من ضربه برمحه فى يده، لكن حال تكاثر القـوم للفصل بينهما دون قدرته على الثأر لسانشو، وفوق ذلك رأى مطرًا من الحجـارة ينزل عليه، ورأى ألف رمح تهدده فوق ألف بندقية، من ثَم أدار عنان روثينـانتى، ورمح هاربًا بأقصى ما يمكنه من سرعة، مخترقًا جمعهم للخروج إلـى الخـلاء، معتمدًا على الله من كل قلبه، فى أن ينقذه من هذا الخطر، خائفًا فى كل خطـوة أن تخترق ظهره إحدى الرصاصات لتخرج من صدره، وفى كل لحظة كـان يأخـذ أنفاسه، حتى يتأكد أنها لم تخمد. لكن الكتيبة اكتفت بأن رأته يهرب، فلم تطلق عليه الرصاص. وبالنسبة لسانشو وضعوه فوق حماره بمجرد أن عاد إلى وعيه، وتركوه يمضى خلف سيده، ليس لأنه كان يعى ما يفعل، إنما سار حماره بحكم العادة يقص أثر روثينانتى؛ ودون حماره ما استطاع به لحاقًـا. انتظـر دون كيخـوتى فتـرة متطاولة من الزمن، ثم أدار رأسه ليرى سانشو قادمًا، وحيث إنه لم ير أحدًا يتبعه، توقف للعناية به.

بقيت الكتيبة هناك حتى حل الليل، ولعدم خروج خصومهم للمعركة عـادوا لقريتهم سعداء مبتهجين، ولو كانوا يعرفون العادة الإغريقية لأقاموا فى ذلك المكان نصبًا تذكاريًا.

الفصل الثامن والعشرون

عن أشياء يقولها ابن إنجيلين، سوف يعرفها من يقرأ إذا قرأ بإمعان

عندما يهرب الشجاع، فإن الخدعة تنكشف، وإنه من فطن الشجعان انتظار لحظة أفضل، هذه الحقيقة تجسمت فى دون كيخوتى الذى عندما ثار غضب القرية وفورانها، وتبدت النوايا السيئة لتلك الكتيبة المنحطة، أثارت الأقدام سحائب الغبار فى الفرار، دون تذكر سانشو أو الخطر الذى تركه معرضًا له، ليبتعد بالقدر الذى يرى نفسه به آمنا، وتبعه سانشو مجتازًا المسافة الفاصلة بحماره كما ذكر من قبل. فى النهاية، وصل وقد عاد إلى كامل ذاكرته، وعند وصوله ترك نفسه يسقط من على حماره تحت أقدام روثينانتى، بكل اللهفة، وقد اكتمل طحنه، ووصل ضرب العصيان على جسمه حد التمام. ترجل دون كيخوتى لعلاج جروحه، ولكن عندما وجده سليمًا من الجروح من قدميه حتى رأسه، قال له بغضب شديد:

– كانت ساعة نحس أن عرفت النهيق، سانشو! وأين وجدت أنه من الذكاء ذكر اسم الحبل فى منزل المشنوق؟ وعلى أنغام النهيق، ماذا كنت تنتظر غير دقّات العُصِىّ؟ أحمد الله أن باركوك برسم صلبان على جسمك بالعصى بدلاً من رسمها على وجهك بالسكاكين.

أجاب سانشو:

– لست قادرًا على الرد عليك، لأننى يبدو لى أننى أتكلم من ظهرى؛ فلنركب الدواب ولنبتعد عن هذا المكان، أما عن نهيقى فسأجيب بالصمت، لكننى لا أستطيع منع نفسى من القول بأن الفرسان المشائين يهربون، تاركين خدمهم المخلصين مطحونين مثل الحنة أو الدريس تحت رحمة أعدائهم.

قال دون كيخوتى:

– لا يهرب من ينسحب؛ لأنك عليك أن تعرف، سانشو، أن الشجاعة التى لا تؤسس على الفطنة ليست إلا طيشًا، وأن أمجاد الطائشين تعتمد على الحظ أكثر من اعتمادها على القوة. وهكذا، فأنا أعترف أننى انسحبت، لكننى لم أهرب، وفى هذا حاكيت كثيرًا من الشجعان، ممن انتظروا ظروفًا أفضل، وهذا تمتلئ القصص والتواريخ، ولولا أنها لن تفيدك الآن ولن تلذ لى لحكيتها لك.

وخلال هذا كان سانشو قد امتطى حماره، بمساعدة دون كيخوتى الذى صعد فوق روثينانتى، وشيئًا فشيئًا مضوا يختفون داخل غابة من الحَوْر، ظهرت بعد سير لم يتجاوز ربع فرسخ. وبين الحين والحين، كان سانشو يطلق من الآهات أعمقها، ومن التأوهات المنتحبة آلمها، وعندما يسأله دون كيخوتى عن سبب تلك الأحاسيس شديدة المرارة، يجيب بأنه من أدنى نقطة فى حبله الشوكى حتى مستقر رأسه كان يؤلمه ألم يخرجه عن وعيه، قال دون كيخوتى:

– ينبغى أن يكون سبب هذا الألم العصا التى ضربوك بها، لقد كانت طويلة ممتدة، حتى إنها طالت ظهرك كله، حيث يتضمن كل هذه المناطق التى تؤلمك.

قال سانشو:

- يا إلهي! إن فخامتك قد أخرجتني من شك عظيم، وقد أوضحت لي الأمر بكلمات جميلة. يا ويل جسمي! أبهذا الشكل كان ألمي شاملاً كاملاً، حتى احتجت أن يقال لي إنه يؤلمني كل ذلك الجميع الذي طالته العصا؟ إذا ما كانت تؤلمني قصبة رجلي كنت سأمضي مخمنًا سبب ألمها، لكن أن يؤلمني جسمي كله المطحون، فليس صعبًا تخمين السبب! أقسم يا سيدي وولي أمري، أنك تهدي بلا نهاية للآخرين أذى نتف الجلد، حتى إني كل يوم أمضي مكتشفًا قارات جديدة من بعض ما أنتظره من صحبة فخامتكم؛ لأنه إذا كنت قد تركتني هذه المرة أجلد، فإننا سنعود مئات المرات لنفس السيرة، وغيرها من الصبيانيات، والتي إن كانت هذه المرة قد انطبعت على ظهري فإنها في الآتي سوف تنزل على عيني. كم هو أفضل كثيرًا، إن لم أكن همجيًّا، وإن لم أكن غير قادر مرة في حياتي أن أفعل شيئًا موفقًا، وأعود للقول، كم هو أفضل كثيرا أن أعود إلى بيتي وإلى زوجتي وإلى أولادي، كي أعولهم وأربيهم على قدر ما أعطاني الله تعالى من رزق، تاركًا المشي في الأرض وراء فخامتكم لقطع طرق لا تطرق، وسبل في سباق بلا سبل، شاربًا الحنظل آكلاً المر. خذ مثلاً لك النوم ! أحك لي أيها الأخ حامل الدروع عن أقدامك السبع، في الآراضين السبع، وإن أردت أراضي أكثر خذ الكثير، ففي يديك الفضاء به تسير حسب هواك، فاعرض حسن هيئتك؛ اللهم اجعلني أراه محروقًا أول من أخذ أول غرزة في نسيج الفروسية المشاءة، أو على الأقل أول حامل دروع لهؤلاء البلهاء، كما ينبغي أن يكون كل أولئك الفرسان المشائين في الماضي. أما عن الفرسان المشائين في الحاضر لا أقول شيئًا؛ فلكون فخامتك واحدًا منهم فإني

أكن لهم الاحترام، ولأنى أعرف أن فخامتكم تعرف أبعد مدى بنقطة أكثر مما يعرف الشيطان، حينما تتكلم، وحينما تفكر.

قال دون كيخوتى:

– سأقوم برهان طيب معك، سانشو، الآن حين تتكلم ولا يقف فى سبيلك أحد، تزول كل آلام جسمك. تكلم يا بنى، وقل كل ما يخطر على بالك، ويخرج من فمك، مقابل ألا يؤلمك شىء، وسوف يلذ لى غضبى الذى تسببه كل سفاهاتك. وإذا كنت ترغب كثيرًا فى العودة إلى بيتك مع زوجتك وأولادك، فلا شاء الله لى أن أحول بينك وبين ذلك، وهاهى معك نقود لى، فانظر فى هذه المرة الثالثة التى خرجناها من قريتنا، وانظر بقدر ما تستطيع وفيما يجب أن تكسب كل شهر، وادفع لنفسك من يدك.

أجاب سانشو:

– عندما كنت أخدم تومى كارّاسكو والد حامل البكالوريا شمشون كارّاسكو، الذى تعرفه فخامتكم جيدًا، كنت أكسب كل شهر دينارين، فضلاً عن طعامى، ومع فخامتكم لا أدرى ما أستطيع كسبه، بفرض أن حامل دروع فارس مشّاء يقوم بعمل أكثر من خادم لمزارع، وباختصار، نحن الذين نخدم المزارعين، مهما اشتغلنا طوال اليوم، ومهما حدث من سوء، فإننا نتعشى طعامًا ساخنًا وننام فى فراشنا عند حلول الليل، مقابل أننى لم أنم منذ بدء خدمتى لفخامتكم. وإذا لم أنل ذلك الوقت القصير الذى عشناه فى بيت دون ديجو دى ميراندا، والجولة التى حظيت بها من هريز أوانى كاماتشو، والذى أكلته وشربته ونمته فى منزل باسيليو، لنمت كل الوقت على أرض خشنة تحت العراء، مقيدًا بما يسمونه انعدام الرحمة من السماء، وأكلت الجبن

الجاف وكسر الخبز، شاربًا الماء من النهيرات والينابيع التي تصادفنا في هذه المجاهل التي نمشي في أرجائها.

قال دون كيخوتي:

– أعترف أن كل ما تقوله، سانشو، قد يكون حقًا، فما يبدو لك أنني أدين به لك أكثر مما كان يدفعه نظير عملك تومي كارّاسكو؟

قال سانشو:

– فيما يبدو لي أن ريالين أكثر تضيفهما فخامتك كل شهر تكون قد أجزلت لي الأجر، هذا فيما يتعلق بمرتب عملي، لكن فيما يخص ترضيتي مقابل كلمة فخامتكم ووعدك المضروب لي بإعطائي حكم ولاية أو جزيرة، فمن العدل أن تضيف فخامتكم ستة ريالات ليصل مجموع الأجر النهائي إلى ثلاثين ريالاً.

أجاب دون كيخوتي:

– لا بأس وأوافق، واحسب، سانشو، منذ خروجنا أجرك عن خمسة وعشرين يومًا حتى آخر فلس، وادفع لنفسك ما تستحقه.

قال سانشو:

– ويلي! إن فخامتكم قد أخطأ جدًا في هذا الحساب، لأنه فيما يخص الوعد بالحكومة فإن على فخامتكم أن تدفعه منذ أن ضربت لي هذا الوعد.

سأل دون كيخوتي:

– ومنذ متى، سانشو، وعدتك بذلك؟

رد سانشو:

– إذا لم تخني الذاكرة ينبغي أن يكون منذ أكثر من عشرين سنة بحوالي ثلاثة أيام.

ضرب دون كيخوتى كفًا بكف، وضحك بمزاج منشرح، وقال:

- كيف؟ لم أمش فى سييرا مورينا، ولا خلال زمن خرجاتنا، إلا شهرين، بل لم أكد أبلغهما، وأنت تقول، سانشو، إننى وعدتك منذ عشرين عامًا بالحكومة؟ الآن أقول إنك تود أن تستهلك فى مرتباتك كل نقودى التى أحفظها معك، وإذا كان الأمر كذلك، وهو يسرك، منذ الآن أعطيها لك، ولتسعد بها، وذلك مقابل أن أرانى متحررًا من ذلك التابع الردىء، وسأمرح ببقائى فقيرًا دون فلس. لكن قل لى، أيها الشريك المخالف لكل لوائح حمل الدروع فى الفروسية المشّاءة، أين رأيت أنت أو قرأت، أن حامل دروع لفارس مشّاء، قد واجه سيده طالبا منه كذا وكذا لأنى أخدمك، كما تفعل معى؟ اخلع برقع الحياء، اخلعه، أيها السافل والنذل والمسخ، كل شىء خلع للحياء، عبر الشطر الأعظم من حكاياتك، وإذا وجدت أن أى خادم قد سبق له أن قال ما قلت الآن أو فكرت فيه فواجهنى به، أو خَرِّق به عينىَّ . فلتدر عنان أو قيد رأس حمارك، وعد إلى بيتك، لأن خطوة واحدة منذ الآن لن تخطوها معى إلى الأمام. أوه، ياخاين العيش والملح! أوه، أيها الوغد الخائب! أيها الكائن الذى يحتوى على الدابة أكثر من الإنسان! والآن فى الوقت الذى أريد أن أرفع من شأنك حتى ينادوك ياصاحب السعادة رغم أنف زوجتك تفصل نفسك من الخدمة؟ والآن ترحل، عندما أسير بنية صارمة وقادرة أن أعطيك أفضل ولاية فى الدنيا؟ وفى الختام، كما قلت أنت فى مرات أخرى، ليس العسل... الخ. حمار أنت، وهكذا ينبغى أن تكون، وعلى هيئة حمار ستكون نهايتك مع نهاية حياتك؛ وبالنسبة لى آمل قبل أن يحدث ذلك، أن تقع بلسانك، وتدرك أنك دابة.

كان سانشو ينظر إلى دون كيخوتى محملقًا، بينما يصب عليـه مثـل هـذه الإهانات، وأدركه ندم أسال دموعه، وبصوت متألم ومريض قال له:

– سيدى، إننى أعترف من حيث كونى حمارًا هذا صحيح، لا ينقصنى إلا الذيل؛ وإذا أردت فخامتكم تركيبه لى فإنى سأساعد على حسن وضعه فى مكانـه، وسأخدمك كحمار كل ما تبقى من حياتى. اغفر لى، فخامتكم وتجاوز عـن جهلى، واعلم أننى قليل المعرفة، وإذا كنت أتكلم كثيرًا فإن هذا يرجع لمرض وليس لشر، لكن الخطأ يتدبر والرب يتستر.

– سوف تدهشنى سانشو إن لم تخلط كلامك بالأمثال، والآن، خيرًا، أنا أسامحك بشرط أن تصلح نفسك، وأن تكون من الآن فصاعدًا أقـل صـداقة مـع منافعك الشخصية، وعليك أن تفتح قلبك، وارفع من روحـك المعنويـة، منتظرًا إنجاز وعدى، الذى إن تأخر فإنه لا يستحيل.

قال سانشو إنه سيتصرف هكذا وسوف يستخرج من ضعفه قوة.

وخلال هذا دخلا غابة الحَوْر، وأراح دون كيخوتى جسده عند قـدم شـجرة دردار، وسانشو عند قدم شجرة زان، لأن مثل هذه الأشجار دائمًا لها أقدام ولـيس لها يد. أمضى سانشو الليلة فى معاناة، لأن أثر ضرب العصا يُحَـسُّ أكثـر مـع الراحة، وقضاها دون كيخوتى فى ذكرياته المتواصلة، لكن مع كل هـذا، غلبهمـا النعاس، وعند طلوع الفجر واصلا طريقهما بحثًا عن شواطئ نهر الإبرو الشهير، حيث حدث لهما ما سوف تتم حكايته فى الفصل التالى.

الفصل التاسع والعشرون
عن المغامرة المشهورة للسفينة المسحورة

بخطاهما المعدودة، وبعد يومين من خروجهما من غابة الحور، وصل دون كيخوتى وسانشو إلى نهر الإبرو، وكانت رؤيته سرورًا عظيمًا لدون كيخوتى، لأنه تأمل فى بهاء شاطئيه، وصفاء أمواهه، وهدوء مجراه، ووفرة تدفقه الكريستالى، حتى إن مشهده البهيج جدد له ألف فكرة رائقة. وبصفة خاصة راح وجاء فيما سبق له رؤيته فى كهف مونتيسينوس، ورغم أن قرد الأسطى بدرو قال له إن شطرًا من تلك الأشياء كان حقيقة، والشطر الآخر كان زائفًا، فقد عوّل على ما هو حقيقى أكثر مما هو زائف، وتمامًا عكس سانشو، الذى أخذ كل شىء على أنه زائف. وبينما هو فى هذا رأى سفينة صغيرة دون مجاديف أو حبال لشراع، وكانت مربوطة إلى جذع شجرة بالشاطىء. نظر دون كيخوتى فى كل اتجاه فلم يقع بصره على أى شخص هناك، وفى الحال هبط من على روثينانتى، وأمر سانشو بالترجل أيضًا عن حماره، وربط الدابتين معًا بشجرة حور أو صفصاف كانت هناك. سأله سانشو عن سبب هذا الترجل المفاجئ، وعن ربط الدابتين معًا، أجاب دون كيخوتى:

– اعلم، سانشو، أن هذه السفينة الموجودة هنا، مباشرة ودون مهرب، تناديني وتدعوني للدخول فيها والذهاب بها لإنقاذ فارس أو شخص آخر من كبار القوم في حالة احتياج وضيق لا بد، لأن هذا أسلوب قصص كتب الفروسية والسحرة التي يتدخلون فيها ويتكلمون، وعندما يكون هناك فارس معمول له عمل، لا يستطيع التحرر منه إلا على يد فارس آخر، حتى لو كان أحدهما

بعيدًا عن الآخر ألفى فرسخ أو ثلاثة آلاف، وحتى لو حملوه على سحابة أو هيئوا له سفينة لدخولها، وفى أقل من فتحة عين وإغماضتها ينقلونه جــوًّا أو بحرًا، حيث شاءوا، وحيث تصبح مساعدته ضرورية، وهكذا، أوه سانشو! هذه السفينة موضوعة هنا لهذا الغرض؛ وهذا حق تمامًا، كما أننــا الآن فى وضح النهار، وقبل أن يحدث ذلك اربط الحمار وروثينانتى معًا، وســـنطلق تحت رعاية الله الذى نطلب منه الهداية، ولن أترك الإبحار حتى لو طلب ذلك منى الرهبان الحفاة.

أجاب سانشو:

– إذن، هكذا يكون، وفخامتكم يحب فى كل خطوة الدخول فيما... ولا أدرى عما إذا كنت أسميه ترهات، ومع ذلك لا أملك إلا الطاعة، وإحنــاء رأس، مطيعا المثل: افعل كل ما يأمرك به سيدك واجلس معه على المائدة. لكن مع كل ذلك، وفيما يتعلق بإرضاء ضميرى، أحب إعلام فخامتكم، أنه يبدو لى أن هذه السفينة ليست من السفن المسحورة، وإنما هى لبعض الصيادين بهذا النهر، لأنهم يصطادون منه أفضل أسماك السابوجاس فى العالم.

كان سانشو يقول ذلك أثناء ربط الدابتين، تاركًا إياهما تحت حماية وجــوار السحرة، مع نفس يجتاحها الألم. قال له دون كيخوتى ألا يتألم لهجر الحيوانين، فإن من سوف يحملهما فى طرق (شاسعة)(*) وأقاليم لقادر على رزقهما.

قال سانشو:

– لا أفهم هذه الكلمة (شاسية)، بل لم أسمعها طول حياتى.

(*) LONGIN COUS ، نطقها هكذا باللاتينية.

قال دون كيخوتى:

- (شاسعة) ومعناها نائية جدًّا، وليس عجيبًا ألا تفهمها، فأنت لست مجبرًا على معرفة اللاتينى، مثل أولئك الذين يدعون معرفته ويجهلونه.

قال سانشو:

- لقد انتهيت من ربط الدابتين، ماذا علينا عمله الآن؟

أجاب دون كيخوتى:

- ماذا؟ الإبحار بادئين بقطع الحبل الذى يربط السفينة.

وبقفزة دخلها وتبعه سانشو، وقطع الحبل، وأخذت السفينة تبتعد عن الشاطئ شيئًا فشيئًا، وعندما رأى سانشو نفسه وقد ابتعد حوالى مترين، بدأ يرتعد، خائفًا من غرقه، لكن لا شىء آلمه أكثر من سماع حماره يقضم حبل قيده، وروثينانتى يناضل من أجل الفكاك، قال لسيده:

- الحمار ينهق متألما لفراقنا، وروثينانتى تحاول فك قيودها كى تلقى بنفسها وراءنا. أوه، أيها الصديقان الغاليان، ابقيا فى سلام، والجنون الذى يبعدنا عنكما، حين يتحول إلى إحباط سوف يعيدنا إليكما.

ومع هذا بدأ فى البكاء بمرارة، حتى إن دون كيخوتى حانقًا ومغضبًا قال له:

- مم تخاف، أيها الكائن الجبان؟ممَّ تبكى بقلب من زبدة؟ من يطاردك أو يؤذيك، يا صاحب نفسية الفأر المنزلى؟ أو ماذا ينقصك وأنت فى وسط أحشاء الخير الوفير؟ وهل بالصدفة، تسير الآن حافيًا فوق أرض خشنة، ولست جالسًا على بساط من الخشب مثل أمير بدوقية فوق المجرى الهادئ

لهذا النهر اللطيف، حيث سوف نخرج بعد فضاء محدود إلى البحر اللامحدود؟ لكن كان ينبغي أن نكون قد خرجنا، بعد السير على الأقل سبعمائة فرسخ أو ثمانمائة؛ وإذا كان معي إسطرلاب أقيس به البعد عن القطب لقلت لك كم سرنا، أو أننا بالفعل تجاوزنا الخط الاعتدالي الذي يقسم المسافة بين القطبين مسافتين متساويتين.

سأل سانشو:

– وعندما نصل إلى هذا (الخاط)(*) الذي تقول عنه فخامتكم ، كم نكون قد قطعنا؟

أجاب دون كيخوتي :

– الكثير، لأنه من ثلاثمائة وستين درجة التي تتضمنها الأرض، ماءً ويابسة، حسب حساب بطليموس، والذي كان أعظم فلكي في علم الكون، نكون قد قطعنا النصف عند الوصول إلى هذا الخط، الذي ذكرته.

قال سانشو:

– بحق الإله، فخامتكم تحضر لي كشاهد عما تقول شخصًا أجذم كافرًا وداعرًا مع إضافة التبول أو البول(**) أو ما لا أدري.

ضحك دون كيخوتي من تفسير سانشو لاسم بطليموس، ولفظة **computo** (حساب)، ولفظة عالم كوني **cosmografo**، وقال له:

(*) الخط بطريقة نطق سانشو للغة.

(**) حساب بطليموس الكوزموجرافي **(COMPUTO dE PTOLOMEO) del COSMOGRAFO** يمكن تفسير هذه الكلمات الإسبانية إلى داعر وكافر وأجذم كما يرد في الفقرة التالية.

– هل تعرف، سانشو، أن الإسبان ومن يبحرون فى قادش للذهاب إلى جزر الهند الشرقية، إحدى الإشارات عندهم على أنهم اجتازوا الخط الاعتدالى الــذى ذكرته لك، هى موت القمل فى أجسام جميع من على السفينة، دون أن يبقى لهم منه شىء، بل يختفى من كل المركب ولا يجدونــه حــتى لــو وزنــوه لهم بالذهب، وهكذا سانشو نزّه يدك على فخذك، فإذا صــادفتك عليــه كائنات حية، سوف نخرج من هذا الشك، وإذا لم تجد قملة واحدة فنكــون قد اجتزناه.

أجاب سانشو:

– أنا لا أعتقد فى أى شىء من هذا، ولكن مع ذلك سوف أفعل ما تأمرنى بــه فخامتكم، مع أننى لا أعرف من أجل ماذا ينبغى إجراء هذه التجارب، فأنا أرى بأم عينى أننا لم نبتعد عن الشاطئ أكثر من أربعة أمتار، ولم ننحرف بعيدًا عن حيواننا بأكثر من مترين، فها هى هناك روثينانتى والحمار فى نفس المكان الذى تركناهما فيه، ومن يأخذ زاوية النظر التى آخذها، أقسم بأى شىء أننا لم نتحرك أو نمشى أكثر من خطوات نملة.

– تحرَّ سانشو عما طلبته، ولا تفعل شيئًا آخر، فأنت لا تعرف أى أشــياء هــى البروج ودوائرها، وما هى الأفلاك ولا خطــوط الاعتــدال والكواكــب ومسالك الفضاء السماوى والأرضى. وإذا عرفت كل هــذه الأشــياء، أو بعضها، كنت قد رأيت كم من خطوط المدارات قطعنا، وكم من الأبــراج رأينا، وكم من الصور تركناها وراء ظهورنا، ومازلنا نتركها الآن، وعد إلى القول أنك تخمن وتصطاد، وأنا أقر أن مخك نظيف نظافــة ورقــة بيــضاء وناعمة.

تحسس سانشو فخذية، رابتًا عليهما بيده في روعة، وفي كياسة وصل إلى المنحنى الأيسر، ورفع رأسه، ونظر إلى سيده، وقال:

– إما التجربة زائفة وإما لم نصل حيث فخامتكم تقول، بل لم نقترب من هناك فرسخًا.

– إذن، ماذا؟ – سأل دون كيخوتى – هل عثرت على بعضه؟

أجاب سانشو:

– بل على (أبعاض)(*)

وهازًا أصابعه غسل كل يده في النهر الذى تنساب السفينة على صفحته في هدوء عند منتصف المجرى، دون أن تحركها أية قوى ذكاء سرى، ولا أى ساحر مختبئ، وإنما اتجاه تيار الماء الذى كان حينذاك لينًا ناعمًا.

خلال ذلك، اكتشفا بعض السواقى الكبيرة تعترض مجرى النهر، ولم يكد دون كيخوتى يراها حتى قال بصوت عال لسانشو:

– هل ترى؟ هناك، أوه أيها الصديق! تنكشف المدينة، والقلعة أو الحصن، حيث ينبغى أن يكون هناك فارس محصور، أو ملكة أو أميرة أسيرة، وقد حملونى إلى هناك لنجدة المحصور مهما كان.

– بأى شيطان تتحدث فخامتكم عن مدينة أو قلعة أو حصن؟ ألا تلاحظ أن ما ترى ليس إلا سواقى تتصدر النهر، حيث تحرك مطحنا للقمح؟

(*) يجمع سانشو كلمة بعض algo وهى لا جمع لها، كناية عن كثرة ما وجد من قمل فى جسمه.

– اخرس، سانشو، مع أنها تبدو سواقى، فهى ليست سواقى، وقد قلت لك إن السحر يحول ويغير الكينونة الطبيعية لكل الأشـــياء، ولا أود القـــول بـــأن السحر يغيرها من شيء إلى شيء آخر حقيقى، وإنما يظهرها فى صورة غـــير صورتها، كما أثبتته تجربة تحول دولثينيا، الملاذ الوحيد لآمالى.

خلال ذلك انغمست السفينة وسط التيار، وبدأت تتحرك ليس بـــنفس الــبطء الذى تحركت به حتى تلك اللحظة. أصحاب الطاحونة التى تدفعها مياه الـــسواقى، والذين رأوا قدوم تلك السفينة فى النهر، وأنها سوف تدخل فى قواديس التوابيـــت، خرج بسرعة كثير منهم مع عصى طويلة جدا لإيقافها، وكما قـــد خرجـــوا وقـــد غطاهم الدقيق تمامًا وجوها وملابس، فقد مثلوا منظرًا مفزعًا، صرخوا صـــرخات عالية قائلين:

– أيها الرجلان بل الشيطانان، أين تذهبان؟ هيا أيها اليائسان، هل تريدان إغراق نفسيكما، وتحويلكما إلى قطع من اللحم داخل تلك العجلات؟

قال دون كيخوتى:

– ألم أقل أنا لك، سانشو، ألم أقل لك عن أننا اقتربنا حيث ينبغى البرهنة علـــى قوة ساعدى؟ انظر كم من الأشرار والأنذال يخرجون للقائى، وانظـــر كـــم مسخًا يعترضوننى؟ انظر كم من الوجوه القبيحة تتغول علينا . الآن ســـوف ترون أيها المجرمون!

ونهض على قدميه فى السفينة، وبأصوات عالية بدأ فى تهديـــد الطحـــانين، قائلاً لهم:

– أيها الدنىء الشرير، سيئ الرأى، أطلق السراح وأعط حرية القرار للـــشخص الذى تضعونه فى هذه القلعة أو ذلك السجن ظلمًا وقهرًا، مهما كانت هويته

رفيعة أو وضيعة؛ فأنا دون كيخوتى دى لامانشا، فارس الأسود (وذا لقبى)، وأنا الذى هيأته السماء لوضع نهاية سعيدة لهذه المغامرة.

وعند قوله هذا أشهر سيفه وأخذ يلوح به فى الهواء ضد الطحانين الذين عند سماعهم ذلك دون فهم هذه السفاهات، شرعوا فى إيقاف السفينة بعصيهم، وكانت على وشك أن تتلقاها أسنان العجلات فيما بينها.

ركع سانشو طالبًا من السماء إنقاذه من هذا الخطر المحقق، وقد فاض قلبه بالإخلاص فى الدعاء، وقد استجيب لدعائه بفضل حذق وسرعة الطحانين الذين عند اعتراضهم السفينة بعصيهم الغليظة أوقفوها بطريقة تركتها تنقلب، وتلقى بدون كيخوتى وسانشو فى الماء؛ وقد كان ذلك فى صالح دون كيخوتى الذى كان يجيد العوم مثل إوزة، مع أنه هبط إلى قاع النهر مرتين بسبب ثقل أسلحته، وإذا لم يلق الطحانون بأنفسهم فى الماء، وسحبوهما فيما بينهم من الماء، لنالا مصير قرطاجة. وعند وضعهما على البر، يقتلهما البلل وليس العطش، ركع سانشو على ركبته ورفع يديه وعينيه للسماء طالبًا فى دعاء طويل وتقى أن يحرره الله معافى من هناك أمام الرغبات الجريئة والتهور لسيده.

وخلال ذلك وصل الصيادون أصحاب المركب الذى حولته عجلات السواقى إلى شظايا، وعندما رأوه محطمًا هجموا على سانشو لتعريته، وطلبوا من دون كيخوتى أن يدفع لهم ثمن السفينة، وهذا بهدوء عظيم، كما لم يكن قد حدث أى شيء له، قال للطحانين والصيادين إنه سوف يدفع ثمن السفينة بكل رضا بشرط إطلاق سراح الشخص أو الأشخاص السجناء فى قلعتهم دون أى تحفظ.

أجاب أحد الطحانين:

– أى الأشخاص أيها الرجل الفاقد للعقل؟ هل بالصدفة تريد إنقاذ وتحرير أولئك الذين يطحنون قمحهم فى طاحونتنا؟

قال دون كيخوتى محدثًا نفسه:

– **كفى! سيكون مثل الوعظ فى قفر قصر هذا الخبيث عن شره، فلن يرتكب أى فضيلة بالترغيب.**

وفى هذه المغامرة، لابد أنه قد وجد ساحرين قويين، أحدهما يوقف محاولات الآخر. الأول يعد لى السفينة، والثانى يدمرها. فليصلح الله الأمر؛ فكل هذا العالم طواحين ومؤامرات، كل منها تعاكس الأخرى، إننى لم أعد قادرًا على التحمل أكثر! ورافعًا صوته، واصل القول، ناظرًا إلى السواقى:

– **أيها الأصدقاء، مهما كنتم، ستبقون فى ذلك السجن محبوسين، فغفرانكم، فلتعاستى ونكبتكم لا أستطيع إخراجكم من محبسكم؛ فهذه المغامرة تنتظر فارسًا آخر حفظت له.**

بعد قوله هذا اتفق مع الصيادين، ودفع ثمنًا للسفينة خمسين ريالاً، أخرجها سانشو فى مزاج متعكر ودون رضا قائلاً:

– **هذا المبلغ مقابل سفينتين كهذه، هو إلقاء للنقود فى قاع النهر.**

كان الصيادون والطحانون فى غاية العجب، ناظرين إلى هذين المخلوقين الخارقين للعادة، وعلى ما يبدو أنهم ينتمون إلى جنس بشرى آخر، ولم يصلوا إلى فهم عبارات وأسئلة دون كيخوتى التى كان ينطق بها، من ثَم، نظروا إليهما باعتبارهما اثنين من المجانين، وبهذا عاد الطحانون إلى سواقيهم، والصيادون إلى مأواهم، وعاد دون كيخوتى وسانشو إلى دابتيهما بقصد أن يصيرا دابتين تدبان فى الطريق، وكانت تلك نهاية مغامرة المركب المسحور.

الفصل الثلاثون

ما راضت به دون كيخوتى صيادة جميلة للحيوانات البرية

وصل كلاهما فى هيئة سيئة إلى حيوانيهما واجدين فارسًا وخادمًا، وبصفة خاصة سانشو، الذى كان يجرح الروح منه الاقتراب من سيَّالة النقود، حيث كان يبدو له أنهم يستخرجونها من حبة عينه. أخيرًا، امتطيا الدابتين، ودون تبادل كلمة ابتعدا عن النهر المشهور، حيث دون كيخوتى دفين غرامياته وفكره فيها بينما سانشو يفكر فى ترقيته للحكومة، وفى ذلك الحين بدت له بعيدة عن آماله، لأنه، مع كونه عبيطًا، فإن إدراكه لا يخفى عليه أن أفعال سيده كلها أو معظمها هى تُرهات، وكان يفتش عن حجة تجعله يفلت ويعود إلى بيته دون حسابات أو وداع، لكن الحظ أمر بأشياء تخالف مخاوفه كثيرًا.

من ثَم، فقد حدث فى اليوم التالى عند غروب الشمس الذى وافق الخروج من غابة، حينما مد دون كيخوتى بصره فى مرج أخضر، وفى آخره رأى بعض الناس، وعندما وصل قريبًا منهم عرف أنهم صيادون يستخدمون الحيوانات الجارحة فى صيدهم. اقترب أكثر، وبينهم رأى سيدة بهيَّة الجمال على حمار مزين أو فرس رهوان شديد البياض، مكلل بأكاليل الغار الخضراء، ومقعد سرجه من الفضة. والسيدة نفسها كانت ترتدى ثوبًا أخضر، فى بهاء وثراء، بل هى البهاء نفسه. فى يدها اليسرى كانت تحمل صقرًا، إشارة فهم منها دون كيخوتى أنها سيدة عظيمة ومعظمة من كل هؤلاء الصيادين؛ وكما كان ذلك حقيقيًا، هكذا تكلم إلى سانشو:

- اِجْرِ، سانشو يا ابنى، وقل لهذه السيدة ذات المهر الرهوَان والصقر بأننى فارس الأسود، وأقبل يدى حسنها العظيم، وإذا عظمتها أعطتنى تصريحًا، سأتوجه إليها لتقبيلهما وخدمتها بقدر ما تسعنى قوتى، وبقدر ما تـأمرنى سموهـا. وانظر، سانشو، فى طريقة كلامك، واعمل حسابك ألا تحشر أى مثل مـن أمثالك خلال تلك السفارة.

أجاب سانشو:

- ترون فى سانشو من يلتبس فى الكلام! هل أنا من يفعل ذلك؟ هذه ليست أول سفارة أحملها إلى سيدات عظيمات عاليات المقام فى هذه الحياة!

رد دون كيخوتى:

- إذا لم تكن السفارة التى حملتها إلى السيدة دولثينيا، أنا لا أعرف أنك حملـت غيرها، على الأقل أثناء خدمتك لى.

أجاب سانشو:

- هذا حق، لكن من يدفع جيدًا لا تعز عليه الغوالى، وفى بيت عامرة مخازنه، يعد العشاء بسرعة، أحب القول إنه بالنسبة لى لا ينبغى القـول لى ولا تنبيهـى لشىء، "فإننى السبع صنع فى يدىَّ، والهم جارى علىَّ ".

قال دون كيخوتى:

- أثق فى ذلك، سانشو، اذهب بالسعد، وليرشدك الله.

تحرك سانشو، متقدمًا بحماره، ووصل حيث الـصيَّادة الجميلـة، وترجـل، وواجهها جاثيًا، وقال لها:

ـ سيدتى الجميلة، ذلك الفارس الذى يبدو هناك، واسمه فارس الأسـود، هـو سيدى، وأنا خادم له، ويسموننى فى بيتى سانشوبانثا. وفارس الأسـود ذاك، والذى كان منذ قليل الفارس صاحب الصورة الحزينـة، يرسـلنى لأبلـغ عظمتكم، هل تتفضلين عليه بمنحه التصريح، إذا وافق مشيئتكم، ليأتى ليضع رغبته فى خدمة سموك الأسمى، وجمالك الأعلى، موضع التنفيذ دون أى أمـر آخر، وذلك كما يقول هو وأعتقد أنا، ، فإن أعطيت التصريح كان ذلـك تفضلاً عليه ورفعة له، وسيستقبل إنعامًا يشار إليه بالبنان، ورضًا.

أجابت السيدة:

- بكل تأكيد أيها الحامل للدروع، لقد أديت السفارة كمـا ينبغـى فى هـذه السفارات. انهض من الأرض، فإن حامل دروع لفارس عظيم مثل صـاحب الصورة الحزينة الذى نعرف هنا من أخباره الكثير، ليس عدلاً أن يجثو على الأرض. انهض، أيها الصديق، وقل لسيدك فليحضر على الرحب والـسعة كى أخدمه ويخدمه معى الدوق زوجى، فى بيت للهو، نملكه هنا.

نهض سانشو، مذهولاً من جمال السيدة الطيبة، ومن فرط تربيتها وأدبهـا، وذهل أكثر مما قالته عن معرفة أخبار سيده صاحب الصورة الحزينة، وأنها إذا لم تكن أطلقت عليه فارس الأسود، فلأن هذا اللقب جديد جدًّا. سألته الدوقة، ولم يكـن يعرف لقبها بعد:

- قل لى، أيها الأخ الحامل للدروع، سيدك هذا، أليس ذلك الذى طبعت قصته، ويسمى الشريف الهمام دون كيخوتى دى لامانشا، والذى يتخـذ سـيدة للروح، تلك المسمَّاة دولثينيا دل توبوسو؟

أجاب سانشو:

- **هو نفسه يا سيدتى، وذلك التابع له الذى يتحرك أو ينبغى أن يتحرك فى القصة، والذى يسمونه سانشو بانثا هو أنا، إذا لم يكونوا قد بدلوا طفلاً بى فى مهدى، أقصد فى المطبعة.**

قالت الدوقة:

- **بكل هذا أبتهج كثيرًا. اذهب، أيها الأخ بانثا، وقل لسيدك إنه نعم الزائر، ونعم المستضاف فى كل ولاياتى، ولا شىء أستطيع استقباله يعطينى سرورًا أكثر من استقباله.**

سانشو، بهذه الإجابة السارة فى انشراح أعظم، عاد إلى سيده، وحكى له كل ما قالته له السيدة العظيمة، مرتفعًا بجمالها العظيم، وملاحتها وتهذيبها، إلى السماوات العلى، مستخدمًا ألفاظه الريفية الخشنة. دون كيخوتى تهادى على سرجه، وثبت قدميه فى الركاب، وأراح الخوذة، واندفع بروثينانتى، وفى حماس رقيق مضى لتقبيل يدى الدوقة، التى أمرتهم بالنداء على الدوق زوجها، وحكت له، أثناء وصول دون كيخوتى، السفارة بحذافيرها، والاثنان لأنهما قد قاما بقراءة الجزء الأول من هذه القصة، وقد فهما منها الفكاهة الترهاتية لدون كيخوتى، ومع سرور فائق ورغبة لمعرفته، انتظراه، بغرض متابعة فكاهاته ومماشاته فى كل ما يقول، ومعاملته باعتباره فارسًا مشاءً الأيام التى سيبقاها معهم، مع كل الشعائر والاحتفالات المعتادة فى كتب الفروسية، والتى سبق لهما قراءتها، والتى كانا مغرمين بها.

وبينما هما فى هذا، أقبل دون كيخوتى، مرفوع الخوذة، معطيًا إشارات أنه بصدد الترجل، واقترب منه سانشو لمعاونته، لكنه كان بالغ التعاسة، فعند ترجله من على حماره اشتبكت قدمه بأحد حبال البردعة، بطريقة عجز فيها عن

تخليصها، وعلى العكس بقى معلقًا منهـــا، وفمـــه وصـــدره علـــى الأرض. ودون كيخوتى الذى لم يتعود على الترجل دون أن يمسك له أحدهم الركاب، وكان يظـــن أن سانشو ممسكًا به، ألقى جسمه فجأة، وحمل خلفه ركاب روثينانتى الذى لا بد أنه كان قد ربط دون تثبيت للحزام، وهكذا وصل السرج معه إلى الأرض، وليس دون خجل قد غمره، ولعنات كثيرة من بين أسنانه للتعيس سانشو الذى مازالت حتى تلك اللحظة قدمه مشتبكة فى ذلك الحبل الذى يستخدم لقيد الحمار. أمر الدوق صـــياديه بأن يهرعوا إلى الفارس وإلى خادمه، وهؤلاء أنهضوا دون كيخوتى مضعضعًا من سقطته، وفى مشية أعرج عاناها بقدر ما استطاع تقدم ليهبط بركبتيه أمام السيدين، لكن الدوق لم يقبل ذلك بأية حال، وعلى العكس ترجـــل عـــن جـــواده، ومـــضى ليحتضن دون كيخوتى، قائلاً له:

– يثقل علىّ أيها السيد الفارس صاحب الصورة الحزينة، أن أول مرة لكـــم فى أرضى تخرج بهذا السوء الذى شوهد، لكن إهمال حامل الدروع يمكـــن أن يؤدى إلى أحداث أسوأ.

أجاب دون كيخوتى:

– ما نلته من رؤيتكم أيها الأمير الشجاع، يجعل من المستحيل أن يقـــع شـــىء سيئ، حتى لو أن سقطتى لم تتوقف حتى هاوية الكون؛ لأنه لو حدث سوف تنهضنى وتخلصنى رؤيتكم. خادمى، لعنه الله، يفك لسانه أفضل من ربطـــه وتحزيمه للسرج حتى يكون مثبتًا، لكن فى أى وضع وجدت واقعًا أو ناهضًا، راجلاً أو راكبًا، سأظل دائمًا فى خدمتكم وفى خدمة سيدتى الدوقة، قرينتكم الكريمة، والسيدة ذات الجدارة فى الجمال، والأميرة الكونية للدماثة.

قال الدوق:

- عفوًا سيدى دون كيخوتى دى لامانشا، فما دمت وجدت سيدتى دولثينيا دل توبوسو لا ينبغى الثناء على أى جمال آخر.

فى هذه اللحظة كان قد تم تحرير قدم سانشو بانثا من العقدة، ولوجوده هناك قريبًا، قبل أن يجيب سيده، قال:

- لا يمكن إنكار، بل ينبغى التأكيد أن سيدتى دولثينيا دل توبوسو جميلة جدا، ولكن حيث لا يقع الوهم، يظهر الأرنب البرى أمام الصياد، أى أود القول أن ذلك الذى يسمونه الطبيعة، حسبما سمعت، مثل صانع الفخار، الذى يصنع أكوابًا من الطين، والذى يصنع كوبًا جميلاً أيضًا يقدر على صنع اثنين، وثلاثة، ومائة. أقولها لأن سيدتى الدوقة لا تقل جمالاً عن سيدتى دولثينيا دل توبوسو، وأقسم على ذلك.

التفت دون كيخوتى إلى الدوقة وقال:

- عظمتكم تخيلى أنه لم يحدث أن كان لفارس مشاء حامل دروع بمثل ثرثرة وتظرف حامل دروعى، وهو سوف يفوز علىَّ يقينًا، إذا شاءت عظمتكم السامية أن أكون فى خدمتها.

وعلى هذا أجابت الدوقة:

- أن يكون سانشو الطيب ظريفًا أمر أقدره كثيرًا، لأن فى ذلك إشارة إلى فطنته؛ فالظرف وخفة الدم والملاحة يا سيد دون كيخوتى، كما يعلم فخامتكم تمامًا، لا تتأسس على ذكاء طائش، من ثَم، فإن سانشو الطيب ظريف ومليح، ومن هذا المنطلق أراه فطنًا بكل يقين.

أضاف دون كيخوتى:

– وثرثارًا .

قال الدوق:

– كلام كثير مثل كلام أفضل، لأن كثيرًا من الطرف الظريفة لا يمكن قولها بكلمات قليلة، وحتى لا يضيع علينا الوقت فى الكلام، فليتفضل الفارس العظيم صاحب الصورة الحزينة ...

قاطعه سانشو:

– فارس الأسود، على سموكم تلقيبه بهذا، حيث لم تعد هناك صورة حزينة؛ لأن الصورة صارت تنسب للأسود .

– أقول فليتفضل فارس الأسود إلى قلعة لى قريبة من هنا، حتى أقوم بالترحيب اللائق بمثل شخصكم السامى، والذى اعتدت أنا والدوقة الترحيب فيها بكل الفرسان المشائين الذين يصلون إليها.

خلال ذلك قام سانشو بتعديل السرج وربطه جيدًا فوق روثينانتى، وصعد فوقه دون كيخوتى، وامتطى الدوق جوادًا جميلاً، وسار مهر الدوقة فى الوسط، واتجهوا إلى القلعة. أمرت الدوقة سانشو أن يصاحبها؛ لأنها كانت تلذ بلا حدود لطرائفه الذكية . لم يكن عليها أن ترجو سانشو، حيث حشر نفسه داخل الثلاثة، وصار رابعهم فى الحوار مع سرور عظيم من جانب الدوقة والدوق، اللذين اعتبرا الترحيب بالفارس المشّاء، وذلك الخادم الممشّى حظًا كبيرًا ما بعده حظ.

الفصل الحادى والثلاثون

يحكى أشياء كثيرة وعظيمة

كانت البهجة التى حملها سانشو معه فى الذروة عندما رأى نفسه منفردًا بالدوقة، فقد تصور أنه لا بد أن يجد ما سبق أن وجد فى بيت دون دييجو وبيت باسيليو، فهو دائمًا مغرم بالحياة المرفهة، وكان ينتهز الفرصة كاملة فى كل مرة، ومتى يتاح له فى أمر استقبال تلك الحياة بكل تدليلها له.

وتحكى القصة أنهم وصلوا إلى بيت اللذة أو القلعة، حيث تقدمهم الدوق، وأعطى أوامر إلى كل الخدم بالطريقة التى ينبغى عليهم اللجوء إليها فى معاملة دون كيخوتى، الذى كان قادمًا فى صحبة الدوقة، من ثم عند اقترابه من أبواب القلعة، خرج فى الحال منها خادما استقبال أو سائسان يرتديان ثيابًا تخب فى أقدامهما، يطلقون عليها(النهضة)(*) من حرير شديد النعومة قرمزى اللون، والتقطا ذراعى دون كيخوتى دون أن يدرى كيف من سرعة المفاجأة، وقالا له:

– هيا عظمتكم لإنزال سيدتنا الدوقة من على مهرها.

حاول دون كيخوتى، وتبادلا جدلاً مهذبًا طويلاً، بالفعل انتصر عناد الدوقة، ولم تقبل النزول أو الترجل عن مهرها إلا بين ذراعى الدوق، قائلة بأنها ليست جديرة بتكليف مثل ذلك الفارس العظيم عناء هذه الحمولة التى لا جدوى منها. فى النهاية، خرج الدوق لإنزالها، ليدخلوا فى فناء عظيم، واقتربت وصيفتان، وألقيا

(*) النهضة levantar نوع من الثياب الطويلة التى كانوا يرتدونها فى منازل الأثرياء.

فوق كتفى دون كيخوتى عباءة وردية، من أرقى أنواع النسيج وأرقه، وفى الحال توجت كل ممرات الفناء بالخدم من حاشية الدوق والدوقة، قائلين بأصوات عالية:

– على الرحب والسعة زهرة وزبدة الفرسان المشائين!

وكلهم أو معظمهم يهرقون أمواه أوانى عطر على دون كيخوتى، وعلى الدوق والدوقة، ومن كل هذا دهش دون كيخوتى، وكان ذلك أول يوم آمن فيه من كل وبكل شيء أنه فارس مشاء حقيقى، وليس وهمًا من أوهام الخيال، وذلك عندما رأى نفسه يعامل بنفس الطريقة التى سبق له قراءتها عن معاملة الفرسان المشائين فى العصور السالفة.

سانشو عند خذلانه لحماره تاركًا له قبل الدخول للقلعة ملتصقًا بالدوقة، قرصه ضميره، فاقترب من سيدة محترمة، كانت مع أخريات خرجن لاستقبال الدوقة، وبصوت خفيض قال لها:

–أيتها السيدة جونثالث، أو كما يكون ظرف سماحتكم ...

– السيدة رودريجيث دى جريخالبا، هذا اسمى (أجابته القهرمانة)، بماذا تأمر أيها الأخ؟

– كنت أود أن تتفضلى علىَّ بالخروج إلى باب القلعة، حيث ستجدين حمارًا بنِّى اللون؛ وسماحتكم بورك فيك، تأمرين بوضعه فى الحظيرة؛ لأنه المسكين جبان قليلاً، ولا يمكنه البقاء وحيدًا بأية حال.

أجابت القهرمانة:

– إذا كان السيد فطنًا مثل صبيه(*)، فهذا هو لنا الفلاح! انطلق، أيها الأخ، على الطائر المنحوس، أنت ومن أتى بك، وانظر بنفسك فى شأن حمارك، فنحن سيدات هذا البيت، لسنا متعودات على مثل تلك المهمة.

(*) السيد هنا سانشو والصبى هو الحمار.

أجاب سانشو:

– فى الحقيقة إنى سمعت من سيدى يقول، وهو أبو عريف القصص، حاكيًا قصة لانثاروتى:

عندما جاء من بريتانيا

كانت هناك سيدات يعالجنه

وسيدات يعالجن جواده الهزيل

ولخصوصية حمارى لا أقايضه بجواد السيد لانثاروتى.

أجابت القهرمانة:

– أيها الأخ، إذا كنت راوية فادخر طرائفك حيث ترى وحيث يدفعون لك، أما من ناحيتى فلن تقبض أكثر من وضع إصبعى فى عينك.

أجاب سانشو:

– أنت غنية بسنوات عمرك، فلن ينقصها ما تدفعين(*).

قالت القهرمانة وقد اشتعلت تمامًا من الغضب:

– يا ابن الداعرة، إذا كنت عجوزًا أو لم أكن، فإن عند الله الحساب، وليس عندك أيها الخسيس ذو الرائحة الثومية.

قالت هذا بصوت مرتفع لدرجة أن سمعتها الدوقة، فالتفتت لتراها هائجة محتقنة العينين، فسألتها عمن تتشاجر معه، فأجابت السيدة:

(*) إشارة إلى شيخوختها.

– هنا مع هذا الرجل الطيب، الذى طلب منى فى إلحاح الذهاب كى أضع فى الحظيرة حمارًا له عند باب القلعة، معطيًا لى مثلاً لمثل هذا الأمر لا أدرى أين، من أن سيدات عالجن لانثاروتى ما، وأخريات جواده، وفوق هذا بعبارات حسنة أطلق علىَّ لقب العجوز.

أجابت الدوقة:

– لو قيل لى كنت أعتبره إهانة، وأكثر، أى شىء أفظع يمكن أن يقال لى؟

وتكلمت إلى سانشو:

– اعترف أيها الصديق سانشو، أن السيدة رودريجيث فى غاية الشباب، وأن خمارها(*) هذا ترتديه لمقامها وليس لمر السنين.

أجاب سانشو:

– حرمنى الله من السعادة مابقى من أيام عمرى إذا كنت بلغت هذا القول، وأن ما قلته كان بسبب ما أكنه من حب كبير لحمارى الذى لم يظهر لى أن أوصى عليه شخصًا أكثر رحمة وبرًّا من السيدة رودريجيث.

دون كيخوتى، الذى كان يسمع هذا، قال له:

– هذا الكلام يليق بهذا المكان؟

أجاب سانشو:

– سيدى، كل واحد عليه أن يتكلم عن ضروراته حيثما كان، هنا تذكرت الحمار، وهنا تحدثت عنه، وإذا كنت فى الحظيرة تذكرته لتكلمت هناك.

(*) الخمار هنا شعرها الأبيض.

وعلى هذا علق الدوق:

- سانشو مصيب جدًّا، ولا ينبغي إدانته فى شيء؛ وبالنسبة للحمار سيطلب العناية به، ولا تحمل همًّا سانشو، فستتم معاملته مثلك تمامًا.

بهذه العبارات، كان سانشو مستظرفًا من الجميع إلا من دون كيخوتى، وقد صعدا القلعة، وأدخلا دون كيخوتى فى صالة مبطنة بستائر بديعة جدًّا، مشغولة بالذهب، فوق قماشها الإستبرقى ست وصيفات، خلعن عنه سلاحه، وقمن بخدمته، وكلهن حاذقات قد وقع تحذيرهن من الدوق والدوقة بما يجب أن يعملنه وما لا يجب، وإخطارهن بكيفية معاملة دون كيخوتى، حتى يتخيل ويرى معاملته فارسًا مشاءً، وبعد خلع عدته بقى دون كيخوتى فى سراويل ضيقة ومعطف من الجلد، بنحافته الجافة، وطوله الممتد، وفكيه اللذين يقبل أحدهما الآخر من الداخل؛ صورة إذا لم تعمل الوصيفات حسابًا لتجنب الضحك (وهذا كان من الأوامر الدقيقة التى أعطاها لهن الدوق والدوقة) لانفجرن ضاحكات.

طلبن منه أن يستسلم للتعرى بخلع ملابسه، حتى يلبسنه قميصًا، لكنه لم يوافق قط، قائلاً إن الأمانة كانت تبدو دائمًا فى سموها بين الفرسان المشّائين، مثلها مثل الشجاعة. ومع ذلك، قال لهن أن يعطين القميص لسانشو، واختفى عن أنظارهن معه فى غرفة، حيث وجد سريرًا جميلاً، وتعرى، وارتدى القميص، وعندما وجد نفسه منفردًا مع سانشو، قال له:

- قل لى أيها الوغد (المودرن)، والأحمق (القديم)، هل يبدو لك طيبًا أن تهين سيدة بمثل هذه الأصالة والجدارة بالاحترام؟ هل كانت هذه أوقات تتذكر فيها الحمار؟ أو هل هؤلاء السادة يصلحون لحل مشاكل الدواب بينما

يعاملون أصحاب الدواب بكل هذه الرقة والكياسة؟ بحق الله، تمالك نفسك، ولا تكشف عيوبك الكامنة، بطريقة ترسم فى الإدراك صورتك الريفية المنسوجة من خيط غليظ معيب. تأمل، أيها الآثم، فى نفسك، فكلما ازدادت رفعة السيد اتخذ خدمًا ذوى شرف وأولاد ناس، وواحدة من الميزات التى يتفوق بها الأمراء عن باقى البشر، أنهم يخدمون من خدم فى مثل رفعتهم. ألا تعلم، أيها المنكود لنفسك، وسوء الحظ لى، أنهم إذا رأوك ريفيًا بمثل هذه الخشونة أو أحمق يستظرف نفسه، سوف يفكرون أننى صاحب مظهر خداع، وفارس زائف يبطن غير ما يظهر. لا، لا، أيها الصديق سانشو، تجنب هذه العقبات غير اللائقة؛ فإن من يتعثر فى الثرثرة أو التظرف عند أول عثرة يسقط ويؤخذ كوغد تعس. اكبح جماح لسانك، واجتر الكلمات مرات قبل أن تخرج من فمك، واعلم أننا وصلنا إلى مكان، بفضل الله وقوة ساعدى، علينا أن نخرج منه فائزين بقداح الشهرة والثروة.

وعده سانشو مخلصًا أن يخيط فمه أو بعض لسانه، قبل أن يتكلم بكلمة لا توافق الغرض، ولا تكون موضع اعتبار، تمامًا مثلما يأمره، وعليه ألا يحمل همًا من هذه الناحية؛ لأنه لن يكشف أحد عمن هما حقيقة عن طريقه هو شخصيًا.

ارتدى دون كيخوتى ملابسه، ووضع سيفه فى حزامه، وألقى على كتفه العباءة الوردية، طرح على رأسه غطاء من الحرير الأطلس الأخضر، قدمته له الوصيفات، وبهذا التزين خرج إلى الصالة الكبرى، حيث وجد الصبايا واقفات على هيئة جناح، تساوى عددهن فى اتجاه مع عددهن فى الاتجاه الآخر، وكلهن مائلات لصب الماء على يديه، الأمر الذى يفعلنه بكل إجلال وتوقير شعائرى. وهنا وصل

اثنا عشر خادمًا ورئيس خدم لحمله لتناول الطعام، فسادة القلعة كانوا بالفعل في انتظاره. أحاطوا به ممتلئًا بالزهو والجلال، يقودونه إلى صالة أخرى، حيث كانت منضودة مائدة ثرية بها فقط أربعة مقاعد معدة. الدوق والدوقة تقدما إلى باب الصالة لاستقباله، ومعهم قسيس خطير المكانة من هؤلاء الذين يحكمون بيوت الأمراء، من هؤلاء الذين لأنهم لم يولدوا أمراء لا يصيبون في وعظ من هم أمراء كيف يكونون أمراء، من هؤلاء الذين يودون أن تقاس عظمة العظماء بصرامة نفوسهم، من هؤلاء الذين لرغبتهم أن يُظهِروا من يحكمونهم محدودين، يحولونهم إلى بؤساء، من هؤلاء، أقول، كان يجب أن يكون رجل الدين الخطر، والذى خرج متجهمًا مع الدوق والدوقة لاستقبال دون كيخوتى. قاموا بألف لمحة تهذيب، وفى النهاية، أخذا دون كيخوتى بينهما، واتجها إلى المائدة. دعا الدوق دون كيخوتى لتصدر المائدة، ورغم أنه رفض ذلك، إلا أن إلحاح الدوق كان كبيرًا، فكان لزامًا عليه أن يتصدرها، وواجهه القسيس وجلس الدوق والدوقة على الجانبين.

كان سانشو حاضرًا كل ذلك مستبلهًا ومذهولاً من رؤية التكريم الذى يقدمه الأميران لسيده، وعند رؤيته كثرة الشعائر الاحتفالية، والمجاملات التى دارت بين الدوق ودون كيخوتى كى يجعله يجلس على رأس المائدة، قال:

- **إذا سمحتما أعطيتمانى تصريحًا، فسوف أحكى لكما حكاية وقعت فى قريتى فيما يتعلق بالجلوس هذا على المائدة.**

لم يكد يقول ذلك حتى ارتعد دون كيخوتى، معتقدًا أنه سوف ينطق بلغو وسفاهة. نظر إليه سانشو، وفهمه، وقال:

– لا تخف فخامتكم، سيدى، من أننى سوف أخالف الوصية أو أقـول شـيئًا لا يناسب، فلم أنس النصائح التى قدمتها لى منذ قليل، حول الكلام كثيره أو قليله، طيبه أو سيئه.

أجاب دون كيخوتى:

– أنا لا أتذكر شيئًا، سانشو. قل ما تشاء مادمت أسرعت فى الانتهاء من قوله.

قال سانشو:

– إذن، ما أود قوله، حقيقى، فحضور سيدى دون كيخوتى لن يدع لى مجـالاً للكذب.

أجاب دون كيخوتى:

– بالنسبة لى اكذب ما شئت، سانشو، فلن أتعرض لك، لكن انظر فيما سوف تقول.

– لقد نظرت جيدًا وأعدت النظر، فإن ما يكرر النظر فيه يخرج دون عثرة، كما سوف يُرى فى الأداء.

قال دون كيخوتى:

– سيكون من الخير أن يأمر عظمة الدوق والدوقة بطرد هذا الأبله من هنا، حتى لا يتفوه بألف من الترهات.

قالت الدوقة:

– وحياة الدوق، لا تدعه يبعد عنى ولو لحظة، فأنا أحبه كثيرًا، لأنى أعرف أنه فى غاية الفطنة.

قال سانشو:

- عاشت قداستكم أيامًا من الكياسة، من أجل المصداقية التى تحملينها نحـــوى، وإن كنت خالى الوفاض منها. والحكاية التى أود قولها هى: استضاف(*) أحد أعيان قريتى، وهو غنى جدًّا ومشهور، لأن أصله من لوس ألاموس دى مدينة ديل كامبو، وتزوج من دونيا مينشيا دى كينيـــونس، وكانـــت ابنـــة دون ألونسو دى مارينيون، فارس نظام سانتياجو، الذى غرق فى لا هيِّرا دورا(**)، والذى بسببه كانت تلك المشاجرة منذ سنوات بقريتنا، وحسب إدراكـــى، شارك سيدى دون كيخوتى فيها، حيث خرج توماسيو جريحًا، الشقى ابـــن بالباسترو الحداد... أليس حقيقيًّا كل هذا أيها المبجل سيدى؟ قلـــها بحـــق حياتك، حتى لا ينظر إلىَّ هؤلاء السادة على أنى ثرثار كذاب.

قال القسيس:

- حتى الآن أنظر إليك على أنك ثرثار أكثر منك كذابًا، لكن من الآن فصاعدًا لا أدرى كيف سأنظر إليك.

- أنت، سانشو، تعطى شواهد كثيرة وإشارات، تجعلنى لا أســـتطيع أن أتـــرك الاعتراف بأنك تقول الحقيقة. استمر، واختصر الحكاية، لأنك فى طريق مَن لن ينتهى فى يومين.

(*) ميناء قريب من مالقة، حيث وقع غرق لعدة سفن كان ضحاياها حوالى ٤٠٠٠ شخص عـــام ١٥٦٢ م.

(**) نلاحظ إطناب وإطالة سانشو، فمفعول (استضاف) سيأتى متأخرًا جدًا.

قالت الدوقة:

- ليس عليك اختصارها، لتحقيق البهجة بالنسبة إلىّ، وعلى العكس عليك حكايتها بالطريقة التى تعرفها، حتى لو أنهيتها فى ستة أيام، وإذا زادت أيام حكايتها ستكون أفضل أيام تمر بحياتى.

واصل سانشو:

- أقول، من ثَم، سادتى، إن ذلك الرجل من الأعيان الذى أشرت إليه، والذى أعرفه كما أعرف سادتى، لأن بيته على مرمى حجر من بيتى، استضاف مزارعًا فقيرًا، لكنه شريف.

قال القسيس عند هذا:

- استمر فى الحكاية أيها الأخ، فأنت تسلك طريق من لن يتوقف حتى اليوم الآخر.

أجاب سانشو:

- سأتوقف فى أقل من نصف الوقت الذى تتوقعه. وهكذا، أقول: عند وصول المزارع إلى البيت عند الداعى، لترقد روحه فى سلام، فقد مات، وأمارات أكثر على موته، إنهم يقولون بأنه مارس موتًا ملائكيًّا ولم أكن موجودًا عند موته حيث سافرت إلى تمبلييكى للحصاد...

- يا بنى، بحياتك، عد سريعًا من تمبلييكى، ولا تشغلنا بدفن العين الميت، إذا لم تكن تريد عمل جنازات أكثر، وضع نهاية لحكايتك.

أجاب سانشو:

– **هذا ما سأفعله، حيث إن الاثنين عند الجلوس على المائدة، ذلك المنظر الــذى يبدو لعينى أوضح من أى وقت مضى...**

امتلأ الدوق والدوقة بالانبساط من انقباض رجل الدين مــن تــأخير نهايــة الحكاية، ومن نموذج القص الذى يحكى به سانشو قصته، أما دون كيخوتى فكــان يأكله الغضب والغيظ.

قال سانشو:

– **أقول، وهكذا، عندما كان الاثنان لحظة الجلوس على المائدة، كمــا ســبق لى القول، عاند المزارع العين فى ضرورة جلوسه على رأس المائدة، وعاند العين المزارع كى يتصدر المائدة، لأنه فى بيته عليه أن يأمر فيطاع، لكن المــزارع الذى كان يدعى الأدب، لم يقبل قط إلى أن أجلسه العين بالقوة، آخذًا بيديه عنوة من فرط غيظه، قائلاً له: "اجلس أيها الدنىء، فحيث أحب أن أجلس أنا، سيصير مقعدى رأس المائدة" هذه هى الحكاية، وفى الحقيقة، أعتقــد أن حكايتها هنا ليست بعيدة عن المناسبة.**

تقلب على وجه دون كيخوتى ألف لون، كانت تبرق علــى ســمرته بــشكل ملحوظ، والدوق والدوقة حبسا الضحكة، لأن دون كيخوتى لن يلبــث أن يــشتعل غضبه عندما فهم خبث سانشو، ولتغيير مجرى الحــديث، وإبعــاد سانــشو عــن مواصلة حكى ترهات أخرى، سألت الدوقة دون كيخوتى عما لديه من أخبار جديدة عن السيدة دولثينيا، وعما إذا كان قد أرسل لها مؤخرًا بعض الهــدايا مــع بعــض المردة أو الأشقياء، فليس من المعقول ألا يكون قد هزم الكثيرين. وعلى هذا أجــاب

دون كيخوتى:

– سيدتى، تعاساتى مع أن لها بداية، لكنها لن تكون لها أبدًا نهاية. مردة، نعم على الكثير منهم تغلبت، وأرسلت من الأشرار والأشقياء الكثير، لكن، أين لهم أن يجدوها، إذا كانت مسحورة، ومسخت فى صورة أقبح مزارعة يمكن تخيلها؟

قال سانشو بانثا:

– لا أدرى، بالنسبة لى تبدو المخلوقة الأكثر جمالاً فى العالم، على الأقل فى الخفة، وما أعرفه عنها فى القفز لا يتيح لألعاب السيرك أن يتميز عليها، وأقسم أيتها الدوقة أنها تقفز من الأرض لتصير فوق الحمار فى قفزة واحدة، كما لو كانت قطًا.

سأل الدوق:

– هل رأيتها، سانشو، وهى مسحورة.

أجاب سانشو:

– كيف لم أرها؟ بحق الشيطان، لم أكن إلا الأول الذى وقع على سقم سحرها! إنها مسحورة جدًا، لدرجة جعلتها تشبه أبى!

القسيس الذى سمع ذكر المردة، والأشرار، وأعمال السحر، أدرك أن ذلك لابد أن يكون دون كيخوتى دى لامانشا، الذى كان الدوق قد اعتاد على قراءة قصته، وهو قد صده عن قراءتها مرارًا، قائلاً له إنها ترهة قراءة أمثال تلك الترهات، وعندما تأكد إدراكه أن شكوكه حقيقية، أصابه غضب شديد أفرغه وهو يخاطب الدوق قائلاً:

- سموكم، سيدى، سوف تقدم حسابًا أمام الله عما يفعل هذا الرجل الطيـــب. دون كيخوتى هذا أو دون (عبيط)، أو كما يحلو لهم تسميته، أتصور أنه لا ينبغى أن يكون أحمق كما تود سموكم له من صورة الحمق، بتهيئة الفرص له كى يواصل حماقاته وتصرفاته الفارغة.

ثم حول حديثه إلى دون كيخوتى، وقال له:

- وأنت، أيها الساذج، من أدخل فى مخك أنك فارس مشّاء؟ وأنك تهزم مــردة وتبارز أشرارًا؟ أهلاً وسهلاً! وحول هذا أقول لك: عد إلى بيتك، وقم بتربية أولادك إن كان لك أولاد، وعالج خلل أرضك وثروتك، واترك التشرد فى أنحاء العالم، ماضغًا الريح، ومثيرًا ضحكات السخرية عند كل من يعرفــك ومن لا يعرفك. أين، حتى نبارك لك، وجدت أنه وجد أو يوجد الآن فرسان مشاءون؟ وأين يوجد مردة أو أشرار فى لامانشا؟ بل أين توجد دولثينيــات مسحورات؟ وكل تلك الشرذمة من البلاهات التى تحكى عنك؟

كان دون كيخوتى فى غاية الانتباه لعبارات ذلك الذكر المقدس، وعندما رآه قد سكت منتهيًا من كلامه، دون شعائر الاحترام للدوق والدوقة، وقف على قدمــه وبوجه مغبر وهائج قال...

لكن هذه الإجابة فصل كامل لأنها تستحق.

الفصل الثانى والثلاثون

عن الإجابة التى نطق بها دون كيخوتى على من أنّبه ولامه مع أحداث أخرى جادة وطريفة

إذن، ناهضًا على قدميه مرتعدًا من القدمين إلى الرأس، كما لو كانت أصابته حمى تسمم، وبلسان متسرع ومتعكر قال:

– المكان الذى أنا به الآن، وحضور من أوجد فى مواجهتهم، والاحترام الـــذى حملته دائمًا للمهنة التى تمارسها سماحتكم، يوقف ويقيد يدَىْ غضبى العادل؛ وهكذا بسبب ما قلتُ وللتعريف بما يعرفه الجميع من أن ســـلاح رجـــال الكهنوت هو نفس سلاح المرأة، إنه اللسان، سأدخل بلـــسانى فى معركـــة متكافئة مع سماحتكم، الذى كنت أنتظر منه نصائح طيبة ولـــيس إهانـــات شنيعة. إن التوبيخ المقدس وحسن النية يتطلبان ظروفًا وأوقاتًا أخرى، وعلى الأقل فإن التوبيخ الذى وجهته إلى علنًا، وبمثل هذه الخشونة قد جاوز كـــل الحدود التى يعرفها التأنيب الدينى، الذى يجد مهدًا أفضل باللين أكثر منـــه بالخشونة، ولن يكون حسنًا، دون معرفة بالإثم الذى يصدر عنه، أن تطلـــق على الآثم وفجأة ألقاب الأحمق والعبيط. وإذا لم يكن الأمر كما أقول، قل لى أى حماقات بى قد رأيتها وعليها تديننى وتهيننى، وتأمرنى أن أعـــود إلى بـــيتى للاهتمام بإدارته، والاهتمام بزوجتى وأبنائى، دون معرفة هل لى زوجـــة أو

أولاد؟ وليس إلا دخولك خبط عشواء بيوت غيرك لحكم أربابها، ولكونك قد تربيت فى بيت طلبة بين الفقر والصرامة لا تعرف من الدنيا إلا ما يتسع له بضعة فراسخ من الأرض، فإنك تحشر نفسك فى اقتحام لوضـــع قـــوانين للفروسية، والحكم على الفرسان المشَّائين. وهل بالصدفة يعـــد شـــأنًا بـــلا جدوى أو وقتًا سيئ الاستغلال، مايستغل للتجول فى الدنيا، ليس بحثًا عـــن عرضها الزائل، وإنما فى خشونة حيث يصعد الأخيار إلى مقعد الخلود. وإذا نظر إلى على أننى (عبيط) الفرسان، الأشراف، أولاد الناس، فإننى ســـآخذ ذلك بصفة إهانة لا إصلاح لها، لكن أن ينظر إلىَّ كسفيه طلاب الكهنوت، الذين لم تطأ أقدامهم قط سبل الفروسية، لن يساوى عندى شرو نقير، فارس أنا، وعلىَّ أن أموت فارسًا، إذا شاء الأعلى. البعض يمضى فى الحقل العريض للطموح، والغطرسة، وآخرون يمضون فى حقل المداهنة التى تشبه أســـلوب الخدم فى انحطاط، وفريق ثالث يسلك طريق النفاق المخادع، وغيرهم طريق الدين الحق، لكننى متجهًا كما يشير نجمى، أمضى فى السبيل الضيق للفروســـية المشَّاءة، والتى أستهين من أجلها بالثروة وليس بالشرف. لقد أصلحت مـــا أفسدته الانتهاكات للأعراض، وقد رفعت مـــن المظـــالم، وعاقبـــت علـــى الغطرسة، وتغلبت على مردة، وعثرت بأكثر من عفريت، وأنا عاشق، وليس لأى سبب سوى أنه إجبارى أن يكون الفرسان المشَّاءون عشاقًا، وكـــونهم كذلك، لست من العشاق الحسيين، وإنما عاشق أفلاطونى، ونواياى دائمًـــا رفع الإصر والمقاصد النبيلة، بأن أعمل خيرًا للجميع، ولا ذرة شر لأحـــد، والذى يفكر هكذا، ويمارس هذا البر، ويقوم بكل ذلـــك، إذا اســـتحق أن يطلق عليه أبله، قلها له يا سيدى الدوق ويا سيدتى الدوقة.

قال سانشو:

- رائع، بحق الإله! لا تقل أكثر يا سيدى ورئيسى دفاعًا عن فخامتكم، لأنــه لا يوجد قول أبعد مما قلت، ولا أبعد مما فكرت، ولا أكثر مما يبقى فى الأرض. وفوق ذلك، أن ينكر هذا السيد بالطريقة التى أنكر بهــا الوجــود فى الماضــى والحاضر لفرسان مشّائين فى العالم، كم هو لا يعرف الكثير من الأشياء التى قلتها؟

قال القسيس:

- بالصدفة، هل أنت أيها الأخ سانشو بانثا ذلك الذى عنه يتكلمون، والــذى وعده سيده بولاية إحدى الجزر أو الحكومات؟

أجاب سانشو:

- نعم هو أنا، وأنا من يستحق تلك الولاية تمامًا مثل أى شخص آخر، وأنا من شعاره " انضم للأخيار، فتصير واحدًا منهم"؛ وأنا من هؤلاء "لن تحــسب على من معهم ولدت، ولكن مع من سرت"، وأنا من القوم الــذين "مــن يسترح تحت شجرة طيبة، يجد ظلاًّ طيبًا" . وأنا أستريح فى ظل سيد طيــب، ومنذ شهور كثيرة أمشى فى صحبته، وصرت غيرى مثله. فلتكن تلك إرادة الله: يحيا هو، ويحيا أنا! فبالنسبة له لا تنقصه إمبراطورية كى يتوج عليهــا، وأنا لا تنقصنى ولاية كى أحكمها.

هنا قال الدوق:

- لا، سانشو، أيها الصديق؛ فأنا باسم السيد دون كيخوتى أعــدكم بحكومــة ولاية تزيد على حاجتى، وليست قليلة الشأن.

قال دون كيخوتي:

– اركع على ركبتيك، وقبِّل أقدام سموه من أجل ما أنعم به عليك.

صنع سانشو ما أمر به، وعندما رأى ذلك القسيس، انتفض مغادرًا المائـــدة، مضطربًا أكثر من اللازم، قائلاً:

– من أجل هذه الثياب الكنسيَّة التي أرتديها، أود القول إن سموكم يمثل سفاهة هؤلاء الآثمين، وانظر عما إذا كانوا غير مجانين، مـــادام العقـــلاء يمتـــدحون جنونهم! وابق سموكم معهم، فمادام هم في بيتك، سأبقى أنا في بيتي، وأعتذر عن عدم منعي ما لا أستطيع إصلاحه.

ودون كلمة أكثر، أو لقمة في فمه أكثر، ودون أن تجدي رجـــاءات الـــدوق والدوقة في منعه من المغادرة انصرف، مع أن الدوق لم يلح عليه كـــاتمًا الضحك بسبب غضبه الوقح، وانتهى ضاحكًا، وقال لدون كيخوتي:

– فخامتكم أيها السيد فارس الأسود، قد دافعت عن نفسك ببراعة، فلم يبـــق لديه شيء يشفي غليله من القول، ومع أن ما قاله يؤذي المشاعر، فإنه بأيـــة حال ليس كذلك، لأنه كما أن النساء لا يؤذين، فإن القساوسة لا يؤذون، كما تعرف فخامتكم أفضل مني.

أجاب دون كيخوتي:

– هو كذلك، والسبب أن الذي ليس بالمستطاع إيذاؤه، لا يستطيع أن يـــؤذي أحدًا. النساء والأطفال والقساوسة، كما أنهم لا يستطيعون الـــدفاع عـــن أنفسهم، حتى لو أغضبوا، يستحيل إهانتهم. وبين الأذى والإهانة يوجد هذا

الفرق: فكما أن سموكم تعرف الإهانة تأتى من طرف مـــن يقـــدر عليهـــا، ويمارسها، ويغذيها، والأذى يمكن أن يصدر من أى أحد، دون أن يجتـــرح إهانة. ولنضرب مثلاً، أحدهم فى الشارع ليس على باله شيء، يصل عشرة أشخاص مسلحون، ويضربونه بالعصى، فيضع يده على ســـيفه، ويـــؤدى واجبه، لكن كثرة المعتدين تحول بينه وبين أدائه، ولا تسمح له بتنفيذ نيتـــه للثأر. هذا الشخص قد أوذى لكن لم يهن، لأن الإهانـــة يجـــب أن تغـــذى بالمواجهة. ونفس الشيء يؤكده مثال آخر: أحدهم بدير ظهره، ويقتـــرب آخر، ويضربه بعصاه، ثم يهرب ولا ينتظر، ولا يمكن اللحـــاق بـــه رغـــم المحاولة، هذا الشخص أوذى بسبب ضربه بالعصا من الظهر، لكن لم يستقبل إهانة، لأن الإهانة لا بد من تغذيتها. فإذا الذى ضربه بالعصا، مع أنه فاجأه من الخلف، قبض على سيفه، وبقي مواجهًا له، يبقى المضروب تحـــت أذى وإهانة معًا. أذى بسبب الخيانة عند ضربه، وإهانة لأن الذى ضربه غـــذى الضرب ودعمـــه بأن لم يعط ظهره وبقي على قدمه مواجهًا. وهكذا طبقًـــا لقوانين المبارزة الملعونة، من الممكن أن أكون قد أوذيت، لكن لم أتلق إهانة، لأن الأطفال لا يتأسفون، وكذلك النساء لا يفعلن، ولا يستطعن الهـــرب، وليس لديهن سبب للانتظار والمواجهة، ونفس الشيء عند المعينين للـــشعائر الدينية المقدسة، لأن هذه الأجناس الثلاثة من البـــشر يعـــدمون الـــسلاح الهجومى والدفاعى، وهكذا، مع أنهم بالطبيعة مجبرون علـــى الـــدفاع عـــن أنفسهم، فإنهم ليسوا فى موضع القدرة على الاعتداء على أحد. ورغم أننى منذ قليل قلت إنه من الممكن أن أكون قد أوذيت، الآن أقول لا بأية حال، لأن من لا يستطيع استقبال الأذى، فإنه أعجز من أن يبثه، ولهذه الأسباب لا

يجوز أن آسف على ما قال لى ذلك الرجل الطيب، فقط أود أن أنتظر قليلاً، لأفهمه الخطأ الذى يقع فيه لتفكيره وقوله إنه لم يوجد، ولا يوجد فرسان مشّاءون فى العالم، ولو كان أماديس سمع منه مثل هذا الكلام، أو أحد الذين لا يحصون من نسله، أنا أعلم ما كان سيكون الأمر طيبًا بالنسبة لسماحته.

قال سانشو:

– أقسم على هذا عن علم، كان من الممكن أن ينالوه بضربة سيف، فيشطرونه من أعلى إلى أسفل مثل رمانة أو بطيخة ناضجة جدًا. هل كانوا ظرفاء حتى يتحملوا هذه الزغزغة؟ أقسم بهذا الوجه الذى أحمله، أننى متيقن لو أن رينالدوس دى مونتالبان كان قد سمع هذه العبارات من هذا (الرُّجيْل) لحطم فكيه، حتى لا يتكلم بعد ذلك لثلاث سنين، ليس إلا أن يقع معهم لنرى كيف السبيل لهربه من أيديهم!

كانت الدوقة ميتة من الضحك عند سماعها سانشو وهو يتكلم، وكانت تنظر إليه على أنه أكثر ظرفًا وجنونًا من سيده. فى ذلك الزمان كان هذا رأى الكثير. أخيرًا، هدأ دون كيخوتى، وانتهى الطعام، وعند رفع المائدة، وصلت أربع صبايا: الأولى معها طشت من الفضة، والثانية إبريق أيضًا من الفضة، والثالثة على كتفها منشفتان شديدتا البياض والرفاهة، والرابعة ذراعها مكشوف حتى منتصفه وفى يديها البيضاوين (وبياض يديها دون شك كان) قالب صابون من نابولى. اقتربت ذات الطشت، وفى ملاحة لطيفة وانغماس، مررت الطشت تحت لحية دون كيخوتى، الذى دون نطق كلمة، مذهولاً من مثل هذه الشعائر، معتقدًا أنها عادة هذه البلاد غسل اللحية بدلاً من اليدين، وهكذا دلى لحيته بقدر ما استطاع، وفى نفس اللحظة بدأ الإبريق يمطر، وصبية الصابون مخضت اللحية بسرعة،

رافعة ندفًا من الثلج، ولم تكن رغاوى الصابون أقل بياضًا، ليس فقط على اللحيـــة، لكن على كل وجه الفارس المطيع وعينيه، حتى جعلوا العينين تنغلقان عنوة. الدوق والدوقة اللذان لم يدريا من قبل عن هذا، كانا فى انتظار أين ســوف ينتهـــى هـــذا الغسيل غير العادى. الصبية الحلاقة، عندما غطتها بشبر من الصابون، ادعت نفاد الماء، وأمرت فتاة الإبريق بالذهاب لإحضار ماء، وطلبت من السيد دون كيخـــوتى الانتظار. انتظر وبقى بأغرب صورة، بل صورة تضحك إلـــى أبعـــد مـــا يـــصل الخيال. كان ينظر إليه كل الحضور هناك، وكانوا كثيـــرين، وقـــد رأوه بنـــصف قضيب للعنق، وأكثر، صار أسمر سمارًا اخـــتلط بالبيـــاض، والعينـــان مغلقتـــان، واللحية مغطاة بالصابون، وكان معجزة وفطنة زائدة تجنب الضحك، وصبايا اللعبة كانت عيونهن نحو الأرض، دون الجرأة على النظر إلى الدوق والدوقة، اللذين كان جسمهما يمرح بين الحمى والضحك، ولم يعرفا ماذا يصنعان: إما معاقبـــة جـــرأة الصبايا، أو إعطاءهن جائزة للسرور الذى أحساه من رؤية دون كيخوتى في هـــذا الموقف. أخيرًا صبية الإبريق جاءت، وانتهوا من غسيل دون كيخوتى، وفى الحال فتاة المناشف نظفته وجففته بكل بطء وهدوء، وأدت الصبايا الأربـــع لـــه انحنـــاءة كبيرة وعميقة فى إجلال، ورغبن فى الانصراف، لكن الدوق حتى لا يـــدرك دون كيخوتى اللعبة الساخرة، نادى على فتاة الطشت وقال لها:

- تعالى واغسلى لى، وحاولى ألا ينفد منك الماء.

الفتاة حادة الذكاء ومجتهدة، اقتربت ووضعت الطشت للدوق مثلما فعلـــت مـــع دون كيخوتى، ومسرعة غسلته وصبنته جيدًا، وتركته مجففًا نظيفًا. مقـــدمات جميعًـــا آيات الاحترام، انصرفن. بعد ذلك عُرِفَ أن الدوق أقسم أنهن إذا لم يكن قد غَسَلْنه مثل دون كيخوتى، كان سيعاقب وقاحتهن، التى عالجنها فى ذكاء بأن قمن أيضًا بتصبينه.

كان سانشو منتبهًا لشعائر الغسيل تلك، وقال لنفسه:

– فليرحمنى الله! هل ستكون العادة أيضًا غسيل لحى حاملى الدروع فى هذه البلاد بنفس الأسلوب الذى عاملوا به الفرسان؟ لعله يكون ضروريًا بالنسبة لى، وخاصة إذا استخدمن شفرة موس حلاقة، حتى تزداد فائدة هذه الطريقة لى.

سألت الدوقة:

– بماذا تكلم نفسك، سانشو؟

وأجاب هو:

– أقول، يا سيدتى، بأننى سمعت أنه فى بلاط الأمراء الآخرين، يقدمون الماء لغسيل اليدين بعد الأكل، وليس رغاوى الصابون على اللحى، ومن أجل هذا ما أجمل أن يعيش الإنسان أكثر حتى يرى أكثر، مع أنهم يقولون أيضًا إن من يعيش أكثر يتعرض للأذى أكثر، رغم أن المرور بغسل مثل هذا يعد لذة أكثر منه عبئًا.

قالت الدوقة:

– لا تحمل همًّا، سانشو، فسوف أعمل على أن تقوم وصيفاتى بالغسيل لك، حتى لو وضعنك فى طشت إن صار ذلك ضروريًا.

أجاب سانشو:

– يكفينى غسل لحيتى فحسب، على الأقل الآن، لأنه مع مضى الوقت علينا انتظار المكتوب.

قالت الدوقة موجهة حديثها لكبير الخدم:

– انظر فى كل ما يطلبه سانشو، وحققه له حرفيًا كما يطلبه.

أجاب كبير الخدم أن السيد سانشو سيتلقى كامل الخدمات، وعند انتهائه من قول هذا مضى ليأكل مصطحبًا سانشو معه، ليبقى على المائدة الدوق والدوقة ودون كيخوتى، يتحدثون عن أشياء كثيرة ومتفرقة، لكنها كلها مع ذلك تتعلق بالحياة فى صحبة السلاح وبالفروسية المشّاءة.

رجت الدوقة دون كيخوتى معتمدة على ذاكرته القوية أن يحدد ويعدد ملامح وحسن السيدة دولثينيا دل توبوسو، حيث إن الدوقة تعرف، طبقًا لشهرة تلك السيدة، أنها ينبغى أن تكون أجمل نساء الكون، بل أجمل نساء لامانشا! تنهد دون كيخوتى عند سماعه طلب الدوقة، وقال:

– لو كنت أستطيع نزع قلبى من بين جنبيَّ، ووضعه هنا أمام عظمتكم فى طبق فوق هذه المائدة، لوفر على لسانى قول ما لا يكاد يستوعبه الفكر، ولرأيتها عظمتكم مرسومة بداخله بكل حذافيرها، لكن لِمَ أشرع الآن فى تحديد ووصف حسن التى لا نظير لها دولثينيا نقطة نقطة، وجزءًا جزءًا، مع أن ذلك مسئولية جدير بأن يحملها عاتق غير عاتقى، حيث ينبغى أن تنشغل بها ريشة المصور بارّاسيو وتيمانتس وأبيلس ومنقاش النحات ليسيبو، لرسمها وحفر صورها على ألواح وفوق المرمر والبرونز، بل ينبغى أن تنشغل بوصفها البلاغة الشيشيرونية والديموستينية حتى يتم الوفاء بالثناء عليها.

سألت الدوقة:

– ما معنى الديموستينية، يا سيد دون كيخوتى؟ فلم أسمع هذا اللفظ قط كل أيام حياتى.

أجاب دون كيخوتى:

– البلاغة الديموستينية هى نفس قولنا "بلاغة ديموستينس" كما تنسب الشيشيرونية إلى شيشيرون، وهما أكبر اثنين بلاغيين فى العالم.

قال الدوق:

- هذا حقيقى، ولقد كان هذا السؤال محيرًا فى انتظار تلك الإجابة، لكن، مع هذا، سيسرنا كثيرًا أن ترسم صورها لنا، فملامحها ووجهها كما ننتظره فى تلك الصورة ينبغى أن يجلب حسد أجمل الجميلات.

أجاب دون كيخوتى:

- لو رسمتها لكان ما تقول، لكن أخشى أن النكبة التى وقعت لها قد مسحت صورتها من فكرى، حتى إنى معد للبكاء عليها أكثر من استعدادى لوصفها، لأنه على عظمتيكما أن تعرفا أننى ذهبت فى الأيام الماضية لتقبيل يديها واستقبال البركات والرضا والقبول والإذن لخرجتى الثالثة هذه، فوجدت أخرى غير التى كنت أبحث عنها، حيث عثرت عليها مسحورة، متحولة من أميرة إلى مزارعة، ومن الحسن إلى القبح، ومن ملاك إلى شيطان، نتن الرائحة خشن الملافظ، ومن الوقار إلى القفز مثل قرد على الحمار. لقد لف الظلام فى غياهبه نورها، وأخيرًا تحولت من دولثينيا دل توبوسو إلى ريفية من سيَّاجو.

قال الدوق بصوت مرتفع عند سماعه هذا:

- يا لله! من كان وراء هذا الشر المستطير الذى ارتكب ضد هذا العالم؟ ومن ذلك الذى حرمكم من الجمال الذى كان يبهجكم؟ ومن الملاحة التى كانت تسرى عنكم؟ ومن الشرف الذى كنت تثق به؟

أجاب دون كيخوتى:

- من؟ ومن يمكن أن يكون غير ساحر شرير من تلك الزمرة الحاسدة التى تطاردنى؟ هذه السلالة الملعونة التى أنجبها العالم حتى تعتم على محاسن الأخيار

وتقضى عليها، وحتى تفسح فى النور مكانًا لأعمال الأشرار وتنهض بها. لقد عشت مطاردًا من السحرة. نعم لقد طاردنى السحرة، وسوف يستمرون فى مطاردتى حتى يلقوا بى وبفروسيتى السامية فى قاع هُوَّة النسيان، وحتى يؤذونى فى تلك الأمور التى جروحها تؤلمنى أكثر، لأن حرمان فارس من سيدته هو حرمان له من عينيه اللتين يرى بهما، والشمس التى يستضىء بها، والغذاء الذى يتقوت به. وقد ذكرت مرارًا فى مرات سابقة، والآن أعود لقوله: إن الفارس المشَّاء دون سيدة مثل الشجرة دون أوراق، والمبنى دون أساس، والظل دون الجسم الذى ينتجه.

قالت الدوقة:

- لا توجد كلمات أكثر بعد الذى قلت، لكن رغم كل هذا، إذا أعطينا مصداقية للقصة أكثر من السيد دون كيخوتى، تلك القصة التى خرجت إلى النور فى هذه الأنحاء منذ أيام قليلة مع تصفيق عموم لناس، نستنتج منها، إذا لم تخنى الذاكرة، أن فخامتكم لم تر قط السيدة دولثينيا، وأن هذه السيدة لا توجد فى العالم، وإنما هى سيدة خيالية، أبدعها وولَّدها فخامتكم فى إدراكك، ورسمها بما شئت من كل هذا الظرف والكمال.

أجاب دون كيخوتى:

- حول هذا، هنا الكثير الذى يقال. والله وحده الذى يعلم إذا كانت دولثينيا فى العالم أو لا توجد، وإذا كانت خيالية أو غير خيالية، فهذه أمور لا يمكن تحريها حتى النهاية. أما أنا فلم أبدع ولم ألد سيدتى، رغم أننى أتأمل فيها كما ينبغى أن تتأمل سيدة تضم فى كينونها كل عناصر الجمال التى تجعلها مشهورة

فى أنحاء العالم. تلك العناصر هى: حسناء دون أدنى نقص، وجادة دون غرور، وودودة فى شرف، وشكورة فى أدب، ومؤدبة لحسن تربيتها، وأخيرًا سامية النسب والحسب، فالحسن يشرق من الدماء النبيلة، وبها يقيم بدرجات أكثر فى الكمال، من الحسن بين متواضعات الأصل والنشأة.

قال الدوق:

– هكذا يكون؛ لكن على السيد دون كيخوتى أن يأذن لى بقول ما تدفعنى القصة لقوله، فبها قرأت عن محاسنها، ومما قرأت يستنتج أنه حتى لو وجدت دولثينيا فى التوبوسو أو خارجها، وكانت فى مثل هذا الحسن الذى تصفه لنا، فإنه فيما يتعلق بسمو النسب والحسب، لا يتوازى مع الحسن بين كل سيدات الفرسان المشّائين اللائى تمتلئ بهن القصص التى تعرفها فخامتكم.

أجاب دون كيخوتى:

– فيما يتعلق بهذا، يمكننى القول إن دولثينيا ابنة لأعمالها، وإن الفضائل ترفع من تواضع الدم، وينال التقدير رجل فاضل متواضع، عن آخر منحرف نبيل الأصل، ودولثينيا فاضلة وزيادة، مما يسمح لها أن تكون ملكة بتاج وصولجان، تلك الزيادة هى الجمال بجانب الفضل، مما يؤدى إلى معجزات، حتى لو كانت رسميًا وواقعيًا تعدم تلك الدماء النبيلة.

قالت الدوقة:

– أقول لك أيها السيد دون كيخوتى، إنك فى كل ما قلت تسير بقدم ثابتة، وكما تعودوا القول، بمجسٍّ فى يدك، وإننى منذ الآن فصاعدًا سوف أعتقد

وأجعل كل من فى بيتى يعتقدون، بمن فيهم سيدى الدوق نفسه لو اضطررت لإقناعه، بأن دولثينيا موجودة فى التوبوسو، وأنها تعيش هنـاك الآن، وأنها حسناء وأصيلة المولد، وجديرة بأن يكون فى خدمتها فارس فى قامة السيد دون كيخوتى، وهذا أستطيعه، ولا أعدم الوسيلة لتحقيقه. لكننى لا أستطيع أن أبعد عنى شبح شك مع شيء لا أدريه من الحنق على سانشو بانثا: الشك هو أن القصة تقول إن ذلك المدعو سانشو بانثا وجد فخامتها تغربل قمحًا، وعلامات أكثر على صدق تلك الرواية أن القمح كان من النوع الردىء الروبيون، وهو الشيء الذى يجعلنى أشك فى سمو نسبها.

أجاب دون كيخوتى على هذا:

- سيدتى، قد تعرفين عظمتكم أن كل الأشياء التى تحدث لى أو معظمها تخرج عن المعتاد حدوثه للفرسان المشّائين الآخرين، فإما أن تسير فى طريق لا يرغب أن يكشف عن أسرارها القدر، وإما تسير فى طريق محكوم بخبث أحد السحرة الحاسدين، ولشيء عرفت أبعاده، فإن كل الفرسان المشّائين والمشهورين إما أن أحدهم محاط بعناية تحميه من أن يسحر، وإما أن يكون الآخر جسمه غير قابل للاختراق فلا يجرح، وهذا شأن روردان المشهور، وكان أحد الاثنى عشر فارسًا لفرنسا، ويحكى عنه أنه كان غير قابل لأن يجرح إلا من كعب قدمه الأيسر، ولا يتم ذلك إلا بسن دبوس غليظ، وليس بأى نوع آخر من الأسلحة، وهكذا عندما قتله برناردو ديل كاربيو فى رونسفال، كان قد لاحظ عدم قدرته على مسه بأسلحته الحديدية، فحمله بين ذراعيه وأغرقه، متذكرًا الطريقة التى قتل بها هرقل خصمه أنتيون، ذلك

المارد العنيف الذى قيل إنه ابن للأرض. أود أن أستنتج مما قلت، أنـــه مـــن المحتمل أننى محاط بعناية أشبه بذلك، لكنها ليست الحماية ضد الجروح، لأن التجربة أثبتت لى أكثر من مرة أن جسمى قابل لذلك، وأنه قابل للاختراق، كما أنها ليست العناية التى تحمينى من السحر، فقد رأيتنى موضوعًا فى قفص، رغم أن كل العالم غير قادر على حبسى فى مثل ذلك القفص، مـــا لم تكـــن قدرة السحر، لكن استطعت أن أحرر نفسى من ذلك، وأود الاعتقاد بأن لا شىء آخر يستطيع صيدى، وهكذا عند رؤية السحرة أنهم لا يـــستطيعون فعل شىء ضدى من شرورهم المعتادة، قاموا بالثأر منى فى الأشياء التى أحبها أكثر، راغبين فى نزع الحياة عنى بسوء معاملة دولثينيا، التى من أجلها أعيش، وهكذا أعتقد أنه عندما ذهب خادمى فى سفارة لديها، حولوها إلى ريفيـــة تمارس تلك الأعمال الوضيعة مثل غربلة القمح، لكننى سبق لى القـــول إن ذلك القمح لم يكن روبيون، بل لم يكن قمحًا، وإنما كان لؤلـــؤ الـــشرق، والدليل على هذه الحقيقة أود القول لعظمتكم كما أننى مررت منذ قليـــل بالتوبوسو، لم أعثر خلال ذلك قط على قصور دولثينيا، وفى اليوم التالى رآها سانشو فى نفس صورتها الأكثر جمالاً فى العالم، بينما لم تظهر لى إلا فى صورة مزارعة غير متحضرة وقبيحة، وبدون أى ذكاء عاقل، مع ذكائها الفائق على أى ذكاء فى الدنيا، من ثَم أنا غير مسحور وغير قابل لذلك، أما هى فقـــد سحرت واعتدى عليها، وتغيرت صورتها، ومقايضتها بـــأخرى وتبديلـــها، وخلالها انتقم منى أعدائى، ومن أجلها سأعيش أذرف دموعًا لا تهدأ، حـــتى أراها فى حالتها الأولى. أقول كل هذا حتى لا يتوقف أحد عند قول سانشو حول نخل دولثينيا وغربلتها، فإن كانوا بدلوا صورتها أمامى، فليس معجـــزة

أن يغيروها له. دولثينيا نبيلة، وابنة حسب ونسب، ومن السلسال الشريف الموجود فى التوبوسو، وما أكثر الأشراف بها وأقدمهم وأنبلهم، وليس صعبًا، بكل تأكيد، أن تجد من لا نظير لها دولثينيا مكانًا بين هؤلاء، فبها مدينتـــها سوف تصبح مشهورة ومذكورة فى القرون القادمة، كما نالـــت طـــروادة بفضل إيلينا، وإسبانيا بفضل لا كابا، مع شيء مـــن التفـــوق فى اللقـــب والشهرة لمدينة دولثينيا. ومن ناحية أخرى، أحب أن يعرف عظمتكمـــا أن سانشو بانثا واحد من أطرف الخدم الذين حملوا دروع الفرسان المـــشّائين، حتى إنه فى بعض الأحيان يقع فى سذاجات بالغة الذكاء، حتى إن التفكير فى هل هو ساذج أو ذكى؟ يوقع الإنسان فى عدم الرضا، وبه من الخبـــث مـــا يصنفه بين الأشرار، ومن الإهمال ما يضعه بين البلهاء، يشك فى كل شيء، ويعتقد فى كل شيء، وعندما أظن أنه متفرغ للبلاهة يخرج بأكثر الأفكـــار فطنة حتى ترفعه للسماء. وأخيرًا أنا لا أستبدل به خادمًا آخر، حـــتى لـــو أعطونى فوق البديل مدينة بأكملها، وهكذا، أنا فى شك عما إذا كان مـــن الخير إرساله، للتربع على الحكومة التى أنعم بها عليه عظمتكم، مع أننى أرى فيه صلاحية ما للحكم، فعندما يزين عقله بعض الشيء سيصير فى حكمـــة الملوك مع الشدائد، فضلاً عن أننا نعرف بالتجربة أنه ليس ضروريًا الكفاءة أو الثقافة الزائدة فى الشخص ليكون حاكمًا، من ثَم فها هم هناك مئـــة لا يكادون يعرفون القراءة والكتابة، ومع ذلك يحكمون مثل الصقور النبيلة فى الصيد، وحجر الزاوية هو هل نواياهم طيبة؟ ويرغبون الإصابة فى كل شيء؟ وهكذا لن يعدموا من يقدم لهم النصيحة، ويقودهم نحو ما ينبغى أن يعملوا، مثل الحكام الفرسان غير المثقفين، الذين يـــصدرون الأحكـــام فى وجـــود

مساعد. وأنصحه أنا بألا يرتشي وألا يضيع حقًا، وبقى فى ضميرى من النصائح له ما سيخرج فى موعده، لصالح سانشو وخير الولاية التى سيحكمها.

وصل الدوق والدوقة ودون كيخوتى إلى هذه النقطة من الحديث عندما سمعوا أصواتًا كثيرة وضجة كبيرة لأناس فى القصر، وفجأة دخل سانشو فى الصالة فزعًا، وعلى صدره مريلة، وخلفه غلمان كثيرون أو بعبارة أدق، عصابة من شُطَّار المطبخ، مع أناس آخرين، وأحدهم كان يتحرك ومعه (ماجور) ماء، بلونه وعدم نظافته بدا أنه يستخدم لغسيل الأطباق، وكان يتبعه ويطارده حامل الماجور هذا، وكان يحاول بكل إلحاح حشر الماجور تحت لحية سانشو، ومرمطون مطبخ آخر أظهر أنه كان يريد غسلها له.

سألت الدوقة:

– ما هذا أيها الإخوة؟ ماذا تريدون من هذا الرجل الطيب؟ كيف؟ ألا تضعون فى اعتباركم أنه اختير حاكمًا؟

على هذا أجاب المرمطون الحلاق:

– هذا السيد لا يريد أن يترك نفسه لنا لنغسله كما هو معتاد، وكما اغتسل سيدى الدوق، والسيد فارسه.

أجاب سانشو فى غضب شديد:

– نعم، أحب الاغتسال، لكن أحب أن يحدث ذلك بمناشف نظيفة، وبصابون أكثر صفاء، وبأيد ليست بهذه القذارة، فلا يوجد فرق عظيم بينى وبين سيدى، الذى غسلوا له بماء الملائكة، ولى بصابون الشياطين. وعادات كل

إقليم وقصور الأمراء لا بأس بها إذا لم تكن مؤلمة، وعادة الغسيل هنا أسوأ مما يفعل رهبان الفصح من تعذيب لأنفسهم. لحيتى نظيفة، ولا أحتاج لمثل هذا الاغتسال، وإذا وصل أحدهم لغسلى أو لمس شعرة من رأسى، قصدى من لحيتى، وأنا أتكلم بما يلزم من أدب، سوف أعطيه لكمة حتى تترك قبضة يدى مرصع الرأس بآثار أصابعى، فهذه الشعائر وعمليات التصبين تبدو لى لعبة ساخرة أكثر منها إكرامًا للضيوف.

الدوقة كانت ميتة من الضحك لمشاهدة غضبة سانشو، ولسماع عباراته، لكن لم يسر دون كيخوتى كثيرًا رؤيته متغيرًا بمريلته المبقعة، ومحاطًا بكثير من المتسلين، وهكذا فى لمحة احترام للدوق والدوقة طالبًا الإذن بالكلام، من ثَم قال بصوت وقور لهؤلاء الأوغاد:

- مرحى أيها الرجال! الآن فخامتكم اتركوا الصبى وعودوا من حيث أتيتم، أو إلى أى مكان يعجبكم؛ فخادمى نظيف مثل كل النظفاء، وهذا الماجور يصلح لشربكم. خذوا بنصيحتى واتركوه، لأنه لا هو ولا أنا نعرف تلك الحيل للسخرية.

التقط سانشو عبارة سيده من فمه وواصل القول:

- لا ينقصنى إلا أن تصلوا للسخرية من قليل العقل، لأنى هكذا سأكون إن تحملتُ، كما لو كنت لا أرى ما تفعلون. احضروا مشطًا أو ما شئتم وفلُّوا هذه اللحية، وإذا أخرجتم منها ما يغضب النظافة، احلقوا لى بعضها، وذروا البعض الآخر.

عند هذه العبارة، قالت الدوقة دون أن تترك الضحك:

- سانشو بانثا عنده حق فى كل ما قال، بل فى كل ما يمكن أن يقول، وهو نظيف كما يقول، وهو لا حاجة عنده للاغتسال، وإذا كانت عاداتنا لا

تسره، فهو حر، وبصفة خاصة، ياوزراء النظافة، لقد وصلتم المدى فى الإهمال والتهاون، ولا أدرى إذا يلزم القول بأنكم تجرأتم أكثر من اللازم بإحضار مواجير ومعاجن، وخرق تنظيف الصوان، لهذه الشخصية المهمة، بدلاً من النوافير وأباريق الذهب الخالص والمناشف الفاخرة. فى النهاية، أنتم سيئون خلقًا ومولدًا، ولا تستطيعون لكونكم أشرارًا أن تتخلصوا من إظهار حقدكم على حاملى دروع الفرسان المشّائين .

اعتقد الوزراء المتشطرون بما فيهم رئيس الخدم الذى جاء معهم أن الدوقة تتكلم فى جدية، وهكذا خلعوا عنه المريلة، وتركوه مضطربين خائفين، وهكذا عندما رأى سانشو نفسه بعيدًا عما كان يراه ذروة الخطر، مضى للركوع أمام الدوقة، وقال:

– ينتظر دائمًا عظيم النعم من عظماء السادة؛ إن هذه النعمة التى وهبتها لى اليوم لا يمكن شكرها، ليس بأقل من رغبتى فى أن أنصب فارسًا مشّاءً، حتى أشغل أيام حياتى فى خدمتكم، أيها السيدة السامية. وأنا مزارع واسمى سانشو، ومتزوج وعندى أبناء، وأعمل بوصفى حامل دروع، فإذا كنت أقدر على خدمتكم بواحدة من هذه الأشياء، فلن أتأخر عن الطاعة بمجرد أمر عظمتكم.

أجابت الدوقة:

– يبدو جيدًا، سانشو، أنك درست التهذيب فى نفس مدرسة التهذيب، أريد القول إنك تربيت فى أحضان السيد دون كيخوتى، الذى لا بد أن يكون زبدة التهذيب، وزهرة الشعائر فى السلوك (أو الشعاير كما تقول أنت) . فما أحسن هذا السيد وذاك الخادم، فالأول هو بوصلة الفروسية المشّاءة،

والثانى نجم ولاء الخدم. انهض، سانشو أيها الصديق، فإننى سوف أرد على تهذيبكم بجعل الدوق زوجى يسرع كما يستطيع منحك النعمة الموعودة بالحكومة.

بهذا توقفت الدردشة، وذهب دون كيخوتى لينام قيلولته، وطلبت الدوقة من سانشو، إذا لم يكن لديه رغبة كبيرة فى النوم، أن يذهب لقضاء الأصيل معها ومع وصيفاتها فى إحدى الصالات الطرية الجو. أجاب سانشو، مع أنه حقيقى تعود على النوم أربع ساعات أو خمس ساعات القيلولة فى الصيف، لكن لخدمة فيض نعمها، فإنه سيحاول بذل أقصى الجهد فى ألا ينام هذا اليوم دقيقة واحدة، وسوف يذهب إليها طائعًا لأمرها، وبالفعل فعل. الدوق أصدر أوامر جديدة لمعاملة دون كيخوتى باعتباره فارسًا مشاءً، دون الانحراف قدر بنان عن الأسلوب الذى تحكيه القصص عن معاملة قدماء الفرسان المشائين.

الفصل الثالث والثلاثون

عن الدردشة اللذيذة التى دارت بين الدوقة ووصيفاتها وبين سانشو بانثا، الأمر الجدير بالقراءة والتقدير

من ثمَّ، تحكى القصة أن سانشو لم ينم تلك القيلولة، وإنما حتى ينجز كلمته أتى طاعمًا يأكل ليرى الدوقة، التى لسرورها بسماعه جعلته يجلس بجوارها على كرسى منخفض، مع أن سانشو بسبب حسن تربيته المحض لم يحب أن يجلس هكذا، لكن الدوقة قالت له أن يجلس باعتباره حاكمًا وليتكلم بوصفه خادمًا، مع أنه فى الحالتين يستحق مقعد السّيد روى دياث كمبيادور(*). هز سانشو كتفيه، وأطاع وجلس، وأحاطت به كل وصيفات وسيدات الدوقة منتبهات فى صمت عظيم، لسماع ما يمكن أن يقول، لكن الدوقة كانت من بدأ بالكلام قائلة:

– الآن ها نحن وحدنا، وهنا لا يسمعنا أحد، لذا أحب أن يبدد السيد الحاكم لى بعض الشكوك التى ولَّدها عندى قراءة قصة دون كيخوتى الأعظم، تلك القصة التى شاعت مطبوعة. واحدة من تلك الشكوك أن سانشو الطيب لم ير قط دولثينيا دل توبوسو، ولم يحمل إليها خطاب السيد دون كيخوتى؛ لأن الخطاب بقى ضمن أوراق دفتر المذكرات فى لا سييرا مورينا، فكيف تجرأ على تصنع رد الخطاب؟ وذلك الادعاء فى أنه وجدها تغربل القمح، مع

(*) البطل الملحمى الوحيد فى إسبانيا العصور الوسطى، والمقعد المشار إليه هو مقعد الحاكم، عندما فتح السّيد بلنسية العربية وحكمها بعض الوقت.

كون ذلك خداعًا وكذبًا، وإيذاء للتى لا نظير لها دولثينيا؟ كما أنه من الأمور التى لا تتفق مع جودة وإخلاص حملة الدروع ذوى الجدارة؟

مع هذه العبارات، دون أن يجيب بكلمة واحدة، نهض سانشو من المقعد، وبخطوات متوانية، وجسم منهك، والإصبع فوق الشفاه، تجول بكل أنحاء الصالة، رافعًا ما يعترضه من ستائر، من ثَم، وقد انتهى من فعل ذلك، عاد إلى الجلوس، وقال:

– الآن سيدتى، وقد رأيت ألا أحد يسمعنا من خلف الستائر، بعيدًا عن انفرادنا، ودون خوف أو مفاجأة، سوف أجيب عن ما سألتنى وما سوف تسألين؛ وفى الأول أنا أعد سيدى دون كيخوتى مجنونًا لا دواء له، رغم أنه فى بعض الأحيان يقول أشياء تبدو لى ولكل من يسمعه شديدة الفطنة والتعقل، وتسير فى طريق صحيح، حتى إن الشيطان نفسه لا يستطيع قولها أفضل، لكن مع هذا، حقيقة، ودون شكوك، بالنسبة لى استقر عندى أنه مخبول. وهكذا كما أننى أضع ذلك فى ذاكرتى، أجرؤ على جعله يعتقد فيما لا رأس له ولا قدمين، كما حدث فى ذلك الرد على الخطاب، وكما وقع منذ ستة أيام أو ثمانية، والذى لم يدون فى القصة بعد، مما ينبغى قوله، من سحر سيدتى دونيا دولثينيا، فقد أوعزت إليه أنها مسحورة، وهو أمر لا علاقة له بالحقيقة إلا نفس علاقة رابع المستحيلات بها.

رجته الدوقة أن يحكى لها هذا السحر أو تلك الخدعة، وحكاها لها سانشو بنفس الطريقة التى وقعت بها، حتى إن المستمعات استمتعن بالكثير من السرور والانبساط، وفى مواصلة للحديث قالت الدوقة:

– مما حكاه لى سانشو الظريف، يثب إلى نفسى شك، ويتمتم فى أذنى همس يقول: "إذن دون كيخوتى دى لامانشا مجنون مخبول وأحمق، وسانشو حامل دروعه

يعرف ذلك، ومع كل هذا يخدمه ويتبعه، ويمضى مقيدًا بوعوده الخاوية، فمما لا شك فيه أنه أكثر جنونًا وبلاهة من سيده، ولكون ذلك كذلك، وهو فعلاً كذلك، فما أسوأ حساباتك أيتها الدوقة، إذا أعطيت سانشو بانثا ذاك ولايـة ليحكمها، لأن من لا يعرف حكم نفسه، كيف يحكم غيره؟"

قال سانشو:

– بحق الإله، سيدتى، هذا الشك يأتى من ولادة حقَّة، لكن قولى فخامتكم لهـذا الشك أن يتحدث بوضوح (بدلا من الهمس) أو كما يحب، فإنى أعرف أنـه يقول الحق: إذا كنت أنا عاقلاً، كنت تركت سيدى منذ أيام طويلة. لكـن هذا كان حظى، وهذا كان سوء مسيرى، وليس فى مستطاعى فعل أقل ممـا أفعل، من أن أتبعه، فنحن من نفس القرية، وأكلت خبزه، وأحبه كثيرًا، وهو ذاكر للجميل، أعطانى كل جحوشه، وفوق كل هذا، أنا وفىٌّ، وهكذا فمن المستحيل أن يستطيع تفريقنا أى شيء إلا المـوت. وإذا أردتِ سموكم ألا تعطينى الحكومة الموعودة، فالعوض على الله، ومن الممكن أن يكون ذلك فى صالح ضميرى، فعلى الرغم من أننى عبيط، فإننى أرى انطباق هذا المثل علىَّ "لسوء حظها ولدت الأجنحة للنملة". وقد يكون سانشو الخـادم أقـرب للسماء من سانشو الحاكم، وهم هنا يصنعون خبزًا فى جودة الخبز فى فرنسا، وكل القطط بالليل سواء، وأساس نكبة الشخص ألا يكون قد أفطر حـتى الثانية بعد الظهر، ولا توجد معدة أكبر من أخرى بقدر شبر، وبالتالى يمكن أن تملأ بالتبن والدريس، وصغار طيور الفضاء لهـا الله الـرزاق والمعطـى، وحوالى أربعة أمتار من نسيج كوينكا الخشن تدفئ أكثر من أربعة أمتار من نسيج سيقوبيا الرقيق، وعند ترك هذا العالم ووضعنا تحت التراب فى نفـس

الطريق الضيق يمضى الأمير مثل الصعلوك، ولا يشغل جسم البابا مساحة أكبر مما يشغله جسم الشماس، حتى لو كان أحدهما أطول من الآخر، لأنه عند دخول حفرة القبر كلنا نضغط وننكمش، أو يضغطوننا ويكمشوننا، ويطففون ميزاننا، ثم تصبحون على خير فى ليل لا ينتهى. وأعود إلى القول إذا أحببتِ سعادتكم ألا تعطينى الحكومة لأنى أبله، فأنا أعرف ألا أعطى نفسى شيئًا لأنى ذكى، ولقد سمعتهم يقولون إن وراء الصليب يكمن الشيطان، وليس كل ما يلمع من ذهب، ومن بين الثيران والمحاريث استخرجوا المزارع بامبا ليكون ملكًا لإسبانيا، ومن بين الحرير واللعب والثراء استخرجوا روديجو كى تأكله الثعابين، إذا لم تكذب أغانى القصص الرومانثى القديم.

عند هذا قالت السيدة رود ريجيث وكانت تستمع:

- كيف لا تكذب! وفى إحدى تلك القصص يقولون: إنهم وضعوا الملك روديجو حيًا... حيًا فى قبر ملئ بالضفادع والأفاعى والسحالى، وبعد مرور يومين للملك هناك قال من داخل القبر بصوت متألم ومنخفض:

انتهى، إنهم يأكلوننى، إنهم يأكلوننى

لكونى الآثم الكبير

- وطبقًا لهذا فإن هذا السيد عنده حق فى أن يود أن يكون مزارعًا أكثر من حبه لأن يكون ملكًا، إذا كانت فى هذه الحالة سوف تأكله تلك الدويبات.

لم تستطع الدوقة حبس الضحك عند سماع سذاجة قهرمانتها، كما لم تستطع التخلص من الدهشة لسماع عبارات وأمثال سانشو، الذى قالت له:

- يعرف سانشو الطيب أن ما يعد به الفارس يحاول إنجازه حتى لو كلفه حياته، والدوق سيدى وزوجى، وإن لم يكن من المشّائين، لا يعدم حق أن يكون فارسًا، وهكذا سوف ينجز كلمته بالولاية الموعودة، على الرغم من حسد العالم وشره. كن سانشو عالى الروح، ففيما لا تتوقع، ستصير فوق كرسى الولاية، وفى وجاهتها، ممسكًا بحكومتها، مترفعًا عن استبدال كرسى آخر به/ ولو كان أعظم فى ارتفاعه ودبياجه. والذى أنصحك به النظر فى كيفية السيطرة على أتباعك ورجالك، متأكدًا من أنهم جميعًا لديهم ولاء، وأنهم أبناء أصول.

أجاب سانشو:

- فيما يتعلق بالسيطرة عليهم جيدًا لا تحملى هما لأننى بار بأهلى، وأتعاطف مع الفقراء، وأعطى الخبز لخبازيه ولو سرقوا بعضه، وبحق من يملك نفسى، لن يغشنى أحد فى اللعب. وأنا كلب عجوز، وأفهم نباح الكلاب كله، وأعرف أن أفتح قرائحهم فى أوقاتهم المناسبة، ولا أوافق أن تحوم الذبابات أمام عينى، لأننى أعلم مكان ضغط الحذاء على قدمى. أقول هذا، إن الأخيار سينالون ترحيبى وعونى، أما الأشرار فلا قدم لهم ولا مدخل، ويبدو لى أن أمر تلك الحكومات هو فحسب أن تبدأ، ويمكن خلال خمسة عشر يومًا من الحكم أن تأكلنى يدى للإمساك بزمام المهنة، وأن أعرف عنها أكثر مما أعرف عن الزراعة، التى فيها ولدت ونشأت.

قالت الدوقة:

- عندك حق، سانشو؛ فلا أحد يولد متعلمًا، ومن الرجال يصنع الأساقفة، وليس من الحجارة، لكن عائدين إلى حديثنا عن سحر السيدة دولثينيا، فإننى متأكدة، والأمر أكثر من معروف أن الخيال الذى جعل سانشو يخدع سيده، ويجعله يفهم أن المزارعة هى دولثينيا، وأن سيده إذا لم يعرفها، فلأنها مسحورة؛ كل هذا كان اختراعًا لأحد هؤلاء السحرة الذين يطاردون السيد

دون كيخوتى؛ لأننى أعلم حقيقة وواقعًا من معلومات صحيحة أن القروية التى قفزت على الحمار كانت وتكون دولثينيا دل توبوسو، وأن سانشو الذكى الذى أراد أن يخدع، كان المخدوع، ولا ينبغى الشك من جديد فى هذه الحقيقة مثلما لا نفعل مع الأشياء التى لم نرها قط(*)، وليعرف السيد سانشو بانثا أننا لدينا أيضًا هنا سحرة يحبوننا كثيرًا، ويقولون لنا ما يحدث فى العالم فى صدق وبساطة، ودون لف أو دوران أو حيل. صدقنى، سانشو بانثا، بأن القروية الوثَّابة كانت وتكون دولثينيا دل توبوسو، وأنها مسحورة مثل الأم التى ولدتها؛ وعندما لا يخطر على بالنا، سنراها فى صورتها، وعندئذ يخرج سانشو من الخداع الذى يعيش فيه.

قال سانشو:

– من الممكن أن يحدث كل ذلك، والآن أود الاعتقاد فيما رآه سيدى فى كهف مونتيسينوس، حيث يقول إنه رأى السيدة دولثينيا دل توبوسو فى نفس الثوب واللباس الذى ذكرت أنه رآها فيه، عندما سحرتها فقط لراحتى، وكان لا بد أن يكون على العكس، كما تقولين فخامتكم، ياسيدتى، لأنه بذكائى الخاوى لا يمكن ولا ينبغى أن يقع لى تدبير مثل هذه الخدعة الذكية فى لحظة خاطفة، ولا أظن أن سيدى بمثل هذا الجنون حتى يؤمن بشىء خارج عن كل مألوف، فقط بقدرتى الضعيفة والمسكينة على الإقناع. لكن، يا سيدتى، لا تأخذينى فقط من أجل هذا بجريرة الأشرار، فليس على بليد العقل مثلى أن يكشف تفكير أسوأ السحرة شرًا وخبثه. لقد ادعيت ذلك

(*) تقصد هنا الإيمان بالله دون رؤياه.

حتى أهرب من غضب سيدى دون كيخوتى عليَّ، وليس بنية إيذائـــه، وإذا خرج الأمر على عكس ما ظننت فالله فى السموات يعلم ما فى القلوب.

قالت الدوقة:

– هذا هو الحق، لكن قل لى الآن، سانشو، ما هذا الذى تقـــول عـــن كهـــف مونتيسينوس؟ حيث من دواعى سرورى معرفته.

هنا حكى لها سانشو بانثا نقطة نقطة كل ما قالته القصة مـــن قبـــل حـــول المغامرة، وعند سماع الدوقة له قالت:

– من هذه المغامرة يمكن أن نستدل على أنه مادام دون كيخوتى الأعظم يقول إنه رأى هناك نفس المزارعة التى رآها سانشو عند مخرج التوبوسو، فبـــدون شك هى دولثينيا، وإن السحرة موجودون هنا فى غاية المهارة والاســـتعداد، وإنهم فضوليون أكثر من اللازم.

قال سانشو بانثا:

– هذا ما أقوله أنا؛ إذا كانت سيدتى دولثينيا دل توبوسو مسحورة، فإن ما وقع عليها من أذى ما كنت قادرًا على مقاومته فى مواجهة أعداء سيدى، وهـــم كثيرون وأشرار. وحقيقة، من رأيت كانت مزارعة، ونظرت إليها باعتبارها كذلك، وحكمت عليها بأنها تلك المزارعة التى رأيت، فإذا كانت دولثينيا، فلم يكن فى علمى، وما كنت قادرًا على الدفاع عنها. وليس إلا محاولتـــهم فى كل لحظة بين قل لى وأقول لك: "سانشو قاله، سانشو ارتكبه، سانـــشو رجع، سانشو عاد". كما لو كان سانشو إنسانًا لا شأن لـــه، ولـــيس هـــو سانشو بانثا الذى يجرى ذكره فى الكتب بذلك العالم وسيجرى فى القـــادم،

حسبما قاله لى شمشون كارّاسكو، الذى هو على الأقل، شخص قد حصل على البكالوريا من سلمنقة، وأمثاله لا يمكن أن يكذبوا إلا إذا وقعوا فى الوهم، أو وافق الكذب مصالحهم، من ثَم فليس لأحد أن يتحدانى حيث أحمل شهرة طيبة، وحسبما سمعت من سيدى، أن الاسم الطيب أثمن من ثروات غزيرة، أدخلونى هذه الحكومة وسترون عجائب، فمن كان حامل دروع ممتازًا سيكون حاكمًا ممتازًا.

قالت الدوقة:

– كل ما قاله هنا سانشو الطيب أحكام جادة، أو على الأقل مستخرجة من أحشاء حكمة ميكائيل بيرينو فى كتابه "الموت فى زهرة الشباب". فى النهاية، للكلام بطريقته: "تحت الثوب الغلبان يختفى شرِّيب فيْنان".

أجاب سانشو:

– هذا حقيقى يا سيدتى، لقد شربت فى حياتى بشراهة، ويمكن أن أشرب عندما أحس بالعطش للشراب، لأننى لا أنافق أحدًا فأخفض عطشى إذا حلا لى، وإذا لم يحلُ لى، وعندما يقدمون لى الشراب حتى لا أبدو مدللاً أو سيئ التربية، أشرب فى منادمة صديق يود أن أنادمه، ومن فى برود الرخام فلا يستجيب لذلك؟ ومع أننى أرتدى ملابس داخلية، فإننى لا ألوثها(*)، وبصفة خاصة أن خدم الفرسان المشّائين من المعتاد، تقريبًا، فى حياتهم شرب الماء، لأنهم دائمًا يمشون فى المروج والغابات والمراعى والجبال والعراء دون أن يجدوا رحمة النبيذ ولو دفعوا فى مقابلها عينًا من عيونهم.

(*) يقصد أنه يشرب دون سكر، وفوق ذلك فهو لا يجد ما يشرب فى خدمة سيده.

أجابت الدوقة:

– أعتقد فيما تقول، والآن اذهب سانشو لتستريح، فبعد ذلك نتحدث حديثًا أطول، وسوف نعطى أوامر كى تذهب سريعًا لدخول تلك الحكومة، حسب تعبيرك.

من جديد قبَّل سانشو يد الدوقة، ورجاها حسن التوصية على بنِّيه الطيب لأنه نور عينيه. سألت الدوقة:

– أىُّ بنىٍّ ذاك ؟

أجاب سانشو :

– حمارى، حتى لا أطلق عليه لقب الحمار، اعتدت أن أناديه بالبُنىِّ، وقد رجوت هذه السيدة القهرمانة عند دخولى القلعة أن تهتم به، فغضبت بطريقة كما لو كنت قد قلت لها إنها قبيحة أو عجوز، لكون أنه من الطبيعى أكثر للقهرمانات إضاءة الصالات أكثر من رعاية الحمير. يرحمنا الله، وكم كان شريرًا أحد أعيان قريتنا مع هؤلاء السيدات!

قالت دونيا رودريجيث:

– ما كان إلا فلاحًا، ولو كان من الأعيان وابن أصل لوضعهن فوق قرن القمر.

قالت الدوقة:

– طيب، طيب، لا جدال بعد، اصمتى، دونيا رودريجيث، واهدأ يا سيد بانثا، واجعل مسئولية تدليل (البنىِّ)، لكونه حلية سانشو، على عاتقى، وسأضعه فوق (نِنِّى) عينى.

أجاب سانشو:

– فى الحظيرة مادام هو موجودًا؛ أما فوق (نَنِّى) عيون سموكم، فلا هو ولا أنا نستحق البقاء هناك ولو للحظة، وهكذا قد أوافق على قولك كما لو كنت أوجه إلى وجهى لكمات، وسيدى يقول إنه فى المجاملة ينبغى أن يفقد الإنسان فى اللعب بالورقة الكسبانة، لكن فى المسألة الجحشية أو الحميرية ينبغى السير بالبوصلة فى اليد، وبلغة يتم قياسها.

قالت الدوقة:

– احمله سانشو إلى الحكومة، وهناك يمكنك تدليله كما تحب، حتى لو اعتزل العمل.

قال سانشو:

– لا تظنى فخامتكم، سيدتى الدوقة، أنك بالغت بقولك، فقد رأيت ذهاب أكثر من حمارين إلى الحكومات، وحمل حمارى لن يكون شيئًا جديدًا.

عبارات سانشو جددت ضحك الدوقة ورضاها، وبإرساله للراحة، ذهبت هى إلى الدوق وحكت له مادار بينهما، وبين الدوق والدوقة تم تدبير مؤامرة ونظام للقيام بخدعة لدون كيخوتى، صارت مشهورة، وانطبقت جيدا على أسلوب الفروسية، والذى على أساسه دبرا فيما بينهما خدعًا كثيرة وأصيلة وخفية، كانت أفضل مغامرات احتوتها هذه القصة العظيمة.

الفصل الرابع والثلاثون
الذى يحكى خبرًا يضم كيفية فك سحر من لا نظير لها دولثينيا دل توبوسو، وتلك واحدة من أشهر مغامرات هذا الكتاب

كان سرور الدوق والدوقة عظيمًا بحديث دون كيخوتى وحديث سانشو بانثا، واتفقا على نية كانت عندهما لعمل بعض الخدع التى لها ملامح ومظاهر المغامرات، وقد حفزهما ما كان قد حكاه لهما دون كيخوتى عن كهف مونتيسينوس، وذلك لاختراع مغامرة تصير مشهورة (لكن ما أثار عجب الدوقة أكثر بساطة سانشو بانثا التى كانت عظيمة، لدرجة أن يصل إلى الاقتناع بأن دولثينيا دل توبوسو مسحورة باعتبارها حقيقة لا تقبل الخطأ، مع أنه هو نفسه الساحر وصاحب حيلة تلك الخدعة)؛ وهكذا، أعطيا أوامر للخدم بكل ما كان عليهم القيام به، وبمضى ستة أيام على ذلك اليوم حملوه للصيد والقنص، مع مجموعة من القناصين والصيادين لا تجتمع إلا لملك متوج. أعطوا لدون كيخوتى ملابس قناص وملابس شبيهة لسانشو خضراء اللون، وذلك من نسيج بالغ الرهافة، لكن دون كيخوتى لم يحب أن يرتديه قائلاً بأنه من يوم لآخر سوف يعود لممارسة حمل السلاح، ولا يود أن يحمل معه صوانًا للملابس أو خزانة للطعام. أما سانشو فقد حمل الثوب الذى أعطوه له مع نية بيعه فى أول فرصة تتاح له لذلك.

وصل يوم الصيد الموعود، وتسلح دون كيخوتى، وارتدى سانشو الثوب، وخرج فوق حماره الذى لم يرغب فى تركه حتى لو أعطوه جوادًا، وحشر نفسه داخل زمرة القناصين. الدوقة نفسها خرجت فى ملاحة التزين، ودون كيخوتى لفرط نقاء أدبه وتهذيبه مضى آخذًا بعنان مهرها، مع أن الدوق لم يرغب فى الموافقة على ذلك، وأخيرًا وصلوا إلى إحدى الغابات، وكانت تقع بين جبلين فى غاية الارتفاع، وأخذوا أوضاعهم، وكمن من كمن، وارتقب كل فى مرتقب، وقد توزع الجمع بين مراكز مختلفة، وبدأ الصيد مع ضجيج كالرعد وصرخات وأصوات، حتى إن أحدًا لم يكن قادرًا على سماع الآخر، ولا سيما مع نباح الكلاب ونفير الأبواق.

ترجلت الدوقة، وبيدها حربة حادة، وأخذت موقعًا كانت تعرف أن الخنازير البرية تعودت على ارتياده. وترجل فى نفس الوقت الدوق ودون كيخوتى، واتخذا موقعين على جانبيها، ووقف سانشو خلف الجميع دون النزول عن حماره الذى لا يجرؤ أن يتركه منبوذًا وحيدًا، حتى لا يحدث له أى عارض يبعده عن الجماعة. ولم تكد تستقر أقدامهم على الأرض فى شكل مجنح اكتمل بخدم كثيرين رأوا خنزيرًا جبليًا مطاردًا بالكلاب ومتتبعًا بالصيادين، يتجه إليهم هائل الحجم يقرض على أسنانه وأنيابه فى صرير، قاذفًا بزبد من فمه. عند رؤيته احتضن دون كيخوتى درعه وأمسك بسيفه، وتقدم لاستقباله. صنع الدوق نفس الشيء مع حربته، لكن من أسرع لتقدم الجميع كانت الدوقة، لكن الدوق اعترضها. فقط سانشو عند رؤيته للحيوان الجسور تخلى عن حماره، وانطلق يجرى ما استطاع، محاولاً الصعود على شجرة حور عالية، ولم يكن ممكنًا، بل لم يكد يتسلق منتصف الجذع حتى أمسك بأحد الفروع مناضلاً للصعود، لكنه كان فى قلة من الحظ، وفى حظ من النكد، حتى إن الفرع انقلع عن الشجرة ليصير سانشو فى الهواء، وقد اشتبك به

خطاف مصنوع من بقايا فرع قديم مقلوع، فلم يتمكن سانشو من الوصول إلى الأرض. وهكذا عندما رأى نفسه كذلك، وأن الشجرة تخربش ثوبه الأخضر، وحسب تهيؤاته فإن الحيوان المتوحش لو وصل إليه يمكنه إدراكه، من ثَم بدأ يطلق صرخات متوالية، طالبًا النجدة في إلحاح، حتى إن كل من كانوا يسمعونه ولا يرونه ظنوا أنه كان بين أنياب أحد الوحوش. أخيرًا، تم اعتراض الخنزير الجبلي المحنك بالطعنات من حراب كثيرة أحسنت استقباله صريعًا، وعندها أدار دون كيخوتي رأسه نحو صرخات سانشو، حيث تعرفوا عليها جميعًا، ورآه مشعلقًا في شجرة الحور ورأسه إلى أسفل، والحمار إلى جانبه، حيث لم يهجره في الشدة، ويقول سيدي حامدي إنه في مرات قليلة رؤى سانشو دون الحمار، أو رؤى الحمار دون سانشو، وإلى هذا الحد كانت الصداقة بينهما والإخلاص.

وصل دون كيخوتي وخلص سانشو، الذي بمجرد أن رأى نفسه محررًا وعلى الأرض، نظر إلى التمزق في ثوب القنص، وانقبض قلبه وأحس بفقدان ابن له. خلال ذلك ألقوا بالخنزير الصريع فوق دابة، وغطوه بأعشاب إكليل الجبل وبعض فروع الريحان، وحملوه دليلاً على تصفية أرض معركة منتصرة، وذلك إلى خيام كبيرة نصبوها لحملتهم في قلب الغابة، حيث وجدوا الموائد منضودة، والطعام معدًا عليها هائلاً وعظيمًا، يشهد بروعة من يقدمه وعظمته. وكان سانشو يعرض على الدوقة ما أصابه وأصاب الثوب من خربشة، وقال:

– إذا كان هذا الصيد لأرانب برية وعصافير ما كان يصل الأمر بثوبي إلى هذه الكارثة، أنا لا أعرف أي لذة في انتظار حيوان إن أدرككم بأنيابه استلّ منكم الحياة، وأنا أتذكر أنني سمعتهم يغنون رومانث قديم يقول:

لتأكلك الدببة

مثل فابيلا المشهور

قال دون كيخوتى:

– فابيلا هذا كان ملكًا قوطيًا، ذهب للقنص فأكله الدب.

أجاب سانشو:

– هذا ما أقوله، فما كنت أحب أن يضع الأمراء والملوك أنفسهم فى مثل هـذا الخطر، مقابل لذة غير مبررة، تتحقق بقتل حيوان لم يرتكب أية جريمة.

أجاب الدوق:

– وعلى الرغم من ذلك تخدعون أنفسكم، لأن ممارسة القنص هى أنسب رياضة للأمراء والملوك؛ فالقنص صورة للحرب، فيه استراتيجيات وتدبير ودسائس للتغلب على العدو نظير النجاة من خطره، كما أن من يمارسه يعانى من برد قارس ومن حر لا يحتمل، ويهمل البطالة والنوم، وتتعزز فيه قوى الجسد، وتنشط أعضاؤه. باختصار، هو رياضة تمارس دون إضرار بأحد، ومع بهجة وسرور للكثيرين، وأفضل ما فيه أنه ليس متاحًا للجميع، مثل أنواع أخرى من الصيد، باستثناء الصيد بالطيور الجارحة، الذى هو فحسب للملوك وعظماء الرجال. وهكذا، أوه سانشو! غير رأيك، وعندما تصير حاكمًا اهتم بالصيد، وسوف ترى أنك سوف تكسب أضعافًا مضاعفة.

أجاب سانشو:

– هذا لا؛ فالحاكم الصالح، ذو رجل مكسورة ويلزم بيته(*). هل من الخير أن يأتى إليه ذوو الحاجات فى انتظار أن يجهد من أجلهم، فيجدونه يهنأ فى قنصه!؟ هكذا

(*) يطبق سانشو المثل النسانى" امرأة شريفة، رجل مكسورة، وبقاء فى البيت!

ستسير الحكومة فى طريق سيئ! قسمًا، سيدى، فإن الصيد وألعاب تزجية الفراغ خلقت أكثر للكسالى وليس للحكام، والذى أفكر فى التسلى به بعض ألعاب الورق فى الأعياد، ولعب البولو فى الآحاد والإجازات، أما ذلك الصيد أو الصيدة(*) فلا يناسب ظروفى أو يرضى ضميرى.

- ادع الله أن يكون الأمر كذلك، سانشو، لأنه بين القول والعمل أخدود عميق.

أجاب سانشو:

- ليوجد ما يكون، فإن الحاكم الصالح يفى بكلمته، والله يساعد من يبكر فى الاستيقاظ، والأقدام تحمل البطون، لكن البطون لا تحمل الأقدام. أود القول بأنه إذا ساعدنى الله، وفعلت ما علىَّ فعله بنية، فلا شك أننى سوف أحكم أفضل من البزاة المدربة، ليس عليكم إلا أن تضعوا إصبعكم فى فمى حتى تروا هل أعض؟ أو لا!؟

قال دون كيخوتى:

- لعنك الله، سانشو، ولعنك كل القديسين! متى يصل اليوم، وقد ذكرت لك ذلك مرارًا، الذى سوف أراك فيه تتكلم دون أمثال بعبارة عادية وصائبة. سموكما اتركا هذا الأبله حتى لا يطحن لكما النفس التى لا تحاصر فحسب بين رحى مثلين، إنما بين ألفين من الأمثال التى تنثال فى مواسمها وفى وقتها المناسب، مادام متمتعًا بصحته، أو مادمت مستعدًا لسماعها.

(*) لعب لغوى لا معنى له إلا تأنيث كلمة الصيد للنفى القاطع.

قالت الدوقة:

- أمثال سانشو بانثا مع أنها أكثر من أمثال الراهب الإغريقي، فليس هذا سببًا لتقديرها أقل بفضل إيجاز أحكامها، بالنسبة إلى تسرني أكثر من غيرها من الأمثال، حتى لو كانت هذه جيدة الانطباق على مضرب المثل.

مع هذه وغيرها من العبارات المسلية غادروا الخيمة إلى الغابة، وفى البحث عن كمائن أخرى للصيد انقضى يومهم سريعًا، وهبط عليهم الليل، ولم يكن بهذا النور الفضى أو بالهدوء المتوقع من ليل منتصف الصيف، لكن مع شىء من الظلام والحرارة، مما ساعد مقاصد الدوق والدوقة. وهكذا حالما دخل الليل مبتعدًا عن لحظة شفق الغروب قليلاً، وفجأة ظهر فى كل الغابة أن النيران تتضرم بها من الأركان الأربعة، وسمعوا من هنا ومن هناك ومن تلك الناحية ومن الناحية المضادة أبواقًا لا أول لها ولا آخر، وآلات أخرى حربية، كما لو كانت لجنود غفيرين من سلاح الفرسان يمرون بالغابة. نور النيران وأصوات الآلات الحربية تقريبًا أعمت البصر وأصمت الآذان لكل الموجودين، بل لكل من كان فى الغابة. وفى الحال سمعوا تهليلاً لجنود عرب غطى الآفاق، كما هى عادة هؤلاء عند الدخول فى الحرب؛ ودقت طبول وأبواق من كل نوع، وأعدت طبول وانطلقت مزامير، تقريبًا كل ذلك فى وقت واحد، واستمر متسارعًا، وبالتالى فلا معنى لأن يبقى أحد دون أن يضطرب لكثرة الآلات. ذهل الدوق وشدهت الدوقة، واستولى التعجب على دون كيخوتى، وارتعد سانشو بانثا، وأخيرًا، حتى أولئك الذين يعلمون الملعوب تولاهم الفزع، ومن الخوف أخذهم الصمت، وظهر حوذى بريد فى لباس شيطان مارد من أمامهم نافخًا بدلاً من البوق قرنًا فارغًا هائل الحجم، مخلفًا وراءه صوتًا أجشً مخيفًا.

قال الدوق:

– أهلا أيها الأخ البريدى، من أنت؟ وإلى أين تمضى؟ ومن هؤلاء العسكر الذين يبدو أنهم يعبرون الغابة؟

أجاب البريدى بصوت مرعب وطلق:

– أنا الشيطان، أمضى باحثًا عن دون كيخوتى دى لامانشا، أما العسكر فهم ستة جيوش لسحرة يحضرون –على عربة مظفَّرة– التى لا نظير لها دولثينيا دل توبوسو، تأتى مسحورة مع الفرنسى الشجاع مونتيسينوس، كى تعطى أمرًا لدون كيخوتى حول كيفية فك سحرها.

– إذا كنت شيطانًا كما تقول، وكما يظهر من صوتك، لكنت عرفت أن ذلك الفارس دون كيخوتى دى لامانشا موجود أمامك.

أجاب الشيطان:

– بالله وبوحى ضميرى لم أكن أنظر إليه، لأننى أمضى وفكرى مشغول بأشياء كثيرة مسلية، فنسيت الفكرة الأساسية التى جئت من أجلها.

قال سانشو:

– دون شك، إن هذا الشيطان لا بد أن يكون رجل خير، ومسيحيًّا تقيًّا؛ لأنه إن لم يكن كذلك ما كان سيقسم بالله وبضميره، والآن بالنسبة لى أعتقد أن فى نفس الجحيم يوجد أناس طيبون.

وفى الحال الشيطان، دون أن يترجل وجه نظره إلى دون كيخوتى، وقال:

– بالنسبة لك يا فارس الأسود (وإنى أراك بين مخالبنا)، يرسلنى إليك المنكـــوب الفارس الشجاع مونتيسينوس، وقد أمرنى أن أقول لك على لسانه أن تنتظره فى نفس المكان الذى عثرت فيه عليك، بسبب أنه يحضر معه التى يطلقـــون عليها دولثينيا دل توبوسو، مع أمر بإعطائك ما هو ضرورى كـــى تفـــك السحر عنها، ولأن حضورى هنا ليس لغير ذلك، فلا يحل البقاء أكثر، حمتك الشياطين أمثالى، ولتبق الملائكة الطيبون مع هؤلاء السادة.

ومع قوله هذا نفخ فى القرن الهائل، وأدار ظهره ومـــضى منـــصرفًا دون انتظار إجابة من دون كيخوتى.

تجددت دهشة الجميع، بصفة خاصة سانشو ودون كيخوتى؛ لأن سانشو عند رؤيته أنه رغم أنف الحقيقة يودون أن تكون دولثينيا مسحورة، ودون كيخوتى لأنه لم يستطع التأكد من أن ما حدث له فى كهف مونتيسينوس كان حقيقيًا أولـــم يكـــن، وبينما هو يسرح مع هذا الفكر، قال له الدوق:

– هل تفكر فخامتكم، أيها السيد دون كيخوتى، فى الانتظار؟

أجاب دون كيخوتى:

– وهل ترى العكس؟ هنا سأنتظر جسورًا وقويًا، حتى لو جاء للاحتيال علىَّ كل من فى جهنم.

قال سانشو:

- وأنا إذا رأيت شيطانًا آخر، وسمعت قرنًا آخر مثل ما مضى، لن أتوانى عن الانتظار هنا كما لو كنت فى فلاندس(*).

خلال ذلك أظلم الليل أكثر، وبدأت أضواء كثيرة تتجول فى الغابة كما تدور الشهب الثاقبة فى السماء، التى تبدو لعيوننا مثل نجوم تجرى. وسمعوا فى نفس الوقت ضجة تشبه العجلات الصماء للعربات التى تجرها الثيران، التى يقال إنه من صريرها الخشن والمستمر تهرب الذئاب والدببة، إذا تصادف وجودها فى مكان مرورها. وقد أضيفت لكل تلك العاصفة عاصفة أخرى، حيث بدأ بشكل حقيقى قيام أربع معارك فى الأركان الأربعة للغابة؛ حيث دوى انفجار قاس لمدفعية مخيفة هناك، وفى مكان آخر كانت رصاصات بنادق تنطلق بلا آخر، وقريب من كل هذا كانت أصوات المقاتلين ترن، وبعيدًا عنها تكرر تهليل المسلمين. أخيرًا، الأبواق وألف نفير مع الطبل وأصوات النفخ فى القرون والمدفعية ورصاص البنادق، وأفظع من كل هذا الأصوات المخوفة للعربات، كل هذا شكّل إيقاعًا شديد الاضطراب والرعب، حتى صار على دون كيخوتى أن يستهلك كل الطاقة فى قلبه الجسور كى يعانيه، لكن سانشو سقط على الأرض مغشيًا عليه، تحت ذيل ثوب الدوقة التى استقبلته به، وفى سرعة عظيمة أمرت برش وجهه بالماء، وعاد إلى وعيه فى الوقت المناسب، ليدرك قدوم عربة من تلك العربات المصمة.

كان يجرها أربعة ثيران كسولة، وكلها مغطاة بزخارف سوداء، وفى كل قرونها ربطت شعلة من الشمع مضاءة، وفوق العربة أعد مقعد عالٍ، جالس عليه عجوز موقر بلحية أكثر بياضًا من الشمع، وطويلة إلى أبعد من خصره، وثيابه طويلة سوداء، مزخرفة بكثير من الألوان والبريق، ولأن العربة كانت قادمة

(*) دون خوف.

مضاءة كان من الممكن تمييز كل ما كان عليها وحصره. كان يقودهــا زوج مــن الشياطين القبيحة، يرتدون مثل ثياب صاحب المقعد العالى، وجهاهمــا فــى غايــة القبح، حتى إن سانشو عندما رآهما أغمض عينيه كى لا يراهما مرة أخرى، وعند اقتراب العربة من موقعهم، نهض صاحب المقعد وقال بصوت عظيم :

– أنا الحكيم ليرجانديو.

ومرت العربة متقدمة دون أن يضيف كلمة أكثر، وخلفها مرت عربة أخرى بنفس الطريقة، وبها عجوز آخر على عرشه، أوقفها وقال بصوت لا يقل خطورة:

– أنا الحكيم القيفى، الصديق العظيم لأورجاندا المجهولة.

وبنفس الهيئة بعد ذلك جاءت عربة أخرى، لكن من كان يشغل العرش لــم يكن عجوزًا مثل الباقين، وإنما شاب قوى، وسيئ الخلقة، والذى عند وصوله نهض مثل السابقين، وقال بصوت أجش أكثر، وأبعد فى الشيطانية:

– أنا أركلاوس الساحر، والعدو المميت لأماديس دى جاولا، ولكل أقاربه.

وتقدم فى طريقه، وما إن انحرفوا عن هناك حتى توقفــت هــذه العربــات الثلاث، وسكنت ضجة العجلات الغاضبة، وهنا سمع صوت آخر، لــيس ضــاجًا، وإنما هو صوت ناعم ومتدفق لموسيقى ابتهج به، سانشو وأخذه كبــشرى؛ وهكــذا قال للدوقة، التى لم ينفصل عنها لحظة واحدة أو خطوة:

– سيدتى، حيث توجد الموسيقى لا يمكن أن يقع شيء سيئ.

وأجابت الدوقة:

– وأيضًا حيث توجد أضواء ووضوح.

وعلى هذا علق سانشو:

- **النور تعطيه النار، والوضوح تعطيه الحرائق، كما نراه فيمن يحاصروننا، ومن المحتمل أن يحرقوننا، لكن الموسيقى دائمًا مؤشر على البهجة والاحتفال.**

قال دون كيخوتى الذى كان ينصت لكل شىء:

- **الأحداث سوف تتكلم.**

وقد أحسن القول كما يبرهن على ذلك الفصل التالى.

الفصل الخامس والثلاثون

حيث تتم متابعة خبر فك سحر دولثينيا الذى تلقاه دون كيخوتى، ووقائع أخرى مدهشة

على إيقاع الموسيقى رأوا عربة قادمة نحوهم من تلك التى يطلق عليها (الظافرة)، تجرها ستة بغال داكنة، على الرغم من تزيينها بغطاء من قماش أبيض، وعلى كل بغل متعبد من نور، وفى نفس الوقت مرتديًا ثوبًا أبيض مع شعلة من الشمع كبيرة مضاءة في يده. كانت العربة أكبر مرتين أو حتى ثلاث مرات عن العربات السابقة، وفوقها اثنا عشر متعبدًا آخرون بيض مثل الثلج، وكلهم بشعلاتهم مضاءة، منظر مدهش ومخيف معًا، وعلى عرش مرتفع ظهرت حورية من حور الغاب والأموات جالسة، مرتدية ألف حجاب من الفضة التى تلمع، بفضل امتلائها بأوراق من الذهب تطرزت بها، والتى إن لم تجعل الحورية غنية تجعل رداءها ملء السمع والبصر. كان وجهها مغطى بحرير سندال شفاف ورقيق فى رهافة، يتدلى على هيئة خيوط لا تحول دون رؤية وجه شديد الحسن لصبية، وكثرة الأضواء أفسحت فضاء لتمييز الجمال وسنوات الصبا التى لم تكن تفوق العشرين ولا تتدنى عن السبعة عشر، وكان بجانبها شخص يرتدى ثوبًا مما يسمى "روثا جانتيس" طويل وفخيم، يصل إلى القدمين مع حجاب أسود على الرأس، لكن لحظة وصول العربة وجهًا لوجه مع الدوق والدوقة ودون كيخوتى توقفت موسيقى المزامير، ثم موسيقى الرباب والعود التى كانت تصدر من فوق العربة، وقامت تلك الفتاة ذات الثوب الطويل، وشقته من جانبيه، وكشفت عن وجهها الحجاب، لتكشف

بوضوح أنها نفس شخص الموت مجسمًا وقبيحًا، حتى إن منظره أثقل علـــى دون كيخوتى، وأفزع سانشو، وعبر الدوق والدوقة عن شعور بالخوف. وهكذا ناهــضًا وممشوقًا شخص الموت الحى هذا بصوت بعض الشىء نائم، وبلسان ليس واضـــح الاستيقاظ، شرع فى القول بهذه الطريقة:

– أنا ميرلين ذلك الذى عنه الحكاوى

تقول إننى لى من الشيطان أب

(كذبة أعطتها مصداقية الدهور)

أمير السحر بل ملكه

وأرشيف علم زرادشت

وصنو الأعمار والدهور

التى فى طيها تخفى المحاسن

محاسن المشّائين من الفرسان الجسورين

الذين أكن لهم ودًّا عظيمًا

رغم أنف الساحرين

المشعوذين، السحريين الدائمين،

ظرف قاس، خشن، قوى

وظرفى غض، طرى، ودود

وأنا صديق لفعل الخير ولكل الناس

فى الكهوف المظلمات لإله الجحيم

حيث كانت روحى تتسلى

فى تشكيل اتجاهات دورية وشخوص

وصلنى الصوت المتألم للجميلة

والتى لا نظير لها دولثينيا دل توبوسو

عرفت سحرها ونكبتها

وتحولها من سيدة رقيقة

إلى فلاحة جلفة وثّابة

وهكذا أودعت روحى فى جوف

هذا الهيكل العظمى المرعب الوحشى

بعد أن قلبت مئة ألف كتاب

من علمى هذا المشيطن المتعثر

وكان حضورى لتقديم علاج يناسب

هذا الألم الضخم، سيئ الضخامة

أوه، أنت المجد والشرف لكل من يرتدى

عباءات من حديد، وجواهر،

أيها النور، والمنار، والطريق، والبوصلة، والمرشد

لكل هؤلاء الذين عند تركهم النوم المتعثر،

وأقلام البطالة، استقروا

على اعتياد ما لا حل له

من سلاح دام ثقيل

لك أقول، أيها الرجل كما يكون الرجال،

صاحب الثناء الأزلى، لك أيها الشجاع

والذكى معًا، دون كيخوتى

إشراق لامانشا، ونجم إسبانيا

حتى تستعيد سيرها الأولى

من لا نظير لها دولثينيا دل توبوسو

ضرورى أن سانشو خادمك

ينال ثلاثة آلاف وثلاثمئة جلدة

على رد فيه الجسورتين كلتيهما

بعد تعرضهما للهواء منكشفتين

لاستخراج لبه، وتمرير عيشه، وإغضابه

بهذا تنحل جميعًا

كل أسباب نكبتها

ولهذا كان حضورى أيها السادة

هنا قال سانشو:

- أقسم على ذاك! لا أقول أنا ثلاثة آلاف سوط، لكن لو جلدت نفسى ثلاثًا ستكون مثل طعنات خنجر ثلاث. يا لشيطان طريقة فك السحر! أنا لا أدرى ما علاقة أردافى بالسحر! بحق الله، إذا كان السيد ميرلين لم يجد طريقة أخرى لفك سحر السيدة دولثينيا دل توبوسو، فيمكنها الذهاب إلى قبرها مسحورة!

قال دون كيخوتى:

- على أن أرغمكم أيها السيد الفلاح، متبجح العينين، وعلى أن أربطكم إلى هذه الشجرة، عاريًا كما ولدتك أمك، ولا أقول ثلاثة آلف وثلاثمئة بل ستة آلاف وستمئة جلدة سوف أعطيك، متتاليات تسبق كل جلدة الأخرى فلا تملك إلا عد الثلاثة آلاف وثلاثمئة سحبة للسوط. ولا ترد عليَّ بكلمة وإلا نزعت روحك من بين جنبيك.

عند سماع ميرلين ذلك قال:

- لا ينبغى أن يحدث ذلك هكذا؛ لأن الأسواط التى على السيد سانشو استقبالها لابد أن تكون بإرادته، وليس بالقوة، وتكون فى الوقت الذى يحب، فلا يوضع لها موعد نهائى، ويسمح له إذا هو أحب تلك التضحية أن يستقبل النصف من يد غير يده، حتى لو كان ذلك ثقيلاً عليه بعض الشىء.

أجاب سانشو:

- لا يد غير يده أونفس يده ولا ثقيلة أو ستثقل، بالنسبة لى لن تمس أردافى أى يد مهما كانت. هل بالصدفة أنجبت أنا السيدة دولثينيا دل توبوسو، حتى

تدفع أردافى إثم عينيها؟ السيد سيدى نعم، فهى جزء منه، حيث يطلق عليها (حياتى، روحى)، وهى غذاء له ونجدة، ويمكنه بل يجب عليه أن يجلد من أجلها، وعمل كل المساعى الضرورية لفك سحرها، لكن جلدى أنا؟ ... لا الفتة!

لم يكد سانشو ينتهى من قوله حتى نهضت الحورية المذهبة على قدمها، تلك الحورية التى جاءت بصحبة الروح ميرلين، وخلعت الحجاب الرقيق عن وجهها، كاشفة له هكذا، لتبدو أكثر من (جدّ) جميلة، وفى طلاقة ذكورية، وصوت ملئ بالأنوثية، متحدثة مباشرة إلى سانشو، قالت:

– أوه، أيها الخادم النكد، والنفس المتحجرة، ويا قلب شجر الفلين، ويا وجدان الحصى والزلط. إذا أمروك، أيها اللص الفاسق، أن تلقى بنفسك من بُرج عال على الأرض، وإذا طلبوا منك، يا عدو النوع الإنسانى أن تأكل دستة ضفادع جبلية، وسحليتين، وثلاثة ثعابين، وإذا أقنعوك أن تقتل زوجتك وأولادك بخنجر قاطع وحاد، لن تكون معجزة أن تظهر نفسك ترفض وتنفر، لكن أن تعطى أهمية لثلاثة آلاف وثلاثمئة جلدة، التى لا يوجد طفل يتيم، ومهما كان ضعيفًا، إلا ويشربهم كل شهر، حتى إنك تدهش وتذهل وتفزع كل الرحماء من أعماق روحهم بين من يسمعونك، بل بين كل من سيعرفون الأمر فى الأزمان القادمة ضع (أيها البائس والحيوان القاسى!) أقول ضع عينيك هاتين (اللتين يشبهان عينى أم قويق المذعورة) فى نىِّ عينى هاتين (التى تشبه النجوم المترقرقة)، وتصور بكاءها من خيط دموع لخيط دموع آخر، بل من (شلة)خيط إلى (شلة) أخرى، صانعة أخاديد، وطرقًا، وسبلاً، فى الحقول الجميلة لخدودى. تحرك، أيها الداهية، والمسخ سيئ النية، فإن عمرى

فى زهرته (الذى لم يبلغ حتى الآن...وعشرة من الأعوام، فأنا عندى تسعة عشر، ولم أبلغ العشرين) يستهلك ويذبل تحت قشرة جلد فلاحة خشنة، وإذا كنت الآن لا بد أبدو كذلك، فبفضل خاص أنعم علىَّ به ميرلين، الذى هو معنا، حتى يرقق جمالى قسوة القلوب، فإن دموع جمال كسير يحول الصخور إلى قطن والوحوش إلى نعاج. اقبل، اقبل هذه اللمسات التى لن تصل إلا إلى الوجه الآخر لجلدك، أيها الدابة غير الأليفة، واكشف عن هذا التلألؤ أفضل من أن تأكل ثم تأكل أكثر ولا ميل لك إلا ذاك، أطلق سراح نعومة بشرتى وسلسبيل حياتى وجمال وجهى، وإذا كنت لا تود أن تلين أو تخنع من أجلى، فليكن من أجل هذا الفارس المسكين الذى تعيش بجانبه باعتباره سيدًا لك، وأقول، إننى أرى الآن روحه وقد وصلت الحلقوم، وليس بينها وبين الفم أكثر من عشرة أصابع، ولا تنتظر إلا إجابتك القاسية أو الحانية، حتى تخرج من الفم أو تعود إلى المعدة .

أغوى سماع دون كيخوتى موضوع الحلقوم ذاك، فالتفت للدوق، وقال:

– بحق الله، يا سيدى، إن دولثينيا قد صدقت، فها أنا أرى روحى فى حنجرتى مثل بندقة من الصلب تكاد تقذفها قوس.

سألت الدوقة سانشو:

– ما قولك فى هذا سانشو؟

أجاب سانشو:

– لا الفتة إلا، بالنسبة للجلد، هذا ما قلته من قبل يا سيدتى وأعود لقوله.

قال الدوق:

- عليك أن تقول، سانشو: "لا البتة" أو "بتاتًا أبدًا" أما الفتة تلك فلا!

أجاب سانشو:

- دعني وشأني؛ فلست الآن صالحًا لتعلم حرف أكثر أو حرف أقل، لأن هذه الجلدات بالسوط التي عليهم ضربها لي أو عليَّ ضرب نفسي بها تتركني متعكرًا مضطربًا، فلا أدرى ماذا أقول، وماذا أفعل. لكني أود أن أعرف من سيدتي السيدة دولثينيا دل توبوسو من أين تعلمت أسلوب التوسل الذى تستعمله؛ تأتي طالبة أن أسلم جلدى للسوط، وتطلق على النفس المتحجرة والدابة غير الأليفة، فى سلسلة من الهمز واللمز، لا يتحملها الشيطان نفسه. بالصدفة هل لحمي من البرونز أو سوف أكسب شيئًا من فك سحرها أو عدم فكه؟ أى سلة من الغسيل النظيف وأدوات الزينة تفرشها أمامي لتليين قلبي، ولم تكن إلا سلة إهانات، وهي تعرف ذلك المثل السائر بيننا أن حمارًا يحمل حمولة ذهب تسهل عليه مهمة صعود الجبل، وأن الإنعام بالهدايا يفتت الصخر، وإلى الله متوسلاً، وبالمطرقة عاملاً، وأن مَن اقترب مني قيراطًا اقترب منك قيراطين. وهذا السيد سيدى بدلاً من أن يتملكني ويربت على كتفي يقبض عليَّ ويربطني بشجرة، ويضاعف لي عدد الجلد، وكان على هؤلاء السادة التعساء أن يضعوا فى اعتبارهم أنهم يطلبون جلد حاكم وليس الخادم، وكما يقول من يقول: تصدق عليَّ حتى أقبل أن أكون سيدك. تعلموا، تعلموا، بدلاً من الشر، كيف التوسل والرجاء ومعرفة طلب الأشياء وإبراز حسن التربية، فليست كل الأوقات مثل بعضها، ولا الرجال دائمًا فى مزاج مرح. وأنا الآن أنفجر من الألم لرؤية ثوبي الأخضر ممزقًا، وفى هذه

اللحظة بالذات، تأتون تطلبون أن أجلد بإرادتى، وإرادتى صـــارت غريبـــة بسبب الثوب، فكيف أستعيدها؟

قال الدوق:

– إذن فى الحقيقة، أيها الصديق سانشو، إذا لم تكن تلين مثـــل شـــجرة بلـــوط استوت على عودها، فإنكم لا ينبغى أن تقبض على زمام الحكومة. هل من الخير أن أرسل لرعاياى فى الولاية حاكمًا قاسيًا، ذا وجدان متحجر، لا يحنو أمام دموع الصبايا المنكسرات، ولا لرجاءات الفطناء والملحفين والـــسحرة الأقدمين والحكماء؟ باختصار، سانشو، إما عليك أن تُجلد أو تتنازل عـــن الحكومة .

أجاب سانشو :

– سيدى، ألا تعطوننى يومين مهلة للتفكير فيما هو أفضل لى؟

قال ميرلين:

– لا، لا بأية حال من الأحوال. هنا وفى هذه اللحظة، لا بد من الوصـــول إلى قرار فى هذا الشأن: إما أن تعود دولثينيا إلى كهف مونتيسينوس، على حالتها الأصلية فلاحة، وإما أن توافق، فترسل إلى المروج الفردوسية كما هـــى فى انتظار إنجاز العدد كاملاً للجلد.

قالت الدوقة:

– هيه، سانشو الطيب، فلتكن أمينًا على الخبز الذى أطعمه لـــك الـــسيد دون كيخوتى، الذى علينا جميعًا خدمته والعمل على ســـروره، لنبلـــه ولـــسمو

فروسيته. قل نعم، يا ابنى، واقبل هذا المهرجان السوطى، وليذهب الشيطان إلى الشيطان، والخوف إلى التعاسة، وقلب طيب يكسر صخرة الحظ غير الطيب، كما تعرف.

على هذه العبارات أجاب سانشو بتلك السفاهات محدثًا ميرلين، وسأله:

– قل لى فخامتكم، يا سيد ميرلين، عندما جاء هنا شيطان البريد، أبلغ سيدى رسالة من السيد مونتيسينوس، طالبًا من طرفه إليه أن ينتظره هنا، لأنه فى الطريق إلى هنا لإعطاء أمر به يفك سحر السيدة دولثينيا دل توبوسو، وحتى الآن لم يظهر السيد مونتيسينوس ولا أثر له.

على هذا أجاب ميرلين:

– أيها الصديق سانشو، الشيطان جاهل وشرير أعظم، ولقد أرسلته أنا بحثًا عن سيدك، لكن ليس برسالة من مونتيسينوس، وإنما برسالة منى، لأن السيد مونتيسينوس فى كهفه ينتظر، وفى قول أدق، يترقب فك سحره، فما زال من زمن سحره بقية، وإذا كان يدين لك بشىء، أو لديك شىء من عمل معه، أنا أحضره لك وأضعه أمامك حيث شئت. والآن، انته من قول نعم لهذا الجلد، واعتقد فيما أقوله من أنه سيكون له نفع عظيم لكم، ماديًا وروحيًا، لأننى أعلم أنكم من مزاج دموى، ولن يتمكن من إحداث ضرر لك إسالة بعض دمك.

أجاب سانشو:

– ما أكثر أطباء العالم مادام بين السحرة أطباء، ومع ذلك فالكل يقول لى ذلك، وأنا لا أراه كذلك، أقصد، أقول إننى راض بإعطائى ثلاثة آلاف وثلاثمئة جلدة بيدى، بشرط أن أفعل ذلك فى كل مرة ومتى أحب، دون أن يوضع

لى سقف لأيام أو لزمن محدد، وسأحاول أن أفى بالدين بأسرع ما يمكن، حتى يتمتع العالم بحسن السيدة دولثينيا دل توبوسو، فطبقًا للظاهر، وعلى عكس ما كنت أفكر، هى بالفعل حسناء. وهناك شرط آخر هو ألا أكـون مجـبرًا لإسالة الدم مع الجلد، وأنه إذا خرجت سحبة السوط فى إحدى المرات مثل هش الذباب ينبغى مع ذلك حسابها. وفوق كل هذا، إذا أخطأت فى العـد، والسيد ميرلين يعرف كل شىء، فالواجب أن يحسب لى، وإخطارى بالعـدد الناقص أو الزايد.

أجاب ميرلين:

- لا ينبغى إخطارك بما يزيد على العدد، لأنه عند وصولك لإكمال العدد سـينفك تلقائيًّا سحر السيدة دولثينيا، وستأتى إليك لشكر سانشو الطيب، وحتى لتقديم الجوائز لهذا العمل الطيب. وهكذا فلا ينبغى معاناة شكوك حـول الزيـادة أو النقص، ولا حتى السماء سوف تحملنى على خداع أحد ولو بقدر شعرة.

قال سانشو:

- إذن، توكلنا على الله. أوافق على سوء حظى، أقصد أقبل تعذيب النفس هذا بالشروط المذكورة.

بمجرد أن قال هذه الكلمات الأخيرة، عادت موسـيقى المزاميـر، وعـادت لإطلاق بنادق لا حصر لها، وتعلق دون كيخوتى برقبة سانشو طابعًا آلاف القبلات على جبهته وخديه. والدوقة وكل المحيطين أبدوا دلائل سـرور عظـيم، وبـدأت العربة فى التحرك، وعند مرور دولثينيا الحسناء انحنت للدوقة والدوق، وعبـرت عن عظيم احترامها لسانشو.

وخلال هذا كـــان الفجر يقدم بخطوات أســـرع، مبتهجًا ضاحكًا، وزهـــرات المروج شمخت بأعناقها واشرأبّت، وكريستال النهيرات السائل بـــدأ يهمـــس بـــين حصاها الأبيض والملون، معلنًا إرسال مساهمات للأنهار التى تنتظر. الأرض فى سرور والسماء فى صفاء، والهواء فى نقاء، والنور هادئ، حتى إن كل واحد فـــى نفسه، والجميع معًا أبدوا ما يشير إلى قدوم يوم هادئ شفاف، ها هو يخطو خطواته الأولى على ذيل تنورة الفجر. وفى رضا عن الصيد، وتحقيق فى كياســـة النهايـــة السعيدة للقصد، عاد الدوق والدوقة إلى القلعة، مع نية تكرار الحيل والخدع، التـــى بالنسبة لهما هى مصدر للسرور والحبور، لا يعادله مصدر آخر.

الفصل السادس والثلاثون

حيث تحكى المغامرة الغريبة، والتى لم يسبق لخيال تصورها عن القهرمانة المقهورة الشهيرة بالكونتيسة تريفالدى، مع رسالة كتبها سانشو بانثا لزوجته تيريزا بانثا

كان عند الدوق مدير للقصر صاحب سخرية ومزاج طلق، وهو الذى مثَّل صورة ميرلين، وأدار كل جهاز المغامرة الماضية، وهو الذى ألف أبيات الشعر، وعمل على أن يقوم غلام خدام بدور دولثينيا. وأخيرًا بتدخل من سيديه نظم مغامرة أخرى، فيها أغرب الصنعة وأظرفها مما يمكن للخيال تصوره.

سألت الدوقة اليوم التالى سانشو عما إذا كان قد بدأ مهمة تعذيب النفس التى عليه ارتكابها من أجل فك سحر دولثينيا، قال نعم، وأنه فى تلك الليلة ضرب نفسه خمس جلدات. سألته الدوقة بم جلد نفسه؟

أجاب أنه فعل ذلك بيده.

ردت الدوقة:

- هذا كثير، تضرب نفسك بكف يدك بدلاً من السوط؟ أنا أظن أن الحكيم ميرلين لن يرضى بكل هذه الطراوة والتهاون، سيكون من الضرورى أن يصنع سانشو الأمين سوطًا من تلك الأنواع الحقيقية التى تجعل المسوط بها

يتألم ويحس، لأنه "لا يدخل الحرف إلا بالنــزف"، ولا ينبغــى أن يكــون التحرير رخيصًا إلى هذا الحد لسيدة عظيمة مثل دولثينيا التى تستحق أكثــر من هذا السعر القليل، واعلم، سانشو، أن أعمال البر التى تــؤدى فــاترة وبضعف لا جدارة لها ولا تساوى شيئًا.

وعلى هذا أجاب سانشو :

– أعطنى عظمتكم سوطًا أو فرع شجرة مناسبًا، وسوف أضرب نفــسى بــه، بشرط ألا يؤلمنى بزيادة، لأنى أعلم فخامتكم بأنه مع أننى قروى فإن لحمــى به من القطن أكثر من حشائش الحلفاء، وليس من الخير أن أحمل جــسمى الضنى من أجل نفع غيرى.

قالت الدوقة:

– على الرحب والسعة، أنا سأعطيك غدًا سوطًا، يناسب بالضبط، ويتفق مــع طراوة لحمك، حتى تعامله باعتباره أخًا شقيقًا.

علق سانشو:

– اعلمى سموك سيدتى ومالكة نفسى، أننى لدىَّ رسالة مكتوبة لزوجتى تيريــزا بانثا، لإعلامها بكل ما حدث لى بعد أن غادرتها، وها هى معى ولا ينقــصها إلا وضعها فى مظروف، وأود لفطنتك أن تطلعى عليها لترى عما إذا كانت لغتها تناسب أسلوب الحكام.

سألت الدوقة:

– ومن وقع الرسالة؟

– ومن كان عليه أن يوقعها غيرى ... ويلى؟

– وأنت من كتبها؟

– ولا حتى يرد ذلك على فكرى، لأنى لا أعرف القراءة والكتابة، رغم أننى أعرف أن أوقع.

– لنرها، ومن المؤكد أنك تبرهن فيها على قيمة عبقريتك وكفاءتك.

أخرج سانشو الرسالة، وأخذتها الدوقة، ورأت أنها تقول هذا:

رسالة من سانشو بانثا إلى تيريزا بانثا زوجته

"إذا كان جلدى على ما يرام، فقد ظهرت للناس فارسًا همامًا(*)؛ وإذا كنت أملك الآن حكومة عظيمة، فقد كلفتنى جلدًا عظيمًا. هذا أنت لن تفهميه، فى اللحظة الراهنة، لكنك ستفهمينه بعد ذلك. وعليك أن تعرفى، تيريزا، أنى عزمت على أن تتحركى فى عربة، لأن هذا هو ما يثير الانتباه، وماعداه من السير هو سير أربع. امرأة الحاكم أنت، ولن يتآكل كعبك بعد اليوم من السير! وهاك أرسل إليك ثوبًا أخضر لصياد أعطته لى سيدتى الدوقة، عدليه حتى يصلح ثوبًا لابنتنا. دون كيخوتى، سيدى، حسبما سمعتهم يقولون فى هذه المنطقة، مجنون عاقل، ومخبول مستظرف، وأنا لست دونه فى ذلك، وقد كنا فى كهف مونتيسينوس، والحكيم ميرلين طلب عونى لفك سحر دولثينيا دل توبوسو، والتى يطلق عليها هناك الدونثا لورنثو، وذلك بجلدى لنفسى ثلاثة آلاف وثلاثمئة جلدة إلا خمسة، وبهذا تصبح غير مسحورة كما ولدتها

(*) كان الإنسان الذى يعاقب بالجلد يزفونه فى الشوارع على حمار.

أمها. لا تذكرى عن هذا شيئًا لأحد، لأنك إن أشهرت أمــورك، بعــضهم سيراها بيضاء والبعض الآخر سيقول عنها إنها سوداء. بعد مضى أيام قليلــة من الآن سأغادر لتولى الحكومة، حيث أذهب مع رغبة شديدة لعمل ثروة، لأنهم قالوا لى إن كل الحكام الجدد يذهبون للحكم بنفس هــذه الرغبــة. سأجس النبض، ثم أخطرك إذا كان عليك الحضور للبقاء معى. الحمــار فى حالة طيبة، ويبلغك تحياته الكثيرة، ولا أفكر فى هجره حــتى لــو عينــونى إمبراطورًا للترك. سيدتى الدوقة تقبل ألف مرة يديك، فردى لهــا الجميــل بألفين من القبل، وكما يقول سيدى ليس هناك أرخص ولا أقيم من الذوق والتهذيب. لم يشأ الله تعالى أن أعثر على حقيبة أخرى بها مئة دينار أخرى، مثل الحقيبة السابقة، لكن لا يؤلمك ذلك، تيريزا العزيزة، فإن مــن يــدق الأجراس ينجدونه، وكل ضيق سينظفه غسيل الحكومة، اللهم إلا ما يقولونه لى إننى بمجرد تجربة لذة الحكومة سوف أعض إصبعى جريًا وراءها، وهــذا يؤلمنى كثيرًا، وإذا كان الأمر كذلك فإنه لن يجشمنى القليل من العناء؛ مع أن العاجزين ومقطوعى الأذرع ينالون من الصدقات التى يطلبونهــا مكاســب غزيرة بعمل قليل؛ وهكذا بهذا الطريق أو ذاك، أنت ستكونين غنية، وذات حظ عظيم.

رزقك الله بأكثر رزق ممكن، وحفظنى حتى أخدمك.

من هذه القلعة، فى العشرين من يولية ١٦١٤ .

زوجك الحاكم

سانشو بانثا".

عند انتهاء الدوقة من قراءة الرسالة، قالت لسانشو:

- فى أمرين انحرفت قليلاً عن الاستقامة للحاكم الصالح، الأمر الأول فى قولك أو تلميحك أنهم أعطوك هذه الحكومة مقابل جلدك لنفسك، وأنت تعرف ما لا تستطيع إنكاره من أن الدوق سيدى عندما وعدك بالحكومة لم يكن يحلم بوجود الجلد فى العالم، والأمر الثانى أنك تظهر فى الرسالة شديد الطمع، فلا تفكر فى جمع المال، لأن الطمع يثقب كيس النقود، والحاكم الطماع يجعل العدالة سائبة.

أجاب سانشو:

- لم أذهب فيما قلت بعيدًا إلى هذا الحد، وإذا بدا لسموكم أن الرسالة تقول ما لا ينبغى أن يقال فليس إلا تمزيقها وكتابة رسالة أخرى جديدة، وإن يكن من الممكن أن تكون أسوأ إذا ترك أمرها لكياستى.

أجابت الدوقة:

- لا، لا فهذه جيدة، وأحب أن يراها الدوق.

وعند هذا ذهبا للحديقة لتناول طعام ذلك اليوم، وأرت الدوقة للدوق رسالة سانشو، وأطربته قراءتها كثيرًا. وأكلوا ورفعت المائدة، وبعد تسامرهم وقتًا طيبًا، واستمتاعهم بحديث سانشو المرتجل، سمعوا فجأة صوتًا حزينًا جدًا لآلة موسيقية، ولطبل أجش غير منضبط الشدة. كلهم أصابهم الاضطراب لهذه الهرمونية العسكرية المختلطة والحزينة، وخاصة دون كيخوتى، الذى دار فى مقعده حول نفسه، لفرط ما هو قلق، وعن سانشو، لا يمكن القول غير أن الخوف حمله إلى الملجأ المعتاد بجانب الدوقة أو تحت ذيل ثوبها، لأن ما يسمع كان حقيقة وواقعًا فى

غاية الحزن والسوداوية. وبينما هم جميعًا فى ذهول، رأوا رجلــين فــى المقدمــة بثياب الحداد التى كانت طويلة وممتدة تتجرجر وراءهما على الأرض، وكلاهمــا كان يدق طبلاً مغطى أيضًا بالأسود، وعلى جانبيهما ظهر عازف الآلــة الأخــرى وكانت نايًا، فى ثياب أيضًا سوداء سواد السمك، يجر نيلها مثل الآخــرين وراءه. وخلف الثلاثة ظهرت شخصية ذات جسم متعملق متدثرًا بثياب كنسية (أكثــر منــه مرتديًا لها)، وكان نيل دثاره أطول من نيول الآخرين وفوق الدثار تحلــى بحــزام معلق به غمد أسود مزين يخفى خنجرًا هائلاً، وكان على وجه هذا حجاب شــفاف يكشف عن لحية هائلة بيضاء فى لون الثلج. كان يتحرك على إيقاع الطبل فى كــل جدية ووقار، وفى النهاية، فإن ضخامته، وتبختره، وسواده، وصحبته، كــان مــن الممكن أن تذهل كل أولئك الذين يرونه دون أن يعرفوا شأنه.

من ثَم، اقترب من الدوق بالبطء والفخامة المذكورة ليركع على ركبتيه بــين يديه، وكان الدوق واقفًا على قدميه مع الآخرين الذين كانوا هنــاك، وقــد رفــض الكلام معه بأية حال حتى ينهض. وهكذا فعل الشيخ الفياض، إذ نهض وخلع حجابه فتجلى بتمامه باللحية التى لم تر عين إنسان حتى تلك اللحظة مثلها فــى الإرعــاب والبياض والكثافة، وهنا انتزع من صدر، عريض ممتد صوتًا جادًا ومدويًا، صــابا عينيه نحو الدوق، وقال:

– أيها السيد الأسمى الجبار، يطلقون عليَّ تريفالدين صاحب اللحية البيضاء، وأنا خادم الكونتيسة تريفالدى، وتحمل لقب القهرمانة المقهورة، ومن طرفها أحمل لكم سفارة، عظمتها تطلب الإذن للدخول إلى حــضرتكم لتــذكر لكــم أشجانها، وهى أشجان جديدة فى نوعها، ومن أعجب الأشجان التى يمكــن للفكر (الشَّجِن) فى العالم أن يدركها. وأولاً تريد أن تعرف إذا كان الفارس

الشجاع موجودًا فى قلعتكم، والذى لا يغلب مطلقًا، دون كيخــوتى دى لامانشا، وفى البحث عنه تقدم صائمة من مملكة كاندايا حتى دولتكم، وهو أمر يصل إلى حد المعجزة إذا لم يكن من السحر، وهى تنتظر على باب هذا الحصن أو البيت الريفى، وليس بينها وبين الدخول إلا سماح سموكم بذلك. لقد أنهيت كلامى.

وهنا سعل وتخلل لحيته من أعلى إلى أسفل بكلتا يديه، وفى هــدوء كبيــر انتظر الإجابة من الدوق، وكانت:

– أنا، أيها الخادم الطيب تريفالدين صاحب اللحية البيضاء، قد بلغنى منذ أيــام طويلة نكبة سيدتى الكونتيسة تريفالدى، والتى يسميها السحرة القهرمانــة المقهورة، ومن الممكن أيها الخادم العظيم أن تقول لها أن تدخل، وأنه هنــا معنا الفارس الشجاع دون كيخوتى دى لا مانشا، والذى بكل كرم يمكــن أن يتعهد بتقديم السند والعون لها، ويمكنك أيضًا أن تبلغها من طرفى إذا كان عونى ضروريًا، فلن تعدم نواله، ويجبرنى على ذلك كونى فارسًا عليه أن يخدم النساء ويساندهن بكل ما يملك، ولاسيما القهرمانات الآرامل المهجــورات المقهورات، وهذه حال فخامتها.

وعندما سمع ذلك تريفالدين هذا أحنى ركبته نحو الأرض، عــازفًا النــاى، فدقت الطبول على نفس الإيقاع، وبنفس الخطوة التى دخل بها أخذ فى الخروج من الحديقة، تاركًا الجميع فى دهشة من حضوره وهيئتــه. التفــت الــدوق إلــى دون كيخوتى، وقال:

- فى النهاية، أيها الفارس المشهور، لا يمكن للشر أو للجهل ستر ضوء الشجاعة أو الفضيلة، أقول هذا لأنه لم يكد يمضى ستة أيام على وجود سماحتكم فى هذه القلعة حتى جاء التعساء والمنكوبون يسعون بحثًا عنك من بلاد بعيدة ونائية، (وليس فى عربات أو على هجائن، وإنما على الأقدام صيامًا)، واثقين من أنهم سيجدون فى هذا الساعد القوى لعلاج أحزانهم وخطوبهم، بفضل مآثرك العظيمة التى انتشرت فى كل الأرض المعمورة .

أجاب دون كيخوتى:

- أود يا سيدى الدوق أن لو كان حاضرًا هنا الآن ذلك القسيس الذى كان معنا على مائدة الطعام منذ أيام، وأظهر ذلك الخلق السيئ والحنق ضد الفرسان المشّائين، حتى يرى بأم عينيه عما إذا كان هؤلاء الفرسان ضرورة فى العالم، ويلمس على الأقل بيديه أن المنكسرين ومن فقدوا السلوى بسبب هموم كبيرة ونكبات هائلة لا يذهبون طلبًا لعلاج مشاكلهم فى بيوت الأدباء، ولا فى كنائس القرى، ولا إلى فارس لم يفلح فى الخروج من قريته، ولا إلى الفارس الكسول فى البلاط، الذى يبحث عن نميمة يحكيها وليس عن فعل ومأثرة حتى يحكيها الآخرون ويكتبونها، علاج الأحزان، ونجدة المحتاجين، وإجارة الصبايا، وعزاء الآرامل، الأمر الذى لا يوجد عند أحد إلا عند الفرسان المشّائين، ولكونى منهم أقدم الحمد الذى لا ينفد للسماء، وأتحمل بصبر كل بلاء وجهد يمكن أن يقع لى فى هذا الميدان المشرف من العمل؛ فلتأت هذه القهرمانة، ولتطلب ما تشاء، وسوف أخرج لها دواء من قوة ساعدى، ومن العزم الجسور لروحى العالية.

الفصل السابع والثلاثون

حيث تستمر المغامرة المشهورة للقهرمانة المقهورة

طرب الدوق والدوقة أبهج الطرب من رؤية كم مضى دون كيخوتى فى إحسان معبرًا عن نواياه، وفى هذه اللحظة قال سانشو:

– لا أود أنا أن تصبح تلك القهرمانة، حجر عثرة فى سبيل الوعد بحكومتى؛ لأننى سمعت صيدليًا من طليطلة، كان طلق اللسان، يقول "تتدخل القهرمانات لا يمكن أن تقع الحسنات". يرحمنى الله، كم كان ذلك الصيدلى يسىء النية تجاهن، وما أستنتجه أنا أن كل القهرمانات غضوبات وقحات، مهما كان مقامهن، فما البال بالمقهورات، كما قالت عن تلك الكونتيسة الأثواب المجرجرة الثلاثة أو الذيول الثلاثة؟

قال دون كيخوتى:

– اصمت، أيها الصديق سانشو، فهذه السيدة القهرمانة من بلاد بعيدة جدًا، وقد جاءت تبحث عنى، وبالتالى فلا يمكن أن تكون من ذلك النوع الذى تحدث عنه الصيدلى، وبصفة خاصة لأنها كونتيسة، فالكونتيسات إذا خدمن فى عمل قهرمانات لا يخدمن إلا إمبراطورة أو ملكة، وفى بيوتهن يخدمهن من القهرمانات أخريات.

وعلى هذا أجابت القهرمانة رودريجيث التى كانت هناك حاضرة:

- سيدتى الدوقة لها من القهرمانات ما يمكن أن يكنّ كونتيسات إذا الحظ شاء، لكن هناك قانونًا ونظامًا، ولا أحد ينطق بكلمة ضد القهرمانات، وخاصة كبار السن والعذراوات، وإن لم أكن كذلك، فقد أدركتنى وزهت بى نفس ميزة القهرمانة العذراء، وأنا القهرمانة الأرمل، ومن قصّنا بقى المقص فى يده.

على هذا أجاب سانشو:

- ومع هذا، فقد بقى الكثير للقص بالمقص فى القهرمانات، وطبقًا لقول حلاقى، الأفضل عدم تقليب الأرز حتى لو تَعَجَّن.

أجاب دونيا رودريجيث:

- دائمًا، الخدم أعداء لنا، فكما أنهم دائمًا جن فى مداخل القاعات يرون كل خطوة لنا، فإنهم كل الوقت الذى لا يصلون فيه، وهو وقت متسع وطويل، يقضونه فى الهمس عنا، حيث يستخرجون عظامنا من مدافنها، ويضعون سمعتنا فى مدافن لها. إننى أراهم خُشُبًا مسنَّدة، ومع أنه يثقل عليهم، ينبغى أن نعيش فى العالم، وفى بيوت الأمراء والملوك، ولو متنا من الجوع، أو لبسنا الأسود الرهبانى فوق لحمنا الحساس أو غير الحساس، مثل تغطية تمثال مقدس ببساط فى يوم الموكب الدينى، وقسمًا لو أتيح الوقت لى أن أشرح لفهم العالم كله وليس للحاضرين فقط كيف لا توجد فضيلة إلا وقد حازتها القهرمانة.

قالت الدوقة:

– أنا أعتقد أن قهرمانتى الطيبة دونيا رودريجيث عندها حق، بل حق كبير، لكن من المناسب أن توفر وقتًا لكى تقوم من أجلها ومن أجل القهرمانـــات الأخريـــات بمحو الرأى السيئ لذلك الصيدلى، ونزع ما بصدر سانشو بانثا العظيم.

وأجاب سانشو:

– منذ أن نالنى من الحاكم دخان، زالت عنى نقائص الخادم، ولا يهمنى فى شىء القهرمانات مهما كثرن.

وواصلوا حديثهم القهرمانى، وكانوا سيستمرون فيه لولا أن ســمعوا النـــاى والطبول تعود للرنين، من حيث يظنون أن القهرمانة المقهورة كانت تدخل. ســألت الدوقة الدوق عما إذا كان من المستحسن التقدم لاستقبالها، فهى كونتيسة وشخصية مهمة؟ أجاب سانشو قبل الدوق:

– لكونها كونتيسة من المستحسن الذهاب لا ســتقبالها، ولكونهـــا قهرمانـــة لا تتحركى نحوها خطوة واحدة.

قال دون كيخوتى:

– ومن حشرك فى هذا سانشو؟

أجاب سانشو:

– من، سيدى؟ أنا أحشر نفسى، حيث يمكننى باعتبارى حامل دروع تعلُّم أصول التهذيب فى مدرسة فخامتكم، الفارس الأكثر أدبًا الذى ظهـــر بـــين كـــل الفرسان؛ وهذه الأشياء طبقًا لما سمعتك تقوله عنها "أن الخسارة فى اللعب قد تكون بورقة زائدة أو بورقة ناقصة، والفطن بأقل الكلمات يزن".

قال الدوق:

- هكذا الأمر كما يقول سانشو، لنر هيئة الكونتيسة، وعلى ضوئها نقيس المجاملة التي تستحق.

خلال ذلك دخلت الطبول والناى مثل أول مرة.

وقد أنهى المؤلف هذا الفصل المختصر بتلك الكلمات، وبدأ فصلاً آخر، مواصلاً نفس المغامرة، وهى واحدة من أشهر مغامرات القصة.

الفصل الثامن والثلاثون
حيث يحكى عما حكته القهرمانة المقهورة
من سوء سير أمورها

بدأ يتقدم فى الحقيقة ما يقرب من اثنتى عشرة قهرمانة فى صفين خلف الموسيقيين الحزانى، وكلهن مرتديات ثياب الراهبات الأسود، وفيما يبدو أنه كان من قماش صوف الأناسكوت المتلبد، وقد وضعت كل واحدة خمارًا شفافًا من النسيج القطنى كانيكى، بالغ الطول لا يظهر من الثوب الأسود غير حاشيته. خلفهن كانت الكونتيسة تريفالدى تتقدم، والتى كان يأخذ بيدها الخادم تريفالدين صاحب اللحية البيضاء، وكانت فى ثوب من الصوف السميك الأسود البالغ الرهافة، والذى يتوتروبره، حتى تأتى متقنفذة وقد انكشفت معالم كل حبة من مخزن حمص جسمها، ذلك الحمص البديع للقرية الجيانية مارتوس. وذيل ثوبها أو حاشيته كما يحلو لكم تسميته مكون من ثلاثة ألسنة يحمل كل لسان خادم، أيضًا الخدم فى لباس الحداد صانعين شكلاً هندسيًا مكونًا من تلك الزوايا الثلاث الحادة، ومن أجل هذا كل من كان يرى هذا الذيل حاد الزوايا الثلاث رآه ترجمة لمعنى اسمها "الكونتيسة الثلاثية الذيل": اسم على مسمى الذيل! ويقول ابن إنجيلين إن ذلك صحيح، وإنها حملت اسمها من لقبها الثيابى، بينما كانت تسمى حسب لقب عائلتها الكونتيسة ذئبونا، حيث كانت تعيش فى ولايتها ذئاب كثيرة، ولو كان بولايتها ثعالب بدل الذئاب لسموها الكونتيسة ثعلبونا، طبقًا لعادة تلك الجهات من حمل سادتها لأسماء

شىء أو أشياء تفيض كثرة فى أرضهم، ورغم ذلك، وحتى تلاحق هذه السيدة مستجدات ذيل ثوبها استبدلت بذنبونا اسم ثلاثية الذيل "تريفالدى".

تحركت القهرمانات الاثنتا عشرة وسيدتهن بخطى المواكب الدينية، مغطيات وجوههن بغطاء أسود غير شفاف بعكس غطاء وجه تريفالدى، حتى إن سمك أغطية وجوههن منع ظهور أية ملامح. وهكذا لم تكد تظهر الكتيبة القهرمانية حتى نهض على قدم الدوق والدوقة ودون كيخوتى، وكل أولئك الذين يشهدون الموكب البطىء الخطى. وقفت الاثنتا عشرة قهرمانة وشكلن شارعًا، فى منتصفه تقدمت المقهورة، دون أن يترك تريفالدين يدها، وعند رؤية هذا تقدم الدوق والدوقة ودون كيخوتى اثنتى عشرة خطوة لا ستقبالها، ركعت هى، وبصوت أجش وقوى قبل أن يكون كيسًا ورهيفًا، قالت:

– عظمتكم، حفظتم، لا تقدموا الكثير من المجاملة لخادمكم ... أوه! أقصد لخادمتكم؛ لأنه طبقًا لكونى مقهورة، لن أنجح فى ردّ ما أدين به لكم، وبسبب نكبتى الغريبة وغير المسبوقة حملنى الفكر إلى حيث لا أدرى فى مكان لا بد أن يكون بعيدًا جدًا، فكلما بحثت عنه أكثر، نأى عنى أبعد.

أجاب الدوق:

– بدون ذلك لا يكتشف معدن شخصكم، الذى دون تـرو، يستحق زبدة الترحيب وزهرة شعائر المجاملة الرفيعة.

وأخذ بيدها منهضًا لها، وحملها إلى مقعد بجوار الدوقة، التى استقبلتها بدورها بكل ترحيب. دون كيخوتى كان صامتًا، وسانشو ميتًا من أجل رؤية وجه تريفالدى وقهرماناتها الكثيرات، لكن استحال ذلك حتى يكشفن الوجوه بإرادتهن ومزاجهن.

الجميع ساكنون، وخيَّم عليهم الصمت فى انتظار من يكسره، وكان من فعل ذلك القهرمانة المقهورة، بهذه الكلمات:

– واثقة أنا، أيها السيد شديد الجبروت، وأيها السيدة شديدة الجمال وأيها الحضور شديدو الكرم، من أننى سوف أجد لأحزانى الشديدة ترحيبًا من صدوركم شديدة الشجاعة، وهو ترحيب الكرم والألم وليس البهجة والحبور، لأن أحزانى هكذا تفجر الماء من الرخام، وتسيل الماس، وتعدل صلابة صلب القلوب الأكثر قسوة للعالم. لكن قبل أن تخرج إلى ميدان مسامعكم (حتى لا أقول آذانًا)، أريد أن تعلمونى إذا كان فى هذا الجمع والجماعة الفارس الشديد النقاء دون كيخوتى دى لا مانشا، وشديد حمل دروعه بانثا.

أجاب سانشو قبل أن يفتح غيره فمه:

– البانثا ها هنا أمامك وشديد الكيخوتية أيضًا، هكذا يا شديدة القهر وشديدة القهرمانية، يمكنك أن تقولى ما تحبين قوله شديد الحب؛ فنحن شديدو التعجل، وشديدو الترقب لنكون شديدى الخدمة!

وهنا نهض دون كيخوتى وجعل كلماته تسعى نحو المقهورة:

– إذا كانت شدتك، أيتها السيدة المنكودة، تعد بأى أمل للعلاج بفضل أية شجاعة أو قوى فارس مشَّاء، فها هى شجاعتى وقوتى فى خدمتك. أنا دون كيخوتى دى لا مانشا، الذى شأنه أن يهرع إلى كل نوع من المضطرين، وكون ذلك كذلك، وهو بالفعل كذلك، فلا تشغلى بالك فى أخذ مباركات

أو البحث عن مقدمات، وإنما ببساطة ودون لف أو دوران قولى أوجاعك، فالمسامع تعرف الاستماع إليك، وإن لم تعالجها فسوف تشاركك الألم.

وعند سماع ذلك بدر من القهرمانة المقهورة ما يدل على أنها تحب أن ترمى نفسها تحت أقدام دون كيخوتى، وقد فعلت مصارعة لاحتضانها، وهى تقول:

– ألقى بنفسى أمام هذه الأقدام والأرجل، أيها الفارس الذى لا يقهر، والتى هى قواعد الفروسية المشّاءة وأعمدتها؛ وهذه الأقدام أحب أن أقبلها، والتى على خطوها يعتمد ويتعلق كل علاج لنكبتى، أوه أيها المشّاء الشجاع، الذى مأثرته تترك وراءها وتظلم مآثر أماديس وإسبلانديانس وبليانس!

وتاركة دون كيخوتى التفتت إلى سانشو، وأمسكت بيده، وقالت له:

– أوه، أنت، الخادم الأكثر ولاء بين كل خدم الفرسان المشّائين فى الحاضر والماضى، والأطول برًا من لحية تريفالدين، مرافقى الحاضر هنا الآن! وحسن خدمتك دون كيخوتى العظيم تخدم فى اتخاذك شفرة لكل ذمرة الفرسان الذين عالجوا حمل السلاح فى العالم. أستحلفك ببرك الشديد الولاء، أن تكون شفيعا طيبًا لى عند سيدك، حتى يناصر هذه الكونتيسة شديدة التواضع شديدة النكد.

وعلى هذا أجاب سانشو:

– أن يكون برى، سيدتى، فى مثل طول وضخامة لحية خادمك أمر يهمنى بأقل من القليل، والروح منى ملتحية، وبشوارب بعدما تذهب من هذه الحياة. هذا ما يهم؛ فمن لحى الدنيا القليل أو لا شىء يفيدنى، لكن بدون هذه الحيل

للالتماس وبدون صلوات، سأرجو سيدى (الذى أعرف أنه يحـــبنى جيـــدًا، ويحبنى أكثر الآن مضطرًا لمصلحة معينة) أن يناصر ويدعم فخامتكم بكل ما يستطيع. والآن فخامتكم أخرجى من الصندوق نكبتك، واحكيهـــا لنـــا، واجعلى الجميع يفهمونها.

انفجر الدوق والدوقة من الضحك، مثل أولئك الذين بدأوا يتذوقون المغـــامرة ويمتدحون فى داخل أنفسهم ذكاء تريفالدى ومسكنها، وهى التى عـــادت للجلـــوس، وقالت:

– فى مملكة كاندايا، التى تقع بين ترابوبانا العظمى وبحر الجنـــوب، علـــى بعـــد فرسخين من رأس كومورين كانت تحكم الملكة دونيا ماجونثيا، أرملة الملك أرشيبيلا، سيدها وزوجها،ونتج عن زواجهما إنجـــاب وترعـــرع الأمـــيرة أنتونوماسيا، وريثة العرش، وهذه الأميرة أنتونوماسيا تربت تحـــت إشـــراف وفكرى، لكونى أقدم وأهم قهرمانة لأمها. وحدث أن راحت وجاءت الأيام، واقتربت الطفلة أنتونوماسيا من سن الرابعة عشرة، مع كمـــال عظـــيم فى الحسن، حتى إن الطبيعة لم تكن بعد هذا قادرة على الزيـــادة ولـــو بنقطـــة واحدة. ما علينا، نقول الآن إن ذكاءها دونه أى ذكاء، وهكـــذا كانـــت حسناء بقدر ما كانت ذكية، فكانت الأجمل فى العالم ومازالت، لو أن الأقدار الحسودة والموت القاسى لا يقطعان فرعها من ساق شجرة الحياة. ولعلهما لا يفعلان، لأن السماء لا ينبغى أن تسمح بارتكاب شر بهذه الضخامة ضـــد الأرض، مثل قطع أجمل عنقود عنب فى العالم قبل أوانه من كرمته، وإلقائـــه على الأرض. بهذا الحسن (الذى لم أمتدحه كما يجب بلسانى المتعثر) تعلق بها

عاشقًا أمراء لا حصر لهم، من أهل المملكة وأجانب، ومن بين هؤلاء تجرأ أن يرفع آماله حتى السماء نحو هذا الجمال الباهر فارس من فرسان البلاط، واثق من شبابه ووسامته، ومن مقدراته المتعددة وطرائفه، وسيولة عبقريته وبهجتها، لأنني أعلم عظمتكم، إن لم يغضبكم، أنه كان يعزف القيثارة فينطقها، وفوق هذا كان شاعرًا وراقصًا ممتازًا، وكان يعرف أن يصنع قفصًا للعصافير، وبهذه الصنعة فقط كان يستطيع كسب عيشه إذا ضاقت السبل. وكل هذه العناصر والطرائف كافية لهدم جبل، وليس فحسب صبية رقيقة، لكن كل فروسيته وملاحته، وكل طرائفه ومقدراته كانت قليلة، أو لا شيء لجعل قلعة طفلتي تستسلم، إذا اللص الفاسق لم يستعمل دواء استسلامي أولاً. أولاً أراد الشرير والشريد عديم الرحمة هدم إرادتي وحصاد رضاى، حتى أنا الراعية السيئة أكون من تسلم له مفاتيح القلعة التى أحرسها. باختصار داهن فكرى وأخضع إرادتي ببعض الحلى التي أعطاها لى، لكن الشيء الذى ذلل صعبى وألقى بى على الأرض بعض الأدوار التى سمعته يغنيها فى إحدى الليالى، من خلف نافذتى التي كانت تطل على أحد الشوارع الصغيرة، وكان هناك يقول إذا لم تخنى الذاكرة:

من عدوتى الحلوة

يولد ألم يجرح روحى

ولمزيد من العذاب تحب

أن أتألم ولا أشكو

– بدت لى رباعية من اللؤلؤ، وصوته من اللبن، وبعد، هنا أقول: منـــذ ذلـــك الحين، مشاهدة وقوع الشر من هذه الأشعار وما يشابهها من أشعار أخرى، اعتبرت أن البلاد الطيبة والموفقة عليها أن تنفى الـــشعراء، كمـــا نـــصح أفلاطون، أو على الأقل الشبق منهم، لأنهم يكتبون بعض المقطوعات، ليست مثل شعر المركيز دى مونتوا، التى تسلى وتبكى الأطفال والنساء، وإنمـــا فى حدة الأشواك النضرة التى تخترق منكم الروح، ومثل الأشعة تجرحها لكـــم، دون قطرة دم على الثياب. ومرة أخرى غنى:

تعالَ أيها الموت متخفيًا

ولا تحزن على المجيء

لأن لذة أن تموت

أنها لا تتكرر

ومن هذا النوع رباعيات أخرى وغرائب، عندما تغنـــى تـــسحر، ومكتوبـــة تدهش وتأسر. من ثَم؛ فعندما يرقُون عند نظم نوع من الشعر فى كاندايا يـــسمونه الدور، فماذا؟ هناك كان توثب النفوس، وتوهج البهجة، وتهيج الأجـــسام، وأخيـــرًا زئبق لكل الحواس. وهكذا، أقول، سادتى، شعراء التروبادور هؤلاء، لسبب وجيـــه يجب نفيهم إلى جزر السحالى. لكن الذنب ليس ذنبهم، إنه ذنـــب البـــسطاء الـــذين يمتدحونهم، والبلهاوات اللائى يعتقدن فيهم، وإذا كنت القهرمانة الطيبة كما يجـــب، ما كان ينبغى أن تحركنى هذه الأسمار الليلية، أو أعتقد أن ما تقوله حقائق: "أعيش موتًا، أضرم فى الجليد، أرتعد بردًا فى النار، أنتظر دون أمل، أرحل وأبقى"، مـــع أشياء أخرى مستحيلة من هذا النوع، التى بها تمتلئ الكتب. من ثَم، مـــاذا ينتظـــر

عندما يعدون عنقاء جزيرة العرب بعرش الواق واق، وخيل الشمس بعرش جـزر اللؤلؤ، وتبر الذهب وسحر البلسم؟(*). هنا، حيث يقومون بإطالـة القلـم، فسوف يكلفهم القليل الوعد بما لم يفكروا فيه قط، ولا يمكنهم إنجازه. لكن بالنسبة لى، أين المفر؟ ويلى من تعيسة، بغير حظ، أى جنون أو أى هذيان يحملنى أن أتكلـم عـن عيوب غيرى، وأنا ملزمة أكثر أن أتكلم عن عيوبى؟ ويلى، مرة أخرى، امرأة من غير حظ، لم تسلمنى الأشعار إنما سذاجتى، ولم تضعفنى الموسيقى وإنمـا خفتـى، وجهلى العظيم، وقلة معرفتى، فتحت الطريـق ومهـدت الـسبيل لخطـوات دون كلابيخو، وهذا اسم الفارس المشار إليه، وهكذا بتحولى إلى وسيطة، وجد نفسه مرة ومرات فى حضور المخدوعة ليس عن طريقه وإنما عـن طريقـى، أنتونوماسـيا المخدوعة، تحت وعد الزواج، ومع أننى آثمة، فإننى لم أكن لأوافق على أن يصل ولو إلى كعب حذائها دون أن يكون زوجًا لها. لا، لا، هذا لا، الـزواج لا بـد أن يمضى قدُمًا مع أى شأن أعالجه. فقط بقى عيب فى ذلك الشأن، وكان عدم التكافؤ؛ لكون دون كلابيخو فارسًا بلا منصب، والأميرة أنتونوماسيا وريثة لعرش المملكة، كما سبق لى القول. بقيت هذه الورطة عدة أيام مـستورة ومختبئـة تحـت سـتار تحفظى، حتى ظهر لى أن الأمر مضى ينكشف مع مزيد من الوقت بمـا لا أدرى، بتورم فى بطن أنتونوماسيا، وخوفها جعلنا نعقد نحن الثلاثة اجتماعًا، وكان القـرار قبل أن ينكشف الأمر أن يطلب دون كلابيخو أمام القسيس أنتونوماسيا زوجة لـه، بموجب وثيقة تثبت أن الأميرة صارت زوجة له، وتم نسجها بعبقريتـى حتـى لا تستطيع قوة شمشون الكبيرة الطعن فيها، وتمت الإجراءات، ورأى القسيس الوثيقة، وأخذ منها الاعتراف، واعترفت بكل شيء، وأمر بإيداعها فى بيت مأمور قـضائى للبلاط موثوق به جدًا...

(*) إشارات فولكورية لوعود مستحيلة.

وهنا قال سانشو:

– أيضًا فى كاندايا يوجد مأمور قضائى للبلاط، وشعراء، وأدوار، مما يجعلنى أقسم أننى أتصور أن جميع العالم واحد، لكن فخامتكم أسرعى، سيدتى تريفالــدا، فقد تأخرنا، وأنا أموت شوقًا لمعرفة نهاية هذه القصة الطويلة.

أجابت الكونتيسة:

– حاضر! سأفعل.

الفصل التاسع والثلاثون

حيث تواصل تريفالدا قصتها الفخيمة العظيمة

من أى كلمة كان يقول سانشو يتحقق ابتهـاج الدوقـة، وينفـد صـبر دون كيخوتى، وآمرًا له أن يسكت واصلت المقهورة القول:

– فى النهاية، وبين كثير من الأسئلة والإجابات أصرت الأميرة على ذكـر نفـس الاعتراف دون أن تخرج أو تغير أول اعتراف لها. حكم القسيس لـصالح دون كلابيخو، وسلمها له زوجة شرعية، الأمر الذى قابلته الملكة ماجنوثيا، والـدة الأميرة أنتونوماسيا، بغضب عظيم، حتى إنهم واروها التراب خلال ثلاثة أيام.

قال سانشو:

– لابد أنها ماتت دون شك.

أجاب تريفالدين:

– طبعًا ماتت، ففى كاندايا لا يدفنون الأشخاص الأحياء، وإنما الموتى.

أجاب سانشو:

– مفهوم، أيها السيد الخادم، يمكن دفن شخص مغمى عليه، ظنًا أنه ميت، ويبدو لى أن الملكة ماجنوثيا مضطرة للإغماء أكثر من اضـطرارها للمـوت، لأن استمرار الحياة يعالج أشياء كثيرة، فلم تكن سفاهة الأميرة بهذا القدر الذى

يحزن إلى حد الموت. وإذا كانت تلك السيدة تزوجت خادمًا لها، أو خادمًا آخر فى قصرها، كما فعل غيرها كثيرات، حسبما سمعتهم يقولون، يصبح الضرر بلا علاج، لكن كونها تزوجت فارسًا وسيمًا وذكيًّا، كما رسمت لنا صورته، فى الحقيقة كل الحقيقة، مع سفاهة ذلك، لم تكن سفاهة كبيرة كما يظنون، لأنه طبقًا لقواعد سيدى، وهو حاضر الآن، ولن يتركنى أكذب، فكما يصنعون من الأدباء أساقفة، من الممكن أن يجعلوا من الفرسان وخاصة إذا كانوا مشّائين، ملوكًا وأباطرة.

قال دون كيخوتى:

- معك حق، سانشو، لأن الفارس المشّاء لو نال مقدار إصبعين من الحظ فهو قريب جدًّا أن يكون سيد العالم، لكن لتستمر السيدة المقهورة، فبالنسبة لى الملح أنه ينقصها ما تحكيه عن مر هذه القصة الحلوة.

أجابت الكونتيسة:

- وكيف بقى المر! إن بمقارنته بالقرع المر يصير هذا قرعًا عسليًا كما يصير الدفلى مستلذًّا. من ثَم، ميتة الملكة وليست مغمى عليها، قمنا بدفنها، وبمجرد أن غطيناها بالتراب، وقدمنا آخر مراسم الوداع، (ومن يسمع هذا عليه أن يكفكف دموعه) فوق جواد من الخشب ظهر فوق القبر المارد مالامبرونو، ابن عم شقيق للملكة ماجنوثيا، والذى بجانب قسوته كان ساحرًا، والذى بفنون صنعته، وللثأر لموت ابنة عمه ولعقاب جرأة كلابيخو، ولتأديب أنتونوماسيا لتجاوزها الحدود، تركهما مسحورين فوق نفس القبر، هى فى صورة قردة، وهو فى صورة تمساح مخيف من معدن غير معروف،

وبينما ظهر شاهد مكتوب عليه بحروف آشورية مترجمة إلى لغة كانديايا، وها هى الآن بالإسبانية "لن يستعيد هذان العاشقان المتجرئان صـــورهما الأولى حتى يأتى إلىّ الشجاع المانشاوى لندخل معًا فى معركة فريدة، ولـــشجاعته العظيمة، تحفظ الأقدار هذه المغامرة التى لن يُرى لها مثيل". وبعد أن قام بهذا أخرج من غمده خنجرًا عظيمًا، وممسكًا لى من شعرى، بدا من حركاته أنه يريد نحرى، واستئصال رأسي. اضطربت، والتصق صوتى بجدران حنجرتى، وبقيت محطمة تمامًا، ومع ذلك قاومت بقدر استطاعتى، وبـــصوت مرتعـــد ومتألم قلت له مثل تلك الأشياء التى تقال هناك، وجعلته كلماتى يعلق تنفيذ هذه العقوبة الصارمة. وأخيرًا، أحضر أمامه كل قهرمانات القـــصر، وهـــن الحاضرات هنا الآن، وبعد أن بالغ فى ذكر ذنبنا، وسب مهنة القهرمانـــات، وجرائمهن الشريرة، وحيلهن الأسوأ، وحـــمَّل الجميع الذنب الذى أحملـــه وحدى، قال إنه لا يجب أن يعدمنا عقابًا لنا، وإنما سيوقع علينا عقابًا مؤجلاً، يحملنا إلى الموت المدنى والدائم، وفى نفس اللحظة التى قال فيها ذلك منـــهيًا حديثه، أحسسنا جميعًا بمسام الوجه تتفتح، وفيها كما لو كـــانوا ينخزوننـــا بسنان إبر، هرعنا لتغطية وجوهنا بأيدينا، ووجدناها بالشكل الذى ســـوف ترونه الآن.

من ثَم رفعت المقهورة والقهرمانات الأخريات غطاء وجوههن اللائى جـــئن بها مغطاة، وكشفن عن ملامحها، وكلها مغطاة بلحى، بعضها أشقر، والأُخَر أسود، وذاك أبيض، وغيرها من مختلف الألوان، ومن رؤية هذا المشهد أظهـــر الـــدوق والدوقة التعجب، وذهل دون كيخوتى وسانشو، وشُدِه كل الحضور.

وواصلت تريفالدى:

– بهذه الطريقة عاقبنا الشرير وسيئ النية مالامبرونو، محولاً طراوة وجوهنا ونضارتها إلى خشونة هذا الشعر الغليظ، فالتمسنا من السماء أن لو كان قد قتلنا بخنجره الهائل مسقطًا رءوسنا وألا يلقى بهذه الظلال فوق وضاءة وجوهنا بهذه الأوبار التى تغطينا، لأنه لو دخلنا فى حساب سادتنا (وهذا ما سوف أقوله الآن. كنت أود قوله وقد تحولت العيون إلى ينابيع، لكن لاعتبار نكبتنا، والبحور التى حتى وصولنا هنا قد أمطرت، بقيت العيون دون مزاج للبكاء وجافة كالأحجار) ، أقول، إذن، إلى أين يمكن أن تروح قهرمانة بلحية؟ وأى أب وأى أم سوف تتألم من أجلها؟ ومن قد يقدم العون لها؟ هذا، حتى لو كانت تملك بشرة ناعمة مع وجه ضحى بنضرته تحت ألف طلاء للإغراء، فإنها لا تكاد تجد من يحبها حقيقة، فماذا هى فاعلة عندما يكتشفون وجهها متحولاً إلى غابة؟ أوه، أيتها القهرمانات ورفيقاتى، لقد ولدنا فى لحظة تعيسة، وفى ساعة نحس أنجبنا آباؤنا.

وعند قولها هذا أعطت دلائل على أنها أغمى عليها.

الفصل الأربعون

عن أشياء ترتبط وتمس هذه المغامرة والقصة العظيمة

حقيقة وواقعًا كل من تعجبهم مثل هذه القصص كقصتنا هذه، عليهم إظهار العرفان لسيدى حامدى، مؤلفها الأول، للفضول الذى كان عنده نحو حكايته لنا نمنماتها الموسيقية، دون أن يترك شيئًا، مهما قل شأنه أو خف، إلا وأخرجه إلى النور حتى يتميز ونميزه. يرسم الأفكار والظنون، يكشف الخيالات مجيبًا عن الأسئلة المحتملة، موضحًا الشكوك، حالاً عقدة الجدل، وأخيرًا يبرز ذرات الرغائب الأكثر فضولاً. أوه، أيها المؤلف الألمع! أوه، أيها السعيد الطالع دون كيخوتى! أنتما معًا، وكل واحد منكما بمفرده، سوف تعيشان دهورًا لا تحصى، لإطراب وقت فراغ عمومى وإزجائه لكل الأحياء.

من ثم، تقول القصة، كما رأى سانشو المقهورة مغمى عليها، قال:

– قسمُ رجلٍ خيرِ أقسم، وبأيام كل أسلافى من آل بانثا البانثاويين، أننى لم أر ولم أسمع ولم يقص لى سيدى، ولم يمر بذهنه، مغامرة مثل هذه قط. ركبك ألف شيطان، لعدم لعنتك كساحر ومارد، أيها السيد مالامبرونو. ألم تجد نوعًا آخر من العقاب لهؤلاء الآثمات سوى خلق لحى لهن (إلحائهن!)؟ كيف؟ ألم يكن الأفضل، وكان أنسب لهن، إزالة نصف أنوفهن من سنامها، حتى لو تكلمن بصوت أغن؟ أراهن ليس لديهن من المال لدفعه لمن يحلقها لهن.

أجابت واحدة من الاثنتى عشرة:

- هذه هى الحقيقة، أيها السيد، فليس لدينا ثروة لسكّنا(*) وهكذا بعضنا أخذن لعلاج الوبر مواد لاصقة أو لزقة نجعلها تغطى الوجه ثم ننـــزعها بشدة فيبقى الوجه فى نعومة الساتان وفى ملمس سطح الحجر الصوان، مع أنه فى كاندايا توجد نساء يمشين من بيت إلى بيت لنتف الشعر والحواجب، وإجراء بعض أعمال الزينة التى تمس النساء، ونحن قهرمانات سيدتى، لم نقبل قط التعامل معهن، لأنهن تفوح لهن رائحة الثوالث(**) (القوادات) بعد أن هجــرن شـــد أوتار القيثار، وإذا لم نجد الشفاء على يد السيد دون كيخوتى ســـنذهب إلى القبر ملتحيات.

قال دون كيخوتى:

- سوف أحلق لحيتى فى أرض العرب(***)، إذا لم أعالج لحاكم.

عند هذا أفاقت تريفالدى من إغمائها، وقالت:

- إن رنين هذا الوعد، أيها الفارس الشجاع، قد اخترق مسامعى فى عِزِّ إغمائى، وكان سببًا فى أن أعود وأستعيد كل حواسى، وهكذا، من جديـــد أتوســـل

(*) من سك العملة وإعطائها شكلها، إشارة لحاجتهن لاستعادة صورتهن، وهذه الفقرة مليئة باللعب بالكلمات.

(**) الثوالث جمع ثالث، ويقصد به الشخص الثالث أى القوادة أو القواد الذى يكون ثالث الرجل والمرأة عندما يجمع بينهما، يقصد بها دور الفنان المزين فحسب، أما ترك شد أوتار القيثار فمعناه الشيخوخة وهجر الرجال لهن.

(***) العرب هم الأعداء التقليديون، من ثم يكون ذلك استسلامًا لعدوه، أو ربما لرمزية ذلك عند العرب.

إليكم، أيها المشّاء المشهور، والسيد غير المقهور، أن يتحول وعدكم المبهج إلى عمل.

أجاب دون كيخوتى:

– بالنسبة لى لا يبقى موانع، سيدتى، غير أن ترى ما علىَّ عمله، فالرغبة متعجلة لخدمتك.

أجابت المقهورة:

– المسألة، أنه للذهاب إلى كاندايا، علينا عن طريق البر قطع خمسة آلاف فرسخ يزيدون أو ينقصون ألفين، أما عن طريق الجو أو الطريق المستقيم فالمسافة ثلاثة آلاف ومئتان وسبعة وعشرون فرسخًا. أيضًا ينبغى أن تعرف أن مالامبرونو قال لى إن الحظ إذا واتانى ووصلت إلى الفارس (محررنا)، فإنه سوف يرسل إليه مطية، أفضل بكثير وأقل خبثًا من البغال المؤجرة، لأنها ستكون نفس الجواد الخشبى الذى حمل عليه الشجاع بييرس ماجالونا الجميلة مسروقة، وهذا الجواد يضبط عبر مفتاح موجود فى جبهته، يستخدم كابحًا له يوقفه، وهو يطير فى الهواء فى خفة كبيرة، ليبدو وكأن الشيطان نفسه يحمله. وهذا الجواد، طبقًا للعرف القديم صُنع على يد الحكيم ميرلين، وأعاره إلى بييرس، وكان صديقه، وبه قام برحلات كبيرة، وكان ينجز الرحلة فى لحظات، يعبر فيها أجزاء عديدة فى العالم، والجميل فى هذا الجواد أنه لا يأكل ولا ينام ولا يستهلك قطع غيار، وله طرق مستقرة فى الجو، دون أن يكون له أجنحة، وراكبه يمكن أن يحمل كوب ماء مملوءًا فى يده دون أن تراق منه قطرة واحدة، لأنه يسير بسهولة وراحة، ولهذا ماجالونا الجميلة كانت تبتهج كثيرًا بالسير ممتطية له.

على هذا علق سانشو:

- للسير بسهولة وراحة، فإن حمارى مع أنه لا يسير فى الجو، إنما على الأرض فإننى أنافس به أى مطية فى سهولة السير وراحته، وذلك على مستوى العالم كله.

ضحك الجميع، وواصلت المقهورة:

- وهذا الجواد (إذا أراد مالامبرونو وضع حد لنكبتنا) سيكون قبل دخول الليل بنصف ساعة حاضرًا أمامنا، لأنه أخبرنى بأن العلامة التى سوف يعطيهــا لى، وبها أفهم أننى قد وجدت الفارس الذى يبحث عنه، هى إرسال الجواد إلى، حتى يسافر فى راحة وبسرعة.

سأل سانشو:

- كم شخصًا يتسع لهم الجواد؟

أجابت المقهورة:

- شخصان، أحدهما على السرج والآخر على مؤخرته، وهذان الشخصان همــا فارس وحامل دروعه عندما لا توجد صبية مسروقة.

قال سانشو:

- أحب أن أعرف، أيتها السيدة المقهورة، اسم هذا الجواد.

أجابت المقهورة:

- الاسم ليس مثل اسم فرس بيليرفونتى المسمى بيجاسو، ولا مثل اســم فــرس الإسكندر الأكبر المسمى بوسيفالو، ولا مثل اسم فرس أورلاندو الغاضــب المسمى (الشهاب)، ولا الفرس بيارتى الذى كان لرينالدوس دى مونتالبان،

ولا الفرس فرونتينو الخاص بروخيرو، ولا الفرسين بوتيس وبيريتوا اللــذين يقال إنهما للشمس، كما لا ينسمى أوريليا اسم فرس آخر ملــوك القــوط لزريق الذى فقد مملكته وحياته فى المعركة.

قال سانشو:

– إنى أراهن، إذن، أنهم لم يعطوه أيًا من هذه الأسماء المشهورة للخيل، أيــضًا لم يعطوه اسم فرس سيدى، روثينانتى، ولكونه اسمًا خاصًا به وأصيلاً لا بد أن يتجاوز كل المسميات من الخيل.

أجابت الكونتيسة الملتحية:

– هو كذلك، وفوق ذلك يضم معانى كثيرة، لأنه يسمى مفتاخــشيف (كــلا بيلينيو الأليخيرو)، وهو اسم على مسمى، لأن (مفتا) تشير للمفتاح الذى فى جبهته، و(خش) تشير إلى الخشب المصنوع منه، و(يف) تشير إلى أنه خفيف الحركة، وبهذا من حيث الاسم يمكن أن ينافس روثينانتى الشهير.

أجاب سانشو:

– الاسم لا يثير عدم رضاى، لكن بأى كابح أو بأى شكام يتم التحكم فيه؟

أجابت تريفالدى:

– لقد قلت بالفعل ذلك، إنه المفتاح الذى بإدارته من اتجاه إلى آخــر يــستطيع الفارس الذى يمتطيه تحويله نحو الطريق الذى يبغيه، سواء كان ذلك فى الجو أو على الأرض فى جرجرة، تقريبًا كانسًا لها فى سيره، أو بين الجو والأرض، وهذا ما يحتاج ويبحث عنه فى كل حركته جيدة التنظيم.

أجاب سانشو:

– أود أن أراه، لكن الصعود عليه فى السرج أو على مؤخرته مثل طلب الكمثرى من الدردار. حسنًا، أنا لا أكاد أستطيع ضبط نفسى فوق حمارى الذى توجد عليه بردعة أكثر طراوة من نفس الحرير، وتودون الآن أن أضبط نفسى فوق أفخاذ من الخشب، دون أى حشية أو مخدة؟ بحق الله أنا لا أود طحن نفسى نظير تخليص أحد من لحيته، وكل واحد يحلق كما يعن له، فأنا لا أفكر فى مصاحبة سيدى فى مثل هذه الرحلة الطويلة، وبصفة خاصة، لأنى لم ألتزم بقضية حلق هذه اللحى مثل التزامى بفك سحر السيدة دولثينيا.

أجابت تريفالدى:

– لتعلم أيها الصديق أنه بدون حضوركم لن نفعل شيئًا.

قال سانشو:

– العدالة! العدالة! ماذا يربط الخادم بمغامرات سيده؟ السادة يحملون مجد المغامرة، وعلينا فحسب حمل العناء؟ ويلى! آهٍ، لو قال المؤرخون "الفارس الفلانى أنجز كذا وكذا من المغامرات، لكن بمساعدة فلان خادمه، الذى لولا مساعدته لكان من المستحيل إنجازها ... "، لكن ما يكتبون فحسب: "دون بارالِيبومينون صاحب النجوم الثلاث أنجز المغامرة ذات العفاريت الستة"، دون ذكر اسم خادمه، الذى حضر كل شىء، كما لو لم يكن له وجود فى العالم! الآن، سادتى، أعود للقول بأن سيدى بإمكانه الذهاب وحده، وهنيئًا مريئًا؛ أما أنا فسأبقى هنا، فى صحبة الدوقة سيدتى، وعندما يعود قد يجد قضية السيدة دولثينيا قد تحسنت، لأننى أفكر أن أجلد نفسى فى نوبات حتى لا يعود ينبت فى جلدى شعر، خلال أوقات البطالة والفراغ.

– مع كل هذا، عليك أن ترافقه إذا كان ذلك ضروريًا، سانشو، أيها الطيب، لأنهم يتوسلون إليك، وحتى لا تبقى بسبب خوفكم غير المفيد وجوه هذه السيدات معمورة بالوبر، فيقينًا إن لم تفعل ليس ذلك بخير.

أجاب سانشو:

– العدالة! العدالة! إذا كان هذا البر من أجل بعض الصبايا اللقيطات أو الراهبات، يمكن للإنسان أن يغامر بكل جهد، لكن أن أعانى لإزالة لحى بعض القهرمانات. يا لهارا أسودا! لكم أتمنى أن أراهن جميعًا بلحى من صغراهن حتى كبراهن و من أكثرهن شرًا حتى أكثرهن تصنعًا.

قالت الدوقة:

– أنت شرير مع القهرمانات؛ حتى إنك تسير خلف رأى صيدلى طليطلة كثيرًا، والحق أنك ليس عندك حق، ففى بيتى قهرمانات هن المثال للقهرمانات، وها هى قهرمانتى دونيا رودريجيث لن تدعنى أقول شيئًا آخر.

قالت رودريجيث:

– لكن، لتقوليها سعادتك؛ إن الله يعلم حقيقة الجميع، وسواء كنا نحن القهرمانات طيبات أو شريرات، ملتحيات أو جرداوات، فنحن أيضًا أمنا ولدتنا مثل النساء الأخريات، من ثَم قذف الله بنا للعالم، وهو يعرف السبب، ولا أتكل إلا على رحمته، دون أية لحية لأى أحد.

قال دون كيخوتى:

– الآن، يا سيدة رودريجيث، ويا سيدة تريفالدى، ويا أيها الحضور، أنا أنتظر من السماء أن تنظر بعيون طيبة لهمومكن، وسانشو سوف يفعل ما آمره، وليأت

مفتاخشيف، ولو جاء مع مالامبرونو؛ فأنا أعلم أنه لا توجد شـفرة تحلـق لفخامتكن أفضل من سيفى عندما يحلق رأس مالامبرونو (قاطعًا لها)، فـالله يمهل الأشرار، لكن ليس يهملهم.

فى هذه اللحظة، قالت المقهورة:

- آى ! لتنظر بعيون راضية إلى فخامتكم، أيها الفارس الشجاع، كل نجوم كل مناطق السماء، وأن تنشر فى نفسكم كل ازدهار وشجاعة، حتى تصير درعًا ومأوى للجنس القهرمانى المهان والمضرور، والمظلوم من الصيادلة، والمشاع عنه السوء من الخدم، والمبتز من الوصفاء، وما أسوأ حال الخائبة التى لا تعد نفسها فى زهرة عمرها مبكرًا لتصير راهبة وليس قهرمانة، وما أتعسنا نحـن القهرمانات، فعلى الرغم من أننا نجيء عبر خط مستقيم، من ذكر إلى ذكر، إلى هكتور الطراودى نفسه(*)، فإن سيداتنا يخاطبننا بإلقاء (حـضرتكم) فى النـداء علينا، وبهذا يفكرن أنهن صرن ملكات(**). أوه، أيها المارد مالامبرونو، فـرغم أنك ساحر، فأنت شديد الإنجاز للوعود! أرسـل إلينـا الـذى لا نظـير لـه (مفتاخشيف) حتى تنتهى نكبتنا، لأنه إذا دخل علينا الحر بهذه اللحى فويل لنا!

تريفالدى قالت هذا بكل إحساس، فأسالت دموع كل الحضور حتـى دمـوع سانشو، وأوحت لقلبه أن يصحب سيده إلى آخر الدنيا، إذا أدى ذلك لنزع فروة هذه الوجوه الكريمة.

(*) تشير إلى أنهن (المهانات من الرجال) جئن من ظهر رجال أبًا عن أب!

(**) تعلى السيدة من شأن قهرمانتها فحسب ليعلو مقام تلك السيدة، لأنها سيدة القهرمانـة، فـإذا خوطبت هذه (بحضرتكم) يجب مخاطبة السيدة بمقام أسمى.

الفصل الحادى والأربعون

عن ضمادة مفتاخشيف (كلابيلينيو) مع نهاية هذه المغامرة المؤجلة

وخلال ذلك أقبل الليل، ومعه اللحظة الموعودة لوصول الجواد المشهور مفتاخشيف (كلابيلينيو)، والذى أرهق تأخره بالفعل دون كيخوتى، متصورًا أن مالامبرونو كان قد توقف عن إرساله، أو أنه بالفعل لم يكن الفارس الذى كانت تنتظره المغامرة، أو أن مالامبرونو لم يكن يجرؤ على خوض معركة فريدة معه. لكن ها أنتم ترون الدخول المفاجئ لأربعة متوحشين مرتدين جميعًا ثيابًا من فروع النباتات المتسلقة الخضراء، وعلى أكتافهم كانوا يحملون جوادًا كبيرًا من الخشب، وضعوه على أقدامه فوق الأرض.

وقال أحد المتوحشين:

– فليصعد فوق هذه الآلة من يجرؤ على ذلك.

قال سانشو:

– هنا أنا لا أصعد لأنى لا أجرؤ، وما أنا بالفارس.

وواصل المتوحش كلامه:

– ويشغل أفخاذ الجواد حامل الدروع، إذا كان للفارس حامل لدروعه، وثق فى مالامبرونو الشجاع، الذى لن تمس من أى سيف أو ضرر سوى سيفه، وليس

أكثر من إدارة المفتاح هذا الموجود فوق رقبته، ليحملكم فى الجو، حيث ينتظركم مالامبرونو، لكن لأن ارتفاع الطريق وفخامته قد تسبب لكم إغماءة، يجب تغطية عيونكم حتى يصهل الجواد، ليكون ذلك إشارة إلى نهاية الرحلة.

وعند قول هذا فى هيئة ظريفة قفلوا راجعين من حيث أتوا، والمقهورة عندما رأت الجواد، قالت لدون كيخوتى تقريبًا وهى دامعة:

– أيها الفارس الشجاع، لقد كانت وعود مالامبرونو أكيدة، والجواد عندنا، ولحانا تكبر وتنمو، وكل واحدة منا، مع كل شعرة منها، تتوسل إليك أن تحلقها لنا وتجزها، وليس لتحقيق ذلك أكثر من الصعود على الجواد مع خادمك، لإعطاء بداية سعيدة لرحلتكم الجديدة.

– هذا ما سأفعله أنا، أيتها السيدة الكونتيسة تريفالدى برضا كبير جدًّا ومزاج رائق، ودون البحث عن حشية، أو مهاميز، حتى لا تعطلنى، فما أكثر رغبتى، سيدتى، فى أن أراك وكل القهرمانات الأخريات بوجوه ناعمة ومقلمة.

قال سانشو:

– هذا لن أفعله أنا، لا بمزاج رائق ولا عكر، بأية حالة من الأحوال لا، وإذا كان حلق اللحى لن يحدث إلا إذا صعدت أنا على أفخاذ الجواد، من السهل أن يبحث سيدى عن خادم آخر يرافقه، ولتبحث السيدات عن طريقة أخرى لتنعيم الوجوه، فأنا لست مشعوذًا حتى ألذ بركوب الهواء. وماذا سوف يقول رعاياى عندما يعلمون أن حاكمهم يمضى متنزها فوق الرياح؟ وشيء آخر أكثر، كون المسافة من هنا إلى كاندايا تبلغ ثلاثة آلاف وبضع مئات من الفراسخ، يعنى أنه إذا تعب الحصان أو غضب المارد علينا قطع

طريق العودة فى نصف دستة من السنوات، وعندها لن تكون هناك ولاية أو (ولى) يعرفنى، وهم يقولون بشكل عام كل تأخيرة ومعهـــا عشـــرة خطـــيرة، وجاءت الحزينة تفرح فلم تجد مكانًا فى المفرح، ولتسامحنى لحى هذه السيدات، فإن بدرو بخير ما دام فى روما، أود القول بأنى بخير فى هذا البيت، حيث أتلقـــى كثيرًا من الإنعام، ومن صاحبه أنتظر إنعامًا أكبر بأن أرانى حاكمًا.

وعلى هذا علق الدوق:

- سانشو أيها الصديق، الولاية التى وعدتك بها ليست متنقلة أو هرَّابـــة، ولهـــا جذور عميقة، ضاربة فى هاوية فى الأرض، ولا يستطيع أحد خلعها أو نقلها من حيث توجد ولو لثلاث خطى، ومن ثَم، فأنت تعرف أننى أعرف أنـــه لا يوجد جنس من المهام تلك ذات الضخامة الكبرى دون أن تنتهى مع شىء من حصد محصول كثر أو قل، ولذا ما أوده من هذا الكلام هو أن تـــذهب مع سيدك دون كيخوتى لوضع نهاية لهذه المغامرة الهائلة، والآن إما أن تعودا على مفتاخشيف (كلابيلينيو) بأسرع ما يمكن لخفته أن تسمح، وإما علـــى العكس زائرين مكرمين من فندق إلى فندق ومن نزل إلى نزل عائدين علـــى الأقدام، ومهما كانت الطريقة فعند العودة ستجد ولايتك حيث تركتـــها، ورعـــايا ولايتك مع نفس الرغبة لاستقبـــالك حـــاكمًا لهم كانوا دائمًا فى انتظاره، وإرادتى ستكون هى نفسها، ولا شك فى هذه الحقيقة، يـــا ســـيد سانشو، لأن شكك يعد إهانة كبرى لرغبتى فى خدمتك.

قال سانشو:

- إننى خادم مسكين، ولا أستطيع تجاهل هذا التهذيب، فليصعد سيدى، ولتغطوا عينى هاتين، واستودعونى الله، ونبهونى عندما نطير فى تلك السموات حـــتى أتمكن من ترك نفسى بين يدى ربنا أو أدعو الملائكة لمناصرتى.

وعلى هذا أجاب تريفالدين:

- سانشو، يمكنك الاتكال على الله أو على من شئت، إلا أن مالامبرونو، مع أنه ساحر فهو مسيحى، ويقوم بسحره فى نباهة سديدة وحذر شـــديد، دون أن يتدخل فى شئون أحد.

قال سانشو:

- إذن فليساعدنى الله والثالوث المقدس.

قال دون كيخوتى:

- منذ المغامرة الهائلة لمطارق النسيج، لم أشهد فى سانشو مثل هذا الخوف العظيم الذى أشهده الآن، ولو كنت ممن يتشاءمون لأحدث جبنه بعض القشعريرة فى نفسى، لكن اقترب هنا سانشو، وبإذن هؤلاء السادة أريد أن أقول لـــك كلمتين على جانب.

ومبتعدًا مع سانشو بين بعض أشجار الحديقة، قال له ممسكًا بكلتا يديه:

- ها أنت ترى، سانشو أيها الشقيق، الرحلة الطويلة التى تنتظرنا، والله وحـــده يعلم متى نعود منها، وما وسائل الراحة والفضاء مما سيعطينا هـــذا الـــشأن، وهكذا أود أن تذهب إلى مخدعك الآن كما لو كنت تبحـــث عـــن شـــىء ضرورى للسفر، واجلد نفسك عددًا معقولاً من الجلدات من تلك الثلاثـــة آلاف وثلاثمئة جلدة التى التزمت بها، ولو حتى خمسمئة جلدة، فانتهاؤك من ذلك ينطبق عليه القول: "ابتداء العمل إنجاز لنصفه".

قال سانشو :

– بالله يا سيدى لا بد أنك تخلو من الصواب، وهذا مثل قولهم: "فى شـدة تـرانى، وتبغى فض عذريتى فى ثوانى". والآن علىَّ أن أجلس فوق لوح خشبى منـزلق، وتريد فخامتكم أن أمزق فخذى؟ فى حقيقة الحقيقة، لقـد جـانبكم الحـق، فلنذهب الآن لحلق لحى هؤلاء القهرمانات؛ وعند العودة أعدك، ووعدى فعل، أن أخرج من هذا الالتزام سريعًا جدًّا، حتى تكون راضيًا، ولا أقول أكثر.

وأجاب على هذا دون كيخوتى:

– إذن، بهذا الوعد، سانشو الطيب، أمضى متعزيًا، وأثق فى إنجازك، لأنه بالفعل رغم أنك عبيط ،أنت رجل " حقّانى"(*)، أبيض القلب.

– لست أبيض ولكننى أسمر، ومع أننى مولّد، فإننى سأنجز كلمتى.

وعند هذا عادا لصعود الجواد الخشبى، وعند الصعود قال دون كيخوتى:

– غطِّ عينيك، سانشو، واصعد، فمن يرسل فى طلبنا من بلاد بعيدة، لن يكـون لخداعنا، مع المجد التافه الذى يمكن أن يسير فى الآفاق بخداع من وثق فيـه؛ ولو افترضنا حدوث كل شىء على عكس ما أتصور، فإن مجد الـشروع فى هذه المأثرة لا يستطيع إطفاء نوره أى شر.

قال سانشو:

– هيا بنا، فإن لحى ودموع هؤلاء السيدات بقيت مزروعة فى قلبى، ولن آكـل لقمة حتى أعرف جيدًا أن قد عادت لوجـوهن نعومتـها الأولى، اصـعد

(*) فى النص يستعمل كلمة Veridico بمعنى حقانى،فاختلطت عنـد سانـشو بكلمـة Verde أى أخضر ، فقال" لست أخضر ولكننى أسمر، فاضطر المترجم إلى إضافة أبيض القلـب لحـل إشكالية لعب المؤلف بالكلمات.

فخامتكم، وغطِّ عينيك أولاً، فلو كان دورى أن أصعد فوق أفخاذ الجواد، على من يمتطيه فوق السرج الدور أولاً.

أجاب دون كيخوتى:

- هذه هى الحقيقة.

وأخرج من جيبه منديلاً، وطلب من المقهورة أن تغطى عينيه بأفضل ما يمكن، وبانتهاء تضميدهما عاد لكشفهما، وقال:

- إذا لم تخن الذاكرة، فإننى قد قرأت فى فيرجيل قصة بالاديون طروادة، وكان جوادًا من خشب قدمه الإغريق إلى الإلهة بالاس، وكان حاملاً فى بطنه فرسانًا، أصبحوا فيما بعد سبب الدمار الكامل لطروادة، من ثَم، فالخير أن أرى أولاً ما فى بطن مفتاخشيف.

قالت المقهورة:

- لا يوجد سبب لذلك، فأنا أثق وأعرف أن مالامبرونو لا يوجد عنده أى سوء نية أو خيانة، فاصعد، فخامتكم يا سيد دون كيخوتى، دون حمل أى هم، وإذا حدث شيء فسيكون ضدى أنا.

بدا لدون كيخوتى أن أى إجابة حول سلامته ليست إلا أن يلملم عزم شجاعته، وهكذا دون مزيد من التلكؤ، صعد على الجواد الخشبى، وتحسس المفتاح الذى كان يدور بسهولة، وحيث إن الجواد ليس له ركاب تعلقت رجلاه، ولم يظهر إلا مثل صورة على سجادة فلامنكو مرسومة أو مطرزة داخل مشهد انتصار رومانى. وفى هيئة سيئة، وشيئًا فشيئًا صعد سانشو، محاولاً إراحة بدنه فوق أفخاذ الجواد بفخذيه، فوجدها صلبة، وليس بها أى لين، فطلب من الدوق، لو أمكن أن

يحضروا له حشيّة أو مخدة، حتى لو كانت من صالون الدوقة أو من مخدع أى خادم، لأن الأفخاذ يبدو أنها من المرمر أكثر من كونها من الخشب. وعلى هذا علقت تريفالدى بأن مفتاخشيف لا يتحمل معاناة أى شيء غريب فوقه، وحتى لا يشعر سانشو بالصلابة عليه أن يركب بطريقة النساء، وهكذا فعل سانشو، قائلاً: "على بركة الله!"، تاركًا نفسه لهم يضمدون عينيه، وبعد ذلك عاد لفك الغطاء عنها ناظرًا إلى كل من كانوا فى الحديقة بعيون حنونة تبللها الدموع، قائلاً إن عليهم مساعدتهما بالصلوات التى أمر الله بها فى وقت الشدة.

وعلق على هذا دون كيخوتى، وقال:

– لص، هل أنت موضوع فى حبل المشنقة، أو فى حالة احتضار حتى تطلب هذه الصلوات؟ ألست أيها القاسى الجبان فى نفس المكان الذى شغلته ماجالونا، ومنه نزلت ملكة لفرنسا إن صدقت القصص؟ وأنا، من يمضى بجانبك، ألا أستطيع أن أضع نفسى فى مكان الشجاع بييرس، الذى وطأ نفس المكان الذى أطأ أنا الآن؟ غط عينيك، هيا، أيها الحيوان، كسير النفس، ولا يخرج ما بك من خوف على لسانك، على الأقل فى حضورى.

أجاب سانشو:

– غطوا عينى، مادمتم لا تريدون الصلاة من أجلى، أو أن أتكل على الله، فكم أخاف أن يمر من هنا أحد جنود محاكم التفتيش الشياطين.

غطيا عيونهما، وشعر دون كيخوتى أنه كان حيث يجب أن يكون، ولمس المفتاح، وبمجرد أن وضع أصابعه عليه، حتى رفعت كل القهرمانات والحضور أصواتهم، وقالوا:

– أرشد الله طريقك، أيها الفارس الشجاع!

– كان الله معك أيها الخادم الجسور!

– خلاص! خلاص ! ها أنتم فى الأجواء قاطعين لها فى سرعة خاطفة، أى سهم!

– خلاص! ها أنتم تبدأون فى إدهاش وإذهال، كل من ها هنا من الأرض ينظرون إليكم!

– تماسك، سانشو الشجاع، فإنك ترتعد، حاسب حتى لا تسقط؛ فستكون سقطتك أسوأ من سقطة الغلام الجسور الذى أراد أن يسيطر على عربة أبيه "الشمس" .

سمع سانشو الأصوات، ممسكًا بظهر سيده فى قوة، محزمًا له بذراعيه، وقال له:

– سيدى، كيف يقول هؤلاء إننا نحلق فى السماء بينما تدركنا أصواتهم، ولا يبدو إلا هم ها هنا يتكلمون بجوارنا؟

– لا تتوقف عند هذا، فكما أن هذه الأشياء وهذا الطيران يخرج عن مجرى المألوف، فإنك على مسافة ألف فرسخ سوف ترى وتسمع ما تشاء. ولا تضغط بذراعيك علىَّ كثيرًا، فإنك تكاد تهوى بى، لأننى فى الحقيقة، لا أدرى ماذا يعكر صفوك أو يفزعك، فأنا أجرؤ على القسم أنه فى كل أيام حياتى لم أصعد على مطية تسير أكثر راحة، حتى إنه يبدو أننا لا نتحرك من أى مكان. انف عنك، أيها الصديق، الخوف، فالحقيقة أن الأمر يمضى كما يجب أن يمضى، والرياح هى مؤخر سفينتنا.

أجاب سانشو:

– هذا حقيقي، فمن هذه الناحية أحس برياح فظة، كما لو كانت تهب علىَّ بألف منفاخ.

وهذا كان صحيحًا، فقد كان عدد من المنافيخ القوية تصب هواءها نحوه، لأن هذه المغامرة شديدة جودة الحيل والتفنين على يد الدوق والدوقة ومدبر القصر، فلم ينقصها شعرة دون الكمال.

وعندما أحس دون كيخوتى بهبوبها، قال:

– دون أدنى شك، سانشو لا بد أننا قد وصلنا إلى الإقليم الثانى للجو، الذى يتولد فيه التبرد والجليد والرعد والبرق، وتتولد الأشعة فى الإقليم الثالث، وإذا كنا بهذه الطريقة نستمر فى الصعود سريعًا سنصل إلى إقليم النار، ولا أدرى فى أى اتجاه أحرك هذا المفتاح حتى لا نصعد إلى حيث نحترق.

وخلال ذلك مع بعض نسالة القماش التى تشتعل وتخمد فوق غاب من بعيد، كانت تسخن وجهيهما، وأحس سانشو بالحرارة، وقال:

– لأمت إذا لم نكن فى قرية النار، أو لعلنا على مقربة منها، لأن شطرًا كبيرًا من لحيتى قد شاط، إننى، سيدى، على وشك كشف غطاء عينى لأرى فى أى مكان نحن.

أجاب دون كيخوتى:

– لا تفعل هذا، وتذكر جيدًا حكاية الجامعى تورالبا، الذى حملته الشياطين فى طيران بالجو، راكبًا على عود غاب مغطى العينين، وفى اثنتى عشرة ساعة

وصل إلى روما، وهبط فى برج نونا، وهو شارع بالمدينة، ورأى فشل بوربون وسطوه وموته، وفى اليوم التالى كان فى مدريد، حيث أبلغ عن كل ما رأى، وقال أيضًا إنه عندما كان فى الجو أمرته الشياطين بفتح عينيــه، وفتحهمــا، فرأى نفسه قريبًا جدًّا من جسم القمر حتى كان يمكنه أن يمسكه بيده حسب ما بدا له، لكنه رفض النظر إلى الأرض حتى لا يتلاشى. وهكذا، سانشو، لا يوجد سبب لكشف الغطاء، فالذى يحملنا سيدرى بأمورنا، ولعلنــا نتخــذ اتجاهات مختلفة تمهيدًا للهبوط، فصعودنا إلى أعلى علين كــى يــؤدى بنــا للسقوط فوق مملكة كاندايا كما تفعل صقور وبازى الصيد حين تنقض على الفريسة للإمساك بها، مع مبالغتها فى الصعود، ومع أنه يبدو لنا أننا لم نغادر الحديقة بأكثر من نصف ساعة، ثق فيما أقول من أننا لا بد وأن نكون قطعنا مسافة عظيمة من الطريق.

أجاب سانشو بانثا:

– لا أدرى ما هو الأمر، فقط أعرف القول إن السيدة ماجلانا أو ماجالونا، إذا كانت قد سعدت بركوب هذه الأفخاذ، فلأنها لم تكن ناعمة الجسم.

كل هذا الحديث للشجاعين الاثنين كان يسمعه الدوق والدوقة والحضور، مما بالغ فى سرورهم وطربهم، وقد أحبوا إعطاء نهاية لهذه المغامرة الغريبــة وجيــدة الصناعة، فأشعلوا ذيل مفتاخشيف(كلابيلينيو) بنسالة القماش المشتعلة، ولأن الجواد كان مليئًا بالصواريخ الراعدة، فقد طار فى الهواء مع ضجة غريبة، وألقى بــدون كيخوتى وسانشو بانثا إلى الأرض نصف شائطين.

فى نفس اللحظة اختفى من الحديقة كل القهرمانات الملتحيات، وتريفالـدى، وكل أهل البيت بقوا كما لو كان مغشيًا عليهم، ممددين على الأرض. دون كيخوتى وسانشو نهضا مضعضعين، ناظرين فى كل اتجاه مذهولين من رؤية أنفسهم فـى نفس الحديقة التى منها أقلعوا، ومن رؤية هذا العدد الكبير من الناس الممددين على الأرض، ونما عجبهما أكثر عندما وجدا فى جانب من الحديقة رمحًا كبير مغروسًا فى الأرض ومعلقًا به رقعة بخيوط من الحرير الأخضر. كانـت الرقعـة بيـضاء وناعمة وفيها بحروف كبيرة كان مكتوبًا ما يلى:

" الفارس المشهور دون كيخوتى دى لا مانشا أنهى مغامرة الكونتيـسة تريفالـدى، (والتى تحمل لقب هو "الكونتيسة المقهورة") ومرافقاتها، فقط بمحاولة القيام بها".

" مالامبرونو يعلن رضاه واقتناعه بكل إرادته، وقـد أصـبحت بالفعـل لحـى القهرمانات ناعمة ونقية من الشعر، والملكين كلابيخـو وأنتونوماسـيا فى صورتهما الأولى، وعندما تنجز عملية الجلد الخادميـة، ستـصبح الحمامـة البيضاء حرة من السحرة الذين يطاردونها، وبين ذراعى حبيبـها محتـضنة، وهذا بأمر معلم السحرة الحكيم ميرلين".

بعد أن قرأ دون كيخوتى المكتوب فى الرقعة بوضوح أدرك أنهم يتحـدثون عن فك سحر دولثينيا، وقدم الشكر للسماء بإنجاز هذا العمل الكبيـر بـذلك النـذر اليسير من الخطر، معيدًا البشرة الماضية لوجوه القهرمانات الجليلات، وأنهن قـد عدن إلى كانداليا، وهكذا ذهب إلى الدوق والدوقة اللذين لم يعودا إلى وعيهما بعـد، وهازًا الدوق من يده، قال:

- هيا، أيها السيد الطيب، كن قوى الروح عاليها، فالأمر لا شيء! المغامرة قد فرغنا منها دون إيقاع أذى بأحد، كما يكشف عن ذلك فى وضوح المكتوب والمعلق بذلك الرمح.

الدوق، شيئًا فشيئًا، وكمن يتذكر مستيقظًا من نوم ثقيل، مضى يعود إلى وعيه، وبنفس الطريقة أخذت تفيق الدوقة والباقون، وكل من كان ملقى بهم فى الحديقة، مع إبداء كل دلائل التعجب والفزع، وتقريبًا كانوا قادرين على إعطاء الانطباع أن قد وقع لهم بالفعل ما عرفوا أن يتقنوا تكلفه فى خدعتهم. قرأ الدوق الرقعة بعينين نصف مغمضتين، وفى الحال بأذرع مفتوحة، راح يحتضن دون كيخوتى قائلاً له إنه أطيب الفرسان الذين رأتهم كل الأزمان. سانشو مضى يبحث عن المقهورة حتى يرى أى وجه اكتسبت دون اللحية، إذا كانت بنفس الحسن الذى أوحت به هيئتها البديعة، لكن، قالوا له بمجرد أن هبط مفتاخشيف محترقًا فى الهواء، وسقط على الأرض، اختفت كل كتيبة القهرمانات مع تريفالدى، وكن بوجوه محلوقة خالية من الغاب.

سألت الدوقة سانشو، ماذا جرى معه فى تلك الرحلة الطويلة. أجاب:

- أنا، يا سيدتى، أحسست أننا مضينا طائرين، طبقًا لما قاله لى سيدى، وحلقنا فى إقليم النار، وأحببت أن أكشف قليلاً عينى، لكن سيدى الذى طلبت منه إذنًا بذلك، لم يوافق، لكن أنا وعندى شرارات من الفضول، ومن الرغبة فى معرفة ما يعترضنى ويعوقنى، بشكل جميل ودون أن يرانى أحد فى جانب الأنف أزحت المنديل بقدر ما كان يغطى تلك المنطقة، ومن هذه الزاوية نظرت نحو الأرض، وبدت لى أنها ليست أكبر من حبة خردل، والناس الذين

يسيرون من فوقها، أكبر بقليل من ثمار البندق، حتى تدركى كيف كنا ولا بد نحلق فى علو شاهق فى ذلك الحين.

وعلى هذا علقت الدوقة:

– سانشو أيها الصديق، تأمل فيما تقول، فحسبما يبدو أنك لم تر الأرض، وإنما فقط الناس الذين يمشون عليها، فبالطبع إذا ظهرت لك الأرض مثل حبة خردل، وكل إنسان بندقة، فإن إنسانًا واحدًا يجب أن يغطى كل الأرض.

أجاب سانشو:

– هذا حقيقى، ومع ذلك كشفت عينى من جانب، ورأيت الأرض كلها.

قالت الدوقة:

– انظر سانشو، من ينظر بجانب لا يرى جميع ما ينظر.

أجاب سانشو:

– أنا لا أعرف هذه النظرات، فقط أدرى أنه من الخير أن تدركى عظمتكم، أنه عند طيراننا طرنا بالسحر، وبالسحر يمكن لى رؤية كل الأرض، وكل البشر مهما كانت طريقة النظر إليهم، وإذا لم تعتقدى فى هذا، فإن عظمتكم لن تعتقدى أننى عند كشف جانب عينى بجانب الحواجب، رأيتنى شديد القرب من السماء، حتى لم يكن بينى وبينها شبر ونصف الشبر، وهذا ما يمكننى أن أقسم عليه، يا سيدتى، وقد كانت كبيرة جدًا بزيادة. وحدث أن كنا نسير فى جزء حيث توجد الماعز السبع للثريا، وبحق الله ونفسى، كما كنت فى طفولتى راعى ماعز، فإنى عند رؤيتها، اعترتنى الرغبة فى اللعب معها بعض

الوقت! وعندما لم أحقق ذلك بدا لى أننى سأنفجر. وهنا، لآخذ وأعطى معها؛ وماذا أفعل إذن؟ ودون أن أقول شيئًا لأحد ، أو لى، أو لسيدى، فى رشاقة وبطء ترجلت عن الجواد، ولعبت مع الماعز السبع الصغيرة، وهى مثل زهور الخيرى مع زهور أخرى، تقريبا أمضيت معها ثلاثة أرباع الساعة، وكلابيلينيو (مفتاخشيف) لم يتحرك من مكانه، ولم يستمر فى تقدمه.

قال الدوق:

– وخلال لعب السيد سانشو مع الماعز، مع من كان يلعب السيد دون كيخوتى؟

وعلى هذا أجاب دون كيخوتى:

– مثل كل تلك الأشياء والأحداث التى تخرق النظام الطبيعى، ليس بالكثير أن يقول سانشو ما يقول. وعنى، أعرف القول بأننى لم أكشف عينى لا فوق ولا تحت، ولم أر الأرض ولا السماء، ولا البحر ولا الرمال، لكن فى الحقيقة أحسست أننى كنت أمر فى إقليم الهواء، وحتى أحسست أننى كنت ألمس إقليم النار، ومع ذلك؛ كوننا مررنا هناك أمر لا أستطيع تصديقه، لأن إقليم النار بين سماء القمر وآخر أقاليم الهواء، وماكنا نستطيع أن نصل إلى السماء حيث توجد الماعز السبع، دون أن نحترق، ولأننا لم نحترق، فإما إن سانشو يكذب، أو أنه يحلم.

أجاب سانشو:

– لم أكذب ولم أحلم، وإذا لم تصدقوا اسألونى عن علامات وأمارات تلك الماعز، وبها تعرفون أننى أقول الحق أو غيره.

قال الدوق:

– **قلها، إذن، سانشو.**

أجاب سانشو:

– **اثنتان خضراوان، واثنتان محمرتان، واثنتان زرقاوان، وواحدة من ألوان مختلطة.**

قال الدوق:

– **كينونة جديدة للماعز تلك، وفى إقليمنا هذا للأرض لا تعتاد تلك الألــوان، قصدى أنه لا توجد ماعز بهذه الألوان.**

قال سانشو:

– **هذا واضح وجلى، فلابد من فرق بين ماعز السماء وماعز الأرض.**

سأل الدوق:

– **قل لى سانشو، هل رأيت هناك بين تلك الماعز جديًا؟**

أجاب سانشو:

– **لا يا سيدى، لكن سمعت أن لا يسمح لأى جدى بتجاوز قرون القمر.**

لم يحبوا سؤاله أكثر عن رحلته، لأنه ظهر لهم أن سانشو يحمل خيط نزهــات فى كل السماء، والإخبار عما يحدث هناك، دون أن يكون قد تحرك من الحديقة.

وباختصار، تلك كانت نهاية مغامرة القهرمانة المقهــورة، التــى أضــحكت الدوق والدوقة، ليس فقط فى ذلك الوقت، بل فى كل أوقــات الحيــاة، وجعلتهمــا يحكيان عن سانشو دهورًا لو استمرت بهما الحياة.

وباقتراب دون كيخوتى من مسامع سانشو قال له:

- سانشو، إن أردت، سانشو، أن أعتقد فيما رأيت فى السماء، عليك بالاعتقاد فيما رأيته فى كهف مونتيسينوس، ولن أنطق بكلمة أكثر.

الفصل الثانى والأربعون

عن نصائح دون كيخوتى لسانشو قبل ذهابه لحكم الولاية، مع أشياء أخرى ذات اعتبار كبير

مع الحديث السعيد والظريف لمغامرة المقهورة أصبح الدوق والدوقة فى غاية الطرب والسرور، حتى إنهما قررا دفع الخدع والحيل إلى الأمام، ناظرين فى الموضوع المستقر الذى طرحاه كى يتحول إلى حقيقة، وهكذا، مصدرين الأوامر وخطط التآمر إلى خدمهم وأتباعهم الذين كان عليهم تنفيذها مع سانشو فى الحكومة لتلك الولاية الموعودة، ففى اليوم الذى تلا طيران مفتاخشيف، قال الدوق لسانشو إن يعدل هيئته ويتزين للذهاب ليصير حاكمًا، فإن رعاياه فى انتظاره مثل انتظارهم لأمطار مايو. انحنى أمامه سانشو، وقال له:

– بعد هبوطى من السماء، ومنذ أن رأيت من ذراها العالية الأرض، وكانت جدَّ صغيرة، خفت فى زاوية من نفسى عندى الرغبة التى كانت عظيمة لأن أكون حاكمًا، لأنه، أى عظمة فى حكم حبة خردل، وأى جدارة أو إمبراطورية حكم نصف دستة من الرجال فى حجم البندق، وإنه، حسب ما ظهر لى، لم يكن على ظهر الدنيا رجال أكثر عددًا من ذلك؟ وإذا سعادتكم، وهبتنى شريحة صغيرة من السماء، حتى لو كانت نصف فرسخ، لكانت عندى وبكل الرغبة أفضل من أكبر ولاية فى الدنيا.

قال الدوق:

– انظر، سانشو الصديق، أنا لا أستطيع إعطاء أية شريحة من السماء لأحد، حتى لو كانت أصغر من الظفر؛ فهذه الإنعامات مقصورة فحسب على الله. ما

أستطيع إعطاؤه أعطيه لك، وهى ولاية بقضها وقضيضها، ومستديرة، وذات أبعاد متناسبة، وخصبة جدًا ومزدهرة، وإذا عرفت إدارتها بحذق، استطعت بثروات الأرض كسب ثروات السماء.

أجاب سانشو:

– هذا ممتاز، فلتكن تلك الولاية، وسوف أناضل لأكون ذاك الحاكم، الذى يصعد للسماء على الرغم من الأشرار، وهذا ليس لطمع فى أن أخرج عن حجمى أو أتغطرس على أحد، وإنما الرغبة التى تملكنى كى أختبر طعم أن يكون الإنسان حاكمًا.

قال الدوق:

– إذا ذقته، سوف تمصمص إصبعك وراء الحكومة، لكون الأمر والنهى وأن تكون مطاعًا من الأمور الأكثر لذة وحلاوة. ومن المؤكد أن سيدك عندما يصير إمبراطورًا، وسوف يصير دون شك طبقًا لسير أموره، لن يخلعوه كيفما كان، وسوف يؤلمه ويثقل عليه الوقت الذى قضاه هاجرًا لأن يكون إمبراطورًا.

أجاب سانشو:

– سيدى، إننى أتخيل أنه من اللذيذ الأمر والنهى حتى لو كان على حظيرة لقطيع من المواشى.

قال الدوق:

– وافق شن طبقه، فأنت سانشو تعرف الكثير، وأتوقع أن تكون ذلك الحاكم الذى فى قامة ما تعد به حكمتك، ولنقف عند ذلك، واعلم أن غدًا، فى نفس

ذلك اليوم عليك الذهاب إلى حكومة الولاية، وفى نفس هذا المساء سيعدون على مقاسك البدلة المناسبة التى ينبغى ارتداؤها، وكل الأشياء الضرورية لرحيلك.

قال سانشو:

- فلتلبسونى ما شئتم، فمهما اختلف لباسى، سأكون سانشو بانثا.

قال الدوق:

- هذا حق، لكن الحلل لابد أن تتناسب مع المهنة أو جدارة ما تمارس من عمل، فلن يكون طيبًا أن يرتدى القاضى ثياب الجندى أو يرتدى الجندى ثياب القسيس. أنت، سانشو، ستذهب مرتديًا ثيابًا نصفها ثياب أديب والنصف الآخر ثياب قبطان، لأنه فى الولاية التى أعطيها لكم الأسلحة والأدب ضروريان على حد سواء.

أجاب سانشو:

- عندى القليل من الأدب لأننى لا أعرف الأبجدية، لكن لدى علم بالصلاة فى الذاكرة، مما يؤهلنى لأكون حاكمًا صالحًا، أما الأسلحة فإنى أجيد ما يعطونه لى، حتى أسقط، والله على ما أقول شهيد.

قال الدوق:

- بهذه الذاكرة الطيبة، لا يمكن أن يخطئ سانشو فى شىء.

خلال هذا وصل دون كيخوتى، وعند علمه بما يجرى، والسرعة التى على سانشو أن يرحل بها إلى حكومته، بعد إذن الدوق، أخذه من يده، وذهب به إلى مقره،

مع نية نصحه عما لا بد أن يجد في مهنته. وعند دخولهما في مخدعه، أغلق خلفه الباب، وأجبر سانشو تقريبا بالقوة على الجلوس إلى جواره، وبصوت وقور قال له:

– ثناء لا يحصى أرفعه للسماء، سانشو أيها الصديق، عن أولاً وقبل كل شيء، أن عثرتُ على سعد كبير، من أن الحظ الطيب قد خرج لك للقائه واستقباله. أنا، لحسن حظى، تحررت من دفع خدماتك، فأرانى فى بدايات التسامى الذاتى، وأنت، فى وقت مبكر، ضد قانون مجرى الأحداث المعقول، أرى رغباتك قد نالت جائزتها. آخرون يعملون، ويصارعون، ويلحون، ويبكون، ويتوسلون، ولا يبلغون ما يريدون، ويصل آخر، ودون أن يدرى، يجد نفسه فى المنصب والمهنة التى يسعى إليها آخرون كثيرون؛ وهنا يدخل ويتلاءم القول جيدًا بأنه يوجد الحظ الطيب والحظ السيئ فى مساعى نيل الآمال. أنت، بالنسبة لى، دون شك، بليد لا تبكر ولا تسهر ولا تمارس أى مساع، فقط مع التشجيع الذى أعطته لك الفروسية المشّاءة، لا أكثر أو أقل، تجد نفسك حاكمًا لولاية، كلام مثل الهذيان. كل هذا أقول، أوه سانشو! حتى لا تنسب إلى جدارتك الإنعام الذى تلقيته، وإنما تحمد الله عليه، فهو الذى يدبر الأشياء فى خفاء، ثم تحمد الفروسية المشّاءة. فإذا كان قلبك مهيئًا للاعتقاد فيما قلته لك، أوه يا ولدى! فكن متيقظًا إلى نصائح كاتون(*)، الذى يرغب فى نصحك، وانتشالك إلى مرسى آمن فى هذا البحر الهائج، حيث تمضى لشق غماره، فإن المهن والمناصب العظيمة ليست شيئًا آخر إلا خليجًا عميقًا من الحيرة.

(*) مؤلف كتاب عن نصائح أخلاقية لحاملى الدروع. وكاتون هنا يقصد به دون كيخوتى شخصه هو لا شخص مؤلف الكتاب.

- أولاً، يا ولدى، عليك بمخافة الله، ففيها الحكمة، وأن تصير حكيمًا لن تستطيع أن تخطئ فى شىء.

- وثانيًا، عليك أن تضع عينيك فيمن تكون أنت، محاولاً أن تعرف نفسك، وذلك أصعب معرفة يمكن تخيلها. بمعرفة نفسك ستكسب ألا تنتفخ وتتورم مثل الضفدع التى أرادت أن تتساوى مع الثور (فظلت تنتفخ إلى أن انفجرت) وإذا فعلت هذا سترى قبح قدميك، (مثل الديك الرومى عندما يرى قبح قدميه ناشرًا دائرة ذيله)، فى دائرة جنونك باعتبار أنك ربيت خنازير فى أرضك.

أجاب سانشو:

- هذا حق، لكن هذا عندما كنت صبيًّا؛ و بعد ذلك، شابًّا، لم تكن فى أرضى خنازير، وإنما أوز. لكن هذا يبدو لى خارجًا عن الموضوع، فإن كل من يحكمون لا يأتون من سلالة ملكية.

علق دون كيخوتى:

- هذا حق؛ ولهذا من لا يحملون أصولاً نبيلة، عليهم مصاحبة جدية المنصب الذى يمارسونه مع نعومة لينة، والتى تقودها الفطنة، وهذا يحررهم من الهمس الخبيث، ممن يعوم على البر.

- احتفل سانشو بتواضع نسبك، ولا تقلل من شأنك قائلاً إنك من نسل فلاحين، لأنك إن لم تكرم نفسك، لن يكرمها لك أحد، وارفع نفسك بأن تكون متواضعًا فاضلاً أكثر من أن تكون متغطرسًا آثمًا. لاحصر لهم أولئك الذين صعدوا من أصل متواضع إلى أعلى درجة بابوية أو إمبراطورية، ولهذه الحقيقة يمكن طرح أمثلة قد ترهقك من كثرتها.

– وانظر، سانشو، إذا أخذت بالفضيلة سترفع من شأنك لأعمالك الفاضلة، ولا يوجد سبب لحسد الأمراء والنبلاء، لأن الدم يورث، أما الفضيلة فتكتسب، وهى قيمة فى نفسها، والدم لا.

ولكون ذلك كذلك، وهو هكذا بالفعل، فإذا جاءك لرؤيتك متى أنت فى ولايتك، أحد أقاربك، فلا تطرده ولا تسئ إليه، إنما على العكس، عليك أن ترحب به وتطعمه وتلاطفه؛ بهذا سترضى السماء، التى يسرها ألا يهان أحد خلقته، وستتجاوب بهذا مع ما تدين به إلى الطبيعة الطيبة.

وإذا أحضرت زوجتك معك (لأنه ليس صالحا لمن يبقون فى الحكومة وقتًا طويلاً أن يظلوا دون نسائهم الشرعيات)، فعلمها ولقنها، وأخرجها من خشونتها الطبيعية؛ لأن كل ما اعتاد أن يكتسبه حاكم فطن تعتاد على إضاعته وإراقته زوجة خشنة وبلهاء.

وإذا حدث أن ترملت (أمر ممكن الحدوث)، ومع المنصب عليك تحسين الصنف، لا تأخذها لتساعدك باعتبارها طعمًا وسنارة للصيد، ولا ترفض الرشوة نظير قبولها هى لها، فزوجة القاضى يحاسب زوجها على ما استقبلت من هدايا عند عزله، ومن يحكم يضاعف ذنبه بعد الموت أربع مرات أكثر ممن لم يحكم فى حياته.

ولا يقودك التعسف، مما اعتاد عليه الجهلاء الذين يدعون الذكاء. ولتجد دموع الفقراء عندك الشفقة، لكن ليس أكثر من أدلة الغنى، عند تطبيق العدالة. حاول كشف الحق بين الوعود والهدايا من الغنى مثلما بين النحيب واللجاجة من الفقير.

عندما يمكن وينبغي الإنصاف، لا تنفذ كل صرامة القانون على المجرم، فإن سمعة القاضى الصارم ليست أفضل من سمعة القاضى الشفوق. عندما تنعطف عن معيار العدالة، لا يكون لوزن المجاملة، وإنما لوزن الرحمة.

عندما تحكم في دعوى لبعض أعدائك، جنّب دعاوى غـضبك، واغـضب للحق. لا يعميك الانفعال الشخصي في قضية تمس الآخر، لأن الجروح التي تسببها، في معظم الأحوال تبقى بلا علاج، وإذا وجدت العلاج سـيكون علـى حـساب مصداقيتك، وحتى على حساب جيبك.

وإذا جاءتك امرأة حسناء لطلب العدالة، أبعد عينيك عن دموعها، ومسامعك عن أنَّاتها، وتأمل في روية جوهر ما تطلبه منك، إذا أردت ألا تنكـر عقلـك أمـام بكائها، وفضلك أمام تنهداتها.

الذي عليك عقابه بأفعال، لا تسئ معاملته بالكلمات، لأنه يكفـي التعـيس عقوبة البدن، دون إضافة العبارات القبيحة.

اعتبر، المدان الذي يقع تحت أحكـامك، إنسانًا مسكينًا واعتـبره محكومًـا بشروط طبيعتنا الفاسدة، وفي كل ما يصدر من طرفك لا تسئ إليه، وعلى العكـس أظهر له أنك رجل بر ورحمة؛ لأنه مع تساوي صفات الله وأسمائه، فإن اسم الـرحمن في نظرنا يشرق ويفوز على الاسم العادل.

إذا اتبعت هذه المبادئ والقواعد، سانشو، ستطول أيامك، وستصير شهرتك خالدة، وجوائزك الذروة، وسعادتك لا توصف، وزوج أبناءك كما تحب، وسـوف ينالون ألقابًا هم وأحفادهم، وسوف تعيش بسلام الناس ورضاهم، وفي آخر خطوات الحياة سوف تدرك خطوة الموت في شيخوختك الناعمة الناضجة، وسـوف يغلـق عينيك عندها الأيدي الحانية والرهيفة لثالث جيل من أحفادك. ومـا قلتـه لـك حتى الآن وثائق عليها أن تزين نفسك، واسمع الآن للوثائق التي سوف تـصير لـك زينة لجسمك.

الفصل الثالث والأربعون
حول النصائح الثانية التى قدمها دون كيخوتى لسانشو بانثا

من يسمع عبارات دون كيخوتى ولا يرى فيه شخصًا عاقلاً جـدًا، وطيـب المقاصد؟ لكن كما فى مرات كثيرة خلال تقدم هذه القصة، كما قيل، فقـط يقـول ترهات فيما يتعلق بالفروسية المشاءة؛ وفى كل الخطابات الأخرى كان يظهر تعقلاً طلقًا وواضحًا، حتى إنه فى كل خطوة يُفقد عملُه عقلَه المصداقية، ويُفقد عقلُه عملَه المصداقية، لكن فى هذا، تلك الوثائق الثانية التى أعطاها لسانشو أثبتـت ملاحتـه الكبيرة، ووضعت عقله وجنونه فى نقطة واحدة فى الذروة. كان سانشو فى منتهى الانتباه ينصت له، محاولاً حفظ نصائحه فى الذاكرة، مثل من يفكـر فـى حفظهـا والخروج بفضلها بولادة سهلة لحمل حكومته. إذن، واصل دون كيخوتى، وقال:

- فيما يتعلق بحكم نفسك وبيتك، سـانشو، أول ما أوصيك بـه أن تكـون نظيفًا، وأن تقص أظافرك، ولا تتركها تنمو، كما يفعل البعض، ومن وفقـه جهله إلى تصور أن الأظافر الطويلة تجمل اليدين، كما لو كان هذا الملحـق والإضافة الذى يَدَعُون قصَّه مجرد ظفر، بينما هـو مخلـب صـقر يـصيد السحالى: هو قذارة وشطط مبالغ.

- لا تمض سانشو بغير حزام ومتخاذل، فإن الثوب المضطرب إشـارة لـروح ضعيفة، والترهل والضعف لا يقعان تحت النجدة، كما حكم علـى حـال يوليوس قيصر.

- جُسّ بفطنة نبض من يمكنه أن يقيم مهنتك، وإذا عانيت إعطاء صدقة لباس لخدمك، فأعطها دون مَن أو أذى، أكثر من إعطائها فى تظاهر وخيلاء، وقسمها بين خدمك والفقراء، أود القول إذا كان عليك تقديم ملابس لستة خدامين، فألبس ثلاثة منهم فقط مع ثلاثة فقراء، وهكذا سيكون عندك خدم من أجل السماء وخدم من أجل الأرض، وهذه الطريقة للتصدق باللباس لا يدركها المغرورون.

- لا تأكل الثوم أو البصل، حتى لا يتقزز من الرائحة أتباعك. تحرك ببطء، بوقار، لكن ليس بالطريقة التى تبدو بها منصتًا لنفسك، فرد فعل ذلك كله سيئ. كل قليلاً، وتعشَّ أقل، فإن صحة كل الجسم تنصهر فى جوف المعدة. وكن معتدلاً فى الشرب، معتبرًا أن زيادة النبيذ لا تحفظ سرًا، ولا تنجز وعدًا. وحاسب، سانشو، ألا تمضغ محدثًا صوتًا أمام أحد أو تجشؤًا.

قال سانشو:

- هذا التجشؤ لا أفهمه.

- يأتى من الفعل تجشأ أى (تنحنح)، وهو استعمال فصيح قليل الورود على الألسنة لكنه فى الطريق إلى الشيوع.

قال سانشو:

- فى الحقيقة يا سيدى، فإن إحدى النصائح والتحذيرات التى أفكر فى حملها بذاكرتى هى نصيحة (ألا أتنحنح) لأننى تعودت على التنحنح كثيرًا.

قال دون كيخوتى:

- أتجشأ سانشو، وليس (أتنحنح)، (فهذه لا تليق بحاكم).

قال سانشو:

- من الآن فصاعدًا سأقول (أتجشأ)، وأقسم ألا أنسى.

- أيضًا، سانشو، لا ينبغى أن تخلط بكلامك تلك المظاهرة من الأمثال كما هى عادتك، ورغم أن الأمثال أحكام مختصرة، فإنك فى أحيان كثيرة تأتى بها خارجة عن الموضوع، حتى تظهر أنها ترهات أكثر منها أحكام.

أجاب سانشو:

- هذا الله يستطيع معالجته، لأننى أعرف أمثالاً أكثر من كتاب، وتنثال فى جمهرة معًا من فمى عندما أتكلم، حتى إنها تتشاجر معًا للخروج، لكن اللسان يمضى ملقيًا بأول ما يقابله منها، وإن لم يناسب موضوع الحديث. وسوف أعمل حسابى من الآن فصاعدًا على قول الأمثال التى تناسب فداحة منصبى؛ ففى البيت العامر، سريعًا يطبخ عشاء وافر، ومن يقطع الورق لا يفنطه، ومن يقرع الجرس ينجو، والأخذ والعطاء يحتاج لعقل فى ذكاء.

قال دون كيخوتى:

- هذا نعم، سانشو، صل والضم واغزل الأمثال، ولن يعترضك أحد، تعاقبنى أمى، وأنا أخدعها. ما أقوله لك أبعد عن الأمثال، وفى لحظة ألقيت سلسلة منها تتضاد مع الموضوع الذى نعالجه، مثل تواجه تلال أوبيدا. انظر سانشو، لا أقول لك إن مثلاً يناسب الغرض هو شىء سيئ، لكن تحميل أمثال وعقدها خبط عشواء، يجعل الحوار متلاشيًا ومنحطًا.

وعندما تمتطى حصانًا، لا تلقى بجسمك على مؤخرته، ولا تجعل الرجلين متفرشحتين ومندفعتين فى انحراف عن بطن الجواد، وأيضًا لا تفعل ذلك فى وهن، كما لو كنت تمتطى الحمار، فإن السير راكبًا يصنع الفرسان عند البعض، وصبيان الحظيرة عند البعض الآخر.

وليكن نومك معتدلاً، فمن لا يبكر مع الشمس لا يتمتع بيومه، واعلم، أوه سانشو! بأن الاجتهاد أب للحظ السعيد، والكسل عكسه، ولم يصل به لغايته قط من يطمح إلى أمل عريض.

آخر نصيحة أود إعطاءها لك الآن، رغم أنها لا تصلح زينة للبدن، وأود أن تحفظها جيدًا فى ذاكرتك، وأظن أنها لن تقل فائدة عما قلته لك حتى الآن، لا تجلس قط لتجادل فى أنساب، على الأقل، مقارنًا لها مع بعضها، حيث سيكون بين المقارنات نسب أفضل، فإن ناهضته خسرت، وإن رفعت من شأنه لن تنال أى جائزة.

ثيابك حذاء كامل، وثوب طويل، ومعطف أطول من المعتاد قليلاً، وسراويل متسعة، غير ذلك لن تكون مقبولة للفارس أو للحاكم.

والآن هذا ما عرض لى، سانشو، أن أنصحك به، سيسير الوقت، وطبقًا للمناسبات، هكذا ستعمل بوثائقى هذه، واحرص على أن تبلغنى بالحال التى أنت عليها.

أجاب سانشو:

– سيدى، أرى جيدًا أن كل الأشياء التى ذكرتها لى أشياء طيبة، ومقدسة، وصالحة لصالحى، لكن، بِمَ تفيد إذا كنت لن أتذكر أى واحدة منها؟ حقيقة، تلك الخاصة بترك أظافرى تنمو، وبزواجى مرة أخرى، إذا أمكن، لن تذهب

عن خيالى، لكن تلك الأخرى المختلفة والمتشابكة والمتداخلة، لا أتـذكرها ولن أتذكرها بعد الآن أكثر من تذكر سحب العام السابق، من ثَـم، مـن الضرورى إعطاؤها لى مكتوبة، فعلى الرغم من أنـنى لا أعـرف القـراءة والكتابة، سوف أعطيها للقسيس الذى أعترف أمامه حتى يتلوهـا علـىَّ، ويعيد إليها أهليتها، كلما كان ضروريًا.

أجاب دون كيخوتى:

- آه، ويلى، كم يبدو سيئًا بين الحكام حاكم لا يعرف القراءة والكتابة! لأنه عليك أن تعرف، سانشو، أن رجلاً لا يعرف القراءة أو أن يكون أصمَّ يتضمن أمرين: إما كان ابنا لآباء متواضعين للغاية ومنحطين، وإما كان شقيًّا وشريرًا، حـتى لم تتمكن من الدخول إلى عقله العادة الطيبة للعلم المفيد، إنه نقص كـبير ذلـك الذى تحمله بين جنبيك، وهكذا أود حتى لو تعرف أن توقع.

أجاب سانشو:

- أعرف جيدًا توقيع اسمى، فعندما كنت كبير أخوتى فى قريتى تعلمـت عمـل بعض الحروف علامة للحملان، وقد كانوا يقولون لى إن هذه الحروف تقول اسمى، وبصفة خاصة عندما أدعى أن يدى اليمنى عاجزة، وأجعل آخر يوقع لى، وكل شىء له علاج إلا الموت، وعندما أمسك بالأمر والصولجان سوف أفعل ما أريد، وبصفة خاصة من كان العمدة أبًا له... (لا يجانبه الصواب)، وأن أصير حاكمًا ذلك أعلى من العمدة "وتفضل، وسيجعلونك تراهًا(*)!". يحقرون من شأنى ويحقروننى، فليأتوا بفروهم، وسوف يعودون مجزوزين، ومن

(*) مثل آخر عندما يتقدم شخص مهم لخطبة إحدى البنات.

أراد الله له نعمة، فإنه يعرف أين يجده، وسفاهات الغنى تمر فى العالم كروائع، وأن أكون غنيًا، بأن أكون حاكمًا وكريمًا معًا، كما أفكر أن أكون، لن ينقص أحد أن ينتقدنى. واجعل من نفسك عسلاً، سوف تنغمس فيه الذبابات، وأنت تساوى بقدر ما تملك، هكذا كانت تقول إحدى جداتى، ولن ترى سببًا للثأر، من رجل وطيد الجذر.

وهنا قال دون كيخوتى:

- أوه، حلّت عليك لعنة الله، سانشو! ليذهب بك وبأمثالك ستون ألف شيطان! فمنذ ساعة، وها أنت تنظمها فى عقد، معطيًا لى مع كل مثل جرعات تعذيب. وأنا أؤكد لك أن أمثالك هذه سوف تحملك يومًا إلى المشنقة، وبسببها على معاونيك أن يعزلوك من الحكومة، أو أن يشيع بينهم التمرد. قل لى، أين تجدها، أيها الجاهل، أو كيف تطبقها أيها المخبول، فأنا حتى، أقول مثلاً وأحسن تطبيقه، فإنى أعرق وأجهد كما لو كنت أعزق الأرض.

- بحق الله أيها السيد سيدنا، إن فخامتكم تغضبون لأشياء قليلة الأهمية، بأى شيطان يغضبون، أن تخدمنى ثروتى التى لا أملك غيرها، أو ليس لدى سيولة دونها، وهى أمثال، وأمثال أكثر؟ والآن يخطر على بالى أربعة، تناسب المقام تمامًا، أو مثل كمثرى فى سلة، لكن لن أقولها، لأنهم يطلقون على سانشو الحسن السكوت.

- لست أنت سانشو ذلك الرجل؛ لأنك لست حسن السكوت، وفوق ذلك أنت سيئ الكلام، وسيئ العناد، ومع كل هذا أحب أن أعرف أى أربعة أمثال تلك، التى ترد على ذاكرتك الآن، وتناسب المقام؟ فها أنا أمضى مفتشًا عن أمثالى، والتى هى جيدة، لكن لا يقع لى واحد.

قال سانشو:

- أى أمثال أفضل من "بين ضرسى العقل لا تضع إبهامك كالنُّقل".، و"اخرج من بيتى، ماذا تريد من امرأتى، لا ردَّ يأتى"، و"إذا ضربت الحجارة الحصى أو الحصى الحجارة، فللحصى فى الحالتين الخسارة".

وكلها تناسب المقام؟ فلا أحد يصطدم مع حاكمه أو مع من يتأمر عليه؛ لأنه سيخرج جريحًا، كمن يضع إصبعه بين ضرسى العقل، مع كونها ليست عاقلة بقدر ما هى أضراس، لا يهم، ولا راد لكلمة الحاكم مثل قولنا اخرج من بيتى، ماذا تريد من امرأتى. وأما مثل الحجر والحصوة فإن الأعمى يرى معناه. هكذا، من الضرورى على من يرى القذى فى عين غيره، يرى "الطوبة" فى عينه، حتى لا يقال له: "فزعت الميتة من مقطوعة الرأس"؛ وفخامتكم تعرف، أن الأبله يعرف عن بيته ما لا يعرفه الذكى عن بيت غيره.

أجاب دون كيخوتى:

- سانشو، هذا لا؛ لأن الأبله لا يعرف شيئًا عن بيته أو بيت غيره، بسبب أنه على أساس من البلاهة لا يستقر أى مبنى للنباهة. ولنترك هذا عند ذلك، سانشو، إذا أخطأت فى الحكم ستحمل ذنب ذلك، وسأحمل أنا خزيه، ويعزينى أننى فعلت ما يجب علىَّ من نصحك بالمعايير ومواضع الفطنة كما أمكننى، وبهذا أكون قد أديت واجبى وأنجزت وعدى. هداك الله، سانشو، وعاونك فى حكم حكومتك، وبالنسبة لى أخرجنى من الشك الذى بقى عندى، وهو أنك لا بد أن تقلب الولاية رأسًا على عقب، الأمر الذى

أستطيع أن أتجنبه بأن أكشف للدوق من أنت، قائلاً له إن كل هذه السمنة والشخصية التى تتسم بها ليست إلا كيسًا مليئًا بالأمثال والخبث.

أجاب سانشو:

- سيدى، إذا بدا لفخامتكم أننى غير صالح لهذه الحكومة، منذ هذه اللحظة أتنازل عنها، وأنا أحب ذرة من ظفر نفسى أكثر من كل جسمى، وهكذا سوف أقيم أود سانشو(حاف) بالخبز والبصل تمامًا مثلما أقيم أود سانشو (الحاكم) بطيور البرديس والديوك، وأكثر من ذلك خلال النوم يتساوى الجميع، الكبار والصغار، والفقراء والأغنياء، وإذا تأملت فخامتكم الأمر، لوجدت أن فخامتكم هو الذى وضعنى فى أمر الحكم هذا، وأنا لا أعرف شيئًا عن حكم ولاية أكثر من نسر فى الهواء، وإذا تصور أحد أن تحولى لحاكم سوف يجعل الشيطان يحملنى، فإنى أحب أكثر أن أصعد سانشو إلى السماء من حاكم فى النار.

قال دون كيخوتى:

- بحق الله، سانشو، فقط من أجل هذه العبارات الأخيرة التى قلتها، أنا أحكم أنك تستحق أن تصير حاكمًا لألف ولاية؛ فأنت لك طبع طيب، وبدونه لا يساوى العلم شيئًا. توكل على الله، وحاول ألا تفلت منك البديهة الأولى أو تخطئ فيها، أريد القول إن عليك دائمًا، أن يكون لديك هدف صارم ومحاولة فى كل الشئون التى تعرض لك، لأن السماء دائمًا تناصر النوايا الطيبة، وهيا بنا لتناول الطعام، لأنى أظن أن هؤلاء السادة فى انتظارنا.

الفصل الرابع والأربعون
كيف تم حمل سانشو بانثا إلى الحكومة، والمغامرة الغريبة التى وقعت لدون كيخوتى فى القلعة

يقولون إنه فى النسخة الأصلية من هذه القصة، قرئ أن سيدى حامدى عند كتابة هذا الفصل، لم يترجمه مترجمه مثلما كتبه هذا المؤلف الأصلى، فالمترجم العربى أحس بأنه يشكو من نفسه لنفسه أن وضع بين يديه قصة جافة ومحدودة مثل قصة دون كيخوتى هذه، لما بدا له أنه دائمًا لا بد من الحديث عن دون كيخوتى وعن سانشو، دون التجرؤ على التوسع باستطرادات وفصول أخرى أكثر جدية وتسلية. وكان يقول إن المضى دائمًا مقيد الفهم واليد والقلم للكتابة عن موضوع واحد، والكلام على لسان أشخاص قليلة العدد، هو عمل لا يحتمل، وثمرته لن ترفع من شأن مؤلفه، ومن ثَم، فللهرب من هذه العثرة استخدم فى القسم الأول حيلة إدخال بعض الروايات مثل رواية الفضولى الصفيق أو القبطان الأسير، وهما كما لو كانا منفصلين عن القصة، رغم أن غير ذلك مما يحكى هناك هى أمور وقعت لنفس دون كيخوتى لم يمكن ترك كتابتها عند الترجمة. أيضًا فكر كما يقول هو، أن كثيرًا ممن لفتت القصة انتباههم ويطلبون مآثر دون كيخوتى لم يهتموا بتلك الروايات الدخيلة، ويمرون عليها سريعًا مرور الكرام أو مرور الغاضبين منها، دون الوقوف على الفخامة والصنعة التى يضمها مضمونها، وهو ما سوف يبدو على المكشوف، عندما تخرج إلى النور وحدها بقيمتها الذاتية دون اعتماد على جنونيات دون كيخوتى أو سفسفيّات سانشو، وهكذا فى هذا القسم الثانى من القصة لم يحب أن يستخدم هذه الوصفة بإدخال روايات متناثرة أو ملتصقة

بالقصة الأصلية ما عدا بعض الحلقات الروائية التى بدت له متولدة عن نفس الأحداث التى يقدمها الواقع الحقيقى، وحتى هذه تقدم محدودة، وبأسلوب المساواة فى البلاغة، لفظ على قدر المعنى، وهكذا يغلق القص ويكتفى عند الحدود الضيقة، ممتلكًا ملكة ومقدرة وفكرًا ثاقبًا لمعالجة شاملة، طالبًا ألا يقلل من شأن جهده، والثناء عليه ليس بما يكتب، ولكن بما ترك كتابته.

من ثَم، تستمر القصة وتقول بأنه عند انتهاء دون كيخوتى من تناول الطعام يوم أن أعطى النصائح لسانشو، أعطاها له فى مساء نفس اليوم مكتوبة، كى يبحث هو عمن يقرأها لَه، لكن بمجرد أن أعطاها له، حتى سقطت منه، ووقعت فى يد الدوق، الذى قرأها على الدوقة، والاثنان عجبا من جديد بسبب جنون دون كيخوتى وعبقريته؛ وهكذا مستمرين فى دفع ألعاب الخدع والحيل، أرسلوا سانشو مع مرافقين عديدين إلى القرية التى ستكون ولاية له. وحدث أن من رافقه كان أحد مدبرى قصور الدوق، وهو شديد الذكاء والظرف (حيث لا يمكن أن يوجد ظرف دون توفر الذكاء)، وهو من قام بدور الكونتيسة تريفالدى، مع الملاحة التى رأيناها، وبهذا، وبالذهاب مشحونًا بالحيل من سيديه عن كيفية ما يكون مع سانشو، نجح فى لعبته بإعجاز. وأقول، من ثَم، حدث أن هكذا عندما رأى سانشو ذلك الخادم، رأى فى وجهه صورة تريفالدى، وعائدًا إلى سيده، قال له:

- سيدى، إما على الشيطان أن يحملنى من هذا المكان حيث أوجد على جناح السرعة، وإما فخامتكم عليك أن تعترف لى أن وجه رئيس الخدم هذا، هو نفس وجه المقهورة.

نظر دون كيخوتى فى تحديق إلى رئيس الخدم، وبعد أن تأمله قال لسانشو:

- لا داعى لأن يحملك الشيطان، سانشو، لا على جناح السرعة أو على أى جناح (وإن كنت لا أدرى ماذا تريد القول حول أمر جناح السرعة)؛ إن

وجه المقهورة هو نفس وجه رئيس الخدم، لكن ليس معنى ذلك أن رئيس الخدم هو المقهورة، لأنه لو كان هو هى، سوف يستجلب تناقضًا كبيرًا جدًّا، وليس هذا وقت عمل التحريات، لأن ذلك يعنى دخولنا فى متاهات شديدة تعقد التشابك. وثق فى، أيها الصديق، فمن الضرورى التوسل إلى الله بكل صدق أن يحررنا نحن الاثنين من السحرة الأشرار، ومن المشعوذين الخبثاء.

أجاب سانشو:

- ليس خدعة سحرية، وإنما قبل ذلك سمعته يتكلم، ولم يكن إلا نفس صوت تريفالدى يرن فى أذنى. والآن لا بأس، سوف أسكت عن الأمر، لكن لن أترك الوعى من الآن فصاعدًا بضرورة النظر فى إمكانية اكتشاف علامة أخرى تؤكد شكوكى أو تنفيها.

قال دون كيخوتى:

- هذا ما ينبغى عليك فعله، وأخبرنى بكل ما تكتشفه فى هذه القضية، وبكل ما يحدث لك فى الحكومة.

وخرج فى النهاية سانشو مصحوبًا بأناس كثيرين، مرتديًا لباس أديب، وفوقه عباءة شقراء من الوبر، فضفاضة جدًا مع تموجات مائية لنسيجها، مع غطاء للرأس من نفس النسيج، على فرس ضامًّا ركبتيه فى زاوية حادة، وخلف الفرس الذكر بأمر الدوق مضى حماره مزينًا بزينة حمارية من الحرير والزركشة البراقة، ملتفتًا سانشو برأسه من وقت لآخر للنظر إلى سيده، الذى كان سعيدًا بصحبته، ولا يبادل بها منصب إمبراطور ألمانيا. وعند توديعه الدوق والدوقة قبَّل أيديهما، واستقبل البركة من سيده، وهذا منحها له دامعًا، واستقبلها سانشو متجهمًا التجهم الذى يسبق الدموع.

اترك، أيها القارئ اللطيف، سانشو يذهب على بركة الله، وانتظر كيلين من الضحك، سيدفعك إليه معرفة كيف تصرف فى ممارسة منصبه، وخلال ذلك انتظر لمعرفة ما جرى لسيده فى نفس تلك الليلة. وإذا لم تضحك له، فعل الأقل ستنفرج منك الشفتان من الابتسام، لأن وقائع دون كيخوتى، إما تقابل بالتعجب، وإما بالضحك. يحكى، من ثَم، أن بمجرد أن رحل سانشو أحس دون كيخوتى بوحدته، وإذا كان فى إمكانه فسخ الاتفاق، وسحب الحكومة منه لفعل. عرفت الدوقة كآبته، وسألته: ما سبب حزنه؟ فإذا كان بسبب غياب سانشو، فهناك خدم وقهرمانات وصبايا وصيفات فى بيتها سيكونون فى خدمته وإشباع رغباته.

أجاب دون كيخوتى:

– سيدتى، الحقيقة، أنا أحس بافتقاد سانشو، لكن هذا ليس السبب الرئيسى الذى يجعلنى أبدو حزينًا جدًّا، ومن بين الهدايا والعروض الكثيرة التى تقدمينها سعادتكم لى، تجعلنى فقط أختار وأقبل الرغبة الطيبة التى بها يتم العرض، وفيما تبقى أتوسل لسعادتكم أن أخدم نفسى بنفسى فقط داخل مخدعى.

قالت الدوقة:

– فى الحقيقة، أيها السيد دون كيخوتى، لا يجوز أن يكون الأمر كذلك؛ فينبغى أن يخدمك أربع وصيفات لى، حسناوات مثل أربع زهرات.

أجاب دون كيخوتى:

– بالنسبة لى لن يكن مثل زهرات وإنما مثل أشواك تنخز فى النفس، هكذا وجودهن فى مخدعى لن يكون أمرًا فى ظاهره له أية قيمة، وإذا كان فى نية عظمتكم المضى قدمًا فى الإنعام علىَّ، دعينى أوجد مع نفسى، بخدمتى لنفسى

بنفسى خلف باب مخدعى، فأنا أضع سورًا بين رغبتى وبين أمانتى، ولا أريد فقدان هذه العادة بسبب كرم سموكم الذى ترغبين فى إظهاره لى. وباختصار، أفضل النوم بملابسى على أن يخلع لى ثيابى أحد.

أجابت الدوقة:

– لا أكثر ولا أقل! بالنسبة لى سآمر ألا يدخل غرفتك ولا حتى ذبابة، فما بالك بوصيفة، فلست السيدة التى من أجل عاداتى أسمح بجرح تهذيب السيد دون كيخوتى، الذى طبقًا لما أراه يبدو مضيئًا، وأنه بين فضائله الكبرى تبرق فضيلة الأمانة. تعرَّ فخامتكم والبس ما شئت وحدك، وبطريقتك ومتى أحببت، فلن يوجد من يعوقك، من ثَم، ستجد فى مخدعك الأوانى اللازمة لضرورات من ينام داخل باب مغلق، حتى لا تضطرك أى ضرورة للطبيعة لفتح ذلك الباب. ولتحيا ألف دهر السيدة دولثينيا دل توبوسو، وليصبح اسمها مشهورًا فى كل بقاع الدنيا، إذ استحقت أن تكون محبوبة مثل هذا الفارس الأمين، ولتزرع السماء السمحاء فى قلب سانشو بانثا، حاكمنا، الرغبة فى إنجاز سريع للجلد، حتى يعود العالم لإمتاع عينيه بجمال مثل هذه السيدة العظيمة.

على هذا أجاب دون كيخوتى:

– سموكم تكلمت كلامًا يعلو لقدرك، فمن شفتى السيدات الطيبات لا يخرج العيب، وكم هى محظوظة أكثر وستصير أشهر دولثينيا دل توبوسو إذ مدحها على لسانك يذكر، فى بلاغة لا فوقها بلاغة فى العالم.

أجابت الدوقة:

- الآن، أيها السيد دون كيخوتى، تقترب ساعة العشاء، وينبغى أن يكون الدوق منتظرًا، هيا فخامتكم لنتعشى، وننام مبكرًا، فإن الرحلة التى قمت بها أمس إلى كانديايا لم تكن قصيرة إلى حد ألا تسبب لكم ضعضعة للجسم.

أجاب دون كيخوتى:

- لا أحس بأى ضعضعة، لأننى قد أجسر على القسم لسعادتكم، أننى لم أصعد فى حياتى على دابة بمثل هذا الهدوء، ولا أفضل خطى من كلابيلينيو (مفتاخشيف)، ولا أدرى ماذا يمكنه أن يكون قد دفع مالامبرونو للتخلص من هذه المطية الخفيفة اللطيفة إلى أقصى حد، بحرقها هكذا، وهكذا فحسب.

أجابت الدوقة:

- يمكن تصور السبب، فلكونه ندم على الضرر الذى أوقعه بتريفالدى وصحبتها، وبأشخاص آخرين، ومن الشرور التى لا بد أن أرتكبها مشعوذًا وساحرًا، أحب أن يتخلص من كل أدوات سحره، وكما كان مفتاخشيف يتركه قلقًا من أرض إلى أرض هائمًا على وجهه، فإنه أحرقه، ومع رماده المحترق والهدية المتمثلة فى الرقعة المكتوبة صار أزليًا مجد دون كيخوتى دى لا مانشا.

من جديد أعطى دون كيخوتى شكرًا جديدًا للدوقة، وبعد العشاء انسحب دون كيخوتى إلى غرفته وحيدًا، مع عدم موافقته على دخول أحد لخدمته. إلى هذا الحد كان يخشى أية فرصة تحركه أو تجبره على فقدان الولاء الأمين الذى كان يكنه لسيدته دولثينيا، شاغلاً خياله دائمًا وفاء أماديس زهرة الفرسان المشائين ومرآتهم. أغلق خلفه الباب، وتعرى على ضوء شمعتين، وخلع حذاءه (أى نكبة لا تستحقها

تلك الشخصية!)، وانفلتت منه لا أقول تنهيدة أو أى شىء آخر يلغى مصداقية بوليس مراقبته لنفسه، وإنما دستتان من غرز فردة من فردتى جوربه، حتى صارت مشربية. تهاوت قوة السيد الطيب كثيرًا، وكان على استعداد لدفع أوقية فضة نظير النزر اليسير من أخضر الحرير؛ وأقول أخضر الحرير لأن الجورب كان أخضر.

هنا صاح سيدى حامدى بن إنجيلين، وخلال كتابته قال: "أوه، أيها الفقر، أيها الفقر! لا أدرى أنا أى سبب حرك الشاعر القرطبي العظيم لمناداتك:

أيتها الهبة المقدسة المجحودة!

أنا، مع أنى مسلم، أعرف جيدًا، بالاتصال الذى جرى بينى وبين مسيحيين، أن القداسة تتركز فى البر والتواضع والطاعة والإيمان والفقر. لكن، مع كل هذا، أقول ينبغى أن يكون لديه الكثير من الله، الذى يأتى مكتفيًا بأن يكون فقيرًا، إذا لم يكن من ذلك النوع من الفقر الذى عنه يتحدث واحد من قديسيهم الكبار: "املكوا كل الأشياء كما لو كنتم لا تملكونها". وهذا يسميه فقر الروح؛ لكن أنت الفقر الآخر (فأنت الذى عنه أتكلم)، لماذا تريد إدخال نفسك بين الأعيان، وأولاد العز أكثر من إدخال نفسك بين الناس الآخرين؟ لماذا ترغمهم على ترقيع أحذيتهم؟ فبأى شىء يرقعون أزرار معاطفهم، وبعضها من الحرير والبعض الآخر من الشحم، والقسم الثالث من زجاج(*)؟ لماذا ياقات قمصانهم، فى معظمها، مكرمشة لا بد دائمًا،

(*) نفس صوفى، فدون كيخوتى باعتباره واحدا من الأعيان (وكأنه معيار لهم مثل ثربانتس نفسه) يرقع حذاءه، وكأن الفقر يرغم الأعيان غير الأثرياء على فعل لا يتفق ومكانتهم، أو يدفعهم للون من الزهد لا معنى له، أو يجعل حالهم مثل حال عزيز قوم ذل.

وليست مشدودة القالب؟" وفى هذا يلاحظ أن استعمال النشا للياقات وشدها مفتوحة عادة قديمة. وواصل: "ما أكثر بؤس ابن العز، الذى يمضى متفاخرًا بشرفة، آكلاً الكفاف وراء بابه المغلق، وخارجًا إلى الشارع متحولاً إلى منافق بأعواد تسليك الأسنان بعد أن لم يأكل شيئًا يرغمه على تنظيف أسنانه! بائس ذلك، أقول، الذى أجفل شرفه، والذى يظن أنهم سوف يرون من فرسخ رقع حذائه! وتبقع معطفه بالعرق وتنسله، وجوع معدته!"

كل هذا (التصور) تكرر فى ذهن دون كيخوتى مع انفلات غرزه، لكن تعزى برؤية أن سانشو كان قد ترك له بعض نعال الطريق التى فكر فى لبسها فى غده. وأخيرًا، رقد مفكرًا ومثقلاً، بسبب الفراغ الذى تركه سانشو، وبسبب النكبة التى لا إصلاح لها فى جوربه، الذى ود لو يرقعه ولو بلون آخر من خيوط الحرير، رغم أن ذلك واحد من إشارات البؤس التى يمكن أن تصيب أحد الأعيان فى ضيقه المتسع الخرق. أطفأ الشمعتين، وكان الجو حارًا، ولم يستطع النوم، نهض من السرير، وفتح النافذة قليلاً، فرأى وراء قضبانها حديقة غناء. وأرهف السمع، ورفع الصوت من كانوا أسفل النافذة، رفعوه جدًا حتى إنه استطاع أن يسمع هذه العبارات:

– لا تعانديني! إميرنثيا! فلأغنى، فأنت تعرفين أنه منذ اللحظة التى دخل فيها هذا الغريب القلعة، ونظرت إليه عيونى، وأنا لا أعرف الغناء، وإنما البكاء، وبصفة خاصة أن نوم سيدتى يميل إلى الخفة أكثر منه إلى الثقل، ولا تحب أن نظهر هنا ولو مقابل كل كنوز الدنيا، أما هو إذا كان نائمًا غير مستيقظ، سيصبح غنائى فى الفراغ، ولن أستطيع إسماعه هذا "إينياس" الجديد، الذى وصل إلى أقاليمى، كى يتركنى سخرية للجميع.

أجابوا:

- لا تهتمى بهذا، أيتها الصديقة ألتسيدورا، فلا شك أن الدوقة، وكل من فى البيت نائمون، ماعدا سيد قلبك، ومنيه روحك! لقد أحسست أنه يفتح النافذة ذات القضبان لغرفته، ودون شك لا بد أن يكون مستيقظًا، غنى، صديقتى الجريحة، فى نغمة منخفضة وناعمة، وعلى إيقاع الأرب آلتك الموسيقية، وعندما تحس الدوقة بنا سوف نلقى باللوم على حرارة الجو.

أجابت ألتسيدورا:

- ليست هذه هى المسألة، إميرنثيا! إنما لا أحب أن يفضح غنائى قلبى، ويحكم على من ليس لديه خبر عن القوى الجبارة للحب بأننى فتاة هوائية وخفيفة، لكن ليقع ما يكون؛ فعار فى الوجه، خير من وصمة فى القلب.

وهنا سمع عزف آلة الأرب فى نعومة فائقة، عند سماعها بقى دون كيخوتى مشدوها، لأنه فى هذه اللحظة مر على ذاكرته مغامرات لا نهائية من مثل هذه، نافذة وقضبان وموسيقى، وانكسار وإغماء، مما قرأه فى كتبه المتلاشية للفروسية. وحالاً، تخيل أن إحدى وصيفات الدوقة كانت مغرمة به، وأن الشرف كان يجبرها على جعل هواها سريًا، وخاف أن يستسلم لغرامها، واقترح على نفسه ألا يترك نفسه ينهزم، ومسلمًا نفسه بروحه العالية، وطبعه الطيب، إلى سيدته دولثينيا دل توبوسو، قرر أن يسمع الموسيقى، وحتى يعطى فكرة أنه كان هناك فى النافذة، أعطى عطسة متصنعة، وبها ابتهجت الصبايا، اللائى لم يكن يرغبن فى شىء أكثر من أن يسمعهن دون كيخوتى. مدوزنة ومعدلة الأرب ألتسيدورا شرعت فى غناء هذا الرومانث:

أوه، أنت يا من ترقد فى سريرك،

بين ملاءات ناعمات لهولندا

نائمًا مسترخى الأرجل الممدودة

من أول الليل حتى مجىء الصباح،

*

الفارس الأشجع

الذى ولدته لا مانشا،

أكثر أمانة وأكثر بركة

من الذهب الخالص لبلاد العرب

*

انصت لحزن صبية،

حسنة التربية، سيئة الحظ،

تحترق فى ضوء شمسيك

منها الروح، فتحس بنارهما

*

أنت تبحث عن مغامراتك،

وتعثر على نكبات غيرك؛

فتمنح الجروح

وتنكر علاجها

*

قل لى أيها الشاب الشجاع

راش الله أشواقك،

هل نشأت فى ليبيا

أو فى جبال خاكا؛

*

إذا كانت الحيَّات أرضعتك

وإذا كانت أسلحتك أسعدتك

وخشونة الغابات

ورعب وحشة الجبال،

*

فمن الممكن جدا لدولثينيا

صبية مدملجة وصحتها جيدة

الاعتزاز بنفسها أن روضتها

نمرة ووحشًا ضاريًا،

*

ولهذا سوف تصير مشهورة

من إنارس حتى خراما

ومن التاخو حتى مانثناريس

ومن إسيرجا حتى أرلانثا،

*

بادل بها وضعنى منك مكانها

وسوف تأخذ فوق البدل علاوة

قميص زيادة من أحلى قمصانى

مطرزة حواشيه بالذهب

*

أوه، من يحظى بأن يوجد بين ذراعيك

وإن لم يمكن، فبجوار سريرك

يهرش شعرك

ويقتل غنم القشرة!

*

أطلب الكثير وأنا به غير جديرة

بمثل هذه النعمة الغزيرة

أتمنى أن أغسل قدميك

وهكذا لمن فى تواضعى يكفيها

*

أوه، من يهديك الكوفيات

والخفاف الفضيات

والسراويل الدمشقيات

والمعاطف الهولنديات!

*

والأحجار الكريمة

كل حجر مثل إحدى اللوزتين

ولعدم وجود صحبة

الوحيدات ناداهن إلى هنا الشوق!

*

ولا تنظر من علياء شرفتك فى تاربيا

إلى هذا الحريق الذى يحولنى إلى جمرة

يانيرون دى لا مانشا العالمى

فلا تؤججه بحنقك

*

لست بعرجاء أو برجل أقصر من الأخرى

وليس لدى يد مقطوعة أو رجل

والشعر مثل الزنابق

التى عند النهوض تتدفق فوق الأرض

*

ومع أن فمي ملوى الشفاه

وأنفى شيئًا ما فطساء

وأسنانى من ياقوت أصفر

فإن جمالى يعطى ملاحة السماء

*

وصوتى، ها أنت تراه إن كنت تسمعنى

يتساوى مع أحلى الأصوات،

مع أن استعدادى للغناء

كان أقل من المتوسط

*

انظر إلى هذه وأخريات من طرائفى

وإنها لغنيمة حلال عليك

وأنا وصيفة فى هذا البيت

ويطلقون على ألتسيدورا

هنا انتهى غناء بليغة الجراح ألتسيدورا، وبدأت دهشة فارس الذكريات دون كيخوتى، الذى مطلقًا تنهيدة عظيمة، قال لنفسه:" لا بد أننى فارس مشاءٍ منكــوب، فما أن توجد صبية ويتصادف أن تنظر إلىَّ إلا وتقع فى غرامى. كم هــى، قليلــة الحظ عديمة النظر دولثينيا دل توبوسو، فهم لا يتركونها تتمتــع وحــدها بثبــاتى الصارم على حبها، ماذا تردن منها أيتها الملكات؟ لأى غرض تطاردنهــا، أيتهــا الإمبراطورات؟ لماذا تضايقنها أيتها الــصبايا بــين الرابعــة عــشرة والخامــسة عشرة؟اتركن، اتركن البائسة حتى أسلِّم لها قلبى وأسلم لها روحى. انظرن، أيتهــا الزمرة العاشقة، أنا فقط من أجل دولثينيا، معجون ومخبوز لها، ومن أجــل بــاقى النساء فأنا حجر صوان لهن، من أجلها أنا العسل الشهد، ومن أجلكن الصبر المر، وبالنسبة لى دولثينيا فقط هى الحسناء وأصل الذكاء، والشريفة الأنيقة، وابنة العــز، بينما باقى النساء دميمات، تافهات، خفيفات العقل، وأسوأ نسل وسلــسال، وحتــى أكون لك، دولثينيا، أنا قذفت بى الطبيعة للعالم. أبكى أو أغنى أمثال (ألتــسيدورا)، ولتيأسى (ماداما)، التي من أجلها هرسونى بهراوة غليظــة فــى قلعــة العربــى المسحور، وأنا فقط علىَّ أن أكون لدولثينيا، مطبوخًا أو مــشويًا، نظيفًــا، وحــسن التربية، على الرغم من كل الساحرات المتسلطات فى العالم".

وعند هذا، أغلق فجأة النافذة، وغاضبًا ومثقلاً، كما لومسه أعظم ضر، رقــد فى السرير، حيث سوف نتركه الآن، لأن سانشو بانثا العظيم ينادينا، حيث يجب أن يبدأ حكومته المشهورة.

الفصل الخامس والأربعون

كيف تبوأ السلطة سانشو بانثا الأكبر، والطريقة التى بدأ بها الحكم

أوه، أيها المكتشف الدائم للمتقابلات، وسراج العالم، وعين السماء، وثلج الصدور المداعب. (تيمبريو) هنا، و(فيبو) هناك، ورام هنا، وطبيب هناك، يا أبا الشعر، ومخترع الموسيقى، أنت دائمًا تشرق، مع أن الظاهر أنك لا تغرب مطلقًا! إليك أقول يا قرص الشمس، بعونك الإنسان يولّد الإنسان! إليك أقول "لتتصرنى وتضىء ظلام ألمعيتى حتى أستطيع أن أدور بكل سنائها فى حكايتى لحكومة سانشو بانثا الأكبر، فبدونك أحس نفسى فاترًا ومتراخيًا ومضطربًا.

أقول، إذن، مع كل موكبه وصل سانشو إلى قرية يصل أهلها إلى ألف ساكن، وكانت من أفضل ممتلكات الدوق. وأفهموه أنها تسمى ولاية باراتاريا، إما لأن القرية كان اسمها باراتاريو، أو إشارة لمعنى الكلمة وهو "الرخص" للكشف عن نيل سانشو هذه الحكومة رخيصة دون جهد. عند وصوله إلى أبواب القرية التى كانت مسورة، خرج نواب البلدية لاستقباله، ودقت الأجراس، وأبدى كل السكان مظاهر البهجة، وفى أبهة عظيمة حملوه إلى الكنيسة الكبرى لإعطاء الشكر لله، وبعد ذلك سلموه مفاتيح القرية فى احتفال شعائرى يثير الضحك، وأعلنوه حاكمًا أبديًّا لولاية باراتاريا. حلته ولحيته وسمنته وضآلته أثارت عجب القرية من الحاكم الجديد، دون استثناء من يعرفون عقدة قصة هذا الحاكم وكانوا كثرة. وأخيرًا، عندما أخرجوه من الكنيسة حملوه إلى مقعد الحاكم، وأجلسوه عليه، وقال له رئيس خدم الدوق:

- هنا فى هذه الولاية عادة قديمة، أيها السيد الحاكم، وهى أن كل من يأتى ليتبوأ حكم هذه الولاية المشهورة مضطر أن يجيب على سؤال معقد وصعب، ومن إجابته تلمس القرية وتعرف عبقرية حاكمها الجديد، وهكذا إما تبتهج أو تحزن.

وخلال قول رئيس الخدم ذلك لسانشو، كان هو يتأمل بعض الكلمات الكثيرة كبيرة الخط المكتوبة على الجدار المجاور للمقعد. وكما كان لا يعرف القراءة، سأل عن تلك الرسومات التى كانت فوق ذلك الحائط، وأجيب على سؤاله:

- سيدى، هناك مكتوب ومدون اليوم الذى تبوأ سعادتكم فيه الحكم لهذه الولاية، ويقول النص: "اليوم الموافق كذا من شهر كذا، من عام كذا تم تنصيب السيد دون سانشو بانثا حاكمًا لهذه الولاية، متعه الله بها أعوامًا طويلة".

وسأل سانشو:

- وعلى من يطلقون دون(*) سانشو بانثا؟

أجاب كبير الخدم:

- على سعادتكم؛ لأنه لم يدخل هذه الولاية أى بانثا آخر، إلا ذلك الذى يتبوأ هذا المقعد الآن.

قال سانشو:

- إذن اعلم، أيها الأخ، أننى لا أحمل لقب (دون)، ولم يحمله أحد بين كل أسلافى: سانشو بانثا فقط و(حاف)، وسمانى أبى سانشو بانثا، وسانشو جدى،

(*) دون لقب رفيع لا يطلق إلا على النبلاء وسانشو لم يسمع اسمه قط مسبوقًا بهذا اللقب ولا يحلم به.

وكلهم كانوا(بانثا) دون إضافة دون أو دونيا، وفى هذه الولاية أتصور وجود دونات أكثر من الحصى. لكن كفى، والله يدرى به، وقد يمكن إذا دامت لى الحكومة أربعة أيام أن أعرف هؤلاء الدونات، الـــذين لكثـــرتهم لا بـــد أن يضايقوا مثل الذباب، والآن تفضل بطرح سؤالك، أيها السيد رئيس الخدم، وسوف أجيب بأفضل ما أستطيع سواء حزن أهل القرية أو لم يحزنوا.

وفى هذه اللحظة دخل دار الحكومة رجلان، الأول يرتدى ملابس مـــزارع، والثانى ملابس خياط، لأنه كان يحمل فى يده مقصًا، قال الخياط:

– أيها السيد الحاكم، أنا وهذا المزارع الطيب فى حضرة فخامتكم، بـــسبب أن هذا الرجل الطيب دخل دكانى بالأمس (حيث أنا ،مع عفو الحضور، خياط مرخص، بفضل الله)، ووضع فى يدى قطعة من القماش، وســـألنى: "أيهـــا السيد، هل تحتمل القطعة من القماش عمل طاقية منـــها". قمـــت بقيـــاس القماش، وأجبته بنعم. وكان لا بد أن تخيل ما أتخيله أنا، وقد تخيلت الشيء الصحيح، وهو أننى كنت أود اقتطاع بعض القماش الزائد لنفسى، مؤسسًا ذلك على سوء نيته، وعلى الرأى السيئ للناس فى الخياطين، من ثَم رد علىَّ سائلاً إن كانت تكفى لعمل طاقيتين فقلت نعم، مخمنًا ما يفكر فيه، وهو فى استمرار لنيته الأولى السيئة، مضى يضيف طواقى، وأنا أضيف نعم بعد نعم، حتى وصلنا لخمس طواقى، والآن فى هذه اللحظة لم يكد يحـــضر لأخـــذها، حتى قدمتها له، فلم يقبل دفع ثمن الخياطة، وقال لى أعد إلىَّ ما تبقـــى مـــن القماش قبل أن تطلب أن أدفع لك.

سأل سانشو :

– هل كل شيء كذلك أيها الأخ؟

أجاب المزارع:

– نعم، يا سيدى، لكن اجعله يظهر الطواقى الخمس التى صنعها لى.

أجاب الخياط:

– بكل سرور.

وسحب يده فى رشاقة من تحت المعطف، كاشفًا عن خمس طواق موضوعة فى أصابع اليد الخمسة، وقال :

– هاهى الطواقى الخمس، التى يطلبها منى هذا الرجل الطيب، وبحق الله وضميرى إنه لم يبق شىء من قماشه، وأنا سوف أعرض الأمر على خبراء فى المهنة.

كل الحضور ضحكوا من مظاهرة الطواقى، ومن هذه القضية الجديدة، شرع سانشو فى التأمل قليلاً، وقال:

– يبدو لى فى هذه المشاجرة أن الأمر لا يحتمل تأجيلاً كبيرًا، وإنما الحكم فى الحال طبقًا لصواب الرجل الحازم، وهكذا، أنا أحكم ألا يقبض الترزى ثمن صناعته، وأن يخسر المزارع قماشه، وأن تحمل الطواقى لنزلاء السجن، ولا شىء أكثر.

وإذا كان الحكم السابق(*) الخاص بكيس الراعى أثار الإعجاب والدهشة للحضور، فإن هذا الحكم استثار الضحك، لكن، فى النهاية، تم تنفيذ ما أمر به الحاكم. وبعد ذلك مثل أمامه رجلان عجوزان، أحدهما كان يحمل فرع غاب كلخ متخذًا منه عكازًا، والآخر دون عكاز، وقد قال هذا :

(*) كان يسيو ثربانتس بين الحين والحين، فالحكم السابق فى الحقيقة هو الحكم اللاحق الذى ستذكره القصة بعد قليل وربما نتيجة أخطاء المطبعة فى الطبعة الأولى.

– سيدى، لقد أقرضت هذا الرجل الطيب عشرة دنانير ذهبًا فى عملات ذهبية، حتى أسعده وأبره، على شرط أن يعيدها لى حينما أطلبها، ومرت أيام طويلة دون أن أطلبها حتى لا أضعه فى موقف حاجة ماسة لو أعادها لى، مثل تلك الحاجة التى مر بها من قبل عندما أقرضتها له، ولكن لما ظهر لى أنه يتراخى فى أمر سدادها، طلبتها منه مرة ومرات، لكنه أنكر الدنانير، ويقـول بـأنى لم أقرضه قط هذه الدنانير العشرة، وإذا كنت قد أقرضتها له، فهو بدوره قـد سددها، وأنا ليس لدى شهود على القرض ولا على السداد، لأنه لم يسددها لى، وأحب من فخامتكم أن تأخذ منه القسم، فإذا أقسم أنه بالفعل قد أعاد الدنانير إلىّ، فإنى أسامحه أمامك وأمام الله.

قال سانشو تعليقًا على ذلك :

– ماذا تقول أنت، يا صاحب العكاز، بالخصوص؟

– أنا أعترف يا سيدى أنه أقرضها لى، وأنزل فخامتكم هذا الصولجان(*)؛ حيث أنه يتنازل عن القرض إذا حلفت، وأنا سأحلف أننى أعدمًا له ودفعتها يـدًا بيد وحقيقة وواقعًا.

أنزل الحاكم الصولجان، وخلال ذلك، أعطى العجوز صاحب العكاز عكازه للعجوز الآخر أثناء القسم، وكما لو كان اضطراره لترك العكاز يثقل علـى نفسه جدًا، وفى الحال وضع يده على صليب الصولجان، قائلاً إنه كان حقيقيًا أنه أقرضه عشرة الدنانير، وأنه طلب منه سدادها، وأنه سددها له من يد ليد، وبعد ذلك سـوف يطلبها من جديد، بل بعد لحظات حتى لا يحنث فى قسمه، وعنـدما رأى الحـاكم

(*) الصولجان معلق به صليب، فطلب إنزاله للقسم عليه.

العظيم ذلك سأل المقرض بماذا يجيب على ما قاله خصمه، فقال إن مدينه لابد أنه يقول الحق، لأنه يراه رجلاً صادقًا ومسيحيًا تقيًا، وأنه لا بد أن قد نسى كيف أعادها له ومتى، والآن من الآن فصاعدًا لن يطالبه بشيء. عاد المدين إلى استعادة عكازه، وخافضًا رأسه خرج من المحكمة، وعندما رأى سانشو ذلك، وأنه انصرف دون أن يلوى على شيء، كما رأى صبر الدائن المدعى، أسند رأسه على صدره وهلة، واضعًا سبابة يده اليمنى فوق حواجبه وأنفه، وبقى كما لو كان متفكرًا بعض الوقت، وفى الحال رفع رأسه، وأمر بإعادة الرجل صاحب العكاز، والذى كان قد خرج واختفى عن الأنظار. أعادوه، وما أن رآه سانشو، بعد أن أعادوه ، حتى قال:

– أعطنى أيها الرجل هذا العكاز، فإن لى به حاجة.

أجاب العجوز :

– على الرحب والسعة، ها هو تفضل خذه.

وضعه فى يده، وأخذه سانشو وأعطاه للرجل الآخر قائلاً له :

– مع السلامة، فها أنت تذهب وقد تم سدادك.

أجاب العجوز:

– أنا، يا سيدى؟ هل يساوى هذا العكاز عشرة دنانير من الذهب؟

أجاب الحاكم :

– نعم، وإذا لم يكن يساوى، فأنا أكبر أغبى إنسان فى العالم، والآن سوف تشهدون إذا ما كنت أملك الدهاء لحكم مملكة بأكملها.

وأمر أن تكسر غابة العكاز وتفتح أمام الجميع. ونفذوا الأمر، وفى قلبها وجدوا عشرة دنانير من الذهب؛ وأصاب الجميع الذهول، ونظروا إلى حاكمهم على أنه النبى سليمان الجديد. سألوه كيف استنتج أن الدنانير كانت داخل الغاب، قال إنه

لاحظ أن العجوز صاحب العكاز، بعد أن أعطى العكاز لخصمه، أقسم أنه أعادها إليه يدًا بيد، وحقيقة وواقعة، وبانتهاء القسم عاد لطلب العكاز، وهنا ورد على خاطره أن المبلغ كان داخل العكاز، ومن هنا، يمكن استنتاج أن من يحكمون حتى لو كانوا بلهاء، فإن الله يأخذ بيدهم فى أحكامهم، وأكثر من ذلك فإنه سبق له أن سمع قضية شبيهة بهذه من قسيس قريته، وهو يحظى بذاكرة عظيمة، فهو لا ينسى كل ما يجب أن يتذكره، حتى إنه لا توجد ذاكرة مثل ذاكرته فى كل الولاية. وأخيرًا، العجوز المرتعد الجبان، والآخر الذى تم سداده انصرفا، والحضور فى دهشة وعجب، والكاتب الذى كان يسجل حركات سانشو وكلماته، لم يكد يقرر هل ينظر إليه على أنه أبله أو ينظر إليه بوصفه عبقريًا.

بعد ذلك، بانتهاء هذه القضية، دخلت دار الحكومة امرأة ممسكة بقوة رجلاً يرتدى ثياب راع غنى، وكانت تطلق صرخات هائلة، قائلة:

- العدالة، أيها السيد الحاكم! العدالة، والتى إن لم أجدها فى الأرض سأذهب بحثًا عنها فى السماء! أيها الحاكم العزيز، هذا الرجل الشرير افترسنى فى قلب الغيطان، واستغل جسمى، كما لو كنت خرقة سيئة الغسيل. ما أتعسنى، ففوق ذلك، قضيت، أيها الحاكم، عمرى منذ ثلاثة وعشرين عامًا مدافعة عن جسمى ضد المسلمين والمسيحيين، وضد أهالى بلدى والأغراب، وكنت دائمًا فى صلابة خشب الفلين، محافظة على نفسى محتفظة بها كاملة مثل السمندل الأسطورى فى النار، أو مثل الصوف بين الأشواك، إلى أن جاء هذا الرجل الطيب ليعبث به ويتلفه بيدين نظيفتين.

قال سانشو :

- لابد من الانتظار لتحرى مدى نظافة يدى هذا المغازل.

وملتفتًا إلى الرجل قال له ماذا يقول ويجيب على دعوى تلك المرأة؟ وهـذا أجاب وهو شديد الاضطراب:

- إننى، أيها السادة، راع فقير لقطيع من خنازير، وهذا الصباح خرجت لبيـع، ولا تؤاخذونى، أربعة خنازير، فبعتها بعد الضرائب والمساومة أقل بقليل من ثمنها، وأثناء عودتى لقريتى صادفت فى الطريق هـذه القهرمانـة الطيبـة، والشيطان الذى يدير كل خيوط الشر ويطبخ كل شىء، دفعنا لأن يضاجع أحدنا الآخر، ودفعت لها نظير ذلك مـا يكفى، ومع هـذا لم يكن كافيًا فى نظرها، فأمسكت بى، ولم تتركنى حتى أحـضرتنى إلى هنـا لهـذا الموقـف العصيب. وتقول إنى اغتصبتها، وتكذب، وبحق القسم الـذى أقـسمت أو أنوى أن أقسم، أن هذا هو كل الحق دون نقصان أى فلس.

هنا سأل الحاكم عما إذا كان معه نقود فضية، فقال إن معه ما يبلغ فى جيبه عشرين درهمًا داخل كيس جلدى. أمره بإخراج الكـيس، وأن يـسلمه كمـا هـو للمدعية، ففعل ذلك مرتعدًا؛ وتناولته المرأة مقدمة ألف تحية إجلال للجميع، داعيـة الله أن يطيل عمر الحاكم ويمنحه الصحة، فهو يحمى النساء اليتـامى المقهـورات والصبايا، وبهذا خرجت من دار الحكومة، حاملة الكيس بين قبضتى يديها، علـى أنها قبل ذلك تأملت ما بداخله لمعرفة عما إذا كانت الدراهم من فضة حقيقية، ومـا إن خرجت حتى قال سانشو للراعى الذى كانت تنهمر دموعه، وتطير عيناه وقلبـه وراء الكيس:

- أيها الرجل الطيب، أسرع وراءها، وانتزع منها الكيس، مهما قاومت، وعد إلى هنا معها.

ولم يصل هذا الأمر إلى أبله أو أصم، فقد طار خلفها مثل شعاع، كى ينفذ ما أمر به. كل الحضور كانوا مذهولين فى انتظار نهاية هذه القضية، وبعد هنيهة عاد الرجل والمرأة، ممسكًا أحدهما بالآخر وقابضًا عليه أكثر من المرة الأولى، هى كان قميصها مشلوحًا، وموضوعا الكيس فى حجره، والرجل يصارع لانتزاعه، لكن لم يكن ممكنًا، بسبب مقاومة المرأة، التى كانت تصرخ فى ضراوة، قائلة :

– العدالة العدالة من الله ومن الناس! انظر فخامتكم أيها الحاكم، قلة حياء وخشية هذا الرجل عديم الرحمة، والذى فى وسط العمار، وفى قلب الشارع أراد نزع الكيس الذى أمرته، فخامتكم، أن يعطيه لى.

سأل الحاكم :

– وهل انتزعه منك؟

أجابت المرأة :

– كيف ينتزعه؟ قبل أن ينتزعوا منى الكيس عليهم بانتزاع حياتى. ينتزعه؟ يا حلاوة! قطط أخرى عليها أن تخربشنى إلا هذا التعيس المقزز! الكماشات والشواكيش، الأزاميل والمطارق لن تكون كافية أن تنتزعه من أظافرى، ولا حتى مخالبه لو كانت له مخالب أسد، فقبل ذلك عليه تمزيق روحى إربًا إربًا داخل لحمى.

قال الرجل:

– هى معها حق، وأعترف أن مخالبى غير كافية لانتزاعه منها وأخذه، ولهذا أستسلم فاقدًا قواى.

وهنا قال الحاكم للمرأة:

– أبرزى هذا الكيس، أيتها المرأة الشريفة والشجاعة.

فى الحال سلمت المرأة الكيس للحاكم، فأعاده للرجل، وقال للمرأة المستثارة وغير المستسلمة :

– يا أختاه، إذا أظهرت حتى ولو نصف ما أظهرت من قوة وشجاعة دفاعًا عن الكيس فى الدفاع عن جسمك، فإن جبروت هرقل ما كان يقدر عليه. اذهبى بالسلامة، ولا تتوقفى حتى تغادرى هذه الولاية وإلا أعاقبك بمائتى جلدة. انصرفى حالاً، أيتها اللعينة والوقحة والمحتالة!

فزعت المرأة، وانصرفت خفيضة الرأس، متخاذلة، وقال الحاكم للرجل :

– أيها الرجل الطيب، مع السلامة إلى قريتك مع نقودك، ومن الآن فصاعدًا، إذا لم ترغب فى فقدها، حاول أن تقاوم إرادتك فى مضاجعة أى أحد.

شكره الرجل بأسوأ ما درى، ومضى، والحضور بقوا فى عجبهم مرة أخرى من الأحكام الصادرة عن الحاكم الجديد. وكل ذلك سجله الكاتب، وأرسله فى الحال للدوق، الذى كان ينتظره بفارغ الصبر.

ولنترك سانشو الطيب هنا، لأن سيده يستعجلنا جدًا، مضطربًا بموسيقى ألتسيدورا.

الفصل السادس والأربعون

عن الخوف المرعب الأجراسى والقططى الذى استقبله دون كيخوتى خلال مجرى غراميات ألتسيدورا العاشقة

تركنا دون كيخوتى العظيم ملفوفًا فى الفكر الذى سببته موسـيقى الـصبية العاشقة ألتسيدورا، رقد بفكره كما لو كان براغيث، لم تتركه ينام أو يهدأ لحظـة، وقد اجتمع هذا الفكر بفكر مأساة جواربه، وكما أن الوقت سريع، ولا يوجد سـياج لوقفه، رمح فارس فوق جواده على ساحة الساعات، وبـسرعة أدركـه الـصباح. وعندما رأى دون كيخوتى وصوله، هجر راحة الفراش وريش النعـام، وارتـدى معطفه الجلدى، وحذاء الطريق، حتى يغطى نكبة الجوارب، وطرح عليـه دثـاره القرمزى، وعلى الرأس لبس قبعته القطنية الخضراء، المطرزة بالفـضة، وعلـق وشاح سيفه البتار ملتفًا بكتفيه، وأمسك بمسبحة كبيرة، كان يحملها دائمًا معه، وفى فخفخة وديباجة خرج إلى مدخل الصالة، حيث كان الدوق والدوقـة فـى ملابـس الخروج، كما لو كانا فى انتظاره، وعند مروره بإحدى القاعات كانـت ألتـسيدورا وصديقتها فى انتظاره ورصده، وهكذا عندما رأت ألتسيدورا دون كيخوتى تصنعت الإغماء، وأمسكت الصبية صديقتها بها، وأسرعت لفـتح عـرى صـدرها. دون كيخوتى الذى رآها، اقترب منها، وقال:

– إننى أعرف ما وراء هذه الحوادث!

أجابت الصديقة:

– أنا لا أعرف سببها، لأن ألتسيدورا هى الوصيفة الأكثر صحة فى كـل هـذا البيت، ولم يحدث قط أن سمعت منها كلمة (الآى) منذ عرفتها، ولعنـة الله

على كل الفرسان المشّائين فى العالم، إذا كانوا جميعًا جاحدين للجميل، اذهب، فخامتكم، يا سيد دون كيخوتي، فلن تفيق مادمت أنت هنا.

وعلى هذا أجاب دون كيخوتى :

– اعملي، فخامتكم يا سيدتي، على أن يضعوا عودًا هذه الليلة فى غرفتي، وسأسرى ما أمكن عن هذه الصبية المجروحة، ففي مبادئ الغرام، الإحباطات السريعة عادة ما تمثل العلاج الناجح.

وبهذا انصرف، حتى لا يلحظ وجوده من كانوا هناك، ولم يكد يبتعد كثيرًا عن المكان، حتى أفاقت المغشى عليها ألتسيدورا، وقالت لرفيقتها :

– من الضروري أن تضعي له العود، فمما لاشك فيه أن دون كيخوتي يريد أن يعزف لنا بعض الموسيقى، ولن تكون سيئة إذا كانت من عزفه.

ذهبا فى الحال إلى الدوقة لإخبارها بما يجرى، وعن العود الذى طلبه دون كيخوتى، والدوقة مبتهجة كثيرًا، اتفقت مع الدوق ومع الفتاتين على صنع خدعة له تكون مضحكة أكثر منها ضارة له، وبرضا شديد انتظروا قدوم الليل، والذى جاء مسرعًا كما أسرع من قبل النهار فى القدوم، ذلك النهار الذى قضاه الدوق والدوقة مع دون كيخوتى فى أحاديث لذيذة. وفى ذلك اليوم، أرسلت الدوقة فعلاً أحد خدمها (الذى مثل دور دولثينيا فى الغابة) إلى تيريزا بانثا، مع خطاب زوجها سانشو بانثا، ومع ربطة الثوب الذى طلب إرساله إليها، موكلة الخادم أن يعود بتقرير مفصل عما يحدث مع تيريزا. بعد تمام ذلك، ووصول الساعة الحادية عشرة من الليل، وجد دون كيخوتى الآلة الموسيقية فى مخدعه، وبعد دوزنتها بأفضل ما استطاع، تنحنح ونظف فمه، وغنى الرومانث الآتى، والذى ألفه بنفسه:

جيوش الحب معتادة

على سحب الأرواح من بين الشفاه

مستخدمة كسلاح وآلة

البطالة فى استرخاء

*

التطريز وشغل البيت

والانشغال بالعمل الدائم

هو إكسير السم

الذى تفرزه أشواق الغرام

*

الفتيات فى حذرهن

يتطلعن إلى الزواج

والشرف هو الدوطة

وصوت يتغزل بهن

*

الفرسان المشّاءون

الذين فى البلاط يمرحون

يتغزلون بالحرائر

يتزوجون بالعفيفات

*

وهناك غراميات تشرق

يعالجنها مع الضيوف

فيصل عاجلاً الغروب

لأنه برحيلهم تكون النهاية

*

الحب حديث الولادة

الذى وصل اليوم ويرحل غدًا

لا يترك من الصور

شيئًا فى النفس انطبع

*

رسم على رسم

لا يبدو ولا يدل،

وحيث يوجد الجمال الأول

الجمال الثانى لا يربح

*

واجمال الأول دولثينيا دل توبوسو

على لوحة النفس منقوشة

صورة خالدة

يستحيل محوها

*

وثبات المحبين

القيمة الأكثر قيمة

بها الحب يصنع معجزاته

ويزدهر وينهض

*

إلى هذا انتهى دون كيخوتى من غنائه، الذى كانت تتصت إليه الدوقة والدوق وألتسيدورا، وتقريبًا كل سكان القلعة، وبشكل مفاجئ من قمة ممر يتعامد مع نافذة دون كيخوتى دلُوا حبلا مربوطًا به أكثر من مائة جرس صغير، وبعد ذلك أراقوا كيسًا ضخمًا مليئًا بالقطط المربوط بذيولها أجراس صغيرة أيضًا. كان الضجيج الصادر عن الأجراس هائلاً، وضجة القطط أكثر هولاً، ومع أن الدوق والدوقة كانا من اخترع اللعبة فإن الضجة أصابتهما بالفزع، أما دون كيخوتى المفزوع فقد بقى مشدوهًا، وشاء الحظ أن يدخل قطان أو ثلاثة إلى غرفته من بين قضبان النافذة، وقد انطلقوا فى رعب يتحركون فى المخدع من ناحية إلى أخرى كما لو كانوا كتيبة من الشياطين. أطفأوا شموع المخدع المتضرمة، واستمروا فى

هرجهم ومرجهم بحثًا عن مخرج، وخلال ذلك تدلية حبل الأجـرس ورفعـه لـم يتوقف، معظم سكان القلعة الذين لم يعرفوا بالخدعة كان مفزوعًا ومتعجبًا. نهـض دون كيخوتى على قدميه، وواضعًا يده على مقبض السيف، بدأ فى توجيه الطعنات عبر القضبان، قائلاً بصوت مرتفع:

– **والآن أيها السحرة الملاعين، إلى الخارج أيها الدجالون الأوغاد، فأنا دون كيخوتى دى لا مانشا فى مواجهة نواياكم السيئة التى لا تساوى ولا تمتلك قوة.**

والتفت إلى القطط التى تدور حول نفسها فى المخدع بطعناته فقفـز أحـدها إلى وجهه وأمسك بأظافره وأسنانه أنفه، فأطلق من الألم الصرخات بقدر ما يملـك صوته من مدى. عند سماع الدوق والدوقة لصرخاته، وتصورهما لمـا يمكـن أن يكون قد حدث، هرعا إلى غرفته بكل السرعة، وفتحاها بمفتاح (عموم الغـرف)، فوجدا الفارس المسكين يصارع لنزع القط عن وجهه. دخلا بأنوار وشاهدا المعركة غير المتكافئة، هرع الدوق لفض الاشتباك، وقال دون كيخوتى صارخًا :

– **لا أحد ينتزع القط عن وجهى، دعونى وجهًا لوجه مع هذا الشيطان، مع هذا المشعوذ، مع هذا الساحر، فإنى سوف أجعله يعرف من هو دون كيخـوتى دى لامانشا!**

لكن القط لم يأبه لهذه التهديدات، ومضى يموء مدمدمًا، محكمًا قبضته، لكـن فى النهاية اجتثه الدوق من وجهه، وألقى به من بين قضبان النافذة.

بقى دون كيخوتى مخربش الوجه، مع أنف ليست بكاملة الصحة، ومع هـذا كان مغضبًا حيث لم يتيحوا له إكمال المعركة عنيفة الاشتباك مع الساحر الـشرير. أرسلوا فى طلب زيت أباريثيو(*)، وقامت ألتسيدورا نفسها بيدها شـديدة البيـاض

(*) أباريثيو اسم مخترع هذا الزيت الذى يداوى الجروح. وهو شخص حقيقى عاش فـى القـرن السادس عشر.

بوضع الضمادات على كل جروحه، وعند وضعها قالت له بصوت منخفض :

- كل هذا البؤس الذى يصيبك، أيها الفارس المتحجــر، بســبب إثم قوتــك وعنادك، وصلى لله أن ينسى سانشو خادمك جلد نفسه، حتى لا تخرج من سحرها محبوبتك تلك دولثينيا، وحتى لا تتمتع بها، أو تصل إلى سرير الزواج بها، على الأقل مادمت أعيش أنا التى تعبدك.

على كل هذا لم يجب دون كيخوتى بكلمة ولا بتنهيدة، وبعــدها تمــدد فــى سريره شاكرًا للدوق والدوقة الفضل، لا ليس لأنه كان يخاف ذلك الوغد القططـــى، السحرى الأجراسى، وإنما لأنه يعرف النية الطيبة التى حفزتهمــا علـــى المجـــىء لنجدته. الدوق والدوقة نجحا فى تهدئته، وانصرفا حزينين بسبب الحـــادث الـــسيئ الذى وقع خلال هذه اللعبة، فلم يظنا أن تلك المغامرة كانت ستنتهى بــثمن بـــاهظ يدفعه دون كيخوتى، إذ كلفته خمسة أيام فى سريره بغرفته، خلالهـــا وقعـــت لـــه مغامرة ألذ من سابقتها، لا يحب مؤلف القصة حكايتها الآن، كى يهرع إلى سانشو بانثا الذى مضى فى حكومته بكل اجتهاد، وبكل ظرف ولطافة.

الفصل السابع والأربعون
حيث تتم حكاية كيف كان سانشو بانثا يتصرف فى حكومته

تحكى القصة أنهم حملوه من دار الحكومة إلى قصر هائل، حيث وضعت فى صالة هائلة مائدة ملكية وشديدة النظافة، وهكذا عند دخوله إلى الصالة دقت الموسيقى، وخرج أربعة خدم لغسل يديه بالماء، واستقبل سانشو ذلك فى وقار. توقفت الموسيقى وجلس سانشو على رأس المائدة، لأنه لم يكن يوجد غير ذلك المقعد، كما لم توجد ملاعق وسكاكين غير ملعقة وسكينة أمامه. وقف بجواره على قدميه شخص، ثبت بعد ذلك أنه طبيب، بعصا من عظم الحوت فى يده. رفعوا منشفة فارهة بيضاء كانت تغطى الفواكه، وتنويعة ثرية من أطباق مليئة بأنواع الطعام، وكان هناك شخص بدا كما لو كان دارسًا كهنوتيًا بارك الطعام، ووضع أحد الخدم (فوطة) على صدر سانشو رابطًا لها حول رقبته، وآخر كان يلعب دور خادم المائدة وضع طبق فاكهة أمامه ليكون طبقه الأول الذى يفتتح به الطعام، لكن لم يكد يقضم واحدة، حتى تقدم حامل العصا، وطرق بها الطبق فرفعوه فى سرعة خاطفة، لكن خادم المائدة أحضر مكانه طبقًا آخر من طعام مختلف. اتجه سانشو لتذوقه، لكن قبل وصول يده له أو تذوقه، كانت العصا قد طرقت الطبق، فرفعه أحد الخدم بنفس سرعة رفع طبق الفاكهة. وما أن رأى سانشو ذلك حتى أصابه العجب، وسأل خادم المائدة عما إذا كان عليه أن يتناول طعامه أم أنه يشارك فى لعبة يديرها (قرداتى)؟ أجاب عليه حامل العصا:

– لا يجوز تناول الطعام، أيها السيد الحاكم، إلا بنفس العادة والاعتياد فى كل الولايات التى لها حكام. أنا، يا سيدى، طبيب، وأقبض راتبًا فى هذه الولاية بوصفى طبيبًا خاصًا لحكامها، وأهتم بصحة الحاكم أكثر من اهتمامى بصحتى، دارسًا ليل نهار، وفاحصًا طبع الحاكم المركب من العناصر الأربعة، حتى أنجح فى علاجه عندما يسقط مريضًا، والعمل الرئيسى لى حضور وجباته وعشائه، وتركه يأكل ما يبدو لى مناسبًا لهذا الطبع، ومنعه من أكل ما أتصور أنه يضره أو يؤذى معدته، وهكذا أمرت بسحب طبق الفاكهة، لكونها رطبة أكثر من اللازم، أما طبق الطعام الآخر، أيضًا أمرت بسحبه، لكونه ساخنًا أكثر من المعتاد، ولأن به بهارات كثيرة تقوى الإحساس بالعطش، مما يؤدى إلى كثرة الشرب، وكثرة الشرب تستهلك وتقضى على الرطوبة الطبيعية للجسم، حيث جوهر الحياة(*).

– بهذه الطريقة فإن طبق طيور البرديس المشوية الموجودة هناك، حسب ظنّى عن أكل الطيور فى مواسمها، لن يسبب لى أى ضرر.

أجاب الطبيب:

– هذا الطبق لن يأكله السيد الحاكم بينما أنا على قيد الحياة.

قال سانشو :

– ولماذا؟

أجاب الطبيب:

– لأن عميدنا أيبوقراط، بوصلة ونور الطب، قال فى قاعدة طبية ذهبية:

(*) فى الطب القديم كانوا يعتقدون بوجود هذه الرطوبة التى تعطى أعضاء الجسم مرونتها.

" إن كل تخمة ضارة والأكثر ضررًا هي تخمة البرديس(*)"

قال سانشو :

– إذا كان ذلك كذلك، فلينظر السيد الطبيب فى كل الطعام فوق المائدة، ويحدد ما هو أكثر نفعًا لى وأقل ضررًا، ويتركنى آكله دون استعمال ضربات عصاه، لأنه بحياة الحاكم، وحق الله اتركنى أتمتع بطعامى، فأنا ميت من الجوع، وحجز الطعام عنى، حتى لو ضايق ذلك السيد الدكتور(**)، ومهما أكثر من القول، ينـزع عنى الحياة أكثر من إطالتها لى.

أجاب الطبيب :

– عندك حق، أيها الحاكم، وهكذا، فإنى أرى ألا تأكل فخامتكم من هذه الأرانب المطبوخة فى الطبق هناك لأنها صعبة الهضم! وذلك اللحم البقرى إذا لم يكن مشويًا وفى مرقة، يمكن تذوقه مع أنه لا يوجد ما يدعو لذلك.

وقال سانشو :

– ذلك الطبق الذى ينساب منه البخار فى المقدمة، يبدو أنه تشكيلة لحوم، ولتنوع محتوياته، لن أعدم مصادفة قطعة لحم تكون لذيذة وصحية .

قال الطبيب:

– بعد الشر عليك من أكله! اللهم أبعد عنا هذه الأفكار السيئة، فلا يوجد فى العالم أكلة أكثر ضررًا من تشكيلة اللحوم. فهى من أجل القساوسة أو

(*) قاعدة أبيوقراط تنص على الخبز وليس البرديس..

(**) يقصد أبيوقراط.

مديرى الكليات أو من أجل أفراح المزارعين، لكن يجب أن تخلو منها موائد الحكام، التى ينبغى أن تعد بكل أناقة وإتقان، والسبب لأنه دائمًا، وحيثما كان، ومهما كان، الفضل الأكبر يكون للأدوية البسيطة دون الأدوية المركبة، لأن أى خطأ فى كميات عناصر المركب ممكن بينما لا يحتمل أى خطأ فى الأدوية البسيطة، لكن ما أرى أن يأكله السيد الحاكم هو بعض رقائق البسكويت، وبعض شرائح من السفرجل، حيث تهدئ المعدة وتساعد على الهضم.

عند سماع ذلك استند سانشو على مسند كرسيه، وأخذ ينظر فى حملقة إلى الطبيب ذاك، وبصوت رزين سأله عن اسمه وعن المكان الذى درس فيه.

– أنا، يا سيدى، اسمى الدكتور بدرو ريثيو الفأل، وأنا من أهل تيراتى فويرا (ألق نفسك فى الخارج)، وهى بين كاراكويل ومدور الريف، على اليد اليمنى فى الموقع، وعندى درجة دكتور من جامعة أوسونا.

وعلى هذا علق سانشو:

– إذن، أيها الدكتور بدرو ريثيو الفأل (السيئ) يا من أنت مِنْ (ألق نفسك فى الخارج)، فى الموقع على يدك اليمنى بنفس طريقة الذهاب من كاراكويل إلى الريف، ويا خريج جامعة أوسونا، اسحب نفسك فى الحال من أمامى، وإذا لم تفعل، أقسم بالشمس أن آتى بهراوة، وأشبع بها ضربًا كل أطباء الولاية بادئًا بك، على الأقل كل طبيب منهم أدرك أنه جاهل، فبالنسبة للأطباء الحكماء ذوى الكياسة والذكاء سوف أضعهم فوق رأسى، وسوف أكرمهم بوصفهم أشخاصًا ملائكية وأعود للقول فليذهب عنى بدرو ريثيو؛ وإذا لا، سأحمل هذا المقعد الذى أجلس عليه، وسوف أحطمه فوق رأسه، وابق قابلنى لطلب

إعادة رأسك خارج الحكومة، وسوف يرتاح ضميرى بالقول إننى قمت بخدمة لله بقتل طبيب جاهل، جلاد للبلاد، وقدموا لى الطعام، فإن مهنة لا تطعم صاحبها لا تساوى حبتين من الفول.

اضطرب الطبيب عند رؤية الحاكم فى مثل هذا الغضب، وأراد أن يلقى بنفسه فى الخارج منسحبًا من الصالة، لولا أنه فى هذه اللحظة سمعت أصوات بوق مع طاقم جياد فى الشارع، فأطل خادم المائدة من النافذة، وعاد يقول :

- بريد يأتى من طرف الدوق، لابد أنها رسالة مهمة.

دخل عامل البريد يعرق فى فزع، وأخرج من حزامه لفة، ووضعها فى يد الحاكم، فوضعها سانشو فى يد مدير الخدم، وأمره بقراءة ما على المظروف، وكان يقول: "إلى دون سانشو بانثا، حاكم ولاية باراتاريا، خاص ليده أو ليد سكرتيره."

عند سماع سانشو هذا، قال :

- من منكم هنا سكرتيرى؟

أجاب أحد الحاضرين :

- أنا يا سيدى، لأنى أعرف القراءة والكتابة، كما أنى من بيثكايا.

قال سانشو :

- بهذه الإضافة (للقراءة والكتابة)، من الممكن بسهولة أن تكون سكرتيرًا لنفس الإمبراطور، افتح هذا المظروف وانظر ماذا يقول.

وهكذا فعل السكرتير حديث الولادة، وبعد قراءته الرسالة، قال إنه شأن ينبغى معالجته على انفراد. أمر سانشو بإخلاء الصالة، ولا يبقى فيها إلا رئيس الخدم وخادم المائدة، أما الطبيب والباقون فقد انصرفوا، وهنا قرأ السكرتير الخطاب بصوت مسموع، وكان يقول:

"وصلت إلى مسامعى أخبار، أيها السيد دون سانشو بانثا، أن بعض أعـــدائى وأعداء هذه الولاية، سوف يقومون بعملية هجوم عنيفـــة، لا أدرى فى أيـــة ليلـــة، والمناسب السهر والبقاء فى حالة طوارئ، حتى لا يهاجموك دون توقع. وأعرف أيضًا عن طريق جواسيس صادقين أنه قد دخل القرية أربعة أشخاص متنكـــرين لقتلـــك، لأنهم يخافون من ذكائك، افتح عينيك، وانظر فيمن يأتى للكلام معك، ولا تأكل من شيء يقدم إليك، وسأهتم بنجدتك إن رأيت نفسك فى مأزق، وعلى أية حال سوف تقوم بما ينتظر من حكمتك. من هذه القلعة، ١٦ أغسطس، الرابعة فجرًا.

صديقكم

"الدوق".

بقى سانشو مشدوهًا، وتظاهر الآخرون أيضًا بالذهول، وملتفتًا إلى رئـــيس الخدم، قال له :

– الذى ينبغى عمله الآن، وما ينبغى عمله فى الحال، هو وضع الدكتور ريثيو فى القيود؛ لأنه إذا كان على أحد أن يقتلنى، فإنه يجب أن يكون هو، وطريقته تحقق ذلك بالموت البطيء والفظيع، مثل الموت من الجوع.

قال خادم المائدة :

– أيضًا، فى رأيى، ألا تأكل، فخامتكم، من كل الطعام الموجود على المائدة، لأن من قدمه عدد من الراهبات، وكما اعتادوا القول "إن الشيطان وراء الصليب".

أجاب سانشو :

– لا أنكر ذلك، والآن أعطنى قطعة خبز، وبعض حبات العنب، فبها لا يستطيع أن يوجد السم، لأنه بالفعل، لا أستطيع الاستمرار دون طعـــام، وإذا كنـــا

بصدد الدخول العاجل فى هذه المعارك التى تهددنا، فعلى الإنسان أن يحافظ على لياقته جيدًا، فالأمعاء تسند القلب، ولا يستطيع القلب حمل الأمعاء. وأنت أيها السكرتير رد على خطاب الدوق سيدى، وقل له بأنه سوف يتم إنجاز ما أمر به كما أمر به، دون التهاون فى شيء، وقدم من طرفى قبلات ليد سيدتى الدوقة، وقل لها إنى أرجوها ألا تنسى إرسال الخطاب واللفة المرفقة به لزوجتى تيريزا بانثا، فبذلك تتلقى إنعامًا كبيرًا، من ناحيتى سأعتنى بخدمة الدوق بقدر ما تبلغ طاقتى، وعلى الهامش يمكن أن ترسل قبلات ليد سيدى دون كيخوتى دى لا مانشا، حتى يرى أننى أصون خبزه، وأنت بوصفك سكرتيرًا طيبًا، وابنًا لبيثكايا، يمكنك إضافة ما تشاء، وما يرد على خاطرك مناسبًا، وارفعوا هذه المائدة،ثم أعطونى آكل، وسوف أتسابق مع كل الجواسيس والقتلة والسحرة الذين يمكن أن يأتوا إلى ولايتى".

وهنا دخل خادم وقال :

- هنا يوجد مزارع له حاجة، ويريد أن يتكلم معك فى شأن يخصه، وحسبما يقول هو، الأمر مهم جدا.

قال سانشو:

- تلك حالة غريبة، حالة أصحاب الحاجة هؤلاء. هل من الممكن أن يكونوا مغفلين إلى هذا الحد، فلا يلاحظون أن مثل هذه الساعات ليست وقت مناقشة الحاجات؟ بالصدفة، هل نحن من نحكم، والذين نحن قضاة، ألسنا من لحم وعظم، وأنه من الضرورى أن يتركونا نستريح الوقت الذى تفرضه الضرورة، أم أن هؤلاء يودون أن نكون من الحجر المرمر؟ بالله وبحق نفسى،

إذا استمرت لى الحكومة (ولن تدوم حسبما تترجم عن نفسها لى الأحداث)، سوف أضع فى القيود أكثر من صاحب حاجة. والآن قل لهذا الرجل الطيب أن يدخل، لكن أقر أولاً أنه ليس من أولئك الجواسيس أو القتلة الذين يريدوننى.

– لا، يا سيدى، لأنه يبدو إنسانًا بسيطًا، فإما أن معرفتى قليلة، وإما أنه فى حسن طية الخبز الجيد.

قال رئيس الخدم :

– لا يوجد ما نخافه؛ فنحن عصبة.

قال سانشو :

– هل من الممكن، يا خادم المائدة، ألا يكون هنا الدكتور بدرو ريثيو، ولا آكل شيئًا له وزن ويسند البدن، حتى لو كان قطعة خبز وبصلة؟

قال خادم المائدة :

– فى هذه الليلة سوف تأكل فى العشاء فترضى ونسد هذا النقص، وهكذا سينتهى اليوم وأنت شبعان وسابغ الأجر.

أجاب سانشو :

– الله يسمع منك!

وخلال هذا، دخل الرجل، وكان حسن الهيئة كثيرًا، ومن ألف فرسخ يمكن ملاحظة طيبته وحسن طويته. أول ما قال كان :

- من يكون هنا السيد الحاكم؟

أجاب السكرتير:

- ومن يمكن أن يكون غير ذلك الجالس على الكرسى؟

قال المزارع:

- أحنى نفسى احترامًا لحضرته.

وركع طالبًا يد سانشو لتقبيلها، رفض سانشو تقديم يده، وأمر الرجل أن ينهض وأن يقول ما يريد. وهكذا فعل المزارع، قال :

- أنا يا سيدى مزارع، من أهل ميجيلتورًا، قرية على بعد فرسخين من المدينة الملكية.

- لدينا (ألق نفسك فى الخارج)(*) آخر؟! أيها الأخ، استمر فى كلامك، وما أدرى قوله الآن هو أننى أعرف ميجيلتورًا جيدًا، فهى ليست بعيدة عن قريتى.

واصل المزارع:

- والمسألة، هى أننى، لرحمة الله بى، متزوج فى سلام وعلى ملأ الأشهاد من الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، ولدىَّ ابنان يدرسان، الأصغر يدرس البكالوريا والأكبر الليسانس، وأنا أرمل؛ لأن زوجتى ماتت، وبعبارة أدق، قتلها طبيب، حيث أعطاها دواء مسهلاً عندما كانت فى حالة حمل، ولو كان

(*) المدينة الملكية قريبة من بلد الدكتور.

الحمل تم وتمت الولادة وكان المولود ولدًا لجعلته دكتورًا (هذا لو كان قد أراد الله)، حتى لا يقع حسد بينه وبين أخيه دارس البكالوريا أو الآخر دارس الليسانس.

قال سانشو:

– ومعنى ذلك أن زوجتك إذا لم تمت أو إذا لم يقتلوها، ما كنت قد صرت أرملاً الآن؟

أجاب المزارع :

– لا يا سيدى، بالقطع لا!

قال سانشو:

– يا للبهجة! واصل يا أخى فهذه ساعة نوم أكثر منها ساعة نظر فى الأعمال.

قال المزارع:

– أقول، إذن، إن ابنى هذا الذى سوف يحمل البكالوريا أغرم فى نفس القرية بصبية اسمها كلارا بيرلرينا، ابنة أندرس بيرلرينو، مزارع شديد الثراء، واسم بيرلرينا هذا لم يأتهم عن الجدود، ولا عن أى نسب آخر، وإنما هذا السلسال أصله بيرلاتيكو(*)، ولتحسين الاسم يطلقون عليهم (بيرلرينو)، وإذا أردنا

(*) لعب بالكلمات الاسم بيرلرينو وبيرلاتيكو جذرهما برلا أى لؤلؤ، لكن صيغة بيرلاتيكو تعنى مريضًا مرضًا مزمنًا (مشلول، مسلول)، أما الصيغة الأخرى فتشير للؤلؤ، أما الفتاة فقد استخدم مؤنث اللقب وجعله صفة تنسبها للعائلة، فالرجل منها موصوفًا (بيرلرينو) والمرأة (بيرلرينا).

الحق، فالصبية مثل لؤلؤة شرقية (فهى اسم على مسمى)، وإذا نظر إليها من الجانب الأيمن فهى زهرة برية، ومن الجانب الأيسر، ليست كذلك، لأنها تنقصها تلك العين، حيث قضى عليها الجدرى، ومع أن فتحات الوجه كثيرة وكبيرة، يقول من يحبونها كثيرًا إنها ليست فتحات وإنما قبور حيث تدفن نفوس عاشقيها. وهى نظيفة جدًا، حتى إنها كى لا تلوث وجهها حملت الأنف عليه، كما يقولون، وهى خنساء ذلك الأنف، حتى لا تكاد تظهر إلا كما لو كانت شيئًا يهرب من الفم، ومع كل هذا تبدو جميلة حتى المدى، لأن فمها واسع، وحيث إنه لا يفتقد عشرة أو اثنى عشر ضرسًا وسنة، فإنه يمكن أن يكون مقبولا وبراقًا مع أى فم لفتاة حسناء. وعن الشفاه فليس ما أستطيع قوله غير أنه إذا أمكن لف خيوط فى شلّة فالشفاة شلتان، لهذا فهى رهيفة رقيقة، لكن لكونها تحمل ألوانًا مختلفة تخرج على المألوف فى كل شفه فهى معجزة حيث ترى خلطة الأزرق مع الأخضر امتزجا بلون الباذنجان، وسامحنى، أيها الحاكم، لفرط رسمى أعضاء التى فى النهاية ستصير ابنة لى، وأنا أحبها كثيرًا، ولا تبدو لى سيئة.

قال سانشو :

– ارسم ما شاء لك الرسم، استجم بالرسم، وإذا كنت قد أكلت شيئًا، لما وجدت (حلو) بعد الطعام أفضل من صورتك.

أجاب المزارع :

– ستظل الصورة تحت أمرك، وإن لم تُحَلّ بها اليوم، فسيأتى وقتها. وأقول، يا سيدى، إذا استطعت وصف قوتها وطول جسمها، كان الأمر مثيرًا للعجب؛

لكن ليس ممكنًا، بسبب أنها ثقيلة الأرداف ومتقلصة، وركبتاها لصق فمها، ومع كل هذا يلاحظ جيدًا أنها إذا استطاعت النهوض تـصطدم رأسـها فى السقف، وبالفعل قد أعطت يدها زوجةً لابنى الذى يدرس البكالوريـا، ولا يبقى إلا أنه لا يستطيع فهمها، فهى مستاءة، وفى كل شىء تبرز أظافر طويلة مخددة دليلاً على برها وحسن عملها.

– طيب! طيب! اعمل حسابك أنك قد رسمتها من قدمها لرأسها.ماذا تريد الآن؟ وهات من الآخر دون لف أو دوران، أو استطرادات أو إضافات.

أجاب المزارع :

– أحب، سيدى الحاكم، وأريد من فخامتكم إعطائى خطاب توصية إلى والـد الفتاة كى يتم هذا الزواج، حيث إننا لسنا أقل منه فى الثـروة، ولا فيمـا وهبتنا الطبيعة، لأنه حتى أقول الحق، أيها السيد الحاكم، فإن ابنى مـسكون تركبه الشياطين، فلا يمر يوم دون أن تعصف به الأرواح الشريرة ثـلاث أو أربع مرات، ولكونه قد احترق فى إحدى المرات فإن وجهه مجعد مثل رقعـة جلد قديمة، وعينيه بكاءتان قليلاً، بل هما عينا ينبوع، ومع ذلك فهو مثـل ملاك، ولو لم يجلد نفسه بعنف، ويوجه بيديه اللكمات إلى كل جسمه لكان بركة من السماء.

أجاب سانشو :

– وهل تريد شيئًا آخر أيها الرجل الطيب؟

قال المزارع:

– نعم لى حاجة أخرى لكن لا أجرؤ على قولها، وفى النهاية، حتى لا تـتعفن فى صدرى ليحدث ما يكون. أقول، يا سيدى، أحـب أن يقـوم فخـامتكم

بإعطائى ثلاثمئة أو ستمئة درهم للمساعدة فى دوطة ابنى تلميذ البكالوريـــا، أقول، مساعدة(*) لتأسيس بيته، حتى يعيش فى النهاية دون أن يكون مشدودًا لصفاقة حميه.

قال سانشو:

– انظر إذا كنت تريد شيئًا ثالثًا، ولا تتردد فى قوله لحياء أوخجل.

أجاب المزارع:

– لا، بالتأكيد.

ولم يكد ينطق بهذا، حتى نهض الحاكم على قدميه، وأمسك بالكرسى الـــذى كان جالسًا عليه، وقال:

– أقسم بهذا، أيها القروى الفظ، وسيئ المنظر، إذا لم تبتعد مختفيًا عن ناظرى فى الحال فهذا الكرسى سوف أحطم به وأفتح لك رأسك! يا ابن الداعرة يـــا خبيث، رسام الشيطان نفسه. أفى هذه الساعات تأتى لتطلب مـــنى ســـتمئة درهم؟ ولماذا ينبغى على إعطاؤها لك لو كنت أملكها أيها المخبول اللعين؟ وما علاقتى بميجيلتورًا أو بكل سلسال بيرلرين؟ اذهب عنى، هذا ما أقـــول، وإذا لا، فبحياة الدوق سيدى لأفعلن ما وعدتك به. أنت لا بد لست مـــن ميجيلتورًا، وإنما مكار ساخر، أرسلتك جهنم إلى هنا كى تغوينى بالقتل. قل لى، يا عديم الرحمة، من أين أملك ستمئة درهم وأنا لى فى الحكومة ما لا يزيد على يوم ونصف اليوم؟

(*) عدَّل كلامه سريعًا لأن الدوطة تدفعها الفتاة !

أشار خادم الصالة للمزارع بأن ينصرف من الصالة، وقد خرج فعلاً منكس الرأس، وفيما يبدو خائفًا من أن ينفذ الحاكم ما دفعه إليه الغضب، فهذا الخبيث قد أحسن جيدًا تمثيل دوره!

لكن لنترك سانشو فى حمى غضبه، وليدركه هدوء السلام، وعلينا بالعودة إلى دون كيخوتى، وقد تركناه مضمدًا فى الوجه ومعالجًا من الجروح القططية، والتى لم يشف منها فى ثمانية أيام، وقد حدث له فى يوم من تلك الأيام الثمانية ما يعد سيدى حامدى بحكايته فى دقة وصدق اعتاد عليهما فى حكايته لهذه القصة.

الفصل الثامن والأربعون

ما وقع لدون كيخوتى مع دونيا رودريجيث، قهرمانة الدوقة، مع أحداث أخرى تستحق كتابتها، وتخليدها إلى أبد الآبدين

بجانب أنه كان مطحونًا وحزينًا، وسيئ الجروح، غطت الضمادات وجهه الذى امتلأ بالعلامات، ولم يحدث هذا لدون كيخوتى بيد الله، وإنما بأظافر قط، نكبة من النكبات اللصيقة بالفروسية المشاءة. أمضى ستة أيام محتجبًا لا يظهر لأحد، وفى ليلة من لياليها وكان مستيقظًا ساهرًا، مفكرًا فى تعاسته، وفى مطاردة ألتسيدورا، أحس بأنهم يفتحون مخدعه بمفتاح، وفى الحال، فكر فى أن الصبية العاشقة كانت قادمة للسطو على شرفه، وإعدام ولائه الواجب لسيدته دولثينيا دل توبوسو. قال: "لا، مصدقًا تخيلاته، وهذا بصوت مسموع-، حتى لو كانت شطرًا من أعظم جمال فى الدنيا لن تجعلنى أترك عبادة التى أملكها منحوتة ومطبوعة فى سويداء قلبى، وفى الكامن المخبأ فى أعمق أعماقى، فأنت سيدتى سواء تحولت إلى فلاحة بصلية العطر أو جنية بنهر التاخو المذهب، تنسجين النسيج من ذهب وحرير يختلطان، أو تحت قبضة ميرلين أو مونتيسينوس أينما أحبا أن يكونا، فحيثما كنتِ أنت محبوبتى، وأينما كنتُ أو أكون فإنى ملكك.

الانتهاء من هذه العبارات وفتح الباب كانا متزامنين، وقف على قدميه فوق السرير، ملفوفًا كله فى ملاءة من حرير أصفر، وطرطور على رأسه، ووجهه وشاربه

وخدوشه مضمدة جميعًا حتى لا تتهاوى وتقع الضمادات، وفى هذا المشهد بدا أغرب شبح تقع عليه العين. زرع عينيه فى الباب، وبدلاً من دخول من انتظر دخولها، المستسلمة والجريحة ألتسيدورا، دخلت قهرمانة جليلة، مع ملاءة بيضاء وطويلة، حتى أنها غطتها من الرأس حتى القدمين، وبين أصابع يدها اليسرى كانت تحمل نصف شمعة مشتعلة، وأظلت وجهها بيدها اليمنى حتى لا يسقط النور فى عينيها، التى كانت تغطيها غمامات كبيرة، دخلت تخطو بهدوء محركة قدميها برقة.

نظر إليها دون كيخوتى من عليائه، ورأى لباسها، ولاحظ صمتها، فكر أن إحدى الساحرات أو المشعوذات قد أتت بهذه الثياب كى تصنع له عملاً (سحريًا) شريرًا، وبدأ فى الصلاة راسمًا الصليب بيديه فى سرعة خاطفة. مضى المشهد يقترب حتى توسط المخدع، ورفعت عينيها ورأت السرعة التى كان يرسم بها دون كيخوتى الصلبان، وإذا كان قد ركبه الخوف من رؤية هذه الصورة، فقد أفزعتها أيضًا صورته، لأنها مجرد أن رأته هكذا طويلاً جدًا، أصفر جدًا مع الضمادات تشوهه، صرخت قائلة :

- يسوع! ما هذا الذى أراه؟

ومع الفزع سقطت الشمعة من يدها، وعندما رأت نفسها فى الظلام أدارت ظهرها للانصراف، ومع الخوف تعثرت فى ذيل ثوبها، وسقطت سقطة عظيمة، وخائفًا، بدأ دون كيخوتى يقول :

- **أستحلفك أيها الشبح أو أيًا كنت، قل لى من أنت، وقل لى ماذا تريد منى؟ إذا كنت روحًا تتعذب، قلها، وسوف أصنع من أجلك كل ما يمكن أن تستطيعه قواى، لأنى كاثوليكى مسيحى، وصديق لفعل الخير لكل الناس، ومن أجل هذا أخذت نظام الفروسية المشَّاءة، التى أمارسها، وممارستها تقدم الخير حتى للأرواح التى تعيش فى الأعراف (أو المطهر).**

القهرمانة المرتعبة، والتى سمعت استحلاف دون كيخوتى، استدلت بخوفها على خوف دون كيخوتى، فأجابته بصوت واهن وخفيض:

- يا سيدى دون كيخوتى (إذا كنت بالفعل دون كيخوتى)، أنا لست شبحًا أو رؤيا، ولا روح الأعراف، كما لا بد أن فخامتكم قد ظن، وإنما أنا دونيا رودريجيث قهرمانة الدوقة، وبى ضرورة من تلك الضرورات التى تعودت فخامتكم على علاجها، ومن أجلها أجيء لفخامتكم.

قال دون كيخوتى:

- قولى لى دونيا رودريجيث، بالصدفة هل جئت للقيام بمهمة قوَّادة؟ لأنى أقول لك بأنى لست صالحًا لحب أحد، بفضل جمال سيدتى دولثينيا دل توبوسو. وأقول فى النهاية، يا سيدة رودريجيث، اتركى أى رسالة غرامية جانبًا، ويمكنك العودة لإشعال شمعتك، ولنبتعد عن كل رسالة أكثر أو ما يتصل بذلك، منحين كل شرور الإغواء بعيدًا.

أجابت القهرمانة :

- أنا، يا سيدى، لا أحمل رسائل من أحد، فخامتكم لا تعرفنى جيدًا، كما أنى بعد مازلت فى سن مبكرة، لأسعى بهذه الصبيانيات، التى تحترفها القهرمانة العجوز، وأنا بحمد الله ما زالت روحى فى لحمى، ومازالت أسنانى وضروسى فى فمى، إلا بعضها اغتصبها منى إصابتى المتكررة بالبرد، وهو أمر معتاد فى أرض أراجون هذه، لكن انتظرنى فخامتكم قليلاً، فسوف أخرج لإشعال الشمعة وأعود فى لحظة لأحكى لك عن شدتى وضيقى، باعتبارك طبيبًا لكل شدة وضيق فى العالم.

ودون انتظار إجابة خرجت من المخدع، حيث بقى دون كيخوتى، هـــادئًا ومفكرًا فى انتظارها، لكن فى الحال مر به ألف خاطر حول هذه المغامرة الجديدة، وبدا له من سوء عمله وفكره ظنه أن من دخل الغرفة كان يضع ولاءه لسيدته فـــى خطر، وكان يخاطب نفسه:

"من يعرف عما إذا كان الشيطان بفطنته وبراعته لم يحب أن يخدعنى الآن مع مثل هذه القهرمانة، وهو ما لم يـــستطعه مـــع إمبراطـــورات وملكـــات ودوقـــات وماركيزات، ولا حتى مع كونتيسات؟ فقد سمعت مرات عديدة من أشـــخاص ذوى فطنة، أنه إذا أمكن له سوف يدمركم قبل أن يغويكم. ومن يعرف عما إذا كانـــت هذه الوحدة، والفرصة المتاحة، وذلك الصمت، لن توقظ الرغبة النائمة، وتجعلنى فى نهاية تلك السنين أسقط، أنا من لم يتعثر قط؟ وفى حالة مشابهة الهرب أفـــضل مـــن انتظار المعركة. لكن لابد أننى فقدت صوابى، فها أنا أفكر فى مثل هـــذه الترهـــات وأرددها، فليس ممكنًا لقهرمانة بيضاء الثياب، فارغة، ذات شهوة، قدرة على حفـــز واستثارة أفكار شقية فى الصدر الأكثر قسوة فى العالم. بالصدفة، هل توجد قهرمانـــة فى العالم كله طرية اللحم؟ بالصدفة، هل توجد قهرمانة فى الكون يمكـــن ألا تكـــون صفيقة، ومتجهمة ومتكلفة؟ إلى الخارج، إذن، أيتها الزمرة القهرمانية، هديـــة غـــير مفيدة لأى كائن إنسانى! أوه! أى خير صنعت تلك السيدة، التى يقال عنها أنها كان لديها قهرمانتان تمثالان بثرواتهما وحشياتهما فى آخر غرفة استقبالها، كما لو كن يقمن بعملهن حتى تبدو السلطة والجاه فى القاعة بفضل هذين التمثالين كمـــا لـــو كانـــا قهرمانتين حقيقيتين!"

وعند قوله هذا ألقى نفسه من السرير نحو الأرض بنية إغلاق الباب، وعدم السماح للسيدة رودريجيث بالدخول، ولكن عند وصوله إليه لإغلاقه ظهرت السيدة

رودريجيث مع شمعتها البيضاء، وعندما رأت دون كيخوتى على مسافة أقرب، ملفوفًا فى الملاءة مع الضمادات والطرطور، خافت من جديد وانسحبت خطوتين للوراء، وقالت :

- هل نحن فى أمان، أيها السيد الفارس؟ لأننى لا أراها علامة طيبة مغادرة فخامتكم للفراش.

أجاب دون كيخوتى :

- أنا أسأل عن نفس الشيء يا سيدتى، وهكذا أسأل: هل أنا آمن ضد أن أهاجم وأن أغتصب.

أجابت القهرمانة :

- ممن تطلب هذا الأمان، أيها السيد الفارس، وضد من ؟

أجاب دون كيخوتى :

- أطلبه منك وضدك؛ لأننى لست من حجر المرمر، ولا أنت من البرونز، وليست الساعة هى العاشرة صباحًا، لكننا فى منتصف الليل بل أكثر، وفوق ذلك، طبقا لما أتصوره؛ فى غرفة وفى سرية، ومثلما كان ينبغى أن يكون الكهف الذى تمتع فيه إينياس من الحسناء والنقية ديدو. لكن أعطنى، يا سيدتى، يدك فأنا لا أطلب أمانًا أكثر من جهاد النفس وعفتى، وما تمثله هذا الملابس الوقورة.

وعند قول هذا قبل يدها اليمنى، وأمسك بها بيده اليمنى، وقد شاركته هى تلك الشعائر.

هنا يضع سيدى حامدى الكلام بين قوسين ويقول : بحياة النبى محمد أنه رآهما الاثنين هكذا يداهما تمسك إحداهما الأخرى وتتشابك معها من موقفه عند الباب، وأنهما اتجها معًا نحو السرير ملفوفين فى خير لفافات يلتحف بها اثنان.

دخل أخيرًا دون كيخوتى فى سريره، وبقيت دونيا رودريجيث على كرسى، منحرف بعض الشىء عن السرير، ودون أن ترفع الغمامة عن عينيها، أو تترك الشمعة من يديها، وبينما تكور دون كيخوتى وغطى نفسه جميعًا، دون أن يترك أكثر من الوجه مكشوفًا، وما إن هدأ الاثنان، حتى كان أول من كسر الصمت كان دون كيخوتى قائلاً :

– يمكنك الآن، سيدتى دونيا رودريجيث، أن تفضفضى وتفرغى كل ذلك الذى يثقل على قلبك، ويحزن وجدانك، فستكونين مسموعة بآذان صافية، مشفوعة بأعمال نجدة بارة.

أجابت القهرمانة:

– هذا ما أظنه أنا، فلا يمكن أن ينتظر من حضورك الشجاع واللطيف إلا الاستجابة التقية. والقضية، إذن، أيها السيد دون كيخوتى، هى أنه مع أنك تجدنى جالسة فى هذا المقعد، وفى قلب مملكة أراجون، وفى ثياب القهرمانة الضائعة المنهكة، فأنا من أبناء لاس أستورياس دى أوبييدو، ومن نسل تعتبره أفضل عائلات المنطقة، لكن لقلة حظى وفقر والدى قبل الأوان لإهمالهما، فقد حملانى، دون روية، إلى البلاط فى مدريد، ولتجنب تعاسات كثيرة ولسلامى أقرونى باعتبارى صبية خادمة عند سيدة عظيمة هناك، وأحب أن أعرفك أننى منذ ذلك الحين لم يعلمنى أحد شيئًا فيما أقوم به من عمل. تركنى

والداى فى الخدمة، وعادا إلى أرضهما، وبعد سنوات قليلة صعدت روحهما إلى السماء لا بد، فقد كان تقاهما زائدًا. وبقيت يتيمـــة، معلقـــة بالمرتـــب البائس، وبالإنعامات البائسة التى تعودوا على منحها لمثل هؤلاء الخادمات فى القصر، وفى ذلك الوقت، ودون أن أتيح الفرصة لأن يحدث، وقع فى غرامى خادم بالبيت، رجل عجوز، ملتح، وله شخصية، وفوق ذلك ابن عز مثـــل الملك، لأنه كان جبليًا(*). لم نعالج غرامياتنا بكل سرية، حتى لا تعلـــم بهـــا السيدة، وللخروج من القيل والقال تزوجنـــا فى الكنيـــسة الكاثوليكيـــة الرومانية، ومن هذا الزواج أنجبت بنتًا حتى تجهز على حظى، لو كان لى أى حظ، ليس لموتى فى الولادة، فقد ولدت فى موعدها صحيحة، وإنما لمـــوت زوجى لفزع محدد أصابه، ولا يوجد وقت الآن لحكايتـــه، فـــإنى أعلـــم أن فخامتكم سوف تعجب.

وهنا بدأت فى البكاء الحنون، وقالت :

- سامحنى، فخامتكم، أيها السيد دون كيخوتى، فليس بيدى منع احتراق عـــينى بالدموع فى كل مرة أتذكر سوء ما حدث لى. فليرحمنى الله، وبأى حق كان يحمل سيدتى على فخذَىْ بغلة جبارة، وسوداء مثل الغراب الأسود نفـــسه! ففى ذلك الحين لم تكن تستعمل العربات أو مقاعد السرج، كما يقولـــون، أنهم الآن يستعملونها، والسيدات حينذاك كن يتحركن على فخذَىْ مطيـــة خدمهن. هذا على الأقل لا أستطيع أن أتوقف عن حكايته، لأن فى قـــصته يلاحظ حسن تربية ودقة زوجى. فعند دخوله بالبغلة فى الشارع سانتياجو،

(*) من جبال سانتاندير، وهم رعاة ، أقوياء أعزاء النفس.

فى مدريد، وهو ضيق إلى حد ما، كان خارجًا منه عمدة البلاط مع مساعدين له أمامه، وهكذا فزوجى باعتباره خادمًا مخلصًا، عندما رآه حول عنان البغلة، معطيًا إشارة بأنه سيعود لصحبة العمدة. سيدتى التى كانت وراءه على فخذتى البغلة، كانت تقول له بصوت منخفض: "ماذا تفعل أيها التعس؟ ألا ترى أننا هنا؟ العمدة فى تهذيب، أوقف عنان جواده، وقال له: "واصل أيها السيد طريقك، فأنا من ينبغى عليه أن يصحب زوجتى دونيا كاسيلدا". وهذا كان اسم سيدتى. ومع ذلك عاند زوجى بالقبعة فى يده، راغبًا فى العودة لمرافقة العمدة، وعندما شاهدت سيدتى ذلك فى غضب شديد وانفعال أخرجت دبوسًا غليظًا أو شيئًا شبيهًا ينخز من صندوق مجوهراتها، وغرسته فى ظهره، حتى إن زوجى صرخ صرخة عظيمة والتوى جسمه وسقط مع سيدته على الأرض. أقبل خادمان لإنهاضها، ومعهما العمدة ومساعدوه، واضطرب باب وادى الحجارة، والناس الذين يقضون وقت البطالة هناك. أتت سيدتى على قدميها، وهرع زوجى لمنزل حلاق، حيث كان يحس أن أحشاءه كانت تتحرك من طرف إلى طرف آخر. انتشر خبر تأدب زوجى، حتى إن الصبيان كانوا يحكونه فى الشوارع، ولهذا السبب، ولضعف نظره، فصلته سيدتى من العمل، ومن حزنه لهذا، حسبما أعتقد أنا، نجم سبب موته. وبقيت أرملة دون ملجأ، ومع ابنة تنمو، فى حسن مثل زبد البحر. وأخيرًا، كما كانت لى شهرة بأنى مجتهدة فى عملى، سيدتى الدوقة، والتى كانت حديثة الزواج بالدوق سيدى، أحبت أن تحضرنى معها هنا إلى أرض أراجون، ومعى ابنتى، وراحت الأيام وجاءت الأيام، وكبرت ابنتى، وكبرت معها كل ملامح العالم، تغنى مثل قلندرة،

وترقص فى خفاء الأفكار، وتعبر بالرقص كما لو كانت فاقدة للوعى، وتقرأ وتكتب مثل أستاذ مدرسة، وتحسب مثل البخيل . وعن نظافتـــها لا أقـــول شيئًا، فالماء الجارى ليس أنظف منها، وهى الآن عندها ، إذا لم تخنى الذاكرة، ستة عشر عامًا وخمسة شهور وثلاثة أيام، يوم زائد أو نــاقص. باختـــصار صبيتى هذه وقع فى غرامها ابن مزارع واسع الثراء، يعيش فى إحدى قـــرى الدوق سيدى، وهى ليست ببعيدة عن القلعة. وبالفعل لا أعرف كيف وبأى طريقة اجتمعا معًا، وتحت كلمة الزواج ووعده خدع ابـــنتى، ولا يريـــد أن ينجز كلمته، ومع أن الدوق سيدى يعرف بالأمر، إذ شكوت إليه، ليس مرة بل مرات، وطلبت منه أن يأمر ابن المزارع هذا بالزواج من ابنتى إلا أنـــه لا يحب الاستماع إلىَّ، والسبب لأن الأب غنى، ويقرض الدوق نقودًا، ويظهر ضامنًا لحيله فى لحظات، من ثَم فإنه لا يحب أن يغضبه أو يثقل عليه فى شىء، بأية حال من الأحوال. وأحب، يا سيدى، أن تأخذ على عاتقكم الـــتخلص من هذا العار، إما بالرجاء، وإما بالسلاح، فطبقًا لما يقوله العالم بأجمعه، مـــن أنك ولدت فيه لمحو العدوان، وعدل المائل، وإجارة البؤساء، وضع فخامتكم أمامكم يتم ابنتى، وظروفها وشبابها، مع كل المحاسن التى تمتلكها، فبحق الله ودخيلة نفسى، إنه مع كثرة الصبايا فى خدمة سيدتى لا توجد واحدة منهن ترقى إلى كعب حذائها، وهناك واحدة يطلقون عليها ألتسيدورا، والتى يرون فيها الأجمل والآنق، وهذه لو قارناها معها لا تقترب من ابنتى ولا بفرسخين. ولأنى أحب أن تعرف، فخامتكم، سيدى، أن ليس كل ما يلمع من الذهب، لأن هذه الألتسيدورا، لديها من التكلف أكثر من الحسن، ومن عدم الحياء أكثر من الحياء، بجانب أن صحتها ليست جيدة جدًّا؛ فلها نفس رائح، حتى

إن أحدًا لا يحتمل القرب منها لحظة! وحتى سيدتى الدوقة .... أحب أن أصمت، فهم يقولون إن الجدران لها آذان.

سأل دون كيخوتى:

– ماذا عند سيدتى الدوقة، بحياتى قولى يا سيدة رودريجيث.

أجابت القهرمانة:

– أقسم على أنى لا أستطيع ألا أن أجيبك على ما تسأل وبكل صدق. هل ترى، يا سيد دون كيخوتى، حسن سيدتى الدوقة، تلك البشرة لوجه لا يشبهه إلا السيف المصقول فى جلاء والأملس فى صفاء، وذينك الخدين من اللبن، ومن الورد المتضرم، فى أحدهما القمر وفى الآخر الشمس، وذلك التبختر الذى تنتظم به خطواها، وتزدرى خلاله الأرض، مريقة فوق سطحها الصحة أينما سارت؟ إذن، اعرف فخامتكم، أنها عليها أن تشكر الله هذا أوَّلاً ثم الينبوعين(*) اللذين لها فى الرجلين الاثنتين، حيث يتم عن طريقهما صرف كل المزاج السيئ الذى يقولِ الأطباء إنها به مليئة.

قال دون كيخوتى:

– سانتا ماريا يا عدرا! هل من الممكن أن سيدتى الدوقة بها هذه المصارف؟ ما كنت لأعتقده حتى لو قاله لى الرهبان الحفاة، لكن إذا قالته السيدة دونيا رودريجيث، يجب أن يكون ذلك كذلك. لكن هذه الينابيع وفى هذه الأماكن

(*) نوع من الدمامل، والقروح (نواسير)، وربما فتحات دائمة يحدثها الأطباء باعتباره نوعًا من أنواع الفصد، للتخلص من المزاج السيئ.

لا ينبغى أن يتدفق منها المزاج، وإنما العنبر السائل. وحقيقـــة، والآن فقـــط بدأت أعتقد أن موضوع فصد الينابيع يجب أن يكون شيئًا مهمًا للصحة.

ولم يكد دون كيخوتى ينتهى من هذه العبارة، حتى فتحوا أبــواب المخـــدع بضربة عظيمة، ومع فزع الضربة سقطت الشمعة من يد دونيا رودريجيث، وبقيت الغرفة مثل فم ذئب، كما تعودوا وصف الظلام. أحست القهرمانة المـــسكينة أنهـــم يقبضون على حنجرتها بيدين قويتين لم تتركا لها فرصة التأوه، وشـــخص آخـــر، بسرعة خاطفة ودون نطق كلمة واحدة، رفع ذيل ثوبها، وفيما يبدو بفردة حذاء بدأ يسوطها كثيرًا، وكانت مَحْزَنَة؛ ومع أن دون كيخوتى كان صاحب المحزنة فإنه لم يتحرك من السرير، ولم يعرف ما يمكن أن يكون ذلك، وبقى ساكنًا وصامتًا، وحتى خائفًا أن ينتقل إليه الجلد ويأتى دوره. ولم يكن خـــوفه عبثًا، لأنه بعـــد أن تركـــوا القهرمانة مطحونة (ولم تجرؤ على الشكوى)، توجه الجلادون الصامتون مسرعين إلى دون كيخوتى وفكوا عنه ملاءته الملفوف بها، ورفعوا عنه غطاء السرير الذى يغطيه و قرصوه وخمشوه بوفرة وبقوة، فلم يستطع أن يدافع عن نفـــسه بقبـــضته، وكل هذا فى صمت مدهش. دامت المعركة تقريبًا نصف ساعة؛ وخرجت الأشباح، لملمت دونيا رودريجيث ثوبها، وفى عواء لنكبتها خرجـــت مـــن البـــاب خـــارج المخدع، دون أن تقول كلمة لدون كيخوتى، والذى من الألم والضرب، ظل محتارًا متفكرًا، وبقى وحده، حيث سوف نتركه تقتله الرغبة فـــى معرفـــة مـــن الـــساحر المعادى، الذى دبر له هذا، لكن ذلك سوف يقال فى وقته، فسانشو بانثـــا ينادينـــا، وإيقاع القصة يتطلبه.

الفصل التاسع والأربعون
ما حدث لسانشو بانثا فى جولة ليلية لتفقد ولايته.

تركنا الحاكم العظيم غاضبا ومكتئبا بسبب المزارع الرسام، والمكار الساخر، والذى تمت صنعته بإيحاء من رئيس الخدم، للعبث مع سانشو، لكنه صمد أمام الجميع، رغم أنه عبيط، وسمين وأجش، وقال لمن كانوا معه، وللدكتور بدرو ريثيو، الذى عاد بعد نهاية سر خطاب الدوق إلى الصالة:

- الآن بحق، أعرف أن القضاة والحكام عليهم أن يكونوا من برونز، حتى لا يحسوا بلجاجة أصحاب الحاجات، الذين يودون أن ينصتوا إليهم فى كل ساعة، وفى كل الأوقات، مهتمين فقط بحاجاتهم، وليحدث ما يحدث، وإذا القاضى المسكين لم يستمع إليهم ويقضى بينهم، إما لأنه لا يستطيع، أو لأن ذلك الوقت ليس وقت التفويض لعمل جلسات استماع، فى الحال يلعنونه ويطلقون الشائعات، ويقضمون عظامه ويسبون أجداده. يا صاحب الحاجة لتقديم دعواك، لا تحضر فى ساعة الطعام، ولا فى ساعة النوم، فإن القضاة من لحم وعظم، وعليهم أن يهبوا الطبيعة ما تطلبه منهم بشكل طبيعى، وإذا أنا لم أعط طبيعتى الطعام، بفضل السيد الدكتور بدرو ريثيو (ألق بنفسك إلى الخارج)، والذى هو أمامى، فإنه يجب أن أموت من الجوع، ويؤكد أن ذلك

الموت حياة. ليعطه الله نفس هذه الحياة، ولكل من لهم مهنته، أقــول فقــط للأطباء الجهلة، أما الأطباء المتازون فالتصفيق والغار.

كل من كانوا يعرفون سانشو بانثا اندهشوا مستمعين إليه، وهو يــتكلم بكــل هذه الأناقة، ولم يعرفوا إلى ماذا يرجعون ذلك؟ أو اللهم إلا إلى حيرتهم طــارحين السؤال: هل المهن والمناصب الخطيرة تشحذ الذكاء أم تتعثر به؟ أخيرًا، الــدكتور بدرو ريثيو الفأل دى (ألق بنفسك إلى الخارج) وعد أن يعطيه عشاء تلــك الليلــة حتى لو كسر كل وصفات أبيوقراط. وبهذا بقى الحاكم مسرورًا، ينتظر الليل بشوق عظيم، كى تصل ساعة العشاء، لكن على ما ظهر كان الوقت ساكنًا لا يتحرك من مكانه، ومع ذلك وصلت الساعة الموعودة، وأعطوه العشاء لحمًــا بقريًــا متــبلاً بالبصل، ولحم بقر عجاليًا مطبوخًا شديد الطراوة. أسلم نفسه للطعام بكل اللذة التى كانت أعظم من لذة إعطائه أجود لحوم الحيوان والطيور المــشهورة بهــا ميلانــو وروما وسورنتو ومورون ولاباخوس. وخلال العشاء التفت إلى الدكتور، وقال له:

– انظر أيها السيد الطبيب، من الآن فصاعدًا، لا تحاول إعطائى لآكل أشياء فيها تدليل أو أطعمة لذيذة، لأن معنى ذلك إخراج معدتى من مخطمها، فــالمتعود على لحم الماعز والبقر، واللحم المقدد، والشحم، وشحم الخنــزير والبصل، هل من المعقول أن يقدم له أطعمة القصور، فيستقبلها بتدلل، ومرات بتقزز؟ الذى يستطيعه خادم المائدة هو أن يقدم له (الحلّة) المشكلة من كل اللحوم، وكلما زادت لها الأنواع، تفوح لها رائحة أفضل، وفيها يمكن ضم كل مــا يحبه هو، فكما أنها أشياء تؤكل، فإنى سأشكر له تقديمها، وسوف أسدده له يومًا من الأيام، ولا يلعب أحد معى، لأنه إما نكون أو لا نكــون، لنعــيش جميعًا ولنأكل فى سلام وفى صحبة، لأن الله عندما يأتى بالصباح يأتى به مــن

أجل الجميع وأنا سوف أحكم هذه الولاية دون أن أضيع حقًا أو أقبل رشوة، وعلى الجميع، أن يفتح عينيه، ويهتم بما يعنيه، لأننى أريد أن أعلمكم أن الشيطان لا يعدم وسيلة لإيجاد الشغب فى مكان ما، وإذا أعطونى فرصة لابد أن تروا عجائب.

قال خادم المائدة :

- يقينًا، أيها السيد الحاكم، فإن سيادتكم معك أكبر الحق فى كل ما قلت، وإنى أقدم نفسى باسم كل سكان الولاية الذين عليهم خدمة فخامتكم بكل الانضباط والحب والرضا، لأن الطريقة الناعمة للحكم التى أظهرها فخامتكم فى هذه الأيام تدل على أنه لا مكان لهم لعمل، ولا حق التفكير فى عمل يتحول ضد فخامتكم.

أجاب سانشو:

- هذا ما أعتقده، وسيكونون حمقى إن عملوا أو فكروا فى شيء آخر. وأعود للقول، يجب الاهتمام بغذائى وبغذاء حمارى، الذى هو فى كل هذا الأمر يهمنى، ويستحق وضعه فى الاعتبار، ولكونها ساعة الدورية الليلية، فإن نيتى تنظيف هذه الولاية من كل دنس، ومن الناس الضالة والكسالى، وسيئة اللهو، حيث أود أن تعرفوا، أيها الأصدقاء، أن الناس العاطلة والكسلانة هم فى البلد مثل ذكور النحل فى الخلية، تأكل عسل العاملات من شغالة النحل. وأفكر فى مناصرة المجتهدين، وحفظ أفضليتهم على الأعيان، ومكافأة الفضلاء، وقبل كل شيء تقديم الاحترام، والتكريم للمتدينين. كيف يبدو لكم ذلك، يا أصدقائى؟

قال رئيس الخدم:

- تقول، فخامتكم، أيها السيد الحاكم، الكثير، وإننى لمندهش أن أرى رجلاً غير متعلم، على ما أعتقد، مثل فخامتكم، يقول أشياء كثيرة مليئة بالأحكام والتحذيرات، تخرج تمامًا عما تصوروه عن ذكائك وتوقعوه، وما تصورنا نحن من جئنا معك. فى كل يوم نشهد أشياء جديدة فى العالم، والخدع تتحول إلى واقع، والمخادعون يجدون أنفسهم مخدوعين.

وصل الليل ودخل، وتعشى الحاكم وأكل، مع موافقة السيد الدكتور ريثيو الفأل. اتجهوا لجولة تفقد الأحوال، وخرج الحاكم مع رئيس الخدم، وخادم الصالة، وكاتب الأحكام والتقارير الذى حرص على تسجيل أعماله، والمأمير القضائيين، والكتبة، والكثيرين، حتى إنهم جميعًا يمكنهم تشكيل نصف كتيبة. سار سانشو فى الموسطة، بصولجانه، وليس بعد رؤية أُبَّهته أُبَّهة، ولم يبتعدوا إلا بعدة شوارع حين سمعوا ضجيج طعنات، فهرعوا إلى مصدر الصوت، ليجدوا رجلين فحسب يتشاجران، وهذان عند رؤية العدالة قادمة، أصابهما التجمد، قال أحدهما:

- ها قد جاء قانون السماء والأرض! كيف يمكن معاناة أن يسرقوا الواحد فى قلب العمار، ويخرجوا للسطو فى عرض الشارع؟

قال سانشو:

- اهدأ أيها البار، واحك لى سبب هذه المشاجرة، فأنا الحاكم.

فأجابه الخصم الآخر، وقال:

- أيها السيد الحاكم، سأقول لك ذلك بكل اختصار. لتعلم فخامتكم أن هذا الرجل الشجاع قد انتهى حالاً من تحقيق مكسب كبير فى هذه الدار التى

تدار للقمار، وقد بلغ مكسبه ألف ريال، والله يعلم كيف كسبها، إذ كنت حاضرًا، وحكمت لصالحه فى أكثر من مرة لحظه المشكوك فيه، ضد كل ما يمليه عليَّ الضمير، وخرج بمكسبه، حيث كنت أنتظر أن يعطينى دينارًا، على الأقل، ثمنًا رخيصًا لعملي، وهى عادة وعرف أن يدفعوا مثل ذلك للرجـال الرئيسيين مثلي، فنحن نحضر فى مواجهة الأحداث الطيبة والسيئة، وحـتى نؤيد الظلم والتعسف، ونحول دون المشاجرات، وهو قد دس نقوده فى جيبه، وخرج من دار القمار. وخرجت مغضبًا وراءه، وبكلمات طيبـة ومؤدبـة طلبت أن يعطينى ولو حتى ثمانية ريالات، وهو يعلم أننى رجل شريف، وليس لى شغلة أو مشغلة، لأن والديَّ لم يعلمانى، ولم يتركا لى مهنـة، والداهيـة الساخر، الذى هو لص أكثر من كاكو، ومحتال أكثر من أندراديًا، لم يقبـل إعطائى أكثر من أربعة ريالات. فانظر فخامتكم، أيها السيد الحاكم، أى قلة (حيا)، وأى انعدام ضمير! لكن يمينًا إذا لم تكن فخامتكم قد وصلت، كنت سأجعله يتقيأ مكسبه.

سأل سانشو الأول:

– وماذا تقول أنت عن هذا؟

أجاب الآخر أن كل ما قاله حقيقى، وأنه لم يحب إعطاءه أكثر مـن أربعـة ريالات، لأنه تعود على إعطائه هذا المبلغ مرات كثيرة، والذين ينتظرون الكـسب الرخيص عليهم أن يكونوا مهذبين، وأن يقبلوا بوجه سمح مـا يعطـونهم، دون أن يحاسبوا من يكسبون، إذا لم يتيقنوا أن هؤلاء محتالون وأن مكسبهم حققـه الغـش، وعلامة على أننى رجل غير غشاش، وأننى لست لصًا، كما يقول هو، أقول، بـل

أكبر علامة عدم رغبتى فى إعطائه شيئًا، لأن الغشاشين دافعو ضرائب دائمًا للبصاصين الذين يعرفونهم.

قال كبير الخدم:

– هذا هو الأمر، انظر فخامتكم، أيها السيد الحاكم، ماذا ينبغى عمله مع هذين الرجلين.

أجاب سانشو:

– ما ينبغى عمله هو هذا، أنت أيها الرابح، سواء كنت طيبًا أو غشاشًا، أو حتى غير مبال بالأمرين، أعط فى الحال لخصمك هذا مائة ريال، كما أنه عليك بدفع ثلاثين ريالاً لفقراء السجن، وأنت يا من ليس لك شغل أو مشغلة، وجودك هنا فائض عن الحاجة، خذ هذه الريالات المائة، وغدًا اخرج خلال النهار منفيًّا من هذه الولاية، وإذا كسرت هذا الأمر، سوف تنفذه فى الحياة الأخرى معلقًا لرقبتك فى المشنقة، وهذا الحكم على الأقل طوال مدة حكمى، ومن يعترض له عقاب موجع.

دفع الأول، وتسلم المبلغ الثانى، وهكذا خرج من الولاية، وذلك ذهب إلى بيته، ومضى الحاكم يقول :

– الآن ما أستطيعه قليل، أو أغلق دور القمار هذه، حيث ألمح أنها شديدة الضرر.

قال الكاتب:

– هذه الدار، على الأقل، قد لا تستطيع فخامتكم إغلاقها، لأنها ملك شخصية مهمة جدًّا، فضلاً عن أنه دون مقارنة، فإن ما يخسره فى العام أكثر مما يستخرجه من لعب الورق. لكن فخامتكم يمكنكم إبراز سلطتكم ضد دور

قمار أخرى أقل أهمية، وهى الدور التى تحقق أضرارًا أكبر، وتغطى مصائب أكثر؛ فإن فى دور قمار الشخصيات المهمة، لا يستطيع المحتالون ممارسة حيلهم ولا يجرءون، ولتعلم أن اللعب قد أصبح ممارسة عامة، وبالتالى فاللعب فى دار محكومة خير من اللعب فى منازل الأشرار، حيث يقبضون على أى تعيس فى منتصف الليل ويسلخونه حيًّا.

قال سانشو:

– الآن أيها الكاتب أنا أعلم أن هناك الكثير الذى ينبغى قوله بهذا الصدد.

وهنا وصل أحد الخفراء، محضرًا شابًّا من تلابيبه، وقال :

– أيها السيد الحاكم، هذا الصبى كان قادمًا نحونا، وهكذا عندما لاحظ العدالة فى مواجهته، أدار ظهره، وشرع يجرى مثل غزال شارد، دليلاً على أنه لا بد أحد المجرمين؛ وأنا لحقت به، ولولا تعثره لما أدركته.

سأل سانشو:

– لماذا كنت تهرب أيها الشاب؟

أجاب الشاب:

– سيدى، للتخلص من الإجابة على الأسئلة الكثيرة التى توجهها العدالة.

– أى عمل تقوم به؟

– نسَّاج.

– وماذا تنسج؟

– حديد للرماح، برخصة من فخامتكم!

– هل تريد القول: "أنا ظريف!"؟ أو هل تتعابث بالبذاءة؟ هذا طيب! إلى أيـــن كنت تسير الآن؟

– سيدى، أشم الهواء.

– وأين يُشم الهواء فى هذه الولاية؟

– حيث يهب.

– جيد، ها أنتم تجيبون بما يناسب، أنت ذكى أيها الشاب، لكن اعمل حسابك أننى الهواء، وأننى أهب خلفك، وأدفعك نحو السجن! اقبضوا عليـــه علـــى الرحب، واحملوه حتى أعمل على أن ينام هناك دون هواء هذه الليلة.

– بحق الله! فخامتكم غير قادر على جعلى أنام فى السجن لأنك لو فعلت فأنت قادر على جعلى ملكًا.

– إذن، لماذا لا أقدر على جعلك تنام فى السجن، أليست لدى السلطة للقـــبض عليك أو الإفراج عنك كل مرة أريد ومتى أريد؟

قال الشاب:

– مهما زادت سلطتك لن تكون كافية لجعلى أنام فى السجن.

أجاب سانشو:

– وكيف لا؟ احملوه فى الحال حتى يرى بعينيه الإحباط، وحتى لـــو أراد قائـــد السجن إطلاقه لكرمه المنفعى، فإنى سأعاقبه بألفى جلدة.

أجاب الشاب:

– كل هذا أمر يضحك، المسألة أنه لن يستطيع جعلى أنام فى السجن كل من هم أحياء اليوم على وجه الأرض.

قال سانشو:

– قل لى أيها الشيطان، هل لديك ملاك حارس سوف يخرجك ويفك قيودك التى أفكر فى إرسالك لربطك بها؟

أجاب الشاب فى مُلاحَّة شديدة:

– الآن، سيدى الحاكم، لنعقل الأمر، ولنضع أيدينا على حجر الزاوية، حكم فخامتكم بإرسالى إلى السجن، وفيه يلقون إلىَّ بالقيود والسلاسل، ويضعوننى فى زنزانة مغلقة، وسوف يفرض على القائد عقوبات صارمة إذا تركنى أخرج، وهو سوف ينفذ كل ما تأمر، ومع كل هذا إذا أنا لم أرد أن أنام، وأردت البقاء مستيقظًا طول الليل دون أن أغمض رمشًا، فهل ستصبح فخامتكم مع كل سلطتكم قادرًا على جعلى أنام إذا لم أرد؟

قال السكرتير:

– لا، يقينًا، ولقد خرج الصبى بما يريد!

قال سانشو:

– ولن تترك النوم لأى سبب غير إرادتك عدم النوم، وليس لمعارضة إرادتى.

– ولا حتى يخطر على بالى معارضة إرادتكم، هذا لا، يا سيدى.

– إذن، اذهب سالمًا، ونم فى بيتك، وأحلام سعيدة، ونوم هانئ لا أحب أنا حرمانك منه، لكن انصح نفسك ألا تمزح بعد ذلك مع العدالة، لأنك قد تتعثر ذات مرة فتودى مزحتك برأسك.

وذهب الشاب، وواصل الحاكم جولته، وبعد قليل ظهر خفيران، يحضران رجلاً مقبوضًا عليه، وقالا:

– أيها السيد الحاكم، هذا الذى يبدو رجلاً ليس كذلك، وإنما هو امرأة، وليست قبيحة، وإن كانت ترتدى ثياب رجل.

سقط على وجهها ضوء ثلاثة أو أربعة فوانيس، وعلى ضوئها اكتشفوا وجه امرأة، حول السادسة عشرة من عمرها على ما يبدو، وشعرها ململم بشبكة من ذهب وحرير أخضر، وحلوة مثل ألف لؤلؤة. نظروا إليها من أعلى إلى أسفل، ورأوا أنها ترتدى جوارب من الحرير الأحمر، مربوطة بأشرطة بيضاء ممتزجة بخيوط من الذهب وسقط اللؤلؤ، والسراويل كانت خضراء من نسيج مذهب، وغطاء للرأس أو قبعة من نفس النسيج، وصديرى من نسيج رقيق من الذهب والقطن، والحذاء كان أبيض، وهو رجالى. لم تكن تتحزم بسيف، وإنما بخنجر فخيم، وفى الأصابع خواتم كثيرة وثرية. وأخيرًا الصبية ملأت عيون كل الحضور، ولا أحد منهم تعرف عليها، وأهل القرية قالوا إنهم لا يستطيعون الحدس بمن هى، أما العارفون بالخدعة التى يعيشها سانشو فقد كانوا أكثر المتعجبين، لأن هذه الواقعة ليست مرتبة على أيديهم، ولهذا اعترتهم الشكوك منتظرين كيف سينتهى هذا الأمر. بقى سانشو مخلوب اللب بجمال الفتاة، وسألها من تكون وإلى أين تذهب، وأى مناسبة دفعتها لارتداء ثياب الرجال، وهى زرعت عينيها فى الأرض معبرة عن خجل رفيع الشرف:

– لا أستطيع يا سيدى الكلام أمام الجميع عما حاولت كثيرًا جعله سرًا، والآن شيء أحب أن تفهموه، لست لصة أو من الأشرار، وإنما صبية تعيسة، بسبب قوة الغيرة كان عليها أن تكسر بعض المظاهر التى تقتضيها الأمانة.

عند سماع رئيس الخدم ذلك قال لسانشو:

– اعمل أيها السيد الحاكم على إبعاد الناس عنا، لأن هذه السيدة مع زحام أقل يمكنها أن تقول ما تريد.

أمر الحاكم بذلك، وابتعد الجميع ما عدا رئيس الخدم، وخادم صالة الحاكم، وسكرتيره، وعند رؤيتها منفردة معهم، واصلت الصبية كلامها:

– أنا أيها السادة ابنة لبدرو بيريث موثاركا، تاجر الصوف فى هذه القرية، وهو يعتاد الذهاب إلى بيت أبى مرات عديدة ...

قال رئيس الخدم:

– هذا غير مستقيم، سيدتى، لأننى أعرف بدرو بيريث جيدًا، وأعرف أنه ليس له أى أولاد، وتقولين إنه أبوك ثم تضيفين أنه أعتاد الذهاب مرات عديدة إلى بيت أبيك؟

قال سانشو:

– لقد أدركت نفس الشيء.

– الآن أيها السادة أنا مضطربة ولا أدرى ما أقول؟ ولكن الحقيقة أننى ابنة دييجو دى يانا، الذى لابد أن يعرفه معظم فخاماتكم

أجاب رئيس الخدم :

– وهذا، حتى الآن غير مستقيم؛ فأنا أعرف دييجو دى يانا، وأعرف أنه من الأعيان المهمين، وغنى، وأنه لديه ابن وابنة، وبعد أن ترمل لا يستطيع أحد فى هذه القرية أن يزعم أنه رأى ابنته، التى يحتجزها وراء أستار، حتى إن الشمس لا تستطيع أن تراها، ومع ذلك فالمشهور أنها ذات جمال وصل المدى.

أجابت الصبية :

– هذه هى الحقيقة، وتلك الابنة هى أنا، وإذا كانت الشهرة صحيحة أو غير صحيحة حول جمالى، فها أنتم قد نالكم الإحباط إذ قد رأيتمونى.

وهنا بدأت فى البكاء فى نهنهة رقيقة، وعند رؤية السكرتير لـذلك، وصـل إلى أذن خادم الصالة، وقال له فى بطء شديد:

– لا شك أن هذه الصبية المسكينة، لا بد أن وقع لها حادث خطير، وإلا... تلك الثياب، وهذه الساعة المتأخرة، وخارج البيت تسعى، وهى بنت ناس!

أجاب خادم الصالة :

– لاشك فى هذا، ويؤيد هذا الشك دموعها.

سرَّى عنها سانشو بأفضل ما استطاع من عبارات، وقال لها أن تحكى لـه كل ما حدث لها دون أدنى خوف، فإن الجميع سوف يعالجون الأمر بكل صـدق، وعبر كل السبل المتاحة.

وهى أجابت:

– القضية، أن أبي تركنى وراء باب مغلق منذ عشر سنوات، وهى السنوات التى كانت الأرض تأكل فيها جسم أمى، وفى البيت تتم الصلاة فى مصلى فخم. وخلال كل هذا الوقت لم أر إلا شمس السماء نهارًا، والقمر والنجوم ليلاً، لا أعرف ما هى الشوارع ولا الميادين ولا المعابد، ولا حتى رجال غـير أبى أو أخى، أو بيدرو بيريث تاجر الصوف، بسبب دخوله المعتاد فى بيتنـا. هـذا الإغلاق واستنكار خروجى إلى الشارع، ولو حتى إلى الكنيسة، منذ شـهور وأيام أوصلنى إلى فقدان الراحة، فقد أحببت أن أرى العالم، أو على الأقـل القرية التى ولدت فيها، فهذه الرغبة ليست ضد الحشمة المحترمة التى ينبغى أن تتمسك بها الصبايا أولاد الناس للمحافظة على أنفسهن. وعندما سمعـت أن هناك مصارعة ثيران ولعب العصا للفرسان ويمثلون كوميديات، سـألت

أخي، وعمره أقل من عمرى بسنة، أن يقول لى ما هى تلك الأشياء؟ وما هى الأشياء الأخرى الكثيرة التى لم أرها؟ وكان يجيبنى بأفضل ما يستطيع، وكان ذلك سببًا فى إشعال الرغبة داخلى لرؤية ما سمعت عنه، وأخيرًا، حتى أختصر القصة، أقول بأننى رجوت أخى، الذى لم أرجه أو أطلب منه شيئًا قط ...

وعاد النحيب من جديد، قال لها رئيس الخدم:

- واصلى، فخامتك، أيتها السيدة، وانتهى من حكاية ما حدث لك، فإن كلماتك تتركنا جميعًا معلقين بها مثل دموعك.

أجابت الصبية:

- ما بقى قوله قليل، مع أن البكاء، نعم، طويل، لأن الرغبات سيئة الترتيب لن تحمل معها إلا الخسارة.

استقر جمال الصبية فى وجدان خادم الصالة، وأسقط عليها نور فانوسه كى يراها من جديد، وبدا له بكاءها لم يكن دموعًا بل حبات لؤلؤ أو قطرات ندى المروج، بل تفوق هذه وتلك بنقطة لترقى إلى لؤلؤ الشرق، وتمنى ألا تكون تعاستها كبيرة كما يشير نحيبها وتنهداتها. يئس الحاكم من تباطؤ الفتاة فى ذكر حكايتها، وطلب منها أن تنهى حالة الإنصات المعلق للجميع، وقد تأخر الوقت، وبقى الكثير من الجولة الليلية. هى بين الشنهفة والنهنهة، والتنهدات المشوهة التشكيل، قالت:

- ليست مأساتى أكثر من أننى رجوت أخى أن يلبسنى ثوب رجل مستخدمًا ثيابه، وأن يخرج بى فى إحدى الليالى لأرى كل القرية خلال نوم والدى، وهو خاضعًا لإلحاح رجاءاتى، لبست ثوبه ولبس ثوبى، الذى لاق عليه كما لو

كان قد ولد به، لأنه ليس له شعر لحية ولا يبدو عليه إلا أنه صبية شديدة الحسن، وخرجنا من البيت هذه الليلة منذ حوالى ساعة يقودنا شبابنا وتيار المزاح، ودرنا بكل القرية، وحينما أحببنا العودة إلى البيت، رأينا زمرة كبيرة من الناس، وهكذا قال لى أخي: "أختاه، هذه لا بد أنها الدورية الليلية، خففي قدميك وضعي فيهما أجنحة، واتبعيني جريًا، حتى لا يعرفونا. وعند قوله هذا أدار ظهره وشرع، لا أقول، فى الجرى، وإنما فى الطيران، وأنا فى أقل من ست خطوات وقعت من الفزع، وهنا وصل ممثل العدالة، الذى أحضرنى بين أيديكم، حيث أرانى لسوء سلوكى خجلانة أمام كل هذه الجمهرة من الناس.

قال سانشو:

- بالفعل، سيدتى، ألم يحدث لك أى ضرر آخر أو أذى كما ذكرت فى بداية قصتك، وأنهم لم ينتزعوك من بيتك؟

- لم يحدث لى شيء ولم يصبنى أذى، فقط الرغبة فى رؤية العالم الذى لا يتسع وراء شوارع هذه القرية.

وقد أكد صدق ما قالت الصبية وصول خفير آخر بأخيها مقبوضًا عليه، عندما أدركه وهو يهرب سابقاً أخته. لم يكن يلبس سوى ثوب نسائى فاره، وخمار من الحرير الدمشقى الأزرق مثبت بقياطين من الذهب الخالص، والرأس دون تزين يتجاوز شعره الذى كان حليًا ذهبيًا، حيث كان خالص الشقرة أجعد. أخذه على جانب الحاكم ورئيس الخدم وخادم الصالة، ودون أن تسمعه أخته سألوه كيف ارتدى هذا الثوب؟ وكيف فعلت أخته العكس؟ أجاب ليس بخجل وحياء بأقل من أخته، مرددًا نفس ما قالته أخته، مما أثلج صدر خادم الصالة الذى غرق فى

عشقها. لكن الحاكم قال لهم :

- يقينًا، أيها السادة، لقد كنا أمام صبيانيات، ولحكاية هذه السفاهة لم يكن هناك حاجة لهذه الدموع الغزيرة والتنهدات، فإنه بقول "نحن فلان وفلانة، خرجنا للتنـزه من بيت والدنا، بهذا الاختراع، فقط من أجل الفضول، دون أى قصد آخر". وتنتهى القصة، دون البكبكة والنهنهة، وهات وخذ.

أجابت الصبية:

- هذا حق، لكن لتعلم فخامتكم أن الاضطراب الذى أصابنى كان عظيمًا، فلم يسمح بوضع الأمور فى مكانها .

أجاب سانشو:

- لم نخسر شيئًا، وهيا بنا وسنترككما فى بيت أبيكما، ولعله لم يدرك غيابكما. ومن الآن فصاعدًا، لا تكونا بمثل هذه الصبيانية، ولا بمثل هذه الرغبة لرؤية العالم، فالصبية الشريفة، مكسورة الرجل، لا تغادر البيت(*)، والمرأة والدجاجة عند الخروج يتوهان بسهولة فى المروج، والتى ترغب فى أن ترى، أيضًا ترغب فى أن يروها، ولن أتكلم أكثر.

شكر الصبى الحاكم إنعام إعادتهما إلى البيت، وهكذا اتجهوا نحوه، ولم يكن بعيدًا. وحين وصولهم ألقى الأخ حصوة من القضبان، وفى الحال هبطت خادمة كانت تنتظرهما، وفتحت لهما الباب، وهما دخلا تاركين الجميع مندهشين من ظرفهما، مثلما تعجبوا من رغبتهما فى رؤية العالم ليلاً، ودون الخروج من القرية،

(*) يشير لمثل تكرر فى هذه القصة، ويتلوه مثل آخر.

لكن نسبوا كل هذا لعمرهما الغض. تم الاستيلاء على قلب خادم الصالة، واقتــرح طلب يدها فى اليوم التالى على زوجة أبيه، متأكدًا أنهم لن يرفضوه لكونه أحد خدم الدوق، أما بالنسبة لسانشو فقد مرت بخاطره رغبة وخيالات بأن يزوج الصبى أخا الصبية لسانشيكا، ابنته، وقرر أن يناقش الأمر فى وقته، متصورًا أن أى زوج لــن يستطيع أن يرفض ابنة الحاكم.

بهذا انتهت دورية هذه الليلة، ومن ذلك اليوم حتى مــرور يــومين انتهــت الحكومة ذاتها، ومعها ستُنتزع وتُمحى كل مقاصده، كما سنرى فيما هو قادم.

الفصل الخمسون

حيث يعلن عن السحرة والجلاد الذين جلدوا القهرمانة، وقرصوا وخمّشوا دون كيخوتى، مع الواقعة التى شهدها الخادم الذى حمل الخطاب إلى تيريزا سانشا زوجة سانشو بانثا

يقول سيدى حامدى، وهو حارس دقيق على ذرات هذه القصة الحقيقية، إنه فى لحظة خروج دونيا رودريجيث من غرفتها للذهاب لغرفة دون كيخوتى، أحست بها قهرمانة أخرى تشاركها غرفتها، وكما أن كل القهرمانات صديقات للمعرفة والفهم والتشمم، ذهبت وراءها فى صمت تام، حتى إن رودريجيث الخالية البال لم تلاحظها، وهكذا كما رأتها القهرمانة تدخل غرفة دون كيخوتى، وحتى لا تفتقد العادة العامة لكل القهرمانات اللائى لا بد أن يكن نمامات، فى الحال ذهبت لحكاية الأمر للدوقة، وكيف أن دونيا رودريجيث موجودة فى غرفة دون كيخوتى. نقلت الدوقة الخبر للدوق، وطلبت منه إذنًا حتى تذهب هى مع ألتسيدورا لرؤية ماذا تريد تلك القهرمانة من دون كيخوتى. أعطاها الدوق الإذن، والاثنتان، على أطراف أقدامهما وهدوء خطوة بعد خطوة، وصلا لاتخاذ موقع بجانب مخدع دون كيخوتى، وقريب؛ حتى إنهما سمعا كل الكلام بالداخل، وعندما سمعت الدوقة أن رودريجيث ألقت إلى نور الشارع سر ينابيعها، لم تستطع التحمل، ومثلها ألتسيدورا، وهكذا دخلتا فجأة المخدع مليئتين بالغضب، وراغبتين فى الانتقام، لتقريص دون كيخوتى وتخميشه، مع جلد القهرمانة بالطريقة التى تمت حكايتها؛ لأن الإهانات التى تلحق مباشرة ضد حسن النساء وادعاءاتهن توقظ فيهن الغضب بوحشية، وتشعل شهوة الثأر.

حكت الدوقة للدوق ما جرى، وأبهجه ما سمع، أما الدوقة فى مواصلة لنيتها للعب الخدع وتزجية وقت الفراغ مع دون كيخوتى، أرسلت الخادم، الذى قام بدور دولثينيا فى حفلة السعى لفك سحرها (الأمر الذى نسيه سانشو بانثا بتقلد الحكومة،) إلى تيريزا بانثا، مع خطاب زوجها وخطاب آخر من طرفها مع عقد عظـيم مـن المرجان الثمين هدية لها.

تقول القصة إن الخادم كان شديد الكياسة والذكاء، وبه رغبة لخدمة سـيديه، ولهذا رحل بمزاج شديد الانشراح إلى قرية سانشو، وقبل دخولها رأى عـددًا مـن النساء يغسلن فى نهر صغير، فسألهن عما إذا كن يستطعن أن يقلن لـه عمـا إذا كانت تعيش فى هذه القرية سيدة اسمها تيريزا بانثا، زوجة سيد معين اسمه سانشو بانثا، خادم لفارس يسمى دون كيخوتى دى لا مانشا، وعلى سؤاله نهـضت علـى قدميها صبية تغسل، وقالت:

– تيريزا بانثا هذه هى أمى؛ وسانشو ذاك هو السيد أبى، وذلك الفـارس هـو سيدنا.

قال الخادم:

– إذن، أيتها الصبية تعالى وقدمينى لأمك، أحمل لها خطابًا وهدية من أبيك ذاك.

أجابت الصبية، التى كان يبدو عمرها حول الرابعة عشرة:

– على الرحب والسعة، سيدى.

تاركة الملابس التى تغسلها إلى رفيقة لها، ودون ارتداء حـذاء أو خمـار، (وكانت حافية سافرة) مضت تتقافز أمام مطية الخادم، وقالت:

– هيا فخامتكم، فبيتنا فى مدخل القرية، وأمى به، حزينة جدًا لعدم معرفة شىء عن السيد أبى منذ أيام طويلة.

قال الخادم:

– **إذن، ها أنا أحمل أخبارًا طيبة جدًّا، عليها أن تحمد الله عليها.**

أخيرًا متواثبة متقافزة راقصة، وصلت الصبية إلى القرية، وقبل دخول البيت زاعقة من على الباب:

– **أخرجي يا أمي، اخرجي تيريزا، فها هنا سيد يحمل خطابات وأشياء أخرى من أبي الطيب.**

وعلى زعيقها خرجت تيريزا بانثا أمها غازلة ندفًا من نسيج تنسّل، مرتدية ثوبًا بنيًّا، وحسبما يظهر بدا قصيرًا قد تم تفصيله عند خياط لا حياء عنده، وفوقه صديري أيضًا بنى فوق قميص قصير. لم تكن عجوزًا بشكل ظاهر، أظهر شكلها أنها في الأربعين، لكن قوية، صلبة العود نافرة العروق، في لون البندق. ما إن رأت ابنتها والخادم فوق مطيته حتى قالت لها:

– **ما هذا يابنت؟ أي سيد هذا؟**

أجاب الخادم:

– **إنه خادم لسيدتي تيريزا بانثا.**

كي يطابق القول الفعل، وثب من على مطيته، وذهب بتواضع كبير ليركع أمام السيدة تيريزا، قائلاً:

– **أعطني يديك، سيدتي دونيا تيريزا، تمامًا بوصفك زوجة شرعية وخاصة للسيد دون سانشو بانثا، حاكم ولاية باراتاريا.**

أجابت تيريزا:

– **آي، أيها السيد، ابتعد عني، ولا تفعل هذا، فأنا لست في شيء من سيدات القصور، وإنما مزارعة مسكينة ابنة لفلاح قروي، وزوجة لحامل دروع مشّاء، وليس لأي حاكم!**

أجاب الخادم:

– فخامتكم زوجة مبجلة لحاكم عظيم؛ وبرهانًا على هذه الحقيقة تقبلى فخامتكم هذا الخطاب، وهذه الهدية.

وسحب فى الحال من جيبه عقدًا من المرجان فى سلسلة من الذهب، ووضعه حول عنقها، وقال:

– هذا الخطاب من السيد الحاكم، والخطاب الآخر مع العقد من سيدتى الدوقة، التى أرسلتنى لفخامتكم.

بقيت تيريزا دون حراك، وابنتها لا تقل عنها ذهولاً، قالت الصبية:

– ليقتلونى إذا لم يكن وراء ذلك سيدنا دون كيخوتى، الذى لا بد وأن أعطى لأبى الحكومة أو المقاطعة التى وعده بها مرات عديدة.

أجاب الخادم:

– تلك هى الحقيقة؛ فتقديرًا للسيد دون كيخوتى صار السيد سانشو الآن حاكمًا لولاية باراتاريا، كما سوف ترون فى هذا الخطاب.

قالت تيريزا:

– اقرأها لى أيها السيد الظريف، فإننى رغم معرفتى الغزل لا أعرف القراءة ولو بصيصًا منها.

أضافت سانشيكا:

– ولا أنا أيضًا؛ لكن انتظرونى هنا؛ فسوف أذهب لأنادى من يقرأها، إما أن يكون القسيس بنفسه أو حامل البكالوريا شمشون كارّاسكو، فأى منهما سوف يأتى طربًا لمعرفة أخبار عن أبى.

- لا يوجد سبب لمناداة أحد، فأنا لا أعرف الغزل، لكن أعرف القراءة، وسوف أقرأها.

وهكذا قرأها كاملة، حسبما رأيناها من قبل فلا نوردها هنا الآن. من ثَم أخرج الرسالة الأخرى من الدوقة، وكانت تقول:

"صديقتى تيريزا: الصفات الطيبة لسماحة وذكاء زوجك سانشو، حركت مشاعرى، وأجبرتنى على أن أطلب من زوجى الدوق أن يعطيه حكومة ولاية من الولايات الكثيرة التى يملكها. وعندى أخبار أنه يحكم فى روعة؛ الأمر الذى سرنى وسر الدوق سيدى بالتالى، ولهذا أقدم أعظم الشكر للسماء لعدم خداعها لى فى اختيارى له لتولى تلك الحكومة؛ لأنى أحب أن تعرف السيدة تيريزا أنه من الصعب وجود حاكم مخلص فى العالم، وليكافئنى الله على حسن حكومة سانشو.

أرسل إليك مع هذا عقدًا من المرجان فى سلسلة من ذهب، وكان يسعدنى أن يكون من لؤلؤ الشرق؛ لكن العين بصيرة واليد قصيرة، سيأتى الوقت كى نتعارف ونتواصل، والله يعلم الغيب. تحياتى لسانشيكا، ابنتك، وقولى لها من طرفى أن تستعد، فعلىَّ تزويجها أحسن زواج، فى مفاجأة تسبق توقعاتها.

يقولون لى إن فى قريتكما أبو فروة غليظ، أرسلى لى حتى دستتين، فسوف أقدرها كثيرًا لكونها من يدك، واكتبى لى خطابًا طويلاً عن صحتك وعن رفاهيتك؛ وعما إذا كنت تحتاجين شيئًا، فليس عليك أكثر أن تفتحى فمك، وسيصير فمك المقياس، حفظك الله لى، من هذه القلعة.

صديقتك التى تحبك كثيرًا

الدوقة"

قالت تيريزا عند الاستماع إلى هذا الخطاب:

- آى، أى سيدة طيبة ومتواضعة وبسيطة! فليدفنوني مع مثل هذه السيدات، وليس مع زوجات أعيان هذه القرية، اللائى يعتريهن الظن لكونهن من الأعيان أن الريح لا ينبغي أن تمسهن، ويذهبن إلى الكنيسة فى جو من الفنتازيا والعُجب كما لو كن نفس الملكات، ويعد ثلمًا لشرفهن أن يرين إحدى الفلاحات، وانظروا هنا حيث سيدة عظيمة لكونها دوقة، تطلق علىَّ الصديقة، وتعاملني كما لو كنا متساويتين، وإنى لأراها مساوية لأعلى برج أجراس كنيسة فى لا مانشا. وفيما يتعلق بأمر (أبو فروة)، سيدى، سوف أرسل إلى سعادتها (نصف كيلة)، من الضخامة حتى تصبح عجبة الناظر والرائى. والآن، سانشيكا، انتبهى إلى تدليل هذا السيد؛ قدمى العناية للجواد، والتقطى بيضًا من الحظيرة، وقطعى شرائح كافية من اللحم المقدد، وقدمى كل هذا الطعام، فإن الأخبار الطيبة التى أحضرها لنا ، ووجهه السمح، يستحق كل شيء، وخلال ذلك سوف أخرج لنقل الأخبار الطيبة لجاراتى وللأب القسيس والأسطى نيكولاس الحلاق، فهم أصدقاء جدًا، قد كانوا ويكونون لأبيك.

أجابت سانشيكا:

- نعم، سوف أفعل يا أمى، لكن انظرى فى إعطائى نصف هذا العقد؛ فأنا لا أرى سيدتى الدوقة بلهاء حتى ترسله كله لك.

أجابت تيريزا:

- كل شيء من أجلك، يا ابنتى، لكن دعينى فقط أحمله عدة أيام فى عنقى، لأنه حقيقية يبدو بهجة لقلبى.

قال الخادم:

- أيضًا ستزداد بهجة الاثنتين، عندما تريان اللفة التى فى هذه الحقيبة، فبها ثوب من قماش بالغ الرقة، لبسه الحاكم يومًا واحدًا فقط للصيد، ويرسله بأكمله للسيدة سانشيكا(*).

أجابت سانشيكا:

- عاش لى(أبى) ألف عام، و(يحيب لىّ)، وحتى ألفى عام، إذا كان ذلك ضروريًا.

خرجت تيريزا من بيتها مع الخطابين، وبالعقد فى صدرها، ومضت تلقى بالخطابات فى الهواء عمل الخباز برقائق عجين الخبز، وما إن صادفها القسيس وشمشون كارّاسكو، حتى بدأت فى الرقص قائلة:

- يمينًا لم يعد لدينا فقير فى العائلة! الحكومة وأصبحت لدينا! ليس هذا فقط، ولكن انظروا فىّ، المرأة المرسومة أفضل من كل نساء الأعيان، ولسوف أعمل من تيريزا مخلوقًا جديدًا!

- ما هذا، تيريزا بانثا؟ أى جنون أصابك، وأى أوراق فى يدك؟

- ليس أقل من جنون أنها خطابات من دوقة، ومن حكام، وما فى صدرى مرجان كريم، عين الحسود!، وسلسلة من ذهب رنان، وأنا حاكمة زوجة حاكم!

- فلينزل إلينا الله، لا نفهم منك شيئًا، تيريزا، لا نعرف ماذا تقولين.

أجابت تيريزا:

- بهذه تستطيعون معرفة كل شيء.

(*) هذا من سهو ثربانتس، فسانشو ذكر قصة الثوب فى خطابه الذى قرأه الخادم على تيريزا وابنتها، وبالتالى فلا محل للمفاجأة هنا أو للحوار الذى دار بين الخادم وسانشيكا.

وسلمتهما الخطابين، قرأهما القسيس بصوت مسموع وصل إلى أذني شمشون كارًاسكو، وأخذ شمشون ينظر للقسيس والقسيس ينظر إلى شمشون، في دهشة مما سمعا من الخطابين. سألها شمشون عمن أحضر هذين الخطابين، أجابت تيريزا أنه يمكنهما صحبتها إلى بيتها حتى يريا الرسول، وهو صبي مثل حلية على صدر امرأة، وقد أحضر هدية أخرى تساوي أكثر من ثروة. نزع القسيس المرجان من رقبتها، ونظر إليه وأرجع النظر وأعاده، وشهد أنها أحجار كريمة، وعاد إلى التعجب من جديد، وقال:

- بحق ثياب الكهنوت التي أرتديها لا أدري ما أقول أو أفكر، حول هذين الخطابين، وهذه الهدايا، ومن ناحية فإني ألمس وأرى ثمانة هذا المرجان، ومن ناحية أخرى أقرأ دوقة ترسل طالبة دستين من (أبو فروة).

هنا قال كارًاسكو:

- ننحي جانبًا هذه التفصيلات، والآن لنذهب لنرى حامل هذه الأشياء؛ ومنه نستعلم عن الصعوبات التي تعوق فهمنا.

وهكذا كان، وعادت تيريزا معهما، وجدوه يغربل قليلاً من الشعير لجواده، كما وجدوا سانشيكا تقطع بعض شحم الخنزير لقليه مع بعض البيض لتقدم الطعام لهذا الغلام الخادم. مظهره وزينة لباسه وحسن محضره سر الرجلين كثيرًا؛ وبعد أن قدما له التحية في أدب، ورد عليهما بمثلها، سأله شمشون عن أخبار دون كيخوتي وسانشو بانثا، فإنهما رغم قراءتهما خطاب سانشو، وخطاب السيدة الدوقة، فإنهما مازالا في حيرة من أمرهما، ولم يفهما ذلك الشأن الخاص بالحكومة، وخاصة أنها حكومة ولاية، مع أن كل الولايات أو معظمها في حوض المتوسط ملك لجلالة الملك، وعلى هذا أجاب الخادم:

– كون السيد سانشو بانثا حاكمًا، فهذا مما لا شك فيه، أما إن ما يحكمه ولاية أو لا، فى هذا لا أدخل نفسى، لكن يكفى أنها قرية بها أكثر من ألف نسمة، أما موضوع (أبو فروة)، أقول بأن سيدتى الدوقة متواضعة جدًّا وبسيطة جدًّا، حتى إنها تطلب بعض ثمار (أبو فروة) من فلاحة، بل حدث أن أرسلت تستعير مشطًا من إحدى جاراتها، وأنا أحب أن تعرفا فخامتكما أن سيدات أراجون، مع أنهن من علية القوم، لسن فى تصنع وغطرسة سيدات قشتالة، فهن يعاملن أتباعهن فى غاية النعومة والبساطة.

وفى وسط هذا الحديث خرجت سانشيكا وفى حجرها بعض البيض، وسألت الخادم:

– قل أيها السيد والدى بالصدفة، يرتدى حذاء بعنق(*) بعد أن صار حاكمًا؟

أجاب الخادم:

– لم أنظر إلى حذائه، لكن نعم لا بد أنه يرتدى ذلك الحذاء.

أجابت سانشيكا:

– آى، يا إلهى، كيف يكون مشهد أبى مزروعًا فى هذا الحذاء!؟ إنه ليس مشهدًا جميلاً فحسب، بل منذ ميلادى وأنا تقتلنى الرغبة لرؤية أبى فى حذاء بعنق!

أجاب الخادم:

– إذا عشت سوف ترينه بمثل هذه الأشياء، وبحق الإله، فقط شهران فى الحكومة وسوف يسير بقناع على الوجه، يقيه الحر والبرد.

(*) بداية مثل، ونهايته: " فلم يعرف رفيقه".

لاحظ القسيس وشمشون أن الخادم يتحدث بدهاء وسخرية، لكن ثمانة مرجان العقد، وثوب الصيد الذى أرسلة سانشو حطم كل الشكوك (تيريزا أرتهم منذ قليل الثوب)، ولم يستطيعا تجنب الضحك من رغبة سانشيكا، وخاصة عندما قالت تيريزا :

– أيها السيد القسيس، ابحث عما إذا كان أحدهم مسافرًا إلى مدريد أو طليطلة حتى يشترى لى قميصًا مستدير الصدر، جاهزًا وناجزًا، ويكون على اللبس مباشرة، ومن أحسن ما يوجد، لأنه فى الحقيقة، أود أن أشرف حكومة زوجى كما أستطيع، وحتى حين أغضب وأجدنى مجبرة على الذهاب إلى ذلك البلاط، راكبة عربة مثل كل زوجات الحكام، فإن هذا القميص يمكن أن يكون ضروريًا.

قالت سانشيكا:

– كيف يا أماه! صلى لله أن يكون هذا اليوم قبل الغد، حتى لو قال عنى كل من يرانى جالسة مع السيدة والدتى فى تلك العربة: "انظروا فلانة وعلانة، ابنة محط الأنظار، وكيف أنها جالسة وممددة فى العربة كما لو كانت بابوية الفخامة!" لكن ليخوضوا هم فى الوحل، ولأمضى أنا فى عربتى، مرفوعة أقدامى عن الأرض، (يا سنة سودا ويا شهر أغبر) على عدد ألسنة السوء والحسد فى العالم، وأمشى أنا تلتهب خدودى، ويضحك الناس على ورودى! هل أحسنت القول، يا أماه؟

أجابت تيريزا:

– كيف تقولين، يا بنيتى! وكل هذا الخير، وما تنبأ به لى سانشو الطيب يفوقه بكثير، وسوف ترين يا ابنتى وكيف لا، أنى سأصير كونتيسة، والمسألة

فحسب أن يبدأ الحظ فى الضحك، وكما سمعت أبوك يردد مرات كثيرة (وهو أب لك وللأمثال أيضًا): "عندما يهدونك بقرة اسحبها واجْرِ"، وعندما يعطونك حكومة التقطها، وعندما يهدونك مقاطعة اقبض عليها بقوة، وعندما يخاطبونك بحضرتك مع بعض المجاملة، لف هذا ولا تهمله، وليس النوم ولا مجيب للحظ عندما يطرق الباب.

وأضافت سانشيكا:

– ماذا يهمنى من يقول ما يحلو له أن يقوله عندما يرانى متغطرسة ومغرورة: "رأى الكلب نفسه فى حجم التل... "(*) وغير هذا مما يقال.

وعند سماع القسيس ذلك، قال:

– لا أستطيع أن أعتقد إلا أن نسل بانثا، يولدون جميعًا ومع كل منهم كيس من الأمثال داخل جسمه، فلا أحد منهم إلا ويريق الأمثال فى كل حديث يشارك فيه وفى كل ساعة من عمره.

قال الخادم:

– هذا حق، فإن السيد سانشو ينثر الأمثال مع كل خطوة، ومع أنها كثيرة ولا توافق القصد، فإنها فى غاية الظرف، ويبتهج بها جدًّا سيدى الدوق وسيدتى الدوقة.

قال شمشون:

– حتى الآن تؤكد فخامتكم أن حكومة سانشو حقيقية، وأن هناك دوقة فى هذا العالم ترسل له هدايا وتكتب له؟ لأننا، مع لمس الهدايا وقراءة الخطابين لا

(*) هى التى تسمى تدليلاً سانشيكا.

نصدق، ونظن أن هذا من نزوات دون كيخوتى بلدياتنا، الذى يظن أن كل شيء مسحور، ولهذا أقول أننى أود أن ألمس فخامتكم وأربت على رأسك، لأرى إذا كنت رسولاً لا شبحًا أو رجلاً من لحم وعظم.

أجاب الخادم:

– أيها السادة أنا لا أعرف شيئًا عنى أكثر من أننى سفير حقيقى، وأن السيد سانشو بانثا حاكم فعلى، وأن سيدى الدوق والدوقة فى قدرتهما إعطاء، وأعطيا بالفعل تلك الحكومة، وأنى سمعتهم يقولون إن السيد سانشو يحكم فى شجاعة عظيمة وهمة. إذا كان فى هذا سحر أو لا، فهذا أمر يناقشه كلاكما معًا، فأنا لا أعرف شيئًا أكثر من ذلك بحياة أبوىَّ اللذين يعيشان حتى الآن، وأعزهما وأحبهما كثيرًا.

أجاب شمشون حامل البكالوريا:

– يمكن أن يكون ذلك كذلك، لكن القديس أوغسطين يشك فيه.

أجاب الخادم :

– ليشك من يشك، والحقيقة هى ما قلت، والحقيقة دائمًا تعلو الكذب، مثلما يعلو الزيت الماء، وإذا لم يكن كذلك: "اعتقد فى الأعمال وليس فى الكلمات". فليحضر أحدكما معى ليرى بعينيه مالا يصدقه بأذنه.

قالت سانشيكا:

– الذهاب إليه يتعلق بى أنا، احملنى أيها السيد خلفك على أفخاذ جوادك، فإنى سوف أصحبك بكل السعادة لأرى السيد أبى.

- بنات الحكام لا ينبغى أن يذهبن وحدهن عبر الطرق، وإنما فى عربات ومحفات، وأعداد غفيرة من الخدم.

أجابت سانشا:

- بحق الله، أيضًا سوف أصل سواء أكانت عربة أم جحشًا الذى أركبه، لقد عثرتم على المدللة![*]

قالت تيريزا:

- اخرسى أيتها الصبية، أنت لا تعرفين ما تقولين، وهذا السيد مصيب، فالكياسة، عندما كان سانشو، فأنت سانشا، وعندما صار الحاكم، فأنت السيدة، ولا أدرى إذا كنت تفهمين.

قال الخادم:

- لتمضِ فخامتكم فى قول ما تظنين، أعطونى آكل، وردود الخطابات حالاً لأنى أفكر فى العودة هذا المساء.

وعلق القسيس:

- فخامتكم سوف تأتى لتأكل معى، فالسيدة تيريزا مع إرادة الكرم لا تملك خدمة طعام ضيف مهم مثلك.

رفض الخادم، لكن كان عليه التنازل عن رفضه من أجل طعام أفضل، وحمله القسيس معه سعيدًا، حتى يتسع له المجال لسؤاله عن دون كيخوتى ومآثره.

(*) مثل يقصد عكسه، أى أنها ليست مدللة إلى حد أنها لا تذهب إلى أبيها على أفخاذ جواد الخادم!

عرض شمشون كتابة رد الخطابين، لكنها لم تحب أن تضع أنف حامل البكالوريا في شئونها، فكانت ترى في عينيه بعض السخرية والخداع، وهكذا أعطت فطيرة وبيضتين لأحد صبيان خدمة القداس، وكان يعرف الكتابة، فكتب لها الخطابين، خطابًا إلى زوجها وخطابًا إلى الدوقة، وقد أملتهما من ألمعيتها، وفي الحقيقة ليسا من أسوأ ما في هذه القصة كما سنرى بعد.

الفصل الحادى والخمسون
تطور حكومة سانشو بانثا، مع أحداث أخرى متنوعة

أصبح الصباح فى اليوم التالى لجولة الوردية الليلية للحاكم، وقد قضى خادم الصالة ليلته دون نوم مفكرًا فى الوجه والبريق والجمال لتلك الصبية المتنكرة فى ثياب رجل، ورئيس الخدم قضى بقية الليلة فى الكتابة إلى سيديه عما يفعل سانشو ويقول، معجبًا بأفعاله وأقواله ومندهشًا، فقد توالت مختلطة بسمات ذكية وسفيهة. نهض السيد الحاكم، فى النهاية، وبأمر من الدكتور بدرو ريثيو جعلوه يفطر ببعض النبيذ وأربع جرعات من ماء بارد، شىء تمنى سانشو أن يقايضه بكسرة خبز وعنقود عنب، لكن ما إن رأى أنه أمر إجبار وليس باختيار، تجاوز عنه مع ألم فى النفس، وإرهاق فى المعدة، عندما جعله يعتقد بدرو ريثيو أن قلة الطعام تنشط الذكاء، وهو ما يناسب أكثر الأشخاص الذين يشكلون السلطة، ويمارسون المهن الخطيرة، ممن لا يستثمرون قواهم البدنية بقدر استثمارهم لقواهم العقلية.

ومع هذه السفسطة كان سانشو يعانى الجوع، وأيضًا فى سره، كان يلعن الحكومة، بل من أعطاه الحكم، لكن مع جوعه ومع نبيذه جلس للأحكام فى ذلك اليوم، وأول ما عرض له سؤال وجهه إليه أحد الغرباء، فى وجود رئيس الخدم وباقى المعية، وكان:

– يقسم مقاطعة إلى قسمين نهر متدفق سيَّال، وانتبه فخامتكم فالقضية مهمة وبعض الشىء صعبة. أقول، إذن، وكان على هذا النهر قنطرة، وفى نهايتها مشنقة، وشىء مثل دار بها أربعة قضاة ينفذون القانون الذى وضعه صاحب النهر والقنطرة والمقاطعة: "كل من يعبر القنطرة من جهة إلى أخرى عليه أن

يقسم على أين يذهب ولأى غرض؟ فإن صدق فى قسمه تركوه يمر، وإذا كذب يموت مشنوقًا فى المشنقة هناك، دون استئناف".عرف الجميع هذا القانون وشرطه الصارم، عبر القنطرة الكثير، ورؤى الصدق فى قسمهم، فكان القضاة يتركوهم أحرارًا. وحدث أثناء أخذهم القسم من رجل، أن أقسم على أنه جاء كى يموت بالمشنقة المقامة هناك. تداول القضاة فى القسم، وقالوا: "إذا تركنا هذا الرجل يمر حرًا، كذب فى قسمه، وطبقًا للقانون يجب أن يموت، وإذا شنقناه صدق، ولهذا، وطبقًا لنفس القانون لصدق قسمه يجب أن يمر حرًا. "مطلوب من فخامتكم، أيها السيد الحاكم القول: ماذا يفعل القضاة مع هذا الرجل، حيث وصل إلى مسامعهم أخبار عقلك الراجح الذكى، وأرسلونى إليك للتوسل لفخامتكم إبداء الرأى فى هذه القضية المعقدة والمحاطة بالشك.

وعلى هذا أجاب سانشو:

– يقينًا كان على هؤلاء القضاة الذين أرسلوك أن يعفونى من هذا، لأنى رجل أقرب إلى البدانة منى إلى الذكاء، لكن على أية حال كرر لى حكاية القضية حتى أفهمها، فلعلى أجد مخرجًا.

كرر السائل الحكاية مرة ومرة، وقال سانشو بعدها:

– على ما يبدو أننى سأحل القضية سريعًا، كالآتى: ذاك الرجل يقسم أنه سوف يموت بالمشنقة، وإن مات بها أقسم الصدق، وطبقًا للقانون الموضوع يستحق أن يطلق سراحه وأن يعبر القنطرة، وإذا لم يعدموه فيكون قد كذب فى قسمه، ولهذا ينبغى شنقه.

قال السائل الرسول:

– تمامًا كما يقول السيد الحاكم، فيما يتعلق بفهم القضية.

أجاب سانشو :

– أقول الآن، إن ذلك الشطر من الرجل الذى صدق فى القسم عليهم أن يتركوه يمر، والشطر الآخر الذى كذب يشنقوه، وبهذا ينفذ القانون حرفيًا!

أجاب السائل:

– وبهذا أيها السيد الحاكم يصبح من الضرورى أن يقسم ذلك الرجل إلى قسمين، قسم صادق وقسم كاذب، وإذا تم تقسيمه، بالقوة لا بد أن يموت، وهكذا لا يتم الحصول على أى شىء من متطلبات القانون، والضرورة الماسة أن ينجز القانون.

– اسمع، أيها الرجل الطيب، هذا العابر الذى تتحدث عنه، إما أنا غبى، وإما أن له نفس الحق فى الموت وفى الحياة مع عبور القنطرة، وبالتساوى بين الحقين، لأنه إذا أنقذه الصدق أدانه الكذب بنفس القدر، وإذا كان الأمر كذلك، فإن رأيي أن تقول لهؤلاء القضاة الذين أرسلوك إلىّ، إن كفتى ميزان إدانته ونجاته متوازنتان، وعليه فواجبهم أن يتركوه يمر بحرية، لأن الثناء دائمًا على الفعل الطيب أكثر من فعل السوء، وهذا كنت أعطيه لك مكتوبًا بخطى لو كنت أعرف الكتابة، وفى هذه القضية ليس الحكم لى، وإنما مر على ذاكرتى وصية بين وصايا أخرى كثيرة أعطاها لى سيدى دون كيخوتى الليلة السابقة لحضورى حاكمًا لهذه الولاية، وكانت الوصية هى عندما تكون العدالة فى

شك، فإنى علىَّ أن أنحرف لطريق الرحمة، وقد شاء الله أن أتذكر ذلك الآن، كى يصير أفضل ما يوافق هذه القضية.

أجاب رئيس الخدم:

– هذا صحيح، وأعتقد أن ليكورجو مشرع إسبرطة ما كان يستطيع الوصول إلى حكم أفضل من حكم بانثا العظيم، وتغلق هنا جلسة الصباح، وسوف أعطى أمرًا أن يأكل الحاكم ما شاء من طعام.

قال سانشو:

– هذا ما أطلبه، وعسى أن تصدق، أعطونى آكل ثم أمطروا علىَّ القضايا والشكوك، وأنا سوف أبدد غموضها فى الهواء.

أنجز رئيس الخدم كلمته، وبدا له إثقالاً للضمير قتل هذا الحاكم الذكى من الجوع، وأكثر، فقد كان يفكر فى ختام حكومته هذه الليلة، لاعبًا معه الخدع الأخيرة التى كلف بها. وحدث أن عند نهاية الطعام فى ذلك اليوم ضد قواعد وتعليمات الدكتور (ألق بنفسك فى الخارج)، وعند رفع المائدة دخل البريد بخطاب من دون كيخوتى للحاكم. أمر سانشو السكرتير أن يقرأه فى سره، وإن لم يكن به سر له شأن، فليقرأه بصوت عال، وهكذا فعل السكرتير مراجعًا الخطاب وقال:

– يمكن قراءته جيدًا بصوت عال، لأن ما يكتبه السيد دون كيخوتى لك يستحق أن يطبع، وأن يكتب بحروف من ذهب، ويقول الآتى:

خطاب من دون كيخوتى دى لا مانشا إلى سانشو بانثا

حاكم ولاية باراتاريا

"عندما كنت أتوقع سماع أخبار عن إهمالك وصفاقتك، سانشو، أيها الصديق، سمعت أخبار ذكائك وفطنتك، ومن أجل هذا قدمت شكرًا خالصًا للسماء، التى تعرف أن ترفع من الروث الفقراء، وأن تبدع من عبطهم ذكاء. يقولون لى إنك تحكم كما لو كنت إنسانًا، وأنت إنسان كما لو كان دابة بسبب التواضع الذى تتعامل به مع نفسك، وأحب أن تعلم، سانشو، أنه مرات عديدة، من المناسب، بل من الضرورى بحكم سلطات المهنة، الذهاب ضد تواضع القلب، لأن أكبر زينة للشخص الذى يشغل منصبًا خطيرًا هو أن يكون وفق متطلبات المنصب، وليس وفق المعايير التى يميل إليها ظرفه المتواضع. البس جيدًا، فإن عكازًا مزركشًا ليس بعكاز، لا أطلب مبالغة فى التزين، ولا لبس جندى وأنت قاض، وإنما تزين بالثياب التى تتطلبها المهنة فحسب، بشرط أن تكون نظيفة وحسنة الهندام.

"وحتى تكسب حب الشعب الذى تحكمه، بين أشياء أخرى: أولاً، كن حسن التربية مع الجميع، مع أننى سبق أن قلت لك هذا. وثانيًا، حاول أن توفر الغذاء لهم، فلا شىء يتعب القلب أكثر من الجوع والغلاء.

"لا تكثر من الأوامر العليا، وإذا أصدرت بعضها لتكن طيبة، وفوق كل شىء لابد من المحافظة عليها وتنفيذها، لأنه إن لم يحدث ذلك، سوف تترك انطباعًا عكسيًّا، فالأمير الذى كان لديه التأمر والسلطة لإصدارها لم يمتلك الشجاعة أن يجعلها محافظًا عليها، والقوانين التى تخيف ولا تنفذ تصل إلى أن تصير مثل السلحفاة التى صارت ملكًا، للضفادع فى الأول أفزعتهم ثم فقدوا احترامهم لها ثم بدأوا يمتطوها.

"كن أبًا للفضائل، ومعاديًا للرذائل، لا تكن دائمًا شديدًا، ولا تكن لينًا، واختر الوسط بين هذين الطرفين، فهنا تكمن ذروة الإدارة ومحورها. زر السجون،

ومحلات الجزارة والميادين، فإن حضور الحاكم فى مثل هذه الأماكن بالغ الأهمية. قدم العزاء للسجناء، الذين ينتظرون اختصار وقت إطلاق سراحهم، ووجودك فى السوق يرعب الجزارين والبقالين فيقسطون فى الميزان. لا تظهر نفسك، حتى لو كنت كذلك (ولا أعتقد) طماعًا ولا أكولاً، لأن الناس ومن يتعاملون معك إن عرفوا هذا الشرط المحدد فيك، سيهاجمونك، حتى يوقعونك فى الخسران المبين. انظر وأعد النظر، ومر ثم راجع المرور، على النصائح والوثائق التى أعطيتها لك مكتوبة قبل مغادرتك إلى حكومتك، وسترى كيف تجد فيها، إن حفظتها، مساعدة ثمينة، تعينك فى وقت الجهد والصعوبة، مما يعرض فى كل خطوة للحكام. اكتب لسيديك الدوق والدوقة، وأظهر لهما أنك شاكر للجميل، فإن الجحود ابن الدناءة، وواحد من أكبر الآثام المعروفة، ومن يذكر جميلاً صنع له، يعطى مؤشرًا أيضًا أنه شاكر لله، صاحب النعم عليه فى الماضى والحاضر وعلى الدوام.

"السيدة الدوقة أرسلت شخصًا مع ثوبك وهدية أخرى إلى زوجتك تيريزا بانثا، وننتظر الرد بين لحظة وأخرى، وأنا كنت سيئ الأحوال بعض الوقت لهجوم قططى معين، حدث لى، ليس بعيدًا عن أنفى، لكن لم يكن شيئًا ذا بال، لأنه إذا كان هناك سحرة يسيئون معاملتى، فهناك سحرة آخرون يدافعون عنى.

"أخبرنى عما إذا كان رئيس الخدم الذى يرافقك له علاقة بأحداث تريفالدى، كما اعترتك الشكوك، واستمر فى إخبارى بكل ما يحدث لك، فالطريق قصير إلى هنا، وبصفة خاصة أننى أفكر فى المغادرة سريعًا، فأنا لم أولد لحياة البطالة تلك التى أحياها هنا.

"اعترضنى شأن، أظن أنه سوف يضعنى فى موقف سيئ أمام هذين السيدين الدوق والدوقة، ومع أن ذلك يهمنى كثيرًا، فإنه لا يهمنى فى شىء، لأنه فى النهاية

عليَّ أن أنجز قبل كل شيء تعاليم مهنتى، والتى من أجل خاطرها اعتادوا القــول: "Amicus Plato Sed Magis Amica Veritas". "أنا صديق لأفلاطون لكنى صديق أكثر للحق". أقول لك ذلك باللاتينية، لأنى أفهم أنك تعلمتها بعد أن صرت حاكمًا.

وأستودعك الله، راجيًا أن يحفظك من كل من أرادك بِشرٍ".

صديقك

دون كيخوتى دى لامانشا

استمع سانشو للرسالة باهتمام شديد، وقد نظر إليها كل من سمعها فى احتفال وإشادة بفطنة كاتبها؛ وفى الحال نهض سانشو من المائدة مناديًا علــى ســكرتيره، وأغلق عليهما باب مخدعه، وأحب أن يرد على سيده دون كيخوتى فــى الحــال، وقال له أن يكتب ما يمليه دون إضافة أو حذف أى شىء، وهكذا فعل، وكــان رد الخطاب هكذا:

خطاب من سانشو بانثا إلى دون كيخوتى دى لامانشا

"انشغالى بالأمور هنا كبير جدًّا، فلا توجد مساحة لهرش رأسى، ولا حتى لقص أظافرى، ولهذا طالت نامية أكثر من اللازم، وبالله الشفاء. أقول هذا، سيدى العزيز، حتى لا تفزع فخامتكم لعدم إخبارى لكم حتى الآن بحلو حيــاتى ومرهــا خــلال وجودى فى هذه الحكومة، التى أجوع فى أيامها أكثر من جوعى خلال جولاتنــا فى الغابات، وفى المناطق غير المعمورة.

كتب لى الدوق سيدى منذ أيام محذرًا لى أنه قد دخل هــذه الولايــة بعــض الجواسيس لقتلى، وحتى الآن لم اكتشف شيئًا، غير أن هناك طبيبًا محــددًا فى هــذا القصر يقبض راتبًا لقتل أى حاكم يأتى هنا، يسمى الدكتور بدرو ريثيو، وهو مــن

أهل تيرا فويرا (ألق بنفسك فى الخارج) حتى ترى فخامتكم أى اسم هـو حـتى لا يعترينى إلا الخوف من الموت على يديه! هذا الطبيب نفسه يقول بنفسه عن نفسه أنه لا يشفى الأمراض إذ توجد، وإنما يتقيها حتى لا تأتى، والعلاج الذى يعملـه هـو (الرجيم)، و(الرجيم) بزيادة، حتى يصبح الأشخاص (جلدًا على عظم)، كما لـو لم يكن الهزال أخطر من المرض. أخيرًا، إنه يواصل قتلى بالجوع، فضلاً عن أنى أمـوت لهذا من الغم، فقد حدث أن ظننت عند قدومى للحكومة أننى سآكل وجبات ساخنة، وأشرب شرابًا باردًا، وتحقيق الاستجمام للجسم بـين مـلاءات هولنـدا الناعمـة، وحشيات من الريش، وما وقع أننى هنا لتعذيب البدن، كما لو كنت ناسكًا، ولأنى لا أفعل ذلك بإرادتى، فإننى أفكر فى نهاية الأمر أن على الشيطان أن يحملنى.

وحتى الآن لم أقبض أبيض ولا أسود، ولا أستطيع التفكير إلى أين هـذا الأمـر يسير، لأنهم هنا قالوا لى إن الحكام الذى اعتادوا أن يأتوا إلى هذه الولاية، قبل دخـولهم إليها، إما أن يكون قد أعطاهم أهل القرية أو أقرضوهم أموالاً كثيرة، وأن هـذا عـادة متبعة عند كل الآخرين الذين يذهبون لتولى الحكومات، وليس فقط هنا.

بالأمس خلال دورية ليلية صادفت فتاة فى غاية الجمال فى ثياب رجل، وأخًا لها فى ثياب امرأة، وقد أغرم بالفتاة خادم صالتى، واختارها فى خيالـه زوجـة لـه، حسب قوله، وأنا اخترت الفتى صهرًا لى، واليوم نحن الاثنان سوف نتحاور حـول هذه الأفكار مع والد الفتى والفتاة، واسمه دييجو دى لايانا، من الأعيان ومـسيحى قديم حتى النخاع.

أنا أزور الميادين، كما تنصحنى فخامتكم، وبالأمس وجدت بائعة بندق طازج، وبالتحرى اتضح أنها تخلطه بالبندق القديم الفاسد، صادرت البندق لـصالح أطفـال الكنيسة، وسوف يعرفون التمييز بين الصالح والطالح، وحكمت على البائعـة بـألا تدخل الميدان لمدة خمسة عشر يومًا. قالوا لى إننى صنعت ذلك بشجاعة، وقد قالوا لى إن المشهور فى هذه القرية أنه لا يوجد فيها أسوأ من باعة المواد الغذائية، لأنهم كلهم

لا حياء عندهم ولا رحمة، وفى غاية الصفاقة، وأنا أظن أن الأمر كذلك، لأنى رأيت نفس الشيء فى قرى أخرى.

حول أن سيدتى الدوقة كتبت لزوجتى تيريزا بانثا، وأرسلت لها الهدية التى تذكرها فخامتكم، فأنا فى غاية الرضا، وسأحاول أن أعبر لها عن عرفانى فى الوقت المناسب: قبِّل فخامتكم يديها من طرفى، وقل لها إننى لم أنس فضلها، كما سترى بالفعل لا بالكلام.

لا أود أن يقع جدل غير سار مع سيدى وسيدتى الدوقة، لأنه لو غضبت فخامتكم معهم، فبالطبع سوف يدور حتى يصلنى أذًى، ولن يكون طيبًا أن تنصحنى بأن أكون عارفًا بالجميل وألا تكون فخامتكم كذلك مع من قدم لك إنعامًا كثيرًا، وأحسن معاملتك فى قلعته.

أود أن أرسل لك أى شيء، لكن لا أدرى ما أرسل، إذا لم تكن بعض أنابيب الحقن التى يصنعونها من أجل الحقن الشرجية فى هذه الولاية بطريقة بديعة جدا، ولو دامت لى الحكومة هنا سأبحث عما أرسله، سواء من أموال يعطيها لى الناس أو من راتبى.

إذا كتبت لى زوجتى تيريزا بانثا، ادفع فخامتكم التكاليف وأرسل لى الخطاب، فعندى رغبة كبيرة لمعرفة أحوال بيتى وزوجتى وأولادى. هنا، أدعو الله أن يحررك من السحرة سيئى النية، وأن يرفعنى الله إليه بخير وفى سلام من هذه الحكومة، وإن كنت أشك فى ذلك، لأننى أفكر فى تركها وأنا على قيد الحياة، والأمر يتوقف على معاملة الدكتور بدرو ريثيو".

" خادم فخامتكم "

" سانشو بانثا، الحاكم"

أقفل السكرتير الخطاب، وأرسله في الحال للبريد، وفي اجتماع لمجموعة الخادعين الساخرين من سانشو، اتفقوا على نظام فيما بينهم عن كيفية إبعاده من الحكم وقذفه خارج الحكومة، وفي ذلك المساء، قضى سانشو وقته في إعداد لوائح تمس حسن سير حكومة ما تخيله ولاية، وأمر ألا يكون هناك وسطاء في بيع المواد الغذائية في البلاد، ويمكنهم بيع النبيذ المستورد من كل الجهات مع إعلان مكان إنتاجه، حتى يضعوا له سعرًا طبقًا لدرجته وسموه وشهرته، ومن يخلطه بالماء أو يغير اسمه، سيفقد حياته نظير ذلك، وخفض أسعار كل لباس القدم وخاصة الأحذية التي بدا له أنها باهظة الأسعار، وفرض ضريبة على الخدم، الذي يسيرون على حل شعرهم في طريق النميمة، ووضع عقوبات شديدة جدًا على من يغنون أغاني شبقة ومنحلة ليلاً أو نهارًا، وأمر ألا يغني أي أعمى (للشحاذة) عن المعجزات في كوبليهات، إذا لم يثبت صحة تلك المعجزات، لما بدا له أن معظم الأكفاء الذين يغنون مُدَّعون ضد الحقيقة، عمل وخلق مأمور للفقراء، ليس لمطاردتهم بل لفحص عما إذا كانوا فقراء، لأنه تمتد في ظل تصنع الأعضاء المقطوعة والقروح المصنوعة أذرعة لصوص وصحة برميل نبيذ. في اختصار نظم أشياء طيبة جدًا محفوظة حتى اليوم، ومذكورة في تلك القرية تحت اسم "دستوريات الحاكم العظيم سانشو بانثا".

الفصل الثانى والخمسون

حيث تحكى مغامرة القهرمانة المقهورة الثانية، أو القهرمانة (المتعوسة)، باسم آخر، هو دونيا رودريجيث

يحكى سيدى حامدى، ما إن صار دون كيخوتى معافى من خدوشه، بدا له أن الحياة التى يحياها فى تلك القلعة ضد كل أنظمة الفروسية المشاعة التى ينتمى إليها، وهكذا طلب إذنًا من الدوق والدوقة للرحيل إلى سرقسطة، حيث اقتربت احتفالاتها، وحيث يفكر فى كسب الدرع الذى يتم انتزاعه فى مثل هذه الأعياد. وحال وجوده فى أحد الأيام مع الدوق والدوقة على مائدة الطعام، بدأ ينفذ نيته ويطلب الإذن، لكن ها أنتم ترون فى مفاجأة على باب الصالة الفسيحة امرأتين تدخلان (كما ظهر بعد ذلك) تغطيهما ثياب الحداد من القدم إلى الرأس، وأولاهما عند وصولها إلى دون كيخوتى، ألقت بنفسها على قدميه ممددة عرضًا وطولاً، لاصقة فمها بقدمى دون كيخوتى، مطلقة تأوهات فى غاية الحزن والعمق والألم، حتى أصابت بالاضطراب كل من كان يراها ويسمعها. ومع أن الدوق والدوقة قد خامرهما الظن أنها إحدى ألعاب خدمهما، فقد دام انهيار المرأة على القدمين متأوهة وباكية، فبدأ الشك يتسرب إليهما والذهول، إلى أن أنهضها دون كيخوتى من الأرض فى إشفاق، وعمل على أن تكشف وتزيح الخمار من على الوجه الباكى. وقد قامت بذلك فعلاً، وهكذا ظهر أنها من لم تكن قط يتوقع ذلك منها، لأنها كشفت عن وجه دونيا رودريجيث، قهرمانة البيت، والأخرى ذات ثياب الحداد كانت ابنتها، التى

خدعها ابن المزارع الغنى. اندهش كل من كانوا يعرفونها وأكثر من كل هؤلاء الدوق والدوقة؛ فرغم أنهما يعتبرانها بلهاء، ومن عجينة طيبة، لكن ليس إلى حد ارتكاب الجنون. أخيرًا، التفتت دونيا رودريجيث للدوق والدوقة، وقالت لهما:

– حفظتما، اسمحا لى أن أتحدث قليلاً مع هذا الفارس، لأن ذلك يتناسب مع توفيقى فى الشأن الذى ورطنى فيه ذلك الجامعى الوغد!

قال الدوق إنه يأذن لها بأن تتكلم مع السيد دون كيخوتى كما يحلو لها. وهى محولة وجهها وصوتها نحو دون كيخوتى، قالت:

– منذ أيام، أيها الفارس الهمام، تركتك عارفًا بأمر الظلم والغدر الذى أوقعه مزارع بابنتى، وهى تلك التعيسة الحاضرة هنا الآن، وفخامتكم وعدتنى بمعالجة أمرها، معدلاً الظلم الذى وقع عليها، وقد وصل الآن إلى مسامعى أن فخامتكم تحب مغادرة هذه القلعة بحثًا عن الحظوظ الطيبة التى أرجو أن يرزقك الله بها، وهكذا أحب قبل أن يبتلعك ظلام تلك الطرق أن تتحدى ذلك القروى الخشن غير المروض، واجعله يتزوج ابنتى، فى إنجاز للكلمة التى أعطاها لها قبل أن يضاجعها، بأن يكون زوجًا لها، لأن التفكير فى أن الدوق سيدى سوف يحقق العدالة هو طلب ثمار كمثرى من شجرة حور، ولأنك فى عجلة فقد وكلتك أمرى، وبهذا، أدعو الرب أن يمتع فخامتكم بالصحة، وألا يتخلى عنى ولا عن ابنتى.

وعلى عبارتها أجاب دون كيخوتى فى جدية وبلاغة:

– أيتها القهرمانة الطيبة، خففى من دموعك، أو بعبارة أخرى، جففيها، ووفرى تنهداتك؛ فأنا آخذ على عاتقى علاجًا لبنتك، التى كان من الأفضل لها ألا

تكون سهلة الاعتقاد فى وعود العاشقين، التى هى واهية فى معظمها، وثقيلة الإنجاز إلى أكبر حد؛ وهكذا، بإذن من الدوق سيدى، سوف أرحل بحثًا عن هذا الصبى القاسى، وسوف أجده، وسوف أتحداه، وسأقتله متى اعتذر عـــن إنجاز كلمته، فالهدف الرئيسى من مهنتى أن أسامح المتواضعين، وأن أعاقب المغرورين، وأنجد البؤساء، وأدمر القساة المتعسفين.

قال الدوق:

- ليس ضروريًا أن تكلف فخامتكم جهد البحث عن القروى الذى تشكو منه هذه القهرمانة الطيبة، وكذلك ليس ضروريًا أن تطلب منى إذنًا لتحديه، فأنا باسمه أقبل التحدى، وسأحمل على عاتقى أن يعرف بهذا التحدى، وســـوف أضرب له موعدا للحضور إلى هذه القلعة، حيث فيما بينكما سوف أقـــدم ميدانا آمنًا، محافظًا على كل الشروط التى اعتادوا، بل وجب عليهم، المحافظة عليها فى مثل هذه المبارزات، مع العدالة المتساوية لكل واحد منكما، كمـــا يجبر علىَّ المحافظة عليها كل أولئك الأمراء، الذين يفسحـــون ميدانًا نظيفًـــا للذين يتقاتلون تحت معايير مقاطعاتهم.

رد دون كيخوتى :

- إذن، مع هذا التأكيد، ومع إذن صريح من عظمتكم، من هذه اللحظة أقـــول فى هذه المرة بأننى أتنازل عن مكانتى باعتبارى شريفًا من الأعيـــان، وأضـــع نفسى بسيطًا فى مقام الذى ألحق الضرر بالفتاة، معطيا لـــه الأهليـــة حـــتى يستطيع أن يبارزنى، وهكذا، مع أنه غائب، فإنى أتحداه، وأواجهـــه بـــسبب

ارتكابه شرًا بغش هذه المسكينة، والتى كانت صبية عذراء، وبإثمه هى ليست كذلك الآن، وعليه أن ينجز كلمته التى أعطاها بأن يصير زوجها الشرعى، أو يموت فى إقامة الدعوى ضده.

وفى الحال خلع جوانتى، وألقى به فى وسط الصالة، ورفعه الدوق، قائلاً، كما سبق له القول، إنه يقبل ذلك التحدى باسم تابعه، ويحدد فترة التنفيذ خلال ستة أيام، والميدان فى ساحة تلك القلعة، والأسلحة، هى المعتادة عند الفرسان: رمح وترس ومجن لكل الجسم، مع باقى قطع السلاح الأخرى، دون خداع أو غش أو أى هاجس، وسيفحص كل شيء قضاة الميدان. لكن قبل كل شيء، من الضرورى أن تعطى هذه القهرمانة الطيبة وتلك الصبية السيئة حق عدالتهما فى يد السيد دون كيخوتى، ودون ذلك لن يحدث شيء، ولن نصل إلى تنفيذ ذلك التحدى.

أجابت القهرمانة :

– أنا أعطيه الحق.

وأضافت الابنه مجهشة بالبكاء، مغمورة بالخجل، وسوء الهيئة:

– وأنا أيضًا.

وبعد أخذ هذه التعهدات، التى كان الدوق قد سبقها بخياله بما عليه أن يفعله فى هذه القضية، انصرفت سيدتا الحداد، وأمرت الدوقة ألا تعاملا من الآن فصاعدًا معاملة خدمها، وإنما باعتبارهما سيدتين مغامرتين، حضرا إلى بيتها طلبا للعدالة، وهكذا أعطياهما غرفة منفصلة، وخدموهما باعتبارهما غريبتين، وليس دون فزع من باقى الخدم الذين لا يعرفون المحطة النهائية لسفاهة عقل القهرمانة رودريجيث ونزقها، وسفاهة سوء سيرة ابنتها وسلوكها. وبينما هم فى هذا، وحتى تتم بهجة

الحفلة، وإعطاء نهاية سعيدة للطعام، ترون هنا الخـادم الـذى حمـل الخطـابين والهديتين إلى تيريزا بانثا، زوجة الحاكم سانشو بانثا. إنه يدخل الصالة، وبوصوله استقبل الدوق والدوقة رضًا عظيمًا، متحرقين شوقًا لمعرفة ما حدث فـى رحلتـه، وعند سؤاله عنها، أجاب بأنه لا يستطيع أن يقول كل شىء على الملأ هكـذا، ولا حتى بكلمات مختصرة. وسعادتهما، دام عمرهما، يمكن أن يتيحا له الانفراد بهمـا، وحتى يتم ذلك يمكنهما التسلى بهذين الخطابين، وهكذا أخرج خطابين، ووضـعهما فى يد الدوقة. الأول يقول على المظروف: "خطاب لسيدتى الدوقة فلانة، للدوقيـة التى لا أدرى أين هى". والثانى: "إلى زوجى سانشو بانثا، حاكم ولاية باراتاريـا، أحياه الله فى رفاهية سنوات أكثر منى". لم تترك خبزها ينضج، كما اعتادوا القول، الدوقة فارغة الصبر، حتى تقرأ الخطاب الموجه إليها، وفتحته، ثم قرأته فى سرها، وعندما رأت أن لا بأس من قراءته بصوت مسموع، حتى يصل إلى آذان الـدوق والمحيطين قرأت بهذه الطريقة:

خطاب من تيريزا بانثا إلى الدوقة

"سيدتى، إن الخطاب الذى كتبته عظمتكم لى منحنى سرورًا عظيمًـا، والحقيقـة أنه كـان محط رغباتى استقباله. عقد المرجان هائل، وثوب صيد زوجى لا يقل عنه جمالاً، وكون عظمتكم قد صنعت من سانشو حاكمًا، سانشو زوجى، أعطى بهجة لكل هـذه القرية، حيث لا يوجد من يصدقه، وخاصة القسيس والأسـطى نيكـولاس الحـلاق، وشمشون كارّاسكو حامل البكالوريا، لكن لا يهمنى عدم تصديقهم، فكما أنه كـذلك، وهو فعلاً كذلك، فليقل كل واحد ما يحلو له، ومع أن الواحد لو قال الحق، فأنا أيضًا لم أكن لأصدق لولا عقد المرجان والثوب، لأن كل من فى هذه القرية يرون فى زوجى بليد القرية، وسحب راعى ماعز من كوخه إلى منصب الحاكم لا يمكنهم تـصوره، فـلأى حكومة يصلح مثله؟ هداه الله إلى الرشد فهو يعرف كم يحتاجه أبناؤه.

أنا، يا سيدتى العزيزة، عازمة، بعد إذن فخامتكم، على حفـظ هـذا اليـوم الطيب فى بيتى، بالذهاب إلى البلاط ممتطية فى عربة، حتى أكسر ألف عين لحسود ترصدنى؛ وهكذا أتوسل لسعادتكم أن تأمرى زوجى أن يرسل لى بعض النقود، لكن أن تكون وفيرة؛ لأن التكاليف فى البلاط عالية، فرغيف الخبز بريال، وكيلو اللحـم بثلاثين (مرابطى)، وهو أمر عجيب، وإذا لم يحب أن أذهب، عليه أن يخطـرنى مـع فسحة من الوقت، لأن أقدامى تغلى لوضعها على الطريق؛ حيث تقول لى صديقاتى وجاراتى، أننى لو ذهبت مع ابنتى فى زهو وفخفخة إلى البلاط، سوف يصبح زوجى معروفًا عن طريقى أكثر مما سأصير معروفة عن طريقه، حيث يجـبر الجميـع علـى الإلحاح فى الأسئلة: "من هاتان السيدتان بتلك العربة؟"، وأحد خدمى يرد: زوجـة سانشو بانثا حاكم ولاية باراتاريا وابنته. وبهذه الطريقة يـصبح سانـشو معروفًـا، وأصبح أنا موضع التقدير، وفى روما تجد كل شىء!

يثقل على بقدر ما يمكن أن يثقل على أن هذا العام لم يجنوا أى محصول مـن (أبو فروة) فى هذه القرية، ومع ذلك أرسل لفخامتكم حتى نصف (ربع)، وقد ذهبت بنفسى لجمعها واحدة واحدة، واختيارها من الجبل، ولم أجد أكبر مما أرسلت، وكنت أود أن يكون حجم كل واحدة منها مثل بيضة النعامة.

لا تنسى سموكم أن تكتبى لى، وسأهتم بالرد، متحدثة عن صحتى وعن كـل شىء يستحق الذكر فى هذه القرية، حيث أبقى ضارعة لربنا أن يحفظ عظمتكم، ولا أنسى أن أذكر أن ابنى وابنتى يقبلان يدى عظمتكم.

التى تزداد رغباتها لرؤية سعادتكم ، وأن تكتبى إليها،

خادمتك

تيريزا بانثا

كان سرور الجميع عظيمًا لسماع خطاب تيريزا بانثا، وخاصة الدوقين، ثـم سألت الدوقة عن رأى دون كيخوتى إذا كان طيبًا إمكان فتح الخطاب القادم للحاكم، حيث تتخيل أنه لا بد أن يكون فى غاية الطرافة، قال دون كيخوتى بأنـه سـوف يفتحه حتى يرضيها، هكذا حدث، وكان الخطاب يتكلم بهذه الطريقة:

خطاب من تيريزا بانثا إلى سانشو بانثا زوجها

" تسلمت خطابك، سانشو يا عزيز روحى، وأنا أعدك وأحلف، لأنى مسيحية كاثوليكية، أننى أبعد عن الجنون من السرور مسافة إصبعين. انظر، أخـى، عنـدما وصل مسامعى أنك حاكم، فكرت لحظتها فى أننى سأقع ميتة من فرط السرور؛ فأنت تعرف أنهم يقولون إن كليهما يقتل، السرور المفاجئ والألم الكبير. سانشيكا ابنتـك عملتها على روحها، وغرقت فى المياه دون أن تحس، فقط من السرور. والثوب الذى أرسلته ها هو أمامى، والمرجان الذى أرسلته لى سيدتى الدوقة ها هو حول عنقـى، والخطابان فى يدى، وحاملها ها هو هناك حاضر، ومع كل هذا اعتقدت وفكرت أن كل ما أرى وألمس ليس إلا حلمًا، لأنه من يستطيع أن يفكر أن راعى المـاعز كـان سيصير حاكمًا لولايات؟ وأنت بالفعل تعرف يا صديقى، أن أمى كانت تقول مـن الضرورى العيش كثيرًا حتى نرى كثيرًا، أقول هذا لأنى أفكر فى أن أرى أكثـر إذا عشت أكثر، ولأنى أفكر فى ألا أتوقف حتى أراك تاجرًا أو محصل ضرائب(*)! وتلك مهن، حتى لو حمل الشيطان من يسيء استعمالها، فى نهاية الأمر، هم دائمًـا لـديهم المال. سيدتى الدوقة سوف تخبرك عن رغبتى فى الذهاب إلى البلاط. انظر فى الأمـر، أعلمنى عن رأيك، حيث سأحاول تكريمك هناك متنزهة فى عربة.

(*) مهن أقل بكثير من مهنة الحاكم!

القسيس، والحلاق، وحامل البكالوريا، وحتى الشماس، لا يمكنهم التصديق أنك حاكم، ويقولون أن كله غش أو أشياء من السحر، مثل كل أشياء دون كيخوتي سيدك، ويقول شمشون إنه سوف يذهب للبحث عنك، وإخراج الحكومة من رأسك، والجنون من مخ دون كيخوتي، وأنا لا أعلق سوى بالضحك، والنظر إلى عقدي المرجان، وعمل حيلة لتحويل الثوب من مقاسك إلى مقاس ابنتنا.

أرسلت بعض حبات (أبو فروة) لسيدتي الدوقة، وكنت أود أن تكون من الذهب. أرسل أنت إليّ بعض الحلي من اللؤلؤ؛ إذا وجدت في ولايتك.

وأخبار هذه القرية أن لا باروبكا زوجت ابنتها من رسام خائب اليد، وصل إلى هنا لرسم ما يعن له، وطلبت منه البلدية رسم أسلحة جلالة الملك الموجودة على باب البلدية، وطلب دينارين، وأعطوها له مقدمًا، واشتغل ثمانية أيام، وفي آخرها لم يرسم شيئًا، وقال إنه لم يفلح في رسم هذا الكم الهائل من الخردة، وأعاد النقود، ورغم كل ذلك تزوج تحت اسم الرسام الفنان، والحقيقة أنه قد ترك ريشته، وحمل فأسًا وإلى الغيط، باعتباره رجلاً همامًا. وابن بدرو دي لوبو تم تعميد خطواته الأولى نحو عمله قسيسًا، وعرفت ذلك منجيا حفيدة سيلباتو، ورفعت عليه دعوى، لأنه أعطاها كلمة للزواج منها(*)، وألسنة السوء تقول إنها حملت منه، لكنه ينكر ذلك تمامًا.

وهذا المحصول لم يجمعوا زيتونًا ولا توجد قطرة خل في هذه القرية، وقد مرت بنا حملة من الجنود، وحملوا معهم في طريقهم ثلاث صبايا من بنات هذه القرية، لا أحب أن أقول لك من هن، فربما يعدن، ولن يعدمن من يتزوج منهن، مع ما عليهن من بقع طيبة أو مشينة.

(*)عمله الكنسي سيحول بينه وبين الزواج!

سانشيكا الآن تعرف التطريز، وتكسب كل يوم ثمانية قطع نقود (مرابطـــى) صافية، تلقى بها فى حصالة للمساعدة فى شوارها. لكن الآن ابنة لحاكم، أنت سوف تعطيها الدوطة، دون أن تضطر لأن تعمل لجمعها. ينبوع الميدان جف؛ حيث سقطت صاعقة فوق نصب الينبوع، وهذا كل شيء، فلا يخفون عنى أمرًا.

انتظر ردًّا على هذا الخطاب، وقرارًا حول ذهابى إلى البلاط، وهنا أدعو الله أن يحفظك لى سنوات أكثر من سنواتى أو مثلها، لأنى لا أحب أن أتركك وحيدًا دونى فى هذه الدنيا".

زوجتك

"تيـــريـــزا بانثا"

تم الاحتفال البهيج بالخطابين، والضحك معهما، والتقدير لهما، والإعجـــاب والدهشه بهما، وبعد انتهاء إعادتهما إلى المظروفين، وصل البريـــد الـــذى يحمـــل خطاب سانشو لدون كيخوتى، وقرئ علنًا، مما وضع غفلة الحـــاكم محـــل شـــك! انسحبت الدوقة لتعرف من الخادم ما حدث له فى قرية سانشو، والذى حكـــاه فـــى تفصيل، دون ترك مناسبة دون إشارة إليها، حتى الجبن الذى أهدته إليـــه تيريـــزا لجودته لأنه من قرية ترونشون. سرت الدوقة كثيرًا، وسوف نتركها لنحكى نهايـــة حكومة سانشو الأكبر، زهرة ومرآة كل حكام الولايات.

الفصل الثالث والخمسون

عن النهاية المرهقة والختام لحكومة سانشو بانثا

التفكير في أن أشياء هذه الحياة تدوم لأصحابها، هو التفكير في خروجها، فكل شيء يسير دائريًا، أقول في دائرة: الربيع يتبع الشتاء، ويتبعه الصيف، ويتبع الجفاف الصيف(*)، ويتبع الخريف الجفاف، والخريف يتبعه الشتاء، وهذا يتبعه الربيع، وهكذا يدور الزمن في تلك العجلة الدائمة، ووحدها الحياة الإنسانية تجرى لنهايتها العاجلة أكثر من جريان الوقت، دون انتظار تجدد إلا في الحياة الأخرى التي ليس لها نهايات تحددها. هذا ما يقوله سيدى حامدى، فيلسوف محمدانى، وعبر فلسفته نفهم وهن الحياة الدنيا وعدم استقرارها، وخلود الأخرى التي ننتظرها، والكثيرون (حتى) دون إيمان، ما عدا النور الطبيعى، قد فهموا هذا، لكن هنا مؤلفنا يذكر ذلك بسبب السرعة التي بها انتهت، واستهلكت، وتفككت، وذهبت إلى الظل والدخان، حكومة سانشو.

والذى بينما هو في الليلة السابعة من أيام حكومته(**)، ممددًا في سريره. دون وفرة في النبيذ والخبز، وإنما وفرة في الأحكام وإبداء الآراء، وعمل اللوائح وإصدار أوامر عليا، وعندما، رغم أنف الجوع، بدأت تغمض منه جفون النوم، سمع ضجة عظيمة لأجراس، وأصوات، لم تظهر له، إلا أن الولاية كانت تغرق.

(*) استخدام كلمة الجفاف اجتهاد من المترجم لترجمة فصل El Estio، وهو قديمًا يعتبر فصلاً مستقلاً بين الصيف والخريف، ولعل هذا الفصل الجاف ينعكس في مصر القديمة فهو فصل الفيضان.

(**) تكاد تكون عبارة "الليلة السابعة" مفتاحًا لتأثر ثربانتس بألف ليلة وليلة.

جلس فى السرير، وصار متيقظًا ينصت، لعله يعرف سبب هذا الضجيج العظـيم، لكن ليس فقط فاته أن يعرف، بل أضيف للأصوات والأجراس قرع الطبول الهائل الاتساع مع نفير الأبواق، وهذا تركه مضطربًا، مليئًا بالخوف والفزع، ونهض على قدميه، وارتدى خفًا فى القدمين بسبب رطوبـة الأرض، دون أن يتلفـع بملابـس النهوض، ولم يظهر له شيء، فخرج إلى باب مخدعه فى الوقت المناسب ليرى آتيا فى بعض الممرات أكثر من عشرين شخـصًا، بمـشاعل مـضيئة فـى أيـديهم، وبالسيوف مشهرة، صارخين جميعًا فى زعيق عظيم:

– إلى السلاح، إلى السلاح، سيدى الحاكم! السلاح، فقد دخل عدد لا نهائى من الأعداء إلى الولاية؛ ونحن ضائعون إذا لم تنقذنا حيلتك وشجاعتك!

وصلوا إلى حيث كان سانشو بكل هذه الضجة والانفعال والاضطراب، وهو مذهول فزع مما يسمع ويرى، قال له أحدهم:

– سلح نفسك فى الحال، فخامتكم، إذا لم تحب أن تضيع نفسك، وتضيع كـل تلك الولاية.

أجاب سانشو:

– كيف أسلح نفسى، أنا لا أعرف شيئًا عن التسلح أو عن الإنقاذ؟ هذه الأشياء سيكون أفضل تركها لسيدى دون كيخوتى، الذى فى الحال كان سيطردهم، ويحل الإشكال، أما أنا وإن كنت آثمًا فى حق الله، لا يصل إلى فهمى شـىء من تلك العجلة.

قال آخر:

– آه، أيها السيد الحاكم! أى تباطؤ هذا؟ سلح نفسك فخامتكم، وها هنا معنـا لك أسلحة هجومية ودفاعية، واخرج إلى ذلك الميدان، وكن قائدنا وقبطاننا، فقانونًا هذا واجبك، لكونك حاكمًا.

أجاب سانشو:

- سلحونى على الرحب والسعة.

وفى التو واللحظة أحضروا له درعين يغطيان كل الجسم، مـن إمـدادهم، ووضعوهما له فوق القميص، دون تركه لارتداء ثوب آخر، درعًا من الأمام وآخر من الخلف، وبأنبوبين مدرعين غطيا كل ذراعيه وثبتاهما بحبال، بطريقـة جعلتـه محبوسًا داخل دروعه، ومتخشبًا مثل قرن أيل، دون أن يستطيع أن يثنى الـركبتين أو التحرك خطوة واحدة، ووضعوا فى يده رمحًا، ارتكز عليه حتـى يـستطيع أن يمسك نفسه على قدميه. وهنا عندما صار فى هذا الوضع طلبوا منه السير لقيادتهم وتشجيعهم جميعًا، فهو بوصلتهم وفانوسهم، ومصباحهم، وبه يصلون إلى النصر.

أجاب سانشو:

- ويلى! كيف علىَّ أن أسير، وأنا لا أستطيع تحريك مفاصل الركـب، حيـث تعوقنى تلك الصفائح الملتصقة تمامًا بجلدى؟ الذى عليكم فعله هو حملى من يدى ورجلى، أو حملى منتصبًا على قدمى، أو فى أى وضع فإننى سـأحافظ عليه، أو من رمحى أو كل جسمى.

قال آخر:

- تحرك أيها الحاكم، فما يعوقك هو الخوف وليس الصفائح، هيا انته من هذا، وهز نفسك، فالوقت يتأخر، والأعداء يتكاثرون، والأصوات تتزايد، والخطر يثقل.

ومع إقناعهم وإهاناتهم جرب الحاكم المسكين التحرك، ليسقط علـى وجهـه فوق الأرض سقطة عظيمة، حتى ظن أنها مزقته. بقى مثـل سـلحفاة محبوسـة ومغطاة بدرع غطائها المحارى، أو نصف قالب من اللحم المقدد بين ضلفتى لِفتـة،

أو قارب جانح فى الرمل، وما إن رآه هؤلاء القوم المحتالون فى خدعهم واقعًا حتى خلا قلبهم من أى شفقة، وأطفأوا مشاعلهم، وعادوا لرفع أصواتهم وتكرار: السلاح! وبسرعة عبروا فوق جسم المسكين سانشو، منزلين به طعنات لا نهاية لها فوق درعيه، وهو إن لم ينكمش ويخفض رأسه داخل الدروع، لنال الحاكم المسكين شر مستطير، وفى هذا الضيق والانكماش سال عرقه وتدفق، ومن كل قلبه أوكل أمره لله أن ينجيه من هذا الخطر. كان البعض يتعثر به، وآخرون يسقطون فوقه، وهكذا صار أمره وقتًا طال، مع أصوات هائلة تبث هذا وذاك المقال:

– هنا جنودنا وأتباعنا، فى تلك الجهة يضغط الأعداء أكثر! تلك البوابة عليها حراسة! أغلقوا ذلك الباب! تلك السلالم تنزع! أحضروا أوانى القطران المشتعل! سمك وراتينج فى أقساط الزيت المشتعل! اعملوا حواجز فى الشارع بالمراتب (المشتعلة)!

فى النهاية، ذكرت بكل إلحاح كل أنواع الخردة والآلات والعتاد المستعملة فى الحرب، والتى يدفع بها هجومًا على مدينة، وسانشو المطحون الجسم، والذى كان يسمع هذا، ويعانى كل شىء، كان يردد فى سره: "أوه، تعاليت يارب، فلتقف الأمور عند فقدان الولاية، وأرانى ميتًا أو خارج هذه الأحزان!" سمعت السماء طلبه، حيث لم يكن يتوقع، إذ سمع أصواتًا تقول:

– النصر! النصر! هزم الأعداء! آه أيها السيد الحاكم، انهض فخامتكم، وتعال، تعال للتمتع بالنصر، وشارك فى فرحة إخلاء الولاية من الأعداء، بفضل ساعدك الذى لا يهزم!

قال بصوت أليم الحاكم المتألم:

– انهضونى!

ساعدوه على النهوض، وما إن وقف على قدميه حتى قال:

– العدو الذى قد أكون هزمته أحب أن تغرزوه فى جبهتى! أنا لا أحب مشاركة أحد فرحة إخلاء الأعداء، وإنما أطلب وألتمس من أى صديق، إن وجد صديق، أن تعطونى جرعة نبيذ، فإنى أجف، وجففوا عرقى فقد تحولت إلى بركة مياه.

جففوه، وأحضروا النبيذ، وخلعوا عنه صفائح الدروع، وجلس على سريره، وأغمى عليه من الخوف والفزع والجهد، وكان بالفعل يحزن لاعبى الخدعة أن أوصلوها إلى هذا الحد من الحزن. لكن عندما عاد سانشو إلى وعيه خف ألمهم الذى سببه إغماؤه. سأل عن الساعة، أجابوا أنها ساعة الإصباح. صمت دون إضافة كلمة، وبدأ فى ارتداء ملابسه، والجميع مقبور فى صمت، ينظرون إليه منتظرين نهاية تعجله بارتداء ملابسه. وفى النهاية ارتدى ملابسه، ورويدًا رويدًا، لأنه كان كامل الطحن والضعضعة لم يستطع التحرك سريعًا سريعًا، لكنه وصل إلى الحظيرة، متابعًا خطواته كل من كانوا هناك، ومقتربًا من حماره، احتضنه وقبله فى رأسه قبلة سلام، وليس دون دموع فى العين، قال له:

– تعال، حضرتكم هنا، أيها الرفيق والصديق، والصابر على متاعبى وبؤسى، عندما كنت متواضعًا معك، ولم أكن أفكر فى شىء سوى تعديل عدتك أو تغذية معدتك، كانت ساعاتى سعيدة ومثلها أيامى وأعوامى، لكن بعد أن هجرت حضرتكم، وامتطيت أبراج الطموح والغرور، دخل نفسى فى أعماقها ألوان البؤس، وألف جهد جهيد، وأربعة آلاف لون من القلق.

وخلال نطقه بهذه العبارات مضى يركب البردعة ويعد الحمار، دون أن يقول له أحد شيئًا، وما إن انتهى من ذلك وثب عليه وامتطاه، ووجه كلماته إلى رئيس الخدم، وإلى السكرتير وخادم الصالة، وللدكتور بدرو ريثيو، وإلى آخرين كانوا حاضرين هناك:

– افتحوا الطريق، سادتى، واتركونى أعود إلى حريتى القديمة، دعونى أذهب للبحث عن حياتى الماضية، حتى أبعث من هذا الحاضر الميت. لم أولد لأكون حاكمًا، ولا للدفاع عن ولايات ولا مدن ضد الأعداء الراغبين فى مهاجمتها. والأفضل لفهمى أن أحرث وأحفر، وأن أقلم وأشذب الكروم، وليس لإصدار القوانين والدفاع عن الأقاليم أو الممالك، فإن بدرو بخير مادام بقى فى روما، أقول إنه من الأفضل أن يبقى كل واحد ممتهنًا المهنة التى من أجلها ولد، وفأس فى يدى خير من صولجان حاكم. أفضل أن أملأ بطنى بالحمص من أن أظل مربوطًا إلى بؤس طبيب صفيق يقتلنى من الجوع، وأفضل أكثر أن أرقد تحت ظل شجرة بلوط أخضر فى الصيف، وأرتدى ثوبًا خشنًا من الشعر فى الشتاء مصحوبًا بحريتى، من أن أنام مربوطًا بحكومة بين ملاءات هولندا مرتديًا ناعم الثياب. استودعكم الله، وقولوا للدوق سيدى، أننى عاريًا ولدت، وعاريًا أوجد الآن، لاخسارة ولا مكسب، أود القول، إننى دخلت هذه الحكومة دون فلس، ودون فلس منها أخرج، على عكس ما اعتاده حكام الولايات الأخرى عندما عنها يخرجون، هيا ابتعدوا، ودعونى أذهب، وأعالج نفسى، حيث يبدو لى حسب اعتقادى أن ضلوعى مهروسة بفضل الأعداء الذين تنزهوا هذه الليلة فوقى.

قال الدكتور ريثيو:

– لا ينبغى أن تكون الأمور هكذا، سوف أعطيك مشروبًا ضد السقطات والضعضعة، وفى الحال سيعيدك إلى سيرتك الأولى وسلامة جسمك. وفيما يتعلق بالأكل، أعد فخامتكم بإصلاح أمرى، تاركًا لكم حق الأكل بوفرة من كل ما تبغى.

أجاب سانشو:

- كان زمان وجبر! هكذا تظنون أننى سأتنازل عن الرحيل، إن ذلك يشبه تحولى إلى تُرْكى، هذه الخدع والحيل لا تتكرر مرتين، ولا يلدغ المؤمن من جحر لدغتين. بحق الإله لن أبقى فى هذا، ولا يسمح لى الله بحكومة أخرى، ولو أعطوها لى بين طبقين مثل من يطير فى السماء دون جناحين. أنا من نسل بانثا، وكلهم معاندون، إذا قالوا مرة لا، لابد أن تكون لا، وإن قالوا مرة (فرد) لابد من (فرد) ولو كانت الأمور من أزواج، على رغم كل العالم. ولتمكث فى هذه الحظيرة أجنحة النملة التى رفعتنى فى السماء حتى تأكلنى جوارح الصيد والطيور الأخرى، ولنعد للسير على الأرض بأقدام حافية، لا تزينها أحذية ذات ثقوب مليئة بالأربطة، ولا تنقصها الخفاف الخشنة المصنوعة من حبال التيل، كل نعجة مع رفيقتها، وكل يمدد أرجله على قدر ملاءته، واتركونى أمر، فالوقت يتأخر.

وعلى هذا علق رئيس الخدم :

- أيها السيد الحاكم، على الرحب والسعة سنترك فخامتكم تذهب، مع أنه سيحزننا جدًا افتقادك، فعبقريتك وسلوكك التقى يجعلنا نرغب فى بقائك، لكن من المعروف أن كل حاكم قبل أن يغادر المكان الذى حكمه عليه أن يقيم عشرة أيام قبل المغادرة، وعندها اذهب فى سلامة الله.

أجاب سانشو :

- لا أحد يستطيع أن يطلب منى ذلك، إذا لم يأمر به سيدى الدوق. سوف أتقابل معه، وسأوضح له كل شىء، وخاصة عند خروجى عاريًا مثلما أفعل الآن، وليس من الضرورى إشارة أخرى على أنى حكمت مثل ملاك!

قال الدكتور ريثيو :

- بحق الله، سانشو الأكبر معه كل الحق، ورأيي أن تتركه يمشي، لأن الدوق سيسعد كثيرًا برؤيته.

وكلهم وافقوه، وتركوه يمشي، عارضين عليه مرافقته، وكل ما يساعد على تدليله والراحة فى رحلته. قال سانشو إنه لا يريد أكثر من قليل من الشعير من أجل الحمار، وقطعة من الجبن ونصف رغيف من أجله، فالطريق ليس طويلاً، ولا ينقص الزاد كثر أو قل. احتضنه الجميع، وهو باكيًا احتضن الجميع، وتركهم متعجبين، هكذا من كلامه مثل عزمه الصارم وبالغ الذكاء على الرحيل.

الفصل الرابع والخمسون

عبارة عن أمور تتعلق بهذه القصة، وليس بأية قصة أخرى

قرر الدوق والدوقة أن يأخذ تحدى دون كيخوتى لتابعهما طريقه للتمام، ورغم أن الفتى كان فى فلندرة، حيث مضى هاربًا حتى لا تصير دونيا رودريجيث حماة له، فإنهما أمرا أن يوضع فى مكانه خادم أشكونى، كان يسمى توسيلوس مدربين له أولاً عما عليه أن يفعل. وبعد مضى يومين قال الدوق لدون كيخوتى إن خصمه سيصل خلال أربعة أيام، وسوف يتقدم إلى ميدان المبارزة مسلحًا باعتباره فارسا، وسوف يقسم بنصف لحيته أن الفتاة كاذبة، بل سيتسع قسمه لكامل لحيته أنه لم يعطها كلمة الزواج. فرح دون كيخوتى بهذه الأخبار، ووعد نفسه بتحقيق العجائب فى هذه القضية، واعتبر أنه حظ عظيم أن أتيح له أن يتمكن هؤلاء السادة من رؤية إلى أى مدى تمتد قوة ساعده الجبار، وهكذا مع ابتهاج الأيام الأربعة وسرورها، والتى صارت تمضى بالنسبة له كما لو كانت أربعمئة دهر.

دعونا نتركها تمر(مثلما نترك أشياء كثيرة تمر)، وهيا لمصاحبة سانشو سائرًا بين البهجة والحزن فوق حماره، باحثًا عن سيده ليلتحق به، فصحبته تسره أكثر من أن يكون حاكمًا لكل ولايات العالم. وحدث أن قبل أن يبتعد كثيرًا عن الولاية وحكومتها (مع أنه لم يحاول قط التحرى عما إذا كانت ولاية أو مدينة أو مركزًا أو قرية، ذلك الذى كان يحكمه) أن رأى فى الطريق ستة حجاج بتلك العصى التى يحملها الأجانب الذين يطلبون الصدقات بالغناء، وهؤلاء عند وصولهم

إليه تحلقوا به وبدأوا جميعًا فى الغناء رافعين أصواتهم، بلغتهم التى لم يستطع فهمها، إلا كلمة واحدة نطقوها بلغته "صدقة"، ولأنهم نطقوها بوضوح فهم أن غناءهم لطلب الصدقة، وكما كان رجل بر، كما يقول سيدى حامدى، أخرج من خرجه نصف رغيف وقطعة جبن مما كان فى زاده، وقال لهم بالإشارة إنه ليس معه شيء آخر لإعطائه لهم. استقبلوا صدقته بسرور، وقالوا:

- جلته! جلته! (*)

أجاب سانشو :

- لا أفهم ما تطلبونه أيها الناس الطيبون.

وهنا أخرج أحدهم من جيبه كيس نقود، وأظهره لسانشو، حيث فهم أنهم يريدون نقودًا، وهنا حتى يفهمهم أنه ليس معه نقود، وضع إبهامه على حنجرته ثم رفع يده إلى أعلى، وبعدها همز حماره وفرق حلقتهم وتجاوزهم. كان واحد منهم ينظر له طول الوقت فى اهتمام شديد، ولحق به ووضع يده على خصره، وبصوت عال وبلغة قشتالية جدًا، قال :

- بحق الله! ماذا أرى؟ هل من الممكن أن أحتضن بين ذراعى صديقى الغالى، وجارى الطيب، سانشو بانثا؟ نعم هو، لأننى الآن لست نائمًا ولا سكرانًا.

اندهش سانشو من أن يعرفه بالاسم، وأن يحتضنه ذلك الجوّال الأجنبى، وبعد النظر إليه طويلاً، دون كلمة، وبانتباه شديد لم يصل أبدًا للتعرف عليه، وما أن رأى دهشته الأجنبى الجوال حتى قال :

(*) الكلمه ألمانية Geld ومعناها نقود.

- كيف يمكن، أيها الأخ سانشو بانثا، ألا تتعرف على جارك ريكوتى الموريسكو بقال قريتك؟

وحينئذ نظر له سانشو بانتباه أكثر، وبدأ يتذكر صورته، وأخيرًا وصل إلى التعرف عليه بأكمله، ودون أن ينزل عن حماره ألقى بذراعيه حول رقبته، وقال:

- بأى شيطان، ريكوتى، كان علىَّ أن أتعرف عليك بملابس مضحك المسرح هذه؟ قل لى من جعلك صعلوكًا فرنسيًّا؟ وكيف تجرأت للعودة إلى إسبانيا، حيث إذا أمسكوك وعرفوك، فحظك أسود من الليل؟

أجاب الجوَّال :

إذا أنت لم تكشفنى سانشو، فأنا آمن فى هذه الملابس، ولن يعرفنى أحد، ولنأخذ جانبًا تحت شجرة الحور هناك، حيث يود رفقائى أن يأكلوا ويستريحوا، وهناك ستأكل معهم، وهم أناس مسالمة، وسأنال فرصة أن أحكى لك كل ما حدث لى بعد أن رحلت عن قريتنا، طاعة لمرسوم جلالة الملك، الذى كان يهدد فى صرامة تعساء أمتى كما سمعت.

وهكذا فعل سانشو، وفى خلال ذلك تحدث ريكوتى مع باقى الحُجَّاج، فانتحوا عند الشجرة الظاهرة للنظر فى مكان منحرف بما يكفى عن الطريق الملكى الذى كانوا يسلكونه، وألقوا بعصيهم، وخلعوا معاطفهم أو ما كانوا يتدثرون به، وبقوا عرايا عن التنكر، وكانوا جميعًا شبانًا، ورجالاً ظرفاء، ما عدا ريكوتى الذى كان رجلاً هاجمته السنون. كان مع كل منهم خرج، وكل خرج كان حسن التموين، وعلى أقل تقدير بأشياء مثيرة للشهية وتنادى على الظمأ من بعد فرسخين. افترشوا الأرض، وكان غطاء مائدتهم الحشائش، ووضعوا فوقها الخبز والملح والسكاكين،

والمكسرات وشرائح الجبن وفخذة خنزير مدخن ومملح، لا تصعب على المضغ، ولا تقاوم المصمصة. وضعوا أيضًا طعامًا أسود كانوا يسمونه الكافيار، مصنوع من بيض السمك، ويحث على الشرب. ولم ينقصهم الزيتون، حتى لو كان جافًا ودون أى تمليح، فإن له طعمًا لذيذًا وفى قزقزته تسلية. لكن الشيء المميز فى ميدان هذه الوليمة كان ست زقاق من النبيذ، حيث سحب كل واحد منه زقه من خرجه؛ حتى ريكوتى الطيب الذى تحول من موريسكى إلى ألمانى أو جرمانى، فقد سحب أيضًا زقه، الذى كان فى عظمته ينافس الزقاق الخمسة الأخرى.

بدأوا يأكلون فى لذة عظمى، وفى تباطؤ شديد متذوقين كل قضمة يقضمها الفم، مع صغر القضمات من كل صنف، وعند وصولهم للذروة، كلهم فى نفس واحد، رفعوا سواعدهم، والزقاق فى الهواء، ولم يظهر إلا أنهم كانوا يصوبون بأن سقطت أفواه الزقاق فى أفواههم، وانغرزت فى السماء عيونهم، بينما تهتز الرءوس من جانب إلى جانب، علامة على مصداقية طعم النبيذ، وبقوا هكذا زمنًا طيبًا، ممطرين معدتهم بأحشاء الزقاق. كان سانشو ينظر إلى كل هذا دون ألم، وإنما منتظرًا إنجاز المثل "عندما تذهب إلى روما، افعل مثلما يفعلون". وبدأ تصويبه مثل الآخرين طالبًا زق ريكوتى، ولم تكن لذته بأقل من لذة الآخرين.

مالت على أفواههم الزقاق أربع مرات، لكن الخامسة كانت غير ممكنة لأن الزقاق أصبحت أكثر هشاشة وجفافًا من عود حلفا، الأمر الذى أصاب ما أظهروه من بهجة حتى الآن بالكآبة. ومن لحظة لأخرى كان أحدهم يضع يده اليمنى فى يد سانشو ويقول: إسبانى وألمانى كُننا واحد، رفيك طيب(*)، وسانشو يرد: رفيك طيب

(*) لغتهم مكسرة يريدون القول: الإسبانى والألمانى واحد، رفيق طيب، ويحاكيهم سانشو فى مباسطة بنفس اللغة، ويقول ما معناه: رفيق طيب، أحلف بالله !

أحنف بالله! ثم يطلق ضحكة تستمر ساعة، دون أن يتذكر شيئًا مما حدث لــه فــى حكومته، خلال الوقت الذى كان يأكل ويشرب فيه، لا قليل مــن الجــد يمكــن أن يعنيه. وأخيرًا، نهاية النبيذ كانت بداية لنوم سيطر على الجميع، وبقوا نائمين علــى نفس المائدة التى أكلوا عليها، فقط ريكوتى وسانشو بقيا فى حال يقظة،لأنهما أكــلا أكثر وشربا أقل، وابتعدا عن النائمين، وجلسا عند أقدام شجرة زان تاركين هــؤلاء الحجاج مدفونين فى نوم لذيذ، وريكوتى دون تعثر فى لغتــه الموريــسكية، قــال العبارات الآتية فى لغة قشتالية صافية(*):

– تعرف جيدًا، أوه، سانشو بانثا، صديقى وجارى! إن الإعلان والمرسوم الذى أصدره صاحب الجلالة ضد أمتى أشاع الرعب والفزع بيننا جميعًا؛ وعلــى الأقل خوفى كان جسيمًا، حتى تصورت أنه قبل المهلة المعطاة للرحيل سوف تنفذ العقوبات علىَّ وعلى أولادى. ونظمت الأمــر حــسبما تــراءى لى باعتبارى شخصًا واعيًا يعرف فى ذلك الوقت، أنهم لابد أن ينتزعــوا بيتــه الذى فيه يعيش، ويمدونه ببيت آخر حيث يجبر على الانتقال إليــه، أقــول نظمت أمرى بأن أخرج وحدى من قريتى دون صحبة أسرتى، والــذهاب للبحث عن مكان يمكن براحة أن أحملها إليه، ودون السرعة التى خرج بهــا الآخرون، لأننى رأيت ورأى الجميع من شيوخنا أن تلك الإعلانات ضدنا لم تكن مجرد تهديدات كما كان يقول البعض، إنما هى قوانين حقيقيــة يجــب تنفيذها فى وقتها المحدد، وكان يجبرنى على الاعتقاد فى هذه الحقيقة معــرفتى بالمحاولات السفيهة والمدمرة التى يقوم بها أهلنا، وكانت هذه الأحداث أشبه بالإلهام السماوى الذى حرك جلالته لتنفيذ قراره الشجاع، ليس لأننا كلنا

(*) اللغة الموريسيكية هى فى الحقيقة نفس اللغة القشتالية، وهى هــى بالــضبط التــى صــارت الإسبانية.

كنا مدانين، فبعضنا كان مسيحيًا ثابت اليقين، لكنهم كانوا قليلين، ولم يستطيعوا اعتراض من لم يكونوا كذلك، ولم يكن من الطيب تنشئة الأفعى فى الحجر، تاركين العدو داخل البيت. لكن حيثما ذهبنا بكينا من حب إسبانيا، ففى النهاية ولدنا فيها، وهى وطننا الطبيعى، ولا نجد فى أى مكان الترحيب الذى تتمناه تعاستنا، وفى بلاد البربر وفى كل أجزاء تونس، كنا ننتظر أن نستقبل ويرحب بنا وندلل، هناك حيث نقابل بالعداء أكثر وسوء المعاملة. لم نعرف السعادة حتى فقدناها، والرغبة الكبرى عند كل واحد منا هى العودة إلى إسبانيا، وأغلب هؤلاء الذين يعرفون الإسبانية (وهم كثير) يعودون إليها، ويتركون هناك زوجاتهم وأولادهم دون ملجأ. كثير ذلك الحب الذى يكنونه لإسبانيا، والآن أعرف وأجرب ما اعتادوا على قوله، إنه حلو حب الوطن. خرجت، كما أقول، من قريتنا، ودخلت فرنسا، ومع أنهم هناك استقبلونا بترحاب طيب، فإننى أحببت أن أرى كل البلاد، وعبرت إلى إيطاليا ثم وصلت إلى ألمانيا، وهنا بدا لى أنه يمكن العيش فى حرية أكثر، لأن سكانها لا ينظرون بحساسيات كثيرة. كل واحد يعيش كما يحب؛ لأنه فى معظم أجزائها يعيشون متحررين من الدين، وتركت بيتًا اشتريته بالقرب من أوغسطا، واختلطت بهؤلاء الحجاج، الذين تعودوا الحضور إلى إسبانيا (كثير منهم) كل سنة لزيارة معابدها، وهى محط أنظارهم، باعتبارها أمريكا بالنسبة للإسبان، وبسبب مكاسب مؤكدة وأرباح معروفة. يسيرون فى كل ربوعها، ولا يمرون بقرية دون أن يخرجوا ببطون شبعانة وشراب هنيء، كما اعتادوا القول، وأيضًا على الأقل بريال نقدًا، وفى نهاية رحلتهم يخرجون بأكثر من مئة دينار زائدة عن الحاجة، يقايضونها بالذهب، ويضعونه فى تجويف العكاكيز أو المعطف، أو بالحيل التى يمتلكونها، ويخرجونه من المملكة، ويحملونه إلى بلدهم، على الرغم من حرس الحدود والموانىء حيث يتم

تفتيشهم. والآن نيتى، سانشو،إخراج الكنــز الذى تركته مدفونًا، وحيــث إنه خارج القرية يمكننى فعل ذلك دون خطر، ثم أكتب أو أمر من بلنسية إلى ابنتى وزوجتى، اللتين أعرف أنهما فى الجزائر، وعمل حيلة لنقلهما إلى أحــد موانئ فرنسا، ومن هناك أحملهما إلى ألمانيا، حيث ننتظر ما شاء الله أن يفعله بنا، وباختصار، سانشو، أنا أعرف يقينًا "أن لا ريكوتا ابــنتى وفرنسيـــسكا ريكوتا زوجتى مسيحيتان كاثوليكيتان"، ومع أننى كذلك إلى حد كبير، فإننى حتى الآن لدى من المسيحية أكثر مما أدين به من الإسلام، وأرجــو الله دائمًا أن يفتح عيون بصيرتى، وأن يرشدنى كيف أقف على خدمته. وما يدهشنى عدم معرفتى لماذا ذهبت زوجتى وابنتى إلى بلاد البربر ولــيس إلى فرنــسا، حيث يمكن عيشهما بوصفهما مسيحيتين.

وعلى هذا أجاب سانشو :

- انظر، ريكوتى، هذا لا بد أنه خرج عن أيديهما، لأن من حملهما هو خوان تيبيو، شقيق زوجتك، وحيث إنه ينبغى أن يكون مسلمًا نقيًا، فقد ذهب إلى أفــضل منــزل لمسلم، وأعرف أن أقول لك شيئًا آخر، أعتقد أنك تذهب عبثًا للبحث عما تركته فى غلق، لأن لدينا أخبارًا أنهم انتزعوا من صهرك ومن زوجتك لآلئ كثيرة، ونقودًا كثيرة من الذهب، والتى كانوا يحملونها لتسجيلها.

أجاب ريكوتى :

- هذا من الممكن، لكنى اعرف سانشو، أنهم لم يمسوا ما خبأته، لأنى لم أكشف لزوجتى عن مكانه تحسبًا لأى كارثة، وهكذا، إذا أحببت أنــت، سانــشو، الحضور معى ومساعدتى على إخراجه، وعدم الكشف عنه، سأعطيك مئتى دينار، بها تستطيع معالجة احتياجاتك، فأنت تعرف أننى أعرف أنها كبيرة.

أجاب سانشو :

- قد أعملها، لكننى لست طماعًا فى شيء، ولكونى كذلك تركت هذا الصباح مهنة تضيع من يدى حيث كانت تمكننى من طلاء جدران بيتى بالذهب، وآكل قبل مضى ستة أشهر فى أطباق من ذهب، وهكذا لهذا، ولما يبدو لى أن فى ذلك خيانة للملكى حيث أساعد أعداءه، فلن أذهب معك، حتى لو أعطيتنى نقدًا هنا أربعمئة دينار، وليس فحسب وعدًا بمئتين.

- وأى مهنة تلك التى تركتها سانشو ؟

- تركت منصب حاكم ولاية، ويقينًا لا توجد ولاية مثلها، ولو اقترعوا ثلاث مرات.

- وأين تلك الولاية؟

- أين؟ على بعد فرسخين من هنا، وتسمى (جزيرة) باراتاريا .

- اخرس سانشو، الجزر هناك فى البحر؛ ولا توجد جزر فى اليابسة الثانية.

- كيف لا؟ أقول ريكوتى يا صديقى، إنى غادرتها هذا الصباح، وبالأمس كنت أحكمها على هواى، مثل قاذف السهام، لكن مع كل هذا تركتها، لما بدا لى الحكم مهنة خطرة.

- وماذا كسبت من الحكومة؟

- كسبت معرفتى أننى لا أصلح للحكم، إلا إذا كان حكم كوخ مواشى، وأن الثروات التى تكتسب فى هذه الحكومات تكون على حساب فقدان الراحة

والنوم بل الغذاء؛ لأنه فى الولايات يجب أن يأكل الحكام قليلاً، وخاصة إذا كان لديهم أطباء يهتمون بصحتهم.

– لا أفهمك، سانشو، لكن يبدو لى أن كل ما تقوله ترهات، فمن كان عليه أن يعطيك ولايات لتحكمها؟ هل اختفى فى العالم الرجـال الأكثـر كفـاءة؟ اخرس، سانشو، وعد إلى وعيك، وانظر لو كنت تحب أن تأتى معى، كمـا قلت لك، لمساعدتى لاستخراج الكـنـز الذى تركته مدفونًا، (والذى فى الحقيقة هو ثروة تستحق أن يطلق عليها كنـز)، وسوف أعطيك ما تتعيش به كما قلت لك.

– انتهى، لقد قلت لك، ريكوتى، إنى لا أحب، واسعد بأنى لن أكشف أمـرك، وواصل موفقًا طريقك، ودعنى أواصل طريقى؛ فأنا أعلم جيدًا أن الكـسب السهل يضيع، والأسوأ أنه يضيع، ويضيع معه صاحبه.

ـــ لا أحب أن أعاند، سانشو، لكن قل لى: هل كنت فى قريتنا يـوم رحلـت زوجتى وابنتى وصهرى؟

ـــ نعم كنت هناك، وأعرف أن أقول لك، أن ابنتك خرجت فى جمالها البـديع، حتى إن كل القرية خرجت لرؤيتها، وكلهم قالوا إنها أجمل مخلوقة فى العالم، سارت فى طريقها باكية، وأخذت تحتضن كل صديقاتها ومعارفها، وكل من جاء لرؤيتها، والكل دعا ربنا المسيح وسيدتنا والدته أن يرعاها، وهذا مـع حزن غامر، جعلنى أجهش بالبكاء، رغم أنه ليس من عادتى البكاء بسهولة وبتلك القوة، ويمينًا أن الكثيرين كانت لديهم الرغبة لإخفائها، والخـروج لانتزاعها من طريق الرحيل، لكن الخوف فى العمل ضد أوامر الملك أوقفهم.

وبشكل رئيسى الذى أظهر عظيم الانفعال هو دون بدرو جريجوريو، ذلك الفتى الوارث الغنى الذى تعرفه أنت، ويقولون إنه كان يحبها كثيرًا، وبعد رحيلها لم يره أحد قط فى قريتنا، وكلنا نظن أنه ذهب وراءها، لكن حتى الآن لم يعرف شيء.

– كان لدى دائمًا الشك المدمر أن ذلك الفارس كان يحب ابنتى، لكن واثقًا من قوة ريكوتا، لم أحزن قط لمعرفة أنه يحبها حبًّا طيبًا؛ وقد سمعتهم يقولون، سانشو، إن الموريسكيات قليلاً (وربما لم يحدث قط) أن تتورطن فى حب المسيحيين القدماء، وابنتى، حسبما أعتقد، كانت تميل إلى أن تصير مسيحية أكثر منها عاشقة، ولن تسلم من مطاردة هذا السيد الوارث.

– سلمها الله منه، والآن، ريكوتى صديقى، دعنى أرحل من هنا، فأنا أحب أن أصل هذه الليلة، حيث يقيم سيدى دون كيخوتى.

– صحبتك سلامة الله، سانشو أيها الأخ، وها هم رفقائى يتقلبون، وأيضًا إنها ساعة مواصلة طريقنا.

وفى الحال احتضن الاثنان أحدهما الآخر، وصعد سانشو على حماره، وارتكز ريكوتى على عكازه، وانفصلا كل فى طريق.

الفصل الخامس والخمسون

عن أشياء حدثت لسانشو فى الطريق، وأحداث أخرى ليس علينا إلا مشاهدتها

توقف سانشومع ريكوتى لم يسمح له أن يصل فى ذلك اليوم إلى قلعة الدوق، رغم أنه كان على بعد نصف فرسخ منها، حيث أدركه الليل بظلام وانغلاق للسماء، لكن كان الزمن صيفًا فلم يزعجه ذلك، وهكذا تجنب الطريق بنية انتظار الصباح، وشاء حظه العاثر والتعيس، خلال بحثه عن مكان يريحه أفضل فى نومه، أن يسقط هو والحمار فى حفرة، وكانت هوّة شديدة الظلام بين عدد من المبانى شديدة القدم، ولحظة السقوط سلم أمره لله من كل قلبه، وظن أن سقوطه لن يتوقف حتى قاع الجحيم، ولم يكن الأمر كذلك، لأن الحمار على بعد ثلاث قامات أدرك الأرض الصلبة، وكان هو مازال فوقه دون أن يحدث له أى تمزق أو جرح. تحسس كل جسمه وسحب نفسه، ليرى هل كان سليمًا، أو مثقوبًا من أى جزء من جسمه، وعندما رأى نفسه بخير، وكامل الأجزاء، وصحته تمام التمام، لم يشبع من تقديم الشكر لله ربنا، لما أنعم عليه، لأنه دون أن يعتريه شك فكر فى أنه ممزق إربًا إربًا. وتحسس بيده جدران الهوة، ليرى عما إذا كان ممكنًا الخروج منها دون مساعدة أحد، لكنه وجد كل الجدران ملساء ودون أى بروز يمكن الإمساك به، مما أحزن سانشو كثيرًا، وخاصة عند سماع حماره يشكو فى ضعف وألم، ولم يكن هذا بالكثير، ولم يكن يئن بسبب الدلال، فالحقيقة أنه لم يكن حاله أحسن الأحوال.

قال لحظتها سانشو بانثا:

- آى، الحوادث غير المتوقعة تعتاد أن تقع فى كل خطوة لمن يعيشون فى هذا العالم البائس! من يقول بأن من كان بالأمس متوجًا حاكمًا لولاية، آمرًا خدمه وأتباعه، يرى نفسه اليوم مقبورًا فى حفرة، دون وجود أى شخص ينجده أو خادم أو تابع يهرع لمساعدته؟ هنا سوف نموت من الجوع أنا وحمارى، وذلك إذا لم يمت هو من طحن جسمه وتمزقه، وأمت أنا من الأحزان قبل أن نموت من الجوع. على الأقل، ألن أكون أكثر حظًّا من سيدى دون كيخوتى دى لامانشا عندما نزل وسقط فى كهف مونتيسينوس؟ حيث وجد من يؤانسه أفضل مما لو كان فى بيته، حتى إن سقطته لم تكن تبدو أكثر من الذهاب إلى مائدة معدة، وسرير مرتب؟ هناك شاهد رؤى حلوة سلسة، وأنا هنا حسبما أعتقد سأرى ضفادع برية وأفاعى. ويلى، فى أى منزل انتهت خيالاتى وأوهام جنونى! من هنا سوف يستخرجون عظامى، عندما تشاء السماء اكتشاف بقاياى نظيفة من اللحم، بيضاء، بالية، وعظام حمارى الطيب معها. من أى علامة حينذاك سوف يتعرفون علينا؟ ربما بفضل من لديهم أخبار أن سانشو بانثا لم ينفصل قط عن حماره، ولا حماره عن سانشو بانثا. مرة أخرى أقول: "ما أبأسنا أنا وحمارى، فلم يشأ حظنا العاثر أن نموت فى وطننا، بين أهلينا حيث نكبتنا لا علاج لها، ولا ينقص غيرهم يتألمون لها، وفى آخر ساعة لفكرنا(*) يغلقون لنا عيوننا! أوه، يا رفيقى وصديقى، ما أسوأ أجر ما دفعته لخدمتك المخلصة! سامحنى، واطلب من

(*) لحظة الموت.

الحظ أن يخرجنا من هذا الجهد الذى وقعنا فيه معًا، بأفضل أسلوب يستطيعه، وإنى أعدك بأن أضع تاجًا من الغار على رأسك، حتى لا تبدو إلا شاعرًا مكرمًا، وبأن أضاعف اهتمامى بك.

بهذه الطريقة أخذ يندب سانشو بانثا، وحماره يسمعه دون أن يجيب عليه بأى كلمة، وهكذا وصل الضيق والحزن به إلى هذه الحدود. وأخيرًا، بعد قضاء تلك الليلة فى شكاوى بائسة وتعديد، جاء النهار، ومع شفافيته وإشراقه رأى سانشو أنه مستحيل كل الاستحالة الخروج من ذلك البئر دون عون، عاد للندب وإصدار الصرخات، فلعل أحدًا يسمعه، لكن كل صرخاته تبددت فى صحراء، ففى كل هذه الأنحاء لا يمكن أن يوجد شخص يسمعه، وهنا استسلم للموت. كان الحمار منقلبًا على ظهره، أراحه سانشو وأوقفه على أرجله، ولم يكد يفعل ذلك حتى استخرج من الخرج (وقد سقط أيضًا معهما) قطعة خبز، وأعطاها لحماره، الذى لم يسئ التعرف على الخبز، وقال له سانشو، كما لو كان يفهمه:

– كلُّ ألم لا يعدم الخبز طيب.

خلال ذلك اكتشف ثقبًا فى جانب من الهوّة، يتسع لدخول شخص به إذا ضغط نفسه وانكمش. هرع إليه سانشو بانثا، وحول نفسه إلى حزمة قمح وحشرها فى الثقب، فدخل فيه، ورأى بداخله امتدادًا متسعًا طويلاً، واستطاع أن يراه، لأن ما يمكن أن يسمى سقفًا لهذا الامتداد كان يتسرب منه شعاع شمس يكشف عن كل شيء. ورأى أيضًا أن الامتداد يطول بتجويف آخر متسع، وعندما رآه عاد إلى حيث الحمار، وبحجر بدأ يوسع الثقب ساحبًا التراب من الثقب، حتى إنه فى وقت قليل أصبح يتسع لدخول الحمار بسهولة، وهذا ما فعله، آخذًا له من شكامه استطاع السير فى ذلك النفق متقدمًا لعله يجد مخرجًا من ناحية أخرى. ومرات تحرك فى

ظلام، ومرات أخرى دون نور، لكن لم يتحرك فى أى مرة دون خوف. قال لنفسه: "يرحمنى الله العزيز الجبار! ذلك الحظ السيئ لى كان سيكون مغامرة لسيدى دون كيخوتى، كان سيرى فى هذه الأعماق وذلك السجن المطبق حدائق غناء لجاليانا(*)، وكان سيتوقع الخروج من هذه الظلمات والضيق إلى مرج مزدهر، لكننى أنا دون حظ أو نصاحة، وبروح متدنية، أفكر أنه تحت كل خطوة سوف تتفتح هوة أخرى مفاجئة، تبتلعنى. إذن، (تعال متعثرًا إذا أتيت وحدك)(**) بهذه الطريقة، ومع تفاكير أخرى، بدا له أنه سار أكثر من نصف فرسخ، فى نهايته اكتشف نورًا مضطربًا، يبدو مثل نهار، وفى منطقة هناك كان يدخل مع تباشير وجود نهاية مفتوحة لذلك الطريق، الذى كان بالنسبة له يقود إلى العالم الآخر.

وهنا يتركه سيدى حامدى بن إنجيلين، ونعود لشئون دون كيخوتى، الذى كان فى سرور وبهجة ينتظر المهلة لقدوم المعركة التى كان عليه أن يخوضها مع سارق شرف ابنة دونيا رودريجيث، التى كان يفكر فى إزالة العدوان والإساءة التى أوقعوها عليها. وحدث، من ثَم، أنه عند خروجه ذات صباح، للتدريب والتجريب فيما عليه أن يفعل فى معركة الغد دافعًا روثينانتى للركض، ليصل إلى أن تجتمع أرجله معًا على حافة كهف، ولو لم يشد العنان بقوة لاستحال ألا يسقط فيه، فى النهاية أوقفه، وتجنب السقوط، وباقترابه أكثر قليلاً، سمع أصواتًا عظيمة بالداخل، وبالإنصات المتيقظ استطاع إدراك وفهم ما كان يقال :

– آه، من فوق! هل يوجد تقي يسمعنى، أو فارس أو فاعل خير، يتألم لمذنب مدفون بالحياة، أو لحاكم منزوع التاج تعيس!

(*) أميرة مسلمة دخلت قصورها المسحورة آفاق الأسطورة فى طليطلة.

(**) مثل من أمثال سانشو، مشيرًا إلى عجزه دون صحبة سيده الهمام.

بدا لدون كيخوتى أنه يسمع صوت سانشو بانثا، مما جعله مشدوهًا ومندهشاً، ورافعًا صوته بقدر ما يستطيع، قال:

– من هناك، تحت؟ من يشكو؟

أجابوا:

– من يمكن أن يكون هنا، أو من لابد أن يشكو، سوى المقهـور سانـشوبانثا، حاكم، بسبب آثامه، ولسوء سلوكه، لولاية باراتاريا، وحامل دروع، كان، للفارس المشهور دون كيخوتى دى لامانشا؟

وعند سماع هذا تضاعف ذهول دون كيخوتى، وتزايـد عنـده الانـدهاش، عندما مر على خاطره أن سانشو لا بد أن يكون ميتًا؛ وأنه هناك فى الموت كانـت روحه تتعذب، وعند وصوله إلى هذه الفكرة، قال :

– أستحلفك بكل مقدس، وانت كاثوليكى مسيحى، أن تقول لى مـن أنـت؟ وإذا كنت روحًا تتعذب، قل لى ماذا تحب أن أعمل من أجلك؟ ففى مهنتى مناصـرة المضطرين ونجدهم فى هذا العالم، وأيضًا سأصبح مناصرًا ومنجدًا لمن فى حاجـة بالعالم الآخر، ولاسيما أنهم لا يستطيعون أن يساعدوا أنفسهم بأنفسهم.

أجابوا:

– بهذه الطريقة، فخامتكم من تكلمنى ينبغى أن تكون سيدى دون كيخوتى دى لامانشا، وأيضًا من هزة أوتارك الصوتية أعرف أنك لا يمكن أن تكون غيره، لا شك.

أجاب دون كيخوتى:

– أنا دون كيخوتى، ومهنتى إنقاذ المحتاجين ومساعدتهم، الأحياء منهم والأموات، ولهذا قل لى من أنت؟ فإنك تتركنى فى دهشة، لأنك لو أنت خادمى سانشو بانثا، وأصابك الموت، ولم تحملك الشياطين، برحمة الله أنت فى الأعراف أو فى المطهر، وأمنا الكنيسة الكاثوليكية الرومانية لديها صلوات لانتشالِك من الآلام التى أنت فيها، وأنا من سيطلب منها ذلك، على حسابى، وبكل ما يمكن أن تدركه ثروتى، لكن قل لى من أنت؟

أجابوا:

– أقسم بما طلبت، وبميلاد من شئت فخامتكم، أيها السيد دون كيخوتى دى لامانشا، أننى خادمك سانشو بانثا، ولم يحدث فى أى يوم من أيام حياتى بتاتًا أبدًا أن مت، فقط بعد أن تركت الحكومة لأشياء وأسباب، تحتاج لوقت أطول لقولها، سقطت أمس فى هذه الحفرة حيث أرقد، والحمار معى، ولن يسمح لى بالكذب وعلامة على حياتى أنه هنا حى معى.

ولم يمض هنيهة، إلا ويبدو أن الحمار فهم ما قاله سانشو، لأنه شرع ينهق فى قوة وسلاسة، حتى إن كل الكهف كان يتوهج بترديد نهيقه، قال دون كيخوتى:

– شاهد مشهور! أعرف النهيق كما لو كنت أنجبته، وصوتك أسمعه، سانشو عزيزى. انتظرنى، سوف أذهب إلى القلعة عند الدوق، وهى قريبة هنا، وسأحضر من يخرجك من هذه الهوّة، حيث ينبغى أن تكون آثامك قد وضعتك فيها.

قال سانشو:

- اذهب فخامتكم، وعد سريعًا، من أجل الله الواحد، فإننى لا أستطيع تحمل البقاء هنا مدفونًا بالحياة، فضلاً عن أننى أموتُ من الخوف.

كان يقول ذلك بينما يتوجه دون كيخوتى إلى القلعة كى يحكى للدوق والدوقة عن حادث سانشو بانثا، ولم يكن قليلاً تعجبهما له، مع أنهما فهما أنه لا بد أن يكون قد وقع عند مروره بفتحة تلك المغارة، والتى حفرت هنا منذ زمن طويل، لكن لم يستطيعا فهم كيف أنه ترك الحكومة دون أن يحاطا علمًا بقدومه. وأخيرًا، على حد قولهم، حملوا حبالاً ألوانًا، وبجهد عدد غفير من الناس، ومحاولات عديدة أخرجوا الحمار وسانشو بانثا من تلك الغياهب إلى نور الشمس، نظر إليه أحد الطلبة وقال:

- بهذه الطريقة يجب أن يخرجوا من حكوماتهم كل الحكام السيئين، تمامًا كما يخرج هذا الآثم من الهاوية العميقة، ميتًا من الجوع، باهت اللون، ودون فلس واحد، حسبما أعتقد.

قال سانشو:

- منذ ثمانية أيام أو عشرة، أيها اللمّاز الهمّاز، دخلت حكم الولاية التى أعطوها لى، وخلالها لم أرنى ممتلئًا بالخبز ولو لساعة، وخلالها طاردنى أطباء، وأعداء هرسوا عظامى، ولم يكن لدىَّ وقت لارتكاب آثام أو كسب مال، وكون ذلك كذلك، وهو بالفعل هكذا، لا أستحق، حسبما أفكر، الخروج بهذه الطريقة، لكن العبد فى التفكير والرب فى التدبير، والله يعرف الأفضل لنا، وما هو فى صالح كل إنسان، ولكلِ زمان مقال، ولا يقول أحد "أنا لن أشرب من نفس هذا الماء"، ومن لديه شحم الخنزير لا يحتاج لتسليك الأسنان، والله يعلم ما فى نفسى، وهذا يكفى ولن أقول أكثر، وإن كان لدى ما أقول.

– لا تغضب، سانشو، ولا تحزن مما تسمع، فالكلام لا ينتهى أبدًا. عش بضمير مستريح وليقولوا ما يقولون، وإن إرادة ربط ألسنة اللاعنين، مثل الرغبة فى تركيب أبواب للحقول. إذا خرج الحاكم غنيًا قالوا عنه أنه كان لصًا، وإذا خرج فقيرًا فقد كان لا يستحق المنصب ومخبولاً.

أجاب سانشو:

– يقينًا، وهذه المرة أفضل أن ينظروا إلىَّ باعتبارى عبيطًا من أن أكون لصًا.

خلال هذا الحديث وصلوا محاطين بصبية وأناس آخرين كثيرين وذلك إلى القلعة، حيث كان الدوق والدوقة فى انتظارهم فى بعض الممرات. سانشو لم يحب الصعود قبل الذهاب إلى الحظيرة وتهيئة سبل الراحة للحمار، حيث قال عنه بأنه قد مر بليلة سيئة جدًا، وبعدها صعد لرؤية سيديه، وأمامهما ركع على ركبته، وقال:

– أنا، سيدىَّ، ذهبت لحكم ولاية باراتاريا، دون أى جدارة لشخصى، فقط لأن عظمتكما أراداه، ودخلت الحكومة عريانًا وخرجت منها عريانًا، لم أخسر ولم أكسب. وإذا كنت حكمت جيدًا أو ساء حكمى، عندى شهود يقولون ما شاءوا. بددت شكوكًا، وحكمت فى قضايا، ودائمًا وأنا ميت من الجوع، لأنه هكذا أراد طبيبى بدرو ريثيو من سكان (ألق بنفسك فى الخارج)، طبيب الولاية المختص بالحاكم. هاجمنا أعداء بالأمس، وقد وضعونا فى ضيق شديد، ويقول موظفو الولاية أنهم خرجوا أحرارًا ومنتصرين بفضل قوة ساعدى، منحهم الله نفس صحتى، إذا صدقوا. باختصار فى تلك الأيام حاولت تحمل كل الأعباء والواجبات التى يلزم بها الحاكم، ووجدت بتفكيرى الشخصى أن كتفىَّ لن يتحملا هذه الأعباء، كما لن تتحمل ضلوعى ثقلاً لا تكافئه،

ولن أجد فى جعبتى السهام، وهكذا قبل أن تقلب لى الحكومة ظهر المجن، أردت أنا أن أقلب لها ظهر المجن، فتركت صباح أمس الولاية كما دخلتها. لم أطلب قرضًا من أحد، ولم أتورط فى أرباح أو مكاسب من أى نوع، ومع أننى كنت أفكر فى إعداد بعض اللوائح المثمرة، لم أصنع منها شيئًا، خوفًا من ألا ينفذوها؛ فصار متساويًا عملها أو عدم عملها. وخرجت كما أقول من الولاية دون مرافقة أحد غير حمارى، وسقطت فى هاوية، وتحركت فى نفق لها، حتى صباح اليوم مع نور النهار، رأيت المخرج، لكن لم يكن سهلاً، ولولا أن أرسلت لى السماء سيدى دون كيخوتى، لبقيت هناك حتى نهاية العالم. وهكذا سيدى الدوق، سيدتى الدوقة، هاهو أمامكم حاكمكم سانشو بانثا، الذى كسب خلال عشرة أيام من الحكومة معرفة أن تحوله إلى حاكم لن يفيده فى شيء، ليس فقط حاكم ولاية، بل حاكم العالم كله، وبهذا أقبل أقدامكما، مقلدًا الصبيان فى لعبتهم "ألق أنت، أعطنى أنت" وهأنذا ألقى بالحكومة، وأعود لخدمة سيدى دون كيخوتى، التى فى النهاية خلالها، وإن كنت آكل الخبز فى فزع فإننى على الأقل أشبع، وبالنسبة لى، إذا كنت شبعانًا، فلا يهم إن كان شبعى من الجزر أو من طيور البرديس.

هنا أنهى حديثه الطويل سانشو، وكان خلاله دائمًا دون كيخوتى خائفًا من أن يتفوه سانشو بآلاف الترهات، ولما رآه ينتهى دون أن يكثر منها، شكر الله فى أعماقه، واحتضن الدوق سانشو، وقال له إنه يحزن نفسه أن قد ترك الحكومة بهذه السرعة، لكنه فى الوقت المناسب سيعطيه وظيفة فى دولته تكون ذات أعباء أقل، ومكاسب أكثر. واحتضنته الدوقة أيضًا، وأمرت أن يدللوه، لأن شكله كان يوحى أنه جاء مطحون الجسم، وسيئ الحال والمآل.

الفصل السادس والخمسون

عن المعركة الهائلة التى لم يشهد لها مثيل، والتى دارت بين دون كيخوتى دى لامانشا والخادم توسيلوس، فى الدفاع عن ابنة القهرمانة دونيا رودريجيث

لم يندم الدوق والدوقة على الملعوب الذى خدعا به سانشو بانثا بالحكومة التى أعطياها له، وخاصة فقد عاد فى نفس اليوم رئيس الخدم وحكى لهما نقطة نقطة تقريبًا كل كلمات سانشو بانثا وأفعاله التى قالها وعملها خلال تلك الأيام، وأخيرًا أتى على الهجوم على الولاية، وخوف سانشو، وخروجه، وقد استقبلا ذلك بسرور ليس بالقليل. وبعد هذا تحكى القصة أنه قد جاء يوم المعركة المؤجلة، وكان الدوق قد أعلم الخادم توسيلوس مرة ومرات، كيف يناور مع دون كيخوتى حتى يهزمه دون أن يقتله أو يجرحه، وأمر بإزالة السن الحديد للرماح قائلاً لدون كيخوتى بأن المسيحية لا تسمح أن يهتم بأن تكون تلك المعركة ذات مجازفة ومخاطرة إلى هذا الحد ضد الحياة، وعليه أن يكون سعيدًا لأنه أعطى ميدانًا مفتوحًا فى أرضه للمعركة رغم أن ذلك ضد مرسوم المجمع المقدس، الذى يمنع أمثال هذه المبارزات، من ثَم هو لا يحب أن يتم هذا القتال بمثل هذه الشراسة، قال دون كيخوتى إن سعادته يمكنه أن يأمر بما يرى للإعداد لهذا الشأن كما يرى لخدمه، وأنه سوف يطيعه فى كل شيء. من ثم، وها قد وصل اليوم المخيف، أمر فيه الدوق أن تقام منصة أمام ساحة القلعة، حيث يجلس القضاة حكام المبارزة والقهرمانتان، أم وابنة، المدعيتان، ووجد جمهور ليرى مستجدات تلك المعركة،

التى مثلها لم تر عيون من كانوا يعيشون على أرض ذلك الإقليم أو مسامعهم، ولا حتى الذين ماتوا ودفنوا تحت ترابه.

أول من دخل الميدان بما حوله من سياج خشبى كان مايسترو شعائر المبارزة، الذى اختبر الميدان وتفرج عليه كله، حتى لا تكون به أية حيلة خداع أو شيء خفى يتعثر فيه أحد أو يسقط، ثم دخلت القهرمانتان، وجلستا فى مقعديهما، وقد غطتهما طرحة رقيقة حتى العينين، بل حتى الصدر، مع مظاهر ليست بالقليلة للحزن، وكان دون كيخوتى لحظتها موجودًا فى المنصة. وبعد قليل، مصحوبًا بطبول، أطل من إحدى نواحى الساحة فوق فرس جبار زلزل أركان المكان الخادم الهائل توسيلوس بقلنسوة مصفحة بالحديد تمامًا، ومغطى تمامًا بدروع وأسلحة تشل حركة رأسه، وكان الفرس من فصيلة فريسون القوية عريضة الأرجل، جسيم وبنى اللون، فى كل يد ورجل منه رقعة من الصوف. جاء المحارب الشجاع حسن الإعلام من سيده الدوق عن كيفية تصرفه مع الهمام دون كيخوتى دى لامانشا، محذرًا له ألا يقتله بأية حال من الأحوال، وإنما عليه أن يحاول الفر فى أول كر، حتى يتجنب خطر قتله، والذى كان مؤكدًا لو استمر احتكاكه به عند كره عليه ضاربًا من ضربة لأخرى فى المليان.

تجول فى الساحة، ومقتربًا حيث كانت القهرمانتان، شرع وقتًا فى النظر لمن تطلبه زوجًا. نادى مايسترو الميدان على دون كيخوتى، الذى كان عليه أن يكون قد نزل إلى أرض الساحة من قبل. ذهب المايسترو مصاحبًا توسيلوس، وكلم القهرمانتين، سائلاً لهما إذا كانتا توافقان أن يأخذ حقهما دون كيخوتى دى لامانشا. قالتا هما نعم، وكل ما يبديه هو فى هذه القضية يعتبرانه موافقًا لهما، وصالحًا ويقينيًا. وخلال هذا الوقت كان الدوق والدوقة قد اتخذا مجلسهما فى قاعة تطل من فوق المنصة، وكانت تلك القاعة قد زينت ببشر لا عداد لهم، فى انتظار تلك

اللحظة الحرجة التى لم يروا مثلها فى البلاد. كان شروط المتقاتلين، إذا كسب دون كيخوتى، على خصمه أن يتزوج ابنة دونيا رودريجيث، وإذا هزم صار الخصم متحررًا من أى التزام أو كلمة تطلب منه الابنة إنجازها، وليس عليه دفع أى تعويض آخر. رتب موقفهما مايسترو الميدان حتى لا يكون أحدهما مواجهًا للشمس، وحتى يكون فى الموضع الذى عليه أن يتخذه. رنّت الأبواق، وملأ الجو دقُّ الطبول، واهتزت الأرض تحت الأقدام، وكانت مائلة قلوب زمرة النظارة والمشاهدين، بعضهم فى خوف، والبعض الآخر يترقب الحدث الطيب أو السيئ لهذه القضية. وأخيرًا، دون كيخوتى متوكلاً على الله ربنا من كل قلبه وطالبًا الدعم من سيدته دولثينيا دل توبوسو، وقف منتظرًا أن يعطوه إشارة دقيقة للهجوم، وعلى عكسه خادمنا توسيلوس كانت لديه أفكار أخرى، لم يكن يفكر فى شىء غير ما سأقوله الآن.

يبدو أنه عندما كان ينظر إلى عدوته بدت له أجمل امرأة رآها فى حياته، والطفل الأعمى الذى تعودوا فى تلك الشوارع على تسميته الحب، لم يحب أن يفقد فرصته المتاحة لغزو نفس (خدامية)، ليضعها فى قائمة تذكاراته؛ وهكذا وصل إلى الخادم صاحب تلك النفس فى اختيال دون أن يراه أحد، وأصاب المسكين بسهم مزدوج من الجانب الأيسر، فانشطر قلبه شطرين، وفعل ذلك فى نجاح أكيد، لأن الحب غير مرئى، ويدخل ويخرج حيثما شاء، دون أن يحاسبه أحد على أفعاله. أقول، إذن، عندما أعطوا إشارة الهجوم، كان خادمنا قد انتقل (بخياله) مفكرًا فى حسن التى صارت سيدة لحريته، وهكذا لم ينتبه لصوت الطبل، مثلما فعل دون كيخوتى، الذى بمجرد سماعه الإشارة هجم، بكل قدرة روثينانتى على الركض، فى اتجاه عدوه؛ وعندما رآه يهاجم، خادمه الطيب سانشو قال بأصوات عالية:

– أرشدك الله، يا زبدة وزهرة الفرسان المشّائين! أيدك الله بالنصر، فأنت تقف فى جانب الحق!

ومع أن توسيلوس رأى دون كيخوتى يتجه إليه، لم يتحرك خطوة عن موضعه، وعلى العكس نادى بأصوات عالية على مايسترو ميدان المبارزة، والذى جاء ليرى ماذا يريد، فقال له:

– سيدى، أليست هذه المعركة من أجل أن أتزوج أو لا أتزوج من هذه السيدة؟

أجابه:

– هذا هو.

قال الخادم:

– إذن، أنا خائف من ضميرى، وسأحمله ما لا يستطيع أن يحمل إذا مضيت قُدُمًا فى هذه المعركة، وهكذا أقول إننى أعلن هزيمتى، وأريد الزواج فى الحال من هذه السيدة.

بقى المايسترو مذهولاً من عبارات توسيلوس، ولأنه كان يعلم أسرار الملعوب لم يعرف أن يجيب بكلمة، توقف دون كيخوتى فى وسط الميدان عندما رأى خصمه لا يهاجم. الدوق لم يعرف سبب توقف المبارزة، لكن المايسترو ذهب إليه ليخطره بما قال توسيلوس، وسبب ذلك ذهوله وغضبه المفرط، وخلال حدوث هذا اقترب توسيلوس من مكان دونيا رودريجيث، وقال بأصوات عالية:

– أنا، يا سيدتى، أود الزواج من ابنتك، ولا أحب أن أحقق بمعارك أو قتال ما أستطيع تحقيقه بالسلام، ودون خطر الموت.

سمع هذا دون كيخوتى الشجاع، وقال:

- إذن، هذا يكون هكذا، وأنا أصبح حرًا، وطليقًا من وعدى، تزوجا ومبروك، والله ربنا يبارك الزواج والقديس سان بدرو.

نزل الدوق إلى ميدان القلعة، وعندما وصل إلى توسيلوس، قال له:

- حقيقى، أيها الفارس، أنك أعلنت هزيمتك، وبدافع من ضميرك الخائف، تريد الزواج من هذه الفتاة؟

أجاب توسيلوس:

- نعم يا سيدى.

قال فى هذه اللحظة سانشو بانثا:

- إنه يحسن السلوك؛ لأن ما تعطيه للفأر، أفضل تعطيه للقط؛ وأخرج نفسك من الهم.

ومضى توسيلوس يفكك الخوذة، وتوسل أن يسرعوا لمساعدته، لأنه تدريجيًا تتقطع أنفاسه، ولم يعد يرى محبوس الوجه والرأس وقتًا طويلاً داخل هذا المخدع الضيق. خلعوها له مسرعين، وبقى وجهه مكشوفًا، واتضح وجه خادم، وما إن رأت هذا دونيا رودريجيث وابنتها، حتى صرختا فى أصوات مدوية:

- هذا خداع! خداعٍ هذا. لقد وضعوا توسيلوس، خادم الدوق سيدى مكان الزوج الحقيقى! عدالة الله والملك من كل هذا المكر، حتى لا أقول السفالة!

قال دون كيخوتى:

- لا تحزنا، أيتها السيدتان؛ فهذا ليس مكرًا ولا سفالة، وإذا كان الأمر كذلك، فالدوق ليس السبب، وإنما السحرة الأشرار الذين يطاردوننى، والذين

لحسدهم من إدراكي مجد هذا الانتصار، حولوا وجه الزوج الحقيقي إلى الوجه، الذى تقولان إنه لخادم الدوق. خذا بنصيحتى، وعلى الرغم من خبث أعدائى، زوجى ابنتك منه، فمما لاشك فيه هو نفس من ترغب فى إدراكه زوجًا.

الدوق، الذى سمع ذلك، كان على وشك أن يفجر كل غضبه المشتعل إلى ضحك، وقال:

- إن الأشياء التى تحدث لدون كيخوتى غير معتادة، وإننى أكاد أؤمن أن خادمى هذا هو ليس هو، لكن لنجرب هذه الحيلة والكيد، نؤجل الزواج خمسة عشر يومًا، ونترك ذلك الشخص خلالها محبوسًا، مادام مشكوكًا فى هويته، وخلال ذلك من الممكن أن يعود إلى صورته الأولى، فلن يدوم طويلاً كيد السحرة ضد السيد دون كيخوتى، وخاصة أن هذه الخديعة وتلك التحولات لا تفيدهم فى شىء يذكر.

قال سانشو:

- أوه، سيدى، إن هؤلاء الملاعين صارت عادة لهم تحويل الأشياء التى تمس سيدى. فهناك فارس هزمه سيدى الأيام الماضية يسمى فارس المرايا، حولوه إلى صورة حامل البكالوريا شمشون كارّاسكو، أحد أبناء قريتنا، وصديق كبير لنا، والسيدة دولثينيا دل توبوسو حولوها إلى مزارعة خشنة؛ وهكذا أتخيل أن هذا الخادم لابد أن يموت ويعيش خادمًا طويلاً.

على هذا علقت ابنة دونياورودريجيث:

- ليكن من يكون ذلك الذى يطلبنى زوجة (وإنى لأشكره)، فأنا أود أن أكون زوجة شرعية لخادم أكثر من أن أصير عدوة ومخدوعة من فارس، على الرغم من أن الخادم ليس من خدعنى.

باختصار، كل هذه الأحداث والحكايات انتهت بحبس توسيلوس حتى يــروا إلى أى شأن ستصير تحولاته، هتف الجميع بنصر دون كيخوتى، والأغلبية بقيــت حزينة، ومستاءة من عدم رؤية المقاتلين يمزق كل منهما الآخر إلى قطــع، مثلمــا يحزن الصبية عندما لا يخرج المشنوق الذى ينتظرون، لأنه قد عفا عنه، إما الحظ، وإما العدالة.(*) انصرف الناس وصعد الدوق والدوقة إلــى القلعــة ومعهمــا دون كيخوتى، وحبس توسيلوس، وبقيت دونيا رودريجيث وابنتها فى غاية الرضا مــن رؤية أنه بطريق أو بآخر تلك القضية سوف تنتهى بزواج، ولم يكــن توســيلوس يرجو غير ذلك.

(*) يشير إلى لعبة صبيان كانت معروفة فى عصره! هكذا أظن لغموض العبارة رغم أن السياق يقلل من هذا الغموض.

الفصل السابع والخمسون

عبارة عن كيف ودع دون كيخوتى الدوق، والذى حدث مع ألتسيدورا الذكية هادئة الخاطر، وصيفة الدوقة

بدا، بالفعل، لدون كيخوتي الخروج من هذه البطالة الزائدة التي يحياها في تلك القلعة، وكان يتصور جسامة الخطأ الذى يرتكبه شخصه، تاركًا لنفسه بين جدران أربعة كسولاً، فى خضم التدليل واللذات التى يهيئها له الدوق والدوقة باعتباره فارسًا مشاء، وبدا له أيضًا أن عليه أن يواجه حسابًا صارمًا من السماء بسبب هذه البطالة والانغلاق فى القلعة، وهكذا طلب يومًا إذنًا من الدوقة حتى يرحل. أعطياه الإذن مع مظاهر حزنهما لتركه لهما، وأعطت الدوقة إلى سانشو بانثا خطابات زوجته، التى بكى بسببها، وقال:

- من كان يفكر أن آمالاً عريضة مثل تلك التى تولدت فى صدر زوجتى تيريزا بانثا من أخبار حكومتى سوف تتوقف عند عودتى الآن إلى المغامرات المفنية لسيدى دون كيخوتى دى لامانشا؟ ومع كل هذا يرضينى رؤية تيريزا وقد تصادف أنها من أرسلت (أبو فروة) إلى الدوقة، لأنها لو لم تفعل لبقيت حزينًا، بأن تبدو جاحدة، وما يعزينى أن هذه الهدية لا يمكن إعطاؤها اسم الرشوة، لأنى بالفعل كنت استلمت الحكومة قبل أن ترسلها، ومن المستقر أن من يستقبلون منفعة، ولو حتى فى مزاح، عليهم أن يظهروا العرفان. بالفعل أنا دخلت عريانًا إلى الحكومة، وأخرج عريانًا منها؛ وهكذا قد يمكننى القول: "عريان ولدت، وعريان أوجد، لا مكسب ولا خسارة".

كان هذا يحدث فى نفس سانشو يوم الرحيل، وعند خــروج دون كيخــوتى، وقد انتهى من توديع الدوق والدوقة بالأمس، فى صباح ذات يوم استقبله بــالظهور كامل التسليح فى ساحة القلعة. كان ينظر إليه من الممرات كل سكان القلعة، وكذلك خرج الدوق والدوقة لرؤيته، وكان سانشو فوق حماره، مــع خرجــه، والحقيبــة والتموين، شديد الطرب والسرور، لأن رئيس الخدم الذى مثل دور تريفــا لــدى، أعطاه كيسًا به مائتا دينار ذهبًا، لإمداد حاجات الطريق، وهذا حتى الآن لا يعرفــه دون كيخوتى، وبينما كان الجميع، كما سبق القول، ينظرون، فجأة ارتفــع صــوت ألتسيدورا الخالية البال الفطنة، وفى نغمة حزينه قالت:

أنصت أيها الفارس الجلمود

أوقف هنيهة عنان فرسك

لا ترهق ما يزينك من شكيمة

دابتك الطليقة غير حكيمة

*

تلفت، أيها الزائف، لا قمرب

من أفعى برية تسغب

بل غزالة جبلية تشرد

عن نعاجها الرفيقة تبعد

*

غررت مسخًا يرعب بغريرة

أحلى صبية كانت قريرة

رأتها ديانا فى تلالها

رأتها فينوس فى غاباتها

*

فيرينو القاسى، إينياس الهارب

صحبك باراباس، وهناك يثأر منك

*

تحمل أنت حملاً صافيًا

فى مخالب يديك

أحشاء مسكينة

كعاشقة حنونة

*

تحمل أنت ثلاثة جوارب

ورباطاتها لسيقان

تتساوى مع المرمر النقى

ناعمة وبيضاء وسوداء

*

حملت ألفى تنهيدة

يمكن أن تكون من نار

تحرق ألفى طروادة

إن وجد من طروادة ألفان

*

فيرينوالقاسى، إينياس الهارب

صحبك بارّاباس، وهناك يثأر منك

*

ولهذا سانشو حامل دروعك

أحشاء من جلمود

صلدة قاسية، ولن تخرج

من سحرها دولثينيا

*

من آثام تحملها

تحمل الحزينة العقاب

والآثمون مع العدالة

قد يدفعون الثمن فى أرضى

*

مغامرتك الأكثر نقاء

إلى تعاسة تصير

إلى أحلام وقت فراغك

إلى نسيان عزمك

*

فيرينو القاسى، إينياس الهارب

صحبك بارًاباس، وهناك يثأر منك

*

ليروك الفارس الزائف

من أشبيلية إلى مارشينا

ومن غرناطة حتى لوخا

ومن لندن حتى إنجلترا!!

*

إذا لعبت الورق

هذه اللعبة أو تلك

ستهرب الأولاد منك

ولن ترى بصرة أو آس

*

إذا فتحوا كرشك

سوف تريق الجروح دمًا

وستبقى الجذور

لو خلعوا أضراسك

*

فيرينو القاسى، إينياسَ الهارب

صحبك بارّاباس، وهناك يثأر منك

خلال شكوى المجروحة ألتسيدورا من الحظ، كان دون كيخوتى ينظر إليها، ودون أن يجيب بكلمة، أدار وجهه لسانشو، وقال له:

– (وتربة أجدادك)، سانشو عزيزى، أستحلفك أن تقول الحق، قل لى، بالصدفة، هل تحمل ثلاثة الجوارب وأربطتها التى تتكلم عنها هذه العاشقة؟

وعلى هذا أجاب سانشو:

– ثلاثة الجوارب، نعم أحملها، أما الأربطة فلا وجود لها.

بقيت الدوقة مندهشة من عبث ألتسيدورا، ومع أنها رأتها جريئة، وظريفة وعابثة، لم يكن مرضيًا لها مثل هذا التعابث، وكما أنها لم تكن تعلم بخدعتها تلك، زاد أكثر اندهاشها أن الدوق أحب تقوية الاستملاح، فقال:

- لا يبدو لى خلقيًّا، أيها السيد الفارس، بعد أن استقبلت فى قلعتى هذه ترحيبًا حارًّا، أن تحمل ثلاثة جوارب (على الأقل!)، والأفظع أن تحمل معها أربطة جوارب وصيفتنا، مؤشرات على سوء النية، ولاتتفق مع سمعتك. أعد الأربطة، وإلا فإنى أتحداكم فى معركة قاتلة، دون أى خوف من أن يحول أو يغير وجهى السحرة الأشرار، مثلما فعلوه مع توسيلوس خادمى، الذى دخل مع فخامتكم فى معركة.

أجاب دون كيخوتى:

- لا أراد الله أن أستلَّ سيفى ضد شخصكم البارز، والذى منه تلقيت إنعامات كثيرة. الجوارب سأعيدها، لأن سانشو يقول إنها فى حوزته، أما الأربطة فذلك مستحيل، لأنى لم آخذها كما لم يأخذها سانشو، وإذا حاولت وصيفتكم هذه أن تبحث فى مخابئها، من المؤكد أنها ستجدها. أنا، أيها السيد الدوق، لم أكن لصًّا قط، ولا أفكر أن أكون لصًّا طول العمر، مادام أحيانى الله. هذه الوصيفة وقعت فى الغرام (كما تقول هى)، ولا ذنب لى فى ذلك، ولهذا ليس علىَّ أن أعتذر لكم، ولا لها، أرجوك أن تحسن الرأى فىَّ، وسعادتكم الآن أعطنى الإذن لأواصل طريقى.

قالت الدوقة:

- سهَّل الله لك الطريق، أيها السيد دون كيخوتى، وأبلغنا دائمًا بأخبارك وأخبار مآثرك، وسر على بركة الله؛ فكلما كثر توقفك، زدت أكثر النار فى قلوب الصبايا اللائى ينظرن إليك، وبالنسبة لوصيفتى سوف أعاقبها، حتى تعرف من الآن فصاعدًا ألا تتجاوز حدودها بالنظر والكلمات.

وعندئذ قالت الوصيفة ألتسيدورا:

- مرة واحدة لا أكثر أحب أن تسمعنى، أوه أيها الشجاع دون كيخوتى، والمسألة أننى أطلب غفرانك لأمر سرقة الأربطة، لأننى أمام الله ونفسى أشهد أننى أحملها ممسكة بجواربى، وقد وقعت فى الخطأ، فمن كنت أقصد هو ذلك السائر فوق الحمار.

قال سانشو:

- لم أقلها أنا؟ ما أمهرنى حتى أخبئ المسروق! إذا كنت راغبًا فى السرقة، فى الحال كنت فعلتها عندما جاءتنى الفرصة فى حكومتى.

خفض دون كيخوتى رأسه احترامًا للدوق والدوقة ومن حولهما جميعًا، وأدار عنان روثينانتى، لاحقًا به سانشو فوق الحمار، وخرج من القلعة متخذًا الطريق نحو سرقسطة.

الفصل الثامن والخمسون

عبارة عن كيفية هطول مغامرات غزيرة على دون كيخوتى، حتى إن عددا منها لم يكن يسمح بفراغ للعدد الآخر

عندما وجد دون كيخوتى نفسه فى أرض جرداء ملساء، حرًّا وخاليًا من هموم غزل ألتسيدورا، أحس أنه فى أرض ملعبه، وأن روحه تتجدد كى يواصل من جديد تحمل مسئولية فروسياته، وملتفتًا لسانشو، قال له:

– إن الحرية، سانشو، واحدة من أكثر الهبات التى منحتها السماء للإنسان، ثمانة وسموًا، ولا تتساوى معها كل الكنوز التى تخفيها الأرض أو يغمرها البحر، وهكذا من أجل الحرية مثلها مثل الشرف، يمكن المجازفة بالحياة، وعلى العكس، الأسر هو أسوأ شر يمكن أن يهبط على الإنسان. أقول هذا، سانشو، لأنك رأيت التدليل والوفرة التى نلناها فى القلعة وتركناها، لأنه رغم الموائد والولائم فى مواقيتها، والمشاريب كأنها من الجليد، بدا لى أننى كنت موضوعًا فى ضيق الجوع، لأننى لم أتمتع بهذا مثلما أتمتع بالحرية لو كانت فى يدى، فإن جبر تعويض المنافع والانعامات التى نلناها، كان قيدًا لا يدع الإنسان يمرح بنفس حرة. سعيد من أعطته السماء قطعة من الخبز دون أن يجبر على شكر أحد آخر غير السماء نفسها!

قال سانشو:

– مع كل هذا الذى قلته فخامتكم، ليس طيبًا أن يبقى دون شكر من طرفنا مئتا دينار ذهبًا أعطانى إياها فى كيس رئيس خدم الدوق، وهى مثل حجاب سعادة وتفريج أحمله فوق قلبى، من أجل ما يعرض فى الطريق، فلن نجد دائمًا قلاعًا نتدلل فيها، بل بعض الفنادق حيث نلاقى ضرب النبابيت.

فى هذا وغيره من الدردشة سار المشاءان فارسًا وخادمًا، وقبل تجاوزهما الفرسخ إلا بقليل، لاح لهما فوق حشائش مرج صغير ما يصل إلى دستة من الرجال يأكلون فوق عباءاتهم المفروشة، فبدوا فى ملابس مزارعين. بجوارهم كانت هناك بعض المفارش تغطى شيئًا غير واضح المعالم تحتها، مسدلة ومشدودة من طرفيها. وصل دون كيخوتى قرب من يأكلون، وحياهم أولاً بأدب ثم سألهم عما تغطيه تلك المفارش.

أحدهم أجابه:

– سيدى، تحت هذه المفارش توجد تماثيل بارزة المعالم ومنصة عرضها، سوف تستخدم لعمل تابلوه قصصى للعرائس فى قريتنا، ونحملها بمغطاة حتى لا تفقد زهو لونها، ونرفعها طول الطريق على الأكتاف حتى لا تتكسر.

أجاب دون كيخوتى:

– سيكون لكم الفضل إذا أسعدتمونى برؤيتها، ولأنكم تحملونها مع كل هذا الحذر لابد أن تكون جميلة.

– هى كذلك! وإذا لم تصدق، قل كم كلفت، فلا توجد واحدة منها أقل من خمسين دينارًا، انتظر فخامتكم حتى تراها بعينيك.

ونهض هذا المتحدث، تاركًا الطعام، وذهب لكشف غطــاء التمثــال الأول، وظهر أنه للقديس خورخى فوق جواد، بأفعى تلتف على قدميه والرمح فى فمهــا، بكل الضراوة التى تعودوا بها رسم الأفاعي. كل الصورة كانت مثل جــذوة مــن الذهب، كما جرت العادة فى القول، وما إن رآها دون كيخوتى، حتى قال:

– هذا الفارس كان أحد أفضل الفرسان المشّائين ممن امتلكتهم الميليشيا الإلهية، وكان يسمى دون القديس خورخي، وكان أيضًا نصير الصبايا.

لنرى ذلك التمثال الآخر، كشفه الرجل، وبدا أنه تمثال القديس مارتين فوق فرس، يتقاسم عباءته مع رجل فقير، وما إن رآه دون كيخوتى حتى قال:

– وهذا الفارس أيضًا من المغامرين المسيحيين، لكنه كان كريمًــا أكثــر منــه شجاعًا، كما يمكنك ملاحظته، سانشو، فهو يشق عباءته ليعطــى الفقــير نصفها، ويبقى له النصف الآخر؛ ولاشك أن ذلك كان لا بد في الشتاء، لأنه لم يعطها له كلها لفرط بره.

قال سانشو:

– ما كان يجب أن يعطيها كلها، لأنه لا بد كان يعمل بالمثل "حتى تعطي وتأخذ، فالعقل ضرورى ومنقذ".

ضحك دون كيخوتى، وطلب كشف مفرش آخر، ليظهر تحته علــى جــواد قديس إسبانيا، بسيف دام، يتعثر بعرب، ويعبر فوق رءوسهم، وعند رؤيته قال:

– هذا نعم فارس، ومن كتائب المسيح، وهو يسمى دون القديس دييجو محارب العرب، قد كان أحد أشجع الفرسان والقديسين على الأرض. وهــو الآن كذلك في السماء.

ثم كشفوا مفرشًا آخر، ورؤى أنه كان يغطى مشهد سقوط القديس بابلو تحت أقدام جواده، مع كل الظروف المحيطة بتحوله عن المسيحية التى تعودوا رسمها فى التابلوهات. وعندما رآه دون كيخوتى فى كل واقعية حية، عندما كان المسيح يكلمه وهو يجيبه، قال دون كيخوتى:

– هذا كان أكبر عدو شهدته كنيسة الله ربنا فى عصره، وأكبر مدافع عنها فى كل تاريخها؛ فارس مشّاء خلال حياته وقديس راجل على قدميه خلال الموت، مجاهد لا يكل فى كرمة الرب، وطبيب للناس التى كانت مدرستها السماء، كما كان أستاذًا ومعُلمًا علمه يسوع نفسه.

لم تكن هناك صور أكثر، وهكذا أوصى دون كيخوتى بأن يعودوا لتغطيتها، وقال لمن كانوا يحملونها:

– بشرى خير، يا إخوتى، أن رأيت ما رأيت، لأن هؤلاء الفرسان والقديسين كانوا يمارسون ما أمارس، إنها مقارعة السلاح بالسلاح، والفرق بينى وبينهم أنهم كانوا قديسين حاربوا للسماوى، وأنا أحارب للإنسانى، وهم غزوا السماء بقوة سواعدهم، لأن السماء بابها القوة، وأنا حتى الآن لا أدرى ما أغزوه بقوة ساعدى، لكن سيدتى دولثينيا دل توبوسو إذا خرجت مما تعانيه، رافعة أسهم حظى، معيدة إلىّ صوابى، من الممكن لى أن تدب خطواتى عبر طريق أفضل من الطريق الذى الآن أنا سالكه.

قال سانشو فى ذلك:

– سمع الله منك، وأسكن عنك الشيطان.

عجب الرجال من عبارات دون كيخوتى ومن صورته، ولم يفهموا نصف ماقال. انتهوا من طعامهم، وحملوا تماثيلهم وودعوا دون كيخوتى، وواصلوا طريقهم.

بقى سانشو من جديد مع فكرة أنه كما لو كان لم يعرف قط سيده، متعجبًا من فرط معرفته، وبدا له أنه لا توجد قصة فى العالم ولا حدث، دون أن يكون مرقمًا على أظافره ومغروسًا فى ذاكرته، قال له:

– فى الحقيقة، يا سيدنا، إذا كان ما قد حدث لنا اليوم يمكن تسميته مغامرة، فهى من أنعم المغامرات وأكثرها حلاوة بين كل ما وقع لنا من أحداث خلال كل مجرى تجوالنا؛ فمنها خرجنا دون أذى النبابيت، ودون أى فزع، ولم نمد يدًا للسيوف، ولم نمرغ الأرض بالأجسام، ولم نعانِ جوعًا، تبارك الله الذى جعلنى أرى مثل ذلك بعينى.

قال دون كيخوتى:

– ما أحسن ما تتكلم، سانشو؛ لكن عليك أن تعلم أن كل الأوقات واحدة، ولا تجرى بنفس الطريقة، وهذا ما اعتاد العامة على تسميته بالفأل، الذى لا يتأسس على أى أساس طبيعى، فى فطنة يفسرون به الأحداث الطيبة. ينهض فأل من هذا فى الصباح، يخرج أحدهم من بيته، يقابل راهبًا من نظام القديس سان فرانسيسكو السعيد، وكما لو أن قد قابل مسخًا أسطوريًّا مخيفًا، فيعود إلى بيته. وآخر يسقط الملح منه فوق المائدة، فتسقط التهاويل فى قلبه، كما لو كانت الطبيعة مجبرة على إعطاء إشارات عن القادم من النكبات بأشياء لا تستغرق لحظات مثل المشار إليها. الذكى والتقى ليس عليه أن يسير على أطراف أصابعه حذرًا، مع ما تود صنعه السماء. يصل أسشبيون لإفريقيا،

ويعثر حلال قفزه على الأرض، فيأخذه جنوده على أنه فأل سوء، لكنه محتضنا الأرض يقول: "لن تستطيعى الهروب منى، يا إفريقيا، لأنى قابض عليك، وبين ذراعى". وهكذا، سانشو، مقابلتى مع هذه الصور كان بالنسبة لى حدثًا بالغ السعادة.

أجاب سانشو:

– هذا ما أعتقده، وأود أن تقول لى فخامتكم سبب قول الإسبان عندما يدخلون داعين لهذا القديس سان دييجو محارب العرب: "سانتياجو، واقفل إسبانيا!"، هل بالصدفة إسبانيا مفتوحة، حتى يصبح من الضرورى إغلاقها؟ أو أن هذه شعيرة أخرى؟

أجاب دون كيخوتى:

– كم أنت شديد السذاجة، سانشو، وانظر إلى ذلك الفارس العظيم ذى الصليب الأحمر بشقرة. لقد أعطاه الله لإسبانيا حارسًا لها، وملاذًا، وخاصة فى اللحظات الحرجة التى مر بها الإسبان مع العرب، وهكذا يدعونه وينادونه باعتباره مدافعًا عنهم فى المعارك التى يخوضونها، ومرات كثيرة قد شاهدوه بأعينهم معهم فى تلك المعارك، مجندلاً ومسقطًا ومدمرًا وقاتلاً كتائب أبناء هاجر(أم إسماعيل)، وعن هذه الحقيقة يمكن تقديم أمثلة كثيرة من القصص الحقيقية التى يحكونها.

غير سانشو الحديث، وقال لسيده:

– متعجب أنا من جرأة وصيفة الدوقة، وينبغى أن تكون جريحة بضراوة، وشديدة الإصابة بيد ذلك الذى يطلقون عليه الحب، ويقولون إنه طفل أعمى، ولكونه مغمض العينين، ويقول أدق، دون نظر، إذا أخذ هدفًا له أحد

القلوب، مهما كان صغيرًا، يصيبه ويخترقه من طرف إلى طـــرف بـــسهامه. وسمعت أيضًا أنه بفضل خجل الصبايا وحذرهن تثلم سهام الحب وتتكسر، لكن ألتسيدورا تلك يبدو أكثر أنها ترهف أكثر من كونها تثلم.

قال دون كيخوتى:

– اعلم، سانشو، أن الحب لا يكن احترامًا ولا يحترم عقلاً خلال سريانه، ولـــه نفس ظرف الموت، وهكذا يهاجم القلاع العالية للملوك مثلما يهاجم أكواخ الرعاة، وعندما يمتلك بالتمام نفسًا، أول شيء يفعله نزع الخوف والخجـــل منها، وهكذا دون خوف أو خجل أعلنت ألتسيدورا عن مشاعرها، الـــتى ولدت فى صدرى اضطرابًا أكثر من الحزن.

قال سانشو:

– قسوة هائلة! جحود لم يسبق مشاهدته! أنا، عنى، أعرف القول إنـــنى كنـــت سأستسلم وأتبعها من أول عبارة غرامية لها. ابن داعرة، أى قلب من المرمر، وأى وجدان من البرونز، وأى نفس من الملاط! لكن لا أستطيع أن أفكـــر فيما رأته هذه الصبية فى فخامتكم حتى تسقط هكذا وتنهار، أى مجـــد وأى بريق، وأى ملاحة، وأى وجه، فلكل شيء وحده من هذه الأشياء، أو كلها مجتمعة عشقتك، وفى الحقيقة أننى مرات كثيرة أنظر لفخامتكم من كعـــب القدم حتى آخر شعرة من الرأس، فأرى أشياء للإفزاع أكثر مما يبقى ليوقـــع فى الغرام؛ ولأنى سمعت قولهم أن الحسن هو العلة الأولى، من ثَـــم لا أدرى ماذا عشقت تلك المسكينة.

أجاب دون كيخوتى:

– اعلم أن هناك صورتين من الحسن، الأولى للروح والثانية للجسد؛ وأن حسن الروح يبرز ويظهر فى العقل وفى الشرف وحسن التصرف والكرم وحـــسن

التربية، وكل هذه العناصر يمكن أن توجد فى رجل قبيح الشكل، وعندما تقع النظرة على هذا الحسن فيه، وليس على حسن الجسم، يعتاد أن يولد الحب بقوة وتميز. أنا، سانشو، أعرف جيدًا أننى لست وسيمًا؛ لكن أيضًا أعرف أننى لست مشوهًا، ويكفى لرجل خير ألا يكون مسخًا حتى يصبح محبوبًا أشد الحب، وخاصة إذا حظى بما أحظى به من هبات الروح التى ذكرتها لك.

خلال هذا الكلام والدردشة، كانا يواصلان الدخول فى غابة خارج الطريق، وفجأة، ودون أن يفكرا فيه، وجد دون كيخوتى نفسه متورطًا فى شباك من الخيط الأخضر، كانت مدلاة من بعض الأشجار هنا أو هناك، ودون أن يتمكن من تخيل أى شيء يمكن أن يكون ذلك، قال لسانشو:

– يبدو لى، سانشو، أن ذلك الشيء الخاص بالشباك لابد أن يكون واحدة من أجدّ المغامرات التى يمكن تصورها. وليقتلونى، إذا لم يكن السحرة يطاردوننى حتى أقع فى شراكهم، ويوقفون مسيرى باعتباره انتقامًا من قسوتى مع ألتسيدورا! لكن أعدهم أننى حتى لو كانت تلك الشباك من الماس أو أقوى من الخيوط التى ربط بها الإله الغيور للبراكين على شكل شباك فينوس ومارتى، وليست من الخيط الأخضر، سوف أمزقها كما لو كانت من ثبج البحر أو ندف القطن.

وعندما أراد التقدم وتمزيق كل الخيوط، ظهرت أمامه راعيتان فى غاية الحسن والجمال خرجتا من بين الأشجار، وعلى الأقل ملابسهما ملابس راعيتين ماعدا سترتيهما فكانتا من الحرير الموشى، أقول، والتنورة من حرير يتموج تموج الماء. كان شعرهما طليقا على ظهريهما، ولشقرة الشعر كان قادرًا على أن ينافس نفس أشعة

الشمس، وكان الرأس متوجا بغار أخضر لكل منهما، منسوج مع ديسم أحمر. والعمر، فيما يبدو، لم يكن أقل من الخامسة عشرة ولا يتجاوز الثامنة عشرة.

مشهد أذهل سانشو، وأفقد دون كيخوتى صوابه، بل أوقف الشمس فى عدوها كى تراهما، وأحاط بالأربعة صمت عجيب الروعة، فى النهاية، كان من يتكلم أولاً هى واحدة من هاتين الصبيتين، التى قالت لدون كيخوتى:

– قف، أيها السيد الفارس، ولا تمزق الشباك، لأنها ليست ضدك، لكنها من أجل تزجية وقت فراغنا، قد أسقطناها مدلاة من الشجر؛ ولأننا نعرف أنك كنت ستسألنا لماذا وضعناها ومن نحن، أحب أن أجيبك باختصار. فى قرية على بعد فرسخين من هنا، حيث يعيش كثير من النبلاء والأثرياء، وأعيان كثيرون أغنياء، وبين كثير من الأصدقاء والأقارب تم الاتفاق بين أبنائهم وزوجاتهم وبناتهم، أن نأتى هنا ونهيئ هذا المكان، وهو من أجمل مواقع هذه المناطق، مشكلين من الجميع "أركاديا" جديدة رعوية، مرتدين شبانًا وشابات لبس الرعاة. وحفظنا قصيدتين رعويتين، واحدة للشاعر المشهور جارثيلاسو والأخرى للرائع كامويس بنفس لغته البرتغالية، ولم نمثل القصيدتين حتى الآن. وأمس كان أول يوم لوصولنا، وعندنا بين هذه الفروع المزروعة بعض الخيام، التى يقولون عنها للعسكرة على هامش نهير بديع يبث الخصب فى كل تلك المروج، ودلينا الليلة الماضية هذه الشباك من تلك الأشجار شراكًا للعصافير الساذجة، المرعوبة من ضجيجنا، لاجئة إليها فتقع فيها. إذا أردت أيها السيد أن تكون ضيفنا، فأنت على الرحب وسعة كل الكرم وأكثره تهذيبًا؛ لأنه الآن فى هذا المكان لا ينبغى أن يدخل الحزن أو الألم.

سكتت ولم تنطق بكلمة أخرى، وعليها أجاب دون كيخوتى:

- يقينًا، أيتها السيدة كاملة الحسن، لا ينبغى أن يبقى أنتيـــون أكثـــر مـــذهولاً مندهشًا، عندما رأى ديانا تستحم بين الأمواه، كما بقيت أنا مشدوها أمـــام جمالك. أمتدح أمر تسليتكم، وأشكر لك عرضك، وإذا استطعت خدمتكما سترياني مطيعًا إن أمرتما، لأن مهنتى ليست إلا أن أبدى العرفان، وطيب الفعل مع كل جنس من الناس، ولا سيما النبيل منهم مثلما يبـــدو عليكمـــا. وإذا كانت هذه الشباك التى كان ينبغى أن تشغل فضاء محدودًا، قد شغلت كـــل كروية العالم، سأبحث عن عوالم أخرى حيث أعبر منها إليهـــا دون تمزيقهـــا، وحتى تضعا مصداقية فى هذه المبالغة، أعدكما ليس بأقل من تنفيذ ذلك، وعدًا من دون كيخوتى دى لامانشا، إذا كان قد ورد على مسامعكما هذا الاسم.

هنا قالت الراعية الأخرى:

- آى، يا صديق الروح، وأى حظ فى غاية السعادة يصادفنا! هل تـــرين هـــذا السيد الذى يقف أمامنا؟ إذن، أعلمك أنه الرجل الأكثر شجاعة والأكثـــر عشقًا والأكثر تهذيبًا فى هذا العالم، إذا كانت تلك القصة التى تسير مطبوعة بين الناس لا تكذب علينا وتخدعنا بمآثره حسبما قرأتها فيها، وأنا أراهـــن أن هذا الرجل الطيب الذى يرافقك هو سانشو بانثا، حامل دروعك، الذى لا يساويه أحد فى لطفه.

قال سانشو:

- هذا هو، أنا سانشو، أنا هذا الظريف، وهذا الحامل للدروع الذى تـــتكلمين فخامتكم عليه، وهذا السيد هو سيدى، نفس دون كيخوتى دى لامانـــشا المحكى قصته والمشار إليه بالبنان.

قالت الأخرى:

- آى! نتوسل إليك أن تبقى مع آبائنا وإخوتنا، سوف يسعدون كثيرًا لهذا، وأنا أيضًا سمعت الحديث عن شجاعتك وظرفك، نفس ما قلت، وفوق كل شيء عن سيدك أنه الأكثر ثباتًا وولاء بين العاشقين، وأن سيدته هى سيدة اسمها دولثينيا دل توبوسو، التى تمتدح فى كل إسبانيا لحسنها.

قال دون كيخوتى:

- بحق يمتدحونها، إذا لم يضع ذلك موضع شك جمالك الذى ليس له مثال، لا تتعبا أنفسكما أيتها السيدتان فى إيقافى لأن الواجبات السامية لمهنتى لا تتركنى أحط فى أى قرار.

وصل حيث كان الأربعة شقيق لإحدى الراعيتين، مرتديًا أيضا ثياب راع، بمظاهر الثراء والأناقة التى تناسب مظهرالفتاتين، وحكيا له أن من معهما الآن هو الهمام دون كيخوتى دى لا مانشا، والآخر خادمه سانشو، اللذان يعرفان عنهما لقراءتهما قصة الرجلين. قدم الراعى الأنيق نفس العرض وطلب منه صحبته إلى خيمته، وأجبر دون كيخوتى على التنازل وصحبه حيث طلب. خلال هذا وصل المطاردون، وامتلأت الشباك بالعصافير المتعددة الأنواع، وقد وقعت من الخطر الذى تهرب منه مخدوعة بلون الشباك. اجتمع فى ذلك المكان أكثر من ثلاثين شخصًا، وكلهم فى رشاقة وحسن رعاة. وفى لحظة أبلغوا من هما دون كيخوتى وخادمه، ولم يكن طربهم قليلاً، لأنهم لديهم عنهما أخبار من القصة. هرعوا إلى الخيام، ووجدوا الموائد معدة، فارهة ووفيرة ونظيفة، وكرموا دون كيخوتى بإعطائه مكان الصدارة. كان الجميع ينظر إليه فى عجب واندهاش. وفى النهاية رفعت الموائد، وفى وقار عظيم رفع دون كيخوتى صوته، وقال:

- بين الآثام الكبرى التى يرتكبها الإنسان يقولون الغرور، وأنـا أقـول عـدم العرفان والجحود، ومتكئًا على ما تعودوا على قولـه: بـالجحودين تمتلـئ الجحيم. ومن أول ما أمكننى حاولت الهروب عند أول لحظة امتلكت فيهـا استعمال العقل من هذا الإثم. وإذا لم أستطع رد الأعمال الكريمـة بأعمـال مثلها، أضع مكان ذلك أشواقى لعملها، وعندما لا تكفى تلك الأشـواق، أعلنها وأنشرها، لأن من يقول وينشر العمل الكريم الذى قدم لـه، أيـضًا يعوضها بمثلها إن أمكن، لأنه فى معظم الأحوال من يستقبلون الجميـل أدنى ممن يقدمونه، وهكذا فإن الله فوق الجميع، لأنه المعطى فوق كل معـط، ولا تقف هدايا الإنسان مع عطايا الله على قدم المساواة، بل المـسافة لا نهائيـة بينهما، وهذا الضيق والتضاؤل يهب عليه فيشعله الشكر. وأنا، مـن ثَـم، شاكرًا الإنعام الذى حظيت به منكم غير قادر على الرد بـنفس المقيـاس، مكتفيًا بالحدود الضيقة لقدرتى، أقدم ما أستطيع، وما أملـك مـن محـصولى، وهكذا أقول بأننى سوف أعلن التحدى لكل طارق سبيل لمدة يومين طبيعـيين على قارعة الطريق الملكى الذى يمر من هنا فى اتجاه سرقسطة، وأحـتم عليـه الاعتراف بأن السيدات الشابات المتخفيات فى ثياب راعيات، هن أجمل الصبايا وأكثرهن تهذيبًا فى العالم، باستثناء من لا نظير لها دولثينيا دل توبوسـو، مالكـة أفكارى الوحيدة، والسلام على من سمعنى ذكرًا كان أم أنثى.

عند سماع سانشو ما قال سيده، فقد مضى ينصت إليه فى انتباه كبير، أطلق عقيرة صوته قائلاً:

– هل من الممكن أن يوجد شخص فى العالم يجرؤ على أن يقول ويقسم أن سيدى هذا مجنون؟ قولوا لى فخامتكم، أيها السادة الرعاة، هل يوجد قسيس قرية مهما كان ذكاؤه ومذاكرته قادر على قول ما قاله سيدى؟ وهل هناك فارس منشَّاء، مهما سارت سمعة شجاعته قادر على هذا القول؟

التفت دون كيخوتى إلى سانشو، بوجه مشتعل وغاضب، وقال له:

– هل من الممكن، أوه سانشو! أن يوجد أحد فى كل الأفلاك دون أن يقول عنك أنك أبله، فخم بالبلاهة، ومع ما لا أدريه من حواشي الخبث والشر؟ من أدخلك فى أشيائى، وفى التحرى عما إذا كنت عاقلاً أم مخبولاً؟ اخرس ولا ترد علىَّ بكلمة، فقط أسرج روثينانتى إذا لم يكن مسرجًا، وهيا لننفذ عرضى، وطبقا لمنطقى، يمكنك اعتبار الجميع ممن يعترضون قد أجبروا على الرضوخ.

وفى غضب شديد ومظاهر الاستياء نهض عن مقعده، تاركا الدهشة على وجوه المحيطين، مالئًا لهم بالشك، ماذا يرون فيه: مجنون أو عاقل؟ حاولوا، أخيرًا، إقناعه بالتخلى عن هذا العرض، فإنهم قد عرفوا جيدًا مدى شكره لهم بكل إرادته، فليس من الضرورى مظاهر جديدة للتعرف على نفسه الأبية، ويكفى أعماله التى تذكرها القصة، وعلى الرغم من هذا خرج دون كيخوتى بنصر تحقيق نيته، وما إن وضع نفسه فوق روثينانتى، مربكًا خادمه، مشرعًا رمحه، حتى زرع نفسه على قارعة الطريق الملكى فى منتصفه، غير بعيد عن المرج الأخضر. تبعه على حماره سانشو، مع كل أناس السرب الرعوى، ليعرفوا إلى أين ستنتهى محاولته المتغطرسة، والتى لم يسبق رؤية نظير لها.

زرع نفسه، من ثَم، دون كيخوتى فى منتصف الطريق (كما قلت لكم)، وجرح الهواء بمثل هذه الكلمات:

- أوه، أيها المسافرون وأبناء السبيل، أيها الفرسان والخدم، أيها المشاة والركبان، يا كل من تعبرون هذا الطريق، أو من عليكم عبوره فى اليومين التاليين، اعلموا أن دون كيخوتى دى لامانشا، فارس مشّاء، ها هو مزروع لكم هنا حتى يدافع عن أن صيرورة كل الحسن والعطاء فى العالم لم تتجاوز حسن وعطاء عرائس الجن الساكنة فى هذه المروج والغابات، فى استثناء لسيدة الروح دولثينيا دل توبوسو، ولهذا كل من خالفنى فى الرأى فليهرع فإنى انتظره!

كرر هذه العبارات مرتين، ومرتين لم يسمعها أى مغامر، لكن الحظ وأشياءه تسير من حسن إلى حسن، أمر أن يكشف هناك ليس بعيدًا، عن مظاهرة من الرجال تسير فى الطريق نحوه فوق جياد وكثير منهم شارع رماحًا فى الأيدى، كلهم فى تزاحم مع جلبة وسرعة عظيمة. لم يروهم جيدًا، من كانوا مع دون كيخوتى، لكنهم عندما أداروا ظهورهم ابتعدوا كثيرا عن الطريق، لأنهم أدركوا إن انتظروا قد يحدث لهم مكروه خطر، فقط دون كيخوتى بقلب جسور بقى فى مكانه، وسانشو بانثا معه متدرعًا بروثينانتى. وصل الحشد من حاملى الرماح، وأحدهم كان يتقدم الآخرين بدأ يصرخ ليقول لدون كيخوتى:

- إيه، أيها الوغد، يا رجل الشيطان، ابعد عن الطريق، فسوف تمزقك إلى قطع هذه الثيران!

أجاب دون كيخوتى:

- إيه يا أيها الوغد، بالنسبة لى لا توجد ثيران تستحق الخوف منها، حتى لو كانت من أخطر الثيران جسارة مما كانت تربى (خاراما) على شواطئها،

اعترف أيها الشرير، هكذا، خبط عشواء، أن ما أذعته بأعلى صوتى هذا الطريق صحيح، وإذا لم تفعل، فبيننا السيف.

لم يجد راعى الثيران وقتًا لإجابته، كذلك دون كيخوتى لم يجده لينحرف عن الطريق حتى لو أحب، وهكذا حشد ثيران هائجة، وحشد الرعاة الألوفين، مع مظاهرة رعاة الثيران، وأناس آخرين كانوا يحملون تلك الحيوانات لمصارعة ثيران فى اليوم التالى، كلهم عبروا فوق دون كيخوتى، وفوق سانشو وروثينانتى والحمار، ملقين الجميع فى قرار الأرض. دغدغوا جسم سانشو، وأفزعوا دون كيخوتى، وضعضعوا الحمار، ولم يبق فى خير روثينانتى، لكن فى النهاية نهض الجميع، ودون كيخوتى بسرعة هائلة، متعثرًا هنا واقعًا هناك، بدأ يجرى وراء حشد الثيران وسواسهم، صارخًا يقول:

– توقفوا وانتظروا، أيها الحشد الوغد الشرير، ففقط فارس واحد ينتظركم، وليس فى لياقته أو مع القول بأن العدو الذى يهرب انصب له قنطرة من الفضة.

لكن لم يتوقفوا على الرغم من هذا، ولم يعيروا تهديداته أى انتباه أكثر من اهتمامهم بسحابات العام الماضى. أوقف التعب دون كيخوتى، وكان غاضبًا أكثر منه راغبًا فى الثأر، من ثم، جلس فى الطريق، منتظرًا وصول سانشو وروثينانتى والحمار، وعاد السيد وصبيه لصعود دابتيهما، ودون عودة لتوديع أهل أركاديا المصطنعة أو الوهمية، رجعا لمواصلة طريقهما فى خجل وليس فى انبساط.

الفصل التاسع والخمسون

حيث يحكى الحدث غير العادى، الذى يمكن اعتباره مغامرة، وقعت لدون كيخوتى

أنقذ دون كيخوتى وسانشو من التراب والإرهاق الذى سببه لهما قلة أدب الثيران عين ماء صاف ونظيف، حيث وجدا أيكة مظللة على حافتها تركا فى حرية دون شكيمة أو قيد، روثينانتى والحمار، وهبط الاثنان سيئا وصبيًا وجلسا تحتها. وهرع سانشو إلى تموين خرجه، ومنه استخرج ما اعتاد أن يطلق عليه الثريد، ومضمض فمه، وغسل دون كيخوتى وجهه، ومع هذا الإنعاش استعادت النفوس الهابطة الروح المعنوية بعض العزاء. لم يأكل دون كيخوتى من فرط النكد، ولا حتى سانشو مس الطعام الذى كان أمامه من فرط الأدب، منتظرًا سيده أن يبدأ الأكل، لكن ما إن رآه محمولاً على جناح خيالاته حتى لم يعد يتذكر حمل الخبز إلى فمه، من ثَم، لم يفتح سانشو فمه، ومتعثرًا مع كل نوع من التهذيب بدأ يعبئ فى معدته الخبز والجبن الذى أمامه.

قال دون كيخوتى:

- كل، سانشو أيها الصديق، واسند نفسك، فهذا كما أرى هو ما يهمك أكثر، ودعنى أموت على يدى بأفكارى، وبقوة تعاستى. أنا، سانشو، ولدت كى أعيش وأنا أموت، وأنت كى تموت وأنت تأكل، وحتى ترى أننى أقول لك الحقيقة فى هذا، اعتبر مطبوعًا فى قصص، مشهورًا فى مقارعة السلاح، مهذبًا

فى أفعالى، موقرًا من أمراء، مطلوبًا من الصبايا، وفى نهاية النهاية عندما أنتظر التصفيق والنصر والتيجان أجدنى مهروسًا وموطوءًا بأقدام تلك الحيوانات القذرة النجسة. اعتبار كل هذا يزلزل أسنانى، ويقلقل ضروسى، ومن ثَم، يدى، وينزع منى تمامًا تمامًا الرغبة فى الأكل، حتى إننى أفكر فى أن تتركنى أموت من الجوع، الموت الأقسى من أى موت.

قال سانشو دون أن يترك مضغه المتسارع:

– بهذه الطريقة لن تختبر فخامتكم هذا المثل الذى يقول: "موتى يامارتا، لكن بشرط أن تكونى شبعانه". أنا على الأقل لا أفكر فى قتل نفسى بنفسى؛ وعلى العكس، أفكر أن أكون مثل "الجزمجى" الذى يشد الجلد بأسنانه مرغمًا له على التمطيط إلى المدى الذى يحب، وأنا سوف أشد حياتى آكلاً ممططًا لها حتى وصول النهاية التى كتبتها السماء، واعلم، سيدى، ولا يوجد جنون أعظم من ذلك الذى يتعلق فى التعلق باليأس مثلما تفعل فخامتكم، وصدقنى، بعد الأكل نم قليلاً على هذه الحشيات الخضراء لهذه الحشائش، وسترى عندما تستيقظ كيف أن الهم قد خف بعض الشىء.

وهكذا فعل دون كيخوتى، معتقدًا أن عبارات سانشو تصدر عن فيلسوف، وليس عن مخبول، فقال له:

– إذا كنت، أوه سانشو!، تحب أن تفعل من أجلى ما سأقوله لك الآن فإن التخفيف عنى سيكون أكثر يقينًا، ولن تصير أحزانى جسيمة. بينما أنا نائم، طبقًا لنصيحتك، سوف تنعطف عن هذا المكان قليلاً، وبعنان روثينانتى،

سوف تجلد نفسك ثلاثمئة جلدة أو أربعمئة بعد تعرية جسمك من الثلاثة آلاف وثلاثمئة جلدة التي عليك أن تعطيها لنفسك لفك سحر دولثينيا، فإنه بؤس ليس بالقليل أن تظل هذه السيدة مسحورة بسبب غفلتك وتجاهلك.

قال سانشو:

- هناك الكثير الذي ينبغي قوله حول هذا الشأن، لكن لننم الآن سويًا، وبعد ذلك فإن الله قد قدر ماسيكون. اعلم فخامتكم أن أمر أن يجلد إنسان نفسه هكذا دون رحمة يعد أمرًا خشنًا وغليظًا، وخاصة إذا وقعت الجلدات فوق جسم سيئ التغذية ردىء الطعام، فلتصبر سيدتى دولثينيا، لأنه عندما يصير تحملها ممكنًا فإنى سأجعل نفسى غربالاً من الجلد، وحتى الموت يصير حياة كله، أقصد القول عندما أنجز مع الرغبة فى إنجاز ما وعدت به.

شكر له ذلك دون كيخوتى، وأكل قليلاً، أما سانشو فكثيرًا، وشرعا فى النوم تاركين الرفيقين والصديقين الدائمين الحمار وروثينانتى يرتعيان العشب الوفير على هواهما ودون أى قيود. استيقظا متأخرين بعض الشىء، عادا للركوب ومواصلة الطريق، مسرعين للوصول إلى نزل كان يلمح على بعد فرسخ من هناك. وأقول بأنه كان (نزلاً) لأن دون كيخوتى سماه نزلاً، بعيدًا عن عادته فى تسمية كل الفنادق قلاعًا.

وصل الرجلان إلى النزل، وسألا صاحبه عما إذا كان لديه مكان، أجيبا بأن نعم، بكل الراحة والتدليل الذى يمكن أن يوجد فى سرقسطة. ترجلا، وحمل سانشو تموينه إلى مخدع أعطاه الفندقى مفتاحه؛ حمل الدابتين إلى الحظيرة، وقدم لهما طعامهما، خرج ليرى عما يأمره به دون كيخوتى الذى كان جالسًا على مصطبة، وحمد الله حمدًا خاصًا لأن النزل لم يظهر لسيده على أنه قلعة. دخلت ساعة

العشاء، ودخلا غرفتيهما وسأل سانشو الفندقى عما لديه للعشاء، أجاب الفندقى بأن فمه سوف يؤخذ مقاسه، من ثَم فليطلب ما يشاء، من طيور السماء إلى طيور الأرض وأسماك البحر، فكله عنده.

أجاب سانشو:

– ليس إلى هذا الحد، فدجاجتان مشويتان سنرى فيهما الكفاية، لأن سيدى رهيف ويأكل قليلاً، وأنا لست نهمًا إلى هذا الحد.

أجاب الفندقى أنه ليس لديه دجاج، لأن الحدأة أتت على الدجاج.

قال سانشو:

– إذن أيها السيد الفندقى، لتأمرهم بشواء حمامتين لحمهما طرى.

أجاب الفندقى:

– حمام! أبتاه! فى الحقيقة إنى أرسلت إلى المدينة لشراء أكثر من خمسين حمامة... لكن بعيدًا عن الحمام اطلب ماشئت.

قال سانشو:

– بهذه الطريقة لن تعدم وجود لحم عجالى أو لحم ماعز.

– فى النزل الآن لا يوجد لأنه نفد، لكن الأسبوع القادم سيكون لدينا منهما ما يزيد على الحاجة.

أجاب سانشو:

– ما أبدع ذلك! أراهن على أن تلخص كل هذا النقص فى وفرة شحم الخنزير والبيض.

أجاب الفندقى:

- يا الله! أى بطء فى الفهم، يتمتع به ضيفى! لقد قلت لك إننى ليس لدى حمام أو دجاج، وتود أن يكون لدى بيض؟ اطلب شيئًا آخـــر، واتـــرك طلـــب الدجاج.

قال سانشو :

- فلنحسم الأمر، ويلى! قل لى فى النهاية ماذا لديك؟ ولا تفكر فيما أطلب أيها السيد الفندقى.

قال الفندقى:

- ما لدى حقيقة وواقعًا هما ظفرا بقرة كأنهما يدا عجل، أو قل، يـــدا عجـــل يشبهان ظفرى بقرة، وهما مطبوخان مع حمص وبصل وشحم خنـــزير، وفى ساعة هذه اللحظة يقولان: "كلنا!، كلنا!"

- من هذه اللحظة احجزهما لى، ولا يمسهما أحد، وسأدفع لك نظيرهما أفـــضل من غيرى، لأنه بالنسبة لى لا شىء عندى كنت أنتظر ألذ مـــن ذلـــك، ولا يعنينى فى شىء أن يكونا يدى عجل مثلما هما ظفرا بقرة.

قال الفندقى:

- لن يمسهما أحد، لأن لدى ضيوفا آخرين من علية القوم، ومعهم طباخ وكل ما يمكن طبخه، خزانة طعام وتموينها.

- مهما كانوا من العلية، فلن يوجد منهم من هو فى علو سيدى، لكن مهنتـــه لا تسمح له بحمل خزائن طعام أو شراب، فهناك نتمدد فى قلب مرج، ونتتخم من (أبو فروة) أو (الشحرور).

كان ذلك هو الحديث الذى دار بين سانشو والفندقى، دون أن يـود سانـشو التورط فى إجابات لأسئلته؛ فقد سأله بالفعل أى مهنة أو ماذا يعمل سيده. ووصلت ساعة العشاء، أوى دون كيخوتى إلى غرفته، وأحضر الفندقى (حلة الطبيخ)، هكذا بكامل هيئتها، وجلس إليها يتعشى فى رضا. سمع دون كيخوتى، فى غرفة مجاورة لغرفته لا يفصلها عنه سوى حاجز رقيق، من يقول:

– بحياة فخامتكم، أيها السيد دون خيرونيمو، لنقرأ فصلاً من القسم الثانى لقصة دون كيخوتى دى لامانشا، وذلك أثناء انتظارنا إحضار العشاء.

مجرد أن سمع دون كيخوتى اسمه، نهض على قدميه، وبأذن حادة أنـصت ما يتحدثون به عنه، وسمع أن ذلك الدون خيرونيمو، المشار إليه، أجاب:

– من أجل ماذا تود، دون خوان، أن نقرأ هذه الترهات، لأن من قـرأ القـسم الأول من قصة دون كيخوتى دى لامانشا، ليس ممكنًا أن يلذ لـه قـراءة القسم الثانى.

قال دون خوان:

– مع كل هذا، سيكون جميلاً أن نقرأه، حيث لا يوجد كتاب بهذا السوء، مادام ليس لدى شىء آخر طيب يسلينى، وبالنسبة لى ما يسرنى أكثـر فى هـذا القسم رسمه لدون كيخوتى، وقد هجر حب دولثينيا ونسيها.

عندما سمع دون كيخوتى ذلك رفع صوته مليئًا بالغيرة والغضب، وقال:

– من يقول إن دون كيخوتى قد نسى أو يمكن له أن ينسى من لا نظـير لهـا دولثينيا دل توبوسو، أنا سأجعله يفهم بالسلاح نظير أن ذهب بعيـدًا عـن الحقيقة؛ لأن التى لا نظير لها دولثينيا دل توبوسو، لا يمكن أن تنسى، ولا فى

عالم دون كيخوتى يناسب النسيان، ففخره الثبات، ومهنته أن يحافظ على حبها فى نعومة دون أى إجبار.

أجابوا من الغرفة الأخرى:

– من الذى يحدثنا؟

أجاب سانشو:

– من يمكن أن يكون، إلا دون كيخوتى دى لامانشا بنفسه، وخيرًا قال، وخيرًا كل ما يقول، فإن من يدفع جيدًا لا يغلو عليه غالٍ.

ما إن انتهى سانشو من قول ذلك، حتى دخل مخدعهما فارسان، كما يبدو على مظهرهما، وواحد منهما ألقى بذراعيه حول رقبة دون كيخوتى، وقال له:

– لا حضوركم يستطيع أن يكذب اسمكم، ولا اسمكم يستطيع إلا أن يعطى مصداقية لحضوركم؛ لا شك أنت السيد دون كيخوتى الحقيقى، بوصلة ونور الفروسية المشّاءة، على الرغم وضد من أحب أن ينتحل اسمك، ويصفى مآثرك، مثلما فعل مؤلف هذا الكتاب الذى أقدمه لك.

وأسلمه كتابًا فى يديه، كان يحمله رفيقه، أخذه دون كيخوتى، ودون أن يجيب بكلمة مضى يتصفحه، وبعد قليل أعاده، قائلاً:

– مع قلة ما تصفحت من هذا، وجدت ثلاثة أشياء ضد هذا المؤلف جديرة بالرفض. الشيء الأول، بعض كلمات قرأتها فى المقدمة. والشيء الثانى، اللغة أراجونية، لأنه يكتب أحيانًا دون أدوات التعريف والتنكير. والشيء الثالث، الذى يؤكد أنه جاهل، هو أنه يخطىء وينحرف عن الحقيقة فيما هو رئيسى فى القصة؛ لأنه يقول هنا إن زوجة سانشو بانثا، خادمى تسمى ماريا

جوتييريث، ولاتسمى هكذا، وإنما تيريزا بانثا، وإذا كان يخطىء فى هذا العنصر الرئيسى، فمن السهل أن يخطىء فى كل ما بقى من القصة.

وعلى هذا أجاب سانشو:

– ما أملح هذا القصاص! من المؤكد، بل لا بد أن يخطئ أحداث قصتنا، حيث يطلق على تيريزا بانثا زوجتى، مارى جوتييريث! عد لتناول الكتاب، سيدى، وانظر عما إذا كنت موجودًا هناك، وعما إذا كان قد غير اسمى.

قال خيرونيمو:

– طبقًا لما سمعت من كلامك، أيها الصديق، فلاشك أنك سانشو بانثا حامل دروع دون كيخوتى.

أجاب سانشو:

– نعم، هو أنا، وأعتز بنفسى لذلك.

قال الفارس:

– إذن، أقسم أن هذا الكاتب الحديث لا يعاملك بنظافة، كما يبدو من مظهر شخصك، فهو يرسمكم فى شخص أكول وساذج، ولا تتسم بخفة الدم، ومختلف كثيرًا عن سانشو الذى يصفه القسم الأول من قصة سيدك.

قال سانشو:

– الله يسامحه، فليتركنى فى ركن دون أن يذكرنى، فمن يعرف يعزف، وبخير سان بدرو مادام فى روما.

طلب الفارسان من دون كيخوتى أن يصحبهما إلى غرفتهما للعشاء معهما، فهما يعرفان جيدًا أن ذلك النزل ليس فيه طعام يتناسب مع مقامه. دون كيخوتى الذى كان دائمًا مهذبًا، نزل عند رغبتهما وتعشى معهما. وبقى سانشو مع (حلة الطبيخ) مسيطرًا على الموقف وحده دون شريك. جلس على رأس المائدة، ومعه صاحب النزل الذى لم يكن أقل من سانشو شوقًا إلى يديه أو ظفريه.

وخلال العشاء سأل دون خوان عما عند دون كيخوتى من أخبار عن دولثينيا دل توبوسو: هل تزوجت؟ هل ولدت؟ أوهى حامل؟ أو مازالت على عذريتها؟ وتذاكر (محافظًا على الشرف والاحترام) الأفكار الغرامية للسيد دون كيخوتى، وعليه أجاب:

- مازالت دولثينيا عذراء، ومشاعرى تجاهها أثبت من أى وقت مضى، المراسلات فى جفافها القديم، وحسنها راح لتحولها إلى فلاحة خشنة.

من ثَم، مضى يحكى لهما تفصيلات سحر السيدة دولثينيا دل توبوسو، وما وقع فى كهف مونتيسينوس، مع الأمر الذى أعطاه الحكيم ميرلين لفك سحرها، وكان جلد سانشو. كان طرب الفارسين عظيمًا لسماع دون كيخوتى وهو يحكى الوقائع الغريبة لقصته، وهكذا بقوا فى غاية التعجب من ترهاته، تمامًا مثل تعجبهم من أناقة أسلوبه فى حكايتها؛ وبهذا رأوا فيه الذكاء، وبذاك كان يظهر المخبول، دون تحديد مدى كل من الذكاء والخبل فى اختلاطهما عنده. أنهى سانشو عشاءه، وتاركًا الفندقى سكرانًا، عبر إلى الغرفة التى يوجد بها سيده، وعند دخوله قال:

- أدفع حياتى، أيها السادة، إذا كان مؤلف هذا الكتاب الذى مع فخامتكم لا يحب لنا أن نأكل جيدًا معًا، وأنا أحب أن يسمينى أكولاً، كما تقول فخامتكم، إذا لم يسمنى أيضا سكيرًا.

قال خيروينمو :

– نعم هكذا يطلق عليك، لكن لا أتذكر بأى طريقة، وإن كنت أذكر أنه يقول ذلك بعبارات سيئة الرنين على الأذن، فضلاً عن كونها كاذبة، حسبما ألاحظ من ملامح سانشو الطيب، الحاضر أمامنا.

قال سانشو:

– صدقنى فخامتكم أن السانشو والدون كيخوتى بهذه القصة لا بد أنهما غير من ورد ذكرهما فى القصة التى ألفها سيدى حامدى بن إنجيلين، وهما نحن بالفعل، سيدى الشجاع الذكى العاشق، وأنا البسيط الظريف، وليس الأكول أو السكير.

قال دون خوان:

– هذا ما أعتقده، ولو كان ممكنًا عليهم أن يأمروا ألا يجرؤ أحد على معالجة أشياء دون كيخوتى الأكبر، إذا لم يكن سيدى حامدى بن إنجيلين، مؤلفه الأول، تمامًا مثلما أمر الإسكندر الأكبر ألا يتجرأ أحد على رسمه إن لم يكن (أبيلس).

قال دون كيخوتى:

– ليرسمنى من يشاء، لكن عليه ألا يسيء معاملتى؛ ففى أحيان كثيرة ينفد الصبر، عندما يقصم ظهره الشر.

قال دون خوان:

– لا أحد يمكنه أن يفعل ذلك مع السيد دون كيخوتى دون أن يدرك انتقامه، إذا لم ينقذه احتماؤه وراء درع صبره الذى هو قوى وعظيم حسب رأيى.

في هذا الحديث وغيره مر الشطر الأكبر من الليل، ومع رغبة دون خوان أن يقرأ دون كيخوتى الكتاب أكثر، ليرى وقاحات هذا الكاتب، لم يحقق له ذلك، قائلاً إنه يعتبر نفسه كأنه قرأه، ويؤكد أنه كله سفيه، ولا يود أن يصل لمسامع مؤلفه أن الكتاب وقع بين يديه، لأنه سيبتهج بظنه أن دون كيخوتى قرأه، وعلى العقل ومعه العين بصفة خاصة الابتعاد عن الأشياء المنحطة والمتعثرة. سألاه عن وجهته فى رحلته، أجاب إنها سرقسطة، للدخول فى مبارزات الدرع التى تعودوا على إقامتها بهذه المدينة كل عام. قال له دون خوان إن هذه القصة الجديدة تقص حكاية دون كيخوتى فى سرقطة كما تريد أن يكون، ليس إلا هدفًا لرماح الفرسان، دون إبداع بلغتها الفقيرة، وبزيها الأفقر المنحط، مع ثرائها بكل السذاجات.

أجاب دون كيخوتى:

- ولهذا نفسه لن أضع قدمى فى سرقسطة، وهكذا أخرج مؤلف هذه القصة الجديد من ميدان العالم، وسيلاحظ الناس أننى لست دون كيخوتى الذى يتحدث عنه.

قال دون خيرونيمو:

- خيرا تفعل، وهناك مسابقات للفرسان أخرى فى برشلونة، حيث يستطيع السيد دون كيخوتى إظهار شجاعته.

قال دون كيخوتى:

- هذا ما أفكر فى عمله، وبعد إذن فخامتكما سأذهب إلى سريرى، فقد تأخر الوقت، وخذوا منى وضعونى ضمن قائمة أصدقائكما الكبار وخدمكما.

قال سانشو:

- وأنا أيضًا، فقد أصلح لشىء.

عند هذا ودع بعضهم بعضًا، وانسحب دون كيخوتى وسانشو إلى غرفتيهما، تاركين لدون خوان ودون خيرونيمو فى عجبهما من الخلطة بين الذكاء والخبل، معتقدين أن هذين هما دون كيخوتى وسانشو الحقيقيين، وليسا من يصفهما المؤلف الأراجونى.

بكر دون كيخوتى فى استيقاظه، ودق الحاجز الذى يفصله عن المخدع الآخر، وودع النزيلين. دفع سانشو أجر الفندقى، ونصحه أن يقلل من ثنائه على طعام فندقه، أو يحسن منه ومن تعدد أنواعه.

الفصل الستون

ما حدث لدون كيخوتى فى طريقه لبرشلونة

كان الصباح منعشاً، وهناك أدلة أن يستمر اليوم بنفس الإيقاع، وذلك عند خروج دون كيخوتى من النزل، بعد استعلامه عن الطريق الأقصر لبرشلونة، دون المرور بسرقسطة، هكذا كان حجم رغبته لإثبات كذب هذا القصاص الجديد الذى قالوا عنه إنه يكثر من إهانته. وحدث أن، فى أكثر من ستة أيام، لم يقع له شىء جدير بكتابته، وفى نهاية هذه الأيام خلال انحرافه عن الطريق، دخل عليه الليل داخل غابة كثيفة من أشجار الحور أو الفلين، فحول هذا لا يتحرى سيدى حامدى الدقة التى يتحراها فى بقية الأشياء.

ترجل عن الدابتين السيد والصبى، وأراحا ظهريهما على جذوع الشجر، وسانشو الذى كان قد تناول وجبة العصرية ترك نفسه يدخل بجرأة أبواب النوم، لكن دون كيخوتى الذى حملته خيالاته إلى السهر أكثر مما حمله عليه الجوع، لم يستطع أن يغمض عينيه، وإنما راح وجاء مع أفكاره بين ألف جنس من الأماكن. لقد بدا له أنه يوجد فى كهف مونتيسينوس، ولقد رأى المتحولة إلى فلاحة دولثينيا تقفز فوق حمارتها، ورنت فى أذنه كلمات الحكيم ميرلين، التى كانت تشير إلى مساعى فك سحر دولثينيا وشروطه. أصابه اليأس من رؤية تخاذل سانشو خادمه وقلة رحمته، لأنه حسبما يعتقد أنه جلد نفسه فقط خمس جلدات، رقم غير مناسب وضئيل بالنسبة للرقم اللانهائى الذى ينقصه، ومن هذا تولد عنده حزن كبير وغضب، حتى إنه حدث نفسه بهذا الخطاب: "إذا كان الإسكندر الأكبر قد حل

معضلة قائلاً: "لا فرق بين قص العقد وفكها". ولم يعدم بذلك أن يكــون سيدًا كونيًا لآسيا، ولا أقل ولا أكثر من ذلك يمكن أن يحدث الآن فى فك سحر دولثينيا، إذا أنا جلدت سانشو رغم أنفه، وإذا كان شرط هذا العلاج فى أن يستقبل سانــشو الثلاثــة آلاف وثلاثمئة جلدة، فماذا يعنينى إذا هو جلد نفسه أو جلده آخر، فالجوهر هــو أن يستقبل الجلد، تأتيه الجلدات من حيث جاءت؟"

بهذا الخيال اقترب من سانشو، بعد أن نزع أولاً عنان روثينانتى، وعدل من وضعه حتى يتمكن من استخدامه فى جلده، وبدأ فى نزع أحزمته، متصورًا عــدم وجود سوى الحزام الأمامى الذى يثبت سراويله، لكن بمجرد وصوله إليه، اســتيقظ سانشو فى كل وعيه، وقال:

– ما هذا؟ من يلمسنى ويفك أحزمتى؟

أجاب دون كيخوتى:

– إنه أنا، آتى لكى أعوض نقصك، وأعالج معاداتى، آتى كى أجلدك، سانشو، وأقلل من حجم الدين الذى أخذت على عاتقك سداده. دولثينيا تمــوت، وأنت تعيش لاهيًا، وأنا أموت شوقًا، وهكذا استسلم بإرادتك، فإن إرادتى إعطاؤك فى هذا المكان المنعزل، على الأقل ألفى جلدة.

قال سانشو:

ـ هذا لا، فخامتكم قف فى مكانك، وإذا لا فبحق الله سوف يسمعنا الــصم. الجلدات التى أخذتها على عاتقى لا بد أن تكون اختيارية، ولــيس بــالقوة، والآن ليس لدى الرغبة فى جلدى، ويكفى أن أعطى لفخامتكم الكلمة بأن أجلد نفسى وأسوطها عندما تتحقق إرادتى فى ذلك.

قال دون كيخوتي:

- لا ينبغي ترك ذلك حسب رغبتك، لأنك صلب القلب، ومع أنك فلاح فإنك طرى اللحم.

وهكذا كان يحاول ويصارع حتى يعريه. وعندما رأى سانشو بانشا ذلك، نهض على قدمين، وهاجم سيده، واحتضنه دون أن يلتصق به وضربه مقصًا برجله، فأسقطه على الأرض على ظهره، ووضع ركبته اليمنى فوق صدره، وبيديه قيد يديه، حتى إنه لم يتركه يفرك أو يتنفس، ومضى دون كيخوتي يقول له:

- كيف أيها الخائن؟ ضد سيدك، ومالك أمرك الطبيعي تتمرد؟ تتجرأ على من يعطيك عيشك؟

أجاب سانشو:

- أنا لا أنزع ملكًا، ولا أتوج آخر، وإنما أساعد نفسي، وأنا سيد نفسي، فخامتكم عدني أن تهدأ، وألا تحاول جلدي الآن، فإن فعلت تركتك حرًا بلا قيود، وإذا لا،

- هنا سوف تموت أيها الخائن

- عدو دونيا سانشا(*)

وعده دون كيخوتي، وأقسم بحياة سيدة أفكاره ألا يمس شعرة من ملابسه، وأن يترك أمر جلده لكامل إرادته واختياره وعندما يحب؛ نهض عنه سانشو، وانحرف مسافة عن ذلك المكان، ومضى ليستند على شجرة أخرى، فأحس بأن

(*) شعر من رومانث" أمراء لارا".

شيئًا يلمس رأسه، فرفع يده فاصطدمت بقدمين لشخص يرتدى حذاء. ارتعد من الخوف، وهرع إلى شجرة أخرى فحدث له نفس الشيء، فصرخ مناديًا على دون كيخوتى حتى ينجده. وهرع إليه دون كيخوتى، وسأله ماذا وقع له، ومن أى شىء يخاف، وأجابه سانشو أن كل هذه الأشجار مليئة بأقدام وأرجل بشرية، لمسها دون كيخوتى، وأدرك كنه الأمر، وقال لسانشو:

- لا يوجد سبب للخوف، لأن هذه الأقدام والأرجل التى تتحسسها ولا تراها، هى دون شك لبعض قطاع الطرق واللصوص المشنوقين بتعليقهم فى فروع هذه الأشجار، فقد اعتادت العدالة عند القبض عليهم شنقهم هنا جماعيًّا عشرين أو ثلاثين بعد ثلاثين، ومن هذا أستنتج أننا فى غاية القرب من برشلونة.

وهكذا كان ما تخيله حقيقيًّا، وعند تفتح الظلام، نظرا فوجدا عناقيد تلك الأشجار عبارة عن أجسام لصوص. وبينما هما فى هذا، جاء الصباح، وإذا كان الموتى أفزعوهما، فلا أقل أن يرهبهما أكثر من أربعين لصًا أحياء حاصروهما فجأة، قائلين لهما فى لغة قطالونية أن يهدأوا ويتوقفوا حتى يأتى قبطانهم.

كان دون كيخوتى على قدميه، وجواده بغير عنان، ورمحه مسند إلى إحدى الأشجار، وأخيرًا دون أى دفاع، وهكذا وجد من الخير أن يضم يديه وأن يخفض رأسه، منتظرًا فرصة أو مخرجًا. وأسرع بعض اللصوص بتفتيش الحمار، ولم يتركوا فى الخرج الذى عليه أى شىء، وأيضًا نفس الشىء مع الحقيبة، وفى حزام من النسيج وضع الدنانير التى أخذها من الدوق وما حملاه معهما من قريتهما، ثم ربطها حول خصره، وبهذا أحسن الصنع، ولكن هؤلاء الناس الطيبون كانوا يفعلون به ما يفعله الفلاح مع الحشائش الضارة مفتشًا عنها بين عيدان المحصول

وكانوا ينظرون المخبأ بين جلده ولحمه، لولا أن حضر قبطانهم في الوقت المناسب، وكان مظهره يوحي بأربعة وثلاثين عامًا من العمر، قوى البنية متوسط القامة، ذا نظرة جادة، ولونًا أسمر. قدم فوق جواد جبار، وملابسه مدرعة بالصلب، ومعه أربعة مسدسات صغيرة (كانت تسمى في تلك المنطقة الحجريات) على جانبيه. رأى أن حاملي دروعه، (وهكذا كانوا يسمون من يسعون في هذا العمل) يقومون بتنظيف سانشو بانثا. أمرهم ألا يقوموا بذلك، وفي الحال أطاعوه، وهكذا تم إنقاذ حزام نقوده. أدهشه وجود رمح مسند إلى شجرة، ودرع على الأرض، ودون كيخوتي مسلحًا ومتفكرًا وعارم الحزن، وصورة للأسى حتى إنها تجسم الحزن نفسه. اقترب منه، وقال له:

– لا تحزن هكذا، أيها الرجل الطيب لأنك لم تقع بين يدى فرعون قاس، وإنما فى يدى روكى غينارت، الذى يحمل من الشفقة أكثر مما يحمل من العنف.

أجاب دون كيخوتي:

– ليس حزنى لأنى وقعت فى قبضتك، أوه، روكى الشجاع، الذى لم يوجد مكان فى الأرض لا يضم شهرته، وإنما لما صرت إليه من غفلة، فقد فاجأنى جنودك، بدون عنان لنفسى فى حال كونى مجبرًا، طبقًا لنظام الفروسية المشّاءة التى أمارسها، أن أعيش فى تيقظ مستمر، باقيًا كل الوقت حارسًا على نفسى، ولأنى أعلمك، أوه روكى، أنهم إذا ما كانوا وجدونى فوق جوادى، ومعى رمحى مرتديًا درعى، ما كان سهلاً عليهم بهذه الطريقة إخضاعى، فأنا دون كيخوتى دى لامانشا، الذى تملأ مآثره الكون كله.

وفي الحال عرف روكي أن مرض دون كيخوتي يتركز في الجنون أكثر من الشجاعة، ومع أنه سمعهم يذكرونه في بعض الأحيان، فلم يأخذ أمره قط على

أنه حقيقى، ولم يستطع أن يقنع نفسه أن مثل هذا المزاج يمكن أن يسيطر على قلب رجل، من ثَم، طرب من أن يلمس عن قرب ما سمعه عن بعد، وهكذا قال له:

- أيها الفارس الشجاع، لا تحزن ولا تأخذ أمرك الآن على أنه حظ كـوارثى، فمن الممكن أن يعتدل هذا الحظ الملتوى ويتغير، فإن السماء فى لف ودوران غريب ولم يشهد مثله (ولا يتخيله الناس)، وقد تعودتْ أن تأخذ بيـد مـن سقط، وأن تغنى من الفقر.

وعندما حاول دون كيخوتى توجيه الشكر له، أحسوا وراء ظهـرهم ضـجة مثل ضجة رمح الخيل، ولم يكن إلا فرسًا واحدًا، فوقه يقدم مليئًا بالغـضب فتـى، على ما يبدو عمره عشرون عامًا، مرتديًا حريرًا أخضر، مع خيوط مـن الـذهب، وسراويل وزعبوط مفتوح فوق الرأس، وعليه قبعة ذات تلابيب عريـضة وحـذاء مشمع ملتصق بالقدم، ومهاميز وخنجر وسيف مذهبة، وبندقية صغيرة فـى اليـد، ومسدسان على الجانبين. وعلى الضجة، التفت روكى، ورأى هذه الصورة الجميلة، التى عند إدراكها له، قالت:

- لقد جئت بحثًا عنك، أوه روكى الشجاع!، حتى أجد عندك إن لم يكن العلاج لتعاستى، سيكون تخفيفها، وحتى لا أتركك مع دهشتك، لأنى أعلم أنـك لم تتعرف علىَّ، أحب أن أقول من أنا: أنا كلاوديا خيرونيما، ابنـة سـيمون فورتى، صديقك الفريد، والعدو الخاص لكلاوكيل توريَّاس، والذى هو أيضًا عدوك، لكونه واحدًا من الجانب المضاد لك، وأنت تعرف فعلاً أن توريَّاس هذا له ابن، ويسمى دون توريَّاس بيثنتى، وعلى الأقل كان يحمل هذا الاسم من ساعتين. هذا الابن، حتى أختصر عليك قصة سوء حظى، سأقول لك فى كلمات قليلة ما سببه لى. رآنى، وغازلنى، أنصتُّ إليه، وعشقتُ عـدو أبى،

لأنه لا توجد امرأة مهما كانت وراء أستار ومحصنة، لا يفيض وقتها ويتسع لكى تضع موضع التنفيذ والفعل رغباتها المتعثرة. أخيرًا، وعدنى بأن يـــصير زوجى، وأنا أعطيته كلمتى أن أصير زوجته، دون أن يحدث ذلك على أرض الواقع. وعلمت بالأمس، أنه نسى ما يدين به لى، وسوف يتزوج من أخرى، وأنه هذا الصباح ستتم دخلته، خبر عكر صفوى، وقضى علـــى صـــبرى، ولعدم وجود أبى فى القرية، ارتديت الملابس التى تراها، ومسرعة فوق هـــذا الجواد، لحقت بدون بيثنتى على بعد فرسخ من هنـــا، ودون أن أشـــرع فى الشكوى والاستماع إلى أعذار أطلقت عليه نار هذه البندقية، وأيضًا رصاص هذين المسدسين، والذى أعتقده أننى أصبته بأكثر من رصاصتين فى جسمه، فاتحة فيه أبوابًا منها خرج شرفى ملفوفًا بالدم. وهناك تركته بين خدمه، الذين لم يجرءوا ولم يستطيعوا الدفاع عنه، وجئت بحثًا عنك لتساعدنى على العبور إلى فرنسا، فعندى هناك أقارب يمكن أن أعيش معهم، وأيضًا للتوسل إليك بالدفاع عن والدى، حتى لا تستطيع (عزوة) دون بيثنتى أن تمتد يدها بثـــأر شنيع منه.

دهش روكى لشجاعة الجميلة كلاوديا وحسنها وامتشاق قامتها، وواقعتهـــا، وقال لها:

– تعالى يا سيدتى، وهيا بنا نرى، إذا كان عدوك ميتًا، وبعد ذلك نرى ما يهمك أكثر من أمور.

دون كيخوتى، الذى كان يستمع فى اهتمام إلى قصة كلاوديا، وما أجابها به روكى، قال:

– لا ينبغى أن يجهد أحد نفسه فى الدفاع عن هذه السيدة، فإننى سأحمله أنا على عاتقى، وسأذهب للبحث عن هذا الفارس، وسوف أجعله ميتًا أو حيًّا ينجز كلمته الموعودة لكل هذا الجمال.

قال سانشو:

– لا أحد يشك فى ذلك، لأن يد سيدى خبيرة فى شئون الزواج، فمنذ أيام ليست بالطويلة زوَّج آخر، والذى كان أيضًا ينكر كلمته لصبية أخرى، وإذا لم يكن بسبب السحرة الذين يطاردون سيدى قد تحولت صورته الحقيقية إلى صورة خادم، فإن هذه هى ساعة أن تكون مثل تلك الصبية هى ليست نفسها.

روكى الذى كان يهتم أكثر بحادثة كلاوديا الجميلة، لم يصل إلى مسامعه كلام السيد وخادمه، واكتفى بأن أمر أتباعه بأن يعيدوا كل ما انتزعوه من الحمار إلى سانشو، وأن ينسحبوا إلى المكان الذى أقاموا فيه فى تلك الليلة، وفى الحال انطلق مع كلاوديا بكل السرعة للبحث عن الجريح أو الميت دون بيثنتى. وصلا إلى المكان الذى تعرفت عليه كلاوديا، فلم يجدوا سوى دم حديث الإراقة، لكن بمد نظرهم فى كل اتجاه شاهدا فى منحدر بأعلى بعض الناس، وفهما، وكان ذلك حقيقيًّا، أنه لا بد أن يكون بيثنتى، الذى حمله خدمه إما ميتًا أو حيًا، إما لعلاجه أو لدفنه، وأسرعا لإدراكهم، وكما كانوا يتحركون ببطء، فقد وصلا إليهم بسهولة. وجدا دون بيثنتى بين ذراعى خدمه، والذى كان يرجو بصوت باهت وضعيف أن يتركوه يموت هناك، لأن آلام الجروح لا تسمح بالتحرك إلى الأمام أكثر من ذلك.

هبط من على جواديهما كلاوديا وروكى، ووصلا إليه، وفزع الخدم من وجود روكى، وتنكدت كلاوديا من مظهر بيئتى، وهكذا بين الحنان والصرامة اقتربت منه، وأمسكت بيديه، وقالت :

– إذا أنت كنت أعطيتنى هاتين، طبقًا لاتفاقنا، ما كنت رأيت نفسك فى هذا الموقف.

ففتح عينيه المغلقتين تقريبًا الفارس الجريح، ومتعرفًا على كلاوديا، قال لها:

– أرى جيدًا، أيها السيدة الجميلة والمخدوعة، أنك كنت من قتلنى، وهى عقوبة لا أستحقها، ولا تتفق وحبى لك، الذى بفضله لم أحب، بل لم أعرف أن أغضبك بأفعالى.

قالت كلاوديا:

– إذن، أليس حقيقيًا أنك هذا الصباح كنت ستدخل بليونورا، ابنة الثرى بلباسترو؟

أجاب دون بيئتى:

– لا، بالقطع، ولعل حظى السيئ لابد أنه حملك بهذه الأخبار إلى الغيرة التى انتزعت منى الحياة، والتى أغادرها بين يديك وذراعيك، مما يعوض سوء حظى. وحتى تتأكدى من هذه الحقيقة، اضغطى يدى، واقبلينى زوجًا، إذا أحببت، فلا شىء أعظم من ذلك لإرضائك، مقابل العدوان الذى حملك ظنك إلى أننى ارتكبته ضدك.

ضغطت كلاوديا على يده، وضغط قلبها أيضًا عليها ذلك القلب الـذى بقـى مغميًا عليه فوق صدر دون بيثتى ودمها، أما هو فقد أخذته نوبة غياب قاتل عـن الوعى. مضطربًا كان روكى ولم يعرف ماذا يصنع، هرع الخدم لإحـضار مـاء لرش وجهيهما، وأحضروه وأغرقوهما بالماء، عادت كلاوديا من إغمائها أما دون بيثتى فلم يعد من نوبة غيابه لأنه قد انتهت حياته. وشاهدت كلاوديـا ذلـك، وأن زوجها ذا الحلاوة والطلاوة لم يعد يعيش، فجرت الهـواء بالتنهـدات، وجرحـت السماء بالشكوى، وأساءت معاملة شعرها، مسلمة له للريح، وملأت بالقبح وجههـا بيديها، مع كل مظاهر الألم والحزن الذى يمكن تخيله من صدر مكلوم.

كانت تقول:

– أيتها المرأة القاسية عديمة الاعتبار، بأى سهولة وضعت سوء ظنونك موضـع التنفيذ. أوه، أيتها القوة المسعورة للغيرة، أى نهاية يائسة لمن رحب بـك فى صدره! أوه، يا زوجى، يا من حمله حظه التعيس من سرير الزوجية إلى القبر!

كان هذا التعديد الحزين الذى وصل إلى هذا الحد من الشكوى والصادر من كلاوديا قد استخرج من عيون روكى الدموع غير المعتادة الإهـراق بأيـة حـال. وبكى الخدم، وكانت تسقط كلاوديا فى كل خطوة مغشيًا عليها، وصار هذا المكـان حقلاً للحزن ودائرة للنكبات. وأخيرًا، روكى غينارت أمر الخدم أن يحملـوا جـسد دون بيثتى إلى حيث أبوه، والذى كان يعيش قريبًا من هناك، حتى يتم دفنه، وقالت كلاوديا لدون روكى أنها تحب الذهاب إلى دير رئيسته عمة لها، وفيه تفكـر فـى قضاء كل حياتها، مع زوج أفضل (إلهى)، وصحبته أبدية. أثنـى روكـى علـى فكرتها، عارضًا مصاحبتها إلى حيث تريد، وواعدًا بالدفاع عن أبيها مـن أقـارب بيثتى، بل من العالم، إذا أراد أن يعتدى عليه. لم ترغب كلاوديا فى صحبته بأيـة

حال من الأحوال، وشكرت له عرضه بأفضل ما تعرفه من العبارات، وودعته باكية، وحمل خدم دون بيثنتى جسمه، وعاد روكى إلى رجاله، وتلك كانت نهاية غراميات كلاوديا خيرونيما. لكن، كيف نسجت قصتها المأسوفة القوى التى لا تقهر والصارمة للغيرة؟

وجد روكى غينارت رجاله فى المكان الذى أمرهم به، وكان معهم دون كيخوتى فوق روثينانتى، متحدثًا معهم لإقناعهم بترك هذه الطريقة للعيش الخطر على الروح مثلها مثل الجسم، لكن كما كان أغلبهم غاسكونيين (من جنوب فرنسا)، ومن نوع الناس الخشن والقروى المسرف، فإن لا شىء مما قال دون كيخوتى وصل جيدًا إلى أفهامهم. وعند وصول روكى سأل سانشو بانثا عما إذا كانوا أعادوا إليه كل شىء، أجاب سانشو بنعم إلا ثلاثة جوارب تساوى ثلاث مدن.

قال أحد اللصوص:

– ماذا تقول يارجل؟ إنها معى وهى لا تساوى ثلاثة ريالات.

قال دون كيخوتى:

– هذا صحيح، لكن خادمى يقدرها فيما قال بقدر من أعطاها لى.

أمر روكى غينارت بإعادتها فى الحال، وأمر أن يقف رجاله على هيئة جناح، وأمرهم أيضًا بإحضار كل الملابس والجواهر والنقود، وكل ما سرقوه منذ توزيع الغنائم الأخير، وبسرعة عمل الحسابات، محولاً ما لا يمكن تقسيمه إلى قيمة نقدية، ووزع ما هناك على الجميع فى مساواة شرعية، وفطنة، حتى إنه لم يفته أصغر شىء، ولم يخن العدالة فى شىء أثناء التوزيع، وعندما انتهى من هذا الذى به صار الجميع راضيًا، قال لدون كيخوتى:

- إذا لم نحافظ على هذا الانضباط الدقيق فى هذا مع هؤلاء، فلن يمكننا العيش معهم.

قال سانشو:

- طبقًا لما رأيت هنا فإن العدالة رائعة، حتى إنه من الضرورى اللجوء إليها بين نفس اللصوص.

سمع هذا أحد اللصوص، فصوب بندقيته، والتى كان يستطيع بها دون شك فتح رأس سانشو إذا لم يصرخ فيه روكى غينارت كى يتوقف. تصلب وجه سانشو، وقرر عدم فك خياطة شفتيه مادام هو بين هؤلاء الناس.

وهنا وصل واحد وربما أكثر من رجال روكى الذين يتخذون مواقع حراسة على الطرق، لرؤية الذاهب والرائح على الطرق، وتنبيه رئيسه بما يجرى، وقد قال هذا:

- سيدى ليس بعيدًا عن هنا، فى الطريق المتجه لبرشلونة يأتى عجيج من الناس عظيم.

وعلى هذا أجاب روكى:

- هل لاحظت عما إذا كانوا ممن يبحثون عنا؟ أم هم مما نبحث نحن عنهم؟

أجاب الحارس:

- لا، ليسوا إلا ممن نبحث عنهم.

أجاب روكى

- إذن اخرجوا، وإيتونى بهم حالاً، دون أن يهرب منهم أحد.

وفعلوا ما أمروا به، وبقى فقط دون كيخوتى وسانشو وروكى، منتظرين ما يحضره حاملو دروع روكى، وخلال ذلك قال روكى لدون كيخوتى:

- لابد أن يرى السيد دون كيخوتى فى حياتنا طريقة جديدة للعيش، ومغامرات جديدة ووقائع جديدة، وكل هذا خطير، ولا يدهشنى أن يبدو لك كذلك، لأننى فى الحقيقة أعترف أنه لا توجد طريقة للعيش أكثر خطرًا وإفزاعًا من حياتنا. وعنى فقد ألقى بى إلى هذه الحياة مما لا أدريه من الرغبة فى الانتقام، التى تملك من القوة لتعكير القلوب الساكنة، وأنا بطبيعتى شفوق، وحسن النية، ولكنها كما قلت، الرغبة فى الثأر من إهانة وقعت ضدى، وهذا دمر كل ميولى الطيبة، والتى أحتفظ بها فى تلك الحالة، على الرغم مما أفهمه، من أن هاوية إثم تنادى على هاوية إثم آخر، ومضت تتسلل حلقات الانتقام، ليست فقط التى تخصنى، بل التى تخص الآخرين، من ثَم تتراكم على عاتقى، ومع أننى أرانى فى قلب تيه الاضطراب، فإننى بفضل الله لم أفقد الأمل فى الوصول إلى مرفأ آمن.

اندهش دون كيخوتى من بلاغة روكى، لأنه كان يتصور أن بين أمثال هذه المهن كالسرقة واحتراف القتل والسطو، لا يوجد من يستطيع تدبيج خطاب بمثل هذه البلاغة، أجابه:

- يا سيد روكى، إن أول الصحة هو التعرف على المرض، وفى حسب المريض تناول الدواء الذى يأمره به الطبيب، وفخامتكم مريض، وتعرف أنك، والسماء أو الله، بقول أدق، هو طبيبنا، سوف يطبق عليك من الأدوية ما يشفيك، وتلك الأدوية اعتادت أن تشفى شيئًا فشيئًا، وليس فجأة، أو بمعجزة، وأكثر من ذلك، فإن الآثمين الأذكياء أقرب إلى الشفاء من الأغبياء،

من ثمّ، فإن فخامتكم أظهر بعباراته ذكاءه، فليس إلا التمتع بالروح العالية، وانتظار التحسن من مرض الضمير، وإذا رغبت فخامتكم في اختصار الطريق، ووضع أمر نجاتك على طريق سهل، تعال معي، وسوف أعلمك كيف تصير فارسًا مشّاء، حيث يقع جهاد كثير ونكبات، يمكنك أخذها باعتبارها تكفيرًا، سوف يرفعك سريعًا إلى السماء.

ضحك روكي من نصيحة دون كيخوتي، ولتغيير مجرى الحديث قص الحادث المأساوي لكلاوديا خيرونيما، والذي أحزن سانشو إلى آخر المدى، فلم يكن في رأيه أن جمال الصبية كان هينًا أو جرأتها وبريقها.

وأثناء هذا حضر رجال روكي ومعهم الفريسة، وهي فارسان على جوادين، واثنان من الحجاج دون مطية، وعربة بها نساء مع ما يصل إلى ستة خدامين منهم الراكب ومنهم الرّاجِل، مع آخرين من صبيان البغال الذين في رفقة الراكبين من الفرسان.

حاصرهم اللصوص في وسط حلقتهم، واحتفظ الغالب والمغلوب بالصمت العظيم، في انتظار أن يتكلم روكي غينارت الأكبر، والذي سأل الفارسين، عمن هما، وإلى أين يتجهان، وأي نقود يحملان. أجابه أحدهما:

- سيدي نحن قبطانان في سلاح المشاة الإسباني، ومعسكراتنا في نابولي، وسوف نبحر في أربع سفن، يقولون إنها في برشلونة، بأمر أن تذهب إلى صقلية، معنا بين مئتي دينار أو ثلاثمئة، وبها حسب رأينا سوف نذهب أغنياء وراضين، فالضيق المعتاد للجندية لا يتيح كنوزًا كبيرة.

سأل روكي نفس السؤال إلى الحجاج، وأجيب بأنهم سوف يبحرون إلى روما، وفيما بينهم يقترب ما يحملون إلى ستين ريالاً. أحب أيضًا أن يعرف من كان في العربة، وإلى أين وما معه من نقود، قال أحد الخدم الراكبين:

– سيدى دونيا غيومار دى كينيونس، زوجة مدير دائرة نابولى، مع ابنة صغيرة، وخادمة وقهرمانة، وهن من يوجد فى العربة، ونصحبهن نحن الخدم الستة، والنقود ستمئة دينار.

قال روكى:

– هذا معناه أنه لدينا تسعمئة دينار وستين ريالاً، وجنودى حوالى الستين، انظر كم يكون نصيب كل واحد، لأنى محاسب ردىء.

وعندما سمع ذلك اللصوص رفعوا أصواتهم، قائلين:

– عاش روكى غينارت سنوات طويلة على الرغم من كل العصابات الأخرى التى تبغى تدميره.

أظهر القبطانان الضعف والحزن، وتكدرت السيدة المديرة، ولم يبتهج فى شىء الحجاج، مشاهدين مصادرة ممتلكاتهم. تركهم هكذا فى ذهولهم روكى بعض الوقت؛ لكنه لم يحب أن تستمر أحزانهم، التى كان يمكن مشاهدتها من مدى مرمى رصاصة بندقية، من ثَم، التفت إلى القبطانين، وقال:

– فخامتكما، أيها القبطانان، تتفضلان بإقراضى ستين دينارًا فى كل تهذيب، والسيدة المديرة ثمانين دينارًا كى تسعد، هذه الكتيبة التى تصحبنى، لأن رئيس الدير الذى يغنى لا بد أن يجد غداءه، وبعدها يمكنكم مواصلة طريقكم أحرارًا دون هم، وبتصريح مرور سأعطيه لكم حتى إذا صادفكم مجموعات أخرى من رجالى المنتشرين هنا وهناك لا تمسكم بسوء، وليس فى نيتى الإساءة إلى جنود ولا لأى امرأة، ولاسيما النساء الساميات المقام.

كانت العبارات اللانهائية ورقيقة التلفظ تتدفق من القبطانين في شكر روكي لأدبه وكرمه حسبما تركهم مع نفس ما كانوا يحملون من نقود. السيدة دونيا غيومار أرادت أن تنزل من العربة كي تقبل أقدام روكي الأكبر ويديه، لكنه لم يوافق بأية حال من الأحوال، وعلى العكس طلب منها الغفران للإساءة التي وجهها إليها، مجبرًا لإنجاز الواجبات الماسة لمهنته. أمرت السيدة في الحال إعطاء الدنانير الثمانين التي كان عليها دفعها، وكان القبطانان بالفعل قد انتهيا من دفع الستين دينارًا، وأخذ الحجاج في إخراج كل ثروتهم البائسة؛ فأمرهم روكي بالتوقف، وملتفتًا إلى رجاله، قال لهم:

– من هذه الدنانير يخص كل واحد منكم ديناران، وسيتبقى عشرون، عشرة منها لهؤلاء الحجاج، والعشرة الأخرى إلى الحامل للدروع(*) حتى يتكلم بخير عن هذه المغامرة.

وأحضروا له عدة الكتابة التي يصحبها دائمًا معه، أعطاهم روكي تصريح مرور مكتوبًا وموجهًا لرؤساء فصائله، ومودعًا لهم، تركهم مطلقي السراح، مستغربين لنبله ومروءته وسلوكه العجيب، ناظرين إليه كإسكندر أكبر أكثر من اعتباره لصًا مشهورًا. أحد رجاله قال بلغة مختلطة بين الفرنسية والقطلونية:

– قبطاننا هذا يعد (راهبًا) أكثر منه (لصًا)، ومن الآن فصاعدًا إذا أراد أن يظهر كرمه، فليفعل من جيبه، وليس من جيوبنا.

لم ينته التعيس من نطق هذه العبارة في بطء، والتي لا يفوت روكي سماعها، حتى استل سيفه، وفتح به رأس المسكين فشطرها إلى شطرين، قائلاً:

(*) يقصد سانشو.

- بهذه الطريقة أحاسب المسحوبين من لسانهم المتجرئين.

تجمد الجميع، ولم يجرؤ أحد أن ينطق بكلمة؛ فكم كانت هائلة طاعتهم لـــه. اعتزل روكى فى جانب، وكتب خطابًا إلى أحد أصدقائه فى برشلونة، مخطرًا لـــه كيف كان فى صحبته دون كيخوتى دى لامانشا الشهير، ذلك الفارس المشّاء، الذى تقال عنه أشياء كثيرة، وأنه يعلمه بمدى ظرف هذا الرجل وذكائه الأكبر مـــن أى ظرف وذكاء فى العالم، وأنه من الآن وحتى مرور أربعة أيام، تبدأ أعيـــاد ســـان خوان باوتيستا، عليه أن يقدمه فى شاطىء المدينة، مسلحًا بكامـــل ســـلاحه فـــوق روثينانتى جواده، وأن يقدم معه حامل دروع له اسمه سانشو فوق حمار، وعليه أن يعطى خبرًا بهذا إلى أصدقائه (النياروس)، حتى يتمالحوا معه، وأنه كان يـــود أن يحرم الطائفة المضادة (الكادليين) من هذه اللذة، إلا أن ذلك سوف يصبح مستحيلاً، لأن جنون دون كيخوتى وألمعيته، وطرائف خادمه سانشو بانثا، ليس فى إمكانهـــا أن تترك بث اللذة والسعادة العامة بين كل العالمين. أرسل الخطاب مع أحد رجالـــه الذى خلع ثوب قاطع الطريق، وارتدى ثياب مزارع.

الفصل الحادى والستون

عما حدث لدون كيخوتى عند دخول برشلونة، مع أشياء أخرى صدقها أكثر من ألمعيتها

أمضى دون كيخوتى مع روكى ثلاثة أيام بلياليها، ولو قضى معه ثلاثمئة عام ما ترك التأمل والتعجب من طريقة حياته. هنا يصبحون، وهناك يأكلون؛ ومرات يهربون دون معرفة ممن يهربون، ومرات أخرى ينتظرون دون معرفة من ينتظرون. وكان كل شيء هو تجنيد جواسيس، والاستماع إلى حراس المراقبة، ونفخ أوتار البنادق، مع حملهم القليل منها، لأن الجميع كانوا يستخدمون مسدسات الحجريات. روكى كان يقضى لياليه مجتنبًا رجاله، فى أماكن ونواحٍ تحول دون معرفتهم أين كان، لأن كل الجماعات التى بثها نائب الملك فى برشلونة مقابل رأسه كانت تجعله قلقًا وخائفًا، ولم يجرؤ على الثقة فى أحد، مترقبًا خوفًا من نفس رجاله، فقد يقتلونه أو يسلمونه للعدالة؛ إنها حياة، يقينًا بائسة، ومثيرة للأعصاب.

وفى النهاية، عبر طرق مهجورة، وعبر سبل مستحيلة، ومدقَّات خفية، انطلق دون كيخوتى وسانشو مع ستة من رجال روكى. وصلوا إلى شاطىء المدينة فى عشية أعياد سان خوان، وكان الوقت ليلاً. احتضن روكى، كلاًّ من دون كيخوتى وسانشو، الذى استلم عشرة الدنانير الموعودة، والتى لم يسلموها له حتى تلك اللحظة، وتركهما روكى مع ألف عرض كريم، وكان يتم إنجازها من وقت لآخر.

عاد روكى، وبقى دون كيخوتى فى انتظار قدوم النهار، هكذا فوق جواده، ولم يتأخر كثيرًا لحظة سفور بلكونات الشرق عن وجه الفجر الأبيض، ناشرًا

البهجة بين الحشائش والأزهار، بدلاً من نشرها بين المسامع، وإن كان أبهج تلــك المسامع أيضًا ألوان عديدة من الموسيقى والطبول، ورنين الأجــراس، "الرهبــان، الرهبان، أفسح الطريق، أفسح الطريق!"، وفيما يبدو أن كل ذلك كان قادمًــا مــن دروب المدينة، ومعه أفسح الفجر مكانًا للشمس، التى هى وجه أكبر يشبه عجلة.

مد دون كيخوتى وسانشو النظر فى كل اتجاه، رأيا البحر الذى لم يــسبق لهما رؤيته قط، أكثر اتساعًا من بحيرات رويديرا، التى شاهداها فــى (لامانــشا)، ورأيا السفن التى كانت على الشاطئ، تفوق الخيام، وتتكشف مليئة بالبيارق المثلثــة والأعلام المستطيلة، والتى أشبهت دوامة فى الرياح، مقبلة المياه، كانسة ســطحها، وبداخلها كان يرن صوت أبواق وطبول وموسيقى، تملأ الهواء القريب والبعيد، فى نبر ناعم، وشبه عسكرى. بدأت فى التحرك وإحداث أسلوب من الهدير المائج فــى المياه الهادئة، ووافق ذلك فى استجابة له، وبنفس الطريق فرسان لا يحصى عددهم يخرجون من المدينة على خيل حسناء وبملابس مزهوة. جنود السفن كانوا يطلقون مدفعية لا نهائية السريان، وجاوبها جنود أسوار المدينة وقلاعها، ومضت المدفعيــة الغليظة بانفجارات مفزعة تفجر الرياح، فتعود لمجاوبتها مدفعية ترن أصداؤها مــن بين ممرات السفن؛ البحر مبتهج والأرض تتلاعب سرورًا، والهواء شفاف مــا عــدا بعض دخان المدفعية، وبدا أن كل هذا مضى يبث ويولد لذة مفاجئة بين كل النــاس، ولم يستطع سانشو تخيل عدد أقدام تلك الأشباح التى تتحرك فى البحر.

وخلال هذا، وصل جريًا، فى جلبة وتهليل وصرخات، أولئك الفرســان ذوو الملابس الزاهية إلى حيث كان دون كيخوتى مبهوتًا فى اندهاش، وقــال أحــدهم، الذى تلقى خطاب روكى، بصوت عال لدون كيخوتى:

– على الرحب والسعة فى مدينتنا، مرآة الفروسية المشاءة، ومنارتها ونجمها وبوصلتها، وهذا قسم عظيم أنك كذلك.مرحى مرحى، أقول، بالهمام دون كيخوتى دى لامانشا، وغير الزائف، وغير الخيالى، وغير المصطنع، والذى أظهرته لنا هذه الأيام بعض القصص المزيفة، إنما الحقيقى، الشرعى، الخالص، الذى كتبه لنا سيدى حامدى بن إنجيلين، زهرة الكتَّاب.

لم يجب دون كيخوتى بكلمة، ولم ينتظر الفرسان إجابته، وإنما داروا وعادوا، مع الآخرين الذين يتبعونهم، لصنع قوقعة متقلبة من حوله، فالتفت إلى سانشو، وقال:

– هؤلاء قد تعرفوا علينا جيدًا، إننى أراهن أنهم قرأوا قصتنا، بل القصة حديثة الطبع التى كتبها المؤلف الأراجونى. استدار مرة أخرى الفارس الذى تكلم مع دون كيخوتى، وقال:

– فخامتكم، أيها السيد دون كيخوتى ستأتى معنا، فكلنا خدم روكى غينارت وأصدقاؤه الحميمون.

وعلى هذا أجاب دون كيخوتى:

– إذا كانت المجاملات المهذبة تولد مثلها، أيها الفارس، فإنها جميعًا ابنة لروكى الأكبر، أو قريبة من نفس دمه وسلساله، احملونى حيث شئتم، فلن تكون لى إرادة غير إرادتكم، وأكثر فإرادتى ملككم إن أردتم شغلها فى خدمتكم.

وبكلمات ليست أقل تهذيبًا أجابه الفارس، ومتحلقين جميعًا حوله، على صوت المزامير والطبول، ساروا معه نحو المدينة؛ وعند "دخولها"، الشيطان الذى يأمر بكل شر، والصبيان الذين هم أكثر شيطنة من الشيطان، أشقياء وجسورون،

تسللوا داخل كل هؤلاء البشر، ورفع أحدهم ذيل الحمار والآخر ذيل روثينانتى، وحشروا فى كل واحد من الدابتين حزمة من نبات شوكى ذى أسنان. أحس الحيوانان المسكينان بهذه المهاميز الجديدة، فمضيا يضربان بذيلهما، ويعلو تبرمهما، بطريقة جعلتهما يهيجان بين ألف وثبة حتى أسقطا على الأرض من كان عليهما. دون كيخوتى هيابًا، ومهانًا، هرع إلى ذيل جواده الشرير، وسانشو إلى ذيل حماره، لينزعا الشوك. أحب من يصحبون دون كيخوتى عقاب جسارة هؤلاء الصبيان، فاستحال، لأنهم تسللوا داخل سياح من ألف آخرين من أمثالهم كانوا يتبعونهم.

عاد دون كيخوتى وسانشو للركوب، مع نفس التصفيق والموسيقى، إلى أن وصلا إلى بيت من كان يقودهما فى الطريق، وكان بيتًا كبيرًا ورفيع المستوى، وفى النهاية، كان صاحبه فارسًا غنيًا، وهناك سنترك دون كيخوتى الآن؛ لأن هذا ما يريده سيدى حامدى.

الفصل الثانى والستون

عبارة عن مغامرة الرأس المسحور، وصبيانيات أخرى ليس من الممكن التوقف عن أن تحكى

دون أنتونيو مورينو، كان هذا اسم مضيف دون كيخوتى، فارس غنى وذكى، وصديق للمرح فى أمانة وبشاشة، والذى عندما رأى دون كيخوتى فى بيته شرع يبحث عن أساليب كيفية، ودون ضرر، إخراج جنونيات دون كيخوتى إلى النور، لأنها ليست ممازحات تلك التى تؤلم، ولا يوجد تزجية للفراغ تساوى شيئًا إذا صاحبها ألم لآخر. أول ما فعل كان نزع سلاح دون كيخوتى، وإخراجه بذلك الثوب الضيق والجلدى (الذى وصفناه ورسمناه فى مرات أخرى) للأنظار من بلكون كان يطل على شارع رئيسى من أهم شوارع المدينة، فيراه الناس والصبيان، الذين اتسمت نظراتهم إلى مظهره بالابتهاج الخبيث. رمح من جديد أمامه فرسان الملابس الزاهية، كما لو كانوا يفعلون ذلك له وحده، وليس لبعث البهجة فى الأعياد، وسانشو كان فى غاية السرور لأنه رأى، دون معرفة كيف، أن أفراح كاماتشو تتكرر، أو أنه مرة أخرى فى بيت دون دييجو دى ميراندا، أو فى قلعة الدوق.

أكل فى ذلك اليوم مع دون أنطونيو بعض أصدقائه، مكرمين جميعًا دون كيخوتى، معاملين له معاملة الفارس المشّاء، الذى مزهوًا لم يبق به فراغ دون أن يمتلئ بالرضا والسرور. طرائف سانشو كانت عديدة، حتى إن كل خدم البيت وكل من كان يسمعه يسعى كما لو كان معلقًا بفمه، وبينما هم فى المائدة قال دون أنتونيو لسانشو:

- هنا وصلنا خبر، أيها الطيب سانشو، أنك صديق حميم للطعـــام الأبـــيض(*)، والكفتة، حتى إنها إذا فاضت فى وجبة، تدخرها فى حجرك للغد.

قال سانشو:

- لا يا سيدى، ليس الأمر كذلك، لأن النظافة تعنينى أكثر من اشتهاء أطايـــب الطعام، وهاهو سيدى دون كيخوتى أمامكم يعرف جيدًا أننا بحفنة من (أبو فروة) أو (البندق) تعودنا أن نملأ بطنينا خلال أيام ثمانية. صحيح أنه أحيانًا يحدث عندما "يعطوننى البقرة أسرع بشراء حبل لها"، أود القول، أنى أستثمر ما يعطونه لى كيفما أجده، وأى شخص يقول إننى أكول أحسن التمييز أما أنى لست نظيفًا، فقوله ليس صحيحًا، وكنتُ أود قول ذلك بطريقة أخـــرى لولا اللحى المكرمة التى تجلس على هذه المائدة.

قال دون كيخوتى:

- يقينًا، إن اعتدال سانشو ونظافته تستحق أن تكتب على صفائح من البرونـــز لتصير فى الذاكرة الخالدة للأزمان القادمة. حقيقة، أنه عندما يحس بالجوع يبدو بعض الشىء ملتهمًا للطعام بسبب السرعة الفائقة، والمضغ من جهتى الفكـــين، لكن النظافة دائمًا يضعها فى اعتباره، وفى الزمن الذى كان فيه حاكمًا، تـــدرب على أكل المتدللين، فكثيرًا ما يأكل العنب بالشوكة بل حبات الرمان.

قال دون أنتونيو:

- كيف؟ حاكمًا كان سانشو؟

(*) طبق من اللبن والسكر وصدر الدجاج.

أجاب سانشو:

- نعم، ولولاية اسمها باراتاريا، حكمتها عشرة أيام أنهى وآمر، وخلالها فقدت السكينة، وتعلمت ازدراء كل حكومات العالم، وخرجت هاربًا منها، ووقعت فى كهف، حيث استسلمت للموت، وخرجت حيًّا بمعجزة.

حكى دون كيخوتى كل تفاصيل واقعة حكومة سانشو، فامتلأ كل السامعين بالطرب. رفعت المائدة، وأخذ دون أنتونيو بيد دون كيخوتى، ودخل به غرفة ليس بها من زينة سوى مائدة فيما يبدو من اليشب، كانت تقف على قدم من نفس المادة، وفوقها تمثال نصفى من البرونز، رأس فوق صدر، تشبه رءوس الأباطرة الرومان، والصدر مثل صدورهم ناهض إلى أعلى، تجول دون أنتونيو مع دون كيخوتى فى الغرفة، دائرًا مرات عديدة حول المائدة، بعدها قال لدون كيخوتى:

- الآن أيها السيد دون كيخوتى، إننى أعرف أن لا أحد يسمعنا أو ينصت إلينا، والباب مغلق علينا، من ثَم، أود أن أحكى لك مغامرة من أندر المغامرات، أو بقول أفضل، أشياء جديدة لا يمكن تخيلها، على شرط أن يبقى ما أحكيه لك سرًّا فى أقصى خزائن الأسرار.

أجاب دون كيخوتى:

- أقسم على ذلك، ولمزيد من التأكد سوف أضع السر فى قدر مغلقة، لأنى أود أن تعرف فخامتكم، أيها السيد دون أنتونيو (كان قد عرف دون كيخوتى اسم المضيف) أنك تتكلم مع من ليس له لسان للكلام، وإن تمتع بالأذن ليسمع، وهكذا بكل أمان فخامتكم انقل ما فى صدركم لصدرى، معتبرًا أنك ألقيت بالسر فى الدرك الأسفل من الصمت.

أجاب دون أنتونيو:

– على الثقة فى هذا الوعد، أحب أن أثير دهشة فخامتكم أمـــام مـــا ســـترى وتسمع، كما أحب أن أخفف من ألمى، لعدم وجود من أبثه أسرارى الـــتى ليست للنشر.

كان دون كيخوتى معلقًا فى انتظار ما ستنتهى إليه كـــل هـــذه التحفظـــات. وخلال هذا، ممسكًا دون أنتونيو بيد دون كيخوتى جعلهـــا تمـــر متحســـسة رأس البرونز وكل المائدة، وقدمها، الذى عليه تتكئ، ثم قال:

– هذا الرأس، يا سيد دون كيخوتى صنع على يد واحد من أكـــبر الـــسحرة والمشعوذين فى العالم، وأظن أنه كان بولندى الـــوطن، وتلميـــذًا للـــشهير إسكوت(*)، والذى تحكى عنه عجائب كثيرة، وقد أقام هنا فى بيتى، وبـــثمن وصل إلى ألف دينار أعطيتها له صنع هذا الرأس، وهو يستطيع أن يجيـــب على كل الأشياء لمن يسأله فى أذنه، وقـــد صـــنع وردة الريـــاح، ورســـم شخوصًا، ولاحظ بروجًا، وتأمل أزمانًا، وأخيرًا أخرجها بالكمـــال الـــذى سنراه غـــدًا، لأنها أيام الجمعة تكون خرساء، ولأن اليوم الجمعـــة علينـــا الانتظار حتى الغد، وخلال هذا الوقت فخامتكم يمكنه إعداد ما تود السؤال عنه، وبالخبرة أعرف أنها تقول الصدق فى كل ما تنطق به.

تعجب دون كيخوتى من فضيلة وصفات الرأس، وكان على وشك ألا يصدق دون أنتونيو، ولكن لصغر الوقت الذى ينتظره لعمل التجربة، لم يحب أن يقول لـــه

(*) إسكوت أو اسكوتو أو اسكوتيو، وجد عدد كبير من المشاهير الذى يحملـــون هـــذا الاســـم، وشهرتهم التنجيم والشعوذة والسحر الأسود.

شيئًا آخر سوى شكره لكشف هذا السر الكبير له. خرجا مــن الغرفــة، وتوجهــا للصالة، حيث كان باقى الفرسان، وخلال هذا الوقت كان سانشو يحكى لهم كثيــرًا من المغامرات والوقائع التى حدثت لسيده.

في ذلك اليوم صحبوا دون كيخوتي للتنــزه دون أسـلحة، وإنمــا بثــوب الخروج، وعليه معطف شبه كهنوتى أشقر مائل للسواد، يجعل نفس الثلج يعرق فى ذلك الوقت من السنة، أمروا خدمهم بالتسرية عن سانشو وتسليته حتى لا يخرج من البيت. سار دون كيخوتى ليس فوق روثينانتى، وإنما فوق فرس ذكر ضخم، لــين الخطى، ومعد العدة، وطرحوا عليه المعطف، وعلى ظهره دون أن يلمح ألــصقوا رقعة مكتوبًا عليها: "هذا هو دون كيخوتى دى لامانشا". اندهش دون كيخوتى مــن أن كل من كان يراه كان يعرفه بعد أن ينظر إليه ذاكرًا اسمه، فالتفــت إلــى دون أنتونيو الذى كان بجانبه، وقال:

– عظيمة صلاحية الفروسية المشاءة، فهي تجعل من يمارسها مشهورًا ومعروفًا من الجميع، وإذا لم يكن كذلك انظر دون أنتونيو، كيف يعرفني شــبان هــذه المدينة دون أن يروني قبل ذلك قط.

أجاب دون أنتونيو:

– هو هذا، أيها السيد دون كيخوتي، فكما أن النـــار لا يمكــن إخفاؤهــا أو حبسها، فالفضل لا يمكن أن يعدم الشهرة، وما يدرك بمقارعة السلاح يشرق ويضيء فوق كل الأشياء الأخرى.

وحدث أنه أثناء تحرك دون كيخوتى وسط هذا الترحيب والتحية المــذكورة، أن قرأ أحد أهل قشتالة اللافتة على ظهره، فصرخ قائلاً:

- ليذهب إلى الشيطان ذلك المدعو دون كيخوتى دى لامانشا كيف وصلت إلى هنا دون أن يدركك الموت بضربات النبابيت اللانهائية التى انهالت عليك؟ أنت مجنون، ولكن لو اقتصر جنونك عليك، ووراء أبواب بيتك، كان الأمر أقل سوءًا، ولكن لديك طبيعة تحويل كل من يتعامل معك أو يتصل بك إلى مجنون ومخبول، وإذا لم يكن كذلك، فماذا ترى فى أولئك الفرسان الذين يصحبونك؟ عد، أيها المخبول، إلى بيتك، وأدر ممتلكاتك، وزوجتك وأولادك، واترك هذا الكلام الفارغ الذى به يتآكل مخك، ويعتصر فكرك.

قال دون أنتونيو:

- أخى، واصل طريقك، ولا تعط نصائح لمن لم يطلبها منك. السيد دون كيخوتى دى لامانشا عاقل جدًا، ونحن الذين نصحبه لسنا سفهاء، والفضيلة يجب تكريمها حيث وجدت، واذهب ملعونًا، ولا تحشر نفسك حيث لم يستدعك أحد.

أجاب القشتالى:

- بحق الله، فخامتكم معك الحق؛ فنصح هذا الرجل هو مثل رفس سن الإبرة، لكن، مع كل هذا، يحزننى كثيرًا أن العبقرية الكبيرة التى يتمتع بها، حسبما يقولون، فى كل شىء هذا المخبول يتم صرفها فى قناة فروسيته المشّاءة، واللعنة التى دعوت سيادتكم بنزولها علىّ، وعلى كل نسلى، أدعو الله اليوم أن يستجيب لكم إذا أعطيت نصيحة لأحد طوال حياتى حتى لو عشت أكثر من المعمر (موتا سالين)، وذلك دون أن يطلبها منى أحد.

وابتعد الناصح، واستمرت النزهة، لكن ازداد ضغط الفتيـان وكـل النـاس لقراءة اللافتة، حتى أجبر دون أنتونيو على نزعها، كما لو كان ينزع عن ظهـره شيئًا من الغبار.

ودخل الليل، وعادوا إلى البيت، وكان به حفل رقص نسائى، لأن زوجـة دون أنتونيو، وكانت سيدة راقية ومرحة، وذكية وحسناء، دعت عددًا من صديقاتها حتى يكرمن ضيفها، والاستمتاع بجنونياته التى لم ير مثلهـا فـى الـبلاد. وجـاء بعضهن، وكان العشاء فاخرًا، وبدأ الحفل الراقص عند العاشرة ليلاً، بين الـسيدات كانت هناك اثنتان بمزاج حرّيف وساخر، ولكونهما فى غاية الشرف، كانتا بعـض الشىء منحلتين، حتى تمتع السخرية ولاتُغـضب. هاتـان أسـرعتا لـسحب دون كيخوتى للرقص معهما، واستطاعتا تكسيره، ليس فحسب جسمًا بل روحًا، لقد كان مشهدًا يستحق الرؤية، مشهد صورة دون كيخـوتى، طويـل، وممتـد، ونحيـف، وأصفر، وضيق الملابس، وعصبى، وفوق كل هذا، لم يكن خفيفًا فى شىء. غازلنه كما لو كان عدوًا للنساء المهذبات، وهو كان يرفضهن مثل عدو، لكن مـا إن رأى ضغط الغزل ينهال عليه حتى صاح:

– اهربن أيتها العدوّات ،اتركننى فى هدوئى، بعيدًا عن الأفكار ملعونة الـورود. انصرفن أيتها السيدات للتصالح مع رغباتكن، لأن من هى ملكة رغباتى، هى من لا نظير لها دولثينيا دل توبوسو، وهى لا توافق على أن تخضعنى وتسيطر على رغبات أية سيدة أخرى منكن.

وعند انتهاء هذا التصريح جلس فى وسط الصـالة على الأرض، مطحونـًا ومهروسًا من ممارسة الرقص، أمر دون أنتونيو أن يحملوه حملاً إلـى سـريره، وأول من شارك فى رفعه كان سانشو، قائلا له:

– مبروك، أيها السيد سيدنا، فقد رقصت، هل فكــرت أن كــل الــشجعان يرقصون بسهولة، وأن الفرسان المشائين، أيضًا، هم فرسان راقصون؟ أقول إذا فكــرت هكذا فأنت مخدوع؛ لأنك قد تجسر على مراقصة امرأة، وإذا ظننت أن المسألة هــي دق الأرض بالأرجل، فإنى أفعل ذلك ببراعة لكنى لا أعرف عن الرقص شيئًا.

أضحكت عبارات سانشو كل نساء الحفلة ومن فى صحبتهن، ووضع سيده فــى السرير، وأحسن لفه فى الأغطية حتى يفرز فى العرق البرد الذى أصابه فى الرقص.

وفى اليوم التالى بدا طيبًا لدون أنتونيو عمل تجربة الرأس المسحور، وفــى وجود دون كيخوتى وسانشو، وصديقين، مع السيدتين اللتين طحنتا دون كيخــوتى فى الرقص فى الليلة السابقة، وخلال هذه الليلة نفسها صحبتهما إلــى غرفــة الــرأس المسحور، وباحت لهما زوجة دون أنتونيو بسرها، وقالت لهما بأن التجربة هى الأولى فى اختبار الرأس، وبخلاف صديقى دون أنتونيو لا يوجد أى شــخص آخــر يعــرف خدعة هذا السر، فلو لم يكشف لهما الأمر دون أنتونيو أولاً لوقعا فى التعجب الذى وقع فيه الجميع، دون أى احتمال آخر لهذه الحيلة، وذلك النظام الجيد الصنع.

أول من وصل إلى سمع الرأس كان دون أنتونيو نفسه، وقال لــه بــصوت حقيقى لكن يمكن سماعه من الجميع:

– قل لى أيها الرأس، بفضل مقدرتك، أى شيء أفكر فيه الآن؟

والرأس أجابه دون تحريك الشفاه بصوت واضح ومميز، حتى إن الجميــع فهم عبارته:

– أنا لا أحكم على أفكار.

عند سماع هذا، بقى الجميع مشدوهًا، وخاصة أنهم لم يروا فى كــل الغرفــة أو بالقرب من المائدة أى شخص يمكن أن يكون وراء الإجابة، عاد للسؤال دون أنتونيو:

- من نحن الموجودون هنا؟

وأجيب بنفس الصوت البطيء:

- أنتم أنت وزوجتك، مع صديقين لك، وصديقتين لزوجتك، وفارس مشهور اسمه دون كيخوتى دى لامانشا، وخادم له هو سانشو بانثا.

هنا كان التعجب من نوع جديد، هنا نعم كانت لحظة وقف فيها الشعر عند الجميع من فزع خالص! وابتعد دون أنتونيو عن الرأس، وقال:

- هذا يكفينى لأدرك أننى لم أخدع ممن باعها لى، فهى رأس حكيم، ورأس متكلم، ورأس مجيب، ورأس يثير الإعجاب، فليقترب أحد آخر وليسأل عما يحب.

وكما أن النساء فى المعتاد عجولات، وصديقات المعرفة، فإن الأولى التى اقتربت كانت إحدى صديقتى زوجة دون أنتونيو، وما سألته كان:

- قُل لى، أيها الرأس، ماذا أفعل لأصير جميلة جدًّا؟

وأجبيت:

- كونى أمينة.

قالت السائلة:

- لا، أسألك أكثر.

ووصلت فى الحال رفيقتها، وقالت:

- أريد أن أعرف، أيها الرأس، إذا كان زوجى يحبنى بإخلاص؟ أم لا؟ وأجابها:

- انظرى تصرفاته وأفعاله تجاهك، وسوف تعرفين.

وابتعدت المتزوجة قائلة:

- هذه الإجابة لم تكن فى حاجة للسؤال عنها؛ لأنه بالفعل الأفعال تعلن عن عاطفة من يقوم بها وإرادته.

وفى الحال وصل أحد صديقى دون أنتونيو، وسأله:

- من أنا؟

وأجيب:

- أنت تعرف.

أجاب الفارس:

- لا، لا أسألك عن هذا، وإنما أود أن تقول عما إذا كنت تعرفنى.

أجابه:

- نعم أعرف أنك دون بدرو نوريث.

- لا أريد معرفة شيء أكثر، فهذا يكفى كى أفهم، أوه أيها الرأس!

وانسحب ليصل الصديق الآخر، ويسأل:

- أى رغبات يعيشها ابنى الأكبر؟

وأجابه:

- لقد سبق لى القول إننى لا أحكم على الرغبات، لكن رغم كل ذلك، يمكننى أن أقول لك إن رغبات ابنك هى دفنك.

قال الفارس:

- هذا صحيح، فإن ما أراه بعينى أشير إليه بإصبعى.

ولم يسأل أكثر، واقتربت زوجة دون أنتونيو، وقالت:

- أنا لا أعرف، أيها الرأس، أى شيء أسألك عنه، فقط كنت أود أن أعرف هل سأتمتع سنوات طويلة بزوجى الطيب؟

أجابها:

- نعم، ستتمتعين، لأن صحته واعتداله فى العيش يعدان بسنوات طويلة من العمر، الذى يقصره الكثير منهم بعدم الاعتدال.

وفى الحال اقترب دون كيخوتى، وقال :

- قل لى أنت، يا من تجيب، هل كان حقيقة أو حلمًا الذى أحكيه عما جرى لى فى كهف مونتيسينوس؟ وهل حقيقة جلد خادمى سانشو؟ وهل سيكون له تأثير على فك سحر دولثينيا؟

أجابه:

- فيما يتعلق بكهف مونتيسينوس، هناك الكثير مما يقال، وفيه الحقيقة وفيه الحلم، جلد سانشو سيتم ببطء، وفك سحر دولثينيا سيصل فى ساعته الموعودة.

قال دون كيخوتى:

- لا أريد معرفة شيء أكثر، فعندما أرى دولثينيا متحررة من السحر، سأشاهد كل الحظوظ التى أصبو إليها دفعة واحدة.

كان آخر من سأل هو سانشو، وكان سؤاله:

– بالصدفة، أيها الرأس، هل سوف أنال حكومة أخرى؟ وهل سأخرج من بؤس حمل الدروع؟ وهل سأعود لأرى زوجتى وأولادى؟

وعلى هذا أجابه:

– سوف تحكم فى بيتك، وإذا عدت إليه، سترى زوجتك وأولادك، وعندما تترك الخدمة سوف تترك حمل الدروع.

قال سانشو بانثا:

– ما أحلى هذا بحق الإله! إن ما قاله لى ليس أكثر مما كان يمكن أن يقوله النبى (بيروجرويّو).

قال دون كيخوتى:

– أيتها الدابة، ماذا كنت تريد من إجابة؟ ألا يكفى أن الإجابات التى أعاطها هذا الرأس تناسب الأسئلة التى وجهت إليه؟

أجاب سانشو:

– نعم يكفى؛ لكن كنت أود أن توضح أكثر، وتقول لى أكثر.

بهذا انتهت الإجابات وانتهت الأسئلة، لكن لم ينته التعجب الذى بقى عليه الجميع ماعدا صديقَىْ دون أنتونيو اللذين يعرفان السر، والذى ود سيدى حامدى بن إنجيلين أن يعلنه فى الحال، حتى لا يترك العالم فى تعجبه، مؤمنًا بمشعوذ معين أو بسر غير عادى كامن فى ذلك الرأس، وهكذا، يقول إن دون أنتونيو مورينو، فى تقليد لرأس آخر رآه فى مدريد، صنعه بائع صور، قام بتصنيع هذا الرأس فى بيته،

للتسلية وإدهاش الجاهلين بأمره، والصناعة كانت هكذا: لوح وجـه المائـدة مـن الخشب، مطلية (ومورنشة) لتشبه اليشب، والقدم التى تستقر عليها بنفس النظام، مع أربعة مخالب لنسر تخرج منها، وتثبتها كامل الثبات متحملة الثقل، والرأس الـذى يشبه تمثال إمبراطور رومانى، وله لون البرونز كانت كلها مفرغة، ومثله كانـت صفحة وجه المائدة، وكانت أجزاؤه مركبة بطريقة التعشيق، حتى لا يرى اتـصال جزء بالآخر، من تلك الأجزاء التى تشكل صندوقًا كأنه من قطعة واحـدة. أيـضًا القدم كان مجوفًا، حتى يردد صدى الحنجرة وصدر الرأس، وكل هذا يتردد صـداه فى حجرة تحت غرفة الرأس. وعبر كل هذا التجويف فى القدم وفى وجه المائـدة والحنجرة والصدر للتمثال كانت تتسرب أنبوبة من الصفيح شديدة التثبيت حتـى لا يمكن رؤيتها. وفى الحجرة السفلى والتى تقابل فى انطباق الغرفة العليا، يكمن الذى كان عليه أن يجيب، ملصقًا فمه بنفس الأنبوبة ليكون امتدادًا لها، وهكذا كان يـسير الصوت من أعلى إلى أسفل ومن أسفل إلى أعلى فى كلمات منبـورة وواضـحة، وبهذه الطريقة لم يكن ممكنًا معرفة الملعوب. وكان المجيب ابن أخ لدون أنتونيـو، طالبًا، حاد الذكاء، فطنًا، وقد أُعلم من السيد عمه عمن كانوا فى الغرفة معـه فـى ذلك اليوم، وكان سهلاً عليه الإجابة بالتكهن، وكما أنه فطن فالإجابة فيها كياسـه. ويقول سيدى حامدى: وحتى عشرة أو اثنى عشـر أيام يومًا من تاريخه اسـتمرت هذه الآلة العجيبة، لكن بعد أن شاع فى المدينة أن دون أنتونيو لديه رأس مـسحور يجيب على كل من يسأله وخشية ألا تصل المسألة إلى مسامع حراس إيماننا، أبلغوا بها مفتشى المحاكم الكنسية! وهؤلاء أمروا دون أنتونيو بتدميره، حتى لا يضل بـه العامة ويشهرونه، لكن فى رأى دون كيخوتى وسانشو باننا بقي الرأس مـسحورًا ومجيبًا، بشكل مقنع لدون كيخوتى أكثر من سانشو.

فرسان المدينة حتى يجاملوا دون أنتونيو، ومن أجل تكريم دون كيخــوتى، وفتح فرصة له للكشف عن سفاهاته، أمروا بعمل سباق تصويب الرماح خلال ستة أيام، وهو السباق الذى لم ينعقد للأسباب التى ستقال بعد قليل. امتلأ دون كيخــوتى بالرغبة فى التنزه فى المدينة دون ســلاح وعلى قــدميه، خوفًا مــن أن يطــارده الصبيان لو فعل ذلك راكبًا جوادًا، وهكذا هو وسانشو مع خادمين آخرين قدمهما له دون أنتونيو خرجوا للنزهة. وحدث، أنه بينما كان يقطــع أحــد الــشوارع، رفــع دون كيخوتى عينيه ورأى مكتوبًا فوق أحد الأبواب بخط كبير، هنا تطبــع كتــب، الأمر الذى سره كثيرًا، لأنه حتى تلك اللحظة لم يكن رأى المطبعة، وكان يرغــب فى معرفة كيف تكون. ودخل من الباب مع كل مرافقيه، ورأى قذف الــورق فــى ناحية، والتصحيح فى ناحية أخرى، التأليف فى هذا، والتعديل فــى ذاك، وأخيــرًا، كل تلك الآلية والمعدات التى توجد فى المطابع الكبيرة. اقترب دون كيخوتى مــن أحد الأدراج، وسأل عما يتم فعله هناك، فأخبره الفنيون. تعجب واستمر فى طريقه، ووصل إلى أحدهم وسأله عما يفعل، وأجاب الفتى:

سيدى، هذا الفارس الذى يوجد هنا... وأشار له على رجل له هيئة وســيمة، مع شيء من الجدية .

ـــ قد ترجم من التوسكانية(*) كتابًا إلى لغتنا القشتالية، وأنا أقوم بتجميعه لتقديمه للطبع.

سأل دون كيخوتى:

ـــ أى عنوان للكتاب؟

(*) الإيطالية.

أجابه المترجم:

- أيها السيد، بالتوسكانية يسمى Le Bagatele .

- وما مقابل le Bagatele فى لغتنا؟

- Le Bagatele كما لو كان فى لغتنا "اللّعَب"؛ ومع أن هذا الكتاب متواضع الاسم، فإنه يحوى بداخله أشياء طيبة جدًّا وجوهرية.

قال دون كيخوتى:

- أنا أعرف التوسكانية بشكل متوسط، وأقدر على غناء بعض مقاطع (الأريوستو)، لكن قل لى يا سيدى (ولا أقول هذا برغبة اختبار ذكاء فخامتكم، وإنما للفضول، لا أكثر)، هل وجدت فيما تكتب مرة يذكرون piñata؟

أجاب المترجم :

- نعم، مرات كثيرة.

سأل دون كيخوتى:

- وكيف تترجمها فخامتكم إلى لغتنا؟

- كيف تترجم إلا بقولنا "حلّة طبيخ"؟

قال دون كيخوتى:

- يا للهول، كم أن فخامتكم متقدم فى التوسكانية!؟ إنى أراهن رهانًا عاليًا أنه حيث يقال بالتوسكانى piace ستقول فخامتكم بلغتنا يسر، وحيث يقال Piu ستقول أكثر، وال su تفسرها بأعلى، وتفسر giu بكلمة تحت.

قال المترجم:

– نعم، أفعل يقينًا، لأن تلك هى الكلمات التى تقابل فى لغتنا نظيرتها التوسكانية.

قال دون كيخوتى:

– أجرؤ على القسم أن فخامتكم غير معروف فى العالم، المعادى دائمًا لمكافأة العبقريات، والأعمال المحمودة. أى كفاءات ضائعة هناك! وكم من العبقريات المركونة! وأى فضائل مزدراة! لكن مع كل هذا يبدو لى أن الترجمة من لغة إلى أخرى، إذا لم تكن من ملكتى اللغات: الإغريقية واللاتينية، ستكون كمن يرى السجاد الفلمنكى من وجهه العكسى؛ فمع ظهور الرسومات، فإنها مليئة بالخيوط التى تظلل عليها، ولا ترى مع ذلك من وجهها ذى البشرة الناعمة. والترجمة بين اللغات السهلة لا يبرهن على عبقرية ولا بلاغة، مثلما لا يبرهن عليهما نسخ ورقة من ورقة أخرى، ولا يعنى ذلك رغبتى فى الإشارة إلى أن هذا العمل ليس محمودًا، فالإنسان يمكن أن يشغل نفس الوقت الذى تشغله تلك الترجمة فى أمور أسوأ. وخارج هذه الحسابات يبرز المترجمان المشهوران: الأول، هو الدكتور كريستوبال دى فيجيروا فى ترجمته (راعى فيدو)، والثانى، هو خوان دى خاوريجى فى (أمينتا)، حيث يضعون موضع شك أى العملين المترجم وأيهما هو الأصل. لكن قل لى فخامتكم: هذا الكتاب، يتم طبعه على حسابك، أو أن حقوق الطبع مباعة لأحد أصحاب المكتبات؟

أجاب المترجم:

– على حسابى، وأفكر أن أكسب ألف دينار، على الأقل، فى هذه الطبعة الأولى، وستكون من ألفى نسخة، وسوف تباع كل نسخة بستة ريالات سعرًا للغلاف.

أجاب دون كيخوتى :

– ممتاز فخامتكم فى الحساب، يبدو جيدًا أنك لا تعرف مداخل الطابعين ومخارجهم، والمكاتبات بين بعضهم بعضًا، وأنا أعدك عندما ترى نفسك محملاً بالنسخ الألفين، سوف ترى جسمك مطحونًا، حتى الرعب، ولا سيما إذا كان الكتاب هابطًا بعض الشيء، وليس حرِّيفا حرَّاقا.

قال المترجم:

– إذن، ماذا؟ هل تحب فخامتكم أن أعطيه لتاجر كتب يعطى مقابل حقى ثلاث قطع نقود مرابطية، ومع هذا يفكر فى أنه ينعم علىَّ بإعطائها لى؟ أنا لا أطبع كتبى لتحقيق أى شهرة فى العالم، الذى أنا معروف فيه بأفعالى: أريد الربح، فبدونه الواحد لا يساوى فلسًا على الرغم من شهرته.

أجاب دون كيخوتى:

– مد الله لك يد العون!

وتقدم نحو درج آخر، حيث رآهم يصححون ملزمة من كتاب معنون (نور النفس)، وعند رؤيته له قال:

– مثل هذا الكتاب، مع وجود وفرة من جنسه بين الكتب، إلا إنها هى التى تستحق الطبع، والآثمون كثرة، ومن الضرورى أنوار لانهائية لهذه الجمهرة ممن أظلمت نفوسهم.

واستمر فى تقدمه، أيضًا رآهم يصححون كتابًا، وعندما سأل عن عنوانه قالوا له (الجزء الثانى من قصة دون كيخوتى دى لامانشا) مؤلفها فلان، من أهل تورديسيًّاس.

قال دون كيخوتى:

– عندى أخبار قديمة عن هذا الكتاب، وفى الحقيقة، وفى ظنى، أننى تصورت أنهم قد أحرقوه، وحولوه إلى تراب بسبب صفاقته، قديسه مارتين سوف يبلغـــه، مثلما يبلغ كل خنـــزير، لأن القصص المصطنعة تحتوى على أشياء كـــثيرة طيبة ولذيذة كل مرة تمس فيها الصدق أو ما يـــشبه الـــصدق، وبالنـــسبة للقصص الصادقة فإنها أفضل دائمًا كلما كانت أكثر صدقًا.

وما إن قال ذلك، مع بعض مظاهر الغضب، خرج من المطبعة، وفى نفـــس ذلك اليوم أمر دون أنتونيو بحمله إلى السفن التى كانت على الشاطىء، ممـــا ســـر سانشو كثيرًا، لأنه لم يرها فى حياته. أخطر دون أنتونيو بالأمر قائـــد الربـــاعى(*) للمراكب، أنه هذا المساء يحمل لرؤيتها ضيفه المشهور دون كيخوتى دى لامانشا، الذى يعرف عنه قائد الرباعى وكل سكان المدينة بعض الأخبار، وما حدث له فوق السفن سيقال فى الفصل التالى.

(*) قائد قافلة من أربع سفن.

الفصل الثالث والستون

عما أصاب سانشو بانثا من سوء عند زيارة المراكب، والمغامرة الجديدة للموريسكية الجميلة

كانت الخطابات والأحاديث التي يتفوه بها دون كيخوتي حول إجابة الرأس المسحورة غزيرة، دون أن يقع خاطره أو خاطر خادمه على الخدعة، وكانت الأحاديث تقف جميعًا عند الوعد بفك سحر دولثينيا. ومع هذا الوعد صال وجال، وابتهج في داخله، معتقدًا أنه لابد أن يرى سريعًا إنجاز ذلك الوعد، وسانشو مع أنه كدره منصب الحاكم كما قيل من قبل، فإنه إلى الآن يود أن يأمر وأن يطاع، وإن هذا الحظ السيئ يجلبه معه الحكم حتى لو كان مجرد ملعوب.

باختصار، في ذلك المساء دون أنتونيو مورينو مضيفهما وصديقاه، مع دون كيخوتي وسانشو، ذهبوا إلى المراكب. قائد الرباعي، الذي كان قد تم إخطاره بهذه الزيارة الميمونة كي يرى الشهيرين دون كيخوتي وسانشو، أمر السفن برفع الغطاء القماشي الغليظ الذي يحمي السفن من الشمس والمطر، وذلك بمجرد وصولهم إلى مقر البحرية، وصاحب ذلك صوت المزامير، وفي الحال ألقوا زورقًا في الماء مغطى ببساط فاخر وحشايا من القطيفة القرمزية. وما إن وضع فيه قدميه دون كيخوتي، أطلقت السفينة القبطانية(*) مدفعها البارز، وفعلت باقي المراكب نفس الشيء، وعندما صعد دون كيخوتي السلم الأيمن، حياه طاقم السفينة بنفس الطريقة

(*) سفينة القيادة.

المعتادة عند استقبال الشخصيات المهمة، قائلين: "هُو، هو، هو!" ثلاث مرات. أخذ بيده الجنرال الذى كانوا ينادونه بهذا اللقب، وكان فارسًا من بلنسية، وقام الجنرال باحتضانه، قائلاً له:

– سأشير إلى هذا اليوم باعتباره حجرًا أبيض، لكونه يومًا من أفضل الأيام التى أفكر بعيشهنا فى الحياة، لأنى أرى السيد دون كيخوتى دى لامانشا زمنًا ورمزًا يضم فى حناياه ويعدد كل شجاعة الفروسية المشّاءة. وبعبارات ليست أقل تهذيبًا أجابه دون كيخوتى مبتهجًا حتى المدى من رؤية التعامل معه فى تمجيد لسمو مقامه. دخلوا جميعًا إلى مؤخرة السفينة؛ التى كانت تأخذ وضعًا حسن التوجيه تمامًا، وجلسوا على كراسى جوانب المؤخرة، ومر رئيس طاقم التجديف فى الممر، وأعطى إشارة بالصفارة كى يأخذ الطاقم وضع الاستعداد مع صرخة (فليشمر الطاقم عن ساعديه)(*)؛ ونفذوا الأمر فى لحظة. سانشو ما إن رأى أناسًا كثيرين عرايا، بقى فى ذهول، وخاصة عندما رآهم يظللون السفينة بالغطاء مرة أخرى فى سرعة فائقة، حتى بدا له أن كل الشياطين كانت هناك تعمل، لكن كل ذلك كان تورتة وخبزًا مطليًا بالألوان بالنسبة لما سأقوله الآن. كان سانشو جالسًا على إحدى دعامات مظلة السفينة، بجوار قائد إيقاع التجديف(**)، على يده اليمنى. وهذا قد أُعلم بما عليه عمله. أمسك بسانشو ورفعه بذراعيه. كل الطاقم نهض على قدمين فى حالة طوارىء، بادئين من فريق الجانب الأيمن بتقاذف سانشو وتقليبه بين أذرع

(*) النداء يعنى خلع الملابس، فالتجديف عادة يقوم به بحارة بأجسام عارية، ومعظمهم يقضون خلاله عقوبة عمل إجرامى ارتكبوه.

(**) يجلس فى آخر مؤخرة السفينة وظهره نحوها لإدارة رجال التجديف.

الجدفين من بنك إلى بنك فى سرعة خاطفة، حتى إن سانشو المسكين فقد بصر عينيه، وفكر دون شك أن نفس الأبالسة هى التى تحمله، ولم يتوقفوا عن ذلك حتى مر بفريق الجانب الأيسر حتى مؤخرة السفينة من جديد حيث أجلسوه فى مكانه السابق. صار المسكين مطحونًا، تتدافع أنفاسه، ويتدفق عرقه، دون أن يعرف تخيل ما حدث له. دون كيخوتى حين رأى طيران سانشو دون أجنحة، سأل الجنرال عما إذا كان ذلك شعائر تمارس مع من يدخل السفينة لأول مرة، لأنه لعله ينطبق عليه ذلك، وهو ليس لديه النية للاستجابة لتلك الشعائر وأمثالها، وأنه يقسم بالله أنه إذا اقترب أحد للإمساك به فإنه سوف ينزع روحه بطعناته، وعند قوله هذا نهض وأشهر سيفه.

فى هذه اللحظة أزالوا غطاء السفينة، وبضجة عظيمة تركوا الصارى الأساسى يسقط من أعلى إلى أسفل. ظن سانشو أن السماء تتخلع من أشداقها، وتأتى لتدق رأسه، فأسقط رأسه خوفا ووضعها بين رجليه. أيضا دون كيخوتى لم يتحمل كل هذا، فتدبب كتفاه، وتبدد اللون عن وجهه. أقام الطاقم الصارى بنفس السرعة والخفة، مع سكوت تام، حتى كأنهم يفتقدون الصوت والنفس. أعطى رئيس الطاقم إشارة بفك الهلب، وقفز إلى منتصف سطح السفينة بالكرباج أو السوط، وبدأ يجلد ظهر أفراد الطاقم، مع اندفاع السفينة شيئًا فشيئًا إلى البحر، وعندما رأى سانشو فى اتفاق تحرك أقدام كثيرة حمراء، ظن أنها المجاديف، قال لنفسه:

– هذه حقيقة أشياء مسحورة، وليست الأشياء التى يتحدث عنها سيدى. ماذا فعل هؤلاء التعساء حتى يجلدوهم هكذا؟ وكيف أن هذا الرجل وحده الذى يتحرك هنا بصفّارته لديه الجرأة لجلد كل هؤلاء الناس؟ أقول إن هذه هى الجحيم، أو على الأقل المطهر.

عندما رأى دون كيخوتى الانتباه الذى يشاهد به سانشو ما يجرى، قال له:

– آه، سانشو صديقى، بأى اختصار وبأقل الأسعار يمكنك تشذيب نفسك، إذا أحببت أن تتعرى حتى منتصف جسمك الأعلى، وتضع نفسك بين هذه الناس، ومرة واحدة، سوف تقضى على سحر دولثينيا. من ثَم، فإنه مع بؤس الكثيرين وآلامهم، فإنك لن تحس ببؤسك وألمك، وخاصة أنه من الممكن أن الحكيم ميرلين قد يستطيع أن يحسب كل جلدة، من يد هذا الرجل الخبيرة بعشرة جلدات من تلك التى لا بد فى نهاية الأمر أن تسوط نفسك بها.

أحب الجنرال أن يسأل أى جلدات تلك؟ وأى فك لسحر دولثينيا؟ عندما قال البحار:

– قلعة (مونجوى) تعطينا إشارات عن وجود مركب تجدف قرب الشاطئ، على الشريط الغربى.

عند سماعه هذا، قفز الجنرال إلى سطح السفينة، وقال:

– هناك مركب شراعى بساريتين لقرصان من الجزائر، حسب إشارة قلعة الاستطلاع.

اقتربت السفن الثلاث من السفينة القبطانية، لمعرفة ما يأمرون به، أمر الجنرال بأن تخرج سفينتان إلى عرض البحر، وهو مع الأخرى سوف يتحركان بحذاء الشاطىء. السفينتان اللتان خرجتا إلى عرض البحر، بعد ميلين اكتشفتا المركب الشراعى، وبالنظر إليه رأوا أنه مركب ذو أربعة عشر بنكًا أو خمسة عشر، وهكذا بالفعل كان. هذا المركب عندما اكتشف السفينتين الحربيتين، شرع فى الهرب، مع أمل أن يفلح فى ذلك بفضل خفته، لكنه لم يكن صادق التخمين، لأن

السفينة القبطانية كانت من أخف السفن التي تبحر في المياه، وهكذا كانت تقترب منه، حتى تأكد هؤلاء أصحاب المركب الشراعي أن لا مهرب، وهكذا أراد الريِّس أن يتركوا المجاديف ويستسلموا، حتى لا يحملوا قبطان السفن الإسبانية على الغضب، لكن الحظ كان يوجه الأمور بطريقة أخرى، فقد اقتربت القبطانية جدًا، حتى سمع من على المركب الشراعي أصواتًا تصدر منها تطلب منهم الاستسلام، لكن اثنين من الأتراك السكارى من بحارة المركب الشراعي مع اثنى عشر بحارًا آخر أطلقوا بنادقهم فقتلوا جنديين من جنود مقدمة السفن الإسبانية. وعندما رأى الجنرال ذلك أقسم ألا يترك أحدًا حيًا فوق المركب الشراعي، وعندما شرع في الهجوم بكل ضراوة هرب منه المركب مارًا من تحت منظومة مجاديف القبطانية. تقدمت القبطانية من جديد وراءه، وبينما كانت تستدير لهذه المطاردة كان المركب الشراعي قد نشر الأشرعة، وهكذا من جديد بكل دفع الأشرعة والمجاديف حاول الهرب، لكن لم تنفعهم مساعيهم بقدر ما ضرتهم جسارتهم، لأن القبطانية أدركتهم بعد نصف ميل بقليل، وألقت بمجاديفها فوق المركب وتم القبض على كل من فيه أحياء. خلال هذا وصلت السفينتان الأخريان، والجميع مع الفريسة عادوا إلى الشاطئ، حيث جماهير لا حصر لها كانت تنتظر ما يعودون به. رسا الجنرال قريبًا من البر وعلم أن نائب الملك بالمدينة كان في مقر البحرية، فأمر بإلقاء زورق لإحضاره، وأمر بنصب الساري حتى يعلق عليه الريس ليشنقه مع باقي الأتراك الذين قبض عليهم من فوق المركب، وعددهم حوالي ستة وثلاثين فردًا، كلهم شجعان ومن أفضل مطلقي البنادق الأتراك. سأل القبطان عن ريس المركب، وأجابه أحد الأسرى في لغة إسبانية، وظهر بعد ذلك أنه إسباني مرتد عن المسيحية إلى الإسلام:

– هذا الفتى يا سيدي الذي تراه ها هنا هو ريِّسُنا.

وأشار إلى فتى من الأكثر جمالاً وفتوة، مما لا يستطيع الخيال الإنساني رسمه. العمر لا يكاد يبلغ العشرين، سأل الجنرال:

– قل لى، يا أيها الكلب عديم النصح، من أمرك أن تقتل جنودى مع معرفتك أن الهرب كان مستحيلاً؟ هل هذا هو الاحترام الواجب لسفن القيادة؟ ألا تعرف أن التهور ليس شجاعة؟ إن الآمال المشكوك فيها قد تمنح الإنسان جسارة وليس تهورًا.

أراد أن يجيبه الريس، لكن الجنرال لحظتها لم يستطع سماع الإجابة، كى يسرع لاستقبال نائب الملك، الذى كان يدخل إلى السفينة بالفعل، ومعه عدد من خدمه وبعض أعيان المدينة، قال نائب الملك:

– لقد كان الصيد جيدًا!

قال الجنرال:

– جيدًا جدًّا، وسوف تراه سعادتكم معلقًا على هذا الصارى.

أجاب نائب الملك:

– وكيف يكون هكذا؟

أجاب الجنرال:

– لأنهم قتلوا لى، ضد كل قانون أو عقل أو عادة للحرب، جنديين من أحسن جنود هذه السفن، وأقسمت أن أشنق كل من أسرته، خاصة هذا الفتى، وهو ريِّس المركب.

وأشار إليه، وكان مقيد اليدين وقد وضع حبل المشنقة حول رقبته، منتظرًا الموت. نظر إليه نائب الملك، وعندما رآه بكل هذا الحسن والشجاعة، وفى غاية التواضع، تسلم منه خطاب توصية فى الحال، قد كتبه حسنه، من ثَم أراد أن يعفيه من الموت، وهكذا سأله:

– قل لى، أيها الرئِّس، هل أنت من أمة الترك؟ أو العرب؟ أو أنك إسبانى مرتد؟

أجابه الفتى:

– لست من أمة الترك أو العرب أو من الإسبان المرتدين.

أجاب نائب الملك :

– إذن، ماذا تكون؟

أجاب الفتى:

– أنا امرأة مسيحية.

– امرأة ومسيحية؟ إنه أمر يثير التعجب أكثر من التصديق.

قال الفتى:

– أجلوا، أوه أيها السادة! تنفيذ موتى، فلن تخسروا شيئًا بتأخير انتقامكم قليلاً حتى أحكى لكم قصة حياتى.

من كان يكون قلبه بهذه القسوة حتى لا تلينه هذه العبارات، أو على الأقل تجعله يسمع ما يود الفتى الحزين المكلوم قوله؟ الجنرال قال له أن يقول ما يشاء، لكن لا ينتظر عفوًا لذنبه المعترف به، وبهذا الإذن بدأ الفتى يتكلم بالطريقة الآتية:

- ولدت بين تلك الأمة التى زادت تعاستها عن فطنتها، وفوقها أمطرت هــذه الأيام النكبات، إنها أمة الموريسكيين ومنهم أنجبنى والدى. وفى مجرى ســوء حظهم حملنى اثنان من أخوالى إلى بلاد البربر، دون أن ينفعنى الإقرار بــأننى مسيحية، كما أنا عليه بالفعل، فلست مــن المتــصنعات أو المتظــاهرات بالمسيحية، أنا من المسيحيات الحقيقيات والكاثوليكيات. لم يفد مع من حملوا على عاتقهم أمر نفينًا البائس قول هذه الحقيقة، ولا أخوالى أحبوا تصديقى، بل اعتبروها كذبة واختراع حتى أبقى فى الأرض التى بها ولــدت، وهكــذا بالقوة وليس بالرضا أخذونى معهــم. كــان لى أم مــسيحية، وأب فطــن ومسيحى حقيقة. رضعت الإيمان الكاثوليكى من ثدى أمى، وتربيت علــى أفضل العادات، فلا اللغة ولا غيرها كان يشير إلى أننى موريــسكية، فيمــا أظن، ومع هذه الفضائل (التى اعتقد امتلاكى لها حقًّا) نما حسنى، إذا كــان بى حسن، ومع أن عفتى وسترى كان كبيرًا، لم يكن كافيًا لمنعى من رؤية فتى فارس اسمه دون جاسبار جريجوريو، الابن الوارث لفارس كان يعيش بقريــة بجوار قريتنا، وما إن رآنى وتكلمنا حتى صار هائمًا فى غرامى، وكما أننى لم أكن شديدة الميل إليه، أمر تطول حكايته، بل كنت خائفة مثل خــوفى مــن عبور هذا الحبل، الذى يهددنى الآن، بين حنجرتى ولسانى، وهكذا أكتفــى بحكاية كيف أحب دون جريجوريو مرافقتى فى منفانا. اختلط بالموريــسكيين الذى أخرجوا من قرى أخرى، حيث كان يعرف اللغة جيدًا، وفى الرحلــة صار صديقًا لاثنين من أخوالى كانا يحملانى، لأن أبى فى حــذره وفطنتــه، عندما سمع أول بيان عن نفينا، خرج من القرية وذهب للبحث عن مكــان يرحب بنا فى الممالك الأجنبية. ترك فى أحد الأماكن جواهر كثيرة ولآلــئ ذات قيمة عظيمة محفوظة ومدفونة، لم يكن أحد يعرف سبيلاً إليها غــيرى وغيره، ودفن معها بعض النقود الذهبية، وأمرنى ألا أمس الكنــز المــدفون

بأية طريقة إذا حدث ونفونا قبل أن يعود. وأطعته، ومع أخـــوالى وأقاربنـــا الأقربين ذهبنا إلى بلاد البربر، واستقر بنا المقام فى مدينة الجزائر، كمـــا لـــو كان استقر بنا المقام فى نفس جهنم. علم ملك المدينة بخبر حـــسنى الفـــائق، وشهرة ثرائى، وهذا كان من حسن حظى، استدعانى أمامه، وسألنى من أى مكان من إسبانيا جئت؟ وأى أموال وجواهر أحضرت؟ كلمته عن قريتنـــا وكيف أننا دفنا فيها كنوزنا، لكن بسهولة يمكـــن اســـتعادتها إذا ذهبـــت لإحضارها. قلت كل هذا خائفة أن يعميه جمالى أكثر من طمعه. وبينما هـــو معى فى هذا الحوار، أبلغوه أنه كان يصحبنى فتى من أجمل الفتيان وآنقهـــم الذين يمكن تخيلهم. وفى الحال أدركت أنهم يحدثونـــه عـــن دون جاســـبار جريجوريو، الذى كان جماله يترك وراءه كل جمال يغلون تقـــديره. تعكـــر صفوى، واضعة فى اعتبارى الخطر الذى يتعرض له دون جريجوريو، لأنه بين هؤلاء الأتراك البرابرة يقدرون كثيرًا شابًا أو فتى وسيمًا أكثر من أى امـــرأة مهما كان جمالها. أمر الملك بإحضاره أمامه حتى يراه، وسألنى عما إذا كان ما يقولونه عن هذا الفتى حقيقيًا. وأنا تقريبًا كما لو كنت ملهمة من الـــسماء، قلت له نعم هو كذلك، لكنى أعلمه أنه لم يكن ذكرًا، إنما امرأة مثلى، وإنى أرجوه أن يسمح لها بأن تذهب وترتدى لباسها النسائى حتى تعرض أمامـــه كل جمالها فى تمامه، وبوجه أقل ارتباكًا. قال لى أن أذهب بتشجيع منـــه إلى إسبانيا لاستخراج الكنـــز المخبوء. تكلمت مع دون جاسبار، وحدثته عن الخطر الذى يعرض له إذا أظهر أنه رجل، وألبسته ثياب امرأة عربيـــة، وفى نفس المساء أحضرتها فى مجلس الملك، والذى ما إن رآها حتى بقى مندهـــشًا من جمالها، وأمر بالمحافظة عليها حتى يقدمها إلى الإمبراطور، وحتى يهرب من الخطر التى يمكن أن تتعرض له من نساء السراى لو وضعها بينهن، بل خطره هو شخصيًا فى تلك الحالة، أمر بإيداعها فى بيت عائلة عربية من علية القوم

كى تحافظ عليها وتحسن خدمتها حتى يرسلها للسلطان. وما شعرنا به من حزن (لا أستطيع إنكار أننى أحبه) هو ما يشعر به حبيبان حقيقيان ساعة الفراق. دبر الملك فى الحال حيلة عودتى إلى إسبانيا بهذه المركب الشراعية، وأن يصحبنى تركيان، وهما من قتلا الجنديين، وأتى أيضًا معى هذا المرتد الإسبانى - مشيرة لمن كان أول من تكلم - والذى أعرف عنه أنه مسيحى متخفٍّ، وقد أتى بالرغبة فى البقاء بإسبانيا أكثر من رغبته فى العودة إلى بلاد البربر، وباقى طاقم التجديف هم عرب وأتراك، ولا يصلحون لشىء إلا للتجديف. التركيان، طامعان ومتغطرسان، ودون محافظة على النظام الذى جئنا على أساسه، وهو نزولى أولاً مع هذا المرتد إلى أول شاطىء إسبانى، فى ثياب مسيحية (نحملها معنا)، قررا كنس الشاطئ قبل إلقائنا على البر، لعلهما يجدان فريسة من أسرى إسبان، خوفًا من إبلاغنا عنهما أى سفينة حربية إسبانية فى حالة إنزالنا دون رهائن. وبالأمس اكتشفنا هذا الشاطىء، دون معرفتنا بوجود هذه السفن الأربع، وهكذا حدث ما حدث مما رأيتموه. باختصار، دون جريجوريو بقى فى ثياب امرأة بين نساء مع خطر شديد بالضياع، وها أنا أرانى مقيدة اليدين فى انتظار، أو بقول أفضل، فى خوف من فقدان الحياة، التى بالفعل قد أرهقتنى. هذه، أيها السادة، فى آخر الأمر، قصتى المؤسفة، والتى فيها من الصدق بقدر ما بها من التعاسة، كل ما أرجوه أن تتركونى أموت مسيحية، فكما قلت إننى لم أكن مذنبة فى أى شىء من الذنوب التى تكون قد وقعت فيها أمتى.

وفى الحال سكتت، مغرورقة منها العيون بدموع حانية، صاحبتها طويلاً أكثر من صحبتها لها الآن. نائب الملك، رقيق وشفوق، دون أن يكلمها بكلمة، اقترب منها، ونزع بيديه حبل المشنقة من عنقها الجميل جمال هذه العربية.

وخلال حكاية الموريسكية المسيحية لقصتها الرحّالــة، زرع فـي وجههـا نظراته عجوز رحّال دخل السفينة مع دخول نائـب الملـك، ومـا كـادت تنهـي الموريسكية حديثها حتى ألقى بنفسه بين قدميها محتضنا لهما، مع كلمات متقطعـة وألف نشيج باك وتنهدات، قال لها:

– أوه أنا فيلكس، يا ابنتي التعيسة! أنا أبوكِ ريكوتي، الذي عـاد بحثًا عنـك؛ لعدم مقدرتي العيش بدونك؛ فأنت مني بمنـزلة النفس من الجسد.

وعلى كلماته فتح سانشو عيونه، ورفع رأسه (التي كان يضعها مائلة، مفكرًا في نكبة هذه النزهة)، وناظرًا إلى الرجال، تعرف على نفس ريكوتي الذي صـادفه يـوم خروجه من الحكومة، وتأكد أن هذه بالفعل ابنته، والتي مـا إن فكـوا قيودهـا حتـى احتضنت أباها، خالطة دموعها بدموعه، وهذا قال للجنرال ولنائب الملك:

– هذه، أيها السادة، ابنتي، التي تتساوى تعاسة وقائع حياتها بتعاسة اسمها، تسمى أنا فيلكس، مع لقب ريكوتي، مشهورة بجمالها نفس شهرتها بثراء أبيها، وأنا خرجت من وطني للبحث عن ممالك غريبة وعمن يقدم لنا الملاذ ويؤوينـا، وقد وجدت الملاذ في ألمانيا، وبعدها عدت في ثياب حاج رحال في صـحبة ألمان آخرين للبحث عن ابنتي، وإخراج كنـزي المدفون، لم أجـد ابـنتي ووجدت كنـزي، الذي أحمله معي. والآن يغنيني كل الغنى، إنهـا ابـنتي المحبوبة، وإذا كان إثمنا الصغير، ودموعهـا مع دمـوعي يمكن أن تفتح أبوابًا للرحمة داخل جماع عدالتكم، فافتحوها لنا، فلم نفكر قط في إغـضابكم، ولم نوافق مرة واحدة على نوايا أهلنا، الذين تم نفيهم على أساس عادل.

عندئذ قال سانشو:

– أنا أعرف ريكوتي جيدًا، وأعرف أنه صادق فيما يقوله من أن (أنا فـيلكس) هي ابنته، أما الترهات الأخرى من الذهاب والإياب، وعما إذا كانت بحسن نية أو سوء نية، فأنا لا أحشر نفسي.

– بالفعل دموعكما لن تدعنى أنجز قسمى، عيشى أيتها الحسناء (أنا فيلكس) كل السنوات التى كتبتها لك السماء، وسوف يحمل الإثم التركيان المغروران المتهوران.

وأمر فى الحال بإعدام التركيين اللذين قتلا جنديه الاثنين، لكن نائب الملك رجاه فى قوة ألا يعدمهما، فإن ما اقترفاه كان جنونًا أكثر منه شجاعة. ونفذ الجنرال ما طلبه منه نائب الملك، لأن الثأر بسكينة باردة ليس ثأرًا، وحاولوا بعدها تدبير حيلة لإنقاذ دون جاسبار جريجوريو من الخطر الذى يعيشه، عرض ريكوتى لذلك أكثر من ألفى دينار مما معه من حلى ولآلىء. فكروا فى وسائل كثيرة، لكن لم يكن منها أفضل مما عرضه الإسبانى المرتد الذى قدم نفسه للعودة إلى الجزائر فى إحدى المراكب الصغيرة، لا تزيد بنوكها على ستة بنوك، معتمدًا على مجدفين إسبان، لأنه يعرف أين وكيف ومتى يمكن الرسو، وفى نفس الوقت لا يجهل البيت الذى يوجد به دون جاسبار. شك الجنرال ونائب الملك فى الثقة بالمرتد، وخافوا على المسيحيين الذى سيجدفون له، ضمنته أنا فيلكس، أما أبوها فقال إنه سوف يدفع فدية المسيحيين صحبته لو تم أسرهم.

وعلى هذا تم الاتفاق، وهبط من السفينة نائب الملك، ودون أنتونيو مورينو حمل معه الموريسكية وأباها، وكلفه نائب الملك بتدليلهما والحنو عليهما بقدر إمكانه، وأنه سوف يقدم له ما يهيئ حسن ضيافتهما فى منزله. هكذا كانت الأريحية والبر الذى سكبته حلاوة (أنا فيلكس) وحسنها فى صدره.

الفصل الرابع والستون

عبارة عن المغامرة التى أحزنت دون كيخوتى أكثر من كل حزن أصابه فى كل ما وقع له قبل ذلك من مغامرات

تحكى القصة أن زوجة أنتونيو مورينو أصابها طـــرب عظـــيم لاستـــضافة الموريسكية فى بيتها، قابلتها ببشاشة كبيرة، مغرمة بجمالها مثل غرامها بـــذكائها، وقد كانت فى الأمرين قد بلغت الموريسكية المدى، وكل أهل المدينة كانوا يـــأتون لرؤيتها كتجمعهم حول جرس يقرع.

قال دون كيخوتى لدون أنتونيو إن ما اتخذوه لتحرير دون جريجوريـــو لـــم يكن جيدًا، لأنه كان يتضمن من الخطر أكثر من السلامة، وكان الأفضل أن يحملوه إلى بلاد البربر بكل أسلحته فوق جواد، وأنه فى هذه الحالة سوف ينقذه على الرغم من العرب، كما فعل دون جايفيروس مع زوجته ميليسندرا.

قال سانشو مستمعًا لهذا:

– اعلم فخامتكم أن السيد دون جايفيروس أنقذ زوجته من فوق أرض ثابتـــة، وحملها إلى فرنسا على أرض ثابتة، لكن هنا، إذا أخرجنا دون جريجوريـــو، فليس لدينا وسيلة لإحضاره إلى إسبانيا، فالبحر فى الوسط يحول دون ذلك.

قال دون كيخوتى:

– لكل شىء علاج ماعدا الموت، من ثَم عند وصول المركب (التى سوف تحمل المرتد) إلى البحر، سوف نضع أنفسنا فيها، حتى لو اعترضنا العالم كله.

قال سانشو :

– **أنت ترسم وتسهل كل شيء، لكن بين القول والفعل أخدود، وأنا أدعم المرتد، فظاهره أنه رجل خير، نظيف الوجدان.**

قال دون أنتونيو إن المرتد إذا لم يفلح فى مسعاه، فإنه سيحمل على عاتقه ذهاب دون كيخوتى الأكبر إلى بلاد البربر.

وبعد ذلك بيومين رحل المرتد فى مركب خفيف مع ستة من المجدفين، مدعمًا هكذا بطاقم شديد الشجاعة، وبعد رحيله بيومين رحلت السفن الحربية إلى ليبانتى، بعد أن طلب الجنرال من نائب الملك أن يخطره بأخبار تحرير جريجوريو، وأخبار أنا فيلكس، ووعده نائب الملك بتنفيذ ما طلب.

وفى صباح أحد الأيام خرج دون كيخوتى للتنزه على الشاطئ مدججًا بكل سلاحه، لأنه كما كان يقول فى مرات عديدة، إن سلاحه هو رَحْله أو سرجه، والقتال هو راحته، ولا يوجد دونهما لحظة واحدة. رأى قادمًا نحوه فارسًا مدججًا بالسلاح مثله، ومرسومًا على درعه قمر مزدهر الإشراق، والذى ما إن اقترب بمسافة من دون كيخوتى تسمح لهذا بسماعه، حتى قال:

– **تصور، أيها الفارس، والذى لا توجد الكلمات للثناء عليه، دون كيخوتى دى لامانشا، أننى فارس القمر الأبيض، الذى ربما وصلت إلى مسامعك مآثره التى لم يسبق لها مثيل، وآتى للقتال معك، واختبار قوة ساعديك لجعلك تقر وتعترف أن سيدتى، كانت من كانت دون مقارنة، هى أجمل من سيدتك دولثينيا دل توبوسو، وإن اعترفت بذلك فى سهولة ويسر، فإنى سأعفيك من الموت، ومن الجهد الذى سأجبرك على بذله فى قتالى، وإذا رغبت فى القتال**

وهزمتك، لا أريد منك أكثر من ترك السلاح، وامتناعك عن البحث عن المغامرات، وتنسحب إلى قريتك وبيتك لمدة عام، حيث تعيش دون أن تمد يدك على سيف، فى سلام هادئ وسكون مريح، لأن هذا يناسب زيادة ثروتك، ونجاة روحك، وإذا هزمتنى، ستصبح رأسى تحت أمركياستك، وسيظل من حقك تنظيفى من سلاحى ومن فرسى، وستصبح شهرة مآثرى بعض مآثرك. انظر فيما هو أفضل لك وأجبنى فى الحال، لأننى خصصت هذا اليوم للانتهاء من هذا الشأن.

بقى دون كيخوتى مشدوهًا فى ذهول، من غطرسة فارس القمر الأبيض ومن سبب التحدى، وفى هدوء ولهجة شديدة قال:

- يا فارس القمر الأبيض، إن مآثرك حتى الآن لم تصل إلى مسامعى، وسوف أجرؤ على القول إنك لم تر دولثينيا، وإذا كنت قد رأيتها فإننى واثق أنك ما كنت ستطرح هذا التحدى، لأن رؤيتها ستحبط غطرستك، فلا يمكن أن يوجد جمال يقارن بجمالها، ولهذا فلا أقول لك إنك تكذب، وإنما أنت لم تصب فى التفكير، وفيما تقترح فإننى أقبل تحديكم، وفى الحال حتى لا يمر اليوم الذى حددته للتحدى، فقط أستثنى من الشروط مرور مآثركم لتصير بعض مآثرى، لأنى لا أعرف عنها شيئًا، وبمآثرى أنا راض بها على حالها. إذن خذ جانب ميدان القتال الذى تريده، وأنا سآخذ الجانب الآخر، وما يعطيه الله يباركه سان بدرو.

اكتشف أهل المدينة فارس القمر الأبيض، وقالوا لنائب الملك أنه يتحدث مع دون كيخوتى، ظن نائب الملك أنها مغامرة من صنع دون أنتونيو مورينو أو من صنع أى فارس آخر فى المدينة، فخرج مسرعًا للشاطئ مع دون أنتونيو وفرسان

آخرين كثيرين. وصلوا في الوقت المناسب، عندما كان دون كيخوتي يدير عنان روثينانتي ليتخذ موقفه في ميدان المبارزة، وعندما رأى نائب الملك أن الفارسين أعطيا إشارة بعودتهما للاحتكاك، اعترض طريقهما فاصلاً بينهما، وسألهما ما السبب الذي يدفعهما للقتال؟ أجابه فارسُ القمر الأبيض أنها مسابقة جمال، وفي عبارة مختصرة قال له ما سبق أن قاله لدون كيخوتي، وأنهما قد قبلا الشروط المتبادلة فيما بينهما حول المعركة، اقترب نائب الملك من دون أنتونيو، وسأله عمن يكون فارس القمر الأبيض؟ وعما إذا كان ملعوبًا منهم ضد دون كيخوتي. أجابه دون أنتونيو أنه لا يعرف من يكون، وأن ليس ثمة ملعوب. هذه الإجابة وضعت نائب الملك في حيرة عما إذا كان يتركهما يتبارزان أم لا يتركهما يفعلان، ولكن لم يستطع أن يقتنع سوى أن الأمر لا يعدو مجرد خدعة، فابتعد عن طريقهما قائلاً:

– أيها السيدان الفارسان، إذا لم يكن هنا حل سوى الاعتراف أو الموت؛ فإن كليكما في كامل قواه العقلية، وأعانكما الله!

شكر فارس القمر الأبيض بعبارات مهذبة وذكية نائب الملك إذنه لهما، وفعل دون كيخوتي نفس الشيء، وأسلم نفسه لله من كل قلبه، ولسيدته دولثينيا (كما كانت عادته عند بدء المعارك التي كانت تعرض له)، عاد لتعديل موقفه في الميدان، لأنه رأى أن خصمه يفعل نفس الشيء، ودون قرع طبول أو أي آلة أخرى حربية، أدار كل منهما عنان فرسه في نفس اللحظة، وكما كان جواد فارس القمر الأبيض أخف، وصل إلى دون كيخوتي قاطعًا ثلثي السباق بين طرفي الميدان مصطدمًا بدون كيخوتي بقوة جبارة إلى حد أنها أسقطت روثينانتي ومعه دون كيخوتي في الأرض سقطة خطرة، وواضعًا رمحه فوق خوذته، قال له:

– ها أنت مهزوم أيها الفارس بل ميت إذا لم تعترف بشروط مبارزتنا. دون كيخوتي مطحونًا ومصعوقًا، دون أن يرفع غطاء الوجه للخوذة، وكما لو كان يتحدث من وراء جدران القبر، وبصوت ضعيف ومريض، قال:

– دولثينيا دل توبوسو هى أجمل امرأة فى العالم، وأنا أكثر فرسان الأرض تعاسة، وليس من الخير أن يغش ضعفى هذه الحقيقة، اضغط أيها الفارس رمحــك، وانتزع منى الحياة، فقد انتزعت منى الشرف.

قال فارس القمر الأبيض:

– هذا لن أفعله أنا بكل يقين، يحيا، يحيا بكامل شهرته جمال السيدة دولثينيا دل توبوسو، وفقط يكفينى أن ينسحب دون كيخوتى الأكبر إلى قريته لمدة عام، أو للوقت الذى أحدده، كما اتفقنا قبل دخول هذه المعركة.

سمع كل هذا نائب الملك ودون أنتونيو مع كثيرين آخــرين كــانوا هنــاك، وسمعوا أيضًا أن دون كيخوتى أجابه بأنه كما لا يطلب منه شيئًا يمس دولثينيــا دل توبوسو، فإنه سوف ينجز كل الشروط بوصفه فارسًا منضبطًا وحقيقيًــا. وبعــد أن أدلى بهذا الاعتراف، أدار فارس القمر الأبيض عنان جواده، وحنى رأسه احترامًــا لنائب الملك، وبرمح متوسط اختفى داخل المدينة.

أمر نائب الملك دون أنتونيو أن يسرع وراءه، وبكل طريقة ممكنة، لا بد أن يعرف من هو. أنهضوا دون كيخوتى وكشفوا غطاء وجهه، ووجدوه عديم اللــون، ومغطى بالعرق، روثينانتى لسوء حالته لم يستطع أن يتحرك حينذاك. سانشو، كلــه حزن، وكله كآبة، لم يعرف ماذا يقول، وماذا يفعل، بدا له أن كل هذا الحادث ليس إلا حلمًا، وأن كل ما يراه ليس إلا فعل السحر. كان يرى سيده مستسلمًا، ومجبــرًا على عدم مقارعة السلاح لمدة عام، وتخيل انطفاء نور مجد مآثره، وآمال وعــوده الجديدة قد تحولت، كما يتبدد الدخان فى الهواء. كان يخــشى إن لــم يــتم شــفاء روثينانتى أن يبقى عاجزًا، وهل سيده مخلع الجسم سوف يبقى مخلع الجسم؟ أخيرًا فى مقعد له يدان أمر بإحضاره نائب الملك، حملوه إلى المدينة، مع الرغبــة فــى معرفة من هو فارس القمر الأبيض، الذى ترك دون كيخوتى فى أسوأ حالــة مــن انهيار الروح.

الفصل الخامس والستون

حيث تتم معرفة فارس القمر الأبيض مع تحرير دون جريجوريو، ووقائع أخرى

طارد دون أنتونيو مورينو فارس القمر الأبيض، وتابعه، بل طارده صبيان كثيرون حتى أحاطوه فى فندق صغير داخل المدينة. دخل الفندق دون أنتونيو وراءه على أمل معرفته. خرج خادم لاستقباله، ونزع سلاحه، وأغلق على نفسه صالة صغيرة ومعه دون أنتونيو، الذى كان نافد الصبر لمعرفة من كان، وعندما رأى فارس القمر الأبيض، أن ذلك الفارس لن يتركه، قال له.

– اعرف جيدًا، ياسيدى، ماجئت من أجله، وهو معرفة من أكون؛ ولأنه لا يوجد سبب لإنكار شخصى عنك، فإنه خلال قيام خادمى هذا بنزع سلاحى، فإنى سأقول لك كل شيء، دون ترك أى تفصيلة. اعرف، أيها السيد، أنهم يطلقون علىَّ حامل البكالوريا شمشون كارَّاسكو؛ وأنا من نفس قرية دون كيخوتى دى لامانشا، الذى أثار فينا جميعًا الحزن والإشفاق، نحن كلِ من نعرفه، بسبب جنونه وسفاهته، وأكثر هؤلاء هو أنا، ومعتقدًا أن صحته فى أن يستريح وأن يوجد فى قريته وفى بيته، دبرت حيلة لتحقيق ذلك، وهكذا منذ ثلاثة شهور خرجت إلى الطريق باعتبارى فارسًا مشَّاء مسميًا نفسى فارس المرايا، بنية القتال معه وهزيمته، دون أن أصيبه بأذى، واضعًا شرطًا للقتال بأن يكون المهزوم تحت أمر الغالب، وما كنت أفكر

فى طلبه (لأنى اعتبرته بالفعل مهزومًا) كـــان العودة إلى قريته وألا يخـــــرج منهـــا عامًا كاملاً، الوقت الكافى لإمكانية شفائه، لكن الحظ شاء أمرًا آخر، لأنه هو الذى هزمنى وأسقط جوادى، وهكذا لم تفلح فكرتى، وواصل هـــو طريقه، وأنا عدت مهزومًا، جبانًا، مطحونًا من سقطتى، والتى كانت فوق ذلك خطيرة، لكن ليس بسبب ذلك تخليت عن فكرة العودة للبحث عنه، وهزيمتــه كما رأيت اليوم. وكما أنه شديد الدقة فى تنفيذ تعليمات الفروسية المشّاءة، فإنه من المؤكد سوف ينجز كلمته. هذا هو، يا سيدى، كل شىء، ملتمـــسًا مـــن فخامتكم ألا تكشفوا أمرى، ولا تقولوا لدون كيخوتى من أنا، حـــتى تتحقـــق أفكارى الطيبة، ويعود لاستعادة عقله الرائع لو خرجت منه سفاهات الفروسية.

قال دون أنتونيو:

– أوه، أيها السيد، غفر الله لك الإساءة التى اقترفتها ضد كل العالم فى رغبتـــك أن يعود عاقلاً ألطف مجنون فيه. ألا ترى، أيها السيد، أن جدوى تعقل دون كيخوتى لن تستطيع قط أن تبلغ السرور الذى يبثه بفساد عقله؟ لكن أتخيل أن تحايل السيد بكالوريا لن يكون مجديًا فى أن يعيد إلى العقل رجلاً بلـــغ فى الجنون مداه. وإن لم يكن قاسيًا، فإنى أقول لك إن دون كيخوتى لن يـــشفى أبدًا، لأنه ليس فقط بصحته سوف يفقد ملاحته وظرفه، بل ملاحة وظـــرف سانشو بانثا خادمه، فإن كل أملوحة له قادرة على إبهاج الحزن نفسه. مـــع كل هذا سأسكت، ولن أقول له شيئًا، لأرى عما إذا كنت صادقًا فى شكى فى نجاح مسعى السيد حامل البكالوريا كارّاسكو.

وأجاب هذا، بأن الأمر بالفعل فى لحظة ناجحة بها ينتظر حدثًا سعيدًا، عرض عليه دون أنتونيو خدماته، وودعه، وفعلاً حمل أسلحته فوق بغل، وفوق الجواد الذى دخل به المعركة خرج من المدينة فى نفس اليوم، وعاد إلى قريته دون أن يحدث له شيء يستحق الذكر فى هذه القصة الحقيقية. حكى دون أنتونيو إلى نائب الملك كل ما حكاه له كاراسكو، الأمر الذى لم يسره كثيرًا، لأنه باختفاء دون كيخوتى عن جنونه سيفقد كل أولئك من لديهم خبر بجنونياته ما كان يمكنهم نيله بوجوده.

أمضى دون كيخوتى فى السرير ستة أيام ضعيفًا متهالكًا، حزينًا متفكرًا، وسيئ الحال متقلبًا ذاهبًا آيبًا فى الواقعة التعيسة لهزيمته، وكان سانشو يعزيه، وبين عبارات أخرى كثيرة قال له:

– سيدى، ارفع فخامتكم الرأس، وابتهج، إذا أمكن، وقدم الشكر للسماء، أن أسقطكم على الأرض، وأن لم تخرج بضلع مكسور، فأنت تعرف أن مايهبونه، يأخذونه، وأنه لا يحتاج لتسليك أسنانه من لديه شحم الخنزير، واثقب عين الطبيب (حيث إنه ليس ضروريًا حتى يعالجك من مرضك هذا)، ولنعد إلى بيتنا، ولنترك مشينا فى الأرض والقرى بحثًا عن مغامرات نجهلها، وإذا اعتبرنا جيدًا، فأنا هنا الخاسر الأكبر، مع أن فخامتكم المطحون أكثر. فقد هجرت مع الحكومة الرغبات فى أن أصير حاكمًا مرة أخرى، ومع ذلك لم أفقد الرغبة فى أن أصير (كونت)، الأمر الذى لن يتحقق إذا لم تصر فخامتكم ملكًا، تاركًا ممارسة فروسيتك، وهكذا تتحول آمالى إلى دخان.

– اسكت سانشو، فأنت ترى أن حبسى واعتزالى لن يتجاوز العام، بعدها أعود إلى عملى المكرم، ولن أعدم كسب مملكة، ومقاطعة كونت لأهبها لك.

قال سانشو:

– سمع الله منك، وليكن الإثم أصم، فدائمًا سمعت قولهم: "إن أملاً طيبًا، خير من أملاك فانية".

كان هذا يدور بينهما عند دخول دون أنتونيو، قائلاً في ابتهاج كبير يبدو عليه:

– بشرى طيبة أيها السيد دون كيخوتى، فإن دون جريجوريو والمرتد الذى ذهب من أجله قد وصلا الشاطئ الإسبانى هنا فى برشلونة. هل أقول فى الميناء؟ لا، بل فى بيت نائب الملك، وسيكون هنا فى الحال.

ابتهج دون كيخوتى بعض الشيء، وقال:

– فى الحقيقة، إننى أود القول إنه يسعدنى أن خرج كل شيء معكوسًا، لأننى لست مجبرًا على الذهاب إلى بلاد البربر، حيث بفضل قوة ساعدى كنت سأحرر ليس فقط دون جريجوريو، وإنما كل المسيحيين الأسرى هناك. لكن، ماذا أقول، أنا البائس؟ ألست أنا المهزوم؟ ألست أنا من أسقط بجواده؟ إذن، ماذا أعد؟ بأى شيء أثنى عليَّ، إذا كان عليَّ أن أستعمل آلات الفلاحة بدلاً من السيف؟

قال سانشو:

– اترك هذا، يا سيدى، تحيا الدجاجة حتى بلسان لا يصيح، فاليوم عليَّ وغدًا لى، وفى هذه الأشياء الخاصة بالقتال واللقاء، لا داعى للحساسية فيها، فمن يسقط اليوم يمكن أن ينهض غدًا، وإذا لم يكن الأمر سوى رغبة فى البقاء فى السرير، فلنترك الإغماء لاستعادة البريق من أجل معارك جديدة. انهض فخامتكم الآن لاستقبال دون جريجوريو، إذ يبدو لى أن الناس تثير زعيقًا وضجيجًا، ولابد أنه فى البيت.

وكانت هذه هى الحقيقة، لأنه بمجرد أن أعطى دون جريجوريو والمرتد تقريرًا لنائب الملك عن رحلة الذهاب والإياب، جاء دون جريجوريو، وقد برح به الشوق لرؤية أنا فيلكس، ومعه المرتد إلى بيت دون أنتونيو؛ ومع أن دون جريجوريو عندما أخرجوه من مدينة الجزائر كان فى ثياب امرأة، فإنه بادلها فى المركب بملابس أسير خرج معه، ولكن فى أى مشهد ظهر، كان شخصًا جديرًا بالتقدير والاحترام وتقديم الخدمات له والطمع فيه، لأنه كان وسيمًا فوق العادة، والعمر بين السادسة عشر والثامنة عشر. خرج ريكوتى وابنته لاستقباله، الأب بالدموع والابنة فى عفة. لم يتعانقا، لأن فرط الحب يورث الحياء، الجمالان معًا، جمال أنا فيلكس ودون جريجوريو أثارا عجب كل الحاضرين. الصمت هناك من تحدث على لسان العاشقَيْن، وكانت العيون هى الألسنة التى كشفت عن أفكارهما الشريفة. حكى المرتد حيلته وصنعته التى بها أخرج دون جريجوريو من أسره، حكى دون جريجوريو الأخطار والضغوط التى رأى نفسه فيها مع النساء اللاتى بقى معهن، لم يحتج لكلمات كثيرة، وإنما قال كل شىء باختصار يبرهن على أن ذكاءه يتقدم عمره. وأخيرًا، دفع روكى فى سخاء للمرتد ومن كان معه حتى أرضاهم، عاد المرتد للانضواء تحت لواء الكنيسة، ومن ابن ضال لها عاد نقيًا بفضل التوبة والندم.

ومنذ تلك اللحظة ولمدة يومين فكر دون أنتونيو ونائب الملك فى الطريقة التى تسمح لأنا فيلكس وأبيها بالبقاء فى إسبانيا، لرؤيتهما أنه ليس من المناسب ألا يبقى بها ابنة بهذا القدر من التقوى المسيحية، وأب يبدو كذلك طيب النية. عرض دون أنتونيو الذهاب إلى البلاط للتفاوض حوله، حيث عليه الذهاب بالضرورة لشئون أخرى، شارحًا أنه بفضل الهدايا والمجاملات يتم حل أشياء كثيرة متعسرة.

قال دون ريكوتى، الذى كان حاضرًا هذا الحوار:

– لا ينبغى انتظار المجاملات والهدايا، لأنه مع دون بيرنـاردينو دى بيلاسـكو العظيم الذى وضع جلالة الملك على عاتقه أمر طردنا لا تفيد الرجاءات أو الوعود، ولا الهدايا أو الآهات، لأنه مع حقيقة أنه يخلط العدالة بالرحمة، فإنه يرى أن جسم كل أمتنا فاسد وملوث، ويستعمل معه الدواء الكاوى الذى يحرق قبل المرهم الذى يلين. وهكذا، بالفطنة والدهاء، وبالمسعى، وبالرعب الذى يبثه، حمل على عاتقه القوى بالتنفيذ الواجب ثقل هذه المهمة، دون أن تستطيع حيلنا، واستراتيجياتنا، وإلحاحنا، وغشنا، أن تضيء عيون أرجوس، التى يفتحها باستمرار فى تيقظ، حتى لا يبقى أو يستتر أى من أهلنا، مثـل الجذر المختبئ، الذى بمرور الوقت يعود للإنبات، وإخراج ثمـار سـامة فى إسبانيا، التى هى الآن نظيفة وخالية من هموم أن تستولى عليها جمهرتنا. قرار بطولى من فيليب الثالث العظيم، وفطنة غـير مـسبوقة فى تكليـف دون بيرناردينو دى بيلاسكو بتنفيذه!

قال دون أنتونيو :

– بالفعل، سأفعل المساعى الممكنة، والسماء المباركة فلتفعل ما تشاء، سـيذهب معى دون جريجوريو، للتسرية عن الألم الذى سببه غيابه لوالديه؛ وأنا فيلكس ستبقى مع زوجتى فى بيتى، أو فى دير وأنا أعلم أن السيد نائب الملك سيسره استضافة دون ريكوتى الطيب فى بيته، حتى نرى كيف سأفاوض.

وافق نائب الملك على كل ما اقترح؛ لكن دون جريجوريو، وقد عرف بكـل ما يجرى، قال إنه بأى حال من الأحوال لا يستطيع أو يود أن يترك أنـا فـيلكس،

لكن لنيته رؤية والديه، ثم الاحتيال للعودة من أجلها، كان موافقًا لما اتفــق عليــه، وبقيت أنا فليكس مع زوجة دون أنتونيو، وريكوتى فى بيت نائب الملك.

ووصل يوم رحيل دون أنتونيو، ورحيل دون كيخوتى وسانشو، وكان بعــد رحيل دون أنتونيو بيومين، فإن السقطة لم تسمح لدون كيخوتى أسرع من ذلك فى أن يشرع فى اتخاذ طريقه. كان هناك دموع وتنهد وإغماء ونحيب عندما ودع دون جريجوريو (أنا فيلكس). قدم دون ريكوتى ألف دينار لــدون جريجوريــو، إذا أراد حملها، لكنه رفض أى نقود، إلا خمسة دنانير أقرضها لــه دون أنتونيــو واعــدًا بإعطائها له فى البلاط. وبهذا رحل الاثنان، وبعدهما دون كيخوتى منزوع السلاح، وبملابس الطريق، وفى صحبته سانشو على قدميه حيث حمل الحمار أسلحة سيده.

الفصل السادس والستون

عبارة عما سيراه من يقرأه، أو ما يسمعه من ينصت لمن يقرأه

عند خروج دون كيخوتى من برشلونة عاد لمشاهدة المكان الذى سقط فيـــه، قال:

– هنا كانت طروادة! هنا تعاستى وليس جبنى، ذهب هـــذا المكـــان بأمجـــادى المنجزة، هنا استعمل الحظ معى دوراته وانقلاباته. هنا أظلمت مآثرى، هنـــا فى الآخر سقط نجمى حتى لا ينهض أبدًا.

وعند سماع سانشو له قال:

– إن القلوب الشجاعة تتحمل معاناة النكبات، وبهجة الازدهار، وهـــذا أراه فى نفسى، فعندما كنت حاكمًا كنت مبتهجًا، والآن أنا خادم وأسير على قدمى ولست حزينًا، لأنى سمعتهم يقولون إن إلهة الحظ امرأة سكيرة هوائية، وفوق كل هذا عمياء، هكذا لا ترى ما تفعل، فهى لا تدرى من أسقطت، ومـــن أسعدت.

أجاب دون كيخوتى:

– أنت فيلسوف جدًّا، سانشو، تتكلم فى منتهى الذكاء، لا أدرى من علمـــك هذه الكياسة، وما أعرف أن أقوله لك، إنه لا يوجد الحـــظ فى العـــالم، ولا الأشياء التى تتم بأمره، سواء أكانت طيبة أو سيئة، فمهما كانت فإنها تـــأتى

من عناية سماوية خاصة، ومن هنا يأتى ما اعتادوا قوله، من أن كل واحـــد صانع لحظه. وقد كنت صانع حظى، ولكن ليس بالدهاء الضرورى؛ ولهذا خرج حظى فى متوالية هندسية تصاعدت مع غرورى، فقد كان من واجـــبى أن أفكر أن الضخامة الجبارة لجواد فارس القمر الأبيض ما كـــان لنحافـــة روثينانتى أن تواجهها. وتهورت فى النهاية، وفعلت ما استطعت، وأسقطونى، ومع أننى فقدت الشهرة، لم أفقد، ولا أستطيع أن أفقد، فضيلة إنجاز كلمتى. عندما كنت فارسًا مشّاء، جسورًا وشجاعًا، فإننى كنت أنـــال المـــصداقية بأعمالى وأفعالى، والآن، حال كونى مجرد حامـــل دروع راجـــل، ســـأعطى مصداقية لكلماتى، منجزًا ما أعطيت من وعدى. سر، إذن، صديقى سانشو، وهيا نقضى فى مسقط رأسنا عام الراهبين المستجدين، وفى سجنه سوف ننال قيمة جديدة تعيننى على العودة إلى مالا أنساه أبدًا من مقارعة السلاح.

أجاب سانشو:

– سيدى، ليس شيئًا فى غاية اللذة السير على القدمين، حتى يحركنى ويـــستثيرنى لقضاء أيام طيبة، فلنترك هذه الأسلحة معلقة فى شجرة، فى مكان مشنوق، فأشغل أنا ظهر حمارى، من ثَم، عن الأرض سوف ترتفع أقدامى، ولنـــصنع أيامنا كما تطلبها فخامتكم وتقيسها، فإن التفكير فى السير على القـــدمين، وعيش أيام طيبة فى نفس الوقت هو تفكير فى الفراغ.

أجاب دون كيخوتى:

– لقد أحسنت القول، سانشو، فلتعلقوا أسلحتى تذكارًا، وتحت أقـــدام هـــذا النصب التذكارى أو حوله، فلنحفر فى الشجر ما كـــان مكتوبًـــا علـــى النصب التذكارى لأسلحة رودان.

أجاب سانشو:

- كل هذا يبدو لى لآلئ، ولولا ما بقى لنا من طريق، كان من الخير أيضًا تـرك روثينانتى معلقًا معها.

أجاب دون كيخوتى:

- إذن لا هو ولا السلاح أحب لهما أن يشنقا، حتى لا يقال مقابل الخدمة الطيبة جائزة سيئة.

أجاب سانشو:

- ما أحسن قول فخامتكم؛ لأنه حسب رأى الأذكياء، لا ينبغى محاسبة البردعة على ذنب الحمار، ومن ثم ففخامتكم يقع عليك ذنب هذه الواقعة، فعاقـب نفسك، ولا تفجر غضبك على أسلحة مدمرة ودامية، ولا علـى وداعـة روثينانتى، ولا على طراوة قدمى، حين لا ترغبان فى السير أكثر من المعقول.

فى هذا الحديث ومع تلك العبارات انقضى كل ذلك اليوم، بل أيـام أربعـة أخرى، دون أن يحدث لهما شىء يعوق الطريق، وفى اليوم الخامس، عند مـدخل إحدى القرى، وجدا على باب فندق صغير جمهرة من الناس، كانت تتمالح هنـاك لأنه يوم عيد، عندما وصل إليهم دون كيخوتى، رفع أحد الفلاحين صوته قائلاً:

- أحد هذين السيدين القادمين اللذين لا يعرفان التفاصيل، سيقول لنا ما ينبغى عمله فى هذا الرهان.

أجاب دون كيخوتى:

- بالتأكيد سأقوله، فى كل الاستقامة، إذا فهمت ما تريدون.

قال الفلاح:

– المسألة، أيها السيد الطيب، أن أحد أبناء هذه القرية، سمين إلى حد أنه يــزن إحدى عشرة ربعة، تحدى أن يسبق جارًا له، لا يزن أكثر من خمس ربعات. كان شرط السباق الجرى مائة خطوة بوزن متساو، وعند سؤال من طــرح التحدى كيف يمكن مساواة الوزن، قال إن الخصم الذى يزن خمس ربعات عليه أن يحمل ست ربعات من الحديد، وهكذا يتساوى وزن النحيف مــع وزن السمين.

قال سانشو عند هذا قبل أن يجيب دون كيخوتى:

– هذا لا، وبالنسبة لى فقد كنت منذ أيام قليلة حاكمًا وقاضيًا، كما يعرف العالم كله، ولهذا، فالإجابة تقع على عاتقى لتبديد الشكوك، وإبداء الرأى فى أى خلاف.

قال دون كيخوتى:

– على الرحب والسعة، قدم الإجابة، سانشو صديقى؛ فأنا لست فى حالة تسمح لى باستخراج لب الخبز للقط، فعقلى مضطرب ومشوش.

وبهذا الإذن قال سانشو للفلاحين، الذين تحلقوا حوله، بشفاه منفرجــة فــى انتظار حكمه:

– أيها الإخوة، ما يطلبه السمين ليس له مكان، ولا يحمل أى ظل للعدل، لأنه لو كان حقيقيًا ما يقال إن الخصم الذى يقع عليه التحدى من حقــه اختيــار السلاح، فليس خيرًا أن يختار من تحدى هنا طريقة المساواة، لأنها تمنع الخصم

وتعوقه ليأخذ فرصة الانتصار، ومن هنا فإنى أرى السمين المتحدى ملزمًا بتقشير بعض ثقله وتشذيبه والاختيار بين هذا والوضع المهذب المشذب أو أن ينزع ست ربعات من لحمه من هنا أو هناك كما يبدو له أفضل، وبهذه الطريقة يبقى وزنه خمس ربعات ويتساوى مع وزن الآخر، وبالتالى سوف يجريان بوزن متساوٍ.

قال أحد الفلاحين ممن استمعوا لحكم سانشو:

– أقسم على أن هذا السيد قد تكلم مثل قديس، وحكم مثل قضاة الكنيسة! لكن، يقينًا، فإن السمين لن يحب أن ينزع أوقية واحدة من لحمه فضلاً عن ست ربعات.

أجاب آخر:

– الأفضل ألا يتسابقا، حتى لا يطحن النحيف بالثقل، ولا السمين بنزع لحمه، ولنصرف نصفَ الرهان على النبيذ ولنحمل هذين السيدين إلى حانة حيث الأغلى من الأنبذة، وعلى مسئوليتى(*)... والكأس عندما تمطر.

أجاب دون كيخوتى:

– أنا، أيها السادة، أشكركم، لكنى لا أستطيع التوقف لحظة، لأن الفكر وأحداثًا حزينة تجعلنى غير مجامل، وتدفعنى نحو السير مواصلاً الخطى.

(*) هناك عبارة ناقصة غالبًا ساخرة ترك على عاتق القارئ استنتاجها، ولعلها تكمن فى دلالة (الكأس عندما تمطر)، أى يحلو الكأس عندما يكون مجانيًا مثل المطر.

وهكذا همز روثينانتى، وتقدم تاركًا لهم فى عجبهم من رؤية صورته الغريبة وملاحظتها، ومن ذكاء خادمه، وكان ذلك حكمهم على سانشو. وآخر من الفلاحين قال:

– إذا كان الخادم بهذا الذكاء، فكيف يكون السيد؟ إنى أراهن أنهما ذاهبان للدراسة فى سلمنقة، وأنهما على وشك الحضور ليصيرا قادة فى البلاط، وكل شىء خادع ماعدا الدراسة، ومزيدًا من الدراسة، ونيل ميزة وحظ، وعندما لا يرد على خاطر الإنسان، يجد نفسه بصولجان فى اليد، وتاج أسقفى على الرأس.

تلك الليلة قضياها سيدًا وصبيًا فى عراء الريف، وفى اليوم التالى واصلا طريقهما فرأيا رجلاً مقبلاً نحوهما سيرًا على الأقدام، حاملاً خرجًا على رقبته، وسوطًا أو كرباجًا فى يده، نفس هيئة عامل البريد الراجل، والذى عندما اقترب من دون كيخوتى أسرع فى خطاه وتقدم إليه واحتضنه من فخذه الأيمن حيث إن طوله لم يدرك أكثر من ذلك، وقال مع علامات بهجة كبيرة:

– أوه، سيدى دون كيخوتى دى لامانشا، وأى سرور سيدخل على قلب سيدى الدوق إذا عرف أن فخامتكم تعود إلى قلعته، التى ما زال بها مع سيدتى الدوقة.

أجاب دون كيخوتى

– لا أعرفك أيها الصديق، ولا أدرى من أنت إذا لم تقل لى.

أجاب عامل البريد:

– أنا، سيدى دون كيخوتى، توسيلوس، خادم سيدى الدوق، من لم يحب القتال معك حول زواج ابنة دونيا رودريجيث.

قال دون كيخوتى:

– ليرحمنى الله ! هل من الممكن أنك الذى حوله السحرة أعدائى إلى ذلك الخادم الذى تقول عنه، لغشى فى نيل شرف تلك المعركة.

أجاب عامل البريد:

– اسكت من فضلك، لم يكن هناك أى سحر، ولا أى تغيير للوجه، إن ذلك الخادم توسيلوس هو أنا الذى دخل المبارزة، وهو نفس الخادم توسيلوس الذى خرج منها. لقد فكرت فى الزواج دون قتال، عندما بدت لى حلاوة الصبية؛ لكن وُقع لى عكس ما تمنيت، فهكذا كما أن فخامتكم قد رحلت من قلعتنا، الدوق سيدى ضربنى مائة عصا، لأنى خالفت أوامره التى سبق وأعطاها لى قبل دخولى المعركة، وكل شىء انتهى بأن صارت الفتاة راهبة، ودونيا رودريجيث عادت إلى قشتالة، وأنا الآن متجه لبرشلونة لحمل حزمة من الخطابات لنائب الملك، يرسلها إليه سيدى. إذا أحببت فخامتكم جرعة شراب فإن معى قرعة مليئة بالنبيذ، ومع أنه ساخن، فإنه نقى ومن الغالى الجيد، وأيضًا أحمل جبنًا من لذائذ قرية ترونشون، سوف تكون مثيرة وموقظة للظمأ، إذا كان فى حالة سبات ونوم.

قال سانشو:

– أحب الورقة الرابحة وألق بما تبقى من مجاملات، وابق دائمًا توسيلوس الطيب رغم أنف وعلى غير رضا كل سحرة الأمريكتين.

قال دون كيخوتى:

– فى النهاية، أنت سانشو، أكبر نهم فى العالم، وأعظم جاهل على الأرض، فأنت غير مقتنع بأن هذا العامل للبريد مسحور، وأن توسيلوس ليس توسيلوس، ابق معه، املأ كرشك، وأنا سأذهب متقدمًا ببطء فى انتظارك.

ضحك الخادم، واستل قرعته، وامتشق شرائح جبنة، وعند استخراجه رغيفًا اتجه مع سانشو للجلوس على الحشائش الخضراء، وفى صحبة حميمة أتيا على كل تموين الخرج، مع روح عالية وريحان، حتى إنهما لعقا حزمة الخطابات، فقط لأنها كانت تعبق منها رائحة الجبن.

قال توسيلوس لسانشو:

- لاشك، سانشو، أن سيدك هذا لابد أن يكون مجنونًا، إننى أدفع بجنونه!

أجاب سانشو:

- كيف لا بدَّ ...؟ وكيف تدفع ...؟ إن سيدى هو الذى يدفع رغم أنه ليس عليه دين لأحد، فهو يدفع لكل شيء، وخاصة عندما تكون العملة الجنون. أننى أراه جيدًا... لا بد، وأقولها بوضوح له، لكن، ماذا يستفيد؟ وخاصة الآن، فإنه لا دواء له، حيث يمضى مهزومًا من فارس القمر الأبيض.

رجاه توسيلوس أن يحكى له ما وقع له، لكن سانشو قال له إنها قلة أدب أن يترك سيده منتظرًا، وإنه فى يوم آخر إذا التقيا سيكون هناك فراغ لذلك. ونهض بعد أن نفض ثوبه، وفتافيت الخبز من لحيته، وقبض على الحمار قائلاً "وداعًا"، وترك توسيلوس، ولحق بسيده الذى كان ينتظره تحت ظل شجرة.

الفصل السابع والستون

حول قرار دون كيخوتى بأن يصير راعيًا، ليواصل حياة العراء، حتى يمر عليه الحول الذى وعد به، مع بعض الحوادث الحقيقية اللذيذة والمسلية

إذا كانت الأفكار الكثيرة ترهق دون كيخوتى قبل أن يهزم، فإنها أرهقته أكثر بعد الهزيمة. وفى ظل الشجرة كان، كما قيل من قبل، وهناك مثل تكاثر الذباب على العسل كانت تتدفق عليه الأفكار وتلدغه، بعضها حول راحة دولثينيا، والبعض الآخر حول الحياة التى عليه أن يمارسها فى انسحابه الإجبارى. وصل سانشو، وامتدح كرم توسيلوس، وقال له دون كيخوتى:

– هل من الممكن، أوه سانشو! حتى الآن أن تظنه خادمًا حقيقيًا؟ يبدو أن غادر عقلك أنك رأيت دولثينيا مرتدة ومتحولة إلى مزارعة، وفارس المرايا إلى البكالوريا شمشون كاراسكو، وكلها أعمال للسحرة الذين يطاردوننى. لكن قل لى الآن، هل سألت توسيلوس هذا! الذى تقول عنه ماذا فعل الله بألتسيدورا؟ هل بكت غيبتى؟ أو أنها تركت بين يدى النسيان مشاعر الحب التى كانت ترهقها فى حضورى؟

أجاب سانشو:

– لم تكن أحاديثى معه حول هذا، فلم يتسع المقام للسؤال عن هذه البلاهات. يا الله! سيدى، هل أنت الآن فى ظروف تسمح بالتحرى عن مشاعر آخرين، وخاصة المشاعر الغرامية؟

قال دون كيخوتى:

– انظر سانشو، هناك فرق رحب بين أعمال تمارس من أجل الحب وبين أعمال أخرى تمارس من أجل العرفان والشكر، من الممكن ألا يكون الفارس غير عاشق، لكن لا يمكن أن يكون، متحدثين بكل دقة، جاحدًا الجميل. قد أحبتنى، فيما يبدو، كثيرًا ألتسيدورا، أعطتنى الجوارب الثلاثة التى تعرفها، بكت عند رحيلى، لعنتنى وسبتنى، اشتكت، على الرغم من خزى الإعلان عن كل هذا على الملأ، إشارات على أنها كانت تعبدنى، وإن غضب العاشقين اعتاد أن ينتهى إلى اللعنات، وإن لم يكن لدى أمل فى أن أهبها كنوزًا، لأن كنوزى التى أمتلكها فى حوزة دولثينيا، وكنوز الفرسان المشّائين مثل كنوز العفاريت، ظاهرة و خدّاعة، وفقط أستطيع أن أهبها الذكريات التى حملتنى إياها، دون إساءة لذكرياتى عن دولثينيا، التى تسىء أنت إليها، بالتراخى عن جلدك، ومعاقبة لحمك هذا (الذى أراه وقد أكلته الذئاب)، والذى تود المحافظة عليه من أجل الديدان، وليس من أجل علاج تلك السيدة المسكينة.

أجاب سانشو:

– سيدى، إذا أردت قول الحق، إننى لا أستطيع أن أقنع نفسى أن جلد فخذى له أى علاقة بفك سحر السحرة، والأمر كما لو كنا نقول: "إذا كانت رأسك تؤلمك ادهن ركبتيك بالمرهم". على الأقل، أنا أجسر على الحلف أنك على كثرة القصص التى قرأتها، والتى تعالج الفروسية المشّاءة، لم تشهد قط فك سحر بالجلد، لكن بين نعم ولا، سأجلد نفسى عندما يكون عندى مزاج لذلك، والوقت يتسع فى راحة لعقاب نفسى.

أجاب دون كيخوتى:

– ربنا يسمع منك، ولتمنحك السماء عنايتها حتى تدرك واجبك الذى يسير فى اتجاه مد يد العون لسيدتى، والتى هى سيدتك، فأنت منى.

خلال هذه الدردشة كانا يواصلان طريقهما، وإذا بهما يدركان المكان الذى وطأتهما فيه الثيران، تعرف عليه دون كيخوتى، وقال :

– هذا هو المرج الذى صادفنا فيه الراعيات الجميلات والرعاة الظرفاء، والذى فيه ودوا محاكاة المجمع الرعوى لأركاديا، وإنه لتفكير جديد وذكى، ولمحاكاته، إذا بدا لك جيدًا، أود، أوه سانشو! أن ننقلب إلى رعاة، ولو حتى ذلك الزمن الذى سأقضيه معتزلاً. أنا سأشترى بعض الغنم، وكل الأشياء الأخرى الضرورية التى تلزم للحياة الرعوية، وسوف أسمى نفسى الراعى كيخوتيث، وأنت الراعى بانثينو، وسوف نتجول فى الجبال، وفى الغابات والمروج، مغنين هنا، معددين بالبكائيات هناك، شاربين من السوائل الكريستالية للينابيع، أو من النهيرات الصافية، أو من الأنهار المتدفقة. ونقطف لأنفسنا بيد الوفرة من التمر الأحلى للبلوط، والمقعد جذوع الشجر الفلينى الصلد، وظل الصفصاف، والعطر الورود، والبساط ألف لون متميز للمروج، والتنفس الهواء الشفاف والنقى، والنور القمر والنجوم، على الرغم من ظلمة الليل، يكون طرب الغناء، وبهجة البكاء، وأشعار الإله أبولو، والحب مفاهيم بها نستطيع أن نجعل أنفسنا خالدين ومشهورين، ليس فقط فى الحاضر، وإنما فى كل دهر داهر.

قال سانشو :

– يا الله! إن مثل هذا النوع من الحياة قد طوانى طيًا، بل أفلت شكيمتى إفلاتًا، وخاصة أنه يجب ألا يراه بعين طيبة البكالوريا شمشون كارَّاسكو، والأسطى نيكولاس الحلاق، بينما عليهما أن يودَّا اللحاق بنا، والعمل رعاة معنا،

ولتكن مشيئة الله، من بعد، أن يدور بخاطر القسيس الدخول أيضًا فى الحظيرة، لما هو عليه من مرح وصداقة للطرب.

قال دون كيخوتى:

– ما أحسن ما قلت، ويمكن أن يسمى البكالوريا "القديس رنين"(*)، إذا دخل نقابة الرعاة، كما سوف يفعل دون شك، ويصير الراعى سان سونينو، أو الراعى كارَّاسكون، أما الحلاق نيكولاس فيمكن أن يسمى "ميكولوسو"، مثل "بوسكان " القديم سمى "نيموروسو"، وأخيرًا القسيس، لا أدرى أى اسم نعطيه له، إذا لم يكن مشتقًا من اسمه، ولنسميه الراعى "كوريامبرو" أو "القسيس أمبرو". والراعياتَ اللائى علينا أن نصير عشاقًا لهن، يمكننا اختيار أسماء لهن كما نختار بين الكمثرى، وفيما يتعلق بسيدتى ستصير كلمة راعية مثل كلمة أميرة، وليس علىَّ أن أرهق نفسى فى البحث عن اسم آخر يناسبها، وأنت سانشو يمكنك تسمية سيدتك حسبما تشاء.

أجاب سانشو:

– لا أفكر فى إعطائها اسمًا غير "تيريزونا"، وسوف يناسب سمنتها جيدًا، ويشتق فى نفس الوقت من نفس اسمها، فهى ليست إلا "تيريزا"، وخاصة عندما أشيد بها فى الأشعار، سوف تدرك مشاعرى البريئة الطاهرة، حيث إننى لا أمشى أبحث عن خبز مستحيل فى بيوت غريبة. والقسيس لن يكون مناسبًا له أن يصاحب راعية، حتى يعطى المثل الطيب، أما البكالوريا إذا أحب مصاحبة راعية، فإنه "ملك نفسه"!

(*) تلاعب بالاسم SamsoN إلى (SansoN) ليحمل المعنى (القديس رنين) إشارة إلى أنه رغم عدم رضاه سيصير رنينا لإرادتهما إن تبعهما فى الرعى، وسيوالى اللعب بالاسم بعد قليل.

قال دون كيخوتى:

- يرحمنا الله! أى حياة سنعيش، سانشو صديقى! وأى مزامير رعوية ستصل إلى آذاننا، وأى مزامير ثامورية(*)، وأى أبواق وأى صنج سوف تصلصل، وأى ربابات ستكون! إذن، سيتميز البزق بين هذا التعدد الموسيقى، هنــاك تــتم رؤية كل آلات الرعى الصداحة الموسيقى.

سأل سانشو :

- ما هى الأبواق؟ لقد سمعتهم يذكرونها، لكنى لم أرها طول حياتى.

أجاب دون كيخوتى:

- الأبواق هى آلات نفخ تشبه الشمعدان النحاس، حيث تردد الواحدة منــها صدى الأخرى عبر تجويف مشترك، فتحدث صوتًا، وإن لم يكــن فى غايــة القبول والهرمونية فإنه لا يحدث عدم رضى، ويوافق جيدًا بــساطة المزمــار الريفية أو الطبل، واسم (البوق) موريسكى(**) مثل كل تلك الكلمات التى تبدأ (أل)، ويناسب أن نعرف:

Al mohaza . Almorzar . Alhombra . Alguacil . Alhucema . Almacen . Alcancia(***)

(*) من مدينة ثامورا.

(**) يقصد (عربى).

(***) معنى هذه الكلمات بالترتيب هو: محك الخيل، الغداء، سجادة، وزير، خزامى، مخزن، صندوق (حلى).

وكل الكلمات الشبيهة، والتي هي لا بد أكثر من هذا العدد قليلاً، وفقط لغتنا القشتالية تحتوى على ثلاث كلمات نهايتها (i) أصلها موريسكى، وهى ثلاث (Borcegui , zaquizami , Maravedi) وهناك كلمات تبدأ بالحرفين (أل)، وتنتهى بـ(i) مثل Alheli , Alfagui وتعرف بأنها كلمات عربية. أقول لك بشكل عابر لأنك حركت ذاكرتى عندما سألتنى عن البوق، ولابد أن يساعد على تحسين هذا التدريب اللغوى كونى بعض شاعر، كما تعرف، وكون البكالوريا (القديس رنين كارّاسكو) شاعرًا إلى المدى. عن القسيس لن أقول شيئًا إلا أننى أراهن على أنه لديه سمت الشاعر، ونفس السمت موجود عند الأسطى نيكولاس، لا شك، لأن كل الحلاقين أو أغلبهم عازفو جيتار، ومؤلفو أدوار يغنونها. وأنا سوف أشكو من البين، وأنت سوف تفخر بنفسك لكونك عاشقًا تليد العشق، والراعى كارّاسكون لكونه عاشقًا منشقًا والقسيس كوريامبرو سوف يكون فى شعره ما لا يصلح لغيره(*)؛ وهكذا سوف يسير الأمر، ولا شيء أفضل من ذلك نرغبه.

وعلى هذا أجاب سانشو:

– أننى يا سيدى متعوس إلى حد أننى أخشى عدم وصول اليوم الذى ترانى فيه أعيش هذا، أوه أيتها الملاعق المشحوذة التى علىَّ أن أصنع عندما أرانى راعيًا! أى لب خبز أى زبد، وأى غار، وأى ترهات رعوية، فعلى الرغم من أهم أكسبونى شهرة لأنى ذكى، فإنهم لن يتركوا تتويجى عبقريًا! سانشيكا، ابنتى، سوف تحمل الطعام حتى الكوخ. لكن، انتظر! هل يكون ذلك من

(*) أى قسيس وربما يقصد (راعى) لترادف الكلمتين (قسيس/ راعى) فى الإسبانية، وربما فى العربية أيضًا، مفهوم متشابه بين الأديان الكتابية.

الصواب، وهناك رعاة خبثاء أكثر من الرعاة البسطاء، فهل أود أن تأتى بصوفها، وتعود وقد قصوا لها الصوف؟ وأيضًا أنواع الحب وأنواع الرغبات غير النظيفة، وقد تعودت التنزه فى الريف والمدن على حد سواء، وفى الأكواخ الرعوية تماما مثل القصور الملكية، لكن إذا زال السبب زال الإثم، وعندما لا ترى العيون، لا تعشق القلوب، والهرب خير من مساعى الطيبين فى إصلاح العطب.

قال دون كيخوتى:

- لا أمثال أكثر، فمثل واحد فقط مما قلت يغنى لتوضيح ما تفكر فيه، وقد نصحتك مرات كثيرة بألا تكون كريمًا جدًا فى سوق الأمثال، وأن تضعها فى مكانها حين قولها، لكن "يبدو لى أننى أعظ فى الصحراء"، و"أمى تعاقبنى وأكررَ إغضابها".

أجاب سانشو:

- يبدو لى أن فخامتكم مثل الذى يقال "قالت الطاسة للغلاية يا رغاية". فأنت تنفر من قولى الأمثال ثم تنظمها فخامتكم اثنين اثنين.

قال دون كيخوتى:

- انظر، سانشو، أنا أستعملها بما يناسب المقام، وتأتى عندما أقولها مثل الخاتم فى الإصبع، لكنك تستعملها خبط عشواء، تسحبها واحدًا وراء الآخر دون أن توجهها، وإذا لم أكن سيئ التذكر، فى مرة سابقة قلت لك إن الأمثال عبارة عن أحكام مختصرة، مستخرجة من خبرة حكمائنا الأقدمين وتأملهم، والمثل الذى لا يناسب المقام هو ترهة أكثر منه حكمًا. لكن دعنا من هذا، فقد جاء الليل، ولننحرف عن الطريق الملكى بعض الخطوات حيث نقضى هذه الليلة، والله يعلم ما سيكون غدًا.

وأخذوا لهم مكانًا بعيدًا عن الطريق، وتناولوا عشاء سيئًا ومتأخرًا، مضادًا تمامًا لذوق سانشو وإرادته، حيث كانت تتمثل له حياة الضيق للفروسية المشاعة داخل الغابات والجبال، في مقابل حياة الوفرة التي تبدو مظاهرها في القلاع والبيوت، مثل بيت دون دييجو دي ميراندا، وأيضا في مثل زفاف كاماتشو الغني وبيت دون أنتونيو، لكنه استراح إلى عبرة استحالة دوام الليل أو النهار، وهكذا مضى تلك الليلة نائمًا، بينما سيده ساهرًا.

الفصل الثامن والستون
عن المغامرة الخنزيرية التى وقعت لدون كيخوتى

كانت الليلة مظلمة بعض الشيء رغم وجود القمر فى السماء، لكن بشكل يحول دون رؤيته، وربما كانت السيدة ديانا فى طريقها للتنزه فى الجانب الآخر من العالم، فتركت الجبال سوداء والوديان معتمة. استجاب دون كيخوتى لرغبة الطبيعة، فراح فى النوم الأول دون أن يفسح مكانًا للنوم الثانى، على عكس سانشو تمامًا الذى لم يعرف النوم الثانى قط، لأن النوم الأول كان يدوم دفعة واحدة طول الليل وحتى الصباح، وخلال ذلك النوم كان يظهر طبيعته السمحة، وخلو باله من الهموم، أما طبيعة دون كيخوتى وهمومه فقد دفعته للسهر بطريقة أيقظت سانشو، فقال له:

– كم أنا مبهور، سانشو، بالحرية التى تميز ظرفك، أنا أتخيل أنك مصنوع من المرمر، أو من البرونز الصلب، حيث لا مجال هناك يتسع لأى حركة أو شعور، أنا أسهر عندما تنام أنت، وأنا أبكى حين تغنى، وأنا يغشى علىَّ من الجوع، بينما أنت كسول تتراخى من فرط الشبع، والخادم المخلص يشارك آلام سيده ويحس بأحزانه، وربما يبتهج لابتهاجه. تأمل فى هدوء هذا الليل، والوحشة التى تحتوينا، وتدعونا أن نراقب متأملين قاطعين النوم بين الحين والحين. انهض، وحق حياتك، وانحرف قليلاً عن هذا المكان واجلد نفسك ثلاثمئة جلدة أو أربعمئة من حساب جلدات فك سحر دولثينيا، وهذا منى رجاء وتوسل، فلا أحب استعمال القوة

الأخرى، فليس هذا يسرك، وبعد أن تتم جلدك، فلنغنِّ بقية الليل، أنــا أغــنى فراق الحبيب، وأنت تغنى ولاءك الثابت لزوجتك، وهكذا نعطى بدايــة طيبــة لحياة الراعى، التى علينا ممارستها فى قريتنا.

أجاب سانشو:

– سيدى، لست رجل دين من الرهبان حتى تــوقظنى فى منتــصف أحلامــى لتجلدنى، وأفظع من ذلك كيف تتصور أن يغنى من يتــألم مــن الجلــد؟ فخامتكم دعنى أنام، ولا تضغط علىَّ فى أمر الجلد، حتى لا أقسم بألا أمس جلد ثوبى فضلاً عن لحمى.

– أوه أيتها النفس المتحجرة! أوه أيها الخادم غير الرحيم! أوه يا خائن العــيش والإنعامات التى منحتها لك وأفكر فى منحها! من أجلــى رأيــت نفــسك حاكمًا، وبى ترى نفسك مع آمال قريبة لتكون (كونت)، أو تنال لقبًا آخر مساويًا، ولن يتأخر إنجاز ذلك أكثر من تأخر مرور هذا العام؛ فإنى أنتظــر نورًا بعد هذه الغياهب.

أجاب سانشو:

– لا أفهم هذا، فقط أفهم أنه خلال النوم لا أشعر بخوف أو أمــل أو عمــل أو مجد، وما أحسن من اخترع النوم، ثوب يغطى كل التفكير الإنسانى، وطعام يزيل الجوع، وماء يطفئ الظمأ، ونار تدفئ البرد، وبرد يخفــف الــضرام، وأخيرًا عملة عامة تشترى بها كل الأشياء، كفتى ميزان وثقل يساوى بــين الراعى والملك، وبين الغبى والذكى، فقط شيء واحد ردىء فى النوم حسبما سمعتهم يقولون إنه يشبه الموت، حيث بين النائم والميت تضيق الفروق.

قال دون كيخوتى:

- لم أرك قط، سانشو، تتكلم بكل هذه الأناقة كما تفعل الآن، ومن هذا أصل إلى فهم المثل، الذى تردده أنت أحيانا " ليست العبرة بمن ولدت معهم، وإنما بمن تصاحبهم". (*)

أجاب سانشو:

- يا للشؤم! سيدنا! لست أنا الآن من أنظم الأمثال، وإنما ها هى تقع من فمك اثنين فى اثنين أفضل منى، ما عدا الفرق بين أمثالى وأمثالك، إن أمثالك تأتى فى الوقت المناسب، وأمثالى بدون مناسبة، لكن بالفعل كلها أمثال.

بينما كان الرجلان فى ذلك الحديث أحسوا انفجارًا أصمَّ، وضجة خشنة كانت تمتد مغطية كل تلك الوديان. نهض دون كيخوتى على قدميه، ووضع يده على السيف، وانكمش سانشو تحت الحمار، محصنًا نفسه من الجانبين بربطة أسلحة سيده من ناحية وببردعة الحمار من ناحية أخرى، وقد ارتعد من الخوف بينما سيده كان فى غاية التشويش، ومن لحظة إلى لحظة مضى الضجيج يزداد، ويقترب من الخائفين الاثنين، أو على الأقل أحدهما دون الآخر المعروف عنه شجاعته. والمسألة لم تكن إلا عددًا من الرجال يحملون للبيع ستمئة خنزير، كانوا يقودونها فى تلك الساعات، وكان هائلاً ما يحدثون من ضجيج، ودمدمة الخنازير وزفيرها هى التى تصم أذنى دون كيخوتى وسانشو دون أن يدركا السبب. ودون سابق إنذار وصل القطيع الممتد، والمدمدم، ودون احترام لسلطة دون كيخوتى أو سانشو، مر من فوق الاثنين، مدمرًا تحصينات سانشو، ومسقطًا ليس فحسب دون كيخوتى وإنما أضاف إليه روثينانتى.

(*) يقصد دون كيخوتى أن سانشو تعلم منه حسن الحديث!

الضجة والدمدمة الخنزيرية، والسرعة التى وصلت بها الحيوانات النجسة، أصابت البردعة بالحيرة فوق الأرض، مثلما فعلت بأسلحة دون كيخوتى، والحمار وروثينانتى وسانشو ودون كيخوتى. نهض سانشو بأفضل ما استطاع، وطلب من سيده السيف، قائلاً إنه يود قتل على الأقل نصف دستة من هؤلاء السادة، من الخنازير غير المهذبة (وكان قد عرف أنها خنازير)، قال له دون كيخوتى:

– دعهم أحياء، فإن هذا العدوان عقوبة بسبب ذنبي، وعقاب عادل من السماء، فالأمر أن الفارس المشّاء المهزوم يأكله أبناء آوى، وتلدغه الزنابير، وتتقصى أثره الخنازير.

أجاب سانشو:

– وأيضًا يجب أنْ يكون عقابًا من السماء أن حاملى دروع الفرسان المشّائين المهزومين يلدغهم الذباب، ويأكلهم القمل، ويهاجمهم الجوع، وإذا كنا نحن حاملى الدروع أبناء للفرسان المشائين الذين نخدمهم، أو أقارب مقربين، لم يكن بالكثير أن تدركنا عقوبة ذنوبهم حتى رابع جيل، لكن ما علاقة آل بانثا بآل كيخوتى؟ والآن ندع هذا ولنعد لنريح أجسامنا، وننام القليل الذى بقى من الليل، من ثَم سوف يخلق الله النهار، وسوف يدركنا الازدهار.

أجاب دون كيخوتى :

– نم أنت سانشو، فقد ولدت لتنام، وأنا ولدت لأسهر، وفى الوقت المتبقى حتى قدوم النهار سأتجول مع أفكارى التى سأطفئها فى قصيدة غزلية، قمت بتأليفها بالأمس، دون أن تعرف أنت ذلك.

أجاب سانشو:

- بالنسبة لى يظهر أن الأفكار الغرامية تفسح المجال لتأليف مقطوعات لا بد ألا تكون طويلة، فخامتكم (اشعِر) كما تحب من شعر، وأنا سأنام بقدر ما أستطيع.

وفى الحال افترش من الأرض ما شاء، ثم تقوقع ونام، مطلقًا لنومه السراح، دون ضمانات أو ديون، أو أى ألم يعوقه. دون كيخوتى متكئًا على جــذع شــجرة دردار أو فلين (فسيدى حامدى بن إنجيلين لا يميز بين أنواع الشجر)، وعلى أنغــام نفس تنهداته غنى:

أيها الحب عندما أفكر

فى الألم المخيف القوى الذى تهبنى

أجرى مسرعًا نحو الموت

مفكرًا فى قتل ألمى الهائل السمت

*

لكن ساعة الوصول إلى الممر

ذلك المرسى لبحر عذابى

أحس ببهجة تفيض

وبها تقوى الحياة ولا أمر

*

وهكذا العيش يقتلنى

والموت يعود فيعطينى الحياة

أوه، من حالى، لم يسمع بمثلها حال

فعندى هى موت، مع أنها الحياة(*)

كل بيت شعر من هذه كانت تصاحبه وفرة من التنهدات، دون أن تعدم دموعًا ليست بالقليلة، مما يناسب قلبًا به ثقوب ألم الهزيمة وفراق دولثينيا.

وبصحبة شعره وصل النهار، وألقت الشمس بأشعتها فى عيون سانشو، فاستيقظ، وتكاسل، نافضًا نفسه، ممددًا أعضاء جسمه (فى تمطع)، وتأمل فى الشظايا والتمزيق الذى أحدثته الخنازير فى تموينه، ولعن القطيع ومن صحب القطيع. وأخيرًا عاد الاثنان إلى طريقهما المستأنف، وعندما مال المساء رأيا قادمًا نحوهما حوالى عشرة رجال ركبانًا، وحوالى أربعة أو خمسة على أقدامهم. قفز قلب دون كيخوتى، وتصدع قلب سانشو، لأن الركب القادم كان يحمل رماحًا ودروعًا، وفى كامل عدة الحرب، التفت دون كيخوتى إلى سانشو، وقال له:

– إذا كنت سانشو قادرًا على مقارعة السلاح بالسلاح، ووعدى لا يربط ذراعى، هذه القوى التى تتجه إلينا ما كانت ستكون عندى أكثر من تورتة وخبز مطلى، وليست ذلك الشىء الذى نخافه بين أشياء أخرى.

اقترب أولاً الفرسان مشهرين رماحهم، ودون نطق كلمة، تحلقوا حول دون كيخوتى، وألقوا برماحهم نحو ظهره وصدره مهددين له بالموت. أحد الراجلين

(*) مترجم من قصيدة غزلية إيطالية للشاعر (بيترو يمبو).

على أقدامهم، وضع إصبعه على فمه إشارة بأن يصمت، وأمسك روثينـــانتى مـــن عنانه، وأخرجه عن الطريق، والآخرون الراجلون قادوا سانشو وحماره، محافظين جميعًا على الصمت بطريقة عجيبة. واصلوا خطاهم خلف من يحمل دون كيخوتى، الذى حاول مرتين أو أكثر أن يسأل إلى أين يحملونه، أو ماذا يريدون، لكن مجـــرد أن حرك شفتيه، حاولوا إغلاقهما له بالسنان الحديدية للرماح، وعن سانشو فكـــان يحدث له نفس الأمر، لأنه لم يكد يعطى دلائل على التكلم، حتى نغزه أحد الرجلين بمنخاس، وفعل نفس الشيء مع الحمار كما لو كان أيضًا يود الكلام. انغلق الليـــل، وأسرعوا الخطو، ونما فى الأسيرين الخوف، وبصفة خاصة عندما كانـــا يـــسمعان من وقت لآخر، كلمات موجهة لهما:

– **امشيا يا أهل الكهف!**

– **اصمت أيها البربر!**

– **إلى تنفيذ المطلوب يا من تأكلون لحوم البشر!**

– **لا شكوى، أيها الأشرار، لا فتح للعيون أيها الديـــدان القتلـــة، والأســـود الجزارون!**

وألقاب أخرى مشابهة لهذه كانت تعصف بآذان البائسين السيد والخادم، انطلـــق سانشو متحدثًا لنفسه فى نفسه:

" هل نحن يمام؟ هل نحن حلاقون ولسنا مناشف؟ هل نحن كلبات ينادونهـــا آس، آس؟ لا تعجبنى فى شىء هذه الأسماء: هذا النبات الضعيف تزلزله الرياح، كل المـــصائب تأتينا معًا مثل العصى تنهال على كلب، ربنا يجعل الأمور تنتهى مع تلك العـــصى، الـــتى تتهددنا فى هذه المغامرة التعيسة".

وسار دون كيخوتى مسلوب العقل دون أن يستطيع أن يصيب بكل خطـــاب كان يتخيله ماذا تعنى تلك الأسماء التى يضعونها لهما، المليئـــة بالـــسباب، والتـــى

يستنتج منها في وضوح ألاعليه انتظار أي خير، إنما الشر المستطير. وتقريبًا بعد ساعة من الليل وصلوا على هذه الحال إلى قلعة تعرّف عليها دون كيخوتي جيدًا، وكانت قلعة الدوق، التي أقاموا بها منذ أيام قليلة.

قال عندما عرف نهاية الرحلة متعجبًا:

– يرحمني الله! ماذا قد يكون هذا؟ نعم، في هذا البيت يوجد الأدب والتهذيب الرفيع، لكن بالنسبة للمهزومين الخير يتحول إلى سوء، والسوء يصير أسوأ.

دخلوا فناء الساحة الرئيسية للقلعة، ووجدوه معدلاً، ومرتبًا بطريقة وصلت بهم إلى تنمية الدهشة، ومضاعفة الخوف، كما سيظهر في الفصل التالي.

الفصل التاسع والستون

عن الواقعة النادرة والجديدة إلى الغاية التى خلال كل مجرى هذه القصة العظيمة لم يحدث لدون كيخوتى ما هو أندر منها وأجدّ

ترجل الفرسان، مع من كانوا معهم راجلين وحملوا دون كيخوتى وسانشو اختطافًا، وأدخلوهما إلى الساحة، والتى على طول محيطها كانت تتلهب من المشاعل مئة، موضوعة فى حواملها الشمعدانية، وفى ممرات الساحة أكثر من خمسمئة مصباح، وهكذا رغم أن الليل كان مظلمًا بعض الشىء، فلم يكن هناك أى حاجة للنهار. وفى وسط الساحة نهض قبر بارتفاع يقترب من الذراعين، وفوقه مظلة سرادق ضخم من القطيفة السوداء، وعلى درجات القبر المدرج كانت تشتعل شموع بيضاء فوق حوالى مئة شمعدان من الفضة. وفوق القبر كان يعرض جسم ميت لصبية بديعة الجمال، والتى كانت ترسم بجمالها الجميل صورة لنفس الموت. كانت رأسها فوق مخدة من وشى الحرير، ومتوجة بغار متعدد ألوان الأزهار العطرية العبق، ومنسوج، واليدان متصالبتان على الصدر، وبينهما سعف نخيل أصفر فيما يحمل من رمز النصر. وعلى جانب من الساحة نصب مسرح لمنصة، عليها مقعدان يجلس عليهما شخصيتان، يبدو عليهما أنهما ملكان حقيقيان أو مزيفان، وذلك لحملهما تاجًا على الرأس، وصولجانًا فى اليد. وعلى جانب المنصة، ويرقى إليه ببعض الدرجات، كان هناك كرسيان آخران إليهما أحضروا الأسيرين دون كيخوتى وسانشو، وأجلسوهما عليهما. كل هذا فى صمت، والإفهام بالإشارة

للأسيرين اللذين أيضا بقيا صامتين، لكن حتى بدون إشارات كانا سيبقيان صامتين، لأن التعجب شل منهما اللسان. صعد عند هذا على المسرح مع صحبة كبيرة شخصيتان رئيسيتان، وفى الحال تم التعرف عليهما، إنهما الدوق والدوقة، مضيفاهما، اللذان جلسا على كرسيين فاخرين بجانب الشخصيتين اللذين ظهر عليهما أنهما ملكان، من لا يعجب من ذلك إذا أضيف إليه أن دون كيخوتى تعرف على الجسم الميت، لقد كان لألتسيدورا الجميلة. عند صعود الدوق والدوقة على المنصة نهض دون كيخوتى وسانشو، وأبديا لهما احتراما عميقا، ورد الدوق والدوقة بالمثل، بإحناء رأسيهما بعض الانحناء.

وأثناء كل هذا خرج وزير فجأة، واقترب من سانشو، وطرح عليه عباءة من نسيج لامع مصقول، أسود منقوش عليه ألسنة لهب نارى، وخلع قبعته ووضع مكانها (زعبوط) يخصون به المجرمين، بنفس طريقة من يتلقى عقاب محاكم التفتيش، وقال له فى أذنه ألا يفك خياطة شفتيه، لأنه فى هذه الحالة إما يتعرض لتركيب كمامة على فمه أو سحب روحه من بين جنبيه. وكان مشهد سانشو من أعلى إلى أسفل كما شاهد نفسه، عبارة عن إنسان يتضرم بالنيران، لكن كما أنها لم تكن تحرقه، فلم يحفل بها فى شيء. خلع (الزعبوط) فرآه مرسوما عليه شياطين، وعاد لارتدائه قائلا فى نفسه:

– ومع ذلك فتلك لا تحرقنى، وهؤلاء لا يحملوننى.

كان ينظر إليه أيضا دون كيخوتى، ومع أن الخوف كان يشل حواسه، لم يتنازل عن الضحك على ما انتهت إليه صورة سانشو، والظاهر فى ثنايا هذا، بدأ فى الخروج من تحت القبر صوت نحيب ضعيف، وسار صادرا عن نايات، ولعدم التغطية عليه بأى ضجيج، لأنه فى ذلك المكان نفس الصمت كان محافظا على

الصمت، فقد بدا رقيقًا وغَزِلاً. وفى الحال قدم من نفسه عينة مـن الغنـاء غيـر متوقعة، بجوار مخدة ما كان يظهر أنه جثة، بانشقاق الأرض عن فتى وسيم يرتدى ملابس رومانية، وعلى نغم (الأرب) الذى يعزفه بنفسه، غنى بصوت شديد النعومة والوضوح، هذين الفاصلين:

بينما تفيق ألتسيدورا

الميتة بقسوة دون كيخوتى

وبينما يقومون فى البلاط المسحور

بإلباس السيدات نسيج وبر الماعز (البيقوط)

وبينما قهرمانات سيدتى

تلبسهن الخشن والناعم من ثياب

سوف أغنى لجمالها وتعاستها

بريشة عزف أفضل من المغنى تراثيًا

*

ومع أننى لا أتصورنى من عليه الغناء

ولو لم يكن مهنتى الوحيدة فى الحياة

بلسان ميت وبارد فى الفم

أفكر فى تحريك صوتى مجبرًا ليغنى لك

ومع أن روحى محررة من حجرك الضيق

مقودة فى بحيرة أستيغيا الجهنمية

فى احتفال به سأذهب، وذلك الصوت

سوف يوقف مياه النسيان(*)

*

قال أحد الاثنين اللذين بدا أنهما ملكان:

- كفى، كفى، أيها المغنى السماوى، فلا يشبع من غنائك إلى الأزل، لنمثل الآن موت التى لا نظير لها ألتسيدورا ولطائفها، ألتسيدورا التى هى ليست ميتة كما يظن العالم الجاهل، لكنها حية على لسان إله الشهرة، ولإعادة النور الهارب إليها، هناك عقوبة عليه أن يتحملها سانشو بانثا، الحاضر بيننا، وهكذا أنت (رادامانتو)، الذى تحكم معى الحانات المظلمة فى (ليتى)! حيث إنك تعرف كل ذلك المكتوب على يد الأقدار المستورة، حول إفاقة هذه الصبية، قُلْهُ وأعلنه فى الحال، حتى لا تتأخر علينا الفرحة التى ننتظرها مع عودتها الجديدة.

لم يكد (مينوس) ينتهى من قول ذلك،وهو قاضى (رادامانتو) ورفيقه حتى نهض رادامانتو وقال:

- أيا، يا وزراء هذا البيت، الكبير منكم والصغير، الهرم والشاب، التنفيذ بالترتيب التالى؛ ختم (أنف) سانشو بانثا بأربع وعشرين ضربة بالإبهام، طبقا

(*) هذه المطقوعة الثانية أشعار ثمانية المقاطع للشاعر الشهير المعاصر ثربانتس (جارثيلاسو).

للعبة المشهورة(*)، واثنتى عشرة قرصة، وست نغزات بالـدبوس فى ذراعه وظهره، وعلى هذه الشعائر تتوقف حياة ألتسيدورا!

عند سماع سانشو بانثا هذا فجر الصمت، وقال:

– أقسم على هذا، لن أسمح لأحد ختم وجهى أو لمس خدى، فهذا عندى سيكون مثل الارتداد عن الدين، ويلى! ما علاقة خربشة الوجه ببعث هذه الصبية للحياة؟ سكتنا له فدخل بحماره(**)! يسحرون دولثينيا، ويجلدوننى لفك سحرها، تموت ألتسيدورا من أمراض أرادها لها الله، وحتى يبعثوها عليهم سوط أنفى بأربع وعشرين ضربة إبهام، وتنخيز جسمى بشكات دبابيس، ورضرصة ذراعى بالقرص والتنغيز! أهذه المساخر لصهر! أنا كلب عجوز، ولا يفلح معى هَوْ هَوْ !

قال (رادامانتو) بصوت مرتفع:

– سوف تموت ! كن لينًا أيها النمر، واخفض من جناحك، يا (نمبروت) المغرور، وعليك أن تعانى وتصمت، فلا يطلب منك المستحيل، ولا تقحم نفسك فى التحرى عن عقبات هذا الأمر ومصاعبه، أنفك لا بد من قرعها، و ذراعك لا بد من قرصها، ومواضع النغز لابد من نغزها. أيا، أقول يا وزراء، أنجزوا أوامرى، وإذا لا، فقسمًا من رجل يبر بالقسم، لتعرفنَّ حينذاك لماذا ولدتم!

(*) اللعبة أن يواجه أحدهم وجه الآخر بقبضته مبرزًا أربعة أصابع مخفيًا الإبهام خلفها، وفجأة يبرزه فى عنف وفرقعة ليضرب أنف ذلك الآخر، والأمر لعب فى لعب حتى إن استخدام كلمة وزير يحل محل كلمة جلاد فى الألعاب الشعبية. أما (رادامانتى) و(مينوس) فهم قضاة الجحيم، التى يتم إنقاذ التسيدورا منها.

(**) وضعت هذا المثل بديلاً عن آخر لكشف المعنى المطلوب.

خلال هذا، ظهرت ست قهرمانات فى الساحة قادمات فى موكب دينى، واحدة وراء الأخرى، وجوههن مغطاة بنمش، وكلهن أيديهن اليمني مرفوعات بأربعة أصابع مشهرة إلى أعلى حتى تعلو بها الأيدى المرفوعة أكثر إلى أعلى، كما يحدث فى هذه اللعبة الآن، ولم يكد يراهن سانشو حتى خار خوار الثور، وقال:

– من الممكن أن أترك كل العالم يلمسنى، لكن أن أوافق على لمس القهرمانات لى، لا، هذا لا! خربشوا وجهى خربشة القطط للوجوه، كما فعلوا مع سيدى فى نفس هذه القلعة، اثقبوا جسمى بسنان الخناجر المدببة، انتزعوا لحمى بين فكَّيْ الكماشات المحمَّاة، كل هذا سأتحمله فى صبر، أو فى خدمة هؤلاء السادة، لكن أن تمسنى القهرمانات، هو أمر لن أوافق عليه، ولو حملنى الشيطان.

انفجر صمت دون كيخوتى أيضًا، قائلاً لسانشو:

– اصبر، يا بنى، وأرضِ هؤلاء السادة، واشكر السماء شكرًا كبيرًا، أن وضعت فى شخصك تلك الفضيلة، فبتعذيبك تفك سحر المسحورين، وتنشر من القبور الميتين.

وهنا كانت القهرمانات قد اقترين من سانشو، عندما كان أكثر لينًا واقتناعًا، مستريحًا جيد الثبات فى المقعد، تاركًا وجهه ولحيته للأولى، التى ساطت أنفه فى خاتم جيد، ثم انحنت له باحترام، قال سانشو:

– قللى من الأدب، وخلى عن هذا الطلاء، أيتها السيدة القهرمانة، فبحق الله، يداك تفوح منها رائحة زيت الخل(*)!

(*) زيت ربما كان يستخدم للتجميل مثل الكريم.

أخيرًا، انتهت كل القهرمانات من سوط أنفه وختمه، وأناس آخرون كثيرون من البيت قرصوه، لكن الذى لم يستطع تحمله كانت نغزات الدبابيس، وهكذا نهض من مقعده، تبدو عليه الكآبة، وممسكًا بأحد المشاعل الملتهبة التى كانت بجانبه، وألقى بها خلف القهرمانات، وفى ظهر كل جلاديه، قائلاً:

- والآن، أيها الوزراء الجحيميون، لست من البرونز حتى لا أحس بكل هذا العذاب الخارق للعادة!

وأثناء هياجه، ألتسيدورا، التى ينبغى أن تكون متعبة، للبقاء كل هذا الوقت مستلقية على ظهرها، تحركت منقلبة على جنبها، ولما رأى الحضور هذا، تقريبًا جميعهم بصوت واحد صرخوا:

- حية ها هى ألتسيدورا! ألتسيدورا فيها حياة!

أمر (رادامانتو) سانشو أن يهدئ من غضبه، فقد أدركت المحاولة ما كان يسعى إليه.

وهكذا، لم يكد دون كيخوتى يرى الحياة تدب فى ألتسيدورا، حتى ذهب إلى سانشو، راكعًا أمامه، وقال:

- الآن حان الوقت، يا ابن وجدانى، فلست بعد خادمى، أن تسوط نفسك بعض الجلدات التى التزمت بها من أجل فك سحر دولثينيا. الآن أقول، إنه الوقت الذى هو موسم تلك الفضيلة فيك، وفى كفاءة الأداء يتذكر الخير الذى منك يُنتظر.

وعلى هذا أجاب سانشو:

- هذا يبدو لى تشبيك فوق تعقيد، وليس حبات العسل على وريقات الشجر، كم هو جميل بعد القرص ورفس الأنف والتدبيس، أن تأتى الآن الجلدات!

ليس أمامك أكثر من إحضار حجر وربطه فى عنقى ثم إلقائى فى بئر، وهـذا لن يثقل عليَّ كثيرًا، وحتى أشفى أمراض الآخرين علـيَّ أن أكـون بقـرة الزفاف(*). اتركونى، وإلا بحق الله فإنى سوف ألقى بكل شـىء وأرميـه فى سوق الخردة وإن لم يشتره أحد!

وخلال هذا كانت التسيدورا قد جلست فوق القبر، وفى نفس اللحظـة رنـت الأبواق مصحوبة بالناى، وأصوات الجميع :

– حية ها هى ألتسيدورا! حية ها هى ألتسيدورا!

نهض الدوق والدوقة والملكان مينوس ورادامانتو، وكلهم معًا، صحبوا دون كيخوتى وسانشو، ومضوا لاستقبال ألتسيدورا (القادمة من الموت)، وإنزالهـا مـن فوق القبر، والتى تظاهرت ببعض الإغماء، ومالت على الدوق والدوقة والملكـين، ونظرت فجأة لدون كيخوتى، وقالت له:

– سامحك الله لما فعلته بى، أيها الفارس خليُّ البال، فبسبب قسوتك رحـت إلى العالم الآخر، ويتهيأ لى أنى بقيت فيه ألف عام وأكثر، وبالنسبة لك، سانشو، يا أكثر حاملى الدروع حنانًا فى هذا الفلك الدوار، أشكر لك حياتى الـتى أعود لامتلاكها، استعد منذ اليوم أيها الصديق سانشو لامتلاك أكثـر مـن ستة قمصان لى سأرسلها لك، حتى تدورها على مقاسك، وإذا لم تكن كلها جديدة، فعلى الأقل كلها نظيفة.

من أجل الهيبة قبّل سانشو يديها، بالزعبوط فى يده، وركبتيه علـى الأرض. أمر الدوق بنزع الزعبوط من يده وإعطائه قبعته، وإلباسه ثوبه، وخلع ثوب ألـسنة

(*) الشخص الذى يصلح لتسلية وفائدة الجميع.

اللهب عنه. التمس سانشو من الدوق أن يتركوا له تلك الملابس كى يحملهـــا إلـــى قريته، إشارة وذكرى لهذا الحدث الذى لم يشهد مثله فى البلاد. قالت الدوقة إنهـــم سيتركونها له، ألا يعرف كم هى صديقة عظيمة له؟ أمر الدوق بـــإخلاء الـــساحة، وأن يلجأ الجميع إلى المخدع، أما دون كيخوتى وسانشو، فأمر بحملهما إلى النـــوم فى طريق يعرفانه بالفعل جيدًا.

الفصل السبعون

الذى يواصل التاسع والستين، وهو عبارة عن أشياء لا احتجاج عليها من أجل إيضاح هذه القصة

نام سانشو تلك الليلة على سرير منخفض ذى عجلات، وفى نفس مخدع دون كيخوتى، أمر كان يريد الاعتذار عنه، لأنه كان يعرف تماما أن سيده لم يكن ليتركه ينام دون أسئلة، ولم يكن لديه استعداد للكلام الكثير، لأن آلام التعذيب وشيك الانصرام ما زالت حاضرة فى أنحاء جسمه، ولم تترك لسانه حرًا، ومر على باله أن النوم فى كوخ وحده أفضل من هذه الغرفة الثرية مع رفيق. تحققت مخاوفه، وتأكدت شكوكه، فلم يكد سيده يدخل فى سريره حتى قال:

– كيف تبدو لك، سانشو، واقعة هذه الليلة؟ كم هى عظيمة وجبارة قوة الأنفة ضد العشق، كما رأيت بعينيك ألتسيدورا ميتة، وليس بسهام أخرى أو سيف آخر أو أى سلاح غير ذلك من أسلحة الحرب، ولا بسم قاتل، وإنما بمعاناتها أنفة مقاومة العشق وصرامتها، من جانبى.

أجاب سانشو:

– لتمت هى على الرحب والسعة ما شاء لها الموت، وكيفما شاءت لنفسها الموت، ولتتركنى فى بيتى، فأنا لم أقع فى غرامها، ولم آنف منها طول حياتى. أنا لا أعرف ولا أفهم كيف أن صحة ألتسيدورا، فتاة طائشة أكثر منها ذكية، يمكن أن تكون لها علاقة بتعذيب سانشو بانثا.نعم، الآن أعرف

بوضوح وبشكل مختلف أن هناك سحرة وسحرًا فى العالم، حررنى الله منهم، لأنى لا أعرف تحرير نفسى بنفسى، ومع كل هذا أتوسل لفخامتكم أن تدعنى أنام ولا تسألنى أكثر، إذا لم تحب أن ألقى بنفسى من نافذة نحو الأرض.

أجاب دون كيخوتى:

– نم سانشو صديقى، إذا أتاح لك ذلك شك الدبابيس والقرص وقرع الأنف الذى وقع.

– لم يصل أى ألم إلى مستوى ألم مواجهة أنفى للقرع، ليس لأى سبب، وإنما لأن من قام به كانت القهرمانات، ربنا يخرب عقولهن، وأعود للرجاء بأن تتركنى فخامتكم أنام، لأن النوم راحة من البؤس الذى يعانيه المستيقظون.

قال دون كيخوتى:

– ليكن الأمر كذلك، والله يصحبك.

نام الاثنان، وفى هذا الوقت أراد سيدى حامدى، مؤلف هذه القصة العظيمة، أن يكتب ويشرح ماذا حرك الدوق والدوقة لنصب مبنى هذه الآلة والملعوب، ويقول إن البكالوريا شمشون كارّاسكو لم يكن لينسى أن فارس المرايا قد انهزم وسقط على يد دون كيخوتى، وهو سقوط كنسى قد مزق كل نواياه، من ثَم أراد أن يجرب يده، منتظرًا فرصة أفضل مثل الفرصة السابقة، وهكذا لم يكد يتلقى معلومات من الخادم الذى حمل الخطابات إلى تيريزا بانثا عن مكان دون كيخوتى، حتى بحث عن أسلحة جديدة وجواد، ووضع على درعه القمر الأبيض، حاملاً كل شىء فوق بغل يقوده مزارع، وليس تومى ثيثيال خادمه القديم، حتى لا يتعرف عليه دون كيخوتى وسانشو. ووصل، من ثَم، إلى قلعة الدوق، فأخطره بطريق دون

كيخوتي واتجاهه، وأنه في الطريق إلى مبارزات سرقسطة، وحكى له أيضًا عن الملاعيب التي اخترعها له، مع حيلة فك سحر دولثينيا، والتي يجب أن تكون على حساب أفخاذ سانشو. وفي النهاية شرح له عن خدعة سانشو لسيده حين أفهمه أن دولثينيا مسحورة ومتحولة إلى مزارعة، وكيف أن الدوقة أفهمت سانشو أنه هو المخدوع، لأن دولثينيا بالفعل مسحورة، ولم يكن ضحك البكالوريا شمشون من ذلك قليلاً، متأملاً في ذكاء سانشو وبساطته، وفي المدى الذي وصل إليه جنون دون كيخوتي. طلب منه الدوق إذا وجده سواء هزمه أو لم يهزمه، أن يعود إلى القلعة ليخطره بما يحدث، وهكذا فعل شمشون، بعد أن انطلق إلى سرقسطة ولم يجده هناك، فواصل طريقه وحدث ما حدث. عاد إلى قلعة الدوق وحكى له كل شيء، وعن شروط المعركة، وأن دون كيخوتي في طريق العودة لإنجاز كلمته بوصفه فارسًا مشاءً طيبًا بالاعتزال عامًا في قريته، وخلال هذا الوقت من الممكن أن يشفى، وهذا هو الهدف الذي جعله يتخفى متحولاً إلى فارس المرايا ثم فارس القمر، فقد أحزنه أن يكون أحد الأعيان الأذكياء مثل دون كيخوتي في مثل هذه الحال، وبهذا ودع الدوق، وعاد إلى قريته، منتظرًا فيها عودة دون كيخوتي الذي يقدم خلفه. ومن هنا انتهز الدوق هذه الفرصة لعمل خدعة هذا الملعوب؛ فقد كانت تطربه غاية الطرب أشياء دون كيخوتي وسانشو. وهكذا نشر الخدم في كل الطرق القريبة والبعيدة من القلعة والمحتمل أن يعود منها دون كيخوتي، وأمرهم بإحضاره برضاه أو عنوة إلى القلعة. أعطوا إخطارًا للدوق، والذي كان معدًا سلفًا كل ما ينبغي عمله، وهكذا عندما علم بقدومه أمر بإشعال المشاعل ومصابيح الساحة، ووضع ألتسيدورا فوق هيكل القبر، مع كل التجهيزات التي حكيناها، بكل واقعيتها وحسن أدائها، دون أن تفارق الحقيقة إلا بقليل. ويقول سيدي حامدي: بالنسبة له، الخادعون يتساوون في جنونهم مع المخدوعين، وأن الدوق والدوقة لم يكد يفصلهما

عن عالم (العبط) مسافة إصبعين، وهكذا دون كيخوتى فى فكره الطليق، وسانشو فى نومه الطلق، يفاجآن بالنهار، والرغبة فى النهوض مثل ريش كسول، لا غالب ولا مغلوب، ولا يسر دون كيخوتى مطلقًا بكسله الدءوب.

ألتسيدورا (فى رأى دون كيخوتى عائدة من الموت إلى الحياة)، متابعة مزاج سيدتها والمزاح، متوجة بنفس الغار الذى كان على رأسها فوق اللحد، مرتدية رداء من التفتا الأبيض، مبذورًا بزهور من الذهب، وشعرها قد أطلق سراحه على ظهرها، مرتكزة على عكاز أسود من أرقى أنواع الأبنوس، دخلت مخدع دون كيخوتى، الذى كان متعكرًا ومتحيرًا بسبب حضورها، فانكمش وغطى كل جسمه تقريبًا بالملاءات وحشيات السرير، منخرس اللسان، دون أن يصيب فى تقديم أى مجاملة أو تحية لها. جلست ألتسيدورا فى مقعد، قرب رأس سريره، وبعد أن أطلقت تنهيدة عظيمة، قالت له بصوت متراخ رقيق:

– عندما تتعثر النساء الراقيات والصبايا العفيفات بالشرف، ويعطين تصريحًا للسان بأن يدمر كل عقبة، معلنًا على الملأ أسرار قلوبهن، فإنهن يجدن أنفسهن فى مضيق حرج. أنا، أيها السيد دون كيخوتى دى لامانشا، واحدة من هؤلاء، مخنوقة، ومغلوبة، وعاشقة، لكن مع هذا، شريفة وأعانى، أعانى كثيرًا، ولأنه كثير انفجرت نفسى من الصمت، وفقدت حياتى، كان منذ يومين، عند إحساسى بالأنفة الصارمة التى عاملتنى بها.

أوه، أكثر صلابة هو، من المرمر، إلى شكاتى

أيها الفارس الجلمود، لقد كنت ميتة، أو على الأقل، مظنون أننى ميتة فى حكم كل من رآنى، وإذا لم يكن إله الحب الذى ابتلانى، قد أودع علاجى فى تعذيب هذا الحامل الطيب للدروع، لكنت الآن فى العالم الآخر.

قال سانشو:

- كان أفضل لإله الحب أن يودع علاجك فى حمارى، وكنت سأمتن له كثيرًا، لكن قولى لى سيدتى، أراح الله قلبك فى حب مع محبوب آخر أكثر حنانًا ولينًا من سيدى، ماذا رأيت فى العالم الآخر؟ وماذا يوجد فى الجحيم؟ لأن من يموت باليأس، فلا منزل له، لا بد، إلا الجحيم.

أجابت ألتسيدورا:

- فى الحقيقة، أقول لكما، لابد أننى لم أمت تمامًا، لأنى لم أدخل الجحيم، لأن من يدخل هناك بالفعل لا يستطيع الخروج منه ولو أحب. والحقيقة أننى وصلت إلى الباب، حيث كان يتعابث أكثر من دستة شياطين بلعب الكرة، وكان الجميع يرتدى أحذية تغطى كل الأرجل، وعليهم عباءات، ولهم ياقات وثنيات حول الرقبة والصدر، موشاة فى غرز تطريز هولندى، مع أساور للأكمام من نفس النوع، مع أربعة أصابع تبرز من الذراع، حتى تطول أياديهم للناظر، وبين الأصابع مضارب من النار. وما أثار تعجبى هو أن ما يستعملونه فى لعب الكرة كانت الكتب بدلاً من الكور، وكانت تبدو مليئة بالرياح ووبر الماعز، مشهد عجيب وجديد، لكن هذا لم يدهشنى كثيرًا مثل رؤية عكس ما هو طبيعى من أن يفرح من يكسب ويحزن من يخسر؛ لأن الجميع كانوا يدمرون ويتشاجرون ويلعن بعضهم بعضًا.

أجاب سانشو:

- هذا ليس عجيبًا؛ لأن الشياطين بين أن يلعبوا أو ألا يلعبوا دائمًا، من ثَم لا يمكن أن يصلوا إلى الرضا بين أن يستمتعوا أو ألا يستمتعوا.

أجابت ألتسيدورا :

- لابد أن الأمر يتضح بهذا، لكن هناك شيئًا آخر يدهشني (أحب القول إنه أدهشني حينذاك)، وكان أن أول تطيير للكرة، لم تبق معه أية كرة في الأرجل، أو لإعادة القذف مرة أخرى؛ وهكذا كانت كتب جديدة وقديمة تتدفق مكان الكتب المختفية، وكان معجزة. أحد هذه الكتب كان جديدًا، وبراقًا، وجيد التجليد، في ركلة له أخرجوا أمعاءه، وتبددت صحائفه. قال شيطان للآخر: "انظر أي كتاب ذاك". والشيطان أجابه: "هذا هو القسم الثاني من قصة دون كيخوتي دي لامانشا، غير المؤلف بقلم سيدي حامدي، مؤلفه الأول، وإنما بقلم مؤلف أراجوني، يقول إنه من أهل قرية (توردسياس) ". أجاب الشيطان الآخر: "أبعده عني من هناك، وألق به في مهاوي الدرك الأسفل من الجحيم، حتى لا تراه بعد ذلك عيني". أجاب رفيقه: "هل هو بهذا السوء؟" قال الأول: "نعم، حتى إني لو شرعت متعمدًا في كتابته أسوأ ما نجحت". وواصلوا لعبهم متقاذفين كتبًا أخرى، وأنا بسبب سماعي ذكر دون كيخوتي، الذي أحبه كثيرًا، وأعشقه، حاولت أن يبقى هذا المشهد في ذاكرتي.

قال دون كيخوتي:

- مشهد صادق، لأنه لا يوجد (أنا) آخر غيري في العالم، وبالفعل هذه القصة تسير هنا من يد ليد، دون أن تبقى في يد، لأن الجميع يركلها بقدمه، وأنا لم أغضب من سماعي أنني أتجول مثل جسم شجي في غياهب الجحيم، أو في شفافية الأرض، لأنني لست من تعالجه تلك القصة، وهي إذا كانت جيدة

ومخلصة وحقيقية، سوف تعيش على مر الدهور، لكن إذا كانت سيئة، فمن مهدها للحدها، ولن يكون الطريق طويلاً جدًا.

كانت ألتسيدورا تواصل شكواها من دون كيخوتى، عندما قال دون كيخوتى:

- قلت لك مرات عديدة، يا سيدتى، بأنه يحزننى أنك وجهت مشاعرك نحوى، حيث إن مشاعرى تدين بالعرفان دون القدرة على العلاج، فقد ولدت كى أصير ملك دولثينيا دل توبوسو، والأقدار (إذا كانت موجودة) كرستنى من أجلها، والتفكير فى أن أى حسن آخر يمكن أن يحتل المكان الذى تملكه فى النفس هو أمر مستحيل، وهذا إحباط كاف حتى تنسحبى إلى داخل حدود شرفك، فلا أحد يستطيع أن يلتزم بالمستحيل.

عند سماع ألتسيدورا هذا، تظاهرت بالغضب والتغير، وقالت:

- يعيش السيد (بكالاو)، روح المدق، ونواة البلح، والأكثر عنادًا وصلابة من القروى الخسيس، يتوسلون إليه، وهو لا يفهم إلا ما فى رأسه، وإذا هاجمتك، فواجبى خلع عينيك! هل تظن بالصدفة، لأنك المهزوم المطحون بضرب النبابيت، أننى مت من أجلك؟ كل ما رأيته هذه الليلة كان مصطنعًا، فأنا لست بالمرأة التى من أجل بعير مثلك تؤلمنى ذرة من ظفر، فضلاً عن أن أموت.

قال سانشو:

- أظن أن هذا طيب جدًا، لأن موت العشاق أمر مضحك، إذ يمكنهم قوله بإبداع، لكن فعله؟ فليؤمن به يهوذا.

وبينما هم فى هذه الأحاديث دخل المغنى والشاعر، الذى غنى المقطوعتين خلال شعائر إعادة ألتسيدورا للحياة، قال بعد أن انحنى فى احترام كبير لدون كيخوتى:

- فخامتكم أيها السيد الفارس، احسبنى وأضفنى لقائمة أكبر خدمك، لأننى منذ أيام طويلة أعجبت بك سواء بشهرتك أو بمآثرك.

قال دون كيخوتى:

- قل لى فخامتكم من أنت؟ حتى أجاوب مجاملاتك بقدر جدارتك.

أجاب الفتى بأنه الموسيقى والشاعر المداح الذى ظهر فى الليلة الماضية.

أجاب دون كيخوتى:

- يقينًا، إن فخامتكم لك صوت بالغ الحلاوة، لكن ما غنيته لم يكن يوافق المقام، لأنه ما صلة مقطوعة جارثيلاسو بموت هذه السيدة؟

أحاب الموسيقى:

- لا تعجب أيها الفارس من هذا، فأنا من بين الشعراء الجهلة فى عصرنا، الذين تعودوا أن يكتب كل واحد على هواه، وينتحل شعر من يشاء، ناسب أم لم يناسب المقام، ولا يوجد تسفيه لأن يكتبوا أو يغنوا ما لا ينسب لشرعية شعرية.

أراد دون كيخوتى أن يجيب لكن عاقه مجىء الدوق والدوقة، اللذين حضرا لرؤيته، وبينهم دارت دردشة طويلة وحلوة، خلالها قال سانشو طرائف كثيرة وخبائث ليست أقل، حتى إنها تركت الدوق والدوقة من جديد فى عجب جديد، سواء من بساطته أو حدة ذكائه. طلب منهما دون كيخوتى الإذن للرحيل فى نفس هذا اليوم، فالفرسان المهزومون أجدر بهم العيش فى حظائر الخنازير من العيش فى القصور، أعطياه الإذن عن رضا كبير، وسألته الدوقة إذا كانت ستبقى فى تعاستها ألتسيدورا، وهو أجابها:

– سيدتي، لتعلمي فخامتكم أن كل مشكلة هذه الصبية هي في البطالة، وعلاجها ملء الفراغ في شرف واجتهاد، هي قالت لي هنا إنهم يطرزون في الجحيم، من ثَم عليها معرفة أشغال التطريز، لا تتركها من يدها، فانشغالها في تحريك الإبر الخشبية، لن يحرك في خيالها صورة من تعشقه أو صوره؛ وتلك هي الحقيقة، وهذا رأيي ونصيحتي.

أضاف سانشو:

– ونصيحتي أيضًا؛ لأني لم أر في حياتي فتاة تطريز تموت من الحب، وعني أقول، ما دمت أحفر لا أذكر امرأتي، أقصد زوجتي تيريزا بانثا، التي أحبها أكثر من رموش العين.

قالت الدوقة:

– أنت تحسن القول، سانشو، وأنا سأعمل على شغل وصيفتي ألتسيدورا من الآن فصاعدًا في تأدية أي عمل نظيف، تحسن أداءه إلى أقصى حد.

أجابت ألتسيدورا:

– لا يوجد سبب لذلك من استعمال هذا العلاج؛ فإن اعتبار قساوة هذا المسخ الشرير سوف يمسحه من الذاكرة، دون اللجوء إلى أية حيلة أخرى، وبإذن سموكم أريد الانصراف من هنا حتى لا أرى أمام عيني، لا أقول صورته الحزينة وإنما هيئته القبيحة الشنيعة.

قال الدوق:

– هذا يبدو لي مثل ما اعتادوا قوله:

أن من يطلق الإهانات

قريب من العفو عن الهنات

تظاهرت ألتسيدورا بمسح دموعها بمنديل، وحيت سيديها فى احتـرام، ثـم خرجت من المخدع.

قال سانشو:

– أشفق عليك، أيتها الصبية المسكينة، أشفق عليك، أقول، ياذات الحظ السيئ، فقد وقعت مع نفس من حلفاء، وقلب من خشب البلوط، أقسم لو كنـت فعلت هذا معى لكنت سمعت صياح ديك آخر!

انتهى الحديث، ارتدى دون كيخوتي ملابسه، وتغدى مـع الـدوق والدوقـة ورحل فى ذلك المساء.

الفصل الحادى والسبعون

ما حدث لدون كيخوتى مع خادمه سانشو بانثا فى الطريق لقريتهما

مضى المهزوم والكئيب دون كيخوتى وقد استبد به الفكر من ناحيــة، كمــا ابتهج من ناحية أخرى، سبب كآبته الهزيمة، وبهجته اعتبار فضيلة سانشو، التــى أظهرها فى بعث ألتسيدورا، مع بعض الشك فى اقتناعه بــأن ألتــسيدورا الــصبية كانت ميتة بحق. ولم يمض سانشو مبتهجًا فى شىء، لأنه رأى أن ألتــسيدورا لــم تنجز كلمتها بإعطائه القمصان، ورائحا وآيبا فى هذا قال لسيده:

– هل فى الحقيقة، يا سيدى أننى أكثر الأطباء تعاسة فى العالم، الذى يحتوى على بعض الأطباء الذين بعد قتل المريض يصرون على قبض أجر عملهم، وهــو ليس أكثر من توقيع وصفة مكتوبة لبعض الأدوية، والتى لا يعملها هو إنمــا (العطار)، ثم يتذوق أجره فى انجذاب إلى طعمه؟ وبالنسبة لى، فــإن صــحة المريض تكلفنى قطرات من دمى، وقرعًا لأنفى، وقرصًا وشكًّا بالــدبابيس، وجلدًا، ولا أكسب من ورائها شيئًا. من ثَم، أقسم أن لو أحضروا بين يدىَّ أى مريض آخر، فإننى قبل أن أجرى الجراحــة لــه علــيهم أولاً مــداواة جروحى؛ فالراهب الذى يغنى يجد غداءه، ولا أحب الاعتقاد بأن الــسماء أعطتنى هذه الفضيلة التى أملك، كى أهديها للآخرين مجانًا! مجانًا!

أجاب دون كيخوتى:

– معك حق، سانشو صديقى، وقد أخطأت ألتسيدورا كثيرًا فى أنها لم تعطك القمصان الموعودة، على الرغم من أن فضيلتك من باب العلم الموهوب، فلم تكلفك جهد الدراسة، أكثر من تعلم استقبال تعذيب شخصك. وعنى، أعرف القول لك إذا كنت قد رغبت فى دفع جلدك لنفسك لفك سحر دولثينيا، كنت دفعته لك كما تطلبه راضيًا، لكنى لا أدرى إذا كان الدفع يناسب العلاج من عدمه، لأنى لا أحب أن تعطل الجائزة الدواء. ومع هذا، يبدو لى، أننا لن نفقد شيئًا فى تجريبه، انظر سانشو، لك ما تحب، واجلد نفسك فى الحال، وأدفع لك نقدًا وبنفس يدك، فمعك نقودى.

ومع هذا العرض فتح سانشو عينيه وأذنيه شبرًا كاملاً، وقدم موافقة داخل قلبه لأن يجلد نفسه بكل رضا، وقال لسيده:

– الآن طيب، يا سيدى، أود وضع نفسى لإرضاء فخامتكم فيما ترغب، لمصلحتى، ثم إن حبى لأولادى ولزوجتى يجعلنى راغبًا فى ذلك، قل لى فخامتكم كم ستدفع مقابل كل جلدة أسوط بها نفسى؟

أجاب دون كيخوتى:

– إذا كان علىَّ أن أدفع لك، سانشو، طبقًا لما تساويه عظمة هذا الدواء وقوته، فإن كنز فينسيا، ومناجم بوتوسى، ستكون قليلة لتعويضك، تحسس أنت ما لديك من نقودى، وضع سعر كل جلدة.

أجاب سانشو:

– هى ثلاثة آلاف وثلاثمئة جلدة، وقد جلدت نفسى حتى خمس جلدات، ويبقى ما تبقى، ويدخل فى هذا الرقم هذه الجلدات الخمس، ولنتحدث، إذن، عن

ثلاثة الآلاف وثلاثمئة؛ كل واحدة منها مقابل ربع ريال (ولن أقبل بأقل، حتى لو وصّانى كل العالم بذلك)، فيكون المجموع ثلاثة آلاف وثلاثمئة ربع ريال، وثلاثة الآلاف تجمع ألفًا وخمسمئة نصف ريال، وهذه تعمل سبعمئة وخمسين ريالاً، والثلاثمئة تعمل مئة وخمسين نصف ريال، وهذه تعمل خمس وسبعين ريالاً، وبجمع سبعمئة وخمسين مع خمسة وسبعين، تصير ثمانمئة وخمسة وعشرين ريالاً. سأخصم هذه الكمية مما أحمله من نقود فخامتكم، وسأدخل بيتى غنيًا وراضيًا، حتى لو كنت مجلودًا جلدًا حسنًا؛ لأنه لن يصيد السمك من لم يدلّ الشبك، ولا أقول أكثر!

أجاب دون كيخوتى:

- أوه، سانشو المبارك! أوه سانشو الودود، وكم نحن مجبرون على إنقاذ دولثينيا، وأنا علىَّ خدمتك كل الأيام التى ستمنحنى إياها السماء فى الحياة! إذا هى عادت إلى كينونتها المفقودة (وليس ممكنًا إلا أن تعود) سيتحول بؤسها إلى سعادة، وهزيمتى إلى انتصار بهيج وسعيد، وانظر، سانشو، متى تحب أن تبدأ العقاب، لأنه إذا تعجلت تنفيذه أضفت لك مئة ريال.

أجاب سانشو:

- فى هذه الليلة نفسها دون تأخير، وحاول فخامتكم أن نفعل ذلك فى العراء، تحت سماء مفتوحة أفتح لها لحمى.

وصل الليل المنتظر بأعلى الأشواق فى قلب دون كيخوتى، وخلال النهار بدا له أن عجلات عربة (أبولو) قد أصابها العطب، وأن اليوم يطول أكثر من المعتاد، وهذا يحدث تمامًا مع العشاق الذين لا يستطيعون أن يضبطوا حسابهم أبدًا على إيقاع مشاعرهم ورغائبهم. وأخيرًا دخلوا وسط أشجار فينانة، كانت منحرفة

قليلاً عن الطريق، حيث تركا بردعة الحمار وسرجه وروثينانتى مهجورين؛ افترشا الحشائش الخضراء وتعشيا من تموين سانشو، الذى صنع من شكيمة رأس الحمار سوطًا جبارًا مرنًا؛ وهكذا ابتعد حوالى عشرين خطوة عن سيده، داخل أكمة من أشجار الدردار. دون كيخوتى، الذى رآه يذهب فى شجاعة وبريق، قال له:

– انظر، صديقى، لا تمزق نفسك، أعط مكانًا أن تنتظر بعض الجلدات أخواتها الأخريات، ولا ترغب فى الإسراع بالسباق، حتى لا تتوقف أنفاسك فى منتصفه، أحب القول، لا تضرب نفسك فى غلظة، حتى لا تعدم الحياة قبل إدراك الرقم المرغوب. وحتى لا نضل فى العدد سواء بالنقص أو الزيادة، فإنى سأقف جانبًا أعد الجلدات التى تسوط بها نفسك مستعملاً هذه المسبحة، ناصرتك السماء طبقًا لحسن نيتك.

أجاب سانشو:

– المشترى الجيد لا يغلو عليه الغالى، أحب أن أجلد نفسى دون قتلى، بطريقة تؤلمنى، وفى هذا لابد أن يتركز حكم هذه المعجزة.

تعرى سانشو على ملأ من فراغ الريف، كاشفًا عن النصف الأعلى من جسمه، وتلقف الحبل، وبدأ يضرب نفسه، وبدأ دون كيخوتى فى العد. وما إن ضرب نفسه ست جلدات أو ثمان، حتى أحس بوطأة الخدعة وضآلة سعر الجلدة، ومتوقفًا قليلاً قال لسيده إن هذا يسمى خداعًا، لأن كل جلدة من هذه تستحق نصف ريال، وليس ربعًا. قال دون كيخوتى:

– واصل سانشو صديقى، ولا يغم عليك، فإنى أضاعف قيمة السعر.

لكن الخبيث توقف عن ضرب نفسه، وبدأ فى سوط الشجر مع بعض التنهدات بين الحين والحين، حتى بدا أنه مع كل تنهيد أن الروح تنتزع من بدنه،

وكانت نفس دون كيخوتى حنونة، خائفًا مــن أن تنتهــى حياتــه قبــل أن ينجــز المرغوب، بسبب انعدام فطنة سانشو، قال له:

– بحق حياتك، صديقى، ليقف هذا الشأن عند هذا، ويبدو لى أن هذا العلاج فى غاية الخشونة، ومن الطيب إعطاء وقت للوقت، فلم تكسب ثامورا (كــل البضاعة) فى ساعة. أكثر من ألف جلدة، إذا لم أكن قد أخطأت فى العدد، قد أنزلتها على جسمك، وهى تكفى الآن، فإن الحمار (ولنتكلم بالبلدى) الذى يعانى من الحمولة، تقطم ظهره قشة.

أجاب سانشو:

– لا، لا، يا سيدى، لا تتكلم بالنيابة عنى، لأن "مقابل المال المدفوع فلا بأس من ساعد مقطوع". ابتعد فخامتكم قليلاً بعيدًا، واتركنى أضرب نفسى ولو حتى الألف الثانية، فنوبتين فوق هذه النوبة نكون قــد أكملنــا دور اللعــب، وسيفيض بعض الملابس.

قال دون كيخوتى:

– إذن، أنت تجد نفسك جيد الاستعداد، ساعدك الله، واضرب نفــسك، وأنــا سأبتعد.

عاد سانشو إلى مهمته مع حماس كبير، حتى إنه قد سلخ قلف أشجار عديدة، وكانت صرامة جلده لنفسه قد بلغت هذا الحد، ورافعًا مرة الصوت، منــزلاً جلــدة هائلة على شجرة دردار، قال :

– هنا سوف تموت (أيها القديس الرنين)(*)، وكل من معك من المرنّين!

هرع دون كيخوتى فى الحال على رنين الصوت الجريح، ولضربة السوط المحكمة، وأمسك قيد الحمار المتحول إلى سوط معقود، وقال لسانشو:

– لن يسمح القدر، سانشو صديقى، أن تفقد حياتك لإسعادى، فهى لا بد أن تدوم من أجل زوجتك وأولادك، فلتنتظر دولثينيا فرصة أفضل؛ وأنا أكتفى بالأمل القريب، وسأنتظر حتى تستعيد قوى جديدة، حتى ينتهى هذا الشأن بسعادة الجميع.

أجاب سانشو:

– إذن، يا سيدى، ما تحبه سيكون، وعلى الرحب والسعة، وغطنى بعباءتك، ملقيًا بها على هذا الظهر، فإنى أعرق، ولا أحب أن آخذ برد؛ فالمعذبون المستجدون يمرون بهذا الخطر.

وهكذا فعل دون كيخوتى، وأحكم لباس سانشو العريان وغطاءه، والذى نام حتى أيقظته الشمس، وبعدها مضيا يتقدمان فى طريقهما، والذى قطعاه بوصولهما إلى قرية كانت على بعد ثلاثة فراسخ من مكان الجلد. وترجلا فى فندق صغير، وقد تعرف دون كيخوتى على أنه فندق، وليس قلعة ذات كهف عميق أو سلم متحرك يرفع وينصب؛ فبعد أن هزموه، كان عقله أرجح فى كل الأشياء التى يراها، كما سيقال الآن. أسكنوه فى صالة أرضية، كان معلقًا على جدرانها أنواع من البساط، مليئة بالرسومات كعادة أهل الريف، وعلى بساط منها كان مرسومًا بيد رسام ردىء واقعة اختطاف إيلينا، عندما حملها الضيف الجرىء إلى (مينيلاو)،

(*) الاسم الذى أطلقاه على البكالوريا شمشون!

وعلى آخر كان مرسومًا قصـــة (ديدو) وقصة (إينياس)، هى فوق برج عال، كما لو كانت تعطى إشارات بما يشبه نصف ملاءة فراش إلى الضيف الهارب، الـــذى واصل هروبه بحرًا فى فرقاطة أو مركب شراعية. لاحظ فى القصتين، أن (إيلينا) لم تكن مخطوفة بمزاج متعكرٍ كثيرًا؛ لأنها كانت تضحك مخفية شيئًا، وفى دهــاء ساخر، لكن الجميلة (ديدو)، ظهرت بدموع فى حجم البندق فى عينيهـــا، وعنـــدما رأى هذا دون كيخوتى، قال:

– هاتان السيدتان كانتا فى غاية التعاسة لولادهما فى زمانهما، وأنا فى غاية التعاسة لعدم ميلادى فيه، فلو لاقيت هؤلاء السادة ما احترقت طروادة وما دمرت قرطاجنة، ففقط بقتلى باريس كانت اختفت نكبات كثيرة.

قال سانشو:

– أنا أراهن أن فى تلك الأزمان القديمة لم تكن هناك حانات، ولا شـــىء مثـــل النـــزل والفندق اليوم، أيضًا لم تكن هناك دكاكين للحلاقـــين، حيـــث لا تنتشر قصة مآثرنا مرسومة، ولكنى أود أن ترسم بيد فنان أفضل من الرسام الذى رسم تلك القصص.

قال دون كيخوتى:

– معك حق، سانشو، لأن هذا الرسام مثل (أوربانيخا)، وهو رســـام كـــان فى (أوبيدا)، عندما سألوه ماذا يرسم، أجاب: "ما يخرج "، وإذا كـــان يرســـم بالصدفة ديكًا كان يكتب تحته: "هذا ديك"؛ حتى لا يفكروا أنه أنثى ثعلب. بهذه الطريقة، يبدو لى سانشو، أن الرسام أو الكاتب (وكلاهما شىء واحد) الذى أخرج إلى النور قصة هذا الدون كيخوتى الجديد، قد رسم "ما يخرج"، أو قد يكون مثل الشاعر الذى كان فى البلاط واسمه (ماوليون)، الذى كان يجيب فجأة على كل ما يسألونه، وعندما سأله أحدهم ماذا يعنى Deum de

Deo أجاب (من أين يعطى). لكن لنترك هـــذا جانبًا، قل إذا كنت تفكر فى جلد نفسك سانشو، فى نوبة جديدة، وهل تحب أن يكون ذلك تحت سقف أو فى العراء؟

أجاب سانشو:

– بحق الله، سيدى، هذا أفضل فى البيت عنه فى العراء، ورغم كل ذلـــك فـــإنى أحب أن يكون بين الشجر، حيث يبدو لى إن الأشجار ترافقنى وتـــساعدنى على أداء عملى بشكل عجيب.

أجاب دون كيخوتى:

– إذن، لا ينبغى أن يكون الأمر كذلك، وإنما، من أجل أن تستعيد القوة، علينا تأجيل الباقى لإنجازه فى قريتنا، التى سنصل إليها بعد غد على أكثر تأخير.

قال سانشو إنه سيستجيب لهوى سيده، لكنه يود أن ينهى فى وقت قـــصير ذلـــك الشأن، بتأكيد حار وقبل أن تبرد أحجار الطاحونة، لأن فى التأخير اعتاد أن يكمن فـــى أحيان كثيرة الخطر، أدعو الله أن يوفق وأنت بالمطرقة تطرق، ويساوى أكثـــر "أخـــذ واحد" من "سوف أعطيك اثنين"، وعصفور فى اليد خير من نسر فى الجو.

قال دون كيخوتى:

– لا أمثال أكثر، سانشو، لأنه يبدو لى أنك تعود كما كنت من قبـــل، فـــتكلم كلامًا سهلاً ناعم الانزلاق، دون تعقيد وتشبيك، كما قلت لـــك مـــرات كثيرة؛ وسوف ترى أن رغيفًا واحدًا سوف يساوى مئة.

أجاب سانشو:

– لا أدرى أى حظ مائل كان حظى، لا أستطيع أن أقول عبارة دون مثـــل، ولا أرى مثلاً وإلا ويبدو عبارة، لكنى سأصلح من شأنى لو أستطيع.

وعند هذا توقف حديثهما فى ذلك الحين.

الفصل الثانى والسبعون

عن كيف وصل دون كيخوتى وسانشو إلى القرية

خلال كل ذلك اليوم، انتظر دون كيخوتى وسانشو الليل فى ذلك الفندق الصغير، أحدهما كى ينهى فى العراء تحت سقف السماء نوبة تعذيب نفسه، والآخر كى يرى نهايتها، التى تتركز حولها مشاعره. وصل خلال الانتظار إلى الفندق أحد المسافرين فوق جواد، مع ثلاثة خدم أو أربعة، قال أحدهم لمن كان يبدو عليه أنه سيدهم:

– هنا يمكن لفخامتكم، أيها السيد دون ألبارو تارفى، أن تقضى فترة القيلولة، فالفندق يبدو نظيفًا ومنعشًا.

وعند سماع دون كيخوتى هذا قال لسانشو:

– عندما تصفحت ذلك الكتاب الخاص بالقسم الثانى من قصتى، يبدو لى أن عينى عبرت هذا الاسم.

أجاب سانشو:

– من الممكن تمامًا أن يكون هوهو، لندعه يترجل ثم نسأله.

ترجل الفارس، وفى مواجهة مخدع دون كيخوتى أعطاه الفندقى صالة أرضية مزينة بأبسطة أخرى مرسومة مثل غرفة دون كيخوتى. بقى القادم الجديد بملابس صيفية، وخرج إلى بوابة الفندق، وكان المدخل متسعًا ومنعشًا، حيث كان دون كيخوتى يتمشى، فسأل الفارس دون كيخوتى:

– إلى أين تقصد أيها السيد المهذب؟

أجاب دون كيخوتى:

– إلى قرية قريبة جدًا، أنا أحد أبنائها، وإلى أين تقصد فخامتكم؟

أجاب الفارس:

– أنا يا سيدى ذاهب لغرناطة، فهى موطنى.

أجاب دون كيخوتى:

– أحسن بها من موطن، لكن قل لى فخامتكم، مهذبًا منكم، اسمك؛ لأنه يبدو لى أنه سيهمنى معرفته أكثر مما تقدر الكلمات على إيضاحه.

أجاب الضيف:

– اسمى دون ألبارو تارفى.

وعلى هذا أجاب دون كيخوتى:

– يقينًا إن فخامتكم لابد أن تكون دون ألبارو تارفى الذى يمضى مطبوعًا فى الجزء الثانى لقصة دون كيخوتى دى لامانشا، الحديثة الطبع والخروج للنور على يد مؤلف حديث.

أجاب الفارس:

– إننى نفس الشخص، وذلك الدون كيخوتى الشخصية الرئيسية فى تلك القصة، كان صديقًا حميمًا جدًا لى، وكنت أنا من أخرجه من قريته، أو على الأقل، حفزته على حضور بعض المبارزات فى سرقسطة، حيث كنت فى

طريق السفر إليها، وفى الحقيقة لقد صنعت من أجله الكثير مما يصنعونه لأصدقائهم، ولقد أنقذته من يد جلاد كان سينفذ حكمًا بجلده على ظهره، بسبب تهوره الزائد عن حد المعقول.

– قل لى، دون البارو هل أشبهه فى شيء ذلك الدون كيخوتى الذى تحكى عنه؟

أجاب الضيف :

– لا، بكل تأكيد.

قال دون كيخوتى (صاحبنا):

– وهذا الدون كيخوتى، كان يحمل معه حامل دروع اسمه سانشو بانثا؟

أجاب دون ألبارو:

– نعم؛ ومع أنه مشهور بالملاحة، لم أسمع من فمه أملوحة واحدة قط.

هنا قال سانشو بانثا:

– هذا ما أعتقده أنا كثيرا؛ لأن قول كلام ظريف ومليح ليس فى مقدرة الجميع، وذلك السانشو الذى تتحدث عنه فخامتكم، أيها السيد المهذب، يجب أن يكون محتالاً عظيمًا، وباردًا سمجًا، ولصًّا فى نفس الوقت، فسانشو بانثا الحقيقى هو أنا، ولطفى وملاحتى مثل المطر، وإذا لم تصدق جرب بنفسك وامش ورائى، على الأقل لمدة عام، وسترى أن طرائفى تتساقط منى فى كل خطوة، وهذه الطرائف، والكثيرة، ودون أن أعرف أنا فى أغلب الأحيان ما أقول، تجعلنى أجعل الناس يضحكون فى كل مرة يسمعوننى، ودون كيخوتى دى لامانشا الحقيقى، والمشهور، والشجاع، والذكى، والعاشق، والمزيل

العدوان، وحامى الطلاب واليتامى، ومأوى الآرامل، وقاتل الصبايا، والذى لا يخلص إلا لسيدة وحيدة هى دولثينيا دل توبوسو، هو هذا السيد الموجود الآن، والذى هو سيدى، وأى دون كيخوتى آخر أو سانشو بانثا آخر هو مسخرة، وأوهام أحلام.

أجاب دون ألبارو:

– بحق الله، هذا أصدقه، لأنك فى أربع عبارات خرجت منك طرائف أكثر مما سمعت طول أمد بعيد من كلام سانشو الآخر، وكان كلامه كثيرًا، وكنت أرى فيه أكولاً أكثر منه متحدثًا ظريفًا، وسفيها أكثر منه مليحًا، وأيضًا لا أشك أن السحرة الذين يطاردون دون كيخوتى الطيب، قد طاردونى مع دون كيخوتى الشرير. لكن لا أدرى ماذا أقول، وأجسر على القسم أننى تركته مودعًا فى بيت للمجانين بطليطلة، حتى يشفونه، والآن ينبثق دون كيخوتى آخر، وإن كان مختلفًا كثيرًا عن دون كيخوتى الخاص بى.

قال دون كيخوتى:

– أنا لا أعرف إذا كنت طيبًا، لكن أعرف أن أقول بأننى لست الشرير، والدليل على ذلك أحب أن تعرف فخامتكم، سيدى دون ألبارو، أننى فى كل أيام حياتى لم أذهب إلى سرقسطة، وذلك قبل أن تقول لى إن ذلك الدون كيخوتى الشبح قد وجد فى مسابقات المبارزة فى تلك المدينة، فلم أرغب دخولها حتى أعرض جهارًا أمام لحى العالم كذبته، وهكذا توجهت مباشرة إلى برشلونة، أرشيف الذوق والتهذيب، وملاذ الغرباء، ومضيفة الفقراء، ووطن الشجعان، وثأر المقهورين، والتجاوب اللطيف للصداقات، أما فى الموقع

والجمال فهى وحيدة. ومع أن الحوادث التى وقعت لى فيها لم تكن سارة كثيرًا، وإنما ذات أحزان ثقيلة، فإننى أتحملها بعيدًا عنها مقابل أننى رأيتها. أخيرًا، أيها السيد دون (ألبارو تارفى)، أنا دون كيخوتى دى لامانشا، نفس الذى تحكيه الشهرة، وليس ذلك الشقى الذى أراد انتحال اسمى، والتشرف بألمعيتى، وأنا أتوسل لفخامتكم، مع كل احترامى، أن تعمل إقرارًا أمام عمدة هذه القرية، أن فخامتكم لم يسبق لكم رؤيتى طول أيام حياتكم، قبل الآن، وأننى لست الدون كيخوتى المطبوع فى القسم الثانى، ولا سانشو بانثا هذا خادمى هو نفس سانشو الذى عرفته فخامتكم.

أجاب دون ألبارو:

– سأقوم بهذا فى ترحيب وسرور، مع أنه من المدهش وجود اثنين دون كيخوتى، واثنين سانشو فى نفس الوقت، وبكل هذا التوافق فى الأسماء والتخالف فى الأفعال، وأعود للقول وأؤكد أننى لم أر ما رأيت، وأننى لم يجر لى ما جرى لى.

قال سانشو:

– بدون شك إن فخامتكم لا بد أن يكون مسحورًا مثل السيدة دولثينيا دل توبوسو، وأصلى للسماء أن يكون فك سحر فخامتكم بجلدى مرة أخرى ثلاثة آلاف وثلاثمئة جلدة، التى أقوم الآن بإنجازها بنفسى من أجلها، وهذا أفعله دون أى غرض شخصى.

قال دون ألبارو:

– أنا لا أفهم الجلد هذا.

أجابه سانشو إنه تطول حكايته، لكنه سيحكيه إذا تشاركوا في نفس الطريق بعد ترك الفندق. وخلال هذا حانت ساعة الغداء؛ فأكل دون كيخوتي ودون ألبارو معًا، وتصادف الطعام مع قدوم عمدة القرية إلى الفندق مع كاتب رسمي، وأمام هذا العمدة طلب دون كيخوتي بناء على بلاغ منه أن حقه يستدعي أن دون ألبارو تارفي ذلك الفارس الذى كان ماثلاً هناك أمامه، يقر فى حضرته أنه لم يعرف دون كيخوتي دى لامانشا والذى كان ماثلاً هناك أيضًا، وأنه لم يكن ذلك الذي يسير مطبوعًا فى قصة عنوانها" القسم الثاني من دون كيخوتي دى لامانشا"، والمؤلفة على يد شخص اسمه إبيّانيدا، من سكان قرية توردسيياس. أخيرًا اعتمد العمدة الإقرار بالطريقة القانونية، حتى ينال كل صلاحيات مثل هذه الوثيقة، وبهذا بقى دون كيخوتي وسانشو فى غاية الابتهاج، كما لو كان يهمهما كثيرًا مثل هذا الإقرار، وعدم الخلط بين الاثنين دون كيخوتي والاثنين سانشو أعمالاً وأقوالاً. تبادل كل من دون كيخوتي ودون ألبارو كثيرًا من المجاملات، أبرز خلالها الفارس المانشاوى فطنته وذكاءه، حتى أحبط دون ألبارو تارفى من الخطأ الذى كان واقعًا فيه، مما جعله يظن أنه كان مسحورًا دون جدال، حيث كان يلمس بيده اثنين من الكيخوتات بكل هذا التقابل والتناقض.

وصل المساء، ورحلوا عن تلك القرية، وعلى بعد نصف فرسخ اختلف اتجاههما فانفصلا فى طريقين، أحدهما يقود إلى قرية دون كيخوتي، والآخر الطريق الذى كان لا بد أن يسلكه دون ألبارو، وخلال هذه المسافة القصيرة حكى دون كيخوتي نكبة هزيمته، وسحر دولثينيا وعلاجها، وكل هذا أعاد دون ألبارو إلى التعجب من جديد. عند المفترق، احتضن دون ألبارو كلاً من دون كيخوتي وسانشو، وواصل طريقه، كما فعل دون كيخوتي. قضيا هذه الليلة فى العراء وسط بعض الأشجار، لإفساح الفرصة لسانشو لإنجاز عقوبته، وأكملها بالفعل بنفس

طريقته الليلة الماضية على حساب قشور جذوع شجر الدردار، والتى فاض بها العذاب دون ظهر سانشو، الذى حافظ عليه كثيرًا، فلم تنل الجلدات منه حجم ذبابة، حتى لو وقعت عليه. لم يفت المخدوع دون كيخوتى عدُّ ضربة واحدة خلال حسابه؛ فوجد بجمع حصيلة الليلة مع الليلة الماضية يصير المجلود ثلاثة آلاف وتسعًا وعشرين. ويبدو أن الشمس قد استيقظت مبكرة لترى التضحية والضحية، وعلى ضوئها واصلا الطريق، متحدثين عن خداع دون ألبارو، وعن حسن تصرفهما بالحصول على إقرار أمام العدالة وبكل تلك الأصالة.

ذلك اليوم وتلك الليلة واصلا الطريق دون أن يحدث لهما شيء جدير بالحكاية، سوى إكمال سانشو لمهمته، مما جعل دون كيخوتى فى غاية السرور، منتظرًا قدوم النهار، فلعله يعثر فى الطريق على دولثينيا التى تم فك سحرها، ومع مواصلة الطريق لم يصادف أى امرأة، يحاول أن يتعرف فى وجهها على دولثينيا دل توبوسو، واثقًا دون شك أن ميرلين لا يمكن أن يكذب، وبهذه الأفكار وغيرها صعدا طريقًا يعلو تلًا، من فوقه اكتشفا قريتهما، ولم يكد سانشو يراها حتى ركع على ركبتيه وقال:

– أيها الوطن المحبوب، افتح عينيك، وانظر سانشو بانثا ابنك يعود إليك، وإن لم يكن غنيًا جدًا، فهو قد تم جلده جدًا. افتح أيضًا أيها الوطن ذراعيك واستقبل ابنك دون كيخوتى، وإن كان يأتى مهزومًا على يد غريب، فهو أيضا يأتى منتصرًا على نفسه، حسبما قال لى هو بنفسه، وهذا أكبر انتصار يمكن الطموح إليه. نقود، نعم، أحمل، لأنهم "وإن كانوا جلدونى جيدًا، فإنى الفارس المغوار يعود فوق الحمار"(*) .

(*) أصل هذه العبارة أن من تنفذ عليهم عقوبة الجلد كان يزفونهم على حمار للتشهير بهم، وسانشو، فى شيء من الخبث يريد بها حرفية العبارة، التى ترجمناها فى صياغة مختلفة عن نفس ترجمتها فى الفصل (٣٦) من هذا القسم للسياق!

قال دون كيخوتى:

- دعك من هذه السفاهات، وهيا ندخل قريتنا بالقدم اليمنى، حيث نحول خيالاتنا إلى أرض حرام، ومعها تدبير أمر ممارسة حياتنا الرعوية.

وبهذا هبطا المنحدر (بعد صعود التل من الناحية المقابلة) وذهبا إلى قريتهما.

الفصل الثالث والسبعون

التطير الذى أصاب دون كيخوتى عند دخول القرية، مع حوادث أخرى تزين وتعطى مصداقية لهذه القصة العظيمة

حسبما يقول سيدى حامدى، عند دخول القرية وجدا طفلين يتشاجران عند أجران القرية، قال أحدهما للآخر:

– لا تتعب نفسك، بيريكّيو، فلن تراها طول أيام حياتك.

سمعه دون كيخوتى، وقال:

– سانشو ألا تدرك، أيها الصديق، ما قاله هذا الطفل: "لن تراها طول أيام حياتك"؟

أجاب سانشو:

– وماذا يهم ما قاله هذا الطفل؟

أجاب دون كيخوتى:

– ألا ترى أنه بتطبيق هذه العبارة على مقصودى، فإنها تعنى أننى لن أرى دولثينيا أبدًا بعد ذلك ؟

أراد سانشو أن يجيبه، عندما عاقته رؤية أرنب برى يـأتى فـى هـذا الفضاء العراء، مطاردًا بكلاب صيد كثيرة وصيادين، والذى من خوفـه جـاء للانكماش تحت أقدام حمار سانشو. التقطه سانشو بهدوء، وقدمه لدون كيخوتى الذى كان يردد:

، أرنب برى يهرب، كلب صيد يطارده، دولثينيا لا تظهر.

Signum, Malum Signum - (*) Malum

قال سانشو:

– أمر فخامتكم غريب، لنفترض أن هذا الأرنب هـو دولثينيـا دل توبوسـو، وكلاب الصيد هذه التى تطاردها هم السحرة الأشرار الذين حولوهـا إلى فلاحة، وهى تهرب، وأنا ألتقطها، وأضعها بين يديك، وها أنت تأخذها بين ذراعيك، وتدللها، أى بشرى شر وفأل سوء فى هذا؟

اقترب الطفلان المتشاجران ليريا الأرنب، وسـأل سانـشو أحـدهما لمـاذا يتشاجران؟ أجيب عن طريق من قال " لن تراها طوال أيام حياتك"، إنه أخـذ مـن الطفل الآخر شبكة صيد الجدجد(**)، ويفكر فى ألا يعيدها إليه طول أيـام الحيـاة. أخرج سانشو من كيسه أربعة أرباع ريال، وأعطاها للطفل نظير الشبكة، ووضـع الشبكة فى يد دون كيخوتى، وقال له:

– هاهى يا سيدى التطيرات ممزقة ومدمرة، ولا علاقة لها الآن أكثر مـن ذلـك بحياتنا، وذلك حسبما أتصور، مع أننى عبيط، أنها راحت مع سحابات العام

(*) لا تينى يريد القول: بشرى سوء ، بشرى سوء.

(**) النص الأصلى يقول (قفص جد جد)، ولأن القفص مذكر ويفسد السياق فقد تم التصرف.

الماضى. وإذا لم أسئ التذكر، فإنى سمعت قسيس قريتنا يقول إنه ليس من شأن الأشخاص المؤمنين والعقلاء إعطاء اعتبار لهذه الصبيانيات، وحتى فخامتكم بنفسك قلت لى نفس الشيء فى الأيام الماضية، إن كل مسيحى يعتد بالتطير يعد عبيطًا، وبالتالى فليس علينا اللجاج فى هذا، وإنما علينا التقدم ودخول قريتنا.

وصل الصيادون، وطلبوا أرنبهم، وأعطاه لهم دون كيخوتى، وتقدما، وعند مدخل القرية صادفوا القسيس فى مرج صغير مع البكالوريا كارّاسكو يصليان. وجدير بنا معرفة أن سانشو بانثا طرح فوق الحمار، وفوق لفة الأسلحة، العباءة المزينة بألسنة اللهب، والتى لبسها فى قلعة الدوق الليلة التى عادت ألتسيدورا فيها للحياة ، كى يستخدمها مخزنًا لتموينه. أيضًا أراح الزعبوط فوق رأس الحمار، وكان هذا تحولاً جديدًا وزينة، لم ير فى مثلها قط أى حمار فى العالم.

وفى الحال تعرف القسيس والبكالوريا كارّاسكو عليهما، واتجها نحوهما بذراعين مفتوحين. ترجل دون كيخوتى واحتضنهما فى حرارة، والصبيان بحدة بصرهم التى لا علاج لها لمحوا زعبوط الحمار، فتجمعوا لمشاهدته، وكان أحدهم يقول للآخر:

– تعال، وسوف ترى حمار سانشو بانثا "أكثر أناقة من منجو"، ودابة دون كيخوتى أكثر نحافة اليوم عن أيامها الأولى.

وأخيرًا، محاطين بالصبية ومصحوبين بالقسيس والبكالوريا، دخلا القرية، واتجه الجميع إلى بيت دون كيخوتى، فوجدوا على بابه الأمة وابنة الأخت، اللتين قد وصل إلى مسامعهما خبر وصولهما، أيضًا وصلت الأخبار إلى تيريزا بانثا زوجة سانشو، والتى شعثاء الشعر نصف عارية ممسكة فى يدها سانشيكا ابنتها

هرعت إلى بيت دون كيخوتى لرؤية زوجها، ولما رأته ليس حسن الهندام كما ظننت ما تكون عليه صورة الحكام، قالت له:

– **كيف تحضر هكذا، يا زوجى، فالظاهر أنك قادم على قدميك ومترجلاً، وهيئتك هيئة المخلوع من الحكم أكثر من هيئة حاكم.**

أجاب سانشو:

– **اسكتى، تيريزا، فمرات كثيرة يسلكون أسنانهم دون امتلاك اللحم والشحم، وهيا إلى بيتنا، وهناك سأسمعك عجائب. النقود، نعم، أحمل منها الكثير، وهذا ما يهم، وقد كسبتها بحيلى، دون أذى لأحد.**

قالت تيريزا:

– **هات نقودًا، ولتكن كسبتها من هنا أو من هناك، أو بأى شكل كان كسبتها، فليس فى هذا اختراع لعادة جديدة فى العالم.**

احتضنت سانشيكا أباها، وسألته عما إذا كان قد حمل لها شيئًا، فقد كانت تنتظر قدومه انتظارهم لأمطار مايو، وممسكًا لها من حزامها، وزوجته من يدها، ساحبة الابنة الحمار خلفها، ذهبوا لبيتهم، تاركين دون كيخوتى فى بيته، تحت سلطة الأمة وابنة الأخت، وفى صحبة القسيس والبكالوريا كارّاسكو.

دون كيخوتى، دون نظر للساعة أو الظروف، انفرد فى تلك اللحظة بالاثنين، وفى عبارات قليلة حكى لهما عن هزيمته، والواجب الذى التزم به من عدم الخروج من القرية عامًا كاملاً، وهو أمر سوف ينفذه حرفيًّا، دون انتقاص ذرة، بوصفه فارسًا مشّاء، مجبرًا طبقًا لانضباط نظام الفروسية المشّاءة، وقد فكر فى أن يصير راعيًا ذلك العام، والتسلى بالوحدة فى فضاء الريف، حيث إن وجوده

مطلق السراح يمكن أن ينتشله من مشاعره الغرامية وأفكارها، ممارسًا ذلك العمل الرعوى وفضائله، وأنه يتوسل إليهما، إن لم يكن لديهما الكثير لعملــه، ومقيــدين بأعمال أكثر أهمية، أن يرغبا فى أن يكونا رفيقيه، فهو سيشترى نعاجًــا، وقطيعًــا كافيًا، ويعطيهما أسماء رعاة، وأن عليهما أن يعرفا أن الشيء الأكثر جوهرية فــى هذا الشأن قد أُنجز بالفعل، لأنه لديه أسماؤهم موضوعة علــى يديــه، وهــى علــى المقاس. طلب منه القسيس أن يقول لهما الأسماء، أجاب دون كيخوتى إنه عليــه أن يحمل اسم كيخوتيث، والبكالوريا، الراعى كارَّاسكون، والقسيس الراعى كــورامبرو (قسيسامبرو)؛ وسانشو بانثا الراعى بانثينو. ذهلوا جميعًا عند رؤية الجنــون الجديــد لدون كيخوتى، ولكن حيث إنه لن يرحل عنهم مرة أخــرى مــن القريــة لممارســة فروسيته، آملين شفاءه خلال ذلك العام، وافقوا على مقاصده الجديدة، وأجازوا جنونه فى ثوبه الذكى، عارضين مرافقته فى هذا العمل الجديد.

قال شمشون كارَّاسكو:

– وأكثر، كما يعرف الجميع، فأنا شاعر مشهور، وفى كل خطوة سوف أنظــم شعرًا رعويًا أو بلاطيًا أو كما يعر بخاطرى، حتى نتسلى فى هذه المجاهل الــتى سوف نتحرك فيها، والذى هو أكثر ضرورة، سادتى، هو أن يختار كل واحد فينا اسم الراعية التى يفكر فى الاحتفاظ بها فى شــعره، وألا نتــرك جــذع شجرة، مهما بلغت صلابته، إلا ونعنونه، ونحفر عليه اسمها، كما هى العادة والعرف بين الرعاة العشاق.

أجاب دون كيخوتى :

– هذا كلام فى مكانه، رغم أننى متحرر من البحث عن اسم راعية مصطنعة، فهــا هى هناك من لا نظير لها دولثينيا دل توبوسو، مجد هذه الشطآن، وزينــة هــذه

المروج ذات الألوان، وغذاء الجمال فى إحسان، وزبدة الملاحة على مر الزمان، وفى الآخر، هى مدار الثناء مهما كان فيه من مبالغة، ولو فى عنفوان.

قال القسيس :

– هذا حق، لكننا سوف نبحث هناك عن راعيات أليفات، إذا لم يوافقونا لـــن يخذلونا.

وأضاف شمشون كاراسكو لهذا:

– وإذا افتقدناهن نعطيهن أسماء الراعيات المطبوعة فى الصور، والتى يمتلئ بهـــن العالم: فيلداس، وإستوريليس، وديانا، وفيريداس، وجالتياس، وبيليـــارداس، واللائى يتم بيعهن فى الميادين، ومن السهل علينـــا شـــراؤهن، واعتبـــارهن معشوقاتنا. وإذا، سيدتى، وبعبارة أفضل، راعيتى، تسمى بالـــصدفة (أنـــا)، سوف أحتفى بها تحت اسم (أناردا)، وإذا كانت (فرانسيسكا) سأسميها أنـــا (فرانثينيا)، ولو كانت (لوثيا) ستصير (لوثيندا)، فكل شىء يجـــوز هنـــاك، وسانشو بانثا، إذا أراد الدخول فى هذه (الأخوة الصوفية)، يستطيع الاحتفاء بزوجته تيريزا بانثا تحت اسم (تيريزيانا).

ضحك دون كيخوتى من تطبيق الاسم وامتدح القـــسيس قـــراره الـــشريف والأمين امتداحًا لا نهاية له، وعرض من جديد صحبته كل الوقت الذى ليس عليـــه فيه رعاية واجباته الإجبارية، وبهذا قاما بتوديعه، فى رجـــاء ونـــصح أن يعتنـــى بصحته، وأن يريح نفسه بكل وسيلة ممكنة.

أراد الحظ أن تستمع أمته وابنة أخته حديثهم الثلاثـــى، وهكـــذا لـــم يرحـــل القسيس وكاراسكو حتى دخلت المرأتان على دون كيخوتى، وقالت ابنة الأخت:

– ما هذا، أيها السيد الخال، الآن ونحن نفكر أن فخامتكم قد عدت للبقـــاء فى البيت، وقضاء حياة هادئة ووقورة فيها، تفكر أنت أن تـــضع نفـــسك فى متاهات جديدة، وتصير:

أيها الراعى الحبيب القادم

أنت الراعى الحبيب الراحل

والحقيقة، أن أعواد الشعير أصبحت أصلب من أن تصلح لعمل ناى صغير(*).

أضافت الأمة:

- وهل تستطيع فخامتكم قضاء القيلولة فى قيظ الريف، وليالى الشتاء الرطبة، وساعات عواء الذئاب؟ بالتأكيد، هذا عمل رجال أقوياء دبغتهم الشمس، وتربوا من أجل هذه المهمة تقريبًا وهم فى المهد، وحتى لو اخترنا بين السيئ، فالأفضل أن تكون فارسًا مشَّاء من أن تكون راعيًا. انظر سيدى، خذ بنصيحتى، ولا أعطيها لك وأنا متخمة بالخبز والنبيذ، وإنما أنا صوَّامة فوق الخمسين من عمرى. ابق فى بيتك، وأدر ممتلكاتك، واعترف فى الكنيسة كثيرًا، وساعد الفقير، وعلى مسئولية أحملها، إذا خرج لك هذا الأمر بسوء.

أجابهما دون كيخوتى:

- اسكتا، يا ابنتىَّ، أنا أعرف جيدًا ما أفعل. احملانى للسرير، يبدو لى أننى لست فى حالة طيبة جدًّا، وتأكدا، سواء كنت فارسًا مشَّاء أو راعيًا يسير فى الريف، فلن أترك دائمًا الاهتمام بما هو ضرورى لحياتكما، كما سوف تريانه فى أفعالى.

والابنتان الطيبتان (الأمة وابنة الأخت هكذا كانتا لا شك) حملتاه لفراشه، وقدمتا له الطعام، وما أمكن من وسائل الراحة والسكينة.

(*) يستخرج الأطفال فى الريف السوق اللدنة المجوفة لعمل ناى بدائى صغير فى طول إصبع بشرط أن تكون السوق خضراء لأنها عند جفافها ينهدم تجويفها ولا تصلح للصفير، وتريد القول إن صحته لم تعد تسمح بخروجه للرعى .

الفصل الرابع والسبعون

عن كيف سقط دون كيخوتى مريضًا، والوصية التى عملها، وموته

كما أن الأشياء الإنسانية ليست خالدة، ماضية دائمًا للانحدار من بدايتها حتى تصل لغايتها الأخيرة، وخاصة حيوات بنى آدم، وكما أن حيــاة دون كيخــوتى لا تتصف بتميز سماوى حتى توقف مجرى انحدارها، وصلت نهايتها وتمامها عنــدما كان هو عن ذلك خليّ البال، وربما كان سبب هذا أحزانه التى يسببها لــه رؤيــة نفسه مهزومًا، أو أمر السماء، والتى هكذا أرادت، فقد انزرعت فى جسمه سخونة، أبقته فى السرير ستة أيام، زاره خلالها القسيس مرات عديدة، ومثله فعل كارّاسكو والحلاق، أصدقاؤه، ولم يغادر موقعه عند رأس سريره سانشو بانثا، حامل دروعه الطيب. وهؤلاء، لاعتقادهم أن ذلك بسبب حزن هزيمته، وعدم تحقق رغبتــه فــى تحرير دولثينيا من سحرها، حاولوا بكل السبل الممكنة إدخال البهجة على نفــسه، قائلاً له كارّاسكو بأن يرفع من روحه، وأن ينهض حتى يبدأ مهمته الرعوية، والتي من أجلها قد انتهى من تأليف قصيدة رعاة، تضرب كل قصــائد (سانثارو)، وأنــه قد اشترى بالفعل من حرّ ماله كلبين مشهورين للصيد لرعايــة القطيــع، أحــدهما يسمى (بارثينو) والآخر (بوترون)، باعهما له مربى المواشي (كينتانار)، لكن مــع كل هذا لم يغادر دون كيخوتى حزنه.

استدعى أصدقاؤه الطبيب، قاس النبض، لم يسره كثيرًا، وقــال إنــه بــين احتمال قرب الساعة بين لا ونعم، عليه تقبل الرعاية الدينية لخلاص الــروح، لأن

الجسم فى خطر. استمع دون كيخوتي هذا بنفس فيها سكينة، لكن لم يستمع إليه هكذا أمته وابنة أخته، وحامل دروعه، الذين بدأوا فى البكاء الحنون، كما لو كان ميتًا بين أيديهم. وكان رأى الطبيب، أن الأسى والانغلاق على الذات يقضيان عليه، رجا دون كيخوتي الجميع أن يتركوه وحده، لأنه كان يريد أن ينام قليلاً. وتركوه، ونام دفعة واحدة، كما يقولون، ست ساعات، ولطول نومه فكرت الأمة وابنة الأخت أنه سيبقى هناك فى النوم، واستيقظ فى نهاية الساعات الست، ورافعًا صوته عاليًا قال :

– تعالى الله القادر الجبار الذيَ أنعم عليَّ إنعامًا كبيرًا! فى النهاية، فإن رحمته ليس لها حدود، ولا يقلل منها أو يعوقها ذنوب البشر.

كانت ابنة الأخت كلها آذان لعبارات الخال، وبدا لها أنها أكثر اتساقًا مما تعود قوله من عبارات، على الأقل في ذلك المرض، سألته:

– ما الذى تقوله يا سيدى؟ هل لدينا جديد؟ أى رحمة هذه، أو أى ذنوب للبشر؟

أجاب دون كيخوتى:

– الرحمة هى ما فعله الله بى فى هذه اللحظة، وهى رحمة لا تعوقها ذنوبى، لى الآن عقل حر وشفاف، دون ظلال مظلمة من الجهل، تلك التى غطته بها قراءتى المريرة والمستمرة لكتب الفروسية الكريهة، وها أنا أتعرف على ترهاتها وغشها، ولا يثقل عليَّ إلا أن هذا الانكشاف لخداعها وصل متأخرًا كثيرًا، ولا يترك لى وقتًا للتعويض بقراءة كتب أخرى تكون نورًا للنفس، وأنا أحس، يا ابنة أختى، أننى على وشك الموت، وأود عمل شيء مقابل ما يفوتنى من قدرة على التعويض، بأن أشرح للجميع أن حياتى لم تكن بذلك السوء، حتى تترك لى لقب المجنون، وعلى الرغم من أننى كنته، لا أريد تأكيد

هذه الحقيقة فى موتى. نادى، يا صديقى، أصدقائى القسيس وشمشون كارّاسكو البكالوريا، والأسطى نيكولاس الحلاق، لأنى أود الاعتراف، وعمل وصيتى.

لكن أعفت ابنة الأخت من هذا العمل بدخول الثلاثة، ولم يكد دون كيخوتى يراهم، حتى قال :

– باركوا لى، أيها السادة، فأنا لم أعد دون كيخوتى دى لامانشا، وإنما أنا (ألونسو كيخانا)، الذى منحتنى عاداتى لقب (الطيب)، وأنا الآن عدو لأماديس دى جاولا، ولكل العشيرة التى لا تحصى من نسله، والآن كل القصص الفاسدة للفروسية المشّاءة هى عدوة لى ، وأنا أعترف بسفاهتى، والخطر الذى وضعنى فيه أننى قرأتها، وأنا بفضل رحمة الله تم تقويم عقلى، وأنا الآن أستنكرها.

عندما سمع الثلاثة هذا اعتقدوا، دون شك، أن جنونًا جديدًا قد تملكه، قال له شمشون:

– والآن يا سيد دون كيخوتى، لدينا خبر أن السيدة دولثينيا قد انفك سحرها، فهل يخرجك هذا من السرير؟ والآن ونحن على وشك أن نصير رعاة حتى نقضى الحياة فى غناء، كأمراء، هل تود أن تصبح ناسكًا؟ اسكت وحياتك! عد إلى نفسك واترك هذه الحكايات.

أجاب دون كيخوتى:

– ما كان (من حكايات) حتى الآن كانت لضررى، أما التى توجد متخللة موتى، فبعون السماء هى فى صالحى. أنا، أيها السادة أحس أننى أموت مسرعًا حتى المدى. اتركوا المزاح جانبًا، وأحضروا لى كاهنًا لأعترف أمامه، وكاتبًا رسميًا

لعمل وصيتى؛ ففى مثل هذه اللحظات الحرجة الإنسان لا يمزح مع الروح، وهكذا، أتوسل، أنه خلال استقبال السيد القسيس لاعترافى، اذهبوا لإحضار الكاتب الرسمى.

نظر كل منهم للآخر متعجبين من عبارات دون كيخوتى، ومع أنهم فى شك، أحبوا أن يعتقدوا فيما يقول، وكانت إحدى الإشارات من أنه يموت كانت السهولة الشديدة التى انتقل بها من الجنون إلى العقل، لأن ما أضافه للعبارات السابقة، من عبارات أخرى كثيرة، حسنة القول واضحة الإيمان، مصيبة للقصد، بدد كل شك، وأدى للاعتقاد فى عقله.

جعل القسيس الجميع يخرجون، وبقى وحيدًا معه، واعترف له. والبكالوريا شمشون كارًاسكو ذهب لإحضار الكاتب الرسمى، وبعد قليل عاد معه، ومع سانشو بانثا، هذا السانشو (الذى عرف بالأخبار من شمشون عن حال سيده)، فما أن وجد الأمة وابنة الأخت يبكيان حتى تحول إلى مرجل بريق الدموع. انتهى الاعتراف، وخرج القسيس يقول:

– حقيقة إنه يموت، وحقيقة إنه عاقل، إنه ألونسو كيخانا الطيب، نستطيع الدخول حتى يعمل وصيته.

هذه الأخبار صنعت دفعة مرعبة لعيون أمته وابنة أخته وسانشو بانثا حامل دروعه الطيب، فانفجرت دموعهم مع ألف تنهيدة ونحيب من أعماق الصدور، لأنه حقيقة كما قيل فى إحدى المرات، إنه عندما كان دون كيخوتى (ألونسو كيخانا الطيب) دون ألقاب، وأنه عندما كان دون كيخوتى دى لاما نشا، فى الزمنين كان هادئ السلوك، طيب المعشر، ليس لهذا فقط كان محبوبًا جدًا من أهل منزله، بل أحبه هكذا كل من عرفوه. دخل الكاتب الرسمى مع الباقين، وبعد أن دبج الكاتب مقدمة الوصية، ونظم دون كيخوتى شئون الروح مع القسيس بكل تلك الهالات

الدينية المناسبة، كان الوصول إلى الوصايا، فقال:

- بند، إرادتى فيما يتعلق ببعض النقود التى لى مع سانشو بانثا الذى اتخذته خادمًا أيام جنونى، ولأنه كان هناك بينى وبينه بعض الحسابات، وأخذ وعطاء، أحب ألا يكون مدينًا لى بها وألا يطلبَ منه أى حساب، فقط إذا تبقى بعضها بعد أن يدفع لنفسه ما أدين له به، فالباقى له، والذى قد يكون قليلاً، هنيئًا مريئًا لـــه، وإذا كنت وأنا مجنون قد وعدته بحكومة ولاية، فإنى وأنا عاقل أود أن أمنحـــه مملكة، فبسبب بساطة معاملته وإخلاصها يستحق ذلك.

وملتفتًا إلى سانشو، قال له:

- سامحنى، يا صديقى، من إتاحة فرصة لأن تبدو مجنونًا مثلى، جاعلاً إياك تقع فى الخطأ الذى وقعت فيه، من أنه وجدت وتوجد فروسية مشّاءة فى العالم.

أجاب سانشو باكيًا:

- آى! لا تمت فخامتكم، سيدى، وإنما خذ بنصيحتى، وعش سنوات طويلة، لأن أعظم جنون يرتكبه الإنسان أن يترك نفسه يمــوت دون ســبب، ودون أن يقتله أحد، ودون أن تقضى عليه أيد غريبة، باستثناء أيدى الحزن. انظر، لا تكن كسولاً، وإنما انهض من هذا السرير، وهيا بنا إلى فضاء الريف الفسيح مرتدين لبس الرعاة، كما اتفقنا، فلعلنا وراء شجرة نجـــد الـــسيدة دونيـــا دولثينيا دل توبوسو متحررة من سحرها، فلا شىء أفضل يستحق أن نراه. وإذا كنت تموت من حزن أنك هزمت، فألق الذنب علىَّ قائلاً بـــأننى لأنى لم أحسن ربط السرج على روثينانتى أسقطوك، وبخاصة أن فخامتكم قد تكون رأيت فى كتبك للفروسية أنه شىء عادى أن يسقط بعض الفرسان فرســـانًا آخرين، والمهزوم اليوم منتصر غدًا.

قال شمشون:

– هكذا هو الأمر، وسانشو فى غاية الصدق فيما يتعلق بمثل هذه الحالات.

قال دون كيخوتى:

– أيها السادة، مهلاً، ففى أوكار العام السابق لا توجد عصافير هذا العام، أنا كنت مجنونًا، وأنا الآن عاقل، كنت دون كيخوتى دى لاما نشا، وأنا الآن ألونسو كيخانا الطيب، كما سبق أن قلت. هل يمكن أن يفلح ندمى وحقيقتى مع فخامتكم فى إعادة ما كان منكم لى من تقدير وليواصل السيد الكاتب عمله:

بند، أترك كل ممتلكاتى، بباب مغلق(*)، لأنتونيا كيخانا، ابنة أختى، والتى هى حاضرة، بعد أن تستخرج منها أولاً ومن أطايبها، ما يكفى لسداد ما أوصى به. وأول ما يرضينى أن تعمله هو دفع مرتب أمتى عن كل الوقت الذى خدمتنى فيه، مع زيادة عشرين دينارًا نظير ثوب لها. أترك أوصياء لتنفيذ الوصية السيد القسيس والسيد البكالوريا شمشون كارّاسكو، وهما حاضران.

– بند، إرادتى، إذا أنتونيا كيخانا ابنة أختى أحبت الزواج، تتزوج من رجل يتم أولاً الحصول على معلومات عنه تؤكد أنه لا يعرف شيئًا اسمه كتب الفروسية، وفى حال التحرى عن أنه يعرف هذه الكتب، ومع ذلك تحب ابنة أختى الزواج منه، وتتزوج منه، تفقد كل ما أوصيت به، ويقوم أوصيائى بتوزيعه على أعمال خيرية حسب إرادتهم.

(*) بعد تصفية أى ديون عليها أو متطلبات.

- بند، أتوسل إلى أوصيائى المذكورين إذا أتاح لهم الحظ الطيب معرفة المؤلف الذى يقولون إنه ألف قصة منشورة عنوانها (القسم الثانى من مآثر دون كيخوتى دى لاما نشا)، أن تطلبوا منه بكل رجاء ممكن، أن يعفو عنى، لأنى أعطيته الفرصة لكتابة ترهات كبرى وكثيرة، مثل ما هو مكتوب فى القصة؛ لأننى أرحل من هذه الحياة بشك فى أننى أعطيته دافعًا لكتابتها.

أغلق بهذا وصيته، ودخل فى إغماء، وتمدد طولاً وعرضًا فى السرير. اضطرب الجميع، وهرعوا لعلاجه، وفى ثلاثة أيام بعد هذا اليوم الذى كتب فيه الوصية، كان يغشى عليه معظم الوقت، كان البيت فى ضجيج وعجيج، لكن رغم هذا كانت ابنة الأخت تأكل والأمة تعاقرها الكأس، وسانشو بانثا يبتهج، فإن أمر الميراث ذاك يمسح بعض الشىء أو به يعتدل فى ذاكرة الوريث الألم، الذى من المعقول أن يخلفه الميت، فى النهاية وصل اليوم الأخير لدون كيخوتى، بعد أن أدى الشعائر الدينية واستنكر بعبارات قادرة وكثيرة كتب الفروسية.

كان الكاتب حاضرًا، وقال إنه لم يقرأ قط فى أى كتاب للفروسية أن فارسًا مشاء مات فى سريره بكل هذه السكينة، مع استقبال الشعائر الدينية، كما فعل دون كيخوتى الذى بين المشاعر والدموع ممن كانوا موجودين أسلم روحه أريد القول أنه مات.

وما إن رأى ذلك القسيس طلب من الكاتب أن يعطيه شهادة بأن ألونسو كيخانا الطيب، المشهور بين العامة باسم دون كيخوتى دى لاما نشا، قد اجتاز هذه الحياة الدنيا، ومات موتًا طبيعيًا، وأن طلب هذه الشهادة لعدم إتاحة الفرصة لأى كاتب آخر غير سيدى حامدى بن إنجيلين أن يبعثه من الموت بشكل زائف، ويعمل قصصًا لا تنتهى عن مآثره. هذه النهاية نالها شريف (لامانشا)، والذى لم يحب أن يذكر قريته بدقة سيدى حامدى حتى يترك كل المدن والقرى فى (لامانشا) تتقاتل

فيما بينها لنيل بنوته لها، وادعائه لنفسها، كما تقاتلت مـــدن اليونـــان مـــن أجـــل (هوميروس).

الكتابة الجديدة على قبره، لا تتضمن رثاء سانشو وابنة أخت دون كيخـــوتى وأمته، على الرغم من ذلك وضع له شمشون كارًاسكو هذا:

يرقد هنا الشريف القوى

مَن وصل إلى المدى

من شجاعته حتى يعلم

أن الموت لم ينكسر

فى حياته إلا عندما أماته

قلّ العالم فى عينيه

كان شبح وغول

العالم فى تلك البرهة

وقد نال قدرة المصداقية

بأن عاش مجنونًا ومات عاقلاً

وسيدى حامدى لعظيم فطنته قال لريشة كتابته: هنا ستبقين معلقة فى مكانك العلى، بهذا السلك، ولا حتى سأعرف، ريشتى الحميمة، إذا ما كنت جيـــدة التقلـــيم والسن. فى مكانك ستعيشين دهورًا طويلة إذا لم يأت مؤرخون قصاصون مُـــدعون وأشرار ينزلونك كى يدنسوك، لكن قبل أن يصلوا إليك، يمكنك أن تتحدثى وتقولى:

" رويدكم أيها المحتالون الصغار

لن يمسني أحد منكم

فأنا تلك الريشة

التي فكت رصد كنـــز كان

محفوظًا لي: كنـــز الملك الطيب

دون كيخوتي ولد لي وحدي، وأنا ولدت له وحده، هو عرف تحقيق الأمجاد، وأنا عرفت الكتابة، اثنان في واحد وحدنا، علـــى الــرغم مـــن الكاتـــب المزيـــف (التورديسكو)(*)، والذي تجاسر أو قد يتجاسر، على الكتابة بريشة نعام خشنة وسيئة المنظر مآثر فارسي الهمام، فهذا الحمل ليس لكتفيه وهذا الشأن ليس لذكائه البارد، والذي سوف تحذرينه لو عرفته بأن يترك عظام دون كيخوتي المتعبة مستريحة في قبرها، والتي هي الآن بالفعل قد تهرأت، وألا يحمله، ضد كل قوانين الموت إلـــى قشتالة القديمة، جاعلاً له يخرج من مدفنه، حيث فعلاً وحقًا يرقـــد ممـــدد اليـــدين والرجلين، مستحيلاً عليه إنجاز اليوم الثالث(**)، وخرجة جديدة ليخدع كثيرات، كما فعل فرسان كثيرون من المشـــائين، ويكفي أن فعل ذلك مرتين، معطيًـــا ســـرورًا وطربًا لكل الناس الذين وصل خبره إليهم. وبهذا سوف تنجزين وظيفتـــك التقيـــة، ناصحة جيدًا من لا يحبك جيدًا، وأنا سأبقى راضيًا ومتفاخرًا أن كنت أول من تمتع

(*) نفس الكاتب المشار إليه من قبل من قرية تورديسياس (أراجون).

(**) ينظر ثربانتس إلى المسرح معتبرًا القسمين الأول والثاني مسرحية من يومين (فصلين)، ليوم ثالث لهما، مغلقًا الطريق بموت بطله أمام مجئ مؤلف مجهول آخر ليكتب قسمًا ثالثًا (اليـــوم الثالث).

بثمار مكتوبك كاملاً، وحسبما يرغب، من ثَم، فلم تكن لى رغبـــة أخـــرى ســـوى استثارة حفيظة الناس ضد القصص المصطنع، والملـــىء بالترهـــات فـــى كتـــب الفروسية المشّاءة التى تتعثر بقصص رفيقى دون كيخوتى الحقيقى، هذا القـــصص المزيف لابد أن يسقط دون شك.

وأخيرًا، أسعد الله أوقاتك أيها القارئ العزيز ...

المؤلف فى سطور

ميجيل دى ثربانتس سابيدار، وشهرته ثربانتس

ولد فى قرية بجوار مدريد " ألكال دى إنارس" ٢٩ سبتمبر ١٥٤٧، درس فى مدريد. انتقل إلى إيطاليا ليشارك جنديًا فى معركة ليبانتو عام ١٥٧١ الشهيرة التى هزم فيها الأسطول التركى الذى لا يقهر. أظهر شجاعة منقطعة النظير، وجرحت هزم فيها الأسطول التركى الذى لا يقهر. أظهر شجاعة منقطعة النظير، وجرحت يده اليسرى جرحًا أصابها بالشلل، وظل هذا الجرح مثل وسام فخر به طوال حياته المليئة بالبؤس وسوء الحظ، ابتداء من الميلاد فى أسرة فقيرة، والصدف التى أوقعته فى ورطة الاتهام بارتكاب جرائم لم يرتكبها، أدخلته السجن مرة، وأرغمته قبلها على مغادرة إسبانيا إلى إيطاليا، وعند عودته من إيطاليا أوقعته فى الأسر فى يد الأتراك بالجزائر ليقضى خمس سنين قاسية هناك. عند عودته إلى مدريد اشتغل بالأدب كاتبًا للقصة والرواية والمسرح والشعر الغنائى دون تفرغ، حيث اضطر للعمل بجمع المكوس للأسطول الإسبانى على هيئة محاصيل زراعية. وعام ١٦٠٥ يفاجئ العالم بنشر القسم الأول من العمل الأدبى العمدة على مستوى الأدب الإسبانى والأوروبى والعالمى ، إنه رواية " الشريف العبقرى دون كيخوتى دى لامانشا" واعدًا بنشر القسم الثانى، الذى لم ينشره إلا تحت ضغط الغضب بسبب قيام كاتب ردئ بنشر القسم الثانى فى مدينة سرقسطة . ينشر القسم الثانى عام ١٦١٥ قبل موته بشهور، حيث رحل عن هذا العالم فى ٢٣ أبريل عام ١٦١٦ فى نفس اليوم والساعة التى رحل فيها شكسبير، والرجلان المؤسسان، ثربانتس المؤسس الأول للرواية الحديثة فى عمله هذا "دون كيخوتى" وشكسبير المؤسس الثانى بعد الإغريق للتراجيديا.

المترجم فى سطور :

سليمان العطار

أستاذ الأدب الأندلسى فى قسم اللغة العربية وآدابها بكلية آداب القاهرة، لــه بجانب أعماله العلمية في تخصصه دراسات حــول الأدب الإســبانى وترجمــات لأعمال من الأدب الإسبانى والأمريكى اللاتينى أشهرها "مائة عــام مــن العزلــة" لغارثيا ماركيز (نوبل ١٩٨٢)، و"خلية النحل" لإميليو ثيلا (نوبل ١٩٨٨).

التصحيح اللغوى: ياسر مكى
الإشـــراف الفنى: حسن كامل